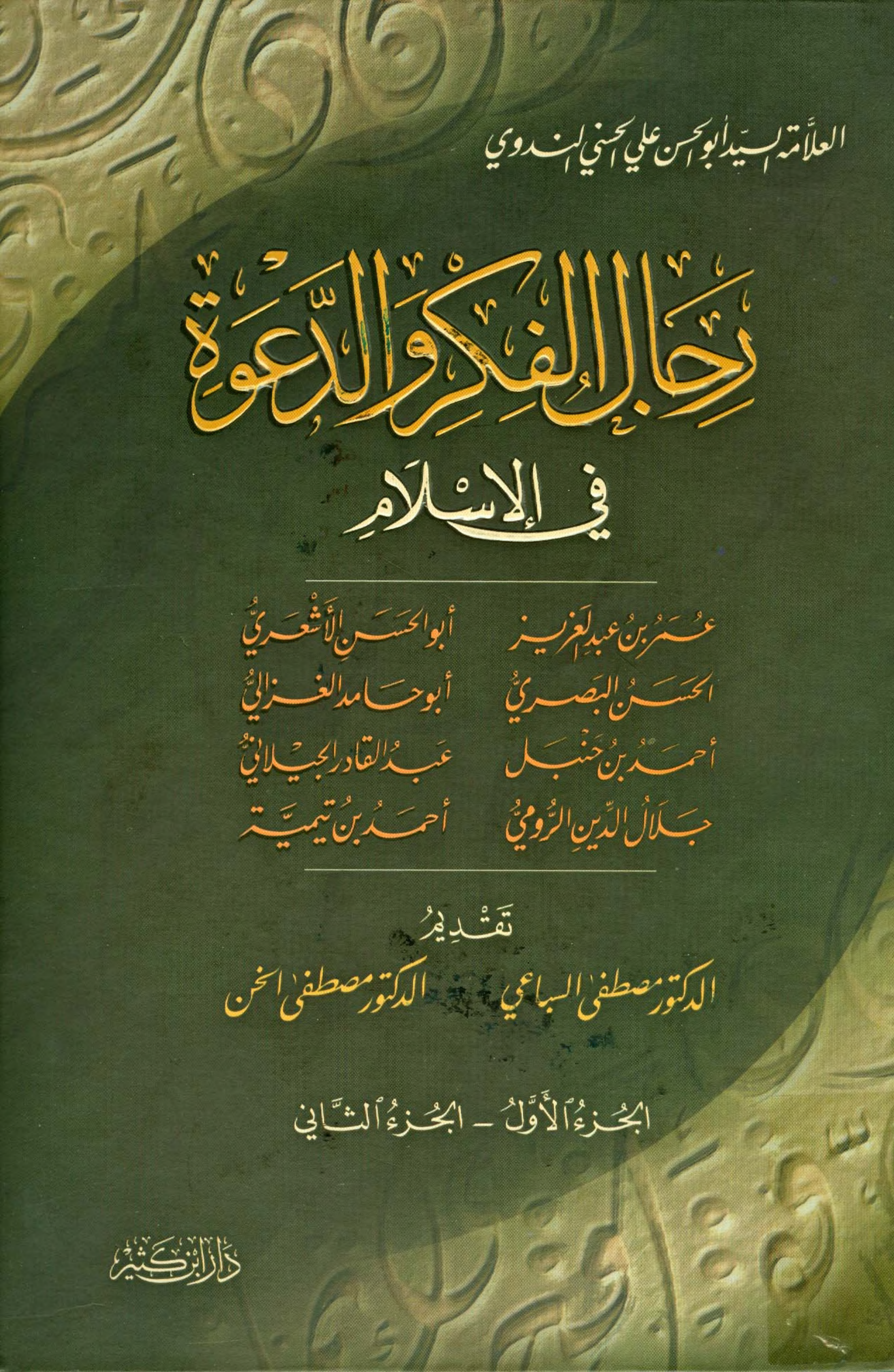

العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي
رجال الفكر والدعوة
في الإسلام
عمر بن عبد العزيز
أبو الحسن الأشعري
الحسن البصري
أبو حامد الغزالي
أحمد بن حنبل
عبد القادر الجيلاني
جلال الدين الرومي
أحمد بن تيمية
تقديم
الدكتور مصطفى السباعي
الدكتور مصطفى الخن
الجزء الأول - الجزء الثاني
دار ابن كثير

العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

رجال الفكر والدعوة في الإسلام

عمر بن عبد العزيز
الحسن البصري
أحمد بن حنبل
جلال الدين الرومي

أبو الحسن الأشعري
أبو حامد الغزالي
عبد القادر الجيلاني
أحمد بن تيمية

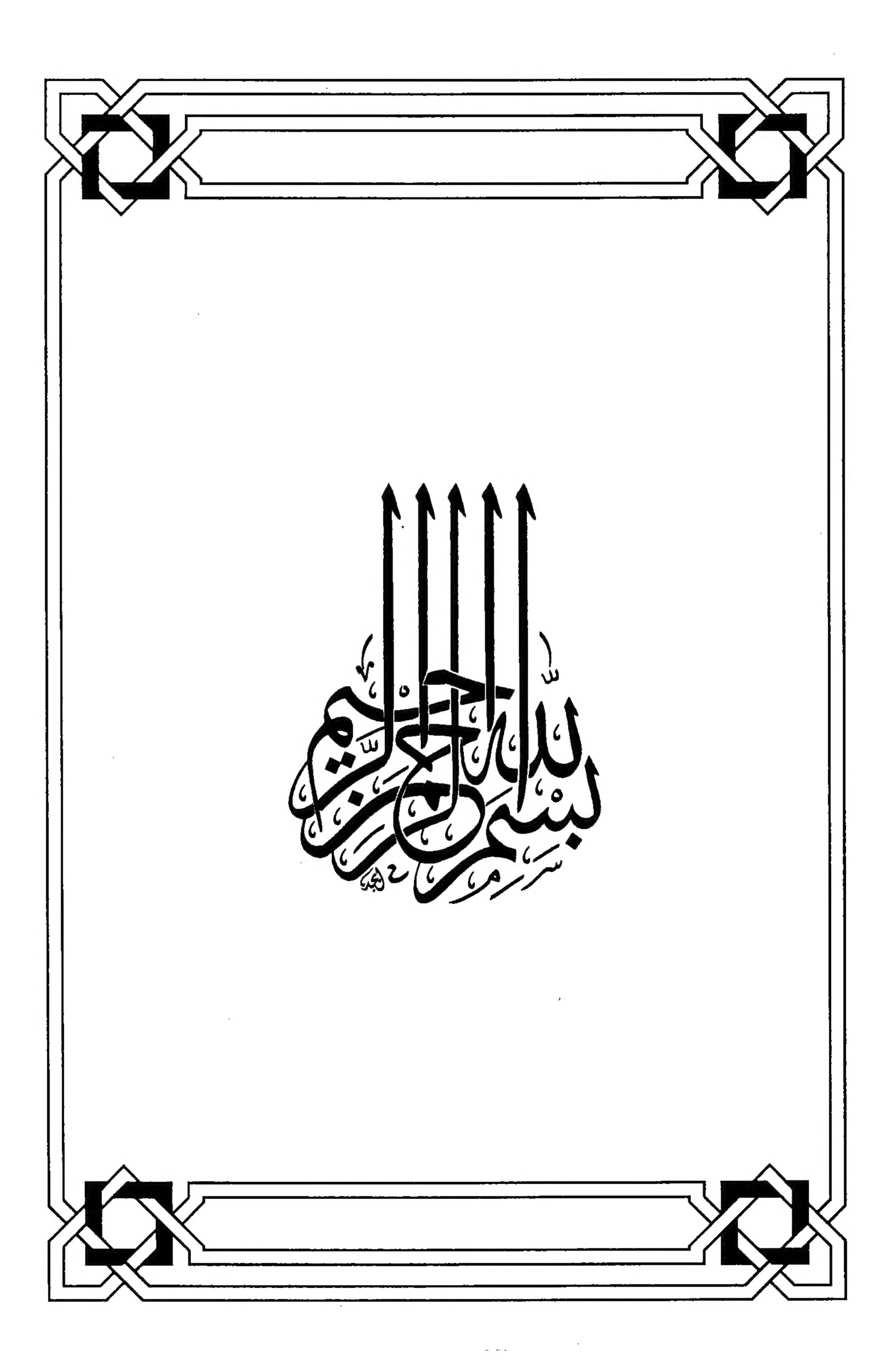
تقديم

الدكتور مصطفى السباعي
الدكتور مصطفى الخن

الجزء الأول - الجزء الثاني



دمشق . بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم



طبعة دار ابن كثير الثالثة

1428 هـ ــ 2007 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ــ بيروت

الرقم الدولي

الموضوع : تراجم

العنوان : رجال الفكر و الدعوة 4/1

التأليف : العلامة الشيخ ابو الحسن الندوي

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 1616

القياس : 17×24

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 2.6 كغ

تصميم الغلاف : سامو برس - بيروت

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت



دمشق ــ حلبوني ــ جادة ابن سينا ــ بناء الجابي

ص.ب : 311 ــ هاتف : 2225877 ــ 2228450 ــ فاكس : 2243502

بيروت ــ برج أبي حيدر ــ خلف دبوس الأصلي ــ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ــ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

بين يدي الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، حمداً يوافي نعمه ، ويكافىء مزيده ، ويدفع نِقمه ، أحمده حمد الشاكرين ، وأسأله سؤال الصالحين ، وهو الله القادر رب العالمين.

والصَّلاة والسلام على سيِّدنا محمد ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، أرسله تعالى هداية للخَلْق ، فأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغُمة ، صلى الله عليه وعلى آله ، ورضي عن أصحابه أجمعين.

أمَّا بعد:

فإنَّ سِيَر الصالحين ، والعلماء العاملين ، يدفع مسيرةَ الأمة نحو المجد والعلياء ، فهؤلاء الجهابذة هم مصابيح الطريق لمن ابتغى الرقي ، وفتَّش عن القدوة الحسنة؛ ليحتذي بها ، ويجعلها نصب عينيه ، فهي المثال الرائع ، والنموذج الصالح؛ من أجل تعزيز البناء ، وتشييد الصريح القويم لكل متطلبات التقدم في مختلف ميادين الحياة.

وهذا الكتابُ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ سار بين الناس كالهواء والنُّور ، فكان مُتنفَّساً للورى ، حيث يجدون في صفحاته تاريخ الأمة مرسوماً بكلمات معبِّرة ، ويلحظون زبدة الأفكار تتهادى بين طيَّاته ، ولقاح الألباب يشرئب بعنقه؛ تيَّاهاً بتلك الفرائدة المتألِّقة التي نجبت ، وضاء شعاعها ،

فكانت بلسماً للجراح ، وغذاء للفكر والروح ، وحروفاً من نار ونور على جبين التاريخ .

وقد أراد المؤلِّف ـ رحمه الله ـ من صناعة كتابه هذا : إصلاح الأمَّة ، وضرورة عودتها السريعة للنهل من تاريخها العتيد ، وورود ينابيع الإسلام في إشراقته عبر العصور؛ وبذا يأخذ الكتاب لقطات مختلفة من بطون التاريخ ، ويعرضها في سير رجال عظام ، قدَّموا كلَّ مفيد ، فكانوا زعماء الإصلاح الإسلامي .

هذا ، وإنَّ الطبعة الثانية من كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» نقدِّمها إلى القرَّاء الأعزَّاء ، والتي اعتنينا فيها بالمراجعة الدقيقة ، وضبط النصوص ، والتعليقات وتخريج الأحاديث بين المعقوفتين ، وإيراد النصوص التي أرادها العلاَّمة المؤلِّف كاملةً غير منقوصة ، ممَّا يشفع لنا بإعادة طبع الكتاب ، عسى أن يجد فيه القرَّاء مبتغاهم ، بما يحقِّق مطلوبَهم ، ويدفعهم للقراءة والتعمُّق والاستفادة من زاد الفكر ، وخلاصة الدراسات التاريخية الإسلامية .

وجزى الله دارَ ابن كثير كلَّ خير ، على ما بذلَتْ من عناية بهذا الكتاب ، وغيره من مؤلَّفات العلاَّمة الندوي ، فكانت العنايةُ واضحةً للعيان في جودة التصحيح ، وجمال الإخراج ، والمسحة الجمالية في الطباعة والتجليد .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يقبل جهد كلٍّ منَّا في خدمة هذا الكتاب خالصاً لوجهه ، إنَّه سميع مجيب .

دمشق في ١/ رمضان ١٤٢٤هـ

كتبه المعتز بالله

عبد الماجد الغوري

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور

مصطفى السباعي رحمه الله تعالى

في العالم الإسلامي اليوم حركةٌ قويةٌ ترمي إلى الرجوع للإسلام كشريعة تنظم شؤون الحياة ، وتُقيم الموازين القسطَ بين الناس ، وتُحقِّق للمسلمين تحرير ديارهم من الاستعمار ، وتحريرَ عقولهم من الجَهالة والخُرافة ، وتحريرَ مجتمعهم من الظلم والفقر والفوضى .

وترى هذه الحركةُ أنَّ الإسلام ـ في ينابيعه الصافيةِ وتراثهِ السليم في عهد السلف الصالح ـ زعيمٌ بتحقيق هذه الأهداف في أتمِّ وجه وأكمله ، كما أنه هو الطريقُ الذي لا بدَّ منه لنهوض العالم الإسلامي من كَبْوَتِه وسُباته .

وهذه الحركةُ قائمةٌ في كل قطر من أقطار العرب والمسلمين ، تجدها في القاهرةِ ، ودمشقَ ، وبغداد ، وعمانَ ، ومكةَ ، والكويت وغيرها من الأقطار العربية ، كما تجدها في باكستان ، والهندِ ، وأندونيسية ، والأفغان ، وإيرانَ وغيرها من بلاد الإسلام ، ولها في كل بلد قادةٌ تميَّزوا بها لِصدْقٍ في عزائمهم للنهوض إلى هذه الغاية ، والوضوحِ في إعلان مبادئها والتبشير بها بين جماهير أمَّتهم .

ومِن أعلام هذه الحركة المباركةِ الأستاذُ أبو الحسن النَّدْوي مؤلِّفُ هذا الكتاب ، فهو عالِمٌ مُصلح ، وداعية مخلصٌ ، دَأب منذ آتاه الله العلمَ على الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه ، وبرحلاته المتعدِّدة إلى أقطار العروبة والإسلام ، وبجولاته الموفَّقة في ميادينِ الدعوة ، حتى إنه اليوم ليُعَدُّ من أبرز أعلام الإسلام المصلحين في ديار الهند ، له تلاميذه المنتشرون في كلِّ بلد ، وله كتُبه ومؤلَّفاته التي تتميَّز بالدقة العلمية ، وبالغوصِ العميق في تَفهُّمِ أسرار الشريعة ، وبالتّحليل الدقيق لمشاكلِ العالم الإسلامي ووسائلِ معالجتها ، عدا عمَّا يمتاز به من روح مُشرقة ، وخُلُق نبوي كريم ، ومعيشة تُذكِّرُكَ بعلماء السلف الصالح في زُهدِه وتقشُّفِه وعبادته وكرامةِ نفسه .

وهذا الكتابُ الذي نُقدِّمه اليوم لقرَّاء العربية صورةٌ واضحةٌ لأفكار الأستاذ الندوي ، ومُيوله الإصلاحية ، ولِفَهْمِه العميق للتاريخ الإسلامي ولروح الإسلام الصافية المشرقة ، وما علق بها ـ في العصور الأخيرة ـ من غبار ، وما أصابها من انحراف ، وبذلك يَسُدُّ هذا الكتابُ ثَغْرَةً في دراسة التاريخ الإسلامي ، كنا وما نزال نشعر بالحاجة إليها ، إذ يتحدَّث عن تاريخ الإصلاح في حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية في فترات من تاريخ الإسلام في الماضي، كما يعرض لنا صوراً واضحة لأبرز زعماء الإصلاح الإسلامي مُنذ العصر الأُموي .

وإنِّي ـ وإن لم يُسعدني الحظُّ بالاستماع إلى هذه المحاضرات حين ألقاها الأستاذ الندوي في المدرج الكبير للجامعة السورية بدمشق ـ إذ كنتُ في رحلة علمية إلى جامعات أوربة ـ قد لمستُ آثارها العميقةَ في نفوس الذين استمعوها من أعلام الفكر وطلاب كلية الشريعة ، وغيرهم من طلبة الجامعة ، وكما سمعتُ الثناءَ الكثير عنها في الأوساط العلمية والإصلاحية ، ثم أُتيحَ لي أن أقرأها قبل تقديمها إلى المطبعة ، فاستفدتُ منها كثيراً ، وسألتُ اللهَ أن يَمدَّ في عمر الأستاذ الندوي لإكمال هذا البحث القيِّم الذي بدأَهُ ، حتىٰ يصل بنا

الحديث عن زُعماء الإصلاح في العصر الحاضر ، وخاصة في الهند[١] ، التي لا نعلم عن تاريخ مصلحيها الإسلاميين إلاَّ النَّزْر اليسير ، وإنها لأمانة لا ينهض بعبئها إلاَّ مثلُ الأستاذ الندوي في نفاذ بصيرته ، وإشراقِ روحه ، وواسع علمه ، وجميلِ مُثابرته .

وإنِّي باسم كلية الشريعة أشكر الأستاذَ الندوي على تلبية رجائها بإلقاء هذه المحاضرات .

فجزاه اللهُ خير الجزاء ، وشكر له جهده ، وبارك في علمه وحياته .

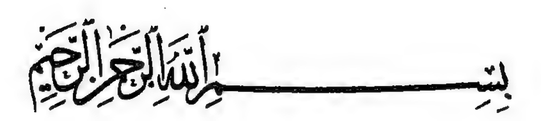
دمشق : المحرم ١٣٧٨	الدكتور مصطفىٰ السباعي[٢]
آب (أغسطس) ١٩٥٨	عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق

---

(١) [وقد كتب العلاَّمة المؤلِّف من زعماء الإصلاح في الهند كالإمام السرهندي والإمام شاه ولي الله الدهلوي ضمن هذه السلسلة ، اقرأ عنهما في الجزءين الثالث والرابع] .

(٢) توفي الأستاذ العلامة الداعية رحمه الله في يوم السبت الواقع في ٢٧ جمادىٰ الأولى ١٣٨٤ هـ ، الموافق ٣ تشرين الأول ١٩٦٤ م . [وقد كتب العلامة المؤلِّف مقالاً عنه إثر وفاته ، اقرأه في كتاب من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص (٣١٦) طبع في سلسلة «تراث العلامة الندوي» في دار ابن كثير بدمشق] .





مقدمة

بـقلم الدكـتـور مصطـفى الخـن

الحمد لله بمَحامده كلِّها ما علمنا منها وما لم نعلم . الحمد لله حمداً يوافي نِعَمه ، ويكافىء مزيده . الحمد لله على نعمائه .

والصلاة والسلام على خيرته من خلقه ، وصفوته من أنبيائه ، محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته ، ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الملوان .

وبعد : فإنَّـه من فضـل الله تعالىٰ على الأمـة الإسلاميـة ، أن تكفَّل لها بحفظ قرآنها ودينها ، فقال جلَّ ثناؤه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وذلك بأن هيَّأ في كل عصر من العصور أناساً قد حبسوا أنفسَهم ، وأحيوا ليلهم ، وأظمؤوا نهارهم ، وبذلوا جهدهم لدراسة هذا الدين ، وللدرء عنه اعتداء المعتدين ، ولكشف شبه الشاكِّين ، وقد قال رسول الله ﷺ : «إن الله

يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مئة سنة من يُجدِّد لها دينَها»[١]. وهذا الحديث يشمل الفردَ والجماعة، كما يشمل الزمان والمكان.

ولعلَّ أبا الحسن الندوي ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ هو من هؤلاء الناس الذين وجدوا في هذا العصر ليتحمَّلوا أعباء الدعوة، ويبذلوا كلَّ نفيس في سبيل نشر هذا الدين، ويرفعوا كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله في زمان كثر فيه الانحراف عن المبدأ القويم، الذي أراده الله لعباده: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إنَّ الشيخ أبا الحسن قد متعه الله تعالى بجرأة في الحق، قلما تجدها في غيره من العلماء، وحباه الله تعالى علماً واسعاً جامعاً، قلما تراه عند كثير من العلماء أيضاً، وأعطاه الله لساناً بليغاً، وقلماً معبِّراً عن مآسي المسلمين، وراسماً طريق العودة إلى الله تعالى، كي تأخذ الأمة الإسلامية في هذا العالم مكان القيادة، ذلك المكان الذي فقدته منذ أمد بعيد.

إن الكتاب الذي نقدِّمه اليوم لقراء الشيخ، فيه عرض لصفات تحلّى بها أربابُ الفكر والدعوة إلى الله تعالى في هذا العالم الإسلامي، الذي أكرمه الله بوجود هؤلاء الأفذاذ الذين يحاول أعداء الله أن يطمسوا معالم حياتهم.

ومِن المؤكَّد أنَّ أبا الحسن ـ حفظه الله ـ لم يتحدث عن أولئك الأعلام من ناحيتهم التاريخية، ولكنه أراد أن يبرز جوانب القدوة فيهم، ويجسد صفات الداعية إلى الله تعالى، ويبين أن الله جلّ جلاله قد وفى بما وعد به من حفظ الدين، وليكون هؤلاء منارات يهتدي بهم من بعدهم من ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة برقم (٤٢٩١)، والحاكم في المستدرك (٤/٥٦٨) برقم (٨٥٩٣)، والطبراني في الأوسط (٦/٣٢٤) برقم (٦٥٢٩). وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إنَّ الدعوة إلى الله سبحانه ، وإلى الاستظلال بظلّه ، وإلى الدخول تحت طاعته ، وامتثال أوامره ، هي وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلقد قال الله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٨] .

ولقد حمّل الله مهمة هذه الدعوة إلى الله تعالى: حمّلها رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام فقال مخاطباً له: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقال أيضاً: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

وحمّل هذه الأمة، أمة الرسول الأعظم هذه المهمة من بعده ، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وجعل أمته خير الأمم، وأرقاها ، بما اتصفت به من الدعوة إلى الله تعالى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فقال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠]

ومِنْ هنا يكون العلماء الذين يقومون بالدعوة إلى الله تعالى هم ورثة الأنبياء ، والخلّص من عباد الله الصالحين.

وفي هذا العصر الذي نحن فيه نشطت الدعوةُ إلى الله تعالى بمقدار ما يحاول أعداء الله تعالى نَشْر أباطيلهم ، واستعمالهم الأساليب المضللة والوسائل المغرية ، وفي طليعة هؤلاء الدعاة في هذا العصر فضيلة المجاهد الكبير الشيخ السيد أبي الحسن الندوي ، وفقه الله لما يحبه ، ويرضاه.

نسألُ الله سبحانه أن يجعلنا من الدعاة إلى الله على هدى وبصيرة، وأن

يحمي الإسلام والمسلمين من شرور أعداء الله تعالى ، ويحفظ الدعاة المخلصين ، ويذود عنهم الحاقدين المغرضين. والله الموفق ، والهادي إلى سبيل الرشاد.

دمشق: ١٨/ ٣/ ١٤٢٠ هـ
١/ ٧/ ١٩٩٩م

د. مصطفى سعيد الخن

ترجمة
العلاَّمة المؤلِّف

هو المربِّي العظيم، والداعية الحكيم، والمفكِّر المجدِّد، والأديب البارع، والكاتب القدير، وعلاَّمة الهند، وربَّانِيُّ الأمَّة، ونموذج السَّلف، والعالِم العامل، والحبر الكامل، والزَّاهدُ المجاهد: الشيخ السيِّد أبو الحسن علي الحسني الندوي، صاحبُ الكُتب الفائقة، والرَّسائل الرائقة، والمحاضرات النافعة، «والذي أجمع عليه السلفيُّون والمتصوِّفون، والمذهبيون واللاَّمذهبيون، والتقليديون والمعاصرون»[١]، و«الذي أخلص وجهَه لله تعالى، وسار في حياته سيرةَ المسلم المُخلِص لله تعالىٰ ورسوله ﷺ، فدعا إلى الإسلام بالقُدوة الحسنة، ودعا إلى الإسلام بكُتبه النقية، ودعا إلى الإسلام بسياحته التي حاضر فيها، ووجَّه وأرشدَ»[٢]، و«الذي [كان] ذخراً للإسلام ودعوته، وكُتبه ومؤلفاته تتميَّز بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في تفهُّم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي، ووسائل معالجتها»[٣]، و«الذي عرفتُه في شخصيته وفي قلمه، فعرفتُ فيه قلبَ المسلم، والعقلَ المسلم، وعرفتُ فيه الرجلَ الذي يعيشُ بالإسلام وللإسلام

(١) قاله فقيه الدعاة، وداعية الفقهاء: الدكتور يوسف القرضاوي.

(٢) قاله شيخ الأزهر الأسبق: الدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ.

(٣) قاله الداعية الفقيه، الصابر المجاهد: الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ.

على فقهٍ جيِّدٍ للإسلام . . . هذه شهادة لله أودعها»[١] ، و«الذي [كان] مدرسةً فكريةً افتقدها العالمُ الإسلامي برحيله»[٢] .

اسمه ونسبه وأسرته:

هو عليٌّ أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأَشْتَر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنَّى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

أولُ من استَوْطَنَ الهندَ من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧ هـ) .

والدُه مؤرِّخ الهند الكبير العلاّمة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني ، الذي استحقَّ بجدارة لقب «ابن خلّكان الهند» لمؤلَّفه القيم «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثماني مجلّدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»[٣] .

والدتُه ـ رحمها الله ـ كانت من السيِّدات الفاضلات ، المربِّيات النادرات ، المؤلِّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعرَ ، وقد نظَّمتْ مجموعةً من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته:

أبصَرَ العلاَّمة أبو الحسن الندوي النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣ هـ الموافق

---

(١) قاله الأديب الكبير ، الداعية الشهيد: سيد قطب.

(٢) قاله الدكتور عبد الله المحسن التركي ، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

(٣) في ثلاث مجلّدات ضخمة ، في دار ابن حزم ، بيروت.

عام ١٩١٤ م بقرية «تَـكِيَـة كَلان» الواقعة قرب مديرية «رَائي بَرِيْلي» في الولاية الشمالية «أُتْـرَابَـرْدِيْش».

بَـدَأَ دراستَـه الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىءَ اللغتين (الأردوية والفارسية) شأن أبناء البيوتات الشريفة في الهند في ذلك العصر ، وكان عمره يتراوح بين التاسعة والعاشرة إذ تُوفِّي والده الجليل عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م).

فتولَّـى تربيتَه أمّهُ الفاضلـة ، وأخوه الأكبر الدكتـور عبـد العلي الحسني[١] وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي.

بدأ دراسةَ العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني[٢] في أواخر عام ١٩٢٤ م ، وتخرَّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المرَّاكشي[٣] عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠ م.

دراسته الجامعيّـة:

التَحَقَ بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧ م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونالَ منها شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها. قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كُتباً تُعتبر

---

(١) انظر ما كتب عنه العلاّمة الندوي في كتابه «شخصيات وكُتب» ص(٦٣) طبع دار القلم بدمشق.

(٢) انظر ترجمته في «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص(٢٨١) طبع دار ابن كثير ، دمشق.

(٣) هو العلاّمة البحّاثة ، وأحد كبار علماء اللغة العربية في هـذا العصر ، وُلِدَ بسجلماسة في المغرب ، ونشأ نشـأة صوفية ، ثم تركها واتخذ السلفيةَ معتقداً ، سافر إلى الهند وقرأ الحديث على كبار محدِّثيها يومئذ ، وعيِّن أستـاذاً خلال إقامتـه فيها في كلية اللغة العربية في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، توفي ـ رحمه الله ـ بالدار البيضاء عام ١٤٠٧ هـ.

في القِمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقَّفة بالثقافة العصرية ، وتَعَلَّمَ الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلَّفة بها في التاريخ والأدب والفكر.

ثمَّ التحقَ بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩ م وقرأ الحديث الشريف (صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدِّث الشيخ حيدر حسن خان الطُّونْكي[١] ، ودرس التفسيرَ لكامل القرآن الكريم على العلاَّمة المفسِّر المشهور أحمد علي اللاَّهوري في لاهور عام ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م، وحَضَرَ دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني[٢] في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً.

في سِلك التدريس:

انخرَطَ في سلك التدريس عام ١٩٣٤ م ، وعُيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ـ ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب.

واستفـاد خلال تدريسـه في دار العلوم من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية، ممّـا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعُلمائها وأدبائها ومفكِّريها عن كثب، واستفاد أيضاً مِن كُتب المعاصرين من الدعاة والمفكِّرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيِّين.

نشاطاته الدعويّة والإصلاحية:

قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩ م ، تَعَرَّفَ فيها

(١) انظر ترجمته في «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للعلاَّمة عبد الحي الحسني ، ج: ٣ ، ص ١٢١٨ ، طبع دار ابن حزم ، بيروت.

(٢) انظر ترجمته في «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص (٢٥٩).

على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرَّأي فُوْرِي[١] ، والداعية الشيخ محمد إلياس الكَانْدَهْلَوِي[٢] ، وكان هذا التعرُّف نقطة تحوّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتأَسَّى بالشيخ الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها.

أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنَّة النبوية عام ١٩٤٣ م ، وأسَّس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١ م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩ م.

شارَكَ في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠ م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤ م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ م.

رحلتُه مع الكِتابة والتأليف:

كتبَ أوّلَ مقال بالعربية في مجلّة «المنار» للعلاّمة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١ م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الرابعة عشر عاماً ، ثم نشره العلاّمة رشيد رضا ككتاب مستقل لما رأى إعجاب كبار كتَّاب العرب به.

ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧ م يحمل اسمَه «سيرة أحمد شهيد» ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان ، وصدر له طبعات عديدة بعد.

---

(١) انظر ترجمته في كتاب «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص (٢٣٩).

(٢) انظر ترجمته في كتاب «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص (٢٣٣).

بَدَأَ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل كتاب فيها بعنوان «مختارات من أدب العرب» عام ١٩٤٠ ، و«قصص النبيِّين» للأطفال و«القراءة الراشدة» عام ١٩٤٤ م ، وقرِّرت جميع هذه الكتب في مقرَّرات المعاهد والجامعات الإسلامية في بلاد العرب وشبه القارة الهندية .

ألَّف كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟» عام ١٩٤٤ م ، الذي عُدَّ من أفضل الكُتب التي صدرت في هذا القرن[١] .

دُعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٥٦ م ، وألْقى محاضرات بعنوان «التجديد والمجدِّدون في تاريخ الفكر الإسلامي» نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتابٍ مستقلٍّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» والذي الآن بين يدي القرَّاء .

ألَّفَ حول القَاديَانية بعنوان «القادياني والقاديانية» عام ١٩٥٨ م ، وكتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية» عام ١٩٦٥ م وكتابه «الأركان الأربعة» عام ١٩٦٧ م ، و«السيرة النبوية» عام ١٩٧٦ م ، و«العقيدة والعبادة والسلوك» عام ١٩٨٠ م و«المُرْتضىٰ» في سِيرة أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عام ١٩٨٨ م .

رئاسة تحرير للمجلاَّت والجرائد الإسلامية والإشراف عليها:

شَارَكَ في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢ م، ومجلّة «الندوة» الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠ م، وأَصْدَرَ مجلّة باسم «تَعْمِيْرِحَيَات» بالأردوية عام ١٩٤٨ م ، وكَتَبَ مقالاتٍ في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ: «الرّسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيّات و«الفتح» للأستاذ محب الدين

---

(١) كما قاله المربِّي المفكِّر ، الداعية الناقد البصير : الأستاذ محمد مبارك ـ رحمه الله ـ.

الخطيب و«حضارة الإسلام» للدكتور مصطفى السِّباعي و«المسلمون» للدكتور سعيد رمضان المصري.

وأشْرَفَ كذلك على إصدار جريدة «نَدَاي مِلَّتْ» بالأردوية عام ١٩٦٢ م، ومجلّة «البعث الإسلامي» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥ م وجريدة «الرائد» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩ م ومجلة «تعميرحيات» الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣ م، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ، (الهند).

رحلاته:

سافَرَ إلى الشرق والغرب مرَّات داعيةً إلى الله بالحِكْمة والموعظة الحسنة، عامِلاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المَسْمُوعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كُلِّ مجال، جوَّاباً للآفاق في سبيل الله، محاضِراً، ومحدِّثاً، ومُحَاوِراً، واعِظاً وهادياً، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية، والمؤتمرات والندوات فيها[١].

تقدير وتكريم:

انتخَبَه مجمعُ اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتَّصف به من العِلْم الجمّ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية، ولمساعيه المكثَّفة المشكورة في الأدب العَربي الإسلامي.

اخْتِير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢ م.

اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١ م.

اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠ م، لمؤلَّفه القيم

---

(١) اقرأ للاطلاع على رحلاته الدعويّة في الخافقين كتاب «رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي مشاهداته ـ محاضراته ـ انطباعاته ـ لقاءاته». إعداد المعتني بهذا الكتاب طبع دار ابن كثير بدمشق.

«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

مُنِحَ شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كَشْمِيْر عام ١٩٨١ م.

اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣ م.

اختير عضواً في المجمع المَلَكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن).

اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤ م.

أُقِيمَتْ ندوةٌ أدبيةٌ كبيرة حول حياته، وجُهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب في إستانبول «تُركيا» عام ١٩٩٩ م، حضر فيها كبرى الشخصيات الدينية، والأدبية من العرب والعجم.

اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩ هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية، وقدَّمَ إليه الجائزةَ وليُّ العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سُمُوّ الشيخ محمد بن راشدِ المكتوم.

مَنَحَهُ له سلطان بروناي جائزةً للخدمات الإسلامية عام ١٩٩٨ م، وذلك اعترافاً بمكانته العلمية والفكرية الإسلامية العظيمة، وتقديراً لخدماته المتميزة التي أنجزها في مجال الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي.

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع:

توَلّى العلامةُ الندوي الرئاسةَ والعضويةَ لعِدَّة جامعات إسلامية ومجامع عربية، ومنظَّمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه، ومنها على سبيل المثال:

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفةَ العالمية منذ ترأَّسَ أمانتَها، وتفوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَمُّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع).

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض).

رئيس المجمع الإسلامي العِلْمِي في لكهنؤ (الهند).

رئيس مركز أكسفورد للدرسات الإسلامية (إنجلترا).

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعُموم الهند.

رئيس هيئة التعليم الدِّيني للولاية الشمالية (أُتْرَابَرْديْش).

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية الأردني.

عضو المجمع المَلَكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسَّسة آل البيت) بالأردن.

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرّباط (المغرب).

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسْلَام آبَاد (باكستان).

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم دِيُوْبَنْد الإسلامية (الهند).

وعدا ذلك توَلَّى العلامةُ الرئاسةَ والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظَّمات الدعوية، ولِجَان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه.

خَلْقُه وخُلُقه:

كان نحيفَ البدن ، نحيل العود ، نقيَّ اللون ، له لحية سمراء ، وقوراً مهيباً في غير عبوس ، أو فظاظة ، طلقَ الوجه ، دائم البِشْر ، نظراته عميقةٌ نفاذة ، ونبراته دقيقة أخّاذة ، فيها بحة.

كان جمَّ التواضع ، هادئاً ، محباً للخير ، ودوداً محبوباً من كافة الطبقات.

كان خيرَ مثل للعالم الورع الخلوق ، الذي يضمر الخير للجميع.

كان مثالاً في النزاهة ، والتواضع والجرأة الناقدة في الدعوة إلى الإصلاح ، وفي الاستقامة ، والحرص على الحقِّ.

كان عدواً للمظاهر الكاذبة ، يتخفف في ثيابه وطعامه وفراشه ، ويكره التكلُّف والمجاملة الزائدة ، ولا يُقيم للمال وزناً في حياته ، كانت ثقته بربِّه فوق كلِّ شيء.

وكانت مثابرته على النضال في سبيل ما يُؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق كان سرَّ نجاحه ، بينما يفشل الآخرون.

كان دائمَ المطالعة ، حريصاً على صحبة الكتاب في خلواته وأوقات فراغه ، وكان شديد الاهتمام والعناية بكتب السيرة ـ على صاحبها ألف ألف سلام ـ وبكتب السلف والتاريخ والأدب.

كان فصيح اللسان ، بليغ الكلام ، وكان يمتاز بتمكُّنٍ عجيبٍ من اللغة العربية ، وتذوُّقٍ رفيع للأدب ، وكانت تراكيبه اللفظية تلفت السامع ، وتستهوي القلب ، وكان يغلب على أسلوبه العنصر العاطفي الملتهب ، ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع.

وكان شديدَ العبادة والاجتهاد في رمضان ، وكان يؤمُّه مئاتُ من الناس من أنحاء الهند ويصومون معه ويقومون ، ويتحوَّل المكان الذي يقضي فيه رمضان

إلى زاويةٍ عامرةٍ بالذكر والتلاوة ، رالسهر والعبادة .

وكان من أعظم آماله رحمه الله أن يرى الإسلام سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية مقهورة حتى يسلِّي نفسه ، ويستبشر ، ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلامَ وأذلُّوا المسلمين .

وفاته:

توفِّي ـ رحمه الله ـ عَقِب نوبة قلبية مفاجأة عن السادسة والثمانين من عمره الحافل بالأعمال القيمة والمآثر العظيمة ، والخدمات الجليلة في مجال الفكر والدَّعوة والأدب ، وذلك يوم الجمعة في ٢٣ من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٠ هـ (وكان آخر يوم من شهر ديسمبر عام ١٩٩٩ م) في مسقط رأسه «رَائي بَرِيْلي» .

صُلِّي عليه في أنحاء العالم الإسلامي صلاة الغائب ، وصلَّى عليه كذلك حوالي خمسة ملايين من المسلمين الوافدين من مختلف أصقاع العالم في الحرمين الشريفين في ٢٧ رمضان بعد صلاة العِشاء ، رحمه اللهُ رحمةً واسعةً ، وتغمَّده بها وأسكنه فسيح جناته .

مؤلَّفاته:

للعلامة الندوي ـ رحمه الله ـ مؤلَّفاتٌ قيمةٌ ، ورسائل ممتعةٌ في السيرة والفكر ، والدَّعوة ، والأدب والتراجم ، نذكر هُنا ما هو الأشهر منها بالعربيَّة :

١ ـ السيرة النبوية .

٢ ـ الطريق إلى المدينة .

٣ ـ سيرة خاتم النبيين ﷺ (للمبتدئين) .

٤ ـ المُرتضى (في سيرة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه) .

٥ ـ رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام (أربع مجلَّدات) .

٦ -الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله .
٧ -شخصيات وكُتب .
٨ -ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟!
٩ -الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية .
١٠ -الإسلام: وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية .
١١ -إلى الإسلام من جديد .
١٢ -المسلمون وقضية فلسطين .
١٣ -روائعٌ من أدب الدعوة في القرآن والسيرة .
١٤ -الأركان الأربعة في ضوء القرآن والسنة .
١٥ -العقيدة والعبادة والسُّلوك .
١٦ -التربية الإسلامية الحُرَّة .
١٧ -المدخل إلى الدراسات القرآنية .
١٨ -المدخل إلى دراسات الحديث .
١٩ -ربَّانيـةٌ لا رهبانيَّـة .
٢٠ -القاديانية والقادياني دراسة وتحليل .
٢١ -في مسيرة الحياة (ثلاثة أجزاء في سيرته الذاتية) .
٢٢ -مختاراتٌ من أدب العرب (مجلَّدان) .
٢٣ -روائع إقبال .
٢٤ -إذا هبَّت ريحُ الإيمان .
٢٥ -المسلمون في الهند .
٢٦ -مذكَّراتُ سائحٍ في الشرق العربي .

٢٧ ـ قصصُ النَّبيِّين (للأطفال).

٢٨ ـ قصصٌ من التاريخ الإسلامي (للأطفال).

وللعلاَّمة غير هذه المؤلَّفات والكُتب مئاتُ المقالات والمحاضرات والبُحوث في السيرة النبوية، والفكر، والدَّعوة، والأدب، والتراجم وفي موضوعات مختلفة، وقد أعدنا نشرها مصحَّحةً ومنقَّحةً في سلسلة «تراث العلامة الندوي» من دار ابن كثير بدمشق، وقد صدر منها إلى الآن:

١ ـ محاضراتٌ إسلاميةٌ في الفكر والدَّعوة (ثلاث مجلَّدات).

٢ ـ مقالاتٌ إسلاميةٌ في الفكر والدَّعوة (مجلَّدان).

٣ ـ دراساتٌ قُرآنيةٌ.

٤ ـ مقالاتٌ في السيرة النبوية.

٥ ـ من أعلام المسلمين ومشاهيرهم.

٦ ـ أبحاثٌ في التعليم والتربية الإسلامية.

٧ ـ أبحاثٌ في الحضارة الإسلامية والتربية.

٨ ـ بحوثٌ في الاستشراق والمستشرقين.

٩ ـ رحلات العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي.

١٠ ـ مكانة المرأة في الإسلام.

١١ ـ خطاباتٌ صريحةٌ إلى الأمراء والرُّؤساء.

١٢ ـ اسْمَعِيَّات[١].

* * *

(١) من يريد الاستزادة من الاطلاع على شخصية العلامة الندوي كداعية ومفكّر، ومربٍّ وأديب فليرجع إلى كتابنا «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» (الطبعة الثالثة) طبع دار ابن كثير بدمشق.



رجال الفكر والدّعوة
في الإسلام

للداعية الحكيم المفكّر الإسلامي الكبير
العلاَّمة السيِّد أبي الحسن علي الحسني الندوي
(١٣٣٣ـ ١٤٢٠ هـ)

الجزء الأول

عمر بن عبد العزيز
الحسن البصري وخلفاؤه
أحمد بن حنبل
أبو الحسن الأشعري وخلفاؤه
الإمام الغزالي
الإمام عبد القادر الجيلاني
جلال الدِّين الرُّومي

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

أمّا بعد، فقد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب «رجال الفكر والدعوة» في سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) وقد وُجِدَتْ للمؤلف دراسات وتأملات ، ألحَقها بالطبعة الأردوية ، وحالتِ الشواغلُ ، ومؤلفاتٌ اشتغل بها المؤلف في هذه الفترة عن العناية بهذا الكتاب ، وتجهيزِه للطبعة الجديدة ، رغم إلحاح بعض دُورِ النّشر على ذلك ، وشعورِ المؤلف بفراغٍ واقعٍ في المكتبة الإسلامية الحديثة ، بنفاد الطبعة الثانية من زمان ، وحاجةِ الشبابِ الإسلامي إلى مثلِ هذه الكتب ، في إيجاد الثقة بتاريخ الإصلاح والتجديد ، وبصلاحية الإسلامِ وتعاليمهِ في إنشاء المصلحين والدعاةِ وأصحابِ الرسالة والإبداع في التفكير والإنتاج .

وما يعتقده المؤلف ـ وكثيرٌ من رجال التربية والتعليم ـ أنَّ خيرَ وسيلة لإشعال المواهب ، وإثارة الروح ، وتقويمِ الأخلاق ، والعزمِ على مكافحة البيئة الموبوءة ، والمجتمع الفاسدِ ، والتسامي لمعالي الأمور ، هِي سِيَرُ عُظماء الرجال ، وزُعماء الإصلاح والتجديد والربانيين والصدِّيقين ، فحَمَله كل ذلك على إعادة النظر في هذا الكتاب ، وتناوله بالزيادة والتنقيح ، وتقديمه للطبع والنشر في أول فرصة .

وليستِ الزياداتُ كثيرةَ العدد ، ولكنها كبيرةُ القيمة ، وأهمُّها ما جاء تحت

عنوان: «غارَةُ التتار على العالم الإسلامي وظهورُ معجزة الإسلام» وقد بحث فيه المؤلف لأول مرة في أسباب هذه الكارثة الجذرية في ضوء القرآن وقانون المجازاةِ الإلهي ، وتجارب الأُمم ، واستعرض واقع العالم الإسلامي في فجر القرن السابع الهجري ، وفي هذا الفصل دروسٌ للأجيال الإسلامية في جميع العصور ، وخاصة في العصر الذي وقعت فيه كارثةُ العالم العربي والإسلامي «كارثة ٥ حزيران ١٩٦٧».

ويليها في الأهمية معلوماتٌ جديدة في محاولات الإصلاح في تاريخ الديانة الهندوكية والمسيحية ومصيرها في مقدمة الكتاب.

وما عدا ذلك فزيادات مُبعثرة في ثنايا الكتاب ، وتصويبات لأخطاء مطبعية أكثرها في السنين والتواريخ.

وأسألُ الله أن ينفع بهذا الكتاب ، ويُحقِّق به آمالَ المؤلف ، ويسد به عوزاً في المكتبة الإسلامية وفي مناهج التربية والتعليم ، وأن يحمل هذا الكتاب الشبابَ على تقليد هؤلاء العظماءِ ، واقتفاء آثارهم وحبِّهم وتقديرهم ، وعلى الله قصدُ السبيل.

ندوة العلماء ـ لكهنؤ
١٨/ ٥/ ١٣٨٩هـ
٣/ ٨/ ١٩٦٩م

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مقدّمة الطبعَة الأولى

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد، فقد طلبتْ مني كلية الشريعةُ في الجامعة السورية إلقاءَ محاضراتٍ على طلابها في موضوع ديني علمي. وأجبتُ إلى رغبتها حرصاً مني على التعاون مع أساتذتها في خدمة هذه المؤسَّسة العلمية العظيمة الناشئة، التي يُرجى أن تقوم بدور مهمٍّ في نشر العلوم الدينية، وتكوين جيل علمي جديد في هذا البلد، واخترتُ موضوع الإصلاح والتجديد والتعريف بكبار رجال الدعوة والعزيمة والجهاد في تاريخ الإسلام.

وقدمتُ إلى دمشق في آخر شعبان سنة ١٣٧٥، واستمررت في إلقاء المحاضرات إلى ١٩ شوال سنة ١٣٧٥ الموافق ٣٠ أيار سنة ١٩٥٦، وكانت في كل يوم أربعاء محاضرةٌ في مُدرَّج الجامعة الكبير، وكانت ثماني محاضرات، وهي في الأصل عشر محاضرات أدمجت بعضها في بعض حرصاً على توفير الوقت، وأعدتُها إلى أصلها ـ عشر محاضرات ـ عند نشرها، ثم أضفتُ إليها خمسَ محاضرات عن الإمام عبد القادر الجيلاني، ومولانا جلال الدين الرُّومي.

لقد كان في النِّية أن أختم السلسلةَ الأولى من هذه المحاضرات بمولانا

جـلال الدين الرومـي ، وأبـدأ الثانية بشيـخ الإسـلام ابن تيمية ، وأختمها برجال الإصلاح في القرن الثالث عشر الهجري ، ولكنَّ وصولي بتأخير ، وضيق الوقت قد حالا دون ذلك ، فختمتُها بحجة الإسلام الغزالي[١] .

وإنِّي في هذه المحاضرات لا أدَّعي علماً غزيراً ، ولا اكتشافاً جديداً ، كلُّ ما حرصت عليه هو دراسة هذه الشخصيات من جميع نواحيها وإبرازها ، والقول المتَّزن ، وألاَّ أقول شيئاً إلاّ عن اعتقاد واقتناع؛ مستنداً إلى حقائق التاريخ وشهاداته؛ غير مجازفٍ في القول ، ولا معتمد على القياس والنزعة الفردية .

ولم يكن شأني في ذلك شأن من يُحدد غايةً ثم يُخضِع التاريخ لها ، وما أهون ذلك علىٰ مؤلف قدير وكاتب لَبِقٍ .

وفي الأخير أرى من واجبي أن أشكرَ الجامعة السورية ، وكلية الشريعة بصفة خاصة على أنَّ اقتراحها للتحدُّثِ في هذا الموضوع أثار في نفسي رغبةَ دراسةِ هذا الموضوع في نطاق واسع ، واستعراضَ التاريخ من هذه الناحية من جديد انتفعتُ بها شخصياً ، وقد أتاحتْ لي فرصةَ التحدُّث إلى مجموعة طيبة من المثقفين .

وأُوجِّه كلمةَ شكرٍ وتحية بصفةٍ خاصة إلى صديقي الجليل الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي ، عميد كلية الشريعة على أنَّ إلحاحه لم يدع لي عذراً ، وكان سبباً في تكوين هذه المحاضرات؛ وأشكر زملاءَه الفضلاء على عنايتهم بتنظيم هذه الحفلات الأسبوعية ، والدعوة إليها ، وبذل الوُسع في إنجاحها .

وأشكرُ أخيراً لا آخراً أساتذة الجامعة وطلبتَها ، وعلماء دمشق ، والشباب المثقَّف ـ على حرصهم على حضور هذه المحاضرات والتفرُّغ لها وحسن

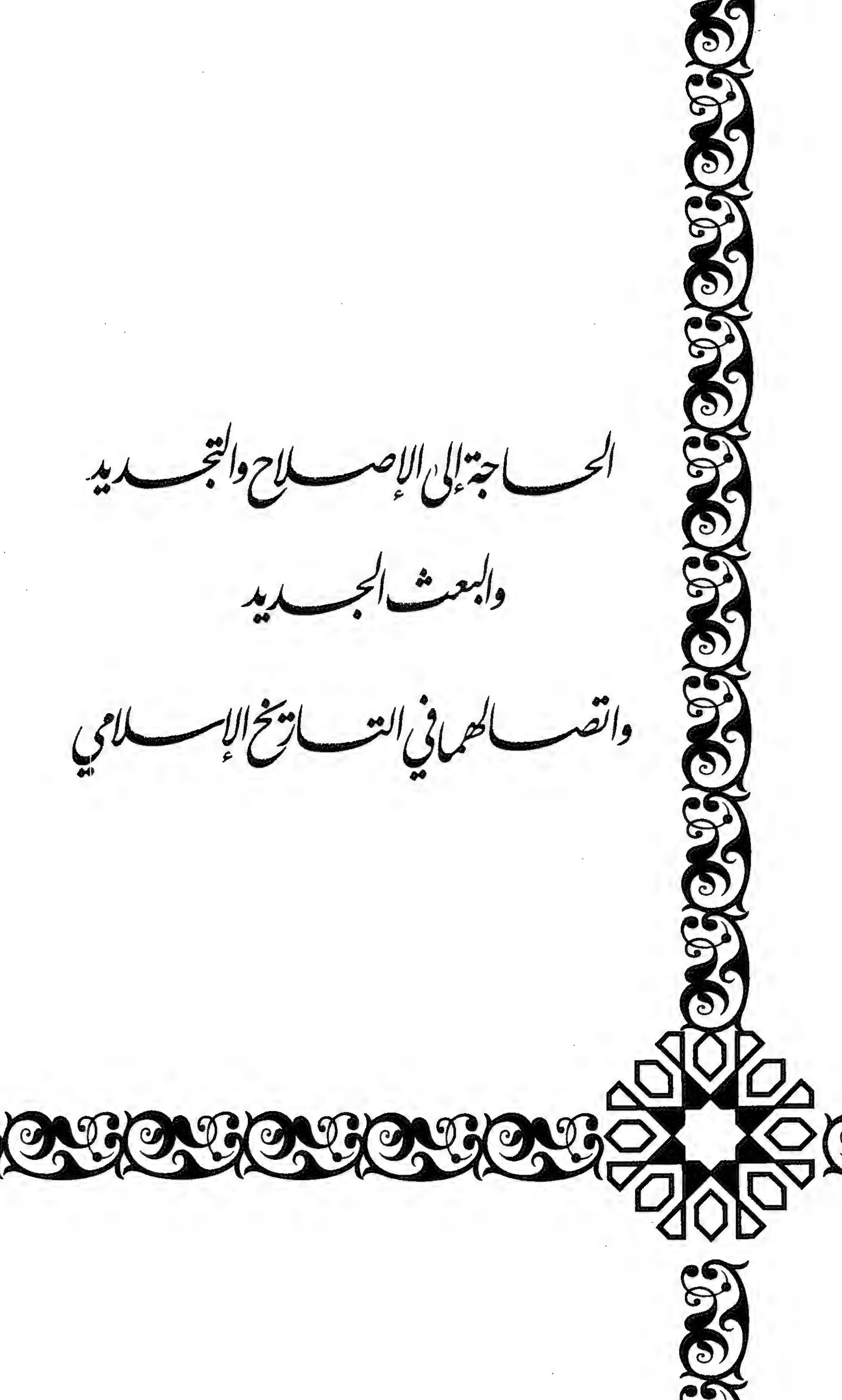
(١) استدرك المؤلف أثناء الطبع فأضاف خمس محاضرات أخرى على الكتاب، فأنهى السلسلة بمولانا جلال الدين الرومي كما نوى سابقاً.

استماعهم ، وقد كان لكل ذلك أطيبُ الأثر في نفسي ، وكان مُشجِّعاً كبيراً في دراسة هذا الموضوع الخطير والبحث فيه؛ وشهادةً للذوق العلمي والروح العلمية في هذا البلد الإسلامي العربي. وأدعو الله أن ينفعني والمستمعين الكرام بكل ما جاء في هذه المحاضرات من معانٍ ساميةٍ ، وأن يُحرِّك في النفوس رغبة الإصلاح والتجديد على الأساس الإسلامي الصحيح ، وتلك رسالة هذه الشخصيات التي تحدثتُ عنها ، وذلك ما يَطلبُه منا العصر الجديد ، والله الموفّق للسداد ، والهادي إلى سبيل الرشاد.

دمشق ٢٣ من ذي القعدة الحرام سنة ١٣٧٥هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي





الحاجة إلى الإصلاح والتجديد
والبعث الجديد
واتصالهما في التاريخ الإسلامي



المحاضرة الأولى:

الحاجة إلى الإِصلاح والتجديد والبعث الجديد واتصالُهما في تاريخ الإِسلام

الحياة متحركة ومتطورة:

سادتي وإخواني: من الحقائق الأولية أنَّ الحياةَ متحرِّكةٌ ومتطوِّرةٌ، دائمةُ الشباب، مستمرَّةُ النُّمو، تنتقل من طورٍ إلى طور، ومن لونٍ إلى لون، لا تعرف الوقوف ولا الركود، ولا تُصاب بالهَرم والتعطل، فلا يُسايرها في رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دينٌ حافلٌ بالحركة والنشاط، لا يتخلَّفُ عن ركب الحياة، ولا يَعجزُ عن مسايرتهِ وزمالته، ولا تقصُر عنه خطواته، ولا تنْـفَد حيويتُه ونشاطه.

وذلك شأنُ الإسلام، فإنَّه ـ وإن كان مؤسَّساً على عقائدَ ثابتةٍ وحقائق خالدةٍ ـ زاخراً بالحياة، حافلاً بالنشاط، له من الحيوية معين لا ينضُب، ومادة لا تنفد، صالحاً لكل زمان ومكان، وعندَه لكل طورٍ جديدٍ من أطوار الحياة ولكل جديدٍ من أجيال البشرية، ولكل عهد مستأنَفٍ من عهود التاريخ، ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر، مددٌ لا يقصُر عن الحاجة، ولا يتأخَّر عن الأوان.

إنَّ الإسلام بخلاف ما يعتقدهُ كثيرٌ منِ المسلمين، وبعكس ما يُصوِّره أكثرُ

المُستشرقين والمؤرِّخين الغربيين ـ ليس حضارَة عهدٍ خاص ، ولا فنَّ فترةٍ من فترات التاريخ ، يمثله آثار العهد ومبانيه ، ويعيش في الأحجار والرُّسوم والصُّور لا في واقع الحياة، وقد فقد صلاحيته للحياة وأدَّى رسالته، كالذي يتحدَّث عن الحضارةِ اليونانية والرومية ، أو الفنِّ التركي والمغولي.

إنَّـه دينٌ حيٌّ ورسالةٌ خالدة ، إنه حـيٌّ كالحياة نفسها ، وخالدٌ كخلود الحقائق الطبيعيـة ونواميس الحياة ، إنه تقدير العزيز العليم وصنعُ الله الذي أتقن كل شيء ، وقـد ظهر في شكله النهائي وطوره الكامل وأعلن يوم عرفة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فهو يجمع بين الكمال الذي لا انتظار بعده لدينٍ آخر ، ولا حاجةَ معه إلى رسالةٍ جديدة ، وبين الحيوية التي لا نفادَ لها ، والنشاطِ الذي لا آخر له ، ولذلك استطاع أن يُساير الحياة ويراقبها في وقتٍ واحد ، ويُتابعَها في صلاحها واستقامتها ، ويُنكر عليها في انحرافها وزيغها ، فلا هو مسايرٌ مائع ككثير من الأديان المحرَّفة ، ولا هو مراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية ، وذلك مَثَلُ الدّين الكامل ، ومَثَلُ الدّين الحيّ للإنسان الحيِّ الذي يشعر بشعوره ، ويعترف بحاجاته ، ويرشده في مشاكله ، ويعارضه في اتجاهاته الفاسدة.

عَهد الأمة الإسلامية أكثرُ العهود تَقلُّباتٍ ومشاكل :

ولمَّا كان الدين الإسلامي هو الدين الأخير والدِّين العالمي ، ولما كانت الأمة الإسلامية هي الأمَّة الأخيرة التي اختيرت لتبليغ الرسالة السماوية إلى أهل الأرض «إنَّه لا نبيَّ بعدي ولا أمَّةَ بعدكم»[1] . وكُتب لها الخلود والانتشار في الآفاق ، كانَ من الطبيعي أن تمر في رحلتها الطويلة الواسعة بمراحل عصيبة ،

(١) [أخرجه ابنُ حبَّان في الصحيح (١٥/ ١٩٦) برقم (٦٧٨٨) من حديث فاطمة بنت قيس ، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٥) برقم (٧٥٣٥) و(٧٦١٧) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦٣): رواه الطبراني ورجال أحد الطريقين ثقاتٌ وفي بعضهم ضعف].

ومواقف دقيقة لا عهد للتاريخ بها ، وتُبتلى بعصورٍ وأجيال لم تعرفها أمةٌ قبلها، وأن تواجه صراعاً في ميدان العقول ، والعلم ، والحضارة ، والاجتماع ، والتشريع ، لم تواجهها أمةٌ في التاريخ.

ولذلك نرى أنَّ الفترة التي منحت هذه الأمة لتوجيه الأمم والوصاية على العالم هي أكثر الفترات التاريخية تقلُّباً وتطوُّراً ، وأكثرها تنوعاً واختلافاً ، ينشأ فيها من المشاكل والمسائل الدقيقة ما لم يخطر من أمةٍ على بالٍ ، ولم يحلم به جيلٌ من الأجيال ، ويمتحن الذكاء وقوة التشريع والثبات على المبدأ والمحافظة على الروح ، والصلاحية للحياة ، فالأمة التي تتغلب على هذه المشاكل كلّها ، وتخرج من هذه المعارك ظافرةً منتصرةً ، هي أمةٌ جديرة بالحياة ، صالحةٌ للقيادة ، ولا يُمكن لقوَّة سياسية أو غارة خارجية أن تقضي على كيانها ، وتمحوها من الوجود.

كيف استطاعت الأمة أن تُقاوم تغيراتِ الزمانِ والمكان:

ولكم أن تتساءلوا: كيف استطاعت الأُمَّةُ أن تُقاومَ المؤثرات الخارجية العنيفة والتقلبات التي لا تكاد تنتهي ، واختلافَ الزمان والمكان ، وقد كان بَعْضُه يكفي للقضاء على ديانة قوية قديمةٍ ، أو تحريفها على الأقل كما وقع مراراً في تاريخ الأديان؟

والجواب: أنها استطاعت ذلك بقوتين:

القوَّة الأولى: هي الحيوية الكامنة في وضع الإسلام نفسِه ، وصلاحيته للحياة والإرشاد في كل بيئةٍ وفي كل محيطٍ ، وفي كل عَهدٍ من عهودِ التاريخ.

فقدَ خَصَّ اللهُ محمداً ﷺ برسالةٍ وتعاليم كاملة للإنسان صالحة لكلِّ زمان ومكان ، تستطيع أن تُواجه ما يتجدَّد من الشؤون وأطوار الحياة ، وتحلَّ كلَّ ما يعتري من المشكلات والمعضلات.

والدراسةُ العميقة الشاملة للقرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح

ومصادر الإسلام ،كافلةٌ بالاقتناع بما أقول ، ولكنه موضوع الفقه الإسلامي والنُّظُم الإسلامية .

والقوَّة الثانية : هو أنَّ الله قد تكفَّل بأن يمنح هذه الأمة التي قضى ببقائها وخلودها رجالاً أحياءَ أقوياء في كل عصر ، يَنقُلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة ، ويُعيدون إلى هذه الأمة الشباب والنشاط ، إنَّ هذا الدين نفسه هو من أقوى العوامل في وجود هؤلاء الأشخاص في كل عصرٍ ومصر ، لأنَّه يُثيرُ في أتباعه ودارسيه كوامن القوة ، ويبعث فيهم الثورة والتمرُّد على الأوضاع الفاسدة ، والمجتمع الزائغ ، والأخلاق المنحلّة ، والسياسة المستبدة ، والحكم الجائر ، والتَّرف المسرف ، ويَفْرضُ عليهم إنكار المُنكر ، وكلمةَ حقٍّ عند سلطان جائر ، ويُحرِّمُ عليهم الاستنامة إلى الأوضاع الفاسدة ، والرضا بالحياة الدنيا ، وَبيعَ الضمائر .

ويَهَبُهُم كذلك الأصول والنصوص المتينةَ الحكيمة التي يَحلُّون في ضوئها المشاكل الطريفةَ ، والمسائلَ المعقدة ، لذلك نرى أن هذه الأمة لم تَعْدَم في عصر من عصورها مُجدِّدين في الدين ، وأئمةً في العلم ، وعماليقَ في الفكر ، وأبطالاً في الجهاد، وأعلاماً في الإصلاح ، لا يوجد نظيرهم ـ لا في الكمية ولا في الكيفية ـ في أُمةٍ من الأمم ، ولم يكن ذلك من المصادفات والاتفاقات ـ وأنا لا أؤمن بالمصادفات في صنعِ الله وسَيْرِ الكون ـ إنَّما هو طبيعةُ هذا الدين ، وقدرتُه العجيبة على الإنتاج والتوليد ، وطبيعةُ هذه الأمة وصلاحيتُها للبعْثِ الجديد ، وإنما هو لُطفُ الله بهذه الأمة بل بالإنسانية ، إذ لو ضاعتْ هذه الأمة لضاعتْ أمانة السماء، ولضاعت أمانة الإنسانية ، وإنما هي حراستُه الكريمة وخفارتُه القوية لهذا الدين الذي فُرض عليه أن يرافق الحياة إلى آخر مرحلة من مراحلها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر : ٩] .

هَجَمـاتٌ علـى الإسـلام:

وقد كان الإسلامُ من أوَّلِ عهده هدفاً لهجماتٍ عنيفةٍ قاسية لا تحتملُها

ديانةٌ من الديانات ، هجماتٍ على قلبه وأعصابه لا تعرف الهوادة ولا الرِّفْق ، ولا تَرضَى إلاّ بالفناء ، إنَّ الديانات التي فَتحتْ في عصرها الدُّنيا، وأخضعت الأمم والحضارات قد ذابت وتحلَّلتْ أمام هجماتٍ أضعف منها بكثير ، وفقدت شخصيتها وكيانها ، ولكنَّ الإسلام بالعكس من ذلك ردَّ هذه الهجمات كلّها على أعقابها وكسرَها ، وظل محافظاً على قُوَّته وشخصيته ، وعلى مزاياه وروحِه .

وقد كانتِ الباطنيةُ بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطراً على روح الإسلام النقية ، وعقائدِه الصافية الواضحة ، تتهدَّد وضع الإسلام الحقيقي ، وكذلك كانت الغارةُ الصليبية ، ثم هجومُ التَّتار ـ ذلك الجرادُ المنتشر ـ صاعقةً نزلت على الإسلام والأمةِ الإسلامية ، وكانت جديرةً بأن تقضي على الإسلام وتُقصيهِ من ميدان الحياة ومصافِّ الأمم الحية ، فلو كان غير الإسلام من الديانات للفَظَ نفسَه الأخير ، وأصبحَ أُسطورة من الأساطير .

ولكنَّ الإسلام تحمَّل كلَّ هذه الصدمات وكلَّ هذه الصواعق ، واستطاع أن يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكفِ أنه عاش وبقي يلعب دوره ، بل إنه شقَّ طريقه إلى الأمام ، وفتح فتوحاً جديدة في ميدان العلم والعقلِ والسياسة .

وقد مُنِيَ الإسلامُ في سَيره الطويل بمؤثرات وثورات ومقاومات داخلية وخارجية ، فقد كان مراراً عُرضة لتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المُبطلين ، ودخلتْ فيه البِدع والأفكار العجمية وتسرب إليه الشِّرك والجاهلية عن طريق الأمم التي كانت تُسْلِمُ ، وعن طريق التقليد والجهل ، وفشَتْ فيه الأعمال والتقاليد الجاهلية .

ثم امْتُحِنَ ـ منذ العهد الأموي ـ بمادية جارفة ، وترفٍ فاحش ، وعبادة البُطون والشهوات ، ثم ابتُـلي ـ من العهد العباسي ـ بالإلحادِ والزندقة ، والفلسفات العجمية ، إلى غير ذلك مما يحويه تاريخ الإسلام الدينيُّ والعقليُّ .

وقد كانتْ هذه الهجماتُ شديدةً ودقيقةً ؛ حتى أصبح كثيرٌ من الناس يَشُكُّون

في قدرة الإسلام على مقاومة هذه الهجمات ، وأصبح بعضُهم يتوقع نهاية الإسلام بصفته ديناً من الأديان ، ونهايةَ الأمة الإسلامية بصفتها أمةً ذاتَ عقيدةٍ ورسالة.

ولكنَّ الإسلامَ أبى أن يستسلم لهذه الهجمات ، وأن يخضعَ ويستكينَ لأعدائه ، وأبَتْ رُوح الإسلام أن تنهزمَ ، وأبى ضميرُ الأمة المسلمة أن يُصالح هذه الفتن ، وأن يتفاهم مع أعداء الإسلام والمتآمرين ضدَّهُ ، وأن يتنازل عن بعض ثروته ، وقام في كل عهدٍ وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي رجالٌ فضحوا المحرِّفين والمتآمرين ، ورفعوا اللِّثام عن وجه الإسلام ، ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات ، وأنكروا على البدع والخرافات والأفكار العجمية ، ودافعوا عن السُّنة دفاعاً قوياً ، وردوا على العقائد الباطلة ، وشنُّوا الحربَ على الجاهلية وأعمالها وتقاليدها ، وحاربوا الماديةَ والتَّرف بكل قوة ، ونَعَوْا على المترفين في عصرهم ، وجهروا بالحق في وجوه السلاطين الجائرينَ والملوكِ المستبدين ، وحَدُّوا من سلطان العقل الذي قد طغى وتخطى الحدود ، ونفخوا في الإسلام روحاً جديدةً ، وخلقوا في المسلمين إيماناً جديداً وثقةً جديدةً.

وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم ، عقليةً وعلماً وخُلقاً ، وكانوا أصحاب شخصية جذّابةٍ ، وكفاية فائقةٍ ، وكانت عندهم لكل فتنة وظلمة «يد بيضاء» تُبدِّدُ الظلماتِ وتُنير السبيلَ.

وقد وَضَحَ من وجود هؤلاء المصلحين المجدِّدين للدين الإسلامي باستمرار لا يُحْمَلُ على مجرَّد المصادفات : أنَّ هذا هو الدين الذي اختاره الله لتوجيه العالم وإرشادِ الإنسانية ، وقضى بخُلوده وبقائه ، وأنَّ مهمَّة الهداية والإرشاد الجليلةِ التي كان الأنبياءُ يُبعثون لها في العصور الماضية قد أُلقيتْ على عاتق هذه الأمة التي تَخْلُفُ خاتم النبيين ﷺ في هذه المهمة ، وأنه لا يخلو زمان من الأزمان من خُلفائه ودُعاته.

نُدْرَةُ شخصياتِ التجديدِ في الأَديان الأُخرى :

بالعكسِ من ذلك يَندُر في الديانات الأخرى شِخصياتٌ عظيمةٌ تعيد إليها الحياةَ والشباب ، وتُوجِد في أتباعها وأصحابِها الحركة والنشاط ، وتُوجِدُ فيهم الثقة بأديانهم وعقائِدهم ، وتنفُض عنهم غُبارَ القرون الماضية ، ورُكامَ عصور الانحطاط .

إنَّنا إذا استعرضنا تاريخَ هذه الديانات رأينا فتراتٍ طويلة قد تمتدُّ على مئاتٍ وآلافٍ من السنين لم يظهر فيها من رجال الدين والإصلاح من يُجدِّد هذا الدِّين ويُدِيلُه من أعدائه الذين تآمروا ضد رُوحه ونظامه ، وينقِّيه من شوائب البِدَع وألوانِ التَّحريف ، ويَعرضُه في صورته الصادقة ، ويدعو إلى أصل الدين وحقيقته دعوةً قوية سافرة ، ويُجرِّده من التقاليد والبدع التي لصقت به وهو منها براء ، ويحارب المادية والترفَ الذي ابتُليَ به أتباع هذا الدين ، ويُوجد بإيمانه القوي وبروحانيته الصادقة وبجهاده المتواصل روحاً جديدة في هذه الأمة ، وثقة جديدة بدينهم .

ونضربُ لذلك مثلاً بالمسيحية ، فقد امتُحِنت في عهدها الباكر ـ يعني في منتصف القرن الأول المسيحي ـ بتحريفٍ لا يوجد له نظيرٌ في تاريخ الديانات في عهدها الأول ، فقد انتقلت من ديانة بسيطةٍ توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس (Paul ـ١٠ ـ ٦٥م) وكان هذا الانتقال أشبهَ بقفزةٍ من رُوح إلى روحٍ ، ومن وضع إلى وضع ، ومن نظام إلى نظام ، لا يشارك الثاني الأول إلا في الاسم وبعض الطُّقوس ، ويتحدث عنه عالم مسيحي (Ernest de bunsen) فيقول :

«إنَّ العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيِّدُ المسيح بقوله وعمله ، إن مَردَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليومَ وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ، ذلك المارِق اليهودي والمسيحي ، وشَرحِه للصُّحف المقدسة على طريقة التجسيم Essenie

والتمثيل ، ومَلْئِه هذه الصحفَ بالنُّبوءات والأمثلة ، إن بولس في تقليده لإسطفانوس Stephen داعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليدَ البوذية .

إنَّه واضعُ ذلك المزيج ، من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم ، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً .

ليس المسيحُ ، بل بولس والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان ، همُ الذين وضعوا تلك العقيدة والنظامَ الديني الذي تلقَّاه العالم المسيحي كأساسٍ للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً» [١] .

وبَقيتِ المسيحيةُ قروناً طوالاً ـ ولا تزال ـ تحمل روح بولس وتحافظ على تُراثه ، ولم يظهر في العالم المسيحي في هذه المدة الطويلة من يثورُ على هذا الوضع الطارىء الدخيل على المسيحية ، ويحاول نَقْلَها إلى وضعها الأول الذي ترك عليه سيدنا المسيح خلفَاءَه المخلصِينَ من أتباعه .

وانسلختْ قرونٌ ومضت أجيالٌ إثر أجيالٍ ولم يظهرِ الرجل المنتظرُ لتجديد المسيحية وتجريدِها من الأجزاء الأجنبية ، حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي ، فظهر «مارتن لوثر» Martin Luther في ألمانية وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جُزئية ، وعارض بضع عقائدَ ألحَّتْ عليها الكنيسةُ النصرانية ، ولم يكن إصلاحها جوهرياً شاملاً ، ولا ثورةً ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ، ثم لم يخلُفْه رجلٌ في العالم المسيحي يرفعُ صوته ضد انحرافات الكنيسة واعتداءاتها ، ويقومُ بمثل الدور الذي قام به لوثر على ضعفِه .

يقول الكاتب الفاضل ج . باس مولينغر (J.Bass Mullinger) في مقاله في : «دائرة معارف بريطانيا» :

---

(١) Islam or Trueó Christianity P. 128.

«إذا بحثنا عن الأسباب التي جعلتْ جهود الإصلاح الديني قبل القرن السادس عشر لم تنجحْ أيَّ نجاحٍ نستطيع أن نقولَ بلا تلعثمٍ: إنَّ السَّبب الوحيد في ذلك هو خضوع عقلية القرون المتوسطة للمُثُلِ القديمةِ».

ويقول في محلٍّ آخر:

«إنَّ إخفاقَ الجهود المتابعة لاتخاذ قرارٍ جامعٍ حول إصلاح الكنيسة من حقائقِ التاريخ الأوربيِّ الثابتة».

ويقول:

«وُجِدتْ جهودٌ كثيرةٌ ذاتُ أهميةٍ بالغةٍ لإصلاح المذاهب قبل القرن السادس عشر. ولكنها وقعتْ فريسةَ ضغطِ الكنيسة وأخفقت».

وظلَّتِ المسيحية تمشي على الدَّرب الذي اختارته أو بالأصح فُرِضَ عليها، وضَعُفَ تأثير الكنيسة وانحلَّ سُلطانها في العهد الأخير، وقامت دولة الماديَّةِ في أوربة، وأصبحت الديانةَ الحقيقية التي خَلفتِ المسيحية وخلفتْ كل ديانةٍ في هذا العالم الغربي، فلَم يظهرْ في الأوساط المسيحية من يحارب هذه المادية ويُعيد المسيحية إلى مركزها في الحياة، أو يُوجد الثقة في المسيحيين بديانتهم، ويُنشىء فيهم القوة الروحية والخُلقية التي يُقاوِمون بها إغراءات الماديَّةِ القاهرة، ويتظاهرون بحياةٍ فاضلة تقوم على العلمِ والأخلاق والعقائِد المَسيحية، ويواجهون مُعضلات العصر وأزَماتِه، ويحاولون حَلَّها في ضوء الدِّين، بالعكس من ذلك نرى أن المفكرين والمؤلفين المسيحيين في أوربة يائسون من مُستقبل المسيحية، ومُصابون بمركَّبِ النقص أمام الماديَّة اللادينية.

* * *

وهكذا الدياناتُ الشرقيةُ الأخرى، فالبَرهميَّـةُ قد انحرفت انحرافاً شديداً عن جادَّتها الأولى، وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطرِ

الكون ، وفقدت قُوتها الخُلقية ، وتعقَّدت تعقداً أصبحت به فلسفةً دقيقةً غير عملية، وفقدت ـ على مَرِّ الأيام ـ التوحِيدَ الخالص في العقيدة، والعَدل في الاجتماع، وهما الدعامتان اللَّتان يقوم عليهما بناءُ ديانةٍ في الباطن وفي واقع الحياة.

وقد بدأ ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد وحاول مؤلفو أبنشد ـ شروح الكتب المقدسة عند البراهمة ـ أن يتداركوا هذا الفساد فرفضوا التقاليد والطقوسَ التي استحوذت على الديانة البرهمية والمجتمع الهندي ، وقدّموا نظاماً فلسفياً تصورياً يقوم على وجود الوحدة في الكثرة ، ونال هذَا العرضُ الجديد للديانة البرهمية رضا الأوساط العلمية لنزعتها الدائمة إلى «وحدة الوجود» ، ولكنه لم يُرض الشعبَ القاصر في الفكر ، المُفتقرَ إلى النظم العملية والتعاليمِ الواقعية ، وبقيتِ الديانةُ البرهمية تَفقدُ قُوتها ونفوذها ، وبقيَ التذمُّر منها وعدمُ الثقة بها يزداد ويقوىٰ على مر الأيام ، وتجسَّم هذا التذمر وهذا القلق المتفشي في المجتمع الهندي والتماسُ العِوَضِ عن الديانة الهرِمة في شخص بوذا Buddha ولم يكن ذلك إلا في القرن السَّادس قبل الميلاد.

ظهر بُوذا بفكرةٍ جديدة أو ديانةٍ جديدة ـ إذا كان لا بدَّ من هذه الكلمة [١] ـ تقوم على تجريد النفس وتهذيبها ، وقمع الشهوات ، والعفة والمواساة ، واللهج بالعمل ، وعلى رفضِ التقاليد والطقوس والتفاوت الطبقي الذي أُصيب به المجتمع الهندي في العهد الأخير ، وانتشرتْ هذه الفكرة أو الديانة بسرعة ، وشملت الجزءَ الجنوبي والشرقي من آسيا الواقعة بين بحر الهندِ والبَحر الكاهل.

ولكنْ ما لَبِثَتْ هـذه الحركـةُ الدينيـة العظيمـة أن انحرفتْ وتحرَّفت ،

(١) أتردَّد في إطلاق كلمة الديانة على البوذية لأنها لاتحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن المبدأ والمعاد كما يرجح أكثر المؤلفين والمؤرخين (راجع دائرة المعارف البريطانية كلمة «بوذا» Buddha).

وهجمتْ عليها الأوثانُ والتماثيل والطقوسُ التي حاربتها البوذية وثارت عليها ، حتى أصبحت في الزمن القصير ديانة وثنية لا تمتاز عن الديانة البرهمية إلا بأسماء الأوثان والتماثيل وعددها ، وأُصيبت بانحطاط في الأخلاق ، والتعقُّدِ في الأفكار ، والكَثرة في المذاهب والفِرق.

يقول أستاذُ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند: «لقد قامت في ظل البوذية دولةٌ تُعنى بمظاهر الآلهة وعبادة الأوثان ، وتغير محيط الرابطة الأخوية البوذية وظهرت فيها البدع»[١]. وتقول مؤلِّفة أوربية (Mrs. Rhys Davids) كما ينقل عنها رئيس الجمهورية الهندية (Sir Radha Krishnan): «لقد أظلتِ الأفكارُ العليلة تعليم بوذا الخُلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ، لقد نشأ مذهبٌ جديد في الديانة وازدهر وملك على الناس القلوب ، ثم اضمحلَّ وخلفه مذهبٌ آخر ، وهلمَّ جرا ، حتى تراكمت هذه الأوهامُ الخلاَّبة وحجبتِ الجوَّ ، وساد الظلام ، وقد اضمحلتْ دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتَّنطعات».

ولم يظْهَرْ في العالم البوذي الواسع وفي المدَّة الطويلة التي حكمت فيها البوذية وسادت ، مُصلحٌ كبير ينتصر للبوذية الأصلية ، ويُحارب البوذية الدخيلة بكل قوته ومقدرته ، يُجدِّد لهذه الديانة العظيمة شبابها الأول وبساطتها الضائعة ونقاءَها المفقود.

وهكذا بقيت الديانةُ البرهميَّةُ منكسرةً أمام البوذية التي تغلَّبت عليها وعلى رقعتها حتى جاء شَنْكَرْ أجَارِيَهْ (Shankiracharia[٢]) في القرن الثامن المسيحي.

وقام بنشاطٍ عظيمٍ في محاربة البوذية ونَشر البرهمية حتى تمكَّن من إجلاء

(١) الحضارة الهندية: لمؤلفه ايشورا توبا.
(٢) وُلد في ملابار جنوبي الهند، وجال في الهند من أقصاها إلى أقصاها ومات في الثانية والثلاثين من عمره.

الديانة البوذية من الهند وتضييق دائرتها وإضعاف سُلطانها حتى ضعفت جداً وبقيت ديانةً من الديانات الهندية القَديمة الدارسة.

استطاع شنكر أجاريه بنشاطه وحماسته وذكائه أن يُقصي البوذيةَ من الحياة ولكنه لم يستطع ـ ولعل الأصح أنه لم يُرد ـ أن يُعِيدَ البرهميةَ إلى وضعِها الأول، ويُعيدَ عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون، ورفض الوسائط بين العبد وربِّه، والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات.

ويقولُ كاتب مقال «موسوعة الديانات والأخلاق» C.V.H Chate الذي كان أستاذ السَّنْسكريتية بكلية «الفستن» في «بمباي» ويمتاز باطلاع واسع على الديانات القديمة وفلسفاتها، وهو يتحدَّث عن (شنكر أشاريه):

«إنَّ الغايـة الأولى التي استهدفهـا (شنكر أجاريـه) في حياته، هي إحياء ذلك النظـام الديني والفلسفة الدينيـة التي تَحثُّ عليهما «اوبنشد» (شروح الكتب المقدَّسـة عند البراهمة) إنه نشَرَ العقيدة المطلقة لوحدة الوجود، وكانت غايته الرئيسة أن يقوم بتعليم الناس أن «اوبنشد» و«بَهكْوَتْ كِيْتَـا» لا يتعرَّضان للقانون، وإنمَا جُلُّ ما فيهما هو تعليم وحدة الوجود في أكمل صورها.

إنَّ شنكر أشاريه لم يستنكر الوثنية ولا هاجمها. إن الأصنام عنده مظهرٌ للإله ورمز له. إنه ذَم الغُلوَّ في الطقوس والتقاليد وفلسفة الأعمال، ولكنه دافع عن عبادة الآلهة التي حَظيت بالقبول، يقول: «إن الوثنية حاجةٌ طبيعية لنا في مرحلة خاصة لنشأتها، وعندما تبلغُ الروحُ الدينية النضجَ والاكتمال تستغني عن الوثنية. فكلما تبلغ الروحُ الدينية مرحلة النُّضج يجب الإعراض عن المظاهر والرموز».

وقد سمَحَ شنكر أشاريه بعبادة الأصنام كرمز الإله. ولكن لمن لم يبلغ مبلغ

البراهمة الذين تحرروا عن الصفات ، وأصبحوا من النضج بمكانٍ لا يقبلون أي تغيير وتبديل»[١].

ولا تزالُ هاتان الديانتان الهنديتان ـ البرهمية والبوذية ـ محتفظتين بوضعهما المحدَث ، محتفظتين بتُراث عصور الانحطاط ، محتفظتين بالطقوس والتقاليد والأصنام والتماثيل ، وأخفقتْ جميع المحاولات والجهود التي تبتدىء من (شَنْكَرْ أَشَارِيَهْ) وتنتهي إلى (دَيَانَنَدْ سَرَسْوَتِي[٢]) إلى غاندي الزعيم ، أن تُعيدَ هذه الديانة القديمة إلى وضعها الأول ، وإلى الوضع الصحيح الذي يَتَّفق عليه مع رسالات الأنبياء والفطرة السليمة والعصر المتجدِّد.

وقد ألقتْ أوزارها أخيراً للمادية واللادينية واعتزلَتِ الحياة وانحصرَتْ في المعابد وفي بعض المظاهر والتقاليد ، ولا يُعرف في الهند دعوةٌ قوية ذاتُ بالٍ شعارُها وهتافها «إلى الدين من جديد» بينما نعرفُ دعواتٍ قويةً نشيطةً شعارها وهتافها «إلى الحضارة القديمة من جديد» وإلى لغة الهند القديمة الدارسة «السَّنْسَكريتية» من جديد.

حَاجـةُ الأديـان إلى الرِّجـال الأَحيـاء:

والسِّرُّ في ذلك أن الأديان لا تعيش ولا تزدهر ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد اضمحلالها وضعفها ، ولا تنسجمُ مع المجتمع المعاصر ولا تتلاءمُ مع روح العصر إلا عن طريق الرجال النوابغ الذين يظهرون فيها حيناً بعد حين ، يملكون الإيمان القويَّ الجديد وسمُوّاً روحياً لا يُشارِكهم فيه عامَّةُ الناس ، ونزاهةً ممتازة عن الأغراض وعزوفاً عن الشهوات وتفانياً في المبادىء والعقائد

(١) مقتطف من مقالة شنكر أشاريه باختصار وتلخيص، اقرأ كتاب: Encyclopaedia of Religion and Etchics (Fourth Edition 1958). Volume XI. Article Shankar Acharya.

(٢) واضع الديانة الآرية الثائرة على الوثنية وهي أشد الفرق حماسة وعداء للمسلمين وتقول بقدم العالم.

وفي سبيل الدعوة؛ ومستوىً عقلياً وعلمياً أرقى من الكثير ، ينفخون في أمتهم روحاً جديدة ، ويخلقون في أتباع دينهم إيماناً جديداً وثقة جديدة ، ويُلهبون نفوسهم بحاسة دينية جديدة.

وذلك لأنَّ مطالب الحياة وتكاليفَها مُتجدِّدة ، وإغراءات المادية قويةٌ جديدة دائماً ، وشجرةَ المادية لا تذوي ولا يعروها الذبول وهي خضراء لا تنقطع ثمارها ، وللمادّية ـ مع أنها غنيةٌ بسحرها على النفوس وإغرائها للطبائع عن الدعاة والترغيب ـ في كل عصر دعاة متحمسون ورجال مخلصون ، فإذا أصاب الدعوةَ الدِّينية الوهن ، وإذا أُصيب أهل دينٍ بضعفٍ في العقيدة ، أو ضَعفٍ في الخُلق أو ضَعْفٍ في الدعوة ، لم يستطيعوا أن يقاوموا المادّية الفتية والدعواتِ المعارضةَ القوية.

إنَّ الأصنام ـ باختلاف أنواعها ـ لا تزال مُحتلةً للحياةِ ، وإنَّ اللات ومناة ـ وهما رمزان للوثنية والهوى ـ لا تزالان في شبابهما وجِدَّتهما كما يقول إقبال ، فلا يَظُنَّ الدَّاعي أنه قد انتهت مهمته ، ولا تُمكن مقاومة المادية الفتاة ، ولا يمكن سحبُ اللات ومناة عن الحياة إلّا بالدّين القوي والإيمان الجديد والدّعوة المتحمسة والعِلم الراسخ والعقل الواسع.

تاريخُ الإِصلاحِ والتَّجديد مُتَّصلٌ في الإِسلام:

من الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتَّجديد متصلٌ في الإسلام ، والمُتقصِّي لهذا التاريخ لا يرى ثَغرة ولا ثُلمة في جُهود الإصلاح والتجديد ، ولا فَترة لم يظهر فيها من يُعارض التيار المنحرف ويُكافح الفساد الشامل ويرفعُ صوت الحق ، ويتحدَّى القوى الظالمة أو عناصرَ الفساد ويفتحُ نوافذ جديدةً في التفكير.

والدَّارسُ لهذا التاريخ والمُتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلامُ فيه على العالم الإسلامي ، وخبتْ مصابيحُ الإصلاح وخفتتْ

أصواتُ الحق ، وماتَ الضمير الإسلامي ، وتبلَّدَ الشعور ، وأضرَب الفكر الإسلامي عن العمل .

إنَّ هذه الثغرات التي قد نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلامي وفي نظرتنا العجلى في كتبه ، إن مردَّها إلى منهج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً ودرجت عليه الأجيال ، إن النقص ـ ومعذرتي إلى المؤلِّفين الذين أَدين لهم في معلوماتي ومحاضراتي ويدينُ لهم كل مؤلِّف ودارس ـ في التأليفِ وليس في التاريخ ، أو بكلمة أخرى: إن المسؤولية تقع على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المُجدِّدين والمصلحين الذين ظهروا حيناً بعد حين ، وحفظوا على الإسلام جِدَّته وشبابه ، وقضوا على كثير من الفِتن والبدع والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورةً في رُكام الماضي ، لا يهتدي إليها أحدٌ في هذا العصر إلا بعد بَحث وعناء ، وكثيرٌ من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها إلا بشق الأنفس وإجهادِ العقل والعين .

وقد كان بعضُ هذه المذاهب وبعض هذه الحركات تتمتع بحماية البلاط ، وتستندُ إلى الملك والسلطان والمال والجاه ، وقد كانت في عصرها صاحبة حَوْلٍ وطَوْل ، ولكنها طُويت ـ بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين ـ في صحائف الماضي ، وأصبحتْ موضوعَ علماء الآثار لا محل لها إلا في المتاحف والصحائف .

التَّجَنِّي على صَلاحية الإِسلام:

إنَّ هذا النقصَ في التأليف الذي صَرَّحْتُ به مع الاعتذار ، جعل كثيراً من الناس يعتقدون أن تاريخ الإصلاح والكفاح في الإسلام مُتقطعٌ يحتوي على ثَغرات واسعة وفترات طويلة ، لا ترى فيها إلا المندفعين مع التيار ، المستسلمين للفساد ، وأقزاماً في العقل والتفكير والعلم والإنتاج ، لقد كان يظهر «عملاق» أو نابغة أو عبقريٌّ بعد عصر طويل ، وقد تخلو قرونٌ ومئات

سنينَ عن عظيم يستحق أن يُسمَّى عملاقاً أو عبقرياً أو مجدِّداً في العلم والدين.

إنَّ هذه العقيدة الخاطئة التي لم تَقُم إلاَّ على الدراسةِ القاصرة المستعجلة للتاريخ، وعلى منهاج التأليف الذي اتَّخذه مع الأسف أكثر المؤرِّخين، وهو تأليف التاريخ الذي يدور حول الملوك وحاشيتهم، وحول الحوادث التي لها اتصالٌ بالسياسة والحكم، قد تنتهي ببعض الشباب المتحمِّسين وببعض رجال الدعوة إلى سُوء الظن بالإسلام وضَعف إنتاجه، إنها نتيجة خطرة تُضعِف الثقة بالإسلام، وتُضعف العاطفة والإرادة للكفاح في هذا العصر، فإن القوة الباطنة التي تدفع إلى الكفاح والعمل للدعوة، لا تنبعُ إلا من الثقة بالماضي، وبأن هنالك رصيداً من الجهاد والإخلاص، وسنداً من الكفاح والنجاح.

مَصادرُ التَّاريخ المهجُورة:

والذَّنْبُ ليس على المؤرِّخين فقط، إن الذَّنْبَ على من يقتصرُ على كُتب التاريخ «الرسمي» والمصطلح، ولا يتعدَّى هذه الكتب إلى الكتب التي لا تحمل اسم التاريخ ولا تُوجد في ركن التاريخ في مكتبة، ولكنها مادة واسعة للتاريخ، ومصدرٌ قيِّمٌ من مصادر التاريخ، هي كُتب الأدب وكُتب الدين والكتب التي دَوَّنَ فيها بعضُ العظماء اعترافاتهم وسجَّلوا حوادث حياتهم وتجاربهم، والكتبَ التي حفظ فيها بعضُ التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلمات شيوخهم أو مواعظَهُم، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار، ومجاميعُ الرسائل والخطب التي تدلُّ على روح أصحابها وفكرتهم، أو الكتُب التي أُلِّفتْ في الحسبة وفي انتقاد المجتمع وإنكار البدع والمنكرات.

فلو اتسعت الدِّراسةُ وشملت هذه المصادرَ المهجورة وتخصَّص لهذا الموضوع باحثٌ واسعَ الفكر، صبورٌ على المطالعة، دقيق في الملاحظة؛ استطاع أن يُنتج تاريخاً متصلاً شاملاً للإصلاح والتجديد والتفكير الجديد في الإسلام، يدل على أن الإصلاح والكفاح مرافقان لهذه الأمة لا يتخلَّفان عنها.

كيف يُؤلَّفُ تاريخُ الإصلاح؟

ويجبُ على هذا الدارس ألا يقتصر على بعض النقول ، وألا يقتضب العباراتِ المنقولةَ عن كُتب هذه الشخصيات العظيمة ، ولا يضُنَّ بالألفاظ والكلمات ، وألا يمرَّ بها وبمؤلفاتها ومنتجاتها مرّاً سريعاً في دراسته التاريخية ، بل يجب أن يعيش في كُتبها ومؤلَّفاتها وأفكارها مدةً ، ويتذوَّق أدبها وفكرتها ، ويتنسَّم طِيبها ، ويحاولَ أن ينتقل من جَوِّهِ إلى جَوِّ هؤلاء الرجال ، ومن عصره إلى عصرهم ، حتى يعرفهم على حقيقتهم ، ويُصوِّرهم في حقيقتهم ، ويُشعرَ القارىءَ أنه انتقل إلى عصرهم وعرفهم معرفةً شخصية ، وعاشَ معهم مدة من الزمان.

لذلك تسمحون لي بأن أَعرض لكلٍّ واحد ممن أذكرهم في محاضراتي أمثلةً مِن كتاباتهم وخطبهم ورسائلهم ، وقد تكون متنوِّعَة ، وقد تكون مُسهبَةً ، لأني أعتقد أن الرجل لا يُعرف إلا في كتاباته المتنوعة الطويلة ، ولا يجوز الحكم عليه إلا بعد مشاهدة طويلة ، ومجالسَ وألوانٍ من الحياة عديدة ، ولا سبيل لنا إلى هذه المشاهد وإلى هذه المجالس إلا عن طريق هذه الكتابات والمؤلَّفات.

تَطبيقُ مقاييسِ العصر على الشّخصياتِ القديمة:

ثمَّ الخطيئةُ الثانيةُ التي يرتكبها بعضُ المتحمِّسين والمؤلِّفين في هذا العصر ، أنهم يُكوِّنون في ذهنهم صورةً خاصّة للمُجدِّد أو المصلح ، ثم يلتمسونها في تاريخ الإسلام ومجموع صور الأعلام ، فإذا لم يجدوا هذه الصورة الحبيبةَ في التاريخ الإسلامي أو في عصر من العصور ، تذمَّروا وأنكروا ، وكثيرٌ منهم عندهم مقاييس خاصةٌ ، وهي مقاييسُ عصريةٌ يَقيسون بها «العظيم» أو «الدَّاعي» أو «المصلح» أو «المفكر» في كل زمن وفي كل بيئة ، فإذا لم تنطبقْ هذه المقاييسُ ـ التي هي مقاييس العصر ـ على رجل مهما كان عظيماً ، ومهما كان قديماً ، ومهما كانت خدمتُه للإسلام عظيمة ، ومهما كان

مخلصاً ، ومهما نجح في مهمته التي تكفَّلها أو أُسندت إليه ، أسقطوه أو بخسوه حقه ، ولم يَعدُّوه من المصلحين .

وبعضهم يلتزم مقياساً واحداً كمقياس الإبداع في الأفكار مثلاً ، أو فتح باب الاجتهاد مثلاً ، أو الكفاح لإقامة الحكم الإسلامي ، أو معارضةِ الدولة القائمة في عصره مثلاً ، فإذا لم يُحققْ هذه الشريطة ، لم يكنْ رجلَ عصره ، ولم يَستحقَّ أن يَدخُلَ في صفٍّ المُصلحين .

إنَّ هذه المقاييسَ والمعايير لها قيمةٌ عظيمةٌ ، وأنا لا أُنكِر أهميتها ومكانتها في الإصلاح ، ولكن الذي أريد أن أقول لكم : إن الزمان والبيئة عاملان هامان في حياة الرجال ، فلكل عصر مشاكلُ ومسائل ، وملابساتٌ وعوائق ، قد تحدِّد نطاق العمل ، وقد تفرِض منهَجاً دون منهج ، وأسلوباً دون أسلوب ، والغايةُ واحدة .

فلا يجوز لنا أن ننقل رجلاً من عصره ، ونُطبِّق عليه مقاييس هذا العصر ، ثم نحكُم عليه بالفشل والإخفاق ، أو الضعف والعجز ونسلبَه محاسن نفسه ، ونحرِمَه من كل مأثرةٍ وكل عظمة ، لأنه لم يحقِّق شرطاً من شروطنا ، ولم يكن «المثل الكامل» في الإصلاح المنشود ، والتجديدِ المطلوب .

التُّراثُ الإِسلامي مجموعةٌ تَدِينُ لكل مُصلحٍ وعامل:

إنَّ هذا التراث الذي وصل إلى أيدينا اليوم ـ ولستُ أسميه التراثَ بالمعنى الذي يريده الغربيون من كلمة (Legacy) ، لأن الإسلام دينٌ حيٌّ خالدٌ ، ولكنْ أسمِّيه بمعنى الثروة التي انتقلتْ إلينا من أسلافنا : تُراث العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة ، والإيمان القوي ، والسُّنَّة الخالصة ، والأخلاق المستقيمة ، وثروة الفقه والتشريع الزاخرة ، والأدب الإسلامي الرائع مجموعةٌ فيها نصيب لكل من ساهم فيها بإقامة حُكم على منهاج الخلافة الراشدة ، ومُحاربة الجاهلية والمادية ، وبالعودة إلى الله وإلى دار السلام ، وإحياء ما درس من الخصائص الإسلامية ، وبثِّ الروح الإيمانية في هذه الأمة .

ولكلٍّ مَن أوجد الثقة بالدين ومصادره وتعبيراته ، وردَّ هجماتِ الفلسفات الأجنبية .

ولكلٍّ مَن دافع عن الفكرة الأصيلة وعصم هذه الأمة من فتنةٍ هددتِ الإسلام .

ولكلٍّ مَن حَفِظ على هذه الأمة دينَها ، ومصادرَهُ ، وقام بتدوينٍ جديدٍ للحديث والفقه ، أو فتحَ باب الاجتهاد ، ومَنحَ هذه الأمة ثروة واسعة في التشريع ، وقانوناً مُنظِّماً للحياة والمجتمع .

ولكلٍّ مَن حاسب المجتمع في عصره ، وأنكر انحرافه عن مُثل الإسلام ونُظُمِهِ ، ودعاه إلى الإسلام الصحيح .

ولمَن سلك سبيل الإقناع العلمي في العصر الذي كثُرت فِيه الشكوكُ ، واضطربتِ العقائد ، ووضع لعصره كلاماً جديداً .

ولكل من خَلف الأنبياءَ في الدعوة والتذكير ، والإنذارِ والتبشير ، وحرك الإيمان في النفوس ، وقام في وجه المادية الجارفة في عصره ، فحدَّ من تأثيرها ، وأنقـذ خلقـاً كثيراً من الاندفـاع والغرق فيه .

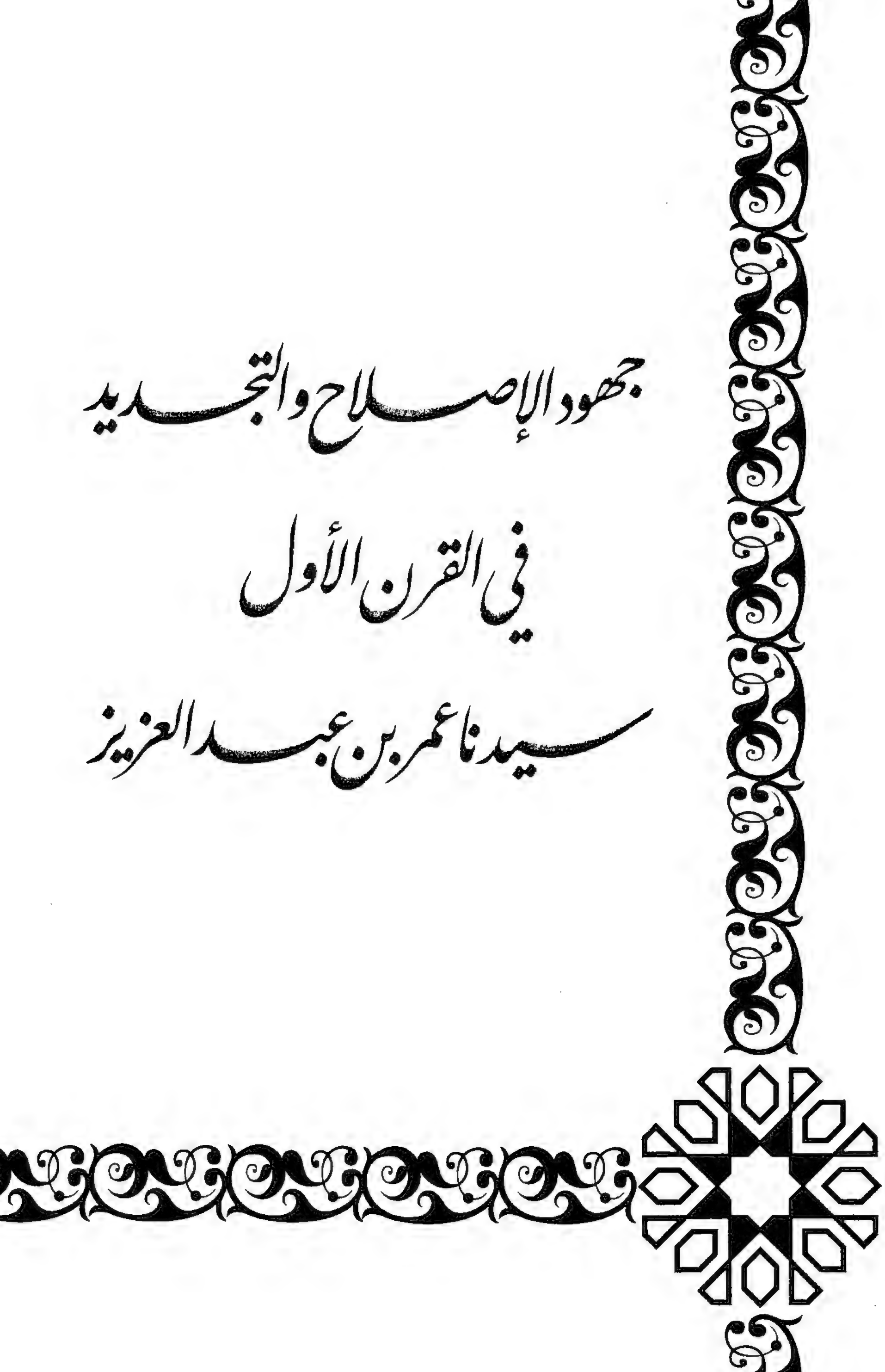
ولكُـلٍّ مَن حفظ هـذه الأمـة وقُوّتها السياسية من الانهيار ، ومن أن تكونَ فريسةً للغاراتِ الأجنبية ، ولمنْ أَخضع بدعوته الحكيمة الرفيعة عدوّاً لم تَعملْ فيه السيوف ، ولم تُقاومه الجنود ، وحطَّم العالمَ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، فسخَّرهُ أصحاب الدعوة بقُوتهم الروحية وإيمانهمُ القوي للإسلام ، وجعلوه من أتباع محمد عليه السلام ، ولمن أخضع بأدبِه القوي وشعره البليغ عقولاً لم تُخضعها المباحثُ العلمية والفلسفات الدينيةُ إلى غير ذلك ، ولكُلٍّ فضلٌ .

وما التاريخُ إلا تأديةُ الأمانات إلى أهلها، والحُكمُ بالعدل، والاعترافُ بالفضْلِ، وقد قام كلٌّ واحدٍ منهم بدوره، وساهم بقسطه؛ القسط المطلوب منه، وكلٌّ كان مرابطاً على ثغر من ثغور الإسلام ، وكلٌّ كان سهماً مُصيباً في كنانة

الإسلام ، ولولا هذه الجهودُ المخلصة ، ولولا هذه الأقساط التي قد لا تُرى إلا بِمُكَبِّـرَة التاريخ ، لما وصلتْ إلينا هذه المجموعة التي نَعتزُّ بها ونَستندُ إليها ، ونقتبسُ منها النور سليمةً مَوفورة نتباهى بها على الأمم والديانات.

وعلى هذا المنهاج الذي أعتقدُ أنه المنهاج العادل الواسع ، سأتحدّث عن هذه الشخصيات الإصلاحية ، وعن عصورها والظروف والملابسات التي تكتنفها ، ومقدارِ نجاحها في حقل الدّعوة والإصلاح والتجديد ، وبِيَـدِ اللهِ التوفيقُ.

* * *



جهود الإصلاح والتجديد

في القرن الأول

سيدنا عمر بن عبد العزيز

المحاضرة الثانية:

جهودُ الإِصلاح والتَّجديد في القَرْنِ الأول
سيدُنا عمرُ بن عَبد العَزيز

النَّـزعَاتُ الجاهليَّةُ في العَهْد الأُموي:

كانتْ نهايةُ الخلافة الراشدة واستحكامُ الدولة الأموية ـ التي كانت بالاختصار دولةً عربيةً أكثر منها دولةً إسلاميةً ـ انتقالاً جديداً في تاريخ الإسلام، وفرصةً انتهزَتْها الجاهليةُ التي كانت لا تزال بالمِرصاد، فعاشت النزعاتُ التي قضى عليها الإسلام، وعادت العصبِيَّاتُ القبليَّةُ والنخوةُ الجاهلية التي نعاها النبي ﷺ في خطبته بقوله: «إنَّ الله قد أذهبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وتَعظُّمها بالآباء، كلُّكم من آدم، وآدمُ من تراب، لا فَخرَ لِعَربيٍّ على عَجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلاّ بالتقوى»[1] والتي نفاها الإسلام من مراكزهِ وحواضره، فلجأتْ إلى بادية العرب.

---

(١) [أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في التفاخر برقم (٥١١٦)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن، تفسير سورة الحجرات برقم (٣٢٧٠)، وفي أبواب المناقب، باب في ثقيف وبني حنيفة برقم (٣٩٥٥)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٣٢) برقم (٢٠٨٥١)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦١ـ٥٢٣) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

عادت هذه العصبيّاتُ إلى نشاطها ونفوذها ، وأصبحتْ هذه العصبيّةُ الذميمةُ والنخوة الأثيمة ، والأثَرةُ القَبليّة والطائفية والنَّسَبيّةُ التي هي أشدُّ خطراً على المصلحة الاجتماعية ، وأشدُّ معارضة للروح الإسلامية من الأَثَرةِ الفردية ، فضيلةً في هذه الحياة ومفخرةً من مفاخر الإنسان ، بعد ما كانت رذيلةً من رذائل الجاهلية ، وَسُبّةً على الرجل المؤمن.

وحدث انقلابٌ خطيرٌ في دوافع العمل ـ التي هي من أقوى العوامل في الحياة الفردية والجماعية ـ فأصبح الرجل في هذا العهد مدفوعاً إلى العمل ، مدفوعاً إلى المَكْرُمات والبطولات ، وإلى الجُود والمواساة بدافع من السُّمعة والرِّياء ، والظهور في القبائل والمجامع ، والتّفوُّق على الأقران ، بعدما كان مدفوعاً إلى ذلك بدافع من الأجر وثواب الآخرة ورضاً من الله.

وقِصَّةٌ يرويها أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني» تُمثل هذا التطورَ الخطيرَ ، وهذه الروح الجاهلية التي كانت تُخامِرُ رؤساء القبائل وأشراف العرب في ذلك العهد خيرَ تمثيل ، قال:

«حَدَّث ابنُ عياش قال: كان حَوْشَبُ بن يزيدَ بن الحارث بنِ رُؤيم الشيباني ، وعِكْرِمَة بن رِبْعِيّ يتنازعان الشرفَ ، ويتباريان في إطعام الطعام ونحر الجُزُر في عسكَر مُصعب ، وكان حوشَب يغلبُ عِكرمة لسَعة يِده ، وقال: وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بُحتر الفقيه بسفائن ، فأتاه عكرمة فقال له: اللهَ اللهَ فيَّ ، قد كادَ حوشب أن يَسْتَعليني ويَغلبني ، فبعْني هذا الدقيقَ بتأخير ، ولك فيه مثل ثمنِه رِبحاً ، فعجنُوه كُلَّه ثم جاء بالعجين كُلّه ، فجَمَعَهُ بِهُوَّةٍ عظيمة ، وأمر به فَغُطِّي بالحشيش ، وجاء برَمكَةٍ[1] ، فقرَّبوها إلى فرس حوشب ، حتى طلبها وأفلت ، ثم ركَضوا بين يديه وهو يَتبعها ، حتى ألقوها في ذلك العجين ، وتبعها الفرس حتى تورطا في العجين وبقيا فيه جميعاً ، وخرج قومُ عكرمة يصيحون في المعسكر: يا معشر المسلمين أدركوا فرس

---

(١) الرمكة : الفرس تتخذ للنسل.

حوشب فقد غرق في خمير عكرمة ، فخرج الناس تعجُّباً من ذلك أن تكون خميرةٌ يغرق فيها فرسٌ ، فلم يبق في المعسكر أحد إلا ركب ينظر ، وجاؤوا إلى الفرس وهو غريقٌ في العجين ما يبين منه إلا رأسُه وعُنقه ، فما أُخرِج إلا بالعُمد والحِبال ، وغَلب عليه عكرمة ، وافتضح حَوشب»[١] .

وهذه وإنَّ كانتْ قصةً فردية ـ ولم يكن كُلُّ رئيس للقبيلة وكُلُّ شريفٍ في المجتمع الأموي ، يحمل روحَ عكرمة ويضعُ هذه التمثيلية الغريبة لاشتهار جُوده وتفوُّقِه في إطعام الناس ، وكان في هذا المجتمع أجوادٌ مخلصون ، يحرصون على إخفاء مَكرماتهم ـ ولكنها لا شك تُصوِّر الغاية التي وصل إليها تأثير الجاهلية ونفوذها ، والتَّفكيرُ الجاهلي في المجتمع الأموي الإسلامي .

والذي يُقارن بين هذه القصة الطريفةِ وبين ضِيافةِ أبي طلحةَ الأنصاري رضي الله عنه وإطفائِه للمصباح حتى لا يَفطَنَ الضيوفُ بقلّة الطعام ، وامتناع المضيف عن الأكل[٢] ؛ يستطيع أن يَقيس المسافة النفسية والهُوة الواسعة التي وقعتْ بين العهدين ، ويعرفَ التطور الذي حَدث في المشاعرِ والتفكير .

وقد أصبَحَ بيتُ المال الذي كان ملكاً للأمة ، ملكاً لفردٍ واحد ، خاضعاً لشهواته وتصرفاته ، وكان المبدأ الإسلاميُ المسيطرُ على هذه الأموال هو ماذكره الرسول ﷺ في كلمته الجامعة : «تُؤخَذ مِن أغنيائهم وتُرَدُّ على فقَرائهم»[٣] ، فأصبح المبدأ المسيطرُ في هذا العهد : «تؤخذ من فقرائهم وتُرد

---

(١) الأغاني .

(٢) والقصة بطولها في كتب الحديث والسيرة، راجع تفسير قوله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] في تفسير ابن جرير الطبري وابن كثير .

(٣) حديثٌ شريفٌ ورد في كتب السنة المعتمدة . [أخرجه البخاريُ في كتاب الزكاة برقم (١٣٩٥) ، وباب لا تؤخَذ كرائم أموال الناس في الصدقة برقم (١٤٥٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام برقم (١٩)، وأبو داود في كتاب الزكاة ، باب في زكاة السائمة برقم (١٥٨٤) ، والترمذي في أبواب الزكاة ، باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة برقم (٦٢٥) ، والنسائي في =

على أغنيائهم وأمرائهم وشُعرائهم» ، وأحاطت بالخليفةِ هالةٌ من الشعراء المحترفين ، والنُّدماء المتزلِّفين المتملِّقين ، تُنفق عليهم أموالُ الصدقاتِ بسخاء.

وَبينما كان عليٌّ ـ الخليفة الراشد ـ يُعاتب أحد عماله على أنه حضر دعوةَ لقومٍ «عائلُهم مَجْفوٌّ وغَنيُّهم مَدْعُوٌّ»[١] ، أصبحت دعوة الأغنياء وإكرامُهم ، وطرد الفقراء وإهانتهم عادة فاشية وسُنّة متبعة.

وبينما كان الفاسق يُقصى ويُجْفى ، أصبح يُكرم ويُدنى ، لشعره أو غنائه في السياسة أو مصالح الدولة.

فقد حدَّث المؤرِّخون ، أنّ الأخطل كان يدخل على عبد الملك بغير إذن ، وعليه جُبَّةُ خَزٍّ ، وفي عُنقه صليبُ ذَهب ، ولِحيته تنفُض خمراً[٢].

ومنزلَةُ الحجّاج بن يوسف ـ على سفكه للدماء وجرأتِه على الله ـ عند الأمويينَ معلومةٌ.

وقد شاعَ الغِناء في العهد الأُموي شيوعاً عظيماً ، وعَظُمَ الشَّغفُ به في حواضر الدولة الإسلامية حتى يَزور مُغَنٍّ مثل «حُنين» المدينة ويجتمع الناس في منزلٍ من منازل البلد ، ويزدحمون على السطح ويكثرون ليسمعوه، فيسقُط الرُّواق على مَنْ تحته ، ويموت المغنّي تحتَ الهدم[٣]، إلى غير ذلك من الظواهر التي تدل على تطور المجتمع الإسلامي ونزعاته الجديدة.

وقد أثَّرت سِياسةُ الدولة وحياةُ رجال الحكم المترفة تأثيرَها الطبعي في ميول الناس ومَقاييسهم للسعادة والشرف ، ونشأت في المسلمين طبقةٌ مُترفةٌ

= السنن الكبرى (٢/ ٣٠) برقم (٢٣٠١) وابن ماجه في أبواب الزكاة ، باب فرض الزكاة ، برقم (١٧٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنه].

(١) نهج البلاغة.

(٢) الأغاني: ج٧ ، ص ١٧٨.

(٣) انظر الأغاني: ج ٢ ، ص ١٠٧.

تشبه المترَفين في الأمم القديمة في أخلاقها وسلوكها ورغَباتها ، ولا تمتاز عنهم إلا ببعض العقائد والعباداتِ ، وبالبقية الباقية من الإسلام ، وهي بقيةٌ لها قيمةٌ لا تُنْكَر.

وقد دلَّ كلُّ شيءٍ في هذا المجتمع على أنه تدلَّى تدلياً عظيماً ، وعلى أن الجاهلية ـ الثائرة الموتورة ـ قد نَهضتْ تَنْتَصِفُ مِن مُنافسِها ـ الإسلام ـ وهي حريصةٌ كلَّ الحرص على ألا تفوتها الفرصة ، وتُريد أن تستوفي أربعينَ سنة ـ مضت في ازدهار الإسلام روحيّاً وخُلقيّاً ـ في بِضْعِ سنين.

أعلامُ الدّين وشخصيّاتُه البارزةُ وتأثيرُها:

ولكن يجب ألاَّ ننسى أنَّ الدِّين كان لا يزالُ له السُّلطان الروحيُّ والمكانةُ الأولى في قلوب الناس حتى في هذا العصر ، وكان الجمهورُ من الناس لا يُقرُّون هذه المنكرات وهذا الإسفاف ، وكانوا لا يزالون ينظرون إلى الخلفاء والأمراء وحاشيتهم ومن سار سيرتهم ، بنظرة فيها الانتقادُ وفيها الازدراء وفيها السُّخط.

وكان الشعب لم يَسُغْ بعدُ هذا التطور ، وكان لا يزال ـ باستثناء المتَّصلين بالخلفاء اتصالاً وثيقاً وباستثناء من تغيَّرت نفسيتُه ـ ينظرُ بإِجلال إلى العلماء وإلى أصحاب الدِّين والاستقامة والخلق ، ومن آنسَ فيهمُ الزهد في حطام الدنيا والابتعادَ عن أصحاب الحُكم والسلطان ، وعفافاً وقناعةً وترفُّعاً عن المطامع والمناصب ، واشتغالاً بالدعوة إلى الله ونشرِ العلم ، والنُّصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين ، وكانوا أعزَّ وأكرم عندَه من كثير من أصحاب الجاه والنفوذ والثروة ، وحتى من الخلفاء والأمراء في بعض الأحيان.

ويُمكن أن يُقال: إنَّ نفوذ الخلفاء والأمراء كان محصوراً في دائرة خاصة ، هي الدائرةُ السياسية ، ودائرة الطَّبقة التي تُسمى في هذا العصر «الطبقَة الأُرستقراطية».

أمَّا خارج هذه الدائرة وفيما عدا هذا الوسط ، فكان يسود فيه أهلُ الصلاح

والعلم ، وأهلُ الزُّهد والتقوى ، والصالحون والعلماء من أبناء الصحابة ، والسادةُ من أهل البيت النبوي ، فإذا اجتمع من يُمثل هذه الطبقَة الصالحة من سادات التابعين وأهل العلم والدين ، ومن يُمثل الحكومة والإمارة والجاه والسلطان ، غلب سُلطان الدين والسلطانُ الروحي على سلطان السياسة والحكم.

يُمَثِّلُ ذلك أجملَ تمثيل ما وقع لِهشَام بن عبد الملك يومَ كان وليَّ العهد ، مع سيدنا علي بن الحسين المعروف بزين العابدين ، فقد روى المؤرِّخون «أن هشام بن عبد الملك حجَّ في أيام أبيه وطاف وجَهد أن يصل إلى الحجر ليستَلِمه ، فلم يَقدرْ عليه لكثرة الزحام ، فنُصب له منبرٌ وجلس عليه ينظر إلى الناس ، ومعه جماعةٌ من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين عليُّ بنُ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وكان من أحسنِ الناس وجهاً ، وأطيَبهم أَرَجاً ، فطاف بالبيت ، فلما انتهى إلى الحَجَر تنحّى لهَ الناسُ حتى استلم ، فقال رجلٌ من أهلِ الشام: مَنْ هذا الذي قد هابَهُ الناسُ هذه الهيبةَ؟ فقال هشام: لا أعرفه ، مخافَة أَن يرَغبَ فيه أهل الشام فيُملِّكُوه ، وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه ، فقال الشَّاميُّ: مَن هو يا أبا فراس؟ فقال قصيدتَه السائرةَ التي مطلعُها[1]:

هذا الذي تَعرِفُ البَطحاءُ وطـأَتـهُ ... وَالبَيْـتُ يعـرِفُـه والحِـلُّ والحَـرَمُ

وهذه القصةُ وإنْ كانت بسيطة في الظاهر ، تَدُلّ على ما كان يتمتعُ به أهل الفضل والدّين ورجالُ الأسرة النبوية وساداتُ التابعين ، من النفوذ والإجلال.

وقد كان لسيدنا حسن المثنَّى بن حسن بن علي بن أبي طالب وابنه عبد الله المحض ، وسالم بن عبد الله بن عمرَ ، وقاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ، وسعيدِ بن المسيِّب ، وعروة بن الزبير ، مكانةٌ مرموقة ومنزلةٌ عالية في

(١) وفيات الأعيان: لابن خلكان الجزء الخامس ص١٤٥ ، طبع مكتبة النهضة المصرية.

قلوب الناس ، وتأثيرٌ كبير لما يقولونه[١] .

وكان لهذه المكانة ولهذا النفوذ الروحي ولهذا الإجلال والحبّ العميق الذي يَدينُ به الشعب لهم سلطانٌ يحفظ على الشعب جلالَ الدين ومهابتَه ، ويمنعه من الاندفاع المتهوِّر إلى التَّرف الفاحش والحياة الجاهلية السافرة ، والجهر بالمعاصي والمنكرات ، ويمنع من أن يكون الخليفةُ المستهتر ،أو الأمير السِّكير ، أو المغني المعربد ، أو الشاعر الماجن «المثل الكامل» للمجتمع ،ويُحدِث وجودُ هؤلاء الأعلام صراعاً نفسياً على الأقل ، ويُحدِث ـ إذا فرطت من أحدٍ معصيةٌ أو زل زلَّةً أواتَّصل بالخلفاء والأمراء ـ تأنيباً داخلياً ووخْزاً للضمير وتألُّماً نفسياً .

وهذا الصراعُ وهذا التأنيب لهما قيمة لا يُستهان بها ، ولهما تأثير لا يُقلَّل من أهميته ، ويمكن أن يُعرف غناؤهما في مجتمع لا يملك إلا طرازاً واحداً من البشر ، وهو الطِّراز الرسميُّ أو المادي ، وفقدُ العُنصر الذي يختلف عنه كل الاختلاف ، واكتسحت موجةُ المادية هذه المجتمع ـ كما نرى في أوربة ـ فلا صراع ولا تأنيب ، ولا جزيرة في هذا البحر الماديِّ المائج ، ولا منارَ للنور في هذه الظلمات ، ولا أسوة يأتسي بها الإنسان ، وللأسوة والمثال العملي سحرٌ في النفوس لا يجهلُه علماءُ النفس والأخلاق .

الحاجةُ إلى تغيير الحُكومة ، والصُّعوباتُ في سبيله:

وظَلَّتِ الحكومةُ ـ الأمويةُ ـ تُؤثِّرُ في الميول والنزعات ، وفي مقاييس الحياة ، وتفعل فِعلها الطبيعي في المجتمع والحضارة ، والأخلاق والاجتماع ،وظَلَّت الشخصيات الدينية تفقدُ نفوذها على مرِّ الأيام وينتقصُ عددها ،وتضيقُ دائرة نفوذها ، فلا مطمعَ إذاً في ثورة دينية وخلقية ، وتحَسُّنٍ كبير في أحوال المسلمين وأوضاعهم ، إلا بحدوث انقلاب صالح في الحكومة ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وقد قامتِ الحكومة الأموية على

(١) انظر: تراجمهم في «وفيات الأعيان» و«صفة الصفوة».

أُسَس عسكرية متينة لا تتزعزعُ ولا تضطرب ، وكانت جديدة فتيّةً لا تزالُ بعيدةً عن الضَّعْف والهَرَم ، ولم تكن في داخل المملكة وخارجها قوةٌ حربية تهزمها في الميدان ، وقد أخفقتِ المحاولات والجهود التي قام بها المخلصون والأكفاء ، مثل الحُسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وعبدِ الله بن الزبير رضي الله عنهما ، لِقَلْبِها والتخلُّص منها وإقامة حكومة إسلامية راشدة من جديد.

وقد قَطَعَ نظامُ الوراثة الذي سار عليه الأمويون ومبدأ الحكومة الشخصية التي كانت الحكومةُ تدين به، كلَّ أملٍ في الإصلاحِ والتغيير، وأصبح الجالسون على عَرش الحكومة والمتملّكون لزِمامها ، سلسلةً من حلقاتٍ متشابهة آخذٌ بعضُها برقاب بعض ، فكان كل شيء يَدُلُّ على أن الحكومةَ ستستمر على هذا الحال ، وأنَّ المسلمين قد كُتب لهم أن يعيشوا في مثل هذه الأوضاع، وكان الإسلامُ في عودته إلى مركزه في الحياة يحتاج إلى «مُعجزة» ، فقد عَجزتِ الأمورُ العادية والحوادثُ العادية عن إعادته إلى مكانه ، وعنْ إصلاح الأوضاع الفاسدة ، وعن قلب التيار القوي الجارف ، وإنما كان يحتاج إلى خارقةٍ للعادة تقعُ خلاف القياس ، وتقع على غفـلة من الناس، وعلى غير تَـرَقُّب منهم ، فتُـغيِّـرُ مجرى الأمور ، وتُبهر العقولَ والعيون.

استخلافُ عُمرَ بنِ عبد العزيز:

كان عمرُ بنُ عبد العزيز هذه «المعجزةَ» الباهرةَ ، وكان كلُّ شيءٍ في حياته يدلُّ على أنه معجزةٌ من المعجزات التي خبّأها اللهُ لنصرة الإسلام ، يُولَدُ في البيت الحاكم ، ويَنشأ نشأة الأمراءِ المُترَفين ، ويَشتهر بالظُّرْفِ والتَّرف والأناقة في اللباس والمظهر ، ويكون شامةً بين الناس ، وفتى بني أميةَ الذي يحرص على تقليدهِ الظرفاءُ والمتنعِّمون.

يتحدَّثُ عنه اللَّيثُ بن سعدٍ فيقول: «كان عمرُ بنُ عبد العزيز أعظمَ أُمويٍّ تَرفُّهاً وتَملُّكاً» غذي بالملك ونشأ فيه ، لا يُعرف إلا وهو تعصف ريحهُ ، فتوجد رائحته في المكان الذي يَمُـرُّ فيه ، ويمشي مِشيةً تُسمَّى العُمريَّـةَ ، فكان

الجواري يتعلَّمنَها من حُسنها وتَبختره فيها ، وكان يُسبل إزاره حتى ربما دخلت نَعلُه فيها فيتحاملُ عليه ، فيشقه ولا يخلعُها ، ويَسقط أحدُ شِقَّيْ ردائه عن مَنكبه فلا يرفعهُ ، وتنقطِعُ نعله فلا يعرِّجُ عليها ، وربما لحقه بها المملوك فيُعتِقه ، ويضع الطيب بخاتمه فتنسخ الطِّينة من العَنبر»[١].

وكان أميرَ المدينة في عهد ابن عمه الوليد ، وكان أثيراً في عهد ابنِ عمه سليمان ، وكان لا يمتاز عن بني أعمامه وإخوته وأترابه إلا بسلامة الفطرة ، والاعتراف بالحقِّ ، والتواضع والعفاف «فلم يغمص في ولايته ـ على ترفهه ـ في بَطْنٍ ولا فَرجٍ ولا حُكمٍ» وكان لا يمتاز عنهم إلا بدمٍ زكيٍّ فيه نصيبٌ للفاروق العادل ، جاءه عن طريق أمِّه أمِّ عاصِمٍ بنت عاصم بنِ عمر بنِ الخطاب وجدَّته ـ لأمه ـ صاحبةِ القصة المعروفة في اللَّبَن.

ولم تكن سيرتُه ومواهبه مع ذلك تدلُّ على أنه سيقوم في تاريخ الإسلام بهذه المأثرة العظمى التي عز نظيرها في تاريخ الحكم والإصلاح ، وأنه سيكون ذلك العصاميَّ الذي كان يرتقبه الإسلام ويحتاجُ إليه المسلمون في هذه الساعة الدقيقة ، وأنه سيُعيد الخلافةَ الراشدة من جديد ويرُدّ التاريخ على أعقابه[٢].

وكان استخلافُه لا يقلُّ عن مُعجزة ، فلو جَرتِ الأمورُ مجراها الطبيعي لم يكنْ له نصيبٌ في غير الإمارة وولاية بعض الإقطاع ، ومن أيْن تقفز إليه الخلافة وتتخطى أولادَ سليمانَ وهو صاحبُ الأمر ؟

ولكنَّ للهِ في خلقه شؤوناً[٣] ، فقد كان لسليمان بن عبد الملك ابنٌ يقال له أيوبُ بنُ سليمان ، عُقدت له خلافة ولاية العهد من بعده ، وتُوفي أيوبُ قبل سليمان ، ولم يبقَ لسليمان إلا ولدٌ صغير ، فلما حضرتْه الوفاة أراد أن

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: لعبد الله بن الحكم ص ٢١ ، بعناية وتصحيح الأستاذ أحمد عبيد.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: لعبد الله بن الحكم ص ٢٠.
(٣) اقرأ القصة في ص١٧و ١٨ من «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم.

يستخلفَ، فحضره عمر بنُ عبد العزيز ورجاء بنُ حَيَوة، فقال لرجاء: اعرضْ عليَّ ولدي في القُمص والأردية، فعرضهم عليه، فإذا هم صغارٌ لا يحتملون ما لبسوا من القُمص والأردية يسحبونها سحباً، ثم قال: يا رجاء، اعْرض عليَّ بنيَّ في السيوف، فقلَّدوهم السيوف، ثم عرضهم عليه فإذا هم صغارٌ لا يحملونها يجرُّونها جرّاً. فلما لم يرَ في ولده ما يُريد حدَّث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز لما كان يعرف من حاله، فشاورَ رجاءَ فيمن يَعْقِدُ فأشار إليه رجاءٌ بعمرَ، وسدَّد له رأيَه. فوافَق ذلك سليمان وقال: لأعقدن عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب[1].

وهكذا جاءت الخلافةُ إلى عمر بن عبد العزيز وهو غافلٌ عنها زاهد فيها، وكان لرجاء مأثرةٌ لا ينساها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتُفعَ بقُربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهزَ الفرصة مثل انتهازه، وأسدى للإسلام خدمةً مثلَه.

حياتُه بعدَ الخِلافة:

كان مِن أوَّل ما بدأ به عمرُ في خلافته هو عزلُه لبعض الولاة الجائرين، ورفضُه لمظاهر الأُبَّهةِ والفَخفخة التي جرى عليها الخلفاءُ الأمويون عند استخلافهم، وردُّ كل ما عُرض عليه في ذلك الوقت من مواكبَ وسرادقات جديدة إلى بيت المال، وتغيَّرتْ سيرتُه في تلك الساعة، فكأنه لا يتصل بآبائه بصلةٍ، ولا يعرفُ غير عمرَ أُسوةً له. رَدَّ الجواري إلى أهلهنَّ وبلادهنَّ، ورد المظالم، وردَّ المجالس التي أَشبهت مجالس الأباطرة، وتمسَّكت بِسَنن كِسرى وقيصر إلى بَساطتِها الأولى ووضعِها الإسلامي، فنهى عن القيام له، وابتدأ بالسلام، وأباح دخول المسلمينَ عليه بغير إذنٍ، وخرج من مالهِ وعَقاره، وردَّه إلى مال المسلمين، ووضع حُلِيَّ زوجته في بيت المال، وبلغَ من الزهد والشظَف في الحياة والتَّقشُّفِ في المعيشة مبلغاً

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن عبد الحكم، ص٢٩ ـ ٣٠.

يعجَزُ عنه الزهاد فضلاً عن الملوك والأمراء .

فقد كان يتأخَّر في بعض الأحيان عن الخروج لصلاة الجمعة انتظاراً لقميصه أن يجفَّ ، وقد يكون طعامُ بناتهِ عدساً وبَصلاً فيبكي ويقول : يا بناتي ما ينفعُكنَّ أن تعشَّيْنَ الألوانَ ويُؤمَرَ بأبيكُنَّ إلى النار؟

ويَشتهي الحجَّ فيقولُ لمولاه : إنِّي قد اشتهيْتُ الحجَّ فهل عندكَ شيءٌ؟ قال : بضعةَ عشر ديناراً . قال : وما تقعُ مني؟ ويمكث قليلاً ، فيقول له مولاه : يا أمير المؤمنين تَجهَّزْ فقد جاءنا مالٌ سبعة عشر ألف دينار من بعضِ مال بني مَرْوَان ، فيقول : اجعلْها في بيت المال ، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا ، وإن تكن حراماً فكفانا ما أصبْنا منها .

وكانت نفقتُه اليومية لا تزيد على درهمين ، حين كان يفرض للعمال ثلاثمئةِ دينارٍ لكل واحد ، ليُغنيهم عن الخيانة ، وكان يتورَّع عن تسخين الماء على مطبخ العامة ، ويتورَّعُ عن شَمِّ مِسْك الفَيْءِ ، وكان يُطفىءُ الشَّمعة التي زيتُهَا من بيت المال إذا شغله أحدٌ بالسؤال عن شخصه ، كراهةً لإنفاق مال المسلمين في غير حاجاتهم .

ولم يكنْ تورُّعه وضَنُّه على مال المسلمين نَزعةً غريبةً في الزهد ، نقرأ أمثلتها في كتب التاريخ والتراجم ، في مثل «حلية الأولياء» لأبي نُعيم ، ولم يكن فيه شيءٌ من الغلوّ والإسراف أو الزُّهد الأعجمي ، فقد كان بعيداً عن كل ذلك ، إنما هي الطبيعة الدينية ونتيجةُ الإيمان القوي ، والشعورُ بالمسؤوليةِ ، ومعرفةُ قيمةِ الحياة واستحضارُ الآخرةِ ، ونتيجة «الحُب» الذي إذا ملك القلب واستولى على الشعور ، ذابتِ الرَّغبَاتُ وتغيَّرتِ القِيَمُ والأقدار .

ولولا هذه المؤاخذةُ الشديدة للنفس ، ولولاَ هذا الحَذر الشديد من ملاذِّ الحياة والتَّمتع بالمباحات ، لما استطاع مثلُ عمرَ بنِ عبد العزيز ـ وهو أكبرُ ملوك الأرض في عصره ـ وهو في دمشق ـ عاصمةِ العالَم المتمدِّن يومئذ ـ أن يحفظ نفسَه من الاندفاع إلى التَّرَفِ ، ويَضْربَ مثلاً عالياً لأُمرائه وعُمال مملكتهِ

في الورع والزهادة والتحرُّز من الشُّبهات، وما استطاع أن يُخففَ غلواء المدنية المترفة ويَحد من شِدَّتها وشِرّتها.

ولم يكنْ تورُّعه مقتصراً على ذاته ـ كما يفعله كثير من الزهاد ـ بل كانت سياسةً عامة كان يريد أن يطبّقهَا تطبيقاً دقيقاً على الدولة ورجالها. فكان يطلب منهم ويَعْزِمُ عليهم أن يكونوا مُتورِّعين في أموال المسلمين، لاَ ينفقون منها إلا القدْر اللازم، وأن يكونوا أشِحَّة على أنفسهم أسخياء على المسلمين بخلاف ما تجري عليه الحكومات هذا اليوم.

وكان حريصاً على أن يوفر على المسلمين أموالهم، ويعتقدُ أن الدرهمَ دمٌ فلا يجوز أن يجري في غير عروقهم، ولا يرى أن يضيع في الكماليات والشَّكليات، كتَبَ إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، ـ وكان والي المدينة ـ: «أما بعد، فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه أنه كان يَقطع لمن كان قِبلك من أُمراءِ المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئونَ به في مخرجهم، فابتليتُ بجوابك فيه، ولَعمري لقد عَهِدْتُكَ يابنَ أمِّ حَزْم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتيةِ المظلمة من غير مصباح، ولَعمْري أنت يومئذٍ خيرٌ منك اليوم، ولقد كان في فتائل أهلك ما يُغنيك، والسلام»[١].

وكتَبَ إليه أيضاً وقد طلب من الخليفة قراطيس يكتب عليها في مصالح ولايته: «أما بعد، فقد قرأتُ كتابك إلى سليمان تذكُر أنه قد كان يُجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا، فابتليتُ بجوابك فيه. فإذا جاءك كتابي هذا فأَرقَّ القلم، واجْمع الخطَّ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلَمين في فضل قَولٍ أضرَّ ببيتِ مالِهم، والسلام عليكم»[٢].

وهذا شأنُ من يعتبر المسلمين طفلاً عزيزاً في حَضانته، ويعتبر مالَهم أمانةً

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) المصدر السابق: ٦٤.

عنده لا ينفق منه إلا عن ثقةٍ ويقين ، وهذا مَثَلُ الحاكم العاقل العامل الدقيق ، الذي سمّاه التاريخ وسماهُ المسلمون بحق «بالخلافة الراشدة».

إصلاحاتُه الواسعةُ في نِظام الحُكم:

إنَّ عظمة عمر بن عبد العزيز وعبقريتَه ليست محصورةً في ورعه وزهادته ـ وهو عظيم في ذلك حقاً ، ويستحق أن يُسمى عبقرياً إذا عرفنا ما كان يَحُفُّ الملوك من الإغراءات وفُرَص المتعة ، وما كان يملكه من الحرية المطلقة.

ـ وليستْ عظمتُه محصورَةً فيما كان يؤاخذ به عمّاله وأمراءه من التورُّع. إنَّ أعظم ما يمتاز به هو أنه نظر إلى الحكومة نظرةً لم ينظرها إلا الرسولُ وخلفاؤه الراشدون ، فقد كانتِ الحكومة في عهده مقصورة على جباية الأموال وإنفاقها في مصالح الدولة ، لا صلةَ لها بأخلاقِ الجمهور وعقائدِهِ وأخلاق الناس ، ولا شأنَ لها بالضلالةِ والهداية ، وكان الذين يخْلُفون الرسول الذي أُرسل للناس كافةً بشيراً ونذيراً وهادياً بإذنه تعالى وسراجاً مُنيراً ، كان الذين يخلفون هذا الرسول ، عصابةً من جُباة الأموال يقيسون كل قضيةٍ في هذه الدولة ـ التي كانوا يُسمونها الخلافة ـ بالمقياس المالي ، ولا ينظرون إلى شيء إلا بالناحية المالية.

ظهَرَ عمر بن عبد العزيز في هذه الأسرة الحاكمة ، فثار على هذه النظرة وعلى هذه النفسيَّةِ ، وقال عن الحكومة كلمتَهُ المأثورةَ التي سجَّلها التاريخ ، ولا أعرفُ كلمةً في التاريخ تبيِّنُ روح الخلافة الراشدة وما تمتازُ به عن الحكومات الزمنيَّة أبلغَ من هذه الكلمة ، لقد شكا إليه بعضُ العمال أن أهل الذِّمة بدؤوا يُقبلون على الإسلام في عدد كبير وقد فشا فيهم الإسلام ، وأصبحت هذه قضيةً تشغَلُ عُقول «الإداريين» ذلك أنَّ الجِزْية التي يفرضها الإسلام على أهل الذمة ـ ولو كان بمقدارٍ طفيف ، يتضاءل بجانب ما يتمتعون به من حقوق ، وما يُعفَون عنه من خدمات ـ من أعظم موارد بيت المال ، فإذا أسلم هؤلاء سقطتْ عنهم الجِزيةُ ، وخَسرتْ ماليّة الدولَة الإسلامية خسارة

باهظة ، بلغتْ هذه الشكوى عَاهل الدولة الإسلامية ، فأجاب عنها في هدوءٍ وثقة وكتب إليه : «إنَّ الله جل ثناؤُه بعثَ محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يَبْعثه جابياً»(١) .

وعلى هذا الأساس وعلى هذه النظرة ، قامتْ دولتُه ، وهو أساس «الهداية» التي بُعث لها النبي ﷺ ، وبهذه النَّظرة كان ينظرُ إلى قضايا الحكومة ومصالحها وهي نظرة «المرشد» ونظرة «الداعي» ، ونظرة خليفة الرسول الهادي ، وذلك مفتاح شخصية عمر بنِ عبد العزيز الذي نستطيع أن ندخل به إلى رحاب هذه الشخصية الفذَّة في الإسلام ، الفَذَّة في الأمم .

وقد طبَّقَ هذا المبدأَ على حكومته الواسعة تطبيقاً دقيقاً ، فإذا تعارضتِ المصلحةُ المالية مع مصلحة من مصالح الشريعة ، رجَّح المصلحةَ الشرعية والحُكم الشرعي على المصلحة المالية ولم يتردَّد .

يَدل دلالة واضحة على ذلك ، وعلى إيمانه بهذا المبدأ ، كتابُه الذي كتبه إلى عامله على اليمن عُروةَ بنِ محمد يقول فيه : «أما بعد ، فإنَّك كتبتَ إليَّ تذكرُ أنكَ قَدِمتَ اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ، ثابتةً في أعناقهم كالجزية ، يؤدُّونها على كل حال ، إن أخصبوا أو أجدبوا ، وحَيُوا أو ماتوا ، فسبحانَ الله ربِّ العالمين ، ثم سبحانَ اللهِ ربِّ العالمين ، ثم سُبحانَ الله ربِّ العالمين ، إذا أتاك كتابي هذا ، فدَعْ ما تُنكر من الباطل إلى ما تعرفُه من الحق ، ثم ائتَنِف الحقَّ فاعمل بهِ بالغاً بي وبك ، وإن أحاط بمُهَجِ أنفسنا ، وإن لم ترفع إليَّ من جميع اليمن إلا حفْنةً من كَتَمٍ ، فقد علم الله أني بها مسرورٌ إذا كانت موافقةً للحق والسلام»(٢) .

وكذلك رفع المُكْسَ ـ وهو مورد عظيم من موارد الحكومة ـ قال رحمه الله : «وأما المُكْسُ فإنه النجس الذي نهى الله عنه فقال: ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ

---

(١) كتاب الخراج : لأبي يوسف ، ص٧٥.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٢٦ .

أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥] غير أنهم كَنَوْهُ باسمٍ آخر»[١] .

وحَطَّ العُشورَ والضرائب التي فرضتها الحكومة ، وقال: «فأما المسلمون فإنما عليهم صدقاتُ أموالهم ، إذا أدوها في بيتِ المال كُتبت لهم بها البراءةُ ، فليس عليهم في عامِهم في ذلك في أموالهم تِباعةٌ»[٢] .

وفتح طريقَ البَرِّ والبحر للتجارة الحرَّة ، ومنع الضرائب والمكوس «أما البحر فإنا نرى سبيلَه سبيل البر قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [الجاثية : ١٢] فأذِن فيه أن يتَّجِر فيه من شاء ، وأرى ألا نحول بين أحد من الناس وبينه ، فإن البرَّ والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده ، يبتغون فيهما من فضله ، فكيف نحُولُ بين عباد الله وبين معائشهم ؟!»[٣] .

وقد أحدَثَ في مملكته الواسعة إصلاحات واسعةَ الأثر ، فأمر بأن يكون تمامُ مكيال الأرض وميزانُها واحداً في جميع الأرض كلِّها[٤] .

وحرَّمَ على العمال وموظفي الدولة أن يتَّجروا ، فكتب: «ونرى ألاَّ يتَّجر إمامٌ ، ولا يحلَّ لعاملٍ تجارةٌ في سلطانه الذي هو عليه ، فإن الأمير متى يتَّجر يَستأثرْ ، ويُصِبْ أموراً فيها عَنت، وإن حَرَص على ألا يفعل»[٥] .

وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة ، ما يُصدِّق فراسة عمرَ بنِ عبد العزيز الصادقة ، وحكمتَه البالغة ، قال: «إنَّ التِّجارة من السلطان مُضرةٌ بالرعايا مُفْسِدةٌ للجباية»[٦] . والبلاد التي يحكمها الأوربيون ـ وهم تُجار قبل كل شيءٍ ـ شاهدَةٌ بِصدق هذه النظرة .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ٩٩ .
(٢) المصدر السابق: ص ٩٨ .
(٣) المصدر السابق: ص ٩٩ .
(٤) المصدر السابق: ص ٩٩ .
(٥) المصدر السابق: ص ٩٩ .
(٦) مقدمة ابن خلدون: ص ١٩٧ .

وحَرَّم السُّخرة بأنواعها ـ وهي التي درجتْ عليها الحكومات. وكان من آثارها الأهرام في مصر ومباني رومة العظيمة ـ فقال: «ونرى أن تُوضع السُّخَر عن أهل الأرض ، فإن غايَتها أمورٌ يدخل فيها الظلمُ»(١) .

وكان الأمراءُ ورجالُ الأسرة الحاكمة قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض واتخذوها حمىً ، وحُرم منها الشَّعبُ ، فقال: «ونرى أنَّ الحمى يُباح للمسلمين عامة. . . وإنما الإمام فيها كرجلٍ من المسلمين ، إنما هو الغَيْثُ يُنزله الله لعبادهِ فهم فيه سواء»(٢) .

وفَطِنَ لأمورٍ دقيقة لا تسترعِي اهتمام الخليفة ، وعرفَ منافذ السوء والخيانة فسدَّها ، منها الهدايا التي كانت تُهدى إلى العمال ، وكانوا يَقبلُونها لأن قبولَ الهدايا سنةٌ ، وقد عرف عمرُ بن عبد العزيز تغيُّرَ الأوضاع وتغيُّر البيئاتِ ، فحرَّمها وقال في هدية أهديت إليه ـ وقال القائل: قد كان رسول الله ﷺ يقبلُ الهدية ـ «هو لرسول الله ﷺ هديةٌ وهو لنا رشوة ولا حاجَة لي به»(٣) .

وقد أصبَحَ الخليفةُ محجوباً عن الناس لا سبيل لهم إليه ولا سبيل له إلى معرفةِ أحوالهم وما يجري في مملكته ، وقد بنى الحاشيةُ حوله سياجاً من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما يشتهون وما تسمَحُ به مصالحهم.

أما عمرُ بنُ عبدِ العزيز ، فقد أعلنَ بالجوائز والمكافأة المالية لمن يُخبره بحقيقة الحال ، أو يشيرُ عليه بشيء فيه مصلحة المسلمين ومصلحةٌ لدولتهم ، وكتب إلى أهل المواسم:

«أمَّا بعد ، فأيُّما رجل قدم إلينا في رَدِّ مظلمة أوأمرٍ يُصلح الله به خاصّاً أو عامّاً من أمر الدين ، فله ما بين مئة دينار إلى ثلاثِمئة ، بقدر ما يرى من الحسبة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٠٠.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٧.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦.

وبُعد سفر ، لعل الله يُحيي به حقاً ، أو يُميت باطلاً ، أو يفتح به من ورائه خيراً»(١) .

عنايتُه بأخلاق الجمهور وأعماله:

لقد كان الخليفةُ إلى عهد عمر بن عبد العزيز كما قدَّمنا رأسَ دولة ، هي مُنظَّمة لجباية الأموال وحراسةِ النفوس والأرواح لا غير ، لا شأنَ له بما يعمله الناس في بيوتهم وما يتخلَّقون به من أخلاق ـ ما دامت هذه الأعمالُ والأخلاق لا تتدخل في شُؤونِ الدولة ـ ولا شأن له بنزعاتهم وأفكارهم وعقائدهم ، وبسعادتهم الأخروية وبِرُقيِّهمُ الرُّوحي والخلقي ، ولكن عمر بنَ عبد العزيز أولُ من عُني بهذه الناحية ، التي هي من مقاصد البعثة ، وواجبات الخلافة ـ بعد الفترة الطويلة التي جاءت بعد الخلافة الراشدة ـ.

وقد انقسمتِ الواجباتُ من مُدَّة طويلة بين طائفتين ، فاستقلَّتِ الخلافة بالأعمال الإدارية والمالية ، وانفرد العلماء بالحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة والإرشاد ، مع أنَّ الخلافة بطبيعتها تجمعُ بين الناحيتين ، ولذلك سُميت «الخِلافَةَ الراشدة».

جاء عمر بن عبد العزيز فحارب هذه «الثَّنوية» وهذا الانقسام ، وجمع بين الإدارة والإرشاد ، والسياسة والدعوة ، وأثبتَ أنه خليفةٌ حقّاً ، فلم يتقلَّدِ الخلافة حتى وجَّه إلى عمال حكومته وأمراءِ الأجناد رسائل طويلة تتجلَّى فيها روح الدعوة والإرشاد ، وهي تُمثل نفسيةَ الداعي والمرشد والعالم ، أكثر مما تمثِّل نفسية الحاكم والأمير ، وقد كُتبت في أسلوب الدعوة إلى الله والتحذير من سخطه وعقابه وفي أسلوب الترغيب والترهيب.

ومِن هذه الرسائل رسالةٌ يصف فيها ما كان المسلمون عليه وما صاروا إليه ، ويُبيِّن سياسته لهم، وفيها وَصْفٌ مُسْهَبٌ وتصويرٌ صادق للجاهلية ،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٤١.

وذكرٌ للبعثة المحمدية ، وحثٌّ على قدر هذه النعمة العظمى والقيام بشكرها ، والتمسك بالدين الذي جاء[١] .

ورسائلُ إلى أمراء الأجناد يعزم عليهم فيها بالمحافظة على الصلوات في وقتها ، والعناية بالمدارسة ونشر العلم[٢] .

ورسالةٌ إلى عماله يحثُّهم فيها على اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه[٣] .

ورسالةٌ يحثُّهم فيها على دعوة أهل الذمة إلى الإسلام ، وأنه غايةُ بعثةِ الرسل وبعثةِ محمد ﷺ[٤] .

ورسالةٌ يُشدِّد فيها على العُمَّال بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويذكر ما يُحدِث الإخلالُ بهذه الفريضة من نتائجَ وخيمةٍ وعقوبات من السماء ، ويقول فيها: «إنه قد بلغني أنه قد كثُر الفُجور فيكم ، وأمنَ الفساق في مدائنكم ، وجاهروا من المحارم بأمر لا يُحبُّ الله مَنْ فعَله ، ولا يَرضى المداهنة عليه ، كان لا يُظهر مِثله في علانيته قومٌ يرجون لله وقاراً ويخافون منه غيراً ، وهم الأعزُّون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك أمرُ سَلَفكم ، ولا بذلك تمَّتْ نعمةُ الله عليهم. . . إلخ»[٥] .

ومنها رسالةٌ يوصي فيها عمالَه بالاحتياط في تنفيذ العقوبات ، ويَشرح نظام التَّعْزير الإسلامي[٦] .

وفي رسالةٍ ينهى عن النِّياحة واتباع النساء للجنائز والتقاليد الجاهلية التي فَشَتْ في عهده ، ويأمرُ بالحجاب ويقول: «وتقدمْ إلى صاحب شرَطكم فلا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ٧٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٧٩.
(٣) المصدر السابق: ص ٩٤.
(٤) المصدر السابق: ص ٩٣.
(٥) المصدر السابق: ص ١٦٨.
(٦) المصدر السابق: ص ٨٠.

يُقِرَّنَّ نَوْحاً في دار ولا طريق ، فإن الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الأمرين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧][١] .

وقد توسَّعَ الناسُ في أمر النبيذ وتوصَّلوا منه إلى المسكرات ، ونشأت من ذلك شرورٌ وآفات لم تزل تابعة للخمر ، وقد كتَب في ذلك رسالةً خاصة يقول فيها: «ولَعمري إن ما قَرب إلى الخمر في مَطعمٍ أو مشربٍ أو غير ذلك ليُتَّقى» .

ويشرحُ نُكتة تدل على بُعدِ نظره واطلاعِه الواسِع ، يقول: «وما يَشرب أولئك شرابهم إلا من تحت أيدي النصارى الذين يَهـونُ عليهم زَيغ المسلمين في دينهم ودخولهم فيما لا يَحل لهم ، مع الذي يجمع نَفاق سِلعهم ، ويَسارة المؤونة عليهم» .

ثم يقولُ في أسلوب المربِّي الحكيم: «إنَّ اللهَ قد جعل عن الخمور والمسكرات غنىً في المشروبات الجائزة السائغة ، فما يحملُ المسلمين على هذا الإثم؟ وما لأحدٍ من المسلمين عذر أن يشربَ ما أشبَه ما لا خير من الشراب؟ فإن الله جعل عنه غنىً وسَعةً ، من الماء الفرات ، ومن الأشربة التي ليس في الأنفس منها حاجةٌ من العَسل واللَّبن والسَّويق والنَّبيذ من الزَّبيب والتمر»[٢] .

وفي هذه المسائل يتجلَّى عمر الخليفة الراشد بإيمانه وحماسته وحكمته ، وكأنَّنا ـ ونحن نقرأ هذه الرسائل ـ نقرأ رسائل عمرَ بنِ الخطاب إلى عُمَّاله ، ونسمعُ الداعي الحكيم ، والإداري المربِّي ، والوالد العطوف ، يَنصحُ أولاده في رِفق وقوة ، وفي صَرامةٍ وحكمة ، ويجمع بين الإدارة والتذكير ، وبين الإنذار والتبشير ، وذلك شأنُ الحكم الإسلامي الصحيح وتفسيرُ قولـه تعالى:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٢ .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] .

عِنايتُه بالدعوة إلى الإسلام:

ولم يقتصِرْ عمر بن عبد العزيز على إصلاح المسلمين وتطبيق الشريعة الإسلامية على المملكة الإسلامية ، بل عُني بالدعوة إلى الإسلام في غير المسلمين ، وكان لها تأثيرٌ كبير لإخلاصه وصدقه وحُسنِ تمثيله للإسلام بحياته وأخلاقه.

قال البلاذَرِيُّ في «فتوح البلدان»: «وكتبَ عمرُ بن عبدِ العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملِّكَهُم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد كانت بَلَغَتْهُم سِيرتُه ومذهبه ، فأسلموا وتسمَّوا بأسماء العرب»[١] .

ولمَّا وَلَّى إسماعيلَ بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم بلاد المغرب؛ سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام ، وكتب إليهم عمرُ بن عبد العزيز كتاباً يدعوهم إلى الإسلام ، فقرأه إسماعيل عليهم في النوادي ، فغلب الإسلام على المغرب.

ولمَّا استخلفَ كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضُهم ، ورفع الخَراج عمَّن أَسلم بخُراسان ، وفرض لمن أَسلم وابتنى خاناتٍ[٢] .

تَدوينُ العُلوم الإسلاميةِ وإحياءُ السنن النبوية:

ولم يقتصِرْ تجديدُ عمر بن عبد العزيز على إصلاح نظام الحكم، وتحويل السياسة المدنية إلى الخلافة النبوية ، بل تعدَّاه إلى نواح كان لها أبعدُ الأثر

(١) فتوح البلدان.

(٢) الإسلام والحضارة العربية: لكرد علي ، ج٢ ، ص١٨٩ .

وأعمقه في حياة المسلمين ، ولا يزال المسلمون في أنحاء العالم مَدِينين لها في حياتهم الدينية ، فقد أقبل إلى تدوين العلوم الإسلامية التي هي من منابع الحياة في المسلمين، وقد تعرَّضتْ للضَّياع ، لانصراف الناس إلى السياسة والإدارة والحروب ، وأولُ ما عني به عمر بعدَما تقلد الخلافة ، هو علمُ الحديث، وقد أراد الله أن يكون له فضيلة السَّبقِ في هذا الميدان ، كما كان لجدِّه العظيم ـ عمر بن الخطاب ـ فضيلةُ السَّبْق لجمع القرآن ، فإنَّه هو الذي أشار وألحَّ على خليفة الرسول أبي بكر الصديق بجمعه.

وقد كتَبَ إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم في عصره ، أبي بكر ابن محمد بن حزم: «انظرْ ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإنّي خفت دُروس العلم وذهابَ العلماء»[١].

وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميعِ عمرةَ ابنة عبد الرحمن الأنصارية ، وقاسمِ بنِ محمد بنِ أبي بـكر ، لأهميَّـتهما.

ولم يكتفِ ـ رحمه الله ـ بأبي بكر بن حزم ، بل كتب إلى عماله بالأقاليم: «انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعُوه»[٢].

ولم يكتفِ بالحثّ على ذلك ، بل سعى في تيسير هذه المهمة ، فأجرى الرِّزقَ على العلماء ورتَّب لهم رواتب ليتوفروا على نشر العلم ، ويُكفوا مؤونة الاكتساب.

قال محمدُ بن الحكم: «وبعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية أن يعلِّما الناس السنة ، وأجرى عليهم الرزق ، فقبِلَ يزيد ولم يقبل الحارث ، وقال: «ما كنت لآخذ على عِلْمٍ علَّمنيه الله

(١) [أخرجه البخاري في كتاب العلم برقم (٩٨) ، والدارمي في السنن (١/ ١٣٧) برقم (٤٨٧) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣١) برقم (٩٦)].
(٢) تاريخ أصبهان: لأبي نعيم.

أجراً ، فذُكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال: ما نَعلمُ بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر اللهُ فينا مثلَ الحارث»[١] .

وكان عمرُ من العلماء الراسخين الربانيين ، ولولا الخلافةُ وتكاليفها لكان من العلماء المعدودين ، ومن الفقهاء المشهورين .

قال الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ»: «كان يُقرنُ بالزُّهري في عِلْمِهِ»[٢] ، وقال مجاهد: «أتيناه لِنُعلِّمه فما بَرِحنا حتى تعلَّمنا منه»[٣] .

وقد حدَّث عنه الزهريُّ وأبو بكر بنُ حزمٍ وأبو سلَمَة بنُ عبد الرحمن ، وله مُسنَدٌ مطبوع[٤] .

وكان حريصاً على نشر العلم الصحيح والسنن النبوية ، إلا أن الخلافة وأعباءها لم تُمهله .

وقد كتب في أوائل خلافته إلى عديِّ بنِ عدي: «إنَّ للإيمان فرائضَ وشرائع وحدوداً وسنناً ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكمِلْها لم يستكمل الإيمان ، فإن أَعِشْ فسأُبيِّنها لكم حتى تعملوا بها ، وإنْ أَمُتْ فما أنا على صُحبتكم بحريص»[٥] .

نمـاذجُ من رسائِله تـدلُّ على فكرتـه ونَفْسِيَّـتِه:

ولا أدلَّ على فكرتِه الإسلامية الأصيلة وروحه الإيمانية القوية من رسائله

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٦٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ: ص١٠٦ .

(٣) المصدر السابق: ص ١٠٦ .

(٤) [هو «مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه» لمحمَّد بن محمد ابن سليمان أبي بكر الأزدي الواسطي المعروف بابن الباغَنْدِي ، وقد طُبع بتحقيق وشرح الشيخ محمد عوَّامة].

(٥) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس» ، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٧٢) برقم (٣٠٤٤٤) ، والبيهقي في الشعب (١/ ٧٨) برقم (٥٩)].

وكُتبه التي وجَّهها إلى عُمّاله وأمراء أجناده ، وهي رسائل لا يجد فيها المدقِّقُ مأخذاً جاهلياً وظلاًّ من ظلال البيئة التي نشأ فيها ، يشعر فيها القارىء كأنه خُلق في الخلافة خلقاً جديداً ، وكأنَّ الرُّوح الإسلامية تتكلمُ على لسانه وتَفيضُ من قلمه.

منها رسالتهُ التي كتبها إلى عامله الضَّحَّاكِ بن عبد الرحمن ، وقد بلغه أن بعض أهل البادية وممن تقلَّدوا الإمارة حديثاً يتحاربون إلى بعض القبائل العربية ـ شأنهم في الجاهلية ـ ويزعُمون أنهم ولاةٌ على من سواهم ، ولما كان في ذلك إحياءٌ للنَّعرة الجاهلية والحَمِيَّة الجاهلية ، وخروجٌ على الوحدة الدينية والأُخوَّة الإسلامية التي أبدَلها الله بها العرب ، شقَّ ذلك على عمر بن عبد العزيز وأهمَّه ، ولوكان من سبقه من الخلفاء من أُسرته تشاغل عنه أو استغلَّه لمصالح دولته ، ولكن عمر لم يسعْهُ السكوت عليه ، وكتب هذه الرسالة البليغة:

«أمَّا بعد فإنَّ اللهَ جعل الإسلام الذي رضي به لنفسه ومن كَرُم عليه من خلقه ، لا يقبلُ ديناً غيره ، كرمه بما أنزل من كتابه الذي فرَّق بين الإسلام وبين ما سواه ، فقال: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦]، وقال: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. فبعَثَ الله محمداً ﷺ حين بعثه ، وأنزل عليه الكتاب حين أنزله ، وأنتم معشرَ العرب فيما قد علمتُم من الضَّلالة والجَهالة والجَهد وضنك العيش وتفرّق الدار ، والفِتَن بينكم عامةٌ ، والناس لكم حاقدون مستأثرون عليكم بالدِّين.

وليس مِن ضلالتهم من شيء إلا وأنتم على مثله ؛ من عاش منكم عاش فيما ذكرتُ من الجهل والضَّلالة ، ومن مات منكم مات إلى النار ، حتى أخذ اللهُ

بنواصيكم عما كُنتم فيه من عبادة الأوثان والتقاطع والتدابُر وسُوء ذات البَيْن ، فأنكرَ مُنكركم ، وكذَّب مكذِّبكُم ، ونبيُّ الله عليه السلام يدعو إلى كتاب الله وإلى الإسلام.

ثم أسلَمَ معه قليلٌ مستضعَفون في الأرض ، يخافون أن يتخطَّفهم الناسُ فآواهُم وأيَّدهُم بنصره ، ورزقَهم الله من أذن له بالإسلام والدنيا مقبوضةٌ عنه ، والله مُنجِزٌ لرسوله موعودَه الذي ليس له خُلْفٌ ، فيراه من يراه بعيداً إلاّ قليلاً من المؤمنين فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقال في بعض ما يَعِدُه المسلمين أن قال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥]. فأنجز الله نبيَّه عليه السلام وأهلَ الإسلام موعودَهُم الذي وعدهم.

فلم يُعطِكم يا أهل الإسلام ما أعطاكم من ذلك إلا بهذا الذي تَفلجون[١] به على خَصْمِكم ، وبِهِ تقومون شهداء يوم القيامة ، ليس لكم نجاةٌ غيره ، ولا حجةٌ ولا حِرزٌ ولا منَعةٌ في الدنيا والآخرة.

فإذا أعطاكم الله منه أحسنَ يوم وُعدتموه فارجوا ثواب الله فيما بعد الموت ، فإنَّ الله قال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وإنِّي أُحذِّركم هذا القرآن وتِباعته ، فإن تباعته وشروطه قد أصابكم منها أيَّتُها الأمة وقائعُ من هراقة دماءٍ ، وخرَاب ديار ، وتَفرُّق جماعات ، فانظروا ما زَجرَكُم الله عنه في كتابه فازدجروا عنه ، فإن أحقَّ ما خِيف وعيدُ الله بقولٍ أو بعملٍ أو غير ذلك ، فإن كان بقول في أمر الله فنعمَّا له ، وإن كان بقولٍ في غير ذلك فإنما يُفضي إلى سبيل هَلَكةٍ.

---

(١) في مخطوطة «ب» «تفلحون» ولعلَّ ما هنا أصوب [هذا التعليق من أحمد عبيد].

ثم إنَّ ما هاجني على كتابي هذا أمرٌ ذُكر لي عن رجال من أهل البادية ، ورجال أُمِّروا حديثاً ، ظاهرٌ جفاؤهم ، قليلٌ عملهم بأمر الله ، اغترُّوا فيه بالله غرَّة عظيمة ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً ، وغيروا فيه نِعمه تغييراً لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه.

وذُكِر لي أنَّ رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مضر وإلى اليمن ، يزعمون أنهم ولاة على سواهم ، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم مِنْ شُكرِ نعمة الله ، وأقربهم من كل مهلكة ومَذلة وصغر ، قاتلهم اللهُ أيَّةَ منزلةً نزلَوا ، ومن أي أمانٍ خرجوا ، أو بأي أمر لصقوا.

ولكن قد عرفتَ أن الشقيَّ بِنيَّتِه يشقى ، وأن النار لم تُخلق باطلاً ، أوَ لَمْ يسمعوا قول الله في كتابه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وقد ذُكِر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحِلف ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحِلف وقال: «لا حِلْفَ في الإسلام»(١) قال ـ وما كان مِنْ حِلْفٍ في الجاهلية فلم يَزِدهُ الإسلامُ إلا شِدَّة ـ فكان يرجو أحدٌ من الفريقين حفظَ حِلفه الفاجر الآثِم الذي فيه معصيةُ الله ومعصيةُ رسوله ، وقد ترك الإسلام حين انخلعَ منه.

وأنا أُحذِّرُ كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه ، أن يتَّخذَ غير الإسلام حِصناً ، أو دُونَ الله ودون رسولِه ودون المؤمنين وليجةً ، تحذيراً بعد تحذير ،

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الكفالة ، باب قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ [النساء: ٣٣] برقم (٢٢٩٤) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه . . . برقم (٢٥٢٩) ، والبيهقي في السنن (٦/ ٢٦٢) برقم (١٢٣٠٣) وغيرهم من حديث عاصم الأحول، وروي نحوه عن جُبير بن مطعم رضي الله عنه أيضاً].

وأذَكِّرهم تذكيراً بعد تذكير ، وأُشهد عليهم الذي هو آخذٌ بناصيةِ كلِّ دَابَّة ، والذي هوأقرب إلى كلِّ عبد من حبل الوريد .

وإنِّي لم آلكم بالذي كتبتُ به إليكم نصحاً ، مع أني لوأعلم أحداً من الناس يُحرك شيئاً ليؤخذَ له به أو ليدفع عنه أحرصُ ـ والله المستعان ـ على مذلَّته من كان؛ رجلاً ،أو عشيرة ،أو قبيلة ، أو أكثر من ذلك ، فادع إلى نصيحتي وما تقدمت إليكم به ، فإنَّه هو الرشدُ ليس له خفاء ، ثم ليكون أهل البر وأهل الإيمان عوناً بألسنتهم ، وإن كثيراً من الناس لا يعلمون. نسأل الله أن يخلُفَ فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وأُلفتنا وذاتِ بيننا ، والسلام»[١] .

وكذلك رسالتُه التي وجَّهها إلى منصور بنِ غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب ، وفيها يتجلَّى إيمانه القوي بأن النصرَ من عند الله ، وأن فضل هذه الأمة على مَن سواها وميزتها ، في صِلتها الصادقة بالله ، والاحتراس من المعاصي والتَّفوق في الطاعة ، وهذا هو الفهم الإسلامي الذي كان طابع الصحابة وشعارَهم .

ويظهَر في هذه الرسالة رِفقُه بالمسلمين وحُنوُّه عليهم حُنُوَّ الأمهات والآباء ، وكذلك اهتمامُه بأهل الصلح وأهل الذمة والحضُّ على مصالحهم ، وهذا مَثَلُ الخليفة الراشد ، يقول رحمه الله :

«هذا ما عَهِدَ به عبد الله عمر أميرُ المؤمنين ، إلى منصور بنِ غالب حين بعثه إلى قتال أهل الحرب ،وحربِه من استعرضَ من أهل الصُّلح ،آمرُه في ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمرِ الله ، فإن تقوى الله من أفضل العُدَّة ، وأبلغِ المكيدة ، وأقوى القوة .

وآمُرُه ألاَّ يكون من شيءٍ من عدوه أشدَّ احتراساً منه لنَفسه ومَنْ معه من معاصي الله ، فإن الذنوب أخوفُ عندي على الناس من مكيدةِ عدوهم ، وإنما نُعادي عدُوَّنا ونُنصرُ عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوةٌ بهم ، لأن

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن عبد الحكم ص ١٠٣ وما بعدها.

عددَنا ليس كعددهم، ولا عُدتنا كعُدَّتهم، فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا، في القُوة والعدد، فإن لا ننصر عليهم بحقّنا لا نغلبهم بقوَّتنا.

ولا تكونوا لعداوةِ أحدٍ من الناس أحذرَ منكم لذنوبكم، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهداً منكم لذنوبكم.

واعْلموا أنَّ معكم من الله حفظةً عليكم، يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنزلكم، فاستحيوا منهم، وأحسنوا صحابتهم، ولا تُؤْذوهم بمعاصي الله وأنتم زعمتم في سبيل الله، ولا تقولوا إنَّ عدونا شرٌّ منا فلن يُسلَّطُوا علينا وإن أذنبنا، فرُبَّ قوم قد سُلِّطَ عليهم شرٌّ منهم بذنوبهم، فاسألوا اللهَ العونَ على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوِّكم، أسألُ الله ذلك لنا ولكم.

وآمُره أن يرفَق بمَن معه في سفرهم، ولا يُجشِّمهم مسيراً يُتعِبُهم فيه، ولا يُقصِّر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يلقوا عدوَّهم، والسفرُ لم ينقص قوَّتهم، فإنما يسيرون إلى عدوٍّ مقيم جامِّ الأهبةِ والكُراع، فإن لا يرفقوا بأنفسهم وكراعهِم في مسيرهم يكنْ لعدوهم فضلٌ في القوة عليهم بإقامتهم في جِمام الأنفس والكراع، والله المُستعان.

وآمُره أن يُقيم ومَن معه في كل جمعة يوماً وليلة يكون لهم راحة يَجمعون[1] فيها أنفسهم وكراعهم، ويَرمون أسلحتهم وأمتعتهم.

وآمُره أن يُنحِّي منزلَه عن قُرى الصلح، فلا يدخلها أحدٌ من أصحابه لسُوقهم وجماعتهم إلا من يثقُ بدينه وأمانته على نفسه، ولا يصيبوا منها ظلماً. ولا يتزوَّدوا منها إثماً ولا يؤذوا أحداً من أهلها بشيء إلا لحق؛ فإنَّ لهم حرمة وذمة ابتليتُم بالوفاء بها كما ابتُلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فَفُوا لهم.

ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل (أرضِ) الصُّلح، فلَعمري لقد أعطيتم مما يحلُّ منهم ما يُغنيكم عنهم، فلم أترك لكم خَللاً في العدة،

(١) [في مخطوطة ش ود وابن الجوزي والحلية: يُجِمُّونَ].

ولا رِقة في القوة فتظاهرت واكتفتْ لكم العُدد ، وانتخبتُ لكم الجُند ، وأَغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح. وبسطتُ لك أفضلَ ما بسطتُ لغازٍ ، فلم أجعل لك عِلَّة في التقوية ، وبِالله الثِّقة ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

وآمرُه أن تكون عيونُه من العرب ، وممنْ يطمئن إلى نصيحته وصدقه من أهل الأرض ، فإن الكَذوب لا ينفعُ خبره وإن صدق في بعضه ، وإنَّ الغاشَّ عينٌ عليك وليس بعَين لك ، والسلام عليك»[1] .

تأثيرُ إصلاحاته في الدَّولةِ والمجتمع:

إنَّ هذه الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز في عهده ، وإن هذه الخطواتِ الجريئة التي خطاها في سبيل إصلاح نظام الحكم وتطبيق الشريعة على الحكومة كان يُخشى أن تُسبب الأزماتِ المالية والخسائر الفادحة ، وأن تقع الدولة في مشاكل جديدة لا تجدُ لها حلاًّ ، وهذه حجة الثائرين على الدين والمعارضين لتطبيق الأحكام الإسلامية على النُّظُمِ والحكومات ، والدعاة إلى فصل الدين عن السياسة في كل زمان ، وكان عمرُ بن عبد العزِيز مستعدّاً ليُواجه هذه الأزماتِ في شجاعة ، وقد كتب إلى عامله الذي تخوَّف من سوء عاقبة فُشُوِّ الإسلامِ في أهل الذمة أنه يَسرّه أن يَحرُث الأرض ويأكلَ مِن عمل يده إذا أسلم أهل الذّمة كلّهم فتنقطِع الجزية وتعجزَ مالية الدولة من كفالته[2] .

ولكنَّ هذه الأزماتِ لمْ تقعْ ، وفُوجىء الناس أن الرَّفاهية قد عمَّت ومالية الدولة قد قويت ، واطمأنَّ الناس في كلّ رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة ، حتى عزَّ وُجود من يستحقُّ الزكاة ويقبلها ، وأصبحت هذه مشكلةً للأغنياء وأصحابِ الأموال تطلب حلاًّ سريعاً.

قال يحيى بن سعيد: «بعثني عمرُ بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتُها ، وطلبتُ فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذُها

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن عبد الحكم ص: ٨٤ وما بعدها.
(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز: طبع أوربة: ص: ٦٣.

مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناسَ ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتُهم ، وولاؤُهم للمسلمين»[١] .

وقال رجلٌ مِن ولد زيدِ بنِ الخطاب : «إنما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفَاً ، فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجلُ يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرحُ بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجعُ بماله. قد أغنى عمرُ بن عبد العزيز الناسَ»[٢] .

ولا تزالُ خلافةُ عمر بن عبد العزيز حُجَّةً تاريخيةً على من لا يزال يردِّد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات : إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضةٌ للمشاكل والأزمات وعرضةٌ للانهيار في كل ساعة ، وأنها ليست إلا حُلُماً من الأحلام. ولا يزال هذا التاريخ يتحدَّى هؤلاء ، ويقول لهم : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] .

إنَّ هذه الفوائد المادية والرفاهية العامة من بركات الحكومة الإسلامية الصحيحة ، ومن نتائجها الطبيعية ، وهي فائدةٌ لا يُستهان بقيمتها .

ولكنَّ الفائدة الكبرى التي جرت على يد عمر بن عبد العزيز والتي أَحرزته مَنصبَ التجديد ، هي الاتجاهُ الجديد الذي اتَّجهته الأمةُ والمجتمع الإسلامي والتطوُّر الذي وقع في الأذواقِ والأخلاق والميول والرغبات في هذه المدَّة القصيرة .

فقد حدَّثَ الطَّبريُّ في تاريخه عن عليٍّ قال : «كان الوليد صاحب بناءٍ واتخاذ المصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص : ٦٩ .
(٢) المصدر السابق : ص : ١٢٨ .

فولِّي سليمان فكان صاحب نِكاح وطعام ، فكان الناس يَسأل بعضُهم بعضاً عن التزويج والجواري.

فلمَّا ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءكَ الليلة ؟ وكم تحفظُ من القرآن ؟ ومتى تَختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشَّهر؟»[1] .

النُّقطة المركزية والأساسية في حَياة عمرَ بنِ عبد العزيز:

إنَّ ميزةَ عمرَ بنِ عبد العزيز ليست في الزهادة والتقشّف ، فقد يُشارِكه في ذلك بعضُ المتطوِّعين ورجال الحركات والثورات السياسية ـ وإن كنت أشك أنّ أحداً بلغ مبلغه في العزوف عن الشهوات والزهد في الحياة ـ ولكنَّ ميزته الكبرى والسِّمة التي يتَّسِم بها هو أن الدافع إلى كل ذلك هو إيمانُه القويُّ بالآخرة ، وخشية الله ، والشوق إلى الجنة ، فلم يَعِشْ هذه الحياة الزاهدة إلا خوفاً لله وشوقاً إلى الجنة ، وإيثاراً للآخرة على الدنيا ، وإيماناً بقوله تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [القصص: ٦] وإيماناً بقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وتسليماً لقول رسول الله: «اللَّهم لا عيشَ إلا عيش الآخِرة»[2] .

وهذا مفترقُ الطرق الذي يَنفصل منه زُهَّاد الإسلام عن السياسة ، وتلاميذ الرسول عن تلاميذ المدرسة السياسية والاقتصادية ، وليس لِغير هذا الإيمان

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري: ج٣، ص ٩٨ (حوادث سنة ٩٦).

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب برقم (٢٩٦١)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٨٥) برقم (٨٣١٦)، والترمذي في أبواب المناقب، باب مناقب سهل بن سعد رضي الله عنه برقم (٣٨٥٧)، وأحمد في المسند (٣/ ١٧٢) برقم (١٢٧٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد روي بنحوه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أيضاً].

القوي الذي امتاز به عمر بن عبد العزيز أن يحفظ إنساناً ـ في مثل شباب عمر بن عبد العزيز وقوّته وحُرِّيته وسلطانه ـ من إغراءات المادية القاهرة ومن تسويلاتِ الشيطان والنفس المغرية ، وتفرضُ عليه المحاسبةَ الدقيقة للنفس ، والاستقامة على طريق الحق .

فقد رأينا في قادة الحركات السياسية الشعبية ، وفي رُؤساء الدول التي تقوم على مبدأ الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية ، كيف يتسلّلون إلى أنواع التَّرَفِ والبذخ ، وكيف يعيشون في القصور عَيْشَ الملوك ، وكيف يُبيحون لأنفسهم التمتعَ بالملذات والامتيازات .

أمّا عمر بن عبد العزيز فإذا نُصح في ذلك ، وأُشير عليه بالتوسع في المطعم والملبس والتمتع ببعض «حقوق» الخلفاء قرأ قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥] .

ولم يكن ذلك إلا لعلوِّ استعداده ومداركه ، ونتيجة الطموح الصادق الذي تَتصفُ به النفس الكبيرة المؤمنة ، فإنه لم يزل يتدرَّج في المعالي حتى بلغ من ذلك الغاية التي ليست وراءها غاية في هذه الحياة ؛ فطمحت نفسه إلى غايةٍ فوقها ، وتاقت إلى نعيمٍ لا يحول ، ومُلك لا يزول ، وقرَّة عين لا تنقطع . وكان شأنه في ذلك شأنَ يوسف الصديق إذ قال : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] . يتجلّى هذا في كلمته التي قالها لمُزاحِمٍ مولاه : «إنَّ لي نفساً تواقة ، لم تَـتُقْ إلى منزلةٍ إلا تاقتْ إلى ما هو أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة ، وإنها اليومَ قد تاقتْ إلى الجنة»[١] .

وكان شديـدَ الخوف لله ، سريـعَ الدمعـة ، غزيرَها ، دخـل عليه رجلٌ وبينَ يـديـه كانونٌ فيـه نـارٌ ، فقـال : عِظْني .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص : ٦١ .

قال: يا أميرَ المؤمنين ، ما ينفعُك من دخل الجنة إذا دخلتَ أنت النار؟ وما يضرُّك من دخل النار إذا دخلتَ أنت الجنة؟ قال: فبكى عمرُ حتى أطفأ الكانون الذي بين يديه[١].

وقال يزيد بن حَوْشَب: ما رأيتُ أخوفَ من الحسن وعمر بن عبد العزيز! كأنَّ النَّار لم تُخلقْ إلا لهما[٢].

وفاةُ عمرَ بنِ عبد العزيز:

ولكنَّ هذه المدَّة التي كانت أشبهَ بفصل الربيع في عالم الدّين والأخلاق، وفي تاريخ الإنسانية ، وكانت فَلْتةً من فَلَتاتِ الدهر لم تَطُل؛ فقد تُوفي عمرُ بنُ عبد العزيز عام ١٠١ للهجرة بدَير سمعان ، وهو ابنُ تسعٍ وثلاثين سنةً وأشهرٍ[٣].

وتدلُّ بعضُ القرائنِ على أنه سُمَّ؛ لأنه بمقدار ما سَعدت الأمة وسَعِد به المجتمع الإسلامي ، شَقي بنو أمية ، أسرتُه التي كانت تنظر إلى الخلافة كطُعمة أو مُلك شخصي ، ووقف عمر بن عبد العزيز حاجزاً بينهم وبين شهواتهم وتصرُّفاتهم ، فكان ربحُ الإسلام فيه على حساب الأسرة الحاكمة؛ فلا غرابة إذا تخلَّصوا منه ، وحرموا الإسلام من هذه الثروة الغالية.

إنَّ كلَّ ما تحدَّثنا عنه من مآثرَ جليلة ، وأعمال خالدة ، وإصلاحاتٍ واسعة تتجمَّلُ بها حياةٌ طويلة ، وعُمر عريض قد تمَّ في سنتين وخمسةِ أشهر؛ فكان عمر بنُ عبد العزيز معجزة من معجزات الإسلام ، وآيةً من آيات الله العظام في جلالة عمله ، وضخامة إنتاجه ، وبُعد أثره ، وكان معجزةً؛ لأن كل ذلك قَد تمَّ في مُدة قصيرة لم تُعرف عن مصلح وعبقري وإداري.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص: ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) صفة الصفوة: لابن الجوزي: ج٣ ص١٥٦.

(٣) ابن سعد، ابن الأثير، ابن الجوزي.

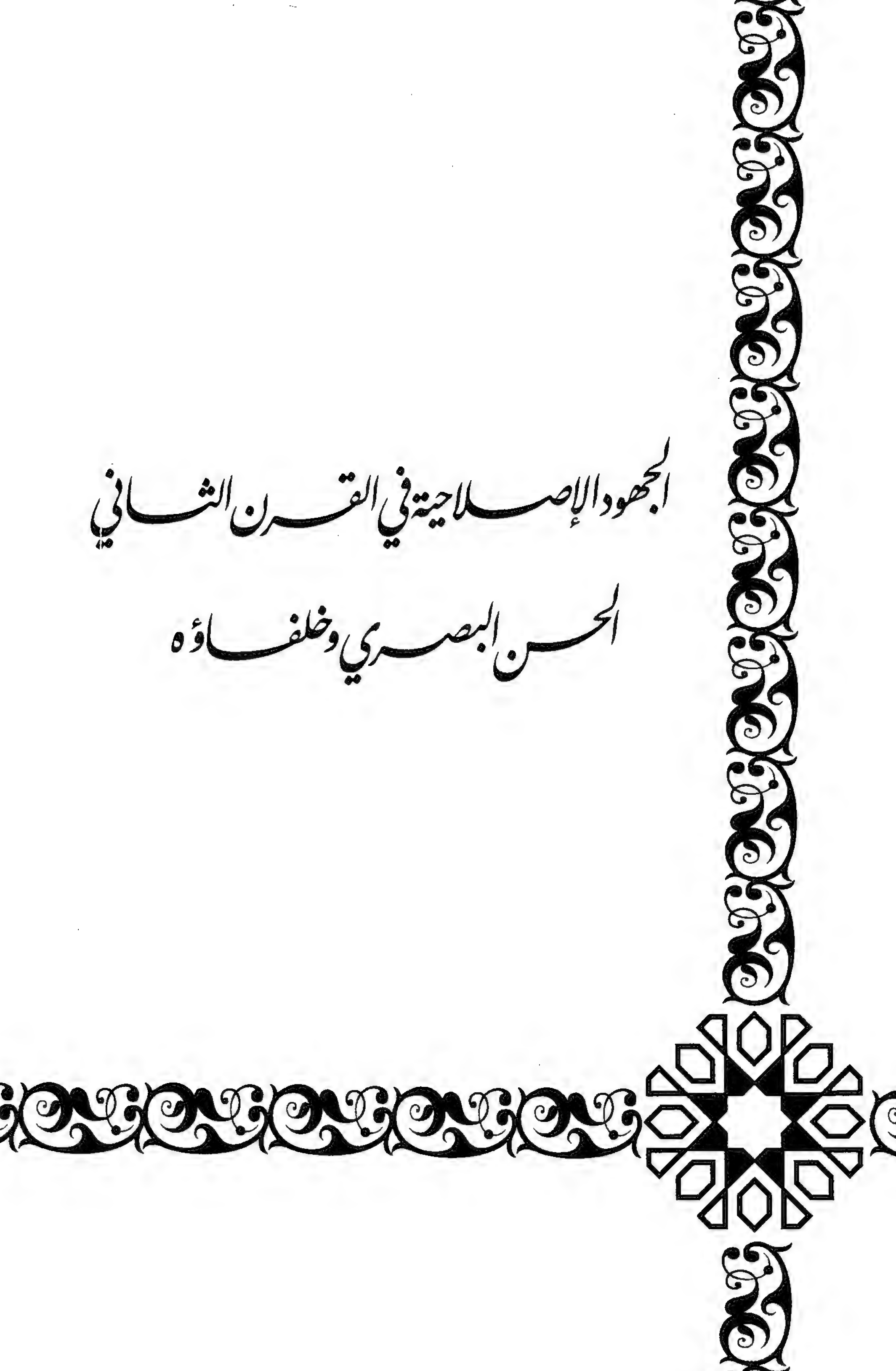
سَنتان وبضعة أشهر يُحقِّقُ فيها ما لا تحقِّقه الحكومات والمنظَّمات في عُقود من السنين ، ويُغيِّر اتجاهَ أمة ومجتمعٍ بأسره.

إنَّ هاتين السنتين لتَرجحان على الأعمار الطويلة ، وهذه الصفحات المعدودة المشرقة لترجحُ على مكتبةٍ حافلة في تاريخ الإصلاح والإدارة والسياسة.

يُسعدني ـ وأنا واقفٌ في دمشقَ ـ أن أُحيِّي هذه الروحَ الطاهرة والشخصيةَ الفريدة في بلده ، وأُعلِنَ أن هذا العصر ليس بأحوج إلى شيء منه إلى رجل من طراز عمر بنِ عبد العزيز ، وقد خَلَتِ القرون والأجيال ولم يَظهر مثله ولا يزال التاريخ منشداً:

حَلَفَ الزَّمانُ لَيأتِينَّ بمِثْلِه حنَثَتْ يمينُك ـ يا زمانُ ـ فكَفِّرِ

* * *



الجهود الإصلاحية في القرن الثاني

الحسن البصري وخلفاؤه



المحاضرة الثالثة:

الجُهود الإِصلاحيّةُ في القرن الثاني
الحسَنُ البَصْريُّ وَخُلفاؤُه

الانحطاطُ الخُلُقيُّ والإِيمانيُّ في الأُمة:

عادتِ الخلافةُ ـ عقبَ وفاة عمرَ بنِ عبد العزيز ـ سيرتَها الأولى ، وأَنشَبتِ الجاهليةُ أظفارها في المجتمع الإسلامي ، وكأنَّ الخليفة بعده كان حريصاً على أن يملأ هذا الفراغ الذي أحدثهُ عمر في اتجاه الخلافةِ المستمر ، وكذلك مَن جاء بعده من الخلفاء.

لقد نشأَ التَّرفُ في المجتمع الإسلامي ـ كما قدَّمنا ـ لعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية ، ونشأت طبقةُ المترفين بأخلاقهم ونفسيَّتهم ، وكثُرتِ الأموال وأدواتُ الترف ، واشتدتِ الإغراءات المادية وفعلتْ فعلها في المجتمع حتى أشرف الإيمانُ والعمل الصالح ـ وبهما تمتاز هذه الأمةُ عن غيرها من الأمم ، وفيهما سِرُّ قوتها وانتصارها ، وهما تُراث النبوَّة ـ على الضَّياع والتلف ، وأصبحت هذه الأمة تتقدّم إلى انهيارٍ في الأخلاق والروح ، وخمود في العاطفة والشعور الإيماني ، وضعْفٍ في صِلتها بالله بخُطىً واسعةٍ.

وكان ذلك نذيراً لكارثةٍ كبرى ، كارثة أصيبت بها الأممُ من قَبل ، وهي

الإفلاسُ في الإيمان والروحِ والأخلاق ، وهي خسارة لا تُعوِّضها الدول والحكومات والفتوحُ المادية والسِّياسية ، ولا بقاءَ لأمةٍ ـ ذات رسالة وعقيدة ـ بعد ذلك .

بَدَتْ طلائعُ هذه الفاجعة في الأفق ، والخلافةُ مشغولةٌ عن ذلك؛ بل هي السبب في حلولها ودُنوِّها ، ولو أرادت أن تَمنع وقوعها لما استطاعت؛ لأنَّ القائمين على رأسها لا يملكون تِلك المؤهِّلات التي يستطيعون بها أن يُواجهوا هذه الفاجعة ، وهي الإيمانُ القوي والحياة النزيهة ، والأخلاق الإسلامية ، والدعوة التي تملك عليهم قلوبَهم ومشاعرهم؛ إنما هي طبقة من المترفِين المتنعِّمين يحتاجون بأنفسهِم إلى الدعوة والتربية .

لقد كان هذا التَّطوُّرُ خطراً كبيراً على هذه الأمة ، وكان أبعثَ على القلق من انتقاص أطراف مملكة الإسلام الواسعة ، وقِلَّة مواردها ، إلى غير ذلك من الحوادثِ السياسية والتطوُّراتِ الاقتصادية؛ وذلك لأنَّ الإيمان ليس خَلْقُه في أمةٍ أمراً يسيراً ، وليس لكل أحد أنْ يبعث هذا الإيمان ، وإذا زال لا يعود في الغالب .

وتاريخُ الأمم والديانات شاهدٌ على ذلك . تُفْلِس أمة في الإيمان وتملك كل شيء ، وتنقطعُ صلتها بربها وتتَّصل بكل شيء؛ فلا تعود سيرتَها الأولى ، ولا تستردُّ ذلك الإيمان وتلك الصِّلة القوية بالله ، وتذهبُ جهود المصلحين والدعاة هباءً منثوراً. وهذه الأُمم الأوربية والأمة الهندوكية العظيمةُ تُصدِّق هذه الحقيقة .

إنَّ هذا الإيمان بالله ، وإنَّ هذه الصلةَ الحية القوية التي عُرفت بها هذه الأمةُ ، وسَحقتْ بها الأممَ ، وأخضعتْ بها العالم ، وإنَّ هذه المظاهر الإيمانية التي تُقرأُ أمثلتُها الرائعة في تاريخ العهد النبوي والخلافة الراشدة: من إنابةٍ صادقة إلى الله ، وثقةٍ بهِ ، وتَفانٍ في سبيله ، وعزوفٍ عن الشهوات ، واستهانةٍ بزخارف الحياة ، وشَوقٍ إلى الشهادة ، وحَنينٍ إلى الجنة ، وخُشوعٍ في الصلاة ، ولَذَّة في الدعاء ، وعطف ومواساةٍ ، وزُهد وإيثار ، إلى غير ذلك ،

مما هو نتيجةُ الإيمان القوي العميق ، إنما كان مِنْحةَ النبوَّة ، وتأثيرَ الشخصية النَّبوية الفَذَّة التي سُعد بها العالم مرَّةً في التاريخ.

فإذا تجَرَّدتِ الأمةُ من هذه الثروة الإيمانية التي مَنحتها النُّبوة الأخيرة وشخصية الرسول المعجزة ، فقد تجرَّدت من رأسِ مالها ، وأفلست إفلاساً تاماً ، ولا مطمع في إيجاد هذا الإيمان ، وإعادة هذه الثروة بعدما انقطعت النبوة.

أمّا تجديدُ هذا الإيمان وتَقويتُه قبل أن يزول ، والمحافظةُ على هذه الثروة والزيادة قبل أن تضيع ، فمُمكِنةٌ وميسورة ، إذا قام لذلك رجالٌ أكفاء ، وجاهدوا في سبيله حقَّ الجهاد.

لقد واجهَتِ الأُمّةِ في سَيْرِها نقطةَ تحوُّل ، قد فَطن لها من فَتح اللهُ بصيرتَه ، وألهَمه الحكمةَ والدعوة ، عرفوا أن الأمة مُهَددة بخطرٍ هو أعظم من الخطر الخارجي ومن الأخطار السياسية ، هو خطر المادية الجارفة ، والانحطاطِ الخُلقي والروحي ، ما أصيبتْ به أمةٌ إلا كانت فريسة للأدواء الخلقية والاجتماعية ، وخواءِ الروح ، وإفلاس الباطنِ ، وعبادةِ الشهوات ، والتنافس في الحياة.

وما أُصيبتْ بذلك أمةٌ إلا ضاعت وطُويت مع الأمم الغابرة.

وقد أنبأ بهذا الخطر لسانُ النبوَّة قبل حدوثه ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه خطب قبل وفاته خُطبةً أنذر فيها المسلمين بهذا الخطر وقال: «**ما الفقر أخشى عليكم؛ ولكن أخشى عَليكُم أن تُبسط عليكُم الدنيا كما بُسطت على من قَبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها ، وتُهلكَكُم كما أهلكتهم**»[1].

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدراً برقم (٤٠١٥) ، وفي كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا . . . ، برقم (٦٤٢٥) ، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق باب «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» برقم (٢٩٦١) ، والترمذي في أبواب صفة القيامة ، باب حديث «والله ما الفقر أخاف عليكم» برقم (٢٤٦٦) ،

لقد حَلَّ هذا الخطر ، وتحقَّق الذي تخوَّفه النبي ﷺ على هذه الأمة ، وقد بلغ ذلك أوجَـهُ في عهدِ بني أمية؛ ولكن الله لطفَ بهذه الأمة؛ إذ قيَّض لمواجهته ، والوقوفِ في وجهه رجالاً مخلصين ، ودعاةً مؤمنين ، عارضوا هذا التيار بكل ما عندهم من قوىً ومواهب ، ومنعوا عدداً كبيراً من المسلمين أن تجرفهـم الماديـةُ وتستعبـدَهـم الشهـوات .

إنَّهم لم يستطيعوا أن يُحوِّلوا التيار أو يُوقفوا سَيْـرَهُ؛ ولكنهم استطاعوا أن يُبطئوا سيرهُ ويُنقـذوا من لُـجَّتِه من استمـع إليهم أو جـالَسهم وتأثَّـر بدعوتهـم . إنّ لهم فضلاً لا ينساه الإسلام ، ولا يغمطه التاريخ؛ لأنهم كانوا سبباً وعاملاً قوياً في استمرار الإسلام الرُّوحي والخُلقي الذي هو أهم من استمرار هذه الأمة النَّسْليِّ والسياسي .

فإذا كان الفضلُ في بقاء هذه الأمة ذاتَ عددٍ كبير ومكانةٍ سياسية يرجع إلى المجاهدين وملوك الإسلام ، فالفضلُ في بقائها أمةً ذاتَ عقيدة ودينٍ وأخلاق خاصة ، وطابع خاص تمتاز به بين الأمم ، يرجع إلى هؤلاء الدعاة المُخلصينَ والمصلحين والمجاهدين الذين بذلوا جُهدَهم في المحافظة على خصائص هذه الأمة الباطنية والنفسيَّة ، واتصال حياتها الروحية والخلقية ، ولا شكَّ أن فضلهم أكثرُ ، ومِنَّتهم أعظمُ؛ فلا خيرَ في بقاء هذه الأمة من غير هذه الخصائص .

ولا لذلك بُعثَ الرسول ﷺ ودعا دعوته ، وجاهد الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان ، ولا لذلك كانتْ بدرٌ وأحد ، واليرموك والقادسية .

ولا لذلك استحقَّ المسلمون النصرَ والتأييد من الله ، إنما كان كل ذلك للعقيـدة التـي يعتقـدونهـا ، والأخـلاقِ التـي يتَّصفـون بهـا ، والـدعـوة التـي يحملونها ، والسِّمة التي يتَّسِمون بها؛ فمن ساهم في ذلك فهو من مُحسِني هذه

= ابن ماجه في أبواب الفتن ، باب فتنة المال برقم (٣٩٩٧) ، وأحمد في المسند (١٣٧/٤) برقم (١٧٢٧٣) وغيرهم من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه].

الأمة وخلفاء الرسول بالحق ، والأمةُ مدينةٌ له بالفضل إلى أن تقوم القيامة .

لقد كان هؤلاء الدُّعاةُ والمصلحون مُنْبَثِّينَ في الحواضر الإسلامية ، مرابطين على الثغور ، قائمين بالدعوة ، وليس كلُّ واحد منهم ذكره التاريخ ، وليس كل أحد سُجِّلت مواقفه ونتائجُ دعوته وجهاده؛ ولكن اشتهرتْ منهم جماعةٌ من فضلاء التابعين كان أشهرهم سعيدُ بن جُبَير ، ومحمدُ بن سِيْرين ، والشَّعبيُّ؛ ولكن الذي حمل هذه الراية ، وتفرَّد من بينهم بالإمامة ، هو الحسنُ البَصري .

الحَسَنُ البَصْريُّ ، شَخصيَّتهُ ومُؤَهِّلاتُه:

وُلِدَ الحسنُ البصري سنة ٢١ للهجرة ، وأبوه يَسار ، مولى زيد ابنِ ثابت ، صاحبِ رسول الله ﷺ ، وكاتبِ الوحي ، وأُمُّه خَيْرة ، مولاةُ أُمِّ سلمة ، زوجِ النبي ﷺ ، نشأ في بيتها ، ولقيَ جماعةً كثيرةً من الصحابة وسمع منهم .

وقد جَمَعَ الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يُؤَثِّر في قلوب الناس ، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين في المجتمع ، فقد كان واسعَ العلم غزير المادة في التفسير والحديث ، ولم يكن لأحد في ذلك العصر أن ينشرَ دعوته ويقوم بالإصلاح ، إلا إذا كان متوفِّراً على هذين العلمين .

وقد أدرَكَ عصرَ الصحابة وعاصر كثيراً منهم ، ويظهرُ من حياته ومواعظه أنَّه درسَ هذا العصر دراسةً عميقة ، وأدرك روحَه ، وعرف كيف تطوَّر المجتمع الإسلامي ، ومن أين انحرف .

وكان واسعَ الاطلاع ، دقيقَ الملاحظة للحياة ومختلف الطبقاتِ وعوائدِها وأخلاقها وعِللها وأدوائِها ، كطبيبٍ مارس العلاج مُدةً .

وكان مع ذلك غايةً في الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير في مستمعيه ، يقول أبو عمرو بن العلاء : «ما رأيتُ أفصحَ من الحسن البصري ، والحجَّاج بن يوسف ، والحسنُ أفصحُ منه» .

وكان آيةً في اتساعِ المعلومات ووُفور العلم ، قال الربيع بن أنس : اختلفت إلى الحسن عَشْر سنينَ ، وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمعْ قبله .

وقال محمدُ بن سعد : كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً ، ثقة مأموناً ، عابداً ناسكاً ، كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً وسيماً ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، واجتمع الناس إليهِ ، وقالوا : لم نرَ مثل هذا قط !

وقد وصَفَه ثابتُ بنُ قُـرَّةَ ـ كما نقل عنه أبو حيَّان التَّوحِيدي ـ فقال :

«كان مِن دراري النجوم عِلماً وتقوى ، وزهداً وورعاً ، وعِفَّةً ورِقَّة ، وفقهاً ومعرفة ، يجمع مجلسه ضُروباً من الناس ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يَلقَفُ منه التأويل ، وهذا يسمعُ منه الحلال والحرام ، وهذا يحكي له الفتيا ، وهذا يتعلَّم الحُكم والقضاء ، وهذا يسمع الوعظ ، وهو في جميع ذلك كالبحر اللَّجاج تدفقاً ، وكالسِّراج الوهَّاج تألُّقـاً ، ولا تُـنسَى مواقِفُه ومشاهدُه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عند الأمراء وأشباهِ الأمراء ، بالكلام الفَصْل واللفظ الجَزْلِ» .

وكان فوق ذلك كلِّه ـ وهو سرُّ تأثيره في القلوب ، وسحره في النفوس ، وخضوع الناس له ، وقد قَسوا على كثيرٍ من الوعاظ والعلماء ـ أنه كان صاحب عاطفةٍ قوية ، وروح مُلتهبة ، وكان من كبار المخلصين ، وكان يجمع بين بلاغة اللسان ، وقوة الإيمان ، وكان يُؤمن بما يقوله ويعمل بما يعتقده ، وكان الذي يقول يَخرُج من القلب فيدخل في القلب .

وكان إذا ذَكر الصحابةَ ، أو وَصف الآخرة ، أدمعَ العيون وحَرَّك القلوب ؛ لأنه يتذوَّق الإيمان ، ويتكلَّم عن عاطفة ووجدان ؛ لذلك كانت حلقته في البصرة أوسعَ الحلقات ، وانجذاب الناس إليه انجذابَ الحديد إلى المغناطيس ـ وذلك شأنُ أهل القلوب والإخلاص في كل زمان ـ .

وكان مِن أعظم ما امتازَ به هو أنَّ كلامه كان من أشبهِ ما سمع الناس بكلام النبوَّة ، وقال الغزالي في «إحياء العلوم» : «ولقد كان الحسنُ البصريُّ رحمه الله

أشبهَ الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هدياً من الصحابة رضي الله عنهم ، اتَّفقتِ الكلمة في حقه على ذلك»[١] .

كانت نتيجةُ المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة ، أنه كان صاحبَ شخصيةٍ قويةٍ جذَّابة حبيبة إلى النفوس ، وكان الناس مأخوذين بسحرها ، خاضعين لعظمتها ، حتى قال ثابتُ بنُ قُرَّةَ الحكيمُ الحرَّاني : «إنَّ الحسنَ من أفراد الأمة المحمدية التي تَتباهى بهم على الأمم الأخرى» .

مَواعِظُ الحَسَنِ البَصْريّ:

ومَواعِظُ الحَسن البصري تجمع بين القوة والسهولة التي عُرف بها كلام عَهد الصحابة ، وهي تدور غالباً حول قِصَر الحياة وغَدْر الدنيا ، وخُلود الآخرة ، والحثِّ على الإيمان والعمل الصالح والتقوى ، والخشية والتحذير من غرور النفس وطول الآمال .

ولا شكَّ أنَّ المجتمعَ الذي افترستْهُ المادية ، واستحوَذتْ عليه الشهواتُ ، وأُصيب بالإغراق في التَّرفِ ، والإمعان في الأماني ، كان في حاجة مُلِحَّة إلى مثل هذه المواعظ التي تكشِفُ الغطاء عن العيون ، وتمسُّ القلوب .

وكان يُصوِّر في أكثر مواعظه عصر الصحابة ، وما اتَّسم به من أخلاق وصِفاتٍ ، ويُقارن بين عصرهم وعصرِه ، ويَصِفُ التَّدهور الذي أُصيب به المجتمع الإسلامي في الإيمان والأخلاق . وكان إذا وصل إلى هذه النقطة أثار الأحزان ، وأهاج الوِجدان .

ومَواعِظُه مثالٌ جميل للنثر البليغ ، والأدب الرفيع ، وموضوعُ دراسة الأَديب والناقد ، وأُقدِّمُ هنا مثالين من هذه المواعظ ، فمنها موعظَة يذكُر فيها عَهد الصحابة ، ويصفُ المؤمن :

---

(١) إحياء العلوم: ج١ ، ص٦٨ .

«هَيهاتَ هَيهاتَ! أهلك الناس الأماني ، قولٌ بلا عمل ، ومعرفة بغير صَبر ، وإيمانٌ بلا يقين.

ما لي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً! وأسمع حسيساً ولا أرى أَنيساً!

دخل القومُ والله ثم خرجوا، وعرفوا ثم أنكروا، وحرَّموا ثم استحلُّوا ، إنما دين أحدكم لَعقةٌ على لسانه ، إذا سُئل : أمؤمنٌ أنت بيوم الحساب؟ قال : نعم.

كذب ومالك يوم الدين.

إنَّ من أخلاق المؤمن قوةً في دين ، وإيماناً في يقين ، وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم ، وكَيساً في رِفق ، وتحمّلاً في فاقة ، وقَصداً في غنى ، وشفقةً في نفقة ، ورحمةً لمجهود ، وعطاءً في الحقوق ، وإنصافاً في الاستقامة ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم في مساعدة من يحب ، لا يهمز ، ولا يغمِز ، ولا يلْمِز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ولا يلعب ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يتَتبعُ ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذي عليه ، ولا يتجاوز في العُذر ، ولا يَشمَتُ بالفجيعة إن حلَّت بغيره ، ولا يُسر بالمعصية إذا نزلت بسواه.

المؤمنُ في الصلاة خاشعٌ ، وإلى الركوع مسارعٌ ، قولُه شفاءٌ ، وصبره تُقىً ، وسكوته فكرةٌ ، ونظَرُه عِبرةٌ ، يُخالِط العلماء ليَعلَم ، ويَسكت بينهم ليسلَم ، ويتكلَّم ليَغْنَم ، إنْ أحسن استبشر ، وإنْ أساء استغفر ، وإنْ عُتِبَ استعتَب ، وإنْ سُفه عليه حلُم ، وإنْ ظُلم صَبَر ، وإنْ جير عليه عدَل.

ولا يتعوَّذ بغير الله ، ولا يستعينُ إلا بالله ، وَقورٌ في الملأ ، شكورٌ في الخلاء ، قانع بالرزق ، حامد في الرخاء ، صابرٌ على البلاء ، إنْ جلس مع الغافلين كُتب من الذاكرين ، وإنْ جلس مع الذاكرين كُتب من المستغفرين.

هكذا كان أصحابُ النبي ﷺ ، الأوَّل بالأولِ ، حتى لحقوا بالله عزَّ وجلَّ ، وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح ، وإنما غُيِّر بكم لما غيَّرتُم ، ثم تلا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١][١] .

وموعظةٌ أخرى يُفسِّر فيها آيات من سورة الفرقان ، [الآيات: ٦٣ ـ ٦٥]، ويَصِفُ المؤمنين الأولين:

«إنَّ المؤمنين لمَّا جاءتهم هذه الدعوة من الله صدَّقوا بها ، وأفضى يقينُها إلى قلوبهم ، خشعتْ لله قلوبهُم وأبدانهم وأبصارهم ، كنتَ والله إذا رأيتهم رأيتَ قوماً كأنَّهم رأيُ عين ، والله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ، ولكنهم جاءهم أمر من عند الله فصدَّقوا به ، فنعَتهُم الله في القرآن أحسنَ نَعت ، فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ والهَوْنُ في كلام العرب: اللِّين والسكينةُ والوقار ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ حُلماء لا يجْهلون ، وإن جُهل عليهم حَلِموا ، يُصاحبون عباد الله نَهارهم بما يسمعون.

ثم ذكَرَ ليلَهم خيرَ ليلٍ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ ينتصبونَ لله على أقدامهم ، ويفترشونَ وجوههم سُجّداً لربهم ، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقاً من ربهم ، لأمرٍ مَّا سهروا ليلَهم ، ولأمرٍ مَا خشَعوا نهارهم ، قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ وكلُّ شيء يصيبُ ابنَ آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، إنما الغرام اللاّزم له ما دامتِ السموات والأرض ، صدقَ القومُ واللهِ الذي لا إله إلا هو ، فاعملوا وأنتم تتمنَّون ، فإياكم وهذه الأماني رحمكم الله، فإنَّ الله لم يُعط عبداً بأُمنيته خيراً في الدنيا والآخرة»[٢] .

---

(١) الحسن البصري: لابن الجوزي: ص ٦٩، ٦٠.

(٢) قيام الليل: ص ١٢.

صَدْعُه بالحقّ وشجاعتُه أمام رجال الحُكم:

وكان الحسنُ البصريُّ صادعاً بالحق ، شُجاعاً لا يخشى في صَدْعِه بالحق غائلةً ، وهذه الشجاعة لها قيمتها ومكانتُها في الحكومات الشخصيَّة التي لم تزلْ حُرةً في تصرفاتها وأهوائها ، عنيفة قاسية في حُكمها ، سريعةً مُتهوِّرة في تنفيذ إرادتها وانفعالاتها ، وقد روى التاريخُ من أخبار شجاعة الحسن الدينية ما يرفعُ مكانته في علماء عصره ، ودُعاة الإصلاح .

منها ما رواه ابن خلِّكان ، قال: «لمَّا وليَ عمر بنُ هبيرة الفِزاريُّ العراق ، وأضيفت إليه خراسان ، وذلك في أيام يزيد بنِ عبد الملك ، استدعى الحسنَ البصري ، ومحمدَ بن سيرين ، والشعبيَّ ، وذلك في سنة ثلاثٍ ومئةٍ فقال لهم: إن يزيدَ خليفةُ الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهمُ الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولاَّني ما ترون ، فيكتب إلي بالأمر من أمرِه فأقلِّده ما تقلده من ذلك الأمر ، فما ترون؟

فقال ابنُ سيرين والشعبي قولاً فيه تقيّـةٌ .

فقال ابنُ هبيرة: ما تقول يا حسن؟

فقال: يابن هبيرةَ خَفِ اللهَ في يزيد ، ولا تخفْ يزيدَ في الله .

إنَّ اللهَ يمنعُك من يزيد ، وإن يزيدَ لا يمنعُك من الله .

وأوشكَ أن يبعث إليك مَلَكاً فيُزيلك عن سريرك ، ويُخرجك من سَعةِ قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا يُنجِّيك إلا عملك .

يابن هبيرَة ، إن تَعْص الله ، فإنما جعلَ الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تَركبَنَّ دينَ الله وعباده لسلطان الله؛ فإنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» .

فأجازَهُم ابن هبيرة ، وأضعَف جائزة الحسن ، فقال الشعبيُّ لابن سيرين: سَفْسَفْنا له فسَفْسَفَ لنا .

وروى ابنُ سعد في «طبقاته» بإسناده عن مسلم بن أبي الذَّيال ، قال: «سأل رجلٌ الحسنَ وهو يسمعُ وأناسٌ من أهل الشام ، فقَال:

لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء.

فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟

فغضب ، ثم قال بيده فخَطر بها ، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ، نَعم ، ولا مع أمير المؤمنين»[1].

النِّفـاق والمُنافقون في الدولـة الإِسلاميـة:

لقـد نشـأتْ فـي المملكـة الإسـلاميـة بحُكـم نفـوذ الإسـلام السيـاسـي والمادي ، طبقةٌ تَدينُ بالإسلام ، وتتَسَمَّى بالمسلمين؛ ولكنها لم تُسغ الإسلام إساغة يطلبها الإسلام ، ولم تُمثّله في أخلاقها وسلوكها وميولها إنها لم تتحقق بحقيقةِ الإيمان ، ولم تدخل في السِّلْمِ كافَّةً كما يأمر به القرآن ، وقد وُجد في الجيل الإسلامي الجديد الذي لم تتمَّ تربيتُه على أساس الإسلام ، رجالٌ لم تَنْقَ رُؤوسهم ولا نفوسهم من النّزعات الجاهلية ، ولم تكن صِلَتهم بالإسلام صلةً عميقةً مُتَغلغلةً في الأحشاء ، مُسيطرة على الحياة والتفكير ، وقد وُجد في المجتمع ، وبصفةٍ خاصة في دوائر الحكومة ، وفي أوساط الأمراء والأغنياء ، أفرادٌ ـ ليس عددُهم قليلاً ـ يُمثِّلون بأخلاقهم وأساليب حياتهم ومناهج تفكيرهم المنافقين القدماء ، وهؤلاء هم الذين كانت لهمُ السيطرة على الحياة والنفوذُ في المجتمع ، يَشغلون في الحكومة مناصبَ خطيرةً ، ويحتلُّون في الجيش مراكزَ كبيرة ، وكانت عاداتُهم وأخلاقهم وأزياؤهم هي التي يُقلِّدها المُترفون والمتأنِّقون من الشباب والأغنياء.

اعتقَدَ بعضُ العلماء أنَّ النفاق قد انقرض ، وأنَّه كان مَرضاً محلياً ومُؤقتاً اقتضتهُ الظروف الخاصة في العصر الإسلامي الأول ، فلمَّا غلب الإسلام

---

(١) طبقات ابن سعد: ج٧، ص٢١٩.

وزالت شوكةُ الكفر وانتهى الصراع بين فكرتين متنافستين وبين قُوتين متحاربتين ، وبقي الإسلام لا يُصارعه الكفر ، فقدتِ الطبقةُ التي كانت تعالج صراعاً نفسياً ، وتتأرجح بين الإسلام والكفر ، فلا تخلُص لأحد منهما؛ وتتمتع بمنافعهما في وقت واحد ، أما وقد بقي إسلام ولا كفر ـ كما هو الشأن في الدولة الإسلامية ـ أو كفرٌ ولا إسلام ـ كما هو الشأن في دار الحرب ـ فلا حاجةَ إلى هذا الأسلوب من التفكير وهذا الطِّراز من النفسية ، ولا محلَّ للنفاق في دار الإسلام التي يحكم فيها الإسلام ، ويَسودُ فيها الدين؛ وقد راجتْ هذه الفكرة في الأوساط العلمية في الزمن المتقدم ، وترى لها ظلالاً في كتب التفسير والتاريخ.

ولكن يجب أن يُلاحظ ، أنَّ النِّفاق عِلَّةٌ قديمة من عِلَل الفطرة البشرية ، يُصاب بها ضِعاف النفوس في كل عصر من العصور. ولا يتولَّد هذا المرض في مجتمع يتصارع فيه الإسلام والكفر ويتكافآن فحسب؛ بل يتولد كذلك حيث يسيطر الإسلام ويحكم. فتوجدُ طبقة لا تُسيغ الإسلام بسبب من الأسباب؛ ولكنها لا تملك الشجاعة التي تحملها على إنكار الإسلام والإعلان بعقيدته وموقفه ، أو لا تسمح مصالحه وأغراضه وملابساته بأن تتنازل عن الفوائد والمناصب التي تتمتع بها بفضل الانتساب إلى الإسلام. وعن المركز الذي تحتله في الأمة لأجل ثِقتها بها واعتمادها عليها. فهي تستغلُّ الإسلام لمصالحها وتظهر في مظهر لتحافظ على شخصيتها وتُؤمِّن مستقبلها؛ ولكنها لا تخضع للإسلام خضوعاً حقيقياً ولا تُسيغ فكرته وعقيدته ونظامه. فتظلَّ طول حياتها مذبذبة بين الإسلام والكفر ، مُضطربة اضطراباً عقلياً ونفسياً وعملياً. تحكي المنافقين السابقين في فساد الأخلاق ، وعبادة الشهوات والتَّهالك على اللذات ، وانتهاز الفرص ، وترجيح المصلحة الشخصية على المصلحة الاجتماعية ، والجرأة والاستئسادِ على الضعفاء ، والجُبن والخَوَر أمام الأقوياء.

وقد وُجِدَ في العلماء والمحقِّقين من أثبت أن النِّفاق ظاهرةٌ اجتماعية وعِلَّة

نفسية لا ينحصر في زمان خاص ومكان خاص. يُعجِبني في ذلك كلمة المفكِّر الإسلامي الكبير شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، المعروف بالشيخ وَليِّ الله[١] ، فقد قال في كتابه البديع «الفوز الكبير في أصول التفسير»[٢] بعد ما ذكر أن النفاق قسمان: النفاق في العقيدة ، والنفاق في العمل والأخلاق:

أما النفاقُ في العقيدة فإن كان ممكناً وواقعاً بعد عصر الرسالة ، ولكنه لا يُمكن الجزمُ به لانقطاع الوحي.

أمَّا نفاق العمل والأخلاق ، فكثيرٌ وشائع في كل عصر من العصور. يقول: «إن النفاق شائع ومشهود في هذا العصر. وإن أحببتَ أن ترى أنموذجاً للمنافقين ، فعليك بمجالس الأغنياء وندمائهم ، كيف آثروا هوى سادتهم على حكم الشارع ، إن الحقَّ يجب أن يقال: إنه لا فرق بين من سمع كلام النبي ﷺ من غير واسطة ، واختارَ النفاق ، وبين من وُلد في هذا العصر ، وعَرف بطريق اليقين حكمَ الشارع ثم آثر ضِدَّه عليه ورجَّح كلام غيره ، وكذلك جماعةٌ من علماء الفلسفة والعلوم العقلية اليونانية - في الإسلام - يحملون شبهات عظيمة ، وشكوكاً كثيرة في قلوبهم ، ونسوا المعاد حتى لا يخطُر منهم على بال ، هم نموذج المنافقين في عصرنا».

دَلالةُ الحسَن البصري على النِّفاق والمُنافقين ونُفوذه في المجتمع:

لقد كان مِن ذكاء الحسن البصري وفطنته الدينية ؛ أنَّه اهتدى إلى أن النِّفاق لا يزال يَعيش في المجتمع الإسلامي ، وأن المنافقين لهم صولةٌ وجوْلَةٌ في الدولة الإسلامية ، وسيطرةٌ على الحياة السياسية ، وأن المدن الكبيرة

(١) [انظر سيرته في الجزء الرابع من هذه السلسلة].
(٢) [أصل الكتاب بالفارسية ، وقد نقله الشيخ سلمان الحسيني الندوي إلى العربية ، وطبع في دار الفارابي بدمشق].

والعواصم الإسلامية مَدينة لهؤلاء في الزَّهو واللهو، قال له رجلٌ: يا أبا سعيد اليومَ نِفاقٌ؟ قال: «لو خَرجوا من أزِقَّة البصرة لاستوحشْتُم فيها»[١].

وقال في مناسبة أخرى: «يا سبحان الله! ما لَقِيتْ هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها»[٢] يشير إلى الحُكّام والأمراء.

وقال مرةً: «لو خرجوا لما انتصفْتُم من عدوكم» يشير إلى الجيش الإسلامي وقُوّاده. وهكذا تناول الطبقات الممتازة في الأمة، وبيّن أن فيها النفاق والمنافقين، وأن لهمُ السيادةَ والغَلَبة.

وكان مِن أعظم أسباب تأثير الحسن البصري في المجتمع، ونفوذِه في القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس، ونزل في أعماق المجتمع، ووصَف أمراضَه، وانتقده انتقادَ الحكيم الرفيق، والناصحِ الشفيق، لقد كان عصرُه يغُصُّ بالدعاة والوعاظ، ولكنَّ المجتمع لم يخضع لأحد خضوعَه للحَسن؛ لأنه كان يَمسُّ قلبه وينزل في صميم الحياة، ويُعارض التيار.

إنَّه كان يَنْعى على الإخلاد إلى الحياةِ والانهماك في الشهوات. وقد انتشرَ هذا المرضُ في الحياة. إنه كان يُذكر بالموت، ويستحضرُ الآخرة. والمُترفون يتنَاسون ذلك ويُعلِّلون نفوسهم بالأماني الكذَّابة والأحلام اللذيذة، ويتضايقون بذكر ما يُكدِّر عليهم الحياة ويُعكِّر صفوَ عيشهم، فكان دائماً في صراع مع الجاهلية. والجاهليةُ لا تخضع إلا لمن صارعها. ولا تعترف إلا بوجود الرجل الذي يحاربها.

وكان الحسنُ البصريُّ هو ذلك الرجل، فعظُم تأثيرُه، وكثر التائبون والمُقْلِعون عن المعاصي والحياة الجاهلية التي كانوا يعيشونها، وانطلقتْ موجة

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين: للمحدث أبي بكر ص ٦٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٥٧.

الإصلاح قويةً مؤثِّرة؛ لأن الحسنَ لم يقتصر على مواعظَ وخطبٍ كانَ يُلقيها؛ بل كان يُعنى بتربية من يتَّصل به ويجالسه. فكان جامعاً بين الدعوة والإرشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخُلقية والروحية. فاهتدى به خلائقُ لا يحصيهم إلا الله، وذاقوا حلاوة الإيمان وتحلَّوْا بحقيقة الإسلام. وقد صدق عَوام بن حَوشب إذ قال: «ما أشبه الحسن إلا بنبيٍّ أقام في قومه ستينَ سنةً يدعوهم إلى الله»[١].

وفَاةُ الحسن البصري:

وكان مِن أثر هذا الإخلاص، والتفاني في الدعوة، والتأثير في القلوب، أنه أَجمعت القلوبُ على حُبِّه والاعتراف بفضلِه وشغلتْ به البصرة. وكانتِ المدينةَ التي تلي دمشق في العظمة والأهمية في ذلك العصر. حتى إذا مات في سنة ١١٠هـ ـ وكان دفنُه بعد صلاة الجمعة ـ تبعَ الناس كُلُّهم جنازتَه، واشتغلوا به، فلم تُقمْ صلاة العصر بالجامع؛ لأنه لم يَبْقَ بالمسجد من يُصلي العصر. وقال بعضُهم ممَّن شهد جنازته: «لا أعلم أن صلاة العصر تُركت في الإسلام (يعني في جامع البصرة) إلا يومئذٍ»[٢].

خلفاء الحسن:

وجرى خُلفاء الحسن ـ ممَّن توارثوا علمه وروحه ـ على الدعوة إلى الله والتذكير بالآخرة، والدَّعوة إلى حقيقة الإيمان وسيرة الإسلام؛ وهكذا اتصل تاريخُ الإصلاح والتجديد والدعوة إلى الإسلام الحقيقي من جديد لا تتخلَّله فترة، وانتقلتِ العاصمة الإسلامية بعد اثنتين وعشرين سنةً من وفاة الحسن البصري من دمشق إلى بغداد، وأصبح العراقُ مركز الحضارة والسياسة في عالم الإسلام.

---

(١) دائرة المعارف: للبستاني، ج٧ ص ٤٤.
(٢) ابن خلكان: ترجمة الحسن البصري.

الخِلافةُ العباسيةُ وأثَرها:

قامتِ الدولةُ العباسيةُ على أنقاضِ الدولة الأموية ، وخَلفتْها في أساس الحكم ومناهجه ، والروح السارية في الجهاز الإداري ، ونظرتِها إلى بيت المال وإلى المسلمين ، والأثَرة والتَّرف ، وامتازت عنها في شيء واحد ، وهو أن الدولة الأموية كانت عليها مِسحة العروبة ، وكانت مُحافظة على الروح العربية والتقاليد العربية ، وكانت عيوبُها والأخلاق التي يُمثِّلها رجالُ الحكم هي عيُوب العرب ورؤساء القبائل إذا ضَعُفت صِلتهم بالدين، أو طغتْ عليهم النزعة القبلية أو جرفتهم المادية .

أمَّا الدولة العباسية ، فقد سرتْ فيها الروح العجمية ، وأُصيبت بعِلَل الحضارة العجمية وعيوبها ، واتَّسعتِ الدولة اتساعاً عظيماً ، وامتدت على مساحة واسعة من آسيا وإفريقية؛ حتى رُوي أنَّ هارون الرشيد مرّت به قطعة من سحاب فخاطبها وقال: «أمطري حيثُ شِئتِ، فسيأتيني خراجُكِ».

وقد روى ابنُ خلدون أَنَّ دَخْلَ المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة ٧٠١٥ قنطاراً ، والقنطار في حسابه عشرةُ آلاف دينار؛ فيكون مجموع ذلك سبعين مليوناً ومئةً وخَمسين ألف دينار[1] .

وإذا لاحظنا رُخْص الأسعار وكثرة الإنتاج ، وَجدنا أن الميزانية ضخمة .

وقد زادتْ هذه الميزانيةُ زيادةً عظيمة في عهد المأمون ، وقد كانت بغداد ـ بحكم أنها عاصمة الإمبراطورية الإسلامية ـ مَصبَّ أموال المملكة الواسعة الغنية ، وسوقَ الطرائفِ والخيرات والمنتجات ، ومنتجعَ أصحاب الحِرَفِ والصناعات ، كما كانتْ مُنْتَجع أصحاب المُجون والمغنِّين الكبار والشعراء ونوابغَ كل فن جديد وهزْل وحق وباطل؛ فأمعنتْ بغداد في الحضارة ، وتفنَّنت في الترف والسرف ، وبلغتِ المدنيَّة شأواً بعيداً لاتبلغه

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ١٥١ .

الدُّول إلا بعد قرون ، وقد وصلتْ إليه الدولة العباسيةُ في قرن واحد ، وقد أثَّرت هذه الحضارة المنحرفة ، والأموال المغدِقة ، والاختلاط بالعجم ، وازدحام الجواري والرقيق من كل جنس ومن كل بلد ، في الأخلاق والميول والعادات ، وأغرق الناس في هذه المدنية التي هي مزيـجٌ من مدنيَّات مختلفة ، وأقبلوا على اللهو والبذْخ إقبالاً يصوِّره كتابُ «الحيوان» للجاحظ ، و كتابُ «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني[1] .

ويستطيع الرجُلُ أن يأخذ فِكرة عن هذه المدنيَّة المترفة ، وعن الحياة الباذخة ، وإلى ما وصل إليه الخلفاء ، ومن كان يتَّصل بهم ومن كان على آثارهم إذا قرأ صفة عرسِ المأمون الخليفة العباسي. يقول ابن خلكان ـ وقد جمع روايات مختلفة ـ:

«تزوَّجَ المأمونُ بورانَ بنتَ الحسن بن سهل ، واحتفل أبوها بأمرها ، وعمل من الولائم والأفراح ما لم يُعهد مثله في عصر من الأعصار ، وكان ذلك بفمِ الصُّلح ، وانتهى أمرُه إلى أن نَثر على الهاشميين ، والقُوَّاد ، والكُتَّـاب ، والوجـوه بنـادقَ مسك فيها رقـاع بأسماء ضيـاع ، وأسمـاء جَوارٍ ، وصفاتِ دواب ، وغير ذلك ، فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ، فإذا علم ما فيها ، مضى إلى الوكيل المُرصَد لذلك فيدفعها إليه ، ويتسلَّم ما فيها ، سواء كان ضيعةً أو ملكاً آخر ، أو فرساً ، أو جاريةً ، أو مملوكاً.

ثم نثَر بعد ذلك على سائر الناس الدنانيرَ والدراهم ، ونوافِجَ المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقُوّاده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ـ وكانوا خَلْقاً لا يُحصى ـ حَتى على الحمَّالين ، والمكاريَّـة ،

---

(١) راجع «كتاب الحيوان»: للجاحظ: ج٢، ص ٩١ ، وج٥ ، ص ١١٥ ، ومجلدات «الأغاني».

والملاَّحين ، وكلٍّ من ضمه عسكره؛ فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه»[١].

وذكر الطَّبريُّ في تاريخه: «أنَّ المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً ، يُعِدُّ له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألفَ ألفِ درهم ، وأمر له المأمون عند منصرفه بعشرة آلاف ألفِ درهم ، وأقطعه فمَ الصُّلْح ، فجلس الحسن وفرَّق المال على قواده وأصحابه وحَشَمِه».

وقال غيره: «وفُرِشَ للمأمون حصيرٌ منسوجٌ بالذَّهب ، فلما وَقف عليهِ نُثرتْ على قدميه لآلىءُ كثيرة. . . وأطلق المأمونُ خراج فارس وكور الأهوازِ مدة سنةٍ» .

وقال الطبريُّ أيضاً: «دخل المأمونُ على بورانَ الليلة الثالثة من وصوله إلى فَمِ الصُّلح ، فلما جلس معها نَثرتْ عليها جدَّتُها ألفَ دُرَّةٍ كانت في صَينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسألها عن عدد الدُّرِّ كمْ هو؟ فقالت: ألف حَبَّة ، فوضعها في حجرها. . . وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبرٍ وزْنُها أربعون مناً في تَوْرٍ من ذهب؛ فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا سَرفٌ»[٢].

وأنا لا أُرِيد أن أسائل هل يُبيح الإسلام هذا السَّرفَ المتناهي؟ فالجواب واضح ، ولا أريد أن أقارن بين زواج فتى بني هاشم «علي بن أبي طالب» مع سيدة نساء أهل الجنة ، وبِضعةِ الرسول «فاطمةَ بنتِ محمد رسول الله ﷺ» ، فالقصة غَنية عن المقارنة ، ولا يوجد لها نظيرٌ في التاريخ بسهولة كما لاحظَ ابن خَلِّكان ، ولا أريد أن أسائل من أي مال أنفق هذه النفقات الملوكية؟ وهل سَمحتِ الأمةُ بها؟ إنني لا أريد أن أثير هذه الأسئلة؛ ولكني أريد أن أُصوِّر لكم ـ بعض التصوير ـ المدنيَّة المُترفةَ التي كانت تسود في العصر العباسي الأول ،

(١) وفيات الأعيان: ترجمة بوران بنت الحسن، ج١ ، ص ٢٦٠ طبع مكتبة النهضة.

(٢) المصدر السابق: ترجمة بوران بنت الحسن، ج١، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

وإلى أيِّ حدٍّ بلغ العَبث بالأموال ، وكيف تطوّر ، بل تطرَّف الذوق العربي الإسلامي؛ حتى وصل في مدَّة قليلة إلى هذا الحد من التأنُّق والتبذير في الولائم والأعراس.

وإليكم حكاية ثانيةٌ تدلُّ على ما وصلت إليه المدنيَّةُ في العصر العباسي من التأنُّقِ والإسراف في الولائم والمآدب ، وذلك في عصر الرَّشيد الذي يتقدَّم عصرَ المأمون الذي حَكيتُ عنه.

روى المسعوديُّ في كتابه «مروج الذهب» قال:

«حدَّثَ إبراهيم بن المهدي قال: استزرتُ الرَّشيد بالرقَّة؛ فزارني ، وكان يأكلُ الطعام الحار قبل البارد؛ فلما وضعت البوارد ، رأى فيما قُرِّبَ إليه منها جامُ قريض سمكٍ ، فاستصغرَ القطعَ ، وقال: لم صغَّر طبَّاخك تقطيعَ السمكِ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه ألسنةُ السَّمك ، قال: فيشبه أن يكون في هذا الجام مِئة لسان ، فقال مراقب خادمه: يا أمير المؤمنين؛ فيها أكثر من مئة وخمسين ، فاستحلفه عن مَبلغ ثمنِ السمك ، فأخبره بأنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يدَه ، وحلف ألا يطعم شيئاً دون أن يُحضره (مراقب) ألفَ درهم ، فلما حضر المال أمر أن يُتصدق به ، وقال: أرجو أن يكون كفَّارةً لسَرفِك في إنفاقك على جام سمكٍ ألف درهم ، ثم ناول الجام بعضَ خدمه، وقال: أول سائل تراه فادفعه إليه!».

الدُّعاة إلى الله في العَصر العبَّاسي:

ولكن بجِوار هذه المدنيَّة المائجة والحياة الباذخة ، وبجانب هذا السَّرف والتَّرف ، والزَّهو واللهو ، نرى رجالاً قد انقطعوا إلى الدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس ، ونشر العلوم الدينية ، والعُكوف على التعلُّم والتعليم ، وقد ثاروا على هذه الحياة وإغراءاتها ، وانحسرتْ عنهم موجاتُ الغنى والترف ، وارتدتْ عنهم خائبةً حسيرة ، وكأنَّها لم تجد إلى قلوبهم سبيلاً ، وقد شُغلوا ـ كالحسن البصري من قبل ـ بالمحافظة على رُوح هذه الأمة وصِلتِها بالله ،

وبالمحافظة على منافع الحياة الإسلامية «القرآن والحديث» وأخفقت الحكومات في أن تشتري ضمائرهـم ، أو تَشْغلهـم عن عملهـم .

وكانوا جُـزُراً بشريـة فـي بحـر المادية المائج ، يَأوي إليها الغرْقى ومن انكسرت سفينتُه ، وقد أقاموا بجنْب الحيـاة المترفـة في بغـداد ، حيـاةً زاهـدة تقـوم علـى الإيمـان وتقديرِ القِيَم الروحية والخلقية ، تفوق ـ في سلطانها على القلوب ، وفي سعتها أحياناً ـ الحياةَ المادية ، فإن كان الخلفاء وأمراؤهم يحكُمون الأجسام فقد كان هؤلاء يحكُمون القلوبَ والعقول ، فإذا وقع صراعٌ بين هؤلاء وأولئك كان الانتصار في كثير من الأحيان للآخرين ، ويخضعُ سلطان السياسة لسلطان العقيدة ، ويتضاءلُ الخليفة والأمير إمام عالمٍ كبير أو محدِّثٍ جليل .

وقد حكى ابن خلِّكان قصةً تدل على سلطان رجال العلم والدين في هذا العصر . قال : «قَدم هارون الرشيد الرقةَ ، فانجفل الناس خَلْفَ عبد الله بن المبارك ، وتقطَّعت النعال ، وارتفعتِ الغبرةُ فأشرفت أمُّ ولد أمير المؤمنين من برج الخشب ، فلما رَأت الناس قالت : ما هذا؟ قالوا : عالم أهل خراسان قدم الرِّقة يقال له عبد الله بن المبارك ، فقالت : هذا والله المُلك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرَطٍ وأعوان!»[1] .

وقد ظهَرتْ هذه الحياةُ الدينية التي يسود فيها الإيمان والتقوى والانقطاع إلى العلم والزهد بوضوح في بغداد ؛ فكانت بغدادُ منتجعاً لرواد العلم والدين ، ولأصحاب الإيمان واليقين ، وللدعاة إلى الله ؛ فقد قصدوها من كلِّ جانب ، وألقوا فيها عصا التِّسيار ، واتخذوها مركز نشاطهم ودعوتهم ؛ لأنّها مركزُ الأعصاب في جسم العالم الإسلامي وقلبُه النابض ، فإذا تأثرتْ بالدعوة فقد تأثر العالم الإسلامي ، وإذا صلح القلب صَلح الجسدُ كله ؛ لذلك نرى فيها أئمة الفنون وكبار الدُّعاة وأعلام الزهاد ، حتى إنَّ الذي يطالع كُتب الطبقات

---

(١) وفيات الأعيان : ج٢ ، ص ٢٣٨ ، ترجمة عبد الله بن المبارك .

والتراجم يتَخيل أن بغداد هي مدرسةٌ للحديث ، أو مسجد للوعظ والتذكير ، أو مركزٌ للتزكية والتربية ، لا يسمع فيها إلا درساً يُقرأ ، وقرآناً يُتلى ، وحديثاً يُروى ، وقلباً عليلاً يُداوى فيُشفى ، ويرى فيها دولة للعلم والدين لا تَقِلُّ في سلطانها وسعتها عن خلافة العبَّاسيين.

وقد كان للعلماء الأعلام وبعضِ الزُّهاد المحدِّثين مواقفُ مجيدةٌ أمام الخلفاء أدَّوا فيها حق النصيحة، وحذروهم من سَطْوة الله، وتبرَّؤوا من هذا الجَوْر الفاشي ، والظلم القاسي ، كالذي كان من الأوزاعي[1]، وسفيان الثوري[2] عند المنصور ، وصالح بنِ عبد الجليل[3] بين يدي المهدي ، وابنِ السَّماك عند الرشيد[4] ، وإليكم بعض الأمثلة لهذه الشجاعة وقوة الإيمان والصراحة في قول الحق:

«عن الفَضل بن الرَّبيع قال: حَجَّ أمير المؤمنين الرشيد ، فأتاني ، فخرجت مُسرعاً ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك؛ فقال: ويحك قد حَاك في نفسي شيءٌ ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلتُ: هنا سفيانُ بن عيينة، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعتُ الباب ، فقال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين ، فخرجَ مسرعاً ، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلتَ إليَّ أتيتُك؟ فقال له: خُذ لما جئناك له رحمك الله فحدَّثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم ، فقال: أبا عباس ، اقضِ دينه.

فلمَّا خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبُك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله، فقلتُ له: هاهنا عبد الرزَّاق بن همام ، قال: امضِ بنا إليه ، فأتيناه فقرعت الباب ، فقال: من هذا؟ قلت: أجبْ أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال: يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إلي أتيتُكَ؛ قال: خذ لما جئناك له، فحادثَه ساعة ثم قال

---

(١) انظر: العقد الفريد: لابن عبد ربه: ج٣، ص ١٦٢.
(٢) المصدر السابق: ص ٦٥.
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٨.
(٤) المصدر السابق: ص ١٦٤.

له : عليك دين؟ قال : نعم ، قال : أبا عباس اقض دينه .

فلما خرجنا قال : ما أغنى عنِّي صاحبك شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله ؛ قلت : هاهنا الفضيلُ بن عياض ، قال : امض بنا إليه . فأتيناه فإذا هو قائم يُصلي يتلو آية من القرآن يردِّدها ، فقال : اقرع الباب فقرعتُ البابَ ، فقال : من هذا؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي ولأمير المؤمنين؟! فقلتُ : سبحان الله! أما عليكَ طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «ليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفسَه»!(1) فنزلَ ، ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نَجُول عليه بأيدينا ، فسبقتْ كفُّ هارون قبلي إليه ، فقال : يا لها من كفٍّ ما ألينها إنْ نجت غداً من عذاب الله عز وجل! فقلتُ في نفسي : ليُكلِّمَنهُ اليوم بكلامٍ نَقيٍّ من قلب تَقيٍّ ، فقال له : خُذ لما جئناك له رحمك الله ، فقال : إن عمر بن عبد العزيز لما وَلي الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ، ومحمدَ بنَ كعب القُرظي ، ورجاءَ بن حَيَوة ، فقال لهم : إني قد ابْتليتُ بهذا البلاء فأشيروا عليَّ ، فعَدَّ الخلافة بلاء ، وعددَتها أنت وأصحابك نِعمة .

فقال له سالم بنُ عبد الله : إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله فصُمِ عن الدنيا ، وليَكُنْ إفطارك من الموت ! .

وقال له محمدُ بن كعب القُرَظي : إن أردتَ النجاة من عذاب الله ، فليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنّنْ على ولدك .

وقال له رجاء بن حَيَوة : إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله عز وجل فأحبَّ للمسلمين ما تُحب لنفسك ، واكرهْ لهم ما تكْرهُ لنفسك ، ثم مت إذا شئت .

وإنِّي أقول لك : إني أخافُ عليك أشدَّ الخوف يوماً تَزل فيه الأقدام؛ فهل

---

(١) [أخرجه أبو يعلى في المسند (٢/ ٥٣٦) برقم (١٤١١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، والبزار في المسند (٧/ ٢١٨) برقم (٢٧٩٠) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه].

معك ـ رحمك الله ـ من يُشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه ، فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال : يابنَ أُمّ الربيع تقتله أنت وأصحابك وأَرفقُ به أنا!؟

ثم أفاق، فقال له : زِدْني رحمك الله .

فقال : يا أمير المؤمنين بلغني أنَّ عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكي إليه؛ فكتب إليه عمر : يا أخي أُذكِّرك طولَ سهرٍ أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصرف بك من عند الله؛ فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء قال : فلما قرأ الكتاب ، طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له : ما أقدمك؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولايةٍ أبداً حتى ألقى اللهَ عزَّ وجلَّ .

قال : فبكى (هارون) بكاء شديداً ثم قال له : زدني رحمك الله فقال : يا أمير المؤمنين إن العبَّاس عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أَمِّرْني على إمارة ، فقال له النبي ﷺ : «إنَّ الإمارة حسرةٌ ونَدامةٌ يوم القيامة فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل»[1] .

فبكى (هارون) بكاءً شديداً وقال له : زدني رحمك الله .

فقال : يا حسن الوجه؛ أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة؛ فإن استطعت أن تَقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشٌ لأحدٍ من رعيتك؛ فإن النبي ﷺ قال : «من أصبح لهم غاشاً لم يَرَحْ[2] رائحة الجنة»[3] .

فبكى هارون وقال له : عليك دَينٌ؟

---

(١) [أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤٣٩) ، وذكره ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (٢/ ٢٤٥)].

(٢) لم يَرَحْ رائحة الجنة : لم يَشُمَّ ريحها .

(٣) [أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٧) ، وابنُ عساكر في تاريخه (٤٨/ ٤٣٩)].

قال: نعم دَينٌ لرَبي يحاسبني عليه؛ فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشَني، والويل لي إن لمْ أُلهمْ حُجَّتِي.

قال: إنما أعني دَين العباد.

قال: إنَّ ربي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن أُوحِّدَه وأطيع أمره، فقال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

فقال له: هذه ألفُ دينار، خذها فأنفِقها على عيالك، وتَقوَّ بها على عبادتك.

فقال: سبحان الله، أنا أدلُّك على طَريقِ النجاة وأنت تكافئُني بمثل هذا؟ سلَّمك الله ووفقك.

ثم صمتَ فلم يكلمنا؛ فخرجنا من عنده، فلما صِرنا على الباب قال هارون: أبا عباس إذا دَلَلْتني على رجل فدُلَّني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

فدخلتْ عليه امرأةٌ من نسائه، فقالت: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضِيق الحال، فلو قبلتَ هذا المال فتفرَّجْنا به؛ فقال لها: مَثلي ومَثلُكم كمَثلِ قومٍ كان لهم بَعيرٌ يأكلون من كَسْبه؛ فلما كبر نحروه فأكلوا لحمَه، فلما سمع هارون هذا الكلام، قال: تَدخلُ، فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل، خرجَ فجلس في السطح على باب الغُرفة، فجاء (هارون) فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينا نحن كذلك، إذ خرجت جاريةٌ سوداء فقالت: يا هذا قد آذيتَ الشيخ منذ الليلة، فانصرف رحمك الله فانصرفْنا»[1].

وقد كان مِن بعض هؤلاء استعراضٌ لنظام الحكم، ووصفٌ دقيقٌ للجهاز

---

(١) صفة الصفوة: ج٢، ذكر فضيل بن عياض التميمي، ص ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.

الإداري ومفاسِده ، يدل على فهم عميق واطلاع واسع على شُؤون الدولة ، ومواضعِ الضعف والفساد في الإدارة .

ومن أمثلتِه البليغة الرائعة ما نقل ابن عبد ربه في كتابه ، مِن كلام رجل من العُبّاد عند المنصور وقد جاء فيه :

«إنَّ الله استرعاكَ أمر عبادِه وأموالَهم ، فأغفلتَ أمورهم ، واهتممتَ بجمع أموالهم ، وجعلتَ بينك وبينهم حجاباً من الجِصِّ والآجُر ، وأبواباً من الحديد ، وحُرّاساً معهم السلاح ، ثم سَجنتَ نفسك عنهم فيها ، وبعثتَ عمالك في جبايات الأموال وجمعِها ، وقوَّيتهم بالرجال والسلاح والكُراع ، وأمرت ألا يدخل عليك أحدٌ من الرجال إلا فلان وفلان ـ نفراً أسميتَهمْ ـ ولم تأمرْ بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري ، ولا الضعيفِ الفقير إليك ، ولا أحدٌ إلا وله في هذا المال حقٌّ .

فلمَّا رآك هؤلاء النَّفر الذين استخلصتهُم لنفسك ، وآثَرتَهم على رعيتك ، وأمرت ألاَّ يُحجبوا دونك ، تجبي الأموال وتجمعُها ، قالوا : هذا قد خانَ الله ؛ فما لنا لا نخونه! فائتمروا ألا يصل إليك من علمِ أخبارِ الناس شيءٌ إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرَهم إلاخوَّنوه عنك ونفَوْه ، حتى تسقط مَنزِلته .

فلمَّا انتشرَ ذلك عنك وعنهم ، أعْظَمهُم الناس وهابوهم وصانعوهم ؛ فكان أولَ من صانعهم عمالُك بالهدايا والأموال ، ليقوَوْا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ؛ لينالوا ظلم من دونهم .

فامتلأت بلادُ الله بالطمع ظُلماً وبغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل ؛ فإن جاء مُتظلِّم حيلَ بينك وبينه .

فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك ، وجَدك قد نهيت عن ذلك ، ووقَفْتَ للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فإن جاء ذلك المتظلم فبلغَ بطانتَك خبرُه ، سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمتَه إليك ، فإنَّ المتظلم منه له بهمْ حُرمة ،

فأجابهم خوفاً منهم ؛ فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ؛ فإذا أُجهد وأخرج ثم ظهرتَ ، صرخ بين يديك ، فيُضرب ضرباً مبرّحاً يكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر فما تُنكر ، فما بقاءُ الإسلام على هذا؟!» .

وقد كان لسِيرة هؤلاء الأعلام ، وحياتِهم النزيهة ، وزُهْدهم في حكام الدنيا ، وابتعادهم عن مناصب الدولة ، وتفلتهم من شَرك كان يُنصب لهم حيناً بعد حين ، وتمرُّدهم على الشهوات ، ومواجهتهم لكبار الملوك والخلفاء بالحق ، وإرشادِهم للخلق بإخلاص ونزاهة ، ولإيمانهم القوي ، تأثيرٌ كبير في نفوس الناس ؛ حتى في أهل الذِّمة ؛ فكان يُسْلِم منهم كثير ، وكانوا خاضعين لهؤلاء يَعترفون لهم بالفضل ، ويَدينون لهم بالحُبِّ[1] .

جُهـودٌ لإِقامـة الحكم الصالح وتَغيير الأوضـاع:

ولم تكن جهودُ المصلحينَ مقتصرةً على الدعوة والإصلاح الفرديِّ ، والوعظِ والإرشاد ، بل رافقت هذه الجهودَ التي لم تنقطع محاولات كانت تظهر ـ على فترات قصيرة ـ لقلب الحكم ، وإعادة الخلافة إلى نصابها ، والقضاء على هذا الاحتكار الأموي أو العباسي للخلافة والحكم .

وقد قامتِ الخلافةُ ـ مع الأسف ـ على نظام الوراثة والسُّلالات ، ودان العرب ـ مع الأسف ـ لمبدأ الشَّرف في الخلافة ؛ فلم يكن لأحد أن يقوم في وجه الخليفة الأموي أو العباسي ، ويطمعَ في النجاح إلا إذا كان حائزاً على شرف النَّسب وعُلوِّ البيت ، متمتعاً بعصبية قوية واسعة ، حتى يقرعَ الحديد بالحديد ، ويقابل الريح بالإعصار ؛ لذلك كان كلُّ مَن خرج على الدولة الأموية والعباسية ، ورفع راية الجهاد ، من أهل بيت الرسول ﷺ ومن العلويين ؛ لأن إمكانات نجاحهم كانت ألمعَ وأظهر ، والمسلمون إليهم أميل ، وأيَّدهم أهل

(١) انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم، و«تاريخ ابن خلكان».

الصلاح ومحبو الإصلاح في عصرهم ، والذين كانوا يتألمون بمشَاهدة فسادِ الأوضاع ، وضياع الخلافة ، وضياع أموال المسلمين في الشهوات والنَّزَعات الجامحة العاتية إلى الترف والعادات الجاهلية .

وقد قام بعد الحسين بن علي ـ رضي الله عنه وعن آبائه ـ حفيدُه زيدُ بن علي بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي ، وقُتل وصُلب سنة ١٢٢هـ ، وقد أرسل إليه الإمام أبو حنيفة بعشرة آلاف درهم ، واعتذر عن عدم حضوره(١) .

ثم قام من بني الحسن : محمدُ بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ذو النَّفس الزكية ، في المدينة ، وأخوه إبراهيم ، في الكوفة باتفاق منهما ، وكان أبو حنيفة ومالك من أنصار ذي النَّفس الزكية ، وقد انتصرَ له أبو حنيفة علانيةً ، وأرسل إليه ببعض المال ، ونهى قائد المنصور ، والحسن بن قحطبة ، عن مُحاربته فاعتذر من المنصور ، وكان هذا هو السبب الحقيقي لما وقع من المنصور مع أبي حنيفة بحياتهِ .

وقد جاء في تاريخ «الكامل» لابن الأثير ، أنَّ أهل المدينة قد استفتَوا «مالك ابن أنس» في الخروج مع محمد ، وقالوا : إنَّ في أعناقنا بيعةً لأبي جعفر ، فقال : «إنما بايعتُم مكرهين ، وليس على مُكْرَهٍ يمينٌ ؛ فأسرع الناس إلى محمد ، ولزم مالكٌ بيتَه»(٢) .

وقد قُتل محمد ،سنة ١٤٥هـ في المدينة في شهر رمضان ، وقتل أخوه إبراهيم في ذي القعدة من ذلك العام .

إنَّ هذه المحاولات قد أخفقت ولم تأتِ بالنتيجة المطلوبة ؛ لأنَّ الحكومة قد كانت قويةً ومنظمة ، وكانت تملك الوسائل والذخائر . وقد رأينا في التاريخ الماضي والحاضر ، محاولاتٍ كثيرةً تقوم على الإخلاص والإيمان والبطولة

---

(١) مناقب أبي حنيفة : للبزاري : ج١ ، ص ٥٥ .
(٢) الكامل : ج٥ ، ص ٢٥١ .

والشجاعة ، ولا يقصِّر قادتُها وأتباعها في التضحية بالأموال والأنفس، ثم كثيراً ما تُخفق أمامَ الحكومات المنظَّمة وجيوشِها العظيمة وقواها الهائلة .

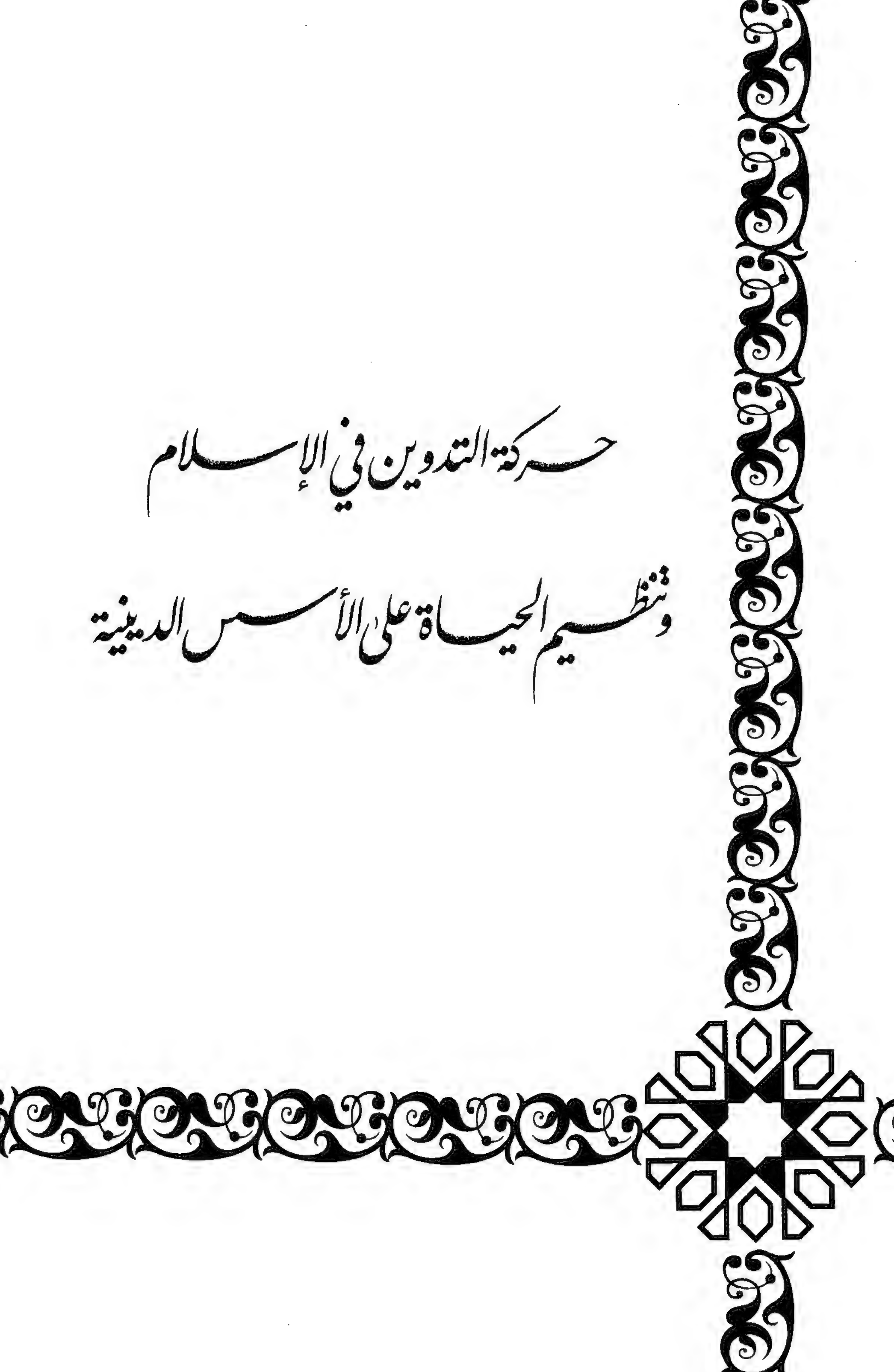
وليس هذا بِبدْعٍ في التاريخ ، ولا بمُستغرَب في سير هذا الكون؛ ولكنها ـ على إخفاقها في ميدان السياسة والنتائج المادية ـ قد خدمتِ الإسلام خدمة عظيمة؛ لأنها حفظت على تاريخ الإسلام شرَفهُ وكرامته؛ فلولا هذه الجهود وهذه المحاولات حيناً بعد حين ، لكان التاريخ الإسلامي قصةً متصلة للأنانية والنفعية ، قصة الملوك الذين يتسلَّطون ، وقصة أصحاب الأغراض والأطماع الذين يخضعون .

ولكن هؤلاء الأبطال المجاهدين؛ ولكن هؤلاء المؤمنين المغامرين قد نَصبوا للأجيال القادمة مناراتٍ للنور تُضيء لهم في غياهب التاريخ من بعيد ، وتُنير لهم السبيل ، وتُلْهِمُ بالفروسية الإسلامية الصادقة والثَّورةِ على الأوضاع الفاسدة ، والغضبِ لنظام الإسلام المظلوم ، ولكرامتِه المُهدَرة .

إنَّه تُراث مجيدٌ يعتزُّ به الإسلام ، وثَروةٌ غالية تتجمَّل بها الأجيال ، وسِلسلَة متصلة من المجاهدين تَبْعث على الثقة والإيمان واليقين .

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

* * *



حركة التدوين في الإسلام

وتنظيم الحياة على الأسس الدينية



المحاضرة الرابعة:

حركةُ التَّدوين في الإِسلام
وتَنظيمُ الحَياةِ على الأسس الدِّينيَّـة

الأُمّـةُ على مُفترق الطُّـرق:

لقد اتَّصل تاريخ الإصلاح والدعوة ، كما قدّمنا في المحاضرتين السابقتين ؛ ولكن بقيتْ ناحيةٌ من نواحي الحياة الأولى ، تتطلَّبُ العناية السريعة ، وتَسترعي اهتمام المهتمين بشؤون هذه الأمة ، ولا تسمحُ بالتأخير أو الإرجاء يوماً واحداً ، وذلك ما سيكون موضوع محاضرتنا الرابعة ، إن شاء الله .

لقد خَرجتْ هذه الأمةُ ـ بفضل الدعوة الإسلامية التي عَمَّتِ الآفاق وتخطتِ الحدود ، وبفضل الجهاد الذي أخضع نِصف المعمورة للإسلام ـ من طَور البداوة والبساطة والانحصار في دائرة ضَيقة جغرافية ، ومجتمع صغير ، إلى طَور الإمبراطورية العظيمة .

وقد كانتْ قارةُ إفريقية تحتَ وصاية الإسلام وإدارته ، وتدخُل في هذه الإمبراطورية الإسلامية أقطارٌ وبلادٌ من أرقى البلاد في العالم وأعرقِها في المدنية والعلوم ، وكانتْ هذه الحكومة العظيمة تُواجه بطبيعة الحال تطوراتٍ كثيرة سريعة بحكم الاختلاط بالعناصر المختلفة ، والمدنيَّات الكثيرة ، وتواجه

شُؤوناً جديدة ومشاكلَ عديدة في التجارة والزراعة والجِزية والخَـراج ، وتُواجِـه من مسائـلِ البلـدان والأقطـار التي يَفتحها الإسلام ويحكُمها المسلمون الشيءَ الكثير ، وتَجدُ من عادات أهلها وتقاليدهم واجتماعهم ما يتنافى مع الإسلام كثيراً ، ويتّـفق معـه قليلاً ، وكـان الحُكم في كل ذلك مما لا يمكن تأخيـرهُ أو الإعراض عنـه ، وكانت هـذه النواحي كـلّها تتطلب الحل الحاسم السريـع ، وتمتحِن كفايـة هذه الأمة الفكريـة ، وصلاحية التشريع الإسلامي لمسايـرة العصر والمدنية وشؤون الاجتماع البشري ، وكانتِ الحكومة في حاجة مُلحّة إلى دستور شامل كامل ، وكان الجهاز الإداري لا يُمكـن إيقـافـه عـن السَّيـر ، أو تعطيلُـه عن الحركـة في انتظـار التشريع.

فإذا تكاسلَ العلماءُ في الاجتهاد والاستنباط ، وآثروا الراحةَ على العمل والكدح ، أو ضَعُف إنتاجُهم وجَمدت قرِيحتُهم ، التجأتِ الحكومة ـ تحت وطـأة حـاجـات الحيـاة العمليـة ومطـالبهـا ـ إلـى أن تقتبسَ النُّظُـم الـروميـة والفارسية ، وتُطبقَ القانون الروماني والإيراني على المملكة الإسلامية، فكان ذلك يَجرُّ على هذه الأمة شقاءً طويلاً ، لأنها تحرَم سعادة القانون الإسلامي ، وبركات المجتمع الإسلامي ،ويُكتبُ عليها أن تَعيش مسلمة متدينة في مساجدها ، جاهليةً أو لا دينية في بيوتها وأسواقها ومحاكمها. كما هو الواقع في البلاد والدول التي ديانتها الرسمية النصرانية وليس عندها تشريعٌ مسيحي كما هو واقع ـ مع الأسف والخجل ـ في البلاد والدُّول التي تدين بالإسلام في العقيدة والعبادة ، ولا تدين به في التشريع والقانون.

وإذا ساغ في النصرانية التي لا تملكُ الثروة الدستورية ، ولا تُلِحُّ على تطبيق الدين على الحياة ، فإنه لا يسُوغ في الإسلام الذي هو دينٌ ودولة ، وعقيدةٌ وسياسة ، وعبادة واجتماع.

فكانتِ الأمةُ تجتاز مرحلةً خطيرة دقيقةً في حياتها ، وقد وقفتْ على مُفترق الطُّرق. وكانت الغلطة الواحدة ،أو العَثرة الخفيفة كافيةً لقطع صلتها عن

الحياة الإسلامية والاجتماع والنظم الإسلامية ، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياة ليس فيها إلا نصيب ضئيل.

الحاجـةُ إلى تدويـنِ الحَديث:

وكانتِ الأمةُ لا تستطيع أن تتفادى هذا المصير المُؤلِم المظلم إلا إذا كانت مصادرُ التشريع ، ومنابعُ الفقه الإسلامي ، محفوظةً من الضياع ، ميسورة للانتفاع. وأهم هذه المصادر ـ بعد القرآن الذي لا يُخاف عليه من الضياع والتحريف ـ هو «الحديث» الذي هو مصدر مُنظَّم ، وثروةٌ زاخرةٌ لاستنباط الأحكام ، ولا يعرف التاريخ سيرة نبوية أوثق من هذه السيرة ، وأحراها بالاعتماد والتَّعويل ، ويَصحُّ أن يسمى سِجلَّ الوقائع اليومية ، وشبه «مذكَّرات» ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ لمدَّة ثلاث وعشرين سنة قضاها النبي ﷺ بعد ما أكرمه الله بالنبوَّة على ظهر الأرض ، تُرينا كيف كان الرسول ﷺ يعيش في هذه الحياة ، وكيف يَقضي نهارَهُ وليلَه.

وهي مجموعةٌ خصَّ الله بها هذه الأمة ؛ فلا نَعرفُ أُمةً من أمم الرُّسل سعدتْ بمثل هذه المجموعة الناطقة ، وبهذا السجلِّ الخالد لنبيِّها؛ بل بالعكس من ذلك ، نرى الأمم كلها فقيرة لا تملك مصدراً من مصادر العلم عن الأنبياء والرُّسل ، وهي ـ في عمى وظلام تاريخي ـ قد انقطعت الصلةُ بينها وبين أنبيائها علمياً وتاريخياً ، وفقدتِ الحلقة التاريخية التي تصلها بعصر هؤلاء الرسل ـ سلام الله عليهم ـ وتُوقِفُها على شؤون حياتهم ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات.

فهذه الأمةُ المسيحيةُ ـ التي هي من أغنى الأمم بالتأليف والثروة العلمية ـ لا تعرفُ عن سيدنا المسيح إلاَّ أخبارَ ثلاث سنوات حَوتها الأناجيل الأربعة[1] ،

---

(١) هذا كان يقال في القديم، وقد انتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته (راجع مقال الدكتور شارلس أندرسن أسكات في دائرة المعارف البريطانية ، ج١٣. ص ١٧١٠).

وهي أخبار مُبعثرةٌ متقطِّعة ملفَّقةٌ ، لا يستطيع الإنسان أن يؤُلِّف منها تاريخاً متصلاً .

وأما شأنُ الرُّسل قبله ، وشأن مؤسِّسي الديانات في الهند وغيرها فأمرُها أعجب ، وفقر الأمم أبينُ من ذلك وأوضح ؛ حتى صار كثير من المستشرقين والمؤرِّخين يشُكُّون في وجودهم ، ويميلون إلى أنَّها شخصياتٌ خرافية ليس لها وجود تاريخي ونحن ـ على معارضتنا لهذا التطرف ـ نُوافق على أنها شخصيات مطمورة في ركام الماضي ، وعلى أنَّ هنالك حلقات مفقودةً لا يمكن البحث عنها والاهتداء إليها[1] .

وأمَّا الرَّسول الأعظم ﷺ فهو الشخصيةُ الفريدة ـ من بين الرُّسل والعُظماء ـ التي نَعرِفُ عنها كُلَّ دقيقٍ وجليل ، ونَعرفُ عنها من دقائق الأخلاق والعاداتِ والميول والرَّغبات والقول والعمل ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التي مضت قريباً ؛ بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً ، وذلك كلُّه بفضل «الحديث» الذي سجَّلَ لنا هذه الحياة المباركة العظيمة .

لقد اعتادتِ الأممُ القديمةُ والدياناتُ أن تصوِّر أنبياءَها ، وأن تنحتَ لهم تماثيلَ وأصناماً تُمثِّلُهم للأجيال القادمة ، وتجدد ذكراهم ، ونشأت من ذلك الوثنيةُ وعِبادةُ التماثيل التي يَعرفُها الجميع ، ونشأتْ من ذلك آفاتٌ لا تزال الأمم والدِّيانات تعانيها .

وقد لَطف الله بهذه الأمة وبالإنسانية ؛ إذ حرَّم عليها تصوير الأنبياء والعظماء ، ونَحْتَ تماثيلهم ، وأبدَلها بهذا الحديث النبوي ، الذي هو مجموعُ صُورٍ ناطقةٍ يتعرَّف بها الإنسان بنبيِّه ويَسعدُ بصحبته ، وكأنَّه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه ، وقضى معه مُدَّة من الزمان ؛ ليسمع كلامه ويشاهد

---

(١) اقرأ في ذلك المحاضرة الثانية من محاضرات (الرسالة المحمدية) للأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي رحمه الله . [وقد طُبع بعنايتنا في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٣ هـ].

فعله ويدرس سيرته؛ فكان ضياعُ هذه الثروة ـ لا سمح الله بذلك ـ كارثةً لا تُقدَّر، وخسارةً لا تُعوض.

ثم إنَّ الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يَزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتِها، ويعرفوا الانحراف الواقع في سَير هذه الأمة، ولا يتأتى الاعتدال الكاملُ في الأخلاق والأعمالِ إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذي يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وهذه الفجوة لا بد منها في السُّنن الإلهية، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

فلولا الحديثُ الذي يمثِّل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتَّزنة، ولولا التوجيهاتُ النبوية الحكيمة، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامي لوَقعتْ هذه الأمةُ في إفراط وتفريط واختلَّ الاتزان، وفقد المثال العلمي الذي حثَّ الله على الاقتداء به، بقوله ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] وبقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] والذي يطلُبه الإنسان ويستمدُّ منه الثقة والقوة في الحياة، ويقتنعُ بأنّ تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسورٌ وواقعٌ.

ثم إنَّ الحديثَ زاخر بالحياة والقُوة والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإنتاج والزهد والتقوى، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع، وحسبة المجتمع، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد مَن رفع راية الإصلاح والتجديد، وحارب البدع والخرافات والعادات الجاهلية، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح؛ لذلك كله كان الحديثُ من حاجات هذه الأمة الأساسية، وكان لا بدَّ من تقييده وتسجيله وحِفظه ونَشره.

حركـةُ الجَمْع والتّـدوينِ فـي القَـرن الأول والثانـي:

وقد يسَّرَ الله ذلك؛ إذ بعثَ نبيه ﷺ في أُمة عُرفتْ بقوة الذاكرة والصدق والأمانة في الرواية، وفاقتْ في ذلك الأمم، وقد وَعى الصحابة ـ رضي الله

عنهم ـ لحكمة أرادها الله ـ كلَّ ما سمعوا وشاهدوا ، وحرصوا على حفظه ونشره وتبليغه حرصاً لم يُعرف عن أمة نبيٍّ وأصحاب ديانة . وقد بدؤوا يكتبون الحديثَ في عهد النبي ﷺ ، ومنهم من كان له مجموعةٌ خاصة اشتهرت به؛ فقد كان لعبد الله بن عمرو بن العَاص مجموعةٌ تسمَّى (الصادقة)[١] ، وأثر عنه أنه كان يقول: ما يُرغِّبني في الحياة إلا خصلتان «الصادقة» و«الوهط»[٢]؛ فأما الصادقة ، فصحيفةٌ كتبتُها عن رسول الله ﷺ[٣] .

وكان لعليٍّ بن أبي طالب صحيفةٌ[٤] ، وكان لأنسٍ صحيفة كان يُبرزها إذا اجتمع الناس[٥] ، ونُقل الجمع والكتابة عن عبد الله بن

(١) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: لابن عبد البر (١/ ٧٢).

(٢) [الوَهْط: قال ابن الأثير في «النهاية» (٥/ ٢٣٢): هو مالٌ كان لعمرو بن العاص بالطائف ، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٨): هو بستانٌ عظيمٌ بالطائف ، قُوِّم مرةً على عروشه ألف ألف درهم].

(٣) [ولهذه الصحيفة أهمية علمية عظيمة ، وقيمة تاريخية كبيرة ، لأنها تثبت كتابة الحديث النبوي بين يدي رسول الله ﷺ وبإذنه ، وقد اشتملت هذه الصحيفة على ألف حديث كما يقول ابن الأثير ، وإذا لم تصل إلينا هذه الصحيفةُ كما كتبها عبد الله بن عمرو بخطِّه ، فقد وَصَلَ إلينا محتواها لأنَّها محفوظةٌ في«مسند الإمام أحمد بن حنبل»].

(٤) الجامع الصحيح: للبخاري ، كتاب العلم ، باب كتابة العلم ، [رقم الحديث (١١١) ، كتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه مجموعةً له فيها أحاديث رسول الله ﷺ ، واشتهر أمر هذه الصحيفة ، وعلم الناس بها في حياته ، لأنه ذكرها في بعض المناسبات لسؤال بعض الناس عنه. ويبدو أنه عندما اشتدَّ الخلافُ بينه وبين معاوية ـ رضوان الله عليهما ـ بدأ بعضُ الناس يشيعون أن رسولَ الله ﷺ عهد إلى عليٍّ بأشياء. قال قيس بن عبادة: «دخلتُ على علي ، أنا والأشتر ، فقلنا: هل عهد إليك النبيُّ ﷺ عهداً لم يعهده إلى الناس كافة ؟ فقال: لم يعهد لي النبيُّ ﷺ عهداً غير ما عهده إلى الناس إلاَّ ما كان في كتابي هذا ، وأخرج صحيفة من جفن سيفه ، فيها: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» (الأموال: ص١٨٥ ، والمستدرك: ٢/ ١٤١) ، وذكر هذه الصحيفة كثيرٌ من الرواة ، ولمزيد من التفصيل عن هذه الصحيفة يُراجع الكتب الأخرى في السنة].

(٥) تقييد العلم: ص ٥ . [وقد ورد في بعض الروايات أنه كانت لديه كتبٌ كثيرةٌ ، روى عتبة ابن أبي الحكيم عن هُبيرة بن عبد الرحمن قال: كان أنس بن مالك إذا حدَّثَ وكثر عليه=

عباس[١] ، وعبد الله بن مسعود[٢] ، وعن جابر بن عبد الله[٣] .

وتدلُّ صحيفة[٤] هَمَّام بن مُنبِّه (م ١٠٣ هـ) صاحب أبي هريرة رضي الله عنه التي يرجع تأليفها إلى أواسط القرن الأول (لأنَّ أبا هريرة توفي نحو سنة ٥٨ للهجرة وهي من إملائه) على تقدُّم هذه الحركة .

= الناسُ جاء بكتب فألقاها ، ثم قال: هذه أحاديث سمعتُها من رسول الله ﷺ ، وكتبتُها عن رسول الله ﷺ وعرضتها عليه (تاريخ واسط: ص٣٨ ، وتاريخ الفسوي (٣/ ٣٦٣) ، وتقييد العلم: ص ٩٥ ـ ٩٦ لكنه لم يذكر عرضها على رسول الله ﷺ)].

(١) الترمذي في «كتاب العلل» [قالت سلمى: «رأيتُ عبد الله بن عباس معه ألواحٌ يكتب عليها من أبي رافع شيئاً مِن فعل رسول الله ﷺ (طبقات ابن سعد: ٢/ ١٢٣). ويبدو أنه كان يستخدم أحياناً مواليه للكتابة. قال ابن حجر في الإصابة (٢/ ٣٣٢): كان ابن عباس يأتي أبا رافع فيقول: ماصنع النبي ﷺ يوم كذا ومع ابن عباس من يكتب ما يقول»].

(٢) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ٧٢) [كَتَب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كتاباً فيه جزء من أحاديث الرسول ﷺ ، فإنه قد روي عن مسعر عن معن قال: أخرج لي عبدُ الرحمن ابن عبد الله بن مسعود كتاباً وحلف لي أنه بخط أبيه بيده (جامع بيان العلم: ١/ ٧٢)].

(٣) صحيح مسلم [كتب جابر بن عبد الله رضي الله عنه صحيفةً له فيها جزء من الأحاديث ، ومن المحتمل أن تكون هذه الصحيفةُ غير «المنسك الصغير» الذي أورده مسلم في كتاب الحج من صحيحه (الدكتور عجاج الخطيب في «السنة قبل التدوين» ص٣٥٢) ، وكان كثيرٌ من التابعين يذهبون إليه ويكتبون الحديث عنه].

(٤) طبعت هذه الصحيفة تباعاً في مجلة المجمع العلمي بدمشق ، وطبعت مع المقدمات والتعليقات في حيدر آباد الهند عام ١٣٧٤هـ بعناية الفاضل الأستاذ الدكتور حميد الله الحيدرآبادي الذي حصل على نسخ لها من برلين.

[وهي في الحقيقة صحيفةُ أبي هريرة لهمام ، وإنَّ همام بن منبه كان أحد أعلام التابعين فلقي أبا هريرة وكتب عنه كثيراً من حديث رسول الله ﷺ وجمعه في صحيفة أو صحف أطلق عليها اسم الصحيفة الصحيحة ، وقد نقلها الإمامُ أحمد بتمامها في مسنده كما نقل الإمام البخاري عدداً كثيراً من أحاديثها في أبواب كثيرة ، ولهذه الصحيفة أهمية كبرى في تاريخ كتابة الحديث وتدوينه ، لأنها حجة قاطعة ودليل ساطع على أن الحديث كان قد كُتب في عصر مبكر ، وتصحيح الخطأ الشائع بأن الحديث لم يدوَّنْ إلا في القرن الهجري الثاني (السنة قبل التدوين: ٣٥٦)].

وإذا جُمعتْ هذه الصحُفُ والمجاميعُ وما احتوت عليه من الأحاديث، كَوَّنتِ العدد الأكبر من الأحاديث التي جُمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث ، وهكذا يتحقَّق أنَّ المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبقَ تدوينـه وتسجيله ـ من غير نظام وترتيب ـ في عصر الرسول ﷺ وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم.

وقد شاع في الناس ـ حتى المثقَّفين والمؤلِّفين ـ أن الحديث لم يُكتب ولم يسجَّل إلا في القرن الثالث الهجري ، وأحسنُهم حالاً من يرى أنه قد كُتب ودُوِّن في القرن الثاني ، وما نشأ ذلك الغلطُ إلا عن طريقين:

الأولى: أن عامَّة المؤرِّخين يقتصرون على ذكر مُدوِّني الحديث في القرن الثاني ، ولا يُعنَون بذكر هذه الصُّحف والمجاميع التي كُتبت في القرن الأول ، لأن عامّتها فُقدت وضاعت ، مع أنها اندمجتْ وذابتْ في المؤلفات المتأخرة.

الثانية: أنَّ المحدِّثين يذكرون عددَ الأحاديث الضَّخْم الهائل الذي لا يُتصوَّر أن يكون قد جاء في هذه المجاميع الصغيرة التي كُتبت في القرن الأول ، مع أنَّ عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزالُ قليلاً ، وقد نبّه على ذلك العلاَّمة مَنَاظِر أحسن الكيلاني رئيس القسم الديني سابقاً في الجامعة العثمانية بحيدر آباد في كتابه العظيم: «تدوين الحديث»[1] يقول رحمه الله:

«قد يتعجَّب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية ، فيقال: إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعِمئة ألف حديث ، وكذلك يقال عن أبي زرعة ، ويُروى عن الإمام البخاري أنه كان يحفظ مِئتي ألفِ من الأحاديث الضعيفة ، ومئةَ ألفِ من الأحاديث الصحيحة ، ويروى عن مسلم أنه قال:

---

(١) [نقله إلى العربية الأستاذ الدكتور عبد الرزاق الإسكندر ، وراجعه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، لكنه لم يطبع إلى الآن].

جمعتُ كتابي من ثلاثِمئة ألف حديث»[1].

ولا يَعرِفُ كثير من المتعلِّمين ـ فضلاً عن العامة ـ أن الذي يُكوِّن هذا العددَ الضخم هو كثرةُ المتابعات والشواهد التي عُني بها المحدِّثون؛ فحديث: «إنَّما الأعمال بالنيات»[2] مثلاً يروى من سبعِمئة طريق، فلو جرَّدنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد، لبقيَ عددٌ قليل من الأحاديث.

فالجامع الصحيح للبخاري لا تزيدُ الأحاديث التي رُويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمئةٍ وحديثين، وأحاديث مسلم يبلغ عددها إلى أربعة آلاف حديث، وهكذا لا يبلُغ عدد الأحاديث المروية في الصحاح الستة، ومسند أحمد، وكُتب أخرى، خمسين ألف حديث، منها الصحيح ومنها السقيم، ومنها المتفق عليه ومنها المتكلَّم فيه.

صرَّح الحاكم أبو عبد الله ـ الذي يُعد من المتسامحين المتوسِّعين ـ أنَّ الأحاديث التي في الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف.

ومُعظَم هذه الثروة الحديثية قد كُتب ودوِّن بأقلام رواة في العصر الأول، وقد يزيد ما حُفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً في العصر النبوي وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم على عشرة آلاف حديث، إذا جُمِعت صُحف ومجاميع أبي هريرة، وعبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاص؛ وأنس بن مالك، وجابر بنِ عبد الله، وعليٍّ، وابنِ عباسٍ رضي الله عنهم، فيمكن أن يقال: إنَّ ما ثَبتَ من الأحاديث الصحاح، واحتوت عليه مجاميعُها ومسانيدها قد كُتب ودُوِّن في

---

(١) [توجيه النظر إلى أصول الأثر: للشيخ طاهر الجزائري، وقد طُبع بعناية الشيخ عبد الفتاح أبي غدّة ـ رحمه الله ـ في مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب عام ١٤١٦هـ، انظر اقتباس العلاّمة الكيلاني من هذا الكتاب في الجزء الأول، صفحة ٤١].

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب «بدء الوحي» برقم (١)، وأبو داود في كتاب الطلاق، باب في ما عُني به الطلاق برقم (٢٢٠١)، وابن ماجه في أبواب الزهد، باب النية برقم (٤٢٢٧) وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه].

عصر النبوة ، وفي عصر الصحابة ، قبل أن يُدوَّن الموطأ والصِّحاح بكثير»[١] .

ولمْ ينتَصِف القرنُ الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين أشدَّ وأقوى ، وكان ممَّن سبق إليها من رجال هذا القرن ابنُ شهاب الزُّهري (ت عام ١٢٤هـ)، وابن جُرَيج المكي (ت ١٥٠هـ)، وابن إسحاقَ (ت ١٥١هـ)، ومعمرٌ اليمني (ت ١٥٣هـ)، وسعيد بن أبي عَروبة المدني(ت ١٥٦هـ)، وربيعُ بن صَبِيح (ت ١٦٠هـ)، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، ومالكُ بن أنس (ت ١٧٩هـ) واللَّيث ابن سعد (ت ١٧٥هـ)، وابنُ المبارك (ت ١٨١هـ)، ثم تتابع الناسُ[٢] .

المُحدِّثون وعُلُوُّ هِمَّتِهم:

ثم قَيَّضَ الله لهذا العمل الجليل فوجاً من طلبة العلم يُعدُّون بالآلاف ، ويمتازون بعلوِّ هِمَّتهم وشدة نشاطهم وقوة احتمالهم وصبرهم ، وقوة ذاكرتهم وحفظِهم ، وقد تدفق سيلهُم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبَهم وعقولهم الرغبةُ الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفاً حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا في الآفاق ، ونقَّبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والأسانيد الصحيحة وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يُعرفا عن أمة من الأمم للعلم في التاريخ ، يدلُّ على ذلك بعض الدلالة ما يُروى عن المحدِّثين من التجوُّل في البلاد والسَّفر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، فقد رُوي أنَّ البخاري صاحب «الصحيح» قد بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال في الرابعة عشرة من سنِّه ، وقد زار البلدان الإسلامية ما بين بُخارى ومصرَ ، وشيوخَها[٣] .

---

(١) تدوين الحديث: للعلامة مناظر أحسن الكيلاني (في الأردوية) طبع المجلس العلمي بباكستان.

(٢) يحسن الرجوع في هذا البحث إلى مقالات المرحوم الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي في مجلة (المسلمون) وإلى كتابه القيم (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي).

(٣) تذكرة الحفاظ: ج٣، ص١٣٤.

ورُوي عن أبي حاتم الرَّازي (ت ٢٧٧هـ) قال: «أولَ ما رحلتُ أقمتُ سبع سنين، ومشيت على قدمي زيادةً على ألف فرسخ، ثم تركتُ العدد، وخرجت من البحرين إلى مصر ثم إلى الرَّملة ماشياً، ثم إلى طرطوس ولي عشرون سنة»(١).

وقد سمع محدِّثُ الأندلس ابن حَيُّون (م ٣٠٥هـ) الحديث في الأندلس، والعراق، والحجاز واليمن(٢). وهكذا قطع قارة إفريقية من طَنْجَةَ إلى مصر، وعبر البحر الأحمر.

ومِن المحدِّثين من سافر في قارة آسيا وإفريقية وأوربة في طلب الحديث، وهكذا انتظمتْ رحلته العلمية ثلاثَ قاراتٍ كبرى؛ وكان كثيرٌ من المحدِّثين يخرُج من الأندلس، أقصى الغرب في العالم المتمدِّن المعروف يومئذ، ويبلغ إلى أقصاه في الشرق إلى خراسان أو بالعكس، والمُطالِعُ في «تذكرة الحفاظ» للذهبي يُدْهَش لطموح هؤلاء، واحتمالِهم للمشاق في طلب العلم(٣).

فَنُّ أسماءِ الرجال:

ولم يقتصِرْ هؤلاء المخلصون على جمع الحديث وتدوينِه؛ بل تعدَّتْ عنايتهم إلى الوسائط التي قد وقعت في رواية الحديث، وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديثَ، فعنُوا بمعرفتهم ومعرفةِ أسمائهم وأسماء آبائهم، وحوادثِ حياتهم وأخلاقهم، ومكانتِهم في الأمانة والصدق والحفظ، وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعدها الله بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤] أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين، وخرجوا من زوايا الخمول، واستحقُّوا الحياة والاشتهار،

---

(١) تذكرة الحفاظ: ج٢، ص ١٤٦.

(٢) المصدر السابق: ج٣، ص٤.

(٣) [اقرأ في ذلك «الرحلة في طلب الحديث» للإمام الخطيب البغدادي، و«صفحات مِن صبر العلماء» للشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة].

وأصابهم فيضٌ من حياة هذه الشخصية الخالدة، فحَيوا وظهروا واحتفَظ التاريخ بأسمائهم وأحوالهم، ورآه حقاً على نفسه.

وهكذا ظهر علمُ أسماء الرِّجال إلى عالم الوجود، وكان من مفاخر هذه الأمة التي لا يُشارِكها فيها أمة من الأمم.

قال الدكتور «اسبرنجر» (Sprenger) في مقدمته الإنجليزية على كتاب (الإصابة في أحوال الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلاني ما ترجمته:

«لم تُعرفْ أمةٌ في التاريخ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض، وُفِّقتْ لاختراع فنٍّ مثل فنّ أسماء الرجال الذي نستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسِمئةِ ألفٍ (نصف مليون) من الرجال»[١].

ولم يُعْنَ المحدِّثون بتعريف رجال الحديث فحسب، بل التزموا الصدقَ والصراحة في تعريفهم، وجمعوا كل ما يتَّصلُ بأخلاقهم وعاداتهم، وما يدلُّ على قوّتهم وضعفهم واحتياطهم وتساهُلهم وتقواهم وعلمهم وذاكرتهم. وجمعوا كل ما قاله معاصروهم فيهم ولم يُداروا ولم يجاملوا في ذلك. ولم يهابوا أحداً ولو كان بعضهم أميراً مُهاباً أو شيخاً وقوراً.

وقد روى التاريخُ في ذلك طرائف تدل على شدَّة هؤلاء الناقدين وعِلمهم بقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]. وتدقيقهم.

قال أبو داود: كان أبو وَكيع على بيت المال؛ فكان وكيع (م١٩٧هـ) إذا روى عنه قَرَنَه بآخر[٢].

---

(١) طبع كلكته ١٨٥٣، ١٨٦٤م.

(٢) تهذيب التهذيب: ج١١، ص١٣٠.

وقد ترك مُعاذُ بنُ معاذ العنبريُّ (م ١٩٦هـ) روايةَ المسعودي؛ لأنه رآه يطالع الكتابَ، يعني قد تغيَّر حِفظُه[١].

وقد قدَّم إليه رجلٌ عشرةَ آلاف دينار، وطلب منه أن يسكُت عن فلان لا يتكلَّم فيه بجَرحٍ ولا تعديل، فأبى ورفض هذا المال العظيم، وقال: «لا أَكتمُ الحقَّ»[٢].

وهذا قليلٌ من كثيرٍ يدلُّ على أمانة علماء الحديث والرجال، وتدقيقِهم في موضوعهم، وتحرِّيهم الحقَّ والعدل في شهاداتهم، فهل يوجدُ في تاريخ العلم نظير لهذه الأمانة والتدقيق؟

قُوَّةُ الذَّاكرة واستحضار العلم:

وقد كان هؤلاء المشتغلون بحديث رسول الله ﷺ صفوةَ البلاد التي فتحها الإسلام، كانوا أقوياءَ، وكانوا على جانب عظيم من الصَّبر والجَلَد واحتمال المشاق، وقُوَّةِ الذاكرة، وكانتْ عندهم نَهامة للعمل، وحِرصٌ زائد على اقتباسه والتقاطه من مواضعه، وقد قَويتْ ذاكرتُهم لاعتمادهم عليها، وعنايتهم بها، شأن الأعضاء التي يُعتنى بها ويُعتمد عليها؛ حتى صدرت منهم خوارقُ في ذلك قد يتبادر الشك فيها واستغرابُها إلى من لم يُجرِّبها ولم يشاهد أهلها. ولم يعرف كيف تنشأ الملكات في الرجال بكثرة الاشتغال، وكيف تَقوى، وكيف تأتي بالعجائب.

وقد استفاضَ ذلك عن كثير من الأدباء والشعراء والموهوبين، ورُويت عنهم أخبارٌ في قوة الذاكرة يستغربها الإنسان في هذا العصر الذي انصرفتْ فيه النفوس عن التحفظ والاستحضار، واعتُمد فيه على الكتب والأسفار. وإذا

---

(١) تهذيب التهذيب: ج٦، ص ٢١١.

(٢) الرسالة المحمدية: للعلامة السيد سليمان الندوي [المحاضرة الثالثة، ص ٨٢-٨٣، طبع دار ابن كثير بدمشق]. نقلاً من «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر.

عكف الإنسان على شيءٍ ، وانصرف إليه بكل همته ، وملَك عليه هذا الموضوع فكرَه ومشاعره ، تفتَّحت قريحتُه في ذلك ، حتى يُخيَّل إلى الإنسان أنه يُلهم إلهاماً.

ومِن أَعجب ما رُوي في ذلك ، هو ما يرويه أبو أحمد بنُ عَدِيٍّ الحافظ ، عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب «الجامع الصحيح» ، قال: «سمعتُ عدةً من مشايخ بغداد يقولون: إنَّ محمدَ بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحابُ الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحانَ حِفظه ، فعمدوا إلى مئة حديث ، فقلبوا متُونَها وأحاديثها ، وجعلوا متنَ هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسنادَ هذا المتن لمتنٍ آخر ، ودفعوها إلى عَشرة أنفُسٍ ، لكلِّ رجل عشرةُ أحاديث ، وأمَروهم إذا حضروا المجلس أن يُلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعدَ للمجلس ، فحضروا وحضرَ جماعة من الغُرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلمَّا اطمأنَّ المجلس بأهله انتدَب رجلٌ من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث. فقال: «لا أعرفه». فلم يزل يُلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ والبخاري يقول: «لا أعرفه».

وكان العلماء ممَّن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ويقولون: «فَهِمَ الرجل». ومَن كان لم يدرِ القصة ، يقضي على البخاري بالعَجز والتقصير وقلَّة الحفظ.

ثم انتدب رجلٌ من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال: «لا أعرفه». فسأله عن آخر ،فقال: «لا أعرفه». فلم يزلْ يُلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته. والبخاري يقول: «لا أعرفه».

ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة. والبخاري لا يزيدُهم على أن يقول: «لا أعرفه».

فلما علم أنَّهم قد فرغوا ، التفت إلى الأول فقال: أما حديثكَ الأول فقلتَ كذا ،وصوابه كذا ، وحديثكَ الثاني كذا ، وصوابُه كذا ، والثالث والرابع على الولاء، حتى أتى على تمام العشرة. فردَّ كل مَتن إلى إسناده، وكل إسنادٍ إلى

متنه. وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقرَّ الناس له بالحفظ، وأَذْعَنوا له بالفضل».

قال الحافظُ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة «قلتُ: هنا يُخضع للبخاري! فما العَجبُ من ردِّه الخطأ إلى الصواب؛ فإنه كان حافظاً؛ بل العجبُ من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مَرَّةٍ واحدة»[١].

احتشادُ النَّاس في مجالس الحديث:

وقد وُجِدَ في الناس ـ خاصَّتِهم وعامَّتهم ـ إقبالٌ غريب على مجالس الحديث، وتهافتٌ على سماعه وحضور دُروسه، فكان الناس إذا قدم مُحدِّثٌ جليل يتقاطرون على أخذ الحديث منه، ويحضرون حَلقته في عددٍ يقضى منه العجب.

وأغرَبُ من هذا العدد هو الوقارُ والسكينة والهدوء الذي كان يسود في هذه المجالس، فكان الناس مُنصتين هادئين كأن على رؤوسهم الطير.

ويَدلُّ ما يحكيه الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ» على الاندفاع القوي، والاتجاه العام الذي وُجد في الجمهور إلى حديثِ نبيهم ﷺ وشغفِهم به، وتأثير المحدِّثين في عقول الناس ونفوسهم.

قال يحيى بن أبي طالب: سمعتُ مِن يزيدَ ببغداد، وكان يقال: في مجلسه سبعونَ ألفاً[٢].

قال أبو حاتم: حضرتُ مجلس سليمان بن حرب (م ٢٢٤ هـ) فحُزر بأربعين ألفاً، بُني له شِبه منبر بجَنْب قصر المأمون فصعده، وحضر المأمونُ والأمراء، فأُرسل للمأمون سِيرسافٌ وبقي يكتب ما يملي[٣].

وقال أبو الحسن بنُ المبارك عن عاصم بنِ علي المحدِّث الشهير

---

(١) مقدمة «فتح الباري» ص ٤٨٧.

(٢) تذكرة الحفاظ: ج١، ص ٢٩٢.

(٣) المصدر السابق: ج١، ص ٣٩٣.

(ت ٢٢١ هـ) كان مجلسُه يُحزر بأكثر من مئة ألف إنسان، قال عمرُ بن حفص السَّدُوسي: وَجَّه المعتصم من يَحزُر مجلس شيخنا عاصم (ت٢٢١هـ) في رحبة النخل، وكان يجلس على سطحٍ سمعته يوماً يقول: «حدَّثنا الليث بن سعد» وهم يستعيدونه. فأعاد أربع عشرةَ مرة والناس يسمعون.

وكان هارون يركب نخلةً معوَجَّة يستملي، فحزر المجلس بعشرين ومئة ألف[1].

وقال أحمدُ بن جعفر الخُتلي: «لما قدم أبو مُسلم الكُجِّي (ت ٢٩٢ هـ) بغداد، أَمْلَى في رَحبة غسان، فكان في مجلسه سبعة مستملين. يُبلّغ كل واحد منهم الآخر. ويكتب الناسُ عنه قياماً، ثم مُسحَت الرَّحبة، وحُسب من حضر بمَحبرة، فبلغ ذلك نيفاً وأربعين ألف محبرة سوى النظَّارة، قال الذهبيُّ: هذه حكاية ثابتة رواها الخطيب في تاريخه»[2].

ويقول أبو حفص الزَّيات: لما ورد الفِريابيُّ إلى بغداد استُقبل بالطَّارات والدبادب[3]، ثم أوعد له الناس إلى شارع المنار ليسمعوا منه، فحُزر من حضر مجلسه لسماع الحديث. فقيل: كانوا نحو ثلاثين ألفاً، وكان المستملون ثلاثمئةٍ وستة عشر.

قال أبو الفضل الزُّهري: لمَّا سمعتُ من الفِريـابي، كان في مجلسهِ من أصحاب المحابر مَن يكتب نحو عشرة آلاف إنسان ما بقي منهم غيري، هذا سوى من لا يَكتب.

قال ابن عدي (ت ٣٦٥هـ): كُنا نشهد مجلس الفِرْيابي وفيه عشرة آلاف[4].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ج١، ص ٣٦٤.
(٢) المصدر السابق: ج٣، ص ١٩٦.
(٣) الطارات: الدفوف. الدبادب: الطبول.
(٤) تذكرة الحفاظ: ص ٢٦٢.

وذكر الفِربابي: أنه سمع «الجامع الصحيح» من البخاري تِسعونَ ألفاً[(١)].

وبهذه الأخبار التي التقطناها من مجموعة كبيرة يمكننا أن نعرف كيف شُغف الناس في هذا العصر الذي نُؤرِّخه بالحديث النبوي، و كيف تهافتوا عليه تهافت الفراش على النور.

الصِّحاحُ السِّتَّةُ:

وهكذا أصبح الحديثُ موضوعَ عناية هذه الأمة بعد القرآن. وانصرفتْ إلى جمعه وتدوينه وضبطه وتنقيحه هممُ المخلصين المجاهدين، وما زالوا يعنون به، ويتفانون في سبيله، حتى خرجتْ من هذه المجموعة الكبيرة التي كانت مُنبثة في الآفاق مجاميعُ مُنقَّحة للحديث النبوي، كان في مقدِّمتهم هذه الكتبُ الستة التي تواضع علماء هذا الشأنِ وأصحابُ الصناعة، والمشتغلون بالعلوم الدينية، والناقدون لها، على صحتها وتقديمها على غيرها، وهي «الجامع الصحيح» للبخاري و«الجامع الصحيح» لمسلم، و«الجامع» للترمذي، «والسُّنن» لأبي داود السِّجْستاني، و«السنن» للنَّسائي، و«السُّنن» لابن ماجه[(٢)]، واصطلح العلماء على تَسميتها بالصِّحاح الستة.

ثم يمتازُ بينها ويتفوَّق في الصحة والقَبول والاستفاضة كتابان: أوَّلهما «الجامع الصحيح» لمحمد بن إسماعيل بنِ إبراهيم الجعفيّ البخاري (ت ٢٥٦هـ). والثاني: «الجامع الصحيح» لمسلم بنِ الحجاج القُشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ). واصطلح الناس على تسميتهما (بالصحيحين) وكلٍّ ما يرويانه من حديث بـ «متَّفق عليه».

وقد قال إمام الحديث في العصور المتأخرة، شيخ الإسلام، ولي الله بن

---

(١) مقدمة «فتح الباري» ص ٤٩٢، وقد جمع هذه المعلومات والأخبار السري الفاضل والمؤلف المجيد مولانا حبيب الرحمن الشِّيرواني في كتابه البديع (العلماء السلف [بالأردوية]).

(٢) يضاف إلى هذه الكتب الستة «الموطأ» للإمام مالك بن أنس.

عبد الرحيم الدّهلوي (١١٧٦ت هـ)[١] في كتابه: «حجّة الله البالغة»:

«أما الصحيحان فقد اتفق المحدِّثون على أنَّ جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيحٌ بالقطع، وأنهما متواتران إلى مُصنِّفيهما، وأنَّ كل من يُهوِّن أمرهما فهو مبتدع متبع غيرَ سبيل المؤمنين»[٢].

وقد ظلَّتْ هذه الكتبُ الستة ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية. تلقَّى منه المصلحون في عصورهم العلمَ الديني الصحيح، والفِكر الإسلامي النقيّ، واحتـجُّوا بأحاديثه، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح، وفي محاربتهم للبدع والفِتن والفساد، ولا يستغني عنْ هذا المصدر كلٌّ من يريد إرجاعَ المسلمين في عصره إلى الدين الخالص والإسلام الكامل، ويُريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية والأُسوة الكاملة، وكلٌّ من تُلجئهُ الحاجةُ وتطوُّراتُ العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة.

تَـدوينُ الفِـقْـه:

كذلك كانتِ الأمةُ في حاجة مُلِحَّةٍ إلى حركة تدوين الفقه. وقد اضطرت التطورات التي طرأت على المجتمع الإسلامي، واتساعُ رقعة المملكة الإسلامية، وتعقُّدُ المدنيَّة، وطرافةُ المسائل والحوادث، وانشعابُ الحياة، إلى استنباط المسائلِ، واستخراج النتائج، وترتيب الجزئيات والفتاوى.

وقد خرج الإسلامُ من الجزيرة العربية ـ حيثُ الحياة بسيطةٌ والمدنية محـدودة ـ إلـى بـلاد مُخصبة واسعـة ذات المـدنيـات القـديمـة، والآفـاق الـواسعـة، كـالشـام، والعـراق، ومصـرَ، وإيـران، وقـد تـوسَّعـت الحيـاة الاجتماعية، وتعقَّد نظام التجارة والإدارة، وقد كانت مُهمةُ تطبيق أصول

---

(١) هو أحمد بن عبد الرحيم [المعروف بـ«شاه ولي الله الدهلوي»].

(٢) حجة الله البالغة: ج١، ص ١٠٦.

الإسلام على هذه المسائل والحوادثِ ، وإخضاعُ الحياة المدنية لروح الإسلام وأسُسه تتطلَّب ذكاء فائقاً وفهماً دقيقاً ، واطلاعاً واسعاً على المجتمع العصري الذي كان المسلمون يعيشون فيه ، وإلماماً كافياً بعلم النفس ، والطبيعة البشرية ، وخبرةً واسعة بطبقات الأمة ونواحي الحياة العامة ، يُضاف إلى ذلك الاطلاع الواسع على تاريخ الإسلام ، والوقوف على مصادره وأصول التشريع الإسلامي، مع الرسوخ والتَّضَلُّع في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ونطقَ بها الرسول ﷺ .

الأئمّةُ الأربعة وخصائِصُهم:

لقد كان مِن لُطْف الله بهذه الأمة ، وكان من التيسير ؛ أن قيَّض لهذه المهمَّة الجليلة رجالاً يُعَدون من الأفذاد والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية فقهاً وأمانة ، وإخلاصاً وكفاية .

كان منهم هؤلاء الأربعة (أبو حنيفة) (ت ١٥٠ هـ). و(مالكٌ) (ت ١٧٩ هـ). و(الشافعيُّ) (ت ٢٠٤هـ). و(أحمدُ بنُ حنبل) (ت ٢٤١ هـ) الذين قُدِّر لفقهِهم أن يعيش إلى هذا اليوم ويخضع له العالم الإسلامي.

وقد فاق هؤلاء في فَهمهم الدقيق الواسع ، ووقفوا حياتهم ، واستعملوا مواهبهم بسخاء في تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية التي لا تُعادِلها ذَخيرةٌ فقهية في العالم ، والتي لا تزال مَرجعاً ومادة واسعة للتشريع لهذا العصر.

وقد توفَّر هؤلاء على هذه الخدمة التي تَدين لها الأمة ، ويدين لها العالم ، وآثروها على كل راحةٍ ولذةٍ وجاه ومنصب في الحياة ، وقد خابَ ملوك عصرِهم وأمراؤه ، وخابتِ الأطماع والإغراءات أن تَشغلَ قُلوبهم ، أو تتوزَّع عقولَهم ، وأوقاتهم.

وقد عُرض على أبي حنيفة منصبُ القضاء الذي كان منصباً كبيراً وشرفاً عظيماً مرتين ، فرفض وامتنع ، ومات في السجن.

وقد ضُرب مالكٌ مئتي سوطٍ لأجل مسألة جَهر بها وخُلعت كتفاه ، وهي أن طلاق المُكرَه ليس بشيء .

وقد قَضى الشافعي معظمَ حياته في عُسْر وضَنك ، وبذلَ صحته وقوته في استنباط الأحكام وتدوين الفقه .

وعارض أحمدُ بن حنبل اتجاهَ حكومةٍ هي كبرى الحكومات وأقواها على ظهر الأرض في عصره ، ودافع عن السُّنة والفكر الإسلامي الصحيح حتى عُوقب وعُذِّب وضُرب وسُجن .

وقد أنتَجَ كلُّ واحد منهم ثروةً علمية ، وخلَّف تراثاً فقهياً ينوء بالمجامع العلمية والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر؛ فقد رُوي أن أبا حنيفة قال ستينَ ألفَ مسألةٍ. وقال بعضُهم: ثمانيةً وثلاثين ألفاً في العبادات ، وخمسة وأربعين ألفاً في المعاملات[١] .

وقد ذكر شمس الأئمة الكُردري: أنَّ عدد المسائل التي دوَّنها يبلغ إلى ستمِئةِ ألف[٢] .

ومهما كان العددُ مبالغاً فيه فلا شك أنه أنتج ثَروة فقهية ضخمة هي أساس هذا الفقه الحنفي الذي استطاع أن يَحكُم المساحة الكبرى في المملكة الإسلامية أيام ازدهارها ، ويكونَ دُستور مملكة هي أرقى المملكات في عصرها ، وهي الدَّولة العباسية .

وكذلك شأنُ مالك في الفقه ، فكتابه: (المُدوَّنة) الذي هو مجموعتُه الفقهية ، تبلغ نحو ست وثلاثين ألف مسألة[٣] .

---

(١) ضحى الإسلام: ج٣ ، ص ١٨٨ نقلاً عن «مناقب أبي حنيفة» للمكي ص ٩٦ .
(٢) سيرة النعمان: للعلامة شبلي النعماني، نقلاً عن «قلائد عقود العقيان» .
(٣) ضحى الإسلام: ج٢ ، ص ٢١٥ .

وكتابُ (الأمّ) الذي هو إفادات الشافعي مجموعة فقهية ضخمة تقع في سبعة أجزاء.

وقد جمع أبو بكرٍ الخَلَّال (ت ٣١١هـ) مسائل الإمام أحمد في أربعين مجلداً أسماه (الجامع لعلوم الإمام أحمد)[1].

تَلاميذُ الأَئمَّة الأربعةِ وخلفاؤُهم:

وقد رَزَقَ الله هؤلاء الأئمَّة الفقهاء تلاميذَ نُجباء قاموا بعلمهم وزادوا في ثروته، وظلُّوا يشتغلون بتنقيحه وتهذيبه.

وقد رُزق الإمام أبو حنيفة تلاميذَ مثل القاضي أبي يوسف (ت ١٨٢هـ) الذي استطاع بذكائه النادر، ومَقدرتهِ الفقهية أن يكون قاضي الإمبراطورية العباسية العظيمة، والمُشرِفَ الدينيَّ عليها، وقد ألَّف كتاب (الخراج) الذي شهد بسعة علمه ودقةِ فهمه، ومحمد بن الحسن (ت ١٨٩هـ) الذي هذَّب الفقه الحنفي وألَّف مؤلَّفات لا تزال مصدر الفقه الحنفي، وزفر بن هذيل (ت ١٥٨هـ) الذي عُرف بِحدَّة القياس وقوةِ الحُجة.

ورُزق الإمام مالك تلاميذ عُرفوا بحسن الوفاء لشيخهم، والحرصِ على نشر مذهبه، مثلَ عبدِ الله بن وَهْب (ت ١٩٧هـ)، وعبدِ الرحمن بن القاسم العتقي (ت ١٩١هـ)، وأشهبَ بنِ عبد العزيز (ت ٢٠٤هـ)، وعبدِ الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ)، ويحيى بن يحيى اللَّيثي (ت ٢٣٤هـ) الذين دانت بفضلهم مصر وشمال إفريقية بالفقه المالكي.

ورُزق الإمام الشافعي مثل البُوَيطِيِّ (م ٢٣١هـ)، والمُزنيِّ (ت ٢٤٦ هـ)، ورَبيع (ت ٢٧٠ هـ) الذين دَوَّنوا الفقه الشافعي وهذّبوه.

---

(١) انظر: ترجمة أبي بكر الخلال في «شذرات الذهب» ج٢، ص ٢٦١.

وكذلك كان من أتباع الإمام أحمد مؤلِّفٌ ومحقِّق ، مثل ابن قُدَامة ، الذي صنف (المغني) الذي يُعدُّ من مفاخر المكتبة الإسلامية الفقهية .

مَاذا أفادَ تدوينُ الفِقه ؟

لقد كان وجودُ هؤلاء الفقهاء المجتهدين والمشرِّعين في قرون الإسلام الأولى بُرهاناً ساطعاً على صلاحية هذه الأمة للبقاء والانتشار . وقد أوجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدةُ الأُمة العملية ، في اجتماعها ومعاملاتها وسياستها المالية ، وهذه الوحدةُ عاملٌ مهم من عوامل الوحدة الدينية والفكرية ، وبذلك أَمِنتْ هذه الأمةُ من تلك الفوضى الاجتماعية والتشريعية التي أُصيبت بها الأممُ والديانات في عهدها الأول . والتي تدرَّجت بها إلى حياة لا دينية تسير فيها على النظم اللادينية أو تقتبسُ التشريع الأجنبيَّ الثائر على روح دينها ومبادئه ، وألجأتها إلى التمسُّك بمبدأ فصل الدين عن السياسة ، الذي هو الخطوة الأولى الحاسمةُ إلى الإلحاد والارتداد .

* * *

الإمام أحمد بن حنبل

نشأة الاعتزال والمعتزلة

المأمون وعقيدة خلق القرآن

أحمد بن حنبل

نشأته ودراسته

سيرته وأخلاقه

وفاته

المحنة

أحمد بن حنبل يحكي قصته

المحاضرة الخامسة:

الإِمام أَحمد بن حَنْبل

نَشْأة الاعتزال والمعتزِلة:

يَحْلو لي أن أفتتح هذه المحاضرة بكلمةٍ سبقت لي في كتابي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟!»: قد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاتهِ وأفعاله، وعن بداية هذا العالم ومصيره، وما يَهجمُ عليه الإنسان بعدَ موته، وأتَاهم علم ذلك كُلِّه بواسطتهم عفواً بدون تعب، وكفوهم مؤونة البحث والفحص في علومٍ ليس عندهم مباديها ولا مقدماتها التي يبنون عليها بحثهم؛ ليتوصلوا إلى مجهول لأن هذه العلوم وراء الحِسّ والطبيعة، لا تعمل فيها حواسُّهم، ولا يؤدِّي إليها نظرهم وليست عندهم معلوماتُها الأولية.

لكنَّ الناسَ لم يشكُروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جَذعاً[1]، وبدؤوا البحث أُنفاً، وبدؤوا رحلتهم في مناطق مجهولة لا يجدون فيها مُرشداً ولا خرِّيتاً[2]. وكانوا في ذلك أكثر ضلالاً وأشد تعباً وأعظم اشتغالاً بالفضول من رائد لم يقتنع

(١) [أعاد الأمرَ جذعاً؛ أي: جديداً كما بدأ].
(٢) [الخرِّيت: الدليل الحاذق].

بما أدى إليه العلم الإنساني في الجغرافية ، وما حدد وضبط من الخرائط على تعاقب الأجيال ، وأراد أن يقيسَ ارتفاع الجبال وعُمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قِصر عمره وضعف قوته وفقدان آلته ، فلم يلبث أنِ انقطعتْ به مَطيَّتُه ، وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلفة ، وكذلك الذين خاضوا في الإلهيات من غير بصيرة وعلى غير هدى ، جاؤوا في هذا العلم بآراءَ فجَّةٍ ، ومعلوماتٍ ناقصة ، وخواطرَ سانحة ، ونظريات مُستعجلة ، فضلُّوا وأضَلوا.

وكذلك مَنحَهم الأنبياء عليهم السلام مبادى ثابتة ومُحكمات ، هي أساس المدنيَّة الفاضلة والحياة السعيدة في كل زمان ومكان ، فحُرموها على تعاقب العصور ، فبنوا مدنيَّتهم على شفا جُرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار، فزاغ أساس المدنية، وتداعى بناؤها، وخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم.

كان الصحابةُ رضي الله عنهم سعداءَ موفَّقين جداً؛ إذ عوَّلوا في ذلك كله على رسول الله ﷺ ، فكُفوا المؤونة ، وسعدوا بالثمرة ، ووفَّروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم في غير جهاد ، ووفَّروا عليهم أوقاتهم ، فصرفوها فيما يَعنيهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوُثقى ، وأخذوا في الدين بلُبِّ اللُّباب»[١].

هذا هو تصويرُ الواقع في آخر القرن الثاني ، وإن لم أَقصد تصويرَه؛ وإنما قصدتُ تصوير العصور الجاهلية وعصور الفترة؛ ولكن الطبيعة البشرية جامحة لا تقف على الحدود ، نهمة بالمتاعب والجهاد في غير جهاد ، فلم يَنْقَضِ القرنُ الأول ، ولم ينقرض الجيل الإسلامي الأول ـ الذي تلقى الدين من النبي ﷺ ، وكان كما وصفه عبد الله بن مسعود «أبرَّ الناس قلوباً ، وأعمقهم

---

(١) [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ الباب الثاني ، الفصل الثاني ، طبعة دار ابن كثير ، بدمشق].

علماً ، وأقلّهم تكلُّفاً»[١] ـ حتى أُولع الناس بالخوض في مسائل الذات والصفات ، وأثاروا مسائل ليست عندهم وسائل الوصول إليها، ومُؤهّلاتُ الحكم عليها ، وكان ذلك بتأثير الفلسفة اليونانية التي لم تكن إلا مجموعُ خواطر لا تقوم على أساس علمي ، وطلسماً من كلمات ومصطلحات يروِّعُ الإنسانَ ، فإذا افتقده لم يجده شيئاً. و قد كان المسلمون في غنىً عن ذلك بما جاء به الرسول من عِلم محكم، وبينة واضحة كما قدمنا ، وقد انصرفت هممُهم إلى الجهاد والفتح الإسلامي، ونشْر الدعوة والمسائل الجدية، وتدوين العلوم المفيدة، مَلك عليهم ذلك عقولهم وأفكارهم ، واستنزف جهودهم وأوقاتهم.

فلمَّا انتقلتِ العلوم اليونانية والسريانية إلى العربية ، وانصرفَ الناس عن ميدان القتال ، وتنفَّسوا عن الجهاد ، أُثيرت هذه المباحث ، وأقبل الناس عليها ، وكان أسرع الناس إليها هي الطبقة التي كانت أشدَّ انفعالاً وتأثراً ، وأسرع قضاء وتحكُّماً ، وكانت ذات فطنة وذكاء حاد؛ ولكنه ذكاء ليس في عُمق ونبوغ ، وكان ذكاء طافياً لم يعرف الرسوبَ والنزول إلى الأعماق والاستقرار في القعر.

كان يتقدَّمُ هذه الطبقة طائفةٌ تُعرف في تاريخ الإسلام «بالمعتزلة» الذين كانوا مع ثقافتهم الواسعة وذكائهم النادر لم يَتعمَّقوا في العلم ولم يُدقِّقوا، وكانت ثقافتُهم أوسع مما هي أعمق ، وقد أخطأ كثيرٌ منهم فهمَ حقيقة الدين، وأسرفوا في تقدير سلطان العقل وحدود العلم الإنساني؛ فجاءت نظرياتُهم في الدين ومباحثُهم في ما وراء الطبيعة نظرياتٍ فجَّةً لم تنضج بعد، ومباحثَ مستعجلة قد فاتها الإحكام والتدقيق ، شأن كل شعب وكلِّ طائفة في بداية الدَّور العقلي ، وفي الطفولة العقلية ، ولو قُدِّرَ لهم أن يعيشوا أو يتقدموا في العلم لنقضوا كثيراً مما أبرموا ، وأبرموا أكثر ما نقضوا.

وقد لاحظَ الدكتور أحمد أمين ـ الذي انتصرَ للمعتزلة في كتبه ، وكان

---

(١) [مشكاة المصابيح: ١/ ٣٢].

شديدَ الإعجاب بهم عظيمَ الاعتراف بإنتاجهم وخِدمتهم للدين ـ أنَّ نُقطة الضعف فيهم أنَّهم أسرفوا في تمجيد العقل والإيمان بقُوته واقتداره. يقول ـ وهو يذكر الخلاف بين المُحدّثين والمعتزلة ـ: «فجوهر الخلاف إذاً بين هؤلاء والمعتزلة هو سُلطة العقل ومداها وحدودها، رأى المعتزلة أنَّ العقلَ البشري قد مُنح من السُّلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يَتعلق بالله، فلا حدود للعقل إلا براهينه، ولا زلَل ولا خطأ متى صحَّ البُرهان، فاستعملوا البراهين في أدق الأمور وأصعبها وأعقدها، ففي استطاعة العقل الوصولُ إلى الحق فيها.

وهكذا كانت نزعةُ المعتزلة هذهِ متجليةً في كل أبحاثهم، يسيرون وراء البُرهان إلى نهايته، ويُثيرون أصعبَ المشاكل وأعقدها، ويَتعرَّضون لحلِّها، فإذا تم لهم حَلُّها أو ـ على الأقل ـ اعتقدوا بِحَلِّها، تأوَّلوا آيات القرآن على مقتضاها.

وعلى العكس من ذلك الآخرون، رأوا أنَّ العقل أضعفُ من ذلك، وأنَّ استطاعته محدودةٌ بإدراك ما يتعلق بشأنه هو، أو أقلَّ من ذلك، وأنه مُنح القدرة على أن يُدرك البرهان على وجود الله، والنبوةِ العامة، ونُبوة محمدٍ خاصة، ولم يُمنح القدرة على كُنْهِ الله وصفاته، فلْنُؤمن بما جاء به أنبياؤُه، ولْنَقِفْ عند ما قالوه، ولا نُثير مشاكل لم يأتِ بها الأنبياء، ولْنَسُد الطريق على من يُثيرونَها، فإنْ جادلناهم في شيء ففي بيان خطئهم وفسادِ طريقتهم»[1].

ويقولُ في موضع آخر، منتقداً نزعة المعتزلة إلى قياس الغائب على الشاهد، وهو أساس منطقهم الذي جَروا عليه في فلسفتهمُ الدينية:

«ولعلَّ نُقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد، أعني في قياسِ الله على الإنسان، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم، فقد ألزموا الله ـ مثلاً ـ بالعدل كما يتصوره الإنسان، وكما هو نظام دنيوي، وفاتَهم أن

---

(١) ضحى الإسلام: ج٣، ص ٣٩.

معنى العدل ـ حتى في الدنيا ـ معنى نسبيٌّ يتغَير تَصوُّره بتغير الزمان ، وأنَّ ما كان عدلاً في القرون الوسطى يُعدُّ ظلماً الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم الله؟!

وكذلك الشأنُ في قولهم في الحُسْن والقُبْح ، والصلاح والأصلح ، إنا نرى أن الإنسان إذا ضاق نَظَرُه حكم على الأشياء حُكماً ، فإذا اتَّسع نظَرُه تغيَّر حكمه ، فمَن نظر فقط إلى أسرته كانت بعض أحكامه خطَأً بالنسبة لمن اتسعت نظرتُه إلى أمةٍ أو إلى الإنسانية عامّةً.

ونحن في أعمالنا ننظرُ إلى عالمنا ، والله تعالى ربُّ العالمين قد ينظر في أعماله إلى جميع العوالم ، ما نعلم منها وما لا نعلم ، فكيف نُخضعُ الله تعالى لتَصوُّر العدل الذي نتصوره نحن في عالمنا هذا؟! وكذلك قولهم في أن صفاتِ الله هي عينُ الله أو غيرُ الله ، كلُّ براهينهم مبنـيَّـةٌ على قياس الغائب على الشاهد ، ولكنَّ الشَّبَه معدوم ، وقد فرضوا أنَّ العينية والغَيرية والزمانية والمكانية والسَّببية ونحوها قوانينُ لازمةٌ لكل موجود ، وهذا ـ في نظري ـ خطأ محضٌ ، فهي قوانين إنسانية ، وإن تسامحنا قليلاً قلنا إنها قوانين عالمنا هذا ، ولسنا نستطيعُ القول بأنها تنطبق على غير عالمنا أو لا تنطبق ، فإصدار حكمنا على الله ـ على اعتقاد أنها قوانينُ شاملةٌ للإنسان والله ـ جرأةٌ لا يرتضيها العقل الذي يعرف قَدره ، ولا يَعدو طَوْرَه ، وليس هذا عيبَ المعتزلة وحدهم ، بل هو عيب من أتى بعدُ من علماء الكلامِ كذلك».

لقد كان هذا الاتجاهُ العقلي الذي تزعَّمه المعتزلة ، والذي كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه ، وإخضاع النظام الديني بما فيه من عقائد وخلائق ، بل إخضاع الذات والصفات والأفعال الإلهية له ، وعلى قياس الغائب على الشاهد اتجاهاً خطراً على الإسلام ، وفتح باب فسادٍ عظيم في المجتمع الإسلامي.

لقد كان هذا تحويلاً للدين البسيط العملي الذي جاء به الرسول ﷺ ، يستسيغه العقل البشري بكل سهولة إلى فلسفة نظرية دقيقة يَعجَز عن فهمها وإساغتها كثيرٌ من العقلاء والأذكياء ، ولقد كان هذا تنميةً للعقل على حساب

العاطفة والوجدان ، وإضعافاً للإيمان ، وإثارة للشكوك والشبهات ، وعدم الثقة بما يقوله النبيُّ ﷺ ، ويعجَز العقل عن تعليله وإقامة الدليل على وجوده ، وأكثر ما في العالم يعجز العقل عن تعليله وإقامة الدليل عليه ! ! .

واسمحوا لي أن أنقل كلمةً أخرى للدكتور أحمد أمين في انتقادِه على المعتزلة في هذه الناحية :

«ربَّما أُخذ عليهم أنَّهم في ـ سيرهم هذا وراءَ السُّلطان العقلي ـ قد نَقلوا الدين إلى مجموعـة من القضايا العقليـة ، والبراهين المنطقية ، وهذا النَّهْجُ ، إذا صحَّ أن يُقتَصرَ عليه في الفلسفة ، فلا يصح أن يُقتصر عليه في الدين ، لأنَّ الدين يتطلَّبُ شعوراً حياً أكثر مما يتطلب قواعد منطقية .

فالدين ليس كالمسائل الرياضية ، ولا كالنظريات الهندسية تتطلب من العقل حلها ، وفي ذلك كل الغَناء ، بل الدِّين أكثر من ذلك ، يتطلب شعوراً يدعو إلى العمل ، وحرارة إيمان تبعث على التقوى .

ونظامُ المعتزلة ـ وهو الذي جرى عليه المتكلِّمون بدورهم ـ نظامٌ جيد التفكير ضعيفُ الروح ، غالى في تقدير العقل ، وقصَّر في قيمة العاطفة ، يتجلَّى ذلك لك إذا أنت وازنْتَه مثلاً بمنهج الصوفية ، فهو على العكس من المعتزلة : شعور وعاطفة ولا منطق ، والنظام العقلي في الدين يقفُ الإنسانَ ـ في العادة ـ موقفاً سلبياً أكثر منه إيجابياً»[١] .

المَأمونُ وعَقيدةُ خَلْقِ القرآن :

بقي المعتزلة طائفة من طوائف المسلمين ، لا تملك نفوذاً سياسياً ، ولا سلطةً حتى وَلي المأمون بن الرشيد الذي يصفه الدكتور أحمد أمين فيقول : «كان عقلُه عقلاً فلسَفياً ، حُراً في تفكيره ، مع التقيد بأصول الدين . . . كان الاعتزال أقربَ المذاهب إلى نفسه ، لأنه أكثر حرية ، وأكثر اعتماداً على

(١) ضحى الإسلام : ج ٣ ، ص ١٦٣ .

العقل ، فقرَّب المعتزلة منه ، وأصبحوا ذوي نفوذ في القصر ، وكان من أظهرهم ثُمامة بنُ الأشرس ، وأحمدُ بن أبي دُؤاد»[(١)] .

«لم يكن المأمونُ إمَّعـةً يُوجَّـه فيتوجَّـهُ ، ولكنه ـ مع قوة شخصيته ـ يتأثر برأي من حولـه ، وكان على استعـداد لذلك ، فمن قبلُ ، أدخل المسائل الدينية في شؤون الدولة ، فأعلن تفضيلَ علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر ، وأغضب بذلك كثيراً من النـاس ، ونادى ـ من قبل ـ بتحليل المتعةِ وهو في طريقه إلى الشام ، لما صحَّ عنده من حديث حِلِّ المتعة ، فما زال يحيى بنُ أكثم يروي له الأحاديثَ في حُرمتها عن الزُّهري وغيره ، ويُقيم له البراهين على حُرمتها ، حتى اقتنع ، فأمر بأن يُنادى بتحرِيمها بعد أن كان قد أمر بها»[(٢)] .

وهذا وصْفٌ صادقٌ للمأمون ، وتصوير نفسيته وطبيعته ، حدةٌ في الذكاء ، والتقاط للآراء ، وتهوُّرٌ في الرأي ، وسرعة في التنفيذ ، وهي صفة مَلِكٍ قويٍّ الشخصية ، شديد الانفعال ، لم تُمهله أحواله والظروف المحيطة به للدراسة العميقة ، والعلم الراسخ ، وقد أحاط به علماءُ أذكياء يحرصون على النفوذ في عقلِه ، وتنفيذ مذاهبهم وآرائهم في الشَّعْب ، وقهر أعدائهم عن طريق السلطان .

وهكذا أصبَحَ المعتزلةُ أصحاب حَوْل وطَوْل في الدولة العباسية ، وأصبح الاعتزال مذهباً رسمياً يتبنَّاه قاضي القضاة ، أحمدُ بن أبي دُؤاد ، ويحميه الخليفةُ العباسي ، ويَدينُ له أصحاب المناصب والجاه والنفوذِ في المملكة .

ولم يشأ تديُّن المعتزلة أو طبيعتُهم الخاصة أن تعيش في المملكة فكرتان متنـافستـان ، وأن ينـازع الاعتـزال مـذهـبُ أهـل الظـاهـر والقشـور (يعني المحدِّثين) ، لقد صدق الأستاذ أحمد أمين إذ قال: «كان لهم طابع خاصٌّ

---

(١) ضحى الإسلام: ج٣ ، ص ١٦٣ .

(٢) المصدر السابق: ج٣ ، ص ١٦٥ .

غريب يجمع بين التعصُّب الحادِّ وحُرية الفكر المفْرِطة»[١]. وقد رأينا مراراً في التاريخ، أن المؤمنين بحُرية الفكر المفرطة يطغى عليهم التعصُّب الحاد، وكأنهم يريدون أن يحتكروا حرية الرأي ويمنعوها غيرهم، وشأنهم في ذلك شأن المطففين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢ ـ ٣] وهذا الذي نُشاهد في العصر عند الأحزابِ السياسية.

انتهزَ المعتزلةُ هذه الفرصة السانحةَ، وصمَّموا على أن يكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الإسلام، والمذهبَ السائد في المملكة لا يزاحمُه مذهبٌ آخر، وكانت «مسألة خلق القرآن» هي المسألةَ الحاسمة التي يَصِحُّ أن تُصبح مقياساً للخضوع والاعتزال والتديُّن بمذهبه، فركَّز المعتزلة إعلامَهم على هذه المسألة وجعلوها فارقاً بين الإيمان والكفر، وشعاراً للتوحيد، وشرطاً لصحة العقيدة.

وقد أَلَحَّ المعتزلةُ على تَسمية القرآن بالمخلوق، لأنَّهم يرون أنَّ الله هو وحده القديم، وكل ما عداه فهو مُحدَث ومخلوق. وأنكر المحدِّثون هذا التعبير المحدَث، وألحُّوا على أن يُسموه القديم، واستشنَعوا أن يُسمُّوه المخلوق، وقالوا: «القرآن كلامُ الله، لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق، وإثارة هذه المسألة بدعة، لم يَقُلها النبي ﷺ ولا صحابته، فلا نُتابعكم في السَّير فيها، ولا نتابعكم في الجدال أو الخصومة، ونقف عند قولنا: القرآن كلام الله، وهذا فقط هو ما قال الله في قرآنه الكريم».

إنَّهم كانوا يعتقدون أن الكلام في هذا لا يصح، ولا يصح أن يَصلَ إلى العامة، فإذا قلنا لهم «القرآن مخلوق» لم يبق في نفوسهم إلا شيء واحد، وهو عدم التقديس والإجلال، وهذا يدعو إلى ضعف العقيدة، والاستهانة بالقرآن، وقد يجلب بعض القائلين إلى أن يعتقدوا ـ كما ظهر في بعض

(١) ضحى الإسلام: ج٣، ١٦٥.

الأوساط - أنَّ المعاني من الله ، وإنما عبّر الرسول عنها بلفظِه وعبارته[١].

أمّا المعتزلةُ فرأوا - بحُكم العقلية التي نشؤوا عليها - أنَّ المطالبة بهذه العقيدة فرضٌ مُحتَّمٌ ، لا يصحُّ العدول عنه ، ولا يَسعُ الحكومة التي تدين بالإسلام ، وتحمي عقيدة التوحيد ، أن تُداهن أو تتساهل في تنفيذ هذه العقيدة وأخْذِ الناس بها، يمثّل هذه الفكرة وهذه النفسية خيرَ تمثيلٍ ما جاء في كتاب المأمون:

«قد عظَّمَ هؤلاء الجهلة (القائلون بأن القرآنَ كلامُ الله غير مخلوق) بقولهم في القرآن الثَّلْم في دينهم ، والجَرْح في أمانتهم ، وسهَّلوا السبيلَ لعدوِّ الإسلام... ووصفوا خلقَ الله وفِعله بالصفةِ التي هي لله وحده ، وشبَّهوه به.... وليس يرى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظّاً في الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين».

وهكذا رأى المعتزلةُ أنَّ الإسلام يتركَّز في الاعتقاد بخلق القرآن ، وحملوا رأسَ الحكومة الإسلامية - المأمونَ بنَ الرشيد العباسي - على حمل المسلمين على هذه العقيدة ، فحمل الناس عليها سنة ٣١٨هـ ، وبدأ ذلك بإرسال كتاب إلى والي بغداد ، إسحاق بن إبراهيم ذكر فيها: «إنَّ خليفة المسلمين واجبٌ عليه حفظ الدين وإقامته والعمل بالحقِّ في الرعية ، وذكر أن القائلين بقِدم القرآن والمنكرينَ لخلقه «شَرُّ الأمة ورؤوسُ الضلالة المنقوصون من التوحيد... وأَحقُّ من يُتَّهم في صِدقه وتُطرح شهادته ، ولا يُوثق بقولهِ ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد.

وأمرَه بجمعِ الناس وامتحانِهم في هذه العقيدة ، وعزل كل من لا يوافق عليها ولا يدين بها».

---

(١) إذا شئتَ الاطلاع على مذاهب المعتزلة والمتكلمين وأهل السنة في هذه المسألة ودلائلهم، فاقرأ «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» للشيخ نعمان الآلوسي البغدادي.

وهكذا بَدأتْ هذه الفتنةُ التي تسمَّى في التاريخ «بالمحنة» وكان ذلك قبل وفاة المأمون بأربعة أشهر.

احتضنتِ الدولةُ العباسيةُ الكبرى في عهد ملك من أقوى ملوكها، وأعظمهم شأناً وسلطاناً عقيدةً لا يَفهمها العامة، ولا يُوافق عليها الشعب، وفرضَتْها على الجمهور، وجعلتها فارقاً بين الكفر والإيمان، والشرك والتوحيد، وأمرتْ بإقصاء كل من لا يدين بها أو يخالفها، وامتحانه وتعذيبه، فكانت محنةً عظيمة على الأمة، وفكرة فلسفية ضاقَ عنها تفكير العامة، وضاقت بها نفوسهم، لأنها تطلب مستوى علمياً راقياً، وإلماماً بالفلسفة وذكاءً، والذين يملكون هذه الأدوات لم يزالوا ولا يزالون قلة بين الشعوب.

يُعجبني في ذلك ما قال الأستاذ أحمد أمين، وهو يذكر غلطة المعتزلة وبلاهَتهم ـ على ذكائهم ـ في هذا الشأن:

«كان عقلُ المعتزلة عقلاً حاداً جافاً فلسفياً، وأضعفُ نقطة فيه أنَّه يراد أن يُفرض على العامة فرضاً، يُراد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض، والكميَّة والكيفية، والمحدود واللامحدود، والوحدة والتعدُّد، والمكان والجهة، وإلى الآن لم يخلق الله أمة كلها فلاسفة على هذا النمط، ولا أدري إن كان ذلك في مصلحة الإنسانية أو لا»[1].

ولكنْ قد كان ذلك، فقد صدرتْ من الخليفة كتبٌ وامتُحِن ناسٌ، وعُزل ناس، وكانت هذه المسألة الفلسفية شُغل الدولة والخليفة، وشُغل الناس الشاغل، ووقع الناس في بلاء عظيم، وفي حيرة عظيمة، ولم يدروا كيف يفعلون! مسألة لا يفقهونها ولا يُسيغونها ولا يُوافق عليها من يعتقدون فيه الصلاح والنزاهة والتقوى وفهمَ الكتاب والسنة، تُفرض عليهم فرضَ الجباية، ويُمتحن فيها علماؤهم، ويُعزل فيها قضاتهم، ويسقط فيها شُهودهم.

---

(١) ضحى الإسلام: ج ٣، ص١٢.

لقد كانت السُّنةُ بل الأمةُ بحاجة مُلِحَّة إلى الإرشاد والتوجيه ، وإنْ شئتم قلتم إلى الزعامة الدينيـة ، وكان المسلمون في حاجة شديدة إلى إمام يثقون بدينه وأمانته وفقهه ، يعارض هذا التيار ويقف في وجه الحكومة مُدافعاً عن السنـة ، جاهراً بالحق ، محتمـلاً للأذى ، صابراً على البـلاء ، ولا بـد أن تكون شخصيـة قوية معروفـة تتمتع بالإجـلال والتقدير .

لقد ظهرتْ هذه الشخصيةُ التي يصبح صاحبها «زعيم المعارضة» وحامل لواء السنَّة ، وهي شخصيةُ أحمد بن حنبل .

أحمدُ بنُ حنبل:

هـو أحمـد بنُ محمـد بنِ حنبـل بنِ هلال ، الإمام أبو عبد الله ، الشَّيبانيُّ الذُّهليُّ .

نَشَأَتُه ودِراستـه:

وُلد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ ، جِيء به حَمْلاً من مرو ، ووُلد في بغداد ، وتُوفي أبوه محمدٌ شاباً ، فوليته أمه[١] .

نسبه عربيٌّ ، وهو شيبانيٌّ في نسبه لأبيه وأمه ، وقد عُرفت هذه القبيلة بالهِمة والإباء وشِدة الشكيمة والصلابة ، وكان منها المثَنَّى بنُ حارثة ، القائد الإسلامي المعروف ، انتقل جدُّه إلى خراسان ، وكان والياً على سَرخس ، في العهد الأموي ، وناصرَ الدعوة العباسية عند ظهورها ، وأُوْذي في هذا السبيل ، وكان أبوه قائداً كما ذكر الأصمعي .

تَرَكَ له أبوه عقاراً ببغداد لا يقوم بنفقات الأسرة ، فنشأ على الصَّبر والقَناعة والكَفاف .

حَفِظَ أحمد بن حنبل القرآن في صباه ، وتعلَّم القراءة والكتابة ، ثم اتَّجه

(١) ترجمة الإمام أحمد من «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي ص ١٠ .

إلى الدِّيوان يُمرَّن على التحرير ، ويقول في نفسه : «كنتُ وأنا غُلَيم أختلفُ إلى الكُتَّاب ، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة» .

وكانت نشأتهُ فيها آثار النبوغ والرشد حتى قال بعض الآباء : «وأنا أنفق على ولدي وأجيئُهم بالمؤدِّبين على أن يتأدبوا ، فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم! انظروا كيف؟! وجعل يعجَب من أدبه وحسن طريقته»[١] .

وكان عمُّه يُرسِل رسائل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد ، ليُعلِمَ بها الخليفة ، وقد أرسلها مرةً مع ابن أخيه ، أحمد بن حنبل ، فتورع عن ذلك ، ورمى بها الماء تأثُّماً من الوشاية والتسبب لما عسى أن يكون فيه ضَررٌ بالمسلمين ، ولقد لفت هذا الورع وهذه النَّجابة كثيراً من أهل العلم والفراسات ، حتى قال الهيثمُ بن جميل : «إن عاش هذا الفتى فسيكون حجةً على أهل زمانه» .

واتَّجَهَ أحمدُ بن حنبل إلى الحديث ، ورُوي عنه أنه قال : «أوَّلُ من كتبتُ عنه الحديث أبو يوسف» وبقي يتلقى الحديثَ ببغداد من سنة ١٧٩هـ إلى سنة ١٨٦هـ ولزم عالماً كبيراً من علماء الحديث والآثار ببغداد أربع سنوات ، وهو هُشيم بنُ بشير بن أبي حازم الواسطي(١٨٣) وسمعَ عبد الرحمن بن مهدي وأبا بكر بنَ عياش .

وكان في طلبه للعلم مثالَ الجد و الحرص والنشاط ، فقد ذكر عن نفسه : «كنتُ ربما أردتُ البُكور في الحديث ، فتأخذُ أمي بثيابي ، حتى يُؤذِّن الناس ، أو حتى يُصبحوا» .

رَحَلَ أحمد سنة ١٨٦ إلى البصرة ، ثم رحل إلى الحجاز ، ورحل إلى اليمن ، وإلى الكوفة ، وضاقتْ نفقتُه عن الرحلة إلى الرّي ، قال : «لو كان عندي خمسونَ درهماً لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد»[٢] .

وفي سنة ١٨٧ التقى في رحلته إلى الحجاز مع الشافعي ، وأخذ عنه

---

(١) أحمد بن حنبل : محمد أبو زهرة ، ص١٨ .

(٢) ترجمة الإمام أحمد : ص ١٢ .

الفقه وأصوله ، وعلمَ الناسخ والمنسوخ ، ولقي الشافعي بعد ذلك ببغداد ، وقد حرَّر الشافعيُّ فقهه ، ونضَج أحمد في الحديث وعلم الرواية ، حتى كان الشافعيُّ يقول له : «إذ صحَّ عندكمُ الحديثُ فأعلِمْني به» .

ويدُلُّ على عُلُوِّ همته في طلب العلم قصةٌ يرويها ولدُه صالح، قال: «عزم أبي على الخروج إلى مكة ، ورافقَ يحيى بن معين ، فقال أبي: نحجُّ ونمضي إلى صنعاء إلى عبد الرَّزاق [١]، قال: فمضينا حتى دخلنا مكة ، فإذا عبد الرزاق في الطواف ، وكان يحيى يعرفه ، فطُفنا ثم جئنا إلى عبد الرزاق ، فسلَّم عليه يحيى ، وقال: هذا أخوك أحمد بن حنبل ، فقال: حياه الله إنه ليبلُغني عنه كل ما أُسَرُّ به ، ثبَّته الله على ذلك ، ثم قام لينصرف ، فقال يحيى [٢] : ألا نأخذ عليه الموعد؟ فأبى أحمد وقال: لم أُغيِّر النيةَ في رحلتي إليه أو كما قال ، ثم سافر إلى اليمن لأجله ، وسمع عنه الكتب وأكثر عنه» [٣] .

واستمرَّ على هذا الجدِّ والطلب حتى بلغ مبلغَ الإمامة في الحديث .

قال عبد الله بن أحمد: سمعتُ أبا زُرْعة يقول: «كان أبوك يحفظ ألفَ ألفِ حديث ، فقيل له: وما يُدريك؟ قال: ذاكرتُه، فأخذت عليه الأبواب» [٤] .

وقال إبراهيم الحربي [٥] : «رأيتُ أحمد كأنَّ الله جمعَ له علم الأولين والآخرين» .

---

(١) [هو عبد الرزاق همام بن نافع الحميري الصنعاني ، من حفَّاظ الحديث الثقات ، صاحبُ مصنَّفٍ معروف ، توفي عام ٢١١ هـ].

(٢) [هو يحيى بن معين ، من أئمَّة الحديث ومؤرِّخِي رجاله ، نعته الذهبيُّ بسيِّد الحفَّاظ. وقال الحافظ ابن حجر: إمام الجرح والتعديل ، توفي بالمدينة حاجاً عام ٢٣٣ هـ].

(٣) ترجمة الإمام أحمد: ص١٢ .

(٤) المصدر السابق: ص ١٣ .

(٥) [هو إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادي الحربي ، من أعلام المحدِّثين ، تفقَّه على الإمام أحمد ، توفي عام ٢٨٥ هـ].

قال أبو عبيدة: «ما رأيتُ رجلاً أعلم بالسنَّة من أحمد».

وكان مع ذلك معجباً بالشافعي، كثير الإجلال له، يقول: «ما رأتْ عيناهُ مثله» وقد استفاد منه في الفقه والاستنباط، واعترَف بذكائه الباهر، وقُوَّة قياسه.

وكان الشافعيُّ معجباً به حتى قال: «خرجتُ من بغداد وما خلّفتُ بها أفقه وأتقى من ابن حنبل».

وجلسَ أحمدُ للتدريس والفتيا، وقد بلغ الأربعين، فوافَق السُّنة، ووافق في نشر علم النبوة سِنَّ النبوة، وكان إقبالُ الناس على مجالسه عظيماً، فقد ذُكر أن عددَ من كانوا يستمعون إلى درسه نحوُ خمسةِ آلاف، وأنه كان يكتب فيهم نحو خمسِمئة[1].

وكانتْ مجالسُه تمتاز بالوقار والسكينة وحُسن الإنصات وإجلال العلم، وكانت بعيدةً عن الدُّعابة والهزل وكل ما يُذهب رواء العلم وروعة الدين، وكان للفقراء تقديمٌ على الأمراء والأغنياء، نقل الذهبيُّ عن المَرْوَذيِّ قال: «لم أر الفقيرَ في مجلسٍ أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلاً إليهم، مُقصراً عن أهل الدنيا.

وكان فيه حِلمٌ، ولم يكن بالعجول، وكان كثيرَ التواضع، تعلُوه السَّكينة والوقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلمُ حتى يسأل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصَدَّر، يقعد حيث انتهى به المجلس»[2].

سِيرتُه وأخلاقُه:

كانتْ حياةُ أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ حياةَ زهد وقناعة وتوكل، وكان على قدم السلف الصالح، وأصحاب العزيمة من الطراز الأول، وكان ذلك

(١) ابن حنبل نقلاً عن «المناقب» لابن الجوزي ص ٣١٠.
(٢) ترجمة الإمام أحمد: ص ٣٥.

عن اختيار لا عن اضطرار ، فلم يقبلْ هدايا الخلفاء والسلاطين وصلاتهم ، وكان يتعافاها «فقد خلف له أبوه طُرُزاً[١] ، وكان يأكلُ من غلَّة تلك الطُّرز ، ويتعفَّف بكِرائها عن الناس»[٢] وإذا وجد خصاصةً حمل حَبله على عاتِقه ، وذهبَ فجمع بقايا الزرع الذي يُترك في الأرض ، وهو في حكم المباح فالتقطه.

وقد كان في بعض الأحيان يُؤجّر نفسه للحمْلِ في الطريق ـ وهو إمام المسلمين يومئذ ـ وكان في بعض الأحيان يكتُب بأجرة ، تقول أمُّ ولده: «كان إذا لم يكن عند مولاي (أحمد بن حنبل) شيءٌ فرح يومه ذلك».

وقد ابتُلِي في أيام المتوكل بالإقبال والصِّلات والجوائز ، كما ابتُلي في أيام المعتصم بالتَّعذيب والصرم والقسوة ، وكان في كليهما صابراً عفيفاً نزيهاً ، وكانتِ الآخرة أشدَّ عليه من الأولى.

وقد ثَبَتَ على عفافه وزُهده وعُزوفه عن أموال السلطان ، وله في ذلك أخبارٌ غريبة.

منها ما رواه حنبل قال: «بينا نحن جلوسٌ بباب الدار إذا يعقوب ـ أحدُ حُجّاب المتوكل ـ قد جاء، فاستأذن على أبي عبد الله ، فدخلَ ودخل أبي وأنا ومع بعض غِلمانه بَدْرَةٌ على بَغْلٍ ، ومعه كتابُ المتوكل ، فقرأه على أبي عبد الله: «أنه صحَّ عند أمير المؤمنين براءةُ ساحتك وقد وجّه إليك بهذا المال تستعين به». فأبى أن يقبله ، فقال: ما لي حاجة ، فقال: يا أبا عبد الله اقبلْ مِن أميرِ المؤمنين ما أمرك به ، فإن هذا خيرٌ لك عنده. فاقبل ولا تردُّه ، فإنَّك إن رَدَدْتَه خفتُ أن يظن بك سوءاً. فحينئذ قبلها. فلما خرج قال: يا أبا علي قلت: لبيك ، قال: ارفع هذه الإجانة وضَعْها (يعني البدرة تحتها) فوضعتُها وخرجنا.

---

(١) الطرز: جمع طراز ككتاب وكتب، والطراز: الموضع الذي تنسج فيه الثياب.

(٢) المناقب: لابن الجوزي.

فلمَّا كان من الليل إذا أمُّ ولد أبي عبد الله تدقُّ علينا الحائط ، فقلت لها: مالك؟ قالت: مولاي يدعو عمَّه. فأعلمتُ أبي ، وخرجنا فدخلنا على أبي عبد الله ، وذلك في جَوف الليل. فقال: يا عمِّ ما أخذني النومُ هذه الليلة. فقال له أبي: ولم؟ قال: لهذا المال. وجعل يتوجَّع لأخذه. وجعل يُسكِّنه ويُسهِّل عليه. فقال: حتى تُصبح وترى فيه رأيك ، فإنَّ هذا ليلٌ ، والناس في منازلهم ، فأمسكَ وخرجنا.

فلمَّا كان في السَّحَر ، وجَّه إلى عَبدوس بن مالك والحَسن بن البَزار ، فحضرا وحضر جماعة ، منهم هارون الجمال وأحمد بن مَنِيع ، وابن الدَّورقي وأنا ، وأبي وصالح ، وعبد الله فجعلنا نكتب من يذكرونه من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة فوجه منها إلى أبي سعيد الأشَجِّ وأبي كُرَيْب ، وإلى من ذكر من أهل العلم والسنة ممن يعلمون أنه محتاج ، ففرَّقها كلها ، ما بين الخمسين والمئة والمئتين. فما بقي في الكيس درهم ، ثم تصدَّق بالكيس على مسكين.

وقد أَقام أحمدُ بن حنبل في عسكر المتوكل في ضيافته ، وتعفَّف عن طعامه وأمواله. قال ابنه صالح: نزلنا في (عسكر المتوكل) في دار التَّـيَّاح ، ولم يعلم أبو عبد الله ، فسأل بعد ذلك: لمن هذه الدار؟ قالوا: هذه دارٌ أنزلكها أمير المؤمنين. قال: لا أَبيتُ هاهنا. قال أبي: فلم نزلْ حتى اكترَينا له داراً. وكانت تأتينا في كل يوم مائدة فيها ألوان يأمر بها المتوكل ، والفاكهةُ والثلج وغير ذلك. فما نظر إليها أبو عبد الله ولا ذاقَ منها شيئاً. وكانت نفقةُ المائدة كل يوم مئة وعشرين درهماً[١]. قال: ومكثَ خمسة عشر يوماً يُفطر في كل ثلاث على ثُمن سَويق. ثم جعل بعد ذلك يُفطر ليلةً على رغيف ، وليلةً لا يُفطر ، وكان إذا جيء بالمائدة تُوضع بالدهليز لئلا يراها[٢].

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٦١.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٦.

ولمَّا رجع إلى الدار نزع الثيابَ. وكانت قد خُلعت عليه ثم جعل يبكي فقال: «سَلمتُ من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بُليت بهم. ما أحسبني سلمتُ في دخولي على هذا الغلام فكيف بمن يجبُ عليَّ نصحه من وقت تقعُ عيني عليه إلى أن أخرج من عنده! يا صالح وجِّه بهذه الثياب إلى بغداد ستُباع ويُتصدق بثمنها، ولا يشترِ أحدٌ منكم شيئاً»[1].

وقال حنبل: كان في حياته ربَّما استعار الشيء من منزلنا ومنزل ولده. فلما صار إلينا من مال السلطان ما صار، امتنع عن ذلك. حتى وُصف له في علته قَرعةٌ تُشوى ويؤخذ ماؤُها، فلما جاؤوا بالقرعة. قال بعضُ من حضر: اجعلوها في تنُّور يعني في دار صالح فإنهم قد خبزوا. فقال بيده: لا!.

وكان لا يرى حُرمةَ هذه الأموال، ولكنه يرى أنها أُخذت من غير حِلٍّ وقد تعلَّقت بها حقوق المسلمين وقلوبهم. فكان يتحاشى أخذها ويتأثَّم من قبولها. وقد قال مرة لأولاده: «لمَ تأخذونَهُ والثغورُ معطلة غير مشحونة، والفَيء غيرُ مقسومٍ بين أهله؟»[2].

وقال مرَّة: «ماذا ننتظرُ؟ إنما هو الموت. فإمَّا إلى جنةٍ وإما إلى نار. فطُوبى لمن قدِم على خير»[3].

وقال له ولده: أليسَ قد أمرتَ ما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف نفس أن يَأخذها؟

قال: قد أخذتُ مرة بلا إشراف نفس. فالثانية والثالثة! فما بال نفسِك ألم تُشرف؟

قال فقلت: ألم يأخذ ابنُ عمر وابن عباس؟ قال: ما هذا وذاك! وقال: لو أعلم أن هذا المال يُؤخذ من وجهه، ولا يكون فيه ظُلم ولا حَيْفٌ لم أُبال».

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٦٦.

(٢) المناقب: ص: ٣٨٤.

(٣) ترجمة الإمام أحمد: ص ٦٢.

وهنا نَقِفُ وقْفةً قصيرة ونتساءل: لم كان هذا التشديد من أحمد؟ ولماذا هذه المغالاة؟ وأقول: لولا هذه الصَّرامة ، ولولا هذا التدقيق في الزُّهد والعزوف عن أموال السلطان ، ولولا هذه المحافظة الشديدة على منهج الحياة الذي التزمه أحمدُ بن حنبل ، لما استطاع أن يستعصي على هذه الدولة القوية ، وأن يُفلت من حبالها ، ولما استطاع أن يُمثِّل هذا الدورَ الرائع في تاريخ الإصلاح والتجديد والدفاع عن الدين ، وأن يُؤثِّر في عقول الناس وقلوبهم هذا التأثير العظيم ، وأن يقف طوداً شامخاً ، وجبلاً راسياً ، في هذه التيارات التي تجرِف الرجال وتُحرِّك الجبال.

ثم إنَّه بهذا الزهد والتوكُّل على الله استفاد قوة روحية ، وصِلةً عميقة بالله ، وإنابة إليه ، استحقَّ بها النصر ، وتغلَّبَ على نزوات النفس وشهَواتها.

قد رأينا الزُّهدَ والتجديدَ مترافقين في تاريخ الإسلام؛ فلا نعرفُ أحداً ممن قلَب التيار ، وغيَّر مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام ، وخلَّف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين ، وظلَّ قروناً يؤثِّر في الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب إلا وله نَزعةٌ في الزهد ، وتَغلُّبٌ على الشهوات ، وسيطرةٌ على المادة ورجالها ، ولعلَّ السِرَّ في ذلك أن الزُّهد يُكسب الإنسانَ قوَّةَ المقاومة ، والاعتدادَ بالشخصية والعقيدة ، والاستهانةَ برجال المادة ، وبصَرعى الشهوات ، وأَسرى المعدة.

ولذلك ترى كثيراً من العبقريِّين والنوابغ في الأمم ، كانوا زُهاداً في الحياة ، متمرِّدين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأنَّ الزُّهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويُشعل المواهب ، ويُلهب الروح. والدَّعةُ ، والرخاوةُ تُبلِّد الحِسَّ ، وتُنيم النفس ، وتُميتُ القلب.

وهناك تعليلاتٌ أخرى يوافق عليها علمُ النفس وعلم الأخلاق ، ولا أُطِيل بذكرها ، وأَقتصِرُ على هذه الملاحظة التاريخية ، وأُلِحُّ على أن منصب التجديد والبعث الجديد يتطلبُ لا محالة زُهداً وترفعاً عن المطامع وسفاسف

الأمور ، ويأبى الاندفاع إلى التيارات ، ويتنافى مع الحياة الرَّخية ، والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلافةٌ للرسول الأعظم ﷺ وقد قيل له: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١] وأمر بأن يقول لأزواجه: ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم ، ومن يرشح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وأرجعُ إلى الحديث إلى حديث أحمد بن حنبل فأقول: قد كان ـ مع هذه الزَّهادة وخَصاصة العيش ـ جواداً سَمْحَ النفس ، يقول: «يُؤكل الطعام بثلاث ، مع الإخوانِ بالسُّرور ، ومع الفُقراء بالإيثار ، ومع أبناء الدنيا بالمُروءة».

ويقول: «لو أنَّ الدنيا تَقِلُّ حتى تكون في مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤٌ مسلم ، فوضعها في فمِ أخيه المسلم ، ما كان مسرفاً»[١].

وكان كثيرَ العفو عمَّن يُسيء إليه ، أَغلظَ له رجلٌ الكلام وتركه مغاضباً ثم عاد إليه نادماً ، وقال له مُعتذراً: يا أبا عبد الله إنَّ الذي كان مني على غير تَعمُّدٍ ، فأنا أحب أن تجعلني في حِلٍّ.

فقال أحمد: «ما زالتْ قدماي من مكانها حتى جَعلتُك في حِلٍّ»[٢] وقد عَفا عن كل من أساء إليه ، أو تسبَّب في عقوبته ومحنته ، وجعلَهم في حِلٍّ ، وقال: ما على رجل ألا يُعذِّب اللهُ بسببه أحداً[٣].

وقال حنبل بن إسحاق: سمعتُه يقول: كلُّ مَن ذكرني في حِلٍّ إلا مبتدعٌ ، وقد جعلتُ أبا إسحاق ـ يعني المعتصم ـ في حِلّ ، ورأيت الله تعالى يقول:

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٦٢.

(٢) ابن حنبل: ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٣) المصدر السابق: : ص ٨٥.

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النور: ٢٢] [١].

وكان مع هذه الفضائل التي أوسعهُ الله بها متواضعاً لله ، مُتطامناً للناس ، ولا يَفتخر في شيء .

قال يحيى بن مَعِيْن: ما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل ، صَحِبتُه خمسين سنةً ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الفلاح والخير[٢] .

وقال غارم أبو النعمان: وضع أحمدُ عندي نفقَته ، فكان يجيء فيأخذ منها حاجته ، فقلت له يوماً: يا أبا عبد الله بلغني أنَّك من العرب .

فقال: يا أبا نعمان نحن قومٌ مساكين ، فلم يزل يُدافعني حتى خرج ولم يقل شيئاً[٣] .

وقد وضَعَ الله له القبول في قلوب العباد ، وطارَ ذكره في الآفاق ، ودعا له المسلمون ، وتقرَّبوا بحُبِّه إلى الله ، وهو يخاف على نفسه من الاستدراج ، قال المَرْوَزِيُّ: قلتُ لأبي عبد الله: ما أكثر الداعي لك! قال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً ، بأي شيء هذا؟

وقلتُ لأبي عبد الله: إنَّ رجلاً قدم طَرسوس فقال لي: إنَّا كنا في بلاد الروم في الغزو ، إذْ هدأ الليل ، رفَعوا أصواتهم بالدعاء ادعُوا لأبي عبد الله وكنا نَمُدُّ المنجنيقَ ونرمي عنه ، ولقد رُمي عنه بحجر والعِلج على الحصن مُتقوسٍ بدَرقة ، فذهب برأسه وبالدرقة ، فتغيَّر وجههُ وقال: لَيته لا يكون استدراجاً، فقلتُ: كلا[٤] .

وقد كانَ كثيرٌ من غير المسلمين يُجلُّونه ويَخضعون له ، ويعتقدون فيه الصلاح ، ويتبرَّكون بزيارته ، قال المروزيُّ: رأيتُ بعض النصارى الأطباء قد

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٥٤ .
(٢) المصدر السابق: ص ٥٥ .
(٣) حلية الأولياء: ج٩ ، ص ١٨١ .
(٤) ابن حنبل: ص ٢١ .

خرج من عند أبي عبد الله ومعه راهبٌ ، فسمعتُ الطبيب يقول: إنه سألني أن يجيء معي حتى ينظرَ إلى أبي عبد الله .

وقال أيضاً: أدخلت نصرانياً على أبي عبد الله يُعالجه، فقال: يا أبا عبد الله إني أشتهي أن أراكَ منذ سنين ، ما بقاؤك صلاحُ الإسلام وحده ، بل للخلق جميعاً ، وليس في أصحابنا أحد إلا رضي بك ، قال المروزيُّ: فقلتُ لأبي عبد الله: إني لأرجو أن يُدعى لك في جميع الأمصار، فقال: يا أبا بكر إذا عرف الرجل نفسَه فما ينفعُه كلام الناس[1]؟

وكان مع هذا التواضع مَهيباً وقُوراً ، وكان الناسُ مدفوعين إلى إجلاله وتهيُّبه شأنَ من «تواضع لله رفعه الله».

يقول أحدُ معاصريه: دخلتُ على إسحاق بن إبراهيم (نائب بغداد) وفلانٍ وفلانٍ من السلاطين ، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرتُ إليه أكلمه في شيء ، فوقعت عليَّ الرِّعدة حين رأيته من هَيبته[2] .

وفَاتُـه:

قال المَرْوَزِيُّ: مرض أبو عبد الله ليلـةَ الأربعاء لليلتين خلتا من ربيعٍ الأول ، ومَرِضَ تسعةَ أيام ، وكان ربَّما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجاً ، يُسلِّمون عليه ويردُّ عليهم بيده ، وتسامع الناسُ وكثروا. وسمع السلطان بكثرة الناس ، فوكَّل السلطان ببابه وببابِ الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار ، ثم أغلق باب الزُّقاق فكان الناس في الشوارع والمساجد حتى تعطَّل بعض الباعة ، وحيل بينهم وبين البيع والشراء ، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربَّما دخل من بعض الدُّور وطُرز الحاكة ، وربما تسلَّق.

وجاء أصحابُ الأخبار فقعدوا على الأبواب ، وجاءه حاجب ابن طاهر

---

(١) ابن حنبل: ص ٩١.
(٢) ترجمة الإمام أحمد: ص ٢٢.

فقال: إن الأمير يُقرئك السلام، وهو يشتهي أن يراك ، فقال: هذا ممَّا أكره ، وأمير المؤمنين أعفاني ممَّا أكره ، وأصحاب الخبر يكتبون بخبره إلى العسكر ، والبُرُد تختلف كلَّ يوم.

وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه ، وجعلوا يبكون عليه.

وجاء قومٌ من القضاة وغيرهم ، فلم يُؤذن لهم ، ودخل عليه شيخ فقال: اذْكر وقُوفك بين يدي الله ، فشهق أبو عبد الله ، وسالتِ الدموع على خديه.

فلمَّا كان قبل وفاته بيوم أو بيومين قال: ادعوا لي الصبيان ـ بلسان ثقيل ـ فجعلوا ينضمُّون إليه ، وجعل يَشُمُّهم ويمسحُ بيده على رؤوسهم وعينُه تدمع ، فقال له رجل: لا تغْتَمَّ لهم يا أبا عبد الله ، فأشار بيده ، فظننا أنَّ معناه: إنيْ لم أرد هذا المعنى.

وكان يصلِّي قاعداً ويصلي وهو مضطجع ، لا يكاد يَفْتُر ، ويرفع يديه في (إيماء الركوع) وأدخلت الطِّست تحته ، فرأيت بوله دماً عبيطاً ليس فيه بول ، فقلت للطبيب ، فقال: هذا رجلٌ قد فتَّت الحُزْن والغَمُّ جَوفه ، واشتدت علَّتُه يوم الخميس ، ووضَّأْتُه فقال: خَلِّل الأصابع ، فلما كانت ليلة الجمعة ثَقُل ، وقُبض صَدْر النهار ، فصاحَ النَّاسُ وعَلتِ الأصواتُ بالبكاء ، حتى كأنَّ الدنيا قد ارتجَّتْ وامتلأت السِّككُ والشوارع[1].

قال المَرْوزيّ: أُخرجت الجنازَة بعد مُنصرف الناس من الجمعة ، قال عبد الوهّاب الوثاق: ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام مثله ، حتى بلغنا أن الموضع مُسح وحُزر على الصحيح ، فإذا هو نحو من ألفِ ألفٍ ، وحزرنا على القبور نحواً من ستين ألف امرأة ، وفتحَ الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب ينادون: من أراد الوضوء.

وقال ابن إسحاق البغوي: حُزر من حضر جنازَة أحمد من الرجال ثمانمئة

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص٧٧ ـ ٧٨.

ألف ، ومن النساءِ ستين ألف امرأة[١] ، هذا سوى من كان في السفن في الماء[٢] .

وبهذا الاحتشاد العظيم في جنازته تَحقَّق ما أنبأ به بقوله : «قولوا لأهل البدع بيننا وبينكُم الجنائز»[٣] .

وكانت وفاته سنة ٢٤١هـ .

المِحنَــةُ:

أصدَرَ المأمون سنة ٢١٨ ـ كما تقدَّم ـ رسالة إلى والي بغداد ، إسحاق بن إبراهيم أمر فيها بجمع القُضاة وامتحانهم في عقيدة خلق القرآن ، وعَزْلِ من لا يقول بذلك منهم ، وإسقاطِ شهادة من لاَ يراها من الشهود ، وأُرسلتْ منها صور إلى الأقطار الإسلامية .

ثم كتبَ إليه أن يرسل إليه سبعة من كبار المحدثين الذين عارضوا هذه العقيدة ، ففعل . وأجاب هؤلاء ، فأعادهم إلى بغداد ، وأمر الوالي أن يجمع الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث في داره ، ففعل ، وأجاب هؤلاء ، فخلَّى سبيلهم .

ثم أصدَرَ كتاباً ثالثاً غلَّظ فيه القول ، وضيَّق الأمر ، وأمر بالتوسع في امتحان الناس ، وامتثلَ الوالي أمرَه ، فأحضر مشاهيرَ العلماء ورؤوس الناس وامتحنهم ، وكانت إجاباتُ القوم مختلفةً ومضطربةً ، وحرَّر الوالي محضراً بجميع أقوال الممتحَنين ، وأرسلَ إلى المأمون وثار المأمون بقراءتِه ، واشتدَّ غضبه ، وعرَّض بهم وَاستخفَّ ، وأمر بضرب رقبة بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي إن لم يرجعا عن قولهما . وأمرَ بالعودة إلى امتحان هؤلاء ، فإن أصرُّوا فاحْملهم أجمعين مُوثقين إلى عسكر أمير المؤمنين . . . فإن لم يرجعوا

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٨٠.
(٢) المصدر السابق: ص ٨١.
(٣) المصدر السابق: ص ٨١.

ويتولوا ، حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله».

وامتثَلَ الوالي أمر الخليفة ، وجمعهم ثانية ، وقرأ عليهم كتابَ المأمون ، فأقرُّوا جميعاً بأن القرآن مخلوق إلا أربعة: أحمد بن حنبل ، وسَجادة ، والقواريريُّ ، ومحمدُ بن نوح ، وأَمر بهم فشُدوا في الحديد ، واعترفَ سَجادة بخلق القرآن، فأطلق سراحه ، وأجابَ القواريري بعد يومٍ آخر ، فأطلق سراحه ، وانحصر الأمر في اثنين: أحمد بنِ حنبل ، ومحمد بن نوح ، فشدَّهما في الحديد ووجَّههما إلى المأمون ، ثم أَرسل البقية من الممتحَنين بأمر المأمون ، وبلغتهم وفاةُ المأمون وهو بالرِّقة ، فخلَّى والي بغداد سبيلَ أكثرهم ، ومات محمد بن نوح وهو عائدٌ إلى بغداد ، وهكذا تركزت رياسةُ المعارضة ـ كما يقول الدكتور أحمد أمين ـ في أحمدَ بن حنبل فكان زعيمَها وعَلَمَها ومتَّجه الأنظار فيها.

ووصَلَ أحمد بن حنبل إلى بغداد مقيَّداً، وحُبس في دار عمارة ببغداد، ثم حُوّل إلى سجن العامة ، ومكثَ في السجن نحواً من ثلاثين شهراً ، قال ابنُه حنبل: كنا نأتيه ، وقرأ عليَّ كتاب الإرجاء وغيرَه في الحبس ، ورأيتُه يصلي بأهل الحبْسِ وعليه القيد ، فكان يُخرج رجله من حَلقة القَيد وقت الصلاة والنوم.

أحمدُ بنُ حنبلَ يحكي قِصَّته:

ويحكي أحمدُ بن حنبل قصته وما جرى له أيام المعتصم خليفة المأمون. وهي قصة البطولة الخالدة والإيمان الرائع ، فلنستمع إليه:

«فلمَّا كان في الليلة الرابعة وَجَّه ـ يعني المعتصم ـ ربيعاً الذي كان يقال له الكبيرُ أبو إسحاق ، فأمره بحَملي إليه ، فأُدخلتُ على إسحاق ، فقال: يا أحمد إنَّها والله نفسُك ، إنه لا يقتلُك بالسيف ، إنه قد آلى إن لم تُجبه أن يضربك ضرباً بعد ضرب ، وأن يقتُلك في موضع لا تُرى فيه شمس ولا قمرٌ. . . فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان ، أُخرجت ،

وجِيء بدابة فحُملت عليها وعليَّ الأقياد ، وما معيَ أحد يُمسكني ، فكدتُ غير مرة أن أخِرَّ على وجهي لِثقل القيود ، فجِيءَ بي إلى دار المعتصم ، فأُدخلت حُجرة وأدخلتُ إلى بيت ، وأقفل الباب علي ، وذلك في جوف الليل، وليس في البيت سراجٌ، فأردت أن أتمسَّح للصلاة ، فمددتُ يدي فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست موضوع ، فتوضأتُ وصليتُ.

فلمَّا كان من الغد أخرجت تِكتي من سراويلي وشددْتُ بها الأقياد أحملها ، وعطفتُ سراويلي ، فجاء رسول المعتصم فقال: أجب فأخذ بيدي وأدخلني عليه ، والتِّكة في يدي أحمل بها الأقياد ، وإذا هو جالسٌ ، وابن أبي دؤادَ حاضر ، وقد جمع خلقاً كثيراً من أصحابه فقال لي - يعني المعتصم -: ادْنُه ، فلم يزل يُدنيني حتى قَرُبت منه ، ثم قال لي: اجلسْ فجلستُ ، وقد أثقلني الأقياد ، فمكثتُ قليلاً ، ثم قلت: أتأذن لي بالكلام؟ فقال: تكلم. فقلت: إلام دعا الله ورسولُه؟ فسكتَ هُنيهةً ، ثم قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فقلت: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قلت: إن جدَّك ابن عباس يقول: لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ سألوه عن الإيمان ، فقال: «أتدرون ما الإيمان؟» قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تُعطوا الخُمس من المغنم» ، قال أحمد: قال - يعني المعتصم -: لولا أني وجدتُك في يدِ من كان قَبلي ما عرضتُ لك.

ويذكُرُ أحمدُ بن حنبل ما جَرى بينه وبين علماء البلاط من الكلام والمناظرة ، ثم يقول: وجعل ابنُ أبي دؤاد يقول: يا أمير المؤمنين لئن أجابك لهَو أحبُّ إليَّ من مئة ألف دينار ومئة ألف دينار ، فيَعُد من ذلك ما شاء الله أن يَعُدَّ ، فقال المعصتم: والله لئن أجابني لأُطلقن عنه بيدي ولأَركبنَّ إليه بجندي ، ولأطأنَّ عَقِبه.

ثم قال: يا أحمد ، والله إني عليك لشفيق ، وإني لأشفقُ عليك كشفقتي على هارون ابني ، ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله.

فلمَّا طال المجلسُ ضَجر وقال: قوموا، وحبَسني ـ يعني عنده ـ وعبدُ الرحمن بن إسحاق يُكلِّمني، فقال المعتصم: وَيحك أجبني؛ فقال: ما أعرفك، ألم تكن تأتينا؟فقال له عبد الرحمن بن إسحاق: يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة، يَرى طاعتك والجهادَ والحج معك، قال: فيقول: والله إنه لعالم، وإنه لفقيه، وما يَسوءني أن يكون معي يرَدُّ عني أهل المِلَل، ثم قال لي: ما كنتَ تعرف صالحاً الرشيدي؟ قلت: قد سمعت باسمه، قال: كان مؤدِّبي، وكان في ذلك الموضع جالساً ـ وأشار إلى ناحية من الدار ـ فسألتُه عن القرآن فخالفني، فأمرتُ به، فوُطيء وسحب!

ثم قال: يا أحمد أجِبْني إلى شيء لك فيه أدنى فَرَج حتى أطلق عنك بيدي، قلتُ: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله! فطالَ المجلس وقام، ورُددتُ إلى الموضع الذي كنت فيه.

فلمَّا كان بعد المغرب، وَجَّه إليَّ رجلين من أصحاب ابن أبي دؤاد، يبيتان عندي ويناظران ويقيمان معي، حتى إذا كان وقتُ الإفطار جيء بالطعام، ويَجتهدان بي أن أُفطر فلا أفعل، ووجَّه إليَّ المعتصمُ ابنَ أبي دؤاد، في بعض الليل، فقال: يقول لك أمير المؤمنين ما تقول؟ فأردُّ عليه نحواً مما كنت أرد، فقال ابن أبي دؤاد: والله لقد كُتب اسمُك في السبعة، يحيى بن معين وغيره، فمحوتُه، ولقد ساءني أخذُهم إياك، ثم يقول: إن أمير المؤمنين قد حلَف أن يضربك ضرباً بعد ضرب، وأن يُلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس، ويقول: «إن أجابني جئتُ إليه حتى أطلق عنه بيدي، وأنصرِف».

«قال: فلمَّا كان في الليلة الثالثة قلتُ: خليقٌ أن يحدث غداً من أمري شيءٌ، فقلت لبعض من كان معي، الموكَّل بي: ارْتَدْ لي خيطاً فجاءني بخيط فشددتُ به الأقياد ورَددتُ التِّكةَ إلى سراويلي مخافةَ أن يَحدُث من أمري شيء فأتعرّى، فلما كان من الغد في اليوم الثالث وجَّه إلي، فأُدخلت فإذا الدار غاصَّة، فجعلت أدخُل من موضع إلى موضع، وقومٌ معهم السيوف، وقومٌ معهم السياط وغير ذلك، ولم يكن في اليومين الماضيين كبيرُ عددٍ من هؤلاء،

فلما انتهيتُ إليه ، قال: اقعد ثم قال: ناظِروه! كلِّموه! فجعلوا يناظروني ، ويتكلم هذا فأردُّ عليه ، ويتكلم هذا فأرد عليه ، وجعلَ صوتي يعلو أصواتهم ، فجعل بعضُ من على رأسه قائمٌ يومىء إلي بيده ، فلما طال المجلس نحّاني ثم خلا بهم ، ثم نحّاني وردَّني إلى عنده ، فقال: ويحك يا أحمد أجبني حتى أُطلق عنك بيدي. فرددتُ عليه نحواً مما كنت أرد ، فقال لي: عليك ـ وذكر اللعن ـ وقال: خُذوه واسحبوه واخلعوه، قال: فسُحِبت ثم خُلعت.

قال: وقد كان صار إليَّ شَعر من شَعَر النبي ﷺ في كُمِّ قميصي، فوجَّه إليَّ إسحاق بن إبراهيم: ما هذا المصرور في كم قميصك؟ قلت: شعر من شَعَر رسول الله ﷺ . وقال: وسعى بعضُ القوم إلى القميص ليخرقه عليَّ ، فقال لهم ـ يعني المعتصم ـ: لا تخرقوه! فنزع القميص عني ، قال: فظَننتُ أنه إنما درأ عن القميص الخَرق بسبب الشَّعَر الذي كان فيه ، قال: وجلس المعتصم على كرسي ، ثم قال: العقابين والسياط؛ فجيء بالعقابين ، فمُدَّت يداي ، فقال بعض من حضر خلفي: خُذ نأي الخشبتين بيديك ، وشُدَّ عليهما ، فلم أفهم ما قال، فتخلَّعت يداي.

ولمَّا جيء بالسياط نظر إليهم المعتصم وقال للجلَّادين: تقدموا فجعل يتقدم إليَّ الرجل منهم فيضربني سوطين ، فيقول له: شد قطع الله يدك ، فلما ضُربتُ تسعة عشر سوطاً قام إلي ـ يعني المعتصم ـ وقال: يا أحمد علامَ تقتلُ نفسك؟إنِّي والله عليك لشفيق ، قال: فجعل عُجيف ينخسني بقائمة سيفه ، وقال: أتريد أن تَغلبَ هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضُهم يقول: ويلَك! الخليفة على رأسك قائم!وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين دمُه في عنقي ،اقتُله ! وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم ، وأنتَ في الشمس قائمٌ. فقال لي: ويحك يا أحمد! ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به ، فرجَع وجلس ، وقال للجلَّاد: تقدم وارجع قطَع الله يدك؛ ثم قام الثانية فجعل يقول: ويحك يا أحمد! أجبني فجعلوا يُقبِلون علي ويقولون: يا أحمدُ إمامُك على رأسك قائمٌ ، وجعل عبد الرحمن يقول: مَنْ صنع من

أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ وجعل المعتصم يقول: ويحك أجِبْني إلى شيء لك فيه أدنى فرَج حتى أُطلق عنك بيدي؟فقلت: يا أمير المؤمنين؟ أعطوني شيئاً من كتاب الله ، فيرجع ، وقال للجلادين: تقدموا فجعل الجلاّد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحىّ ، وهو في خلال ذلك يقول: شُدَّ قطع الله يدك ، قال أبي: فذهب عقلي ، فأفقتُ بعد ذلك فإذا الأقيادُ قد أُطلقت عني ، فقال لي رجل ممن حضر: إنا كَبَبْناك على وجهك ، وطرحْنا على ظهرك باريةً ودُسناك قال أبي: فما شعرت بذلك ، وأتَوني بسَويق ، فقالوا لي: اشربْ وتقيأ. فقلت: لا أفطر.

ثم جِيء بي إلى دار إسحاقَ بن إبراهيم ، فحضَرَتْ صلاةُ الظهر ، فتقدم ابنُ سماعة فصلّى ، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليتَ والدَّم يسيلُ في ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجُرحه يَثعَب دماً»[1].

ويقول ابنُه صالح: «ثم خُلِّيَ عنه فصار إلى منزله ، وكان مُكثه في السجن مُنذ أخذ وحمِل إلى أن ضُرب وخُلِّيَ عنه ثمانيةً وعشرين شهراً.

ولقد أخبرني أحد الرجلين اللذين كانا معه قال: يابن أخي رحمةُ الله على أبي عبد الله، والله ما رأيتُ أحداً يُشبهه ، ولقد جعلتُ أقول في وقتٍ ما يُوجَّهَ إلينا بالطعام: يا أباعبد الله أنتَ صائم ، وأنت في موضع تَقيَّة ، ولقد عطشت ، فقال لصاحب الشراب: ناولني؛ فناوَله قدحاً فيه ماء وثلج ، فأخذه ونظر إليه هنيهة ، ثم ردَّه ولم يشرب ، فجعلتُ أعجب من صبره على الجوع والعطش وهو فيما هو فيه من الهَول.

قال صالحٌ: كنت أَلتمسُ وأحتال أن أوصل إليه طعاماً أو رغيفاً في تلك الأيام فلم أقدِر. وأخبرني رجلٌ حضره ، أنه تفقده في هذه الأيام الثلاثة وهم يناظرونه ، فما لَحَن في كلمة ، قال: وما ظننتُ أن أحداً يكون في مثل شجاعته وشدّة قلبه.

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٤٨ ـ ٤٩.

وهكذا تنتهي هذه القصةُ التي لا تزال حُجَّةَ بُطولة الإمام أحمد، وقوّة العقيدة وعجائِب صنع الإيمان، وقد كان من ثبات ابن حنبل وشجاعته وإخلاصه أنِ انطفأتْ عقيدة خلق القرآن، وانطفأتْ معها حركةُ الاعتزال حتى بقيت مدفونة في كتب الملل والنحل وعلمِ الكلام.

وانتصر أحمدُ بن حنبل بإيمانه وشجاعته، وكان انتصارُه دليلاً على انتصار الإخلاص والعزم على القوة والدولة والمعارضات الشديدة والعقوبات الموجعة، وانهزمتْ حكومةٌ هي من أقوى الحكومات وأوسعها في عصرها، وانهزم معها كلُّ مَن التف حول رايتها من أهل العلم والجدل والذّكاء والمناصب والرياسات.

وكان المعتزلة ولو انتصروا في المحنة فاستطاعوا ـ بسيطرتهم العملية والسياسية على البلاط ـ أن يُعاقبوا منافسيهم ورئيسَ الحزب الذي يُعارضهم بما شاؤوا، وينفذوا فيه إرادتهم ولكنهم خسروا دولتهم، وفَقدوا سلطانهم، وقَطعوا الصِّلَة بينهم وبين الشعب، فقد كَرِههم من ذلك اليوم كراهةً شديدة، وانصرفت القلوب عنهم، ولم يزل نجمُهم في أفول حتى غرب من غير رجعة، قال الدكتور أحمد أمين: «ولم يستردَّ المعتزلة سُلطتهم يوماً ما بعد المحنة»[١].

وخَرَجَ أحمدُ بن حنبل من هذه المحنة خروجَ السَّيف من الجلاء، والبدر من الظلماء، وكان كما قال بعض معاصريه: «أُدخل الكير فخرج ذهباً أحمر» ولم يزَل بعد ذلك اليوم في صعود واعتلاء، حتى تواضعتِ القلوب على حبه، وأصبح حُبّه شعارَ أهل السنة وأهلِ الصلاح، حتى نُقل عن أحد معاصريه قتيبة أنَّه قال: «إذا رأيتَ الرجل يُحِب أحمدَ بن حنبل فاعلم أنه صاحبُ سنة»[٢].

وقال أحمد بن إبراهيم الدَّورقي: «من سمعتموه يذكرُ أحمد بن حنبل بسوء

---

(١) ضحى الإسلام: ج٣، ص ٢٠١.

(٢) ترجمة الإمام أحمد: ص ١٦.

فاتهموه على الإسلام»[١] وقال شاعر[٢]:

أَضْحى ابنُ حَنْبلَ مِحنَـةً مأمونـةً ... وبِحُـبِّ أَحمـد يُعـرَفُ المُتَنسِّـكُ

وإذا رأيـتَ لأحمـد مُتنقِّصـاً ... فـاعلـمْ بـأن سُتـورَه سَتُهتَّـكُ

وقد اعترف معاصروه بأنَّ غَناءه للإسلام، وفي الدفاع عن القرآن كان عظيماً، وأنه سَدَّ ثُلمة عظيمة كادتْ تَحدُث في الإسلام، وشبَّهوا يوم المحنة بيوم الرِّدة، وقرنوا ذكرَ أحمد بن حنبل بذكر أبي بكر الصديق، وكفى به عظمةً!

قال عليُّ بن المَدِيني، أحدُ أئمَّة الحديث في عصره، ومن شيوخ البخاري: «إنَّ الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر الصديق يومَ الرِّدة، وبأحمدَ بن حنبل يوم المِحنة»[٣].

وليس سِرُّ عبقرية أحمد بن حنبل في دفاعه عن عقيدة من عقائد الإسلام، وانتصاره لها - وفضله في ذلك لا ينكر - ولكنَّ مأثرته الكبرى التي أكسبته منصب التجديد، هو أنه وقف سداً منيعاً في اتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفي المتهور، الذي لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى، وعن النبوة المحمدية، وخضعت هذه الأمة للفلسفات، وأصبحت عرضة للآراء والقياسات، وانتصرت الحكومة على الشعب، والسياسة على الدين انتصاراً مؤيداً، وسلبت حرية الرأي والعقيدة.

ولا شكَّ أنها رزيئةٌ جليلةٌ، وفتنةٌ عظيمةٌ في الإسلام، وقد قضى عليها أحمد بن حنبل وهي في شبابها وأوجها، وحفظ هذا الدينَ من أن يعبث به العابثون، وتتحكَّم فيه السلطة والأهواء، وحفظ هذه الأمة من أن تكون في حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين وحاشيتهم، يَفرضون عليها العقائد

(١) تاريخ بغداد: للخطيب ج٤، ص ٤٣١.
(٢) ضحى الإسلام: ج٣، ١٩٤.
(٣) ترجمة الإمام أحمد: ص٧١.

فرضَ الجبايات ، ويسوقونها إلى أهوائهم سوق الغنَم والبقرات ، وردَّ إلى العقيدة الإسلامية كرامتها وأصالتها ، وإلى الأمة حريّتها وشخصيتها ، فاستحقَّ بذلك تقدير الإنسانية وثناء المسلمين ، واعتراف الأجيال القادمة وإجلال التاريخ وإكباره ، وكان من المجدِّدين الكبار في الإسلام.

❋ ❋ ❋





أبو الحسن الأشعري وخلفاؤه



المحاضرة السادسة:

أبو الحَسنِ الأشعريُّ وخلفاؤُه

سيطرة المعتزلة العلمية ونتائجها:

لقد ضَعُفَ شأنُ المعتزلة على أثر وفاة المعتصم والواثق ـ اللَّذين تبنَّيا حركة الاعتزال واحتضناها ـ وجاء المتوكل بعد الواثق وهوناقمٌ على الاعتزال مُناوِئٌ للمعتزلة ، وقد تتبَّع المعتزلة فأقصاهم من مناصب الحكومة الخطيرة؛ ولكن رغم ذلك كله ظلَّ المعتزلة يسيطرون على الأوساط العلمية .

إنَّ عقيدة خلق القرآن فقدتْ سلطانها؛ ولكنْ كانت للمعتزلة عقائدُ ونظرياتٌ لا تزال جديدةً تشغَل العقول ، وتُسيطر على الأذهان ، وقد عاد إليهم بعض ما فَقدوه من النُّفوذ والتأثير في القرن الثالث ، ووُجدتْ فيهم شخصياتٌ قويةٌ أعادتْ إلى المعتزلة بعض الثقة والإجلال ، وخَضَع لذكائهم وحدة نظرهم كثيرٌ من الشباب المثقَّف الذكي ، وأصبحَ شبه المقرّر عندهم أَن المعتزلة يمتازون بدقَّة النظر ، واتّساع الفكر والتحقيق ، وأن آراءهم وما وصلوا إليه من نتائج علمية أقربُ إلى العقل ، وقد صار كثيرٌ من طلبة العلم الشباب ، وممن يُحبُّون الظهور والتفوُّقَ على الأقران ، يُظهرون الاعتزال تظرُّفاً .

وبالعكس من ذلك ، لم يظهر في الحنابلة والمُحدِّثين بعد الإمام أحمد

شخصيةٌ قوية جذابة ، وأعرض المُحدِّثون ومن كان على شاكلتهم من العلماء عن العلوم العقلية وأساليب البحث والاستدلال الجديدة التي شاعتْ بتأثير المعتزلة ، فكان نتيجةَ ذلك ظهورُ المعتزلة ومن نحا نحوهم في مجالس البحث والمناظرة على منافسيهم الحنابلة والمحدِّثين ، وبدأ الناس يَشعرون ويعتقدون أن المدافعين عن السُّنة وممثِّليها متخلِّفون عن ركب العلم السائر ، ويَجْهلون مبادىءَ الفلسفة ، وأصبح الذين لم يتعمَّقوا في العلم ، ولم يرسخوا في الدين ، يعرفون أن الذَّكاء الحاد والرأيَ السَّانح يؤيدان المعتزلة؛ ولكن العقلَ المتعمق والفكرَ الناضج يُرجحَان مذهب المحدِّثين ، ويَقبلان محكَّمات الشريعة .

أصبَحَ هؤلاء مأخوذين ببلاغة المعتزلة ، وحُضور بَديهتهم ، وتدقِيقهم في المسائل الكلامية وتقعُّرهم فيها ، وأصبح كثير منهم يستخفون بظاهر الشريعة ، ويعتقدون أنَّ مسلك السلَف وما ذهبوا إليه من عقائد ، لا يقوم على البحث العلمي والأساس العقلي؛ وقد أُصيب كثير ممن ينتسب إلى الحديث ، وكثيرٌ من تلاميذ المحدثين بمركَّب النقص مأخوذينَ بِسحر المعتزلة وتفلسفهم .

وقد كان هذا الوضعُ خطراً كبيراً على مركز الدّين والسُّنة في نفوس المسلمين ، وقد صار هؤلاء المتفلسفون يعبثون بتفسير القرآن وعقائد الإسلام ، تتحكَّم فيهما أهواؤهم وعُقولهم ، ويُصرِّفونها كيف يشاؤون ، ووُجد في الأوساط العلمية اتجاهٌ جديد عنيفٌ إلى تقديس العقل وتحكيمه في المسائل التي لا تقوم إلا على تعليمات النُّبوة والإيمانِ بالغيب .

وانطلَقتْ في العالم الإسلامي موجةٌ من الفلسفة السطحية والعقلية المتهورة كادت تكتسحُ الإيمان بالغيب ، والاعتماد على تعاليم الأنبياء ، وازدهرَ التفكير الفلسفيُ على حساب القلب والعاطفة ، وعلى حساب العمل ، ولا شك أنَّه تحوُّلٌ عظيم في العالم الإسلامي ، وخطر على مستقبل الأمة ، وقد عَجز عن مقاومة هذا التيار العنيف وردِّه المحدِّثون المتصلّبون ، والحنابلةُ المتحمِّسون ، وعجز عنه كذلك الزهاد العابدون ، والفقهاء البارعون؛ إذ لم يكن شيء مما

يمتازون به يقوم في وجه هذا التيار العقلي ، ويَردُّه على أعقابه .

الحاجة إلى شَخصيّة رفيعَة:

لقد كان الإسلامُ يومئذ في حاجة إلى شخصية قوية تفُوق المعتزلة في مواهبها العقلية وفي مُستواها العلمي ، إلى رجل لم يُلمَّ بالعلوم العقلية إلماماً فحسب بل نزلَ في أحشائها ، ورسَب في أعماقها. كان الإسلام في حاجة إلى عملاق في العلم والعقل ، يتضاءَل أمامه حَملَةُ راية العلمِ والعقل في عصره ، كما يتضاءل الأقزام ، وكما يتضاءل التلاميذ الصغار أمامَ أستاذ نابغةٍ وإمام كبير. لقد كان الإسلامُ في حاجة ملحَّة إلى هذه الشخصية الرفيعة القوية ، ووُجدت هذه الشخصية المطلوبة في شخص أبي الحسن الأشعري .

أبو الحسن الأشعري:

هو أبو الحَسن علي بن إسماعيل ، من ذرية أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ . ولد بالبصرة عام ٢٧٠ هـ تزوجتْ أمه ـ بعد وفاة أبيه إسماعيل ـ بأبي عليِّ الجبَّائي ، شيخ المعتزلة في عصره ، وحامل راية الاعتزال ، ونشأ أبو الحسن في حِجره ، وتلقَّى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته وأمين سرِّه .

وكان أبو عليّ الجبَّائيُ صاحب تصنيف وقلم ، إذا صنف يأتي بكل ما أراد مُستقصى ، وإذا حضر المجالسَ وناظر لم يكن بِمُرْضٍ ، وكان إذا دهمه الحضور في المجالس يبعث الأشعري ، ويقول له: نُبْ عنِّي، ولم يزل على ذلك زماناً [١] حتى تصدَّر المعتزلةَ ، وأصبح يُشار إليه بالبنَان ، وكان كل شيء في حياته يدل على أنه سيكون خليفةَ شيخه ومربِّيه ـ أبي علي الجبائي ـ ويعقد له لواء الإمامة والصدارة في المذهب؛ ولكنَّ الله أراد غيرَ ذلك .

---

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: لأبي القاسم بن عساكر الدمشقي ص ٩١ .

لم يزَلْ أبو الحسن يتزعَّم المعتزلةَ ويُدافع عنهم ، وظل على ذلك أربعين سنة ، حتى ثار عقلُه الكبير ، ونفسُه القلقة ، على مذهب الاعتزال الذي كان يُنافح عنه. ونشأ في نفسه ردُّ فعل ضدَّ تأويلات المعتزلة وإمعانِهم في القياس وتحكيم العقل ، وصار يَشعرُ بأنهم أخضعوا الدين للمنطق الصناعي وللمقدِّمات ، والأصول التي ظنوا ـ وصَوَّر لهم ذكاؤهم ـ أنها قطعيةٌ ، وتأولوا القرآن على آرائِهم.

واقتنعَ بأنَّ الحق الصريح هو الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم ، وسلَف هذه الأمة ، وهي الغاية التي ينتهي إليها العقل والتفكير العميق ، بعد رحلة طويلة ، وتجارب قاسية ، وعَثَرات كثيرة ، فيؤمن بفضلهم وإصابتهم فيما اعتقدوه وتلقوه عن النبي ﷺ ، وعَضّوا عليه بالنواجذ.

حدَثَ في أبي الحسن الأشعري هذا الصراعُ النفسي ، فاعتكفَ في بيته خمسةَ عشر يوماً يفكر ويتأمل ويدرس، ويستخير الله حتى اطمأنتْ نفسُه ، واستقر رأيُه ، ورأى أنه لا يسَعُه إلا الإعلانُ بالبَراءة عن الاعتزال ، والرجوع إلى مذهب السلف ، ورأى أن البقاء فيما كان عليه من الرأي والمركز الذي يتمتَّعُ به جريمةٌ خُلقية ونفاقٌ ، فخرج إلى المسجد الجامع بالبصرة ، ورقِيَ كُرسياً ، ونادى بأعلى صوته: من عرَفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أُعرِّفه بنفسي ، أنا فلان ابن فلان ، كنتُ أقول بخلقِ القرآن وأن الله لا تراه الأبصار ، وأنَّ أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائبٌ مُقلِعٌ معتقد للرد على المعتزلة، مُخرِجٌ لفضائحهم ومعائبهم [١].

ومِن ذلك اليوم انقلبَ أبو الحسن ـ لسانُ المعتزلة من قبل ـ أكبَرَ المعارضين للاعتزال ، وأعظمَهم رداً عليه وعلى أهله ، وانقلبتْ مواهبه ، ومِرانه العقلي وحِجاجُه القوي ، إلى الدفاع عن السُّنة ومذهبِ السلف.

---

(١) ابن خلكان: ص ٤٤٧ ، ج٢.

حَماسُه في عَقيدة السَّلف وحِرْصُه على تَبليغها:

ونَهَضَ أبو الحسن الأشعري بعد هذا التَّحوُّل العظيم ، يدعو إلى عقيدة أهل السنَّة ، ويدافع عنها في حَماسة وإيمانٍ ، ويَرُدُّ على المعتزلة ، ويتَّبعهم في مجالسهم ومراكزهم يحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً من عقائد أهل السنة ، ومذاهبِ السلف ، وكان نشاطه في ذلك أعظم من نشاطه في السابق ، وكان يقصدهم بنفسه يناظرُهم ، فكُلِّمَ في ذلك ، وقيل له: كيف تُخالط أهل البدع وتَقصِدُهم بنفسك وقد أَمرتَ بهجرهم؟ فقال: هم أولو رياسة ، منهم الوالي والقاضي ، ولرياستهم لا يَنزلون إليَّ ، فإذا كانوا هم لاَ ينزلون إلي ، ولا أسير أنا إليهم ، فكيف يَظهر الحق ، ويعلمون أنَّ لأهل السنة ناصراً بالحجة؟ (١) .

مَواهبُه العقلية وعُلُوُّ مَرتَبتهِ في العِلْم:

وقد اكتسبَ أبو الحسن مَلَكةً قويةً ومِراناً على البحث والاستدلال ، بِحُكم اشتغالِه بالبحث في علم الكلام ، والدِّفاع عن المعتزلة ، وكان صاحبَ موهبة وقريحة في المناظرة والاستدلال شديدَ المعارضة قويَّ الحُجَّة .

وقد أشعَلَ إخلاصُه للدين وانتقالُه إلى معسكر أهل السنة هذه المواهب. وقد كان مُستواه العقلي أعلى من مستوى مُعاصريه وأقرانه ، وكان صاحبَ نُبوغٍ وابتكار في العقليات وكانَ يرد على حُجَج المعتزلة وعقائدهم في سهولة ، وينْقُضها بمقدرة وثقة ، كما يرد الأستاذ الكبير على شُبَهِ تلاميذه ، ويَحُلُّ مشاكلهم ، يُصور ذلكَ قصةٌ يرويها تلميذه أبو عبد الله بن خَفيف الشِّيرازيُّ يقول:

«دخلتُ البصرة ، وكنت أطلب أبا الحسن الأشعري رحمه الله ، فأُرشدت إليه ، وإذا هو في بعض مجالس النظر ، فدخلتُ ، فإذا ثَمَّ جماعة من

---

(١) تبيين كذب المفتري: ص ١١٦ .

المعتزلة ، فكانوا يتكلمون ، فإذا سكتوا وأنهوا كلامهم ، قال أبو الحسن الأشعري لواحدٍ واحدٍ ، قلتَ كذا وكذا ، والجوابُ عنه كذا وكذا ، إلى أن يُجيب الكل ، فلما قام خرجت في أثره ، فجعلتُ أُقلِّب طَرْفي فيه ، فقال: أيش تَنظر؟ فقلت: كم لساناً لك؟ وكم أُذناً لك؟ وكم عينًا لك؟ فضحك وقال لي: من أين أنت؟ قلت: من شيراز ، وكنتُ أصحبه بعد ذلك [١].

وزادَ في رواية ، قال: «قلتُ مثلك في فضلك وعُلُوِّ منزلتك ، كيف لم تُسأل ويُسأل غيرك؟! فقال: إنا لا نكلم هؤلاء ابتداءً؛ لكن إذا خاضوا في ذكر ما لايجوز في دين الله ، رَدَدْنا عليهم بُحكم ما فرض الله سبحانه وتعالى علينا من الردِّ على مخالفي الحق» [٢].

وقد كان أبو الحسن الأشعري إماماً مجتهداً في عِلم الكلام ، وأَحَد مؤسسيه ، وقد خضع كلٌّ من جاء بعده من المتكلِّمين لعبقريته ، وعُمق كلامه ، ودِقة نظره ، وإصابةِ فكره.

رُوي عن الإمام أبي الحسن الباهِلي ـ وهو إمامٌ من أئمة الكلام ـ أنه قال: «كنتُ أنا في جنب الشيخ الأشعري كقطرةٍ في جنب البحر» [٣].

وقال الإمام أبو بكر البَاقلاني ـ وهو الذي لُقِّب بلسان الأمة ـ وقد قيل له: كلامُك أفضل وأبينُ من كلام أبي الحسن الأشعري رحمه الله ، قال: إنَّ أفضل أحوالي أن أفهم كلام أبي الحسن رحمه الله.

مَذهَبُه وخِدْمَتُه:

ليس سِرُّ عظمة الأشعري في التاريخ ، وجلالة العمل الذي قام به ، في أنه دافعَ عن السُّنة دفاعاً قوياً ، ورَدَّ على المعتزلة؛ فالذين تولَّوا ذلك كثير.

إنَّ سِرَّ عظمته وعبقريته في أنه اتخذ طريقاً وسطاً بين المعتزلة والمحدِّثين؛

---

(١) تبيين كذب المفتري: ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٦.
(٣) المصدر السابق: ص ١٢٥.

فلم يذهب كما ذهب المعتزلة إلى تمجيد العقل ، والإيمان بأنَّ له سُلطة لا تُحَدُّ ، وأن له الحكم على ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطَّبيعيات ، وأن له الكلمةَ الأخيرة النافذة في كل موضوع ، ولم ير كذلك ـ كما رأى كثيرٌ من أهل عصره ـ أنَّ الانتصار للدين والدفاع عن العقيدة الإسلامية يستلزمان إنكارَ العقل وقوته ـ إلى حد ما ـ وازدراءَه ، وأن السكوت عن هذه المباحث التي يُثيرها المعتزلة وأضرابُهم ، التي نشأتْ بحكم تطور العصر ، والاحتكاكِ بالأمم والديانات أولى وأفضل ، بالعكس من ذلك ، هو عُني بهذه المباحث؛ لأنها كانت تُزلزل العقيدة الإسلامية ، وتُضعف الثقة بالدين ، وباحَثَ المعتزلة والمتفلسفين ، وناقَشهم في مصطلحاتهم ولغتهم العلمية، وعمل بالكلمة الحكيمة المأثورة «كلِّموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟»[1] .

وكأنَّه كان يعتقد أن العالم إذا كلَّم عاميّاً كلاماً فوق مستواه العلمي والعقلي ، كان ذلك باعثاً على الإنكار وتكذيب الله ورسوله ، كذلك إذا كلَّم عالماً أو ذكياً أو متشككاً دون مستواه العلمي والعقلي ، كان مُثيراً للشكوك ، وداعياً إلى الجحود والإنكار؛ فكان فَهْمُه لهذه الوصية الحكيمة فهْماً أوسع ، وتطبيقُه لها تطبيقاً أشمل .

وبذلك خدم أبو الحسن هذا الدين في عصره خدمة باهرة ، وأعاد إلى نفوسٍ وعقولٍ كثيرةٍ لا يعلم عددها إلا الله الثقةَ بهذا الدين ، والإيمانَ به من جديد .

ولقد كان أبو الحسن الأشعري جريئاً وصريحاً في نقدِه للمعتزلة ، وقد بين أنهم اتبعوا أهواءهم في فهم هذا الدين ، وقلَّدوا رؤساءهم وسلَفهم تقليداً أعمى ، ولم ينظروا في الكتاب والسنة مجرداً ، ولم يتخذوهما إماماً ومصدراً

---

(١) [فيض القدير : ج ٣ ، ص ٣٧٨].

لعقائدهم وآرائهم ، بل كُلَّما تعارضَ القرآنُ مع ما انتحلوه من آراءَ وعقائد تأوَّلوا القرآنَ ولم يروا بذلك بأساً.

يقول في كتاب: «الإبانة عن أصول الديانة» وهو أول ما صنَّفه بعد الخروج من الاعتزال: «أما بعد؛ فإن من الزائغين عن الحق من المعتزلة ، وأهل القدَر ، من مالتْ بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم؛ فتأوَّلوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم يُنزل الله به سلطاناً ، ولا أوضحَ به بُرهاناً ، ولا نقلوه عن رسول الله رب العالمين ، ولا عنِ السلف المتقدِّمين» (١).

ويشرح عقيدته التي يَدين بها فيقول:

«وقولُنا الذي نقول به ، وديانتُنا التي ندَين بها التمسُّك بكتاب ربنا عز وجل ، وبسُنة نبينا عليه السلام ، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضَّر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولما خالفَ قوله مُخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل ، والرئيسُ الكامل الذي أبان الله به الحق ، ورفع به الضلال ، وأوضحَ به المنهاج ، وقمعَ به بِدَع المبتدعين ، وزَيغ الزائغين ، وشَكَّ الشاكين؛ فرحمةُ الله عليه من إمام مُقَدَّم ، وخليل معظم مفخَّم» (٢).

ولم تقتصِرْ خِدمة الأشعري على تأييد عقائد أهل السنَّة والسلف تأييداً إجمالياً ، فقد كان الحنابلة والمحدِّثون قائمين به غير مقصِّرين فيه.

إنَّ عبقريَّته تتجلَّى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلاميةَ على هذه العقائد ، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة ، وذلك كلُّه في لغةٍ يفهمونها ، وأسلوب يألفونه ويُجلُّونه ، وبذلك أثبتَ أن هذا الدين وعقيدته

(١) الإبانة عن أصول الديانة: ص ٥ طبع دائرة المعارف، حيدر أباد.
(٢) المصدر السابق: ص ٥.

الواضحة مؤيّدان بالعقل ، وأن العقل الصحيح يُؤيد الدين الصريح ، ولا صراعَ بينهما ولا تناقض.

وقد استُهْدِفَ في عمله هذا لنقد المعتزلة وسخَطهم، وكان ذلك طبيعياً ومعقولاً ، إذ هو منافسهم الأكبر ، وزعيمُ المعارضة ، ولكنه استُهدف كذلك لعتاب الحنابلة المتشدّدين الذين كانوا يرون الخوض في هذه المباحث والمناقشات ، واستعمال المصطلحات الفلسفية والاستدلال بالمقدمات العقلية في المسائل النقلية ، ضرباً من الزيغ والضلال.

لقد كان الأشعريُّ مؤمناً بأن مصدر العقيدة والمسائل التي تتصل بالإلهيات وما وراء الطبيعة ، هو الكتابُ والسنَّة ، وما جاء به الأنبياء ليس العقل المجرد والمقياس والميتافيزيقا اليونانية ، ولكنه لم يكن يرى السُّكوتَ والإعراض عن المباحث التي حدثت بتطورات الزمان ، واختلاطِ هذه الأمة بالأمم والديانات والفلسفات الأجنبية ، حتى تكونت على أساسها فِرقٌ ونِحل.

وكان يرى أنَّ السكوتَ عن هذه المباحث يضرُّ بالإسلام ، ويُفقد مَهابة السنة ، ويحمل ذلك على ضعف السنة العلمي والعقلي ، وعجز علماء الدين وممثليه عن مواجهة هذه التيارات ومقاومة هذه الهجمات ، ويَهتبلُه أهل الفرق الضالة ، فينفذُون في أهل السنَّة والعقيدة الصحيحة ، فينفُثون سمومَهم فيهم ، ويزرعون الشكوك ، ويستميلون شبابهم الذكي المثقف إلى أنفسهم.

وكان الأشعريُّ مؤمناً بأنَّ مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية، والطريقُ إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما ثَبت عن الصحابة رضي الله عنهم، وهذا مُفترق الطريق بينه وبين المعتزلة، فإنه يتجه في ذلك اتجاهاً معارضاً لاتجاه المعتزلة.

ولكنه رغم ذلك يعتقد مخلصاً أن الدفاع عن هذه العقيدة السليمة ، وغَرسها في قلب الجيل الإسلامي الجديد ، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة ، واستعمال المصطلحات العلمية ، ومناقشة المعارضين على أسلوبهم العقلي ، ولم يكن يسوِّغ ذلك ، بل يَعدُّه أفضل الجهاد وأعظم القربات في ذلك العصر ، وهذا مفترق الطرق بينه وبين كثير من الحنابلة والمحدِّثين الذين كانوا

يتأثَّمون ويتحرَّجون من النزول إلى هذا المستوى.

وكان يعتقد كذلك: أن المباحث التي تتصل بالعقليات والحِسِّيات لا صلة لها في الحقيقة بالعقيدة والديانات، ولكنَّ المعتزلة والفلاسفة مزجوا البحث في العقيدة وبالبحث فيها، بل جعلوها بذلاقة لسانهم وذكائهم مقدمات للبحث في الدين، بل فارقاً بين الحقِّ والباطل.

كان الأشعريُّ يعتقد أن الفرار من البحث فيها، بحجة أنها لا تتصل بالدين والعقيدة لا يصِحُّ، بل بالعكس من ذلك، يجب على من قام لنُصرة السنة أن يواجههم فيها، ويُثبت مذهب أهل الحق. وكان يعتقد أنَّ النبي ﷺ وأصحابَه لم يسكتوا عن هذه المسائل جهلاً، بل لأن هذه المباحث ما نشأت في عصرهم، ولم تمسَّ الحاجة إلى البحث فيها شأن الفقه والجزئيات الكثيرة التي حدثتْ بعد عصرهم فتأملَ فيها الفقهاء والمجتهدون، وأبدوا رأيهم فيها، واستنبطوا وفرَّعوا وحلوا المشاكل الجديدة، وبذلك عصموا الأمة والجيل الجديد عن الإلحاد والفوضى في العمل والتعطُّل.

كذلك يجبُ على حراس الشريعة، ومتكلِّمي أهل السنة، أن يُواجهوا الأسئلة الجديدة التي أثارها المعتزلةُ والمتفلسفة في موضوع الإلهيات، ويُجيبوا عن الاعتراضات والمطاعن التي يُوجهها إلى أهل السنة أهل الفرق الضالة، ويُقيموا الدليل والبرهان العقلي على صحةِ عقائدِ أهل السنة ومُطابقتها للعقل والمنطق، وقد ألف في هذا الموضوع رسالةً أسماها «استحسان الخَوْضِ في الكلام».

وقد سارَ الأشعريُّ في طريقه مجَاهداً، ومُناضلاً، مُنتجاً، معرضاً عن سَخط الطائفتين: الحنابلة والمعتزلة، لا يَعبأ بما يقال فيه، مؤمناً بأنه هو الطريق الذي يَنفع الدين في عصره، ويَردُّ إلى الشريعة الإسلامية مهابتَها وكرامتها، ويَحرُس للناشئة دينها وعقيدتها، حتى استطاع بعمله المتواصل، وشخصيَّته القوية، وعقله الكبير، وإخلاصه النادر، أن يردَّ سيل الاعتزال والتفلسف الجارف الذي كان يتهدَّد الدين، ويُثبِّت كثيراً من الذين تزلزلت

أقدامهم ، واضطربتْ عقولهم وعقيدتهم ، وأن يُوجد في أهل السنَّة ثقةً جديدة بعقيدتهم ، ونشاطاً جديداً في دعوتهم ، وزالتْ سطوة المعتزلة على العقول والأفكار ، واشتغلوا بالدفاع عن الهجوم ، وتعرضتْ حركة الاعتزال ودعوتُها للخطر ، وقد خمدوا وانطفؤوا بمعارضةِ إمام كبير ، كأبي الحسن الأشعري.

يقول أبو بكر بن الصَّيرفي:

«كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم ، حتى أظهرَ اللهُ تعالى الأشعري ، فحجزَهم في أقماع السُّمسم» [١] ، وبموقفه الجليل في الدِّفاع عن السنة ونصرِ الدين استحقَّ أن يُعدَّ من المجدِّدين الكبار [٢].

مُؤلَّفاتُه:

ولم يَقتصِرْ أبو الحسن الأشعري على المُناظرة والمعارضة ، بل خلَّف مكتبة كبيرةً من مؤلفاته في الدفاع عن السنة ، وشرح العقيدة الحسنة ، وقد ألَّفَ تفسيراً للقرآن ، أقل ما قيل في أجزائه أنه في ثلاثين مجلَّداً [٣].

وقد ذكر بعض المؤلِّفين أن مؤلفاته تبلغُ إلى ثلاثمئة مؤلف [٤] ، أكثرها في الرد على المعتزلة ، وبعضها في الرد على مذاهبَ وفرق أخرى ، منها كتاب «الفصول» الذي رد فيه على الفلاسفة والطبيعيين ، والدهرية ، والبراهمة ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وهو كتاب كبير يحتوي على اثني عشر كتاباً ، وقد ذكر ابن خلكان من مؤلفاته كتاب «اللمع» و«إيضاح البرهان» و«التبيين عن أصول الدين» و«الشرح والتفصيل في الردِّ على أهل الإفك والتضليل».

وله ـ عدا العلوم العقلية والكلام ـ مؤلَّفاتٌ في علوم الشريعة منها: «كتاب

---

(١) تبيين كذب المفتري: ص ٥٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٥٣.
(٣) الذهبي.
(٤) تبيين كذب المفتري: ص ١٣٦.

القياس» و«كتاب الاجتهاد» و«خبر الواحد» وكتاب في الرد على ابن الراونديِّ في إنكاره للتواتر.

وقد ذكرَ في كتابه «العمد» مؤلفاته التي فرغ منها سنة ٣٢٠هـ، يعني قبل وفاته بأربع سنوات، وهي ثمانٍ وستون مؤلفاً، وكثير منها يقع في عشرة مجلدات أو أكثر، وقد ألَّف في آخر حياته كتباً كثيرة، ويدلُّ كتابه «مقالات الإسلاميين» على أنه لم يكن متكلِّماً فحسب؛ بل كان مؤرِّخاً أميناً لعِلْم العقائد، وقد اعترفَ بدِقته وأمانته وتحرِّيه للصدق في النقل المستشرقونَ [١]. وكُتبُ الفِرَق والديانات تدلُّ على أمانته ودِقَّته في النقل.

اجتهادُه في العبادة:

لم يكن أبو الحسن الأشعري رجلَ علمٍ وعَقْلٍ وبحْثٍ ونظرٍ فحسب؛ بل كان ـ مع وصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والعقل ـ مجتهداً في العبادات، متحلياً بالأخلاق الفاضلة، وذلك ما يمتاز به العلماء الأقدمون؛ فإنَّ اشتغالهم بالعلم لم يكن مانعاً عن الاجتهاد في العبادات، والحِرص على الطاعات.

وكانوا يَجمعون بين الدراسة والإفادة، والعِبادة والزهادة. قال أحمد بن علي الفقيه: «خَدمتُ الإمام أبا الحسن بالبصرة سنين، وعاشرته ببغدادَ إلى أن توفي رحمه الله فلم أجد أورعَ منه، ولا أغضَّ طرفاً؛ ولم أرَ شيخاً أكثر حياءً منه في أمور الدنيا، ولا أنشطَ منه في أمور الآخرة» [٢]. ويحكي أبو الحسين السَّروي من عبادته في الليل واشتغاله ما يدل على حِرصه وقوتِه في العبادة [٣].

قال ابن خَلِّكان: «وكان يأكل من غَلَّةِ ضيعةٍ وقفَها بلالُ بن

---

(١) انظر: لفنسنك. Muslim Greed Vinisink

(٢) تبيين كذب المفتري: ص ١٤١.

(٣) المصدر السابق: ص ١٤١.

أبي بُردة بن أبي موسى على عَقبهِ ، وكانت نفقتُه في كل يوم سبعةَ عشر درهماً ، هكذا قال له الخطيبُ»[١] .

وَفاتـه:

وكانت وفاته سنة ٣٢٤هـ ، ودفن ببغداد في مشروع الزوايا[٢] ، ونودي على جنازته : «اليوم مات ناصرُ السنَّة» .

الإمَامُ أبو مَنصور الماتُريدِيُّ:

وقد نَهَضَ في نفس ذلك العصر ، في طَرَفٍ آخر من أطراف العالم الإسلامي فيما وراء النهر إمامٌ آخر من أئمـة الكلام ، والمدافعين عن عقيدة الإسلام ، وهو الإمام أبو منصور المَاتُرِيْدِي (ت ٣٣٢هـ) ، وقد أقبل على علم الكلام كما أقبل الإمام أبو الحسن الأشعري في العراق ، وكان راجح العقل ، مُتَّزِنَ الفكر حصيفاً ، وقد كان الأشعري دائماً في معارضةٍ وأخذٍ وردٍّ على المعتزلة ، فدَخل في بحوثه وأفكاره ما قد لا يخلو من الغلو ، وقد زاد الأشاعرة بعدَه في الأمر ، وأضافوا إليه أشياءَ .

وقد جاء أبو منصور الماتريدي ، فحذَف هذه الزوائد والالتزامات التي كان من الصعب إثباتُها وإقامةُ الدليل عليها ، وكانت تحتاج إلى تكلُّف وتأويل ، وتناول علمَ الكلام بالتهذيب والتنقيح ؛ حتى أصبحَ أكثر توسطاً واعتدالاً .

وقد كان الخلاف بينه وبين الأشعري جزئياً ومحدوداً ، والمسائلُ التي خالَف فيها الماتريديُّ الأشعريَّ لا تزيد على أربعينَ مسألة[٣] ؛ الخلافُ في معظمها لفظيٌّ .

---

(١) ابن خلكان : ج١ ، ص ٤١٢ .

(٢) المصدر السابق : ج١ ، ص ٤١٢ .

(٣) ابن تيمية : لمحمد أبي زهرة، نقلاً عن الشيخ محمد عبده، في تعليقاته على «العقائد العضدية».

وكان الماتريديُّ مؤلِّفاً كبيراً ، وله مؤلَّفاتٌ عظيمة في الردِّ على الرافضة والقرامطة ، وكتابه «تأويلات القرآن» كتابٌ عظيم يدل على نبوغه وذكائه الباهر ، ورسُوخه في العلم.

وقد كان للإمام أبي الحسن الأشعري بحُكم إقامته في العراق ـ مركز العالم الإسلامي السياسي والثقافي ـ نفوذٌ أكبر في الأوساط العلمية ، وشهرةٌ أوسع ، واسمٌ ألمع في تاريخ علم الكلام من غيره وممن جاؤوا بعده.

العُلماء الأشاعرةُ ونفوذُهم في العالم الإسلامي:

وقد نشأَ في مدرسة أبي الحسن الأشعري الفكرية علماءُ فحولٌ ، ومُتكلِّمونَ كبارٌ خضع لعلمهم ونفوذهم العالمُ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وظلوا مسَيطرين على الحركة العلمية والفكرية لعدةِ قرون ، وبفَضلِهِم انتقلت قيادة العالم الإسلامي الفكرية ، وتوجيهه من المعتزلة إلى أهل السنَّة.

وقد نبغ في القرن الرابع علماءُ كبارٌ ، طبقت شهرتُهم الآفاق ، أمثال: القاضي أبي بكر البَاقلاَّني (ت ٤٠٣هـ)، والشيخ أبي إسحاق الإسْفِرَائِيني (ت ٤١٨هـ).

وقد كان في القرن الخامس للعلامة أبي إسحاق الشيرازي (م ٤٧٦هـ) وإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجُوَيني (ت ٤٧٨هـ) مهابةٌ ومحبةٌ في نفوس المسلمين ، لم تكنْ لأحد من الملوك والسلاطين ، يدلُّ على ذلك بعض الدلالة ما يرويه تاج الدين السّبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» عن رحلة الأول من بغداد إلى نِيسابور.

يقول السّبكيُّ: «إنَّ الخليفة أمير المؤمنين المقتدي بالله ، تشوش من العميد أبي الفتح بن أبي الليث ، فدعا الشيخ أبا إسحاق وشافَهه بالشكوى منه ، وأن أهل البلد حصل لهم الأذى به ، وأمره بالخروج إلى العسكر ، وشرْح الحال بين يدي السلطان ، وبينَ يدي الوزير نِظام المُلك ، فتوجه الشيخ ومعه جمال الدين عَفيفٌ ، وهو خادم من خُدَّام الخليفة».

قال أبو الحسن الهَمَدانيُّ: «وكان عند وُصوله إلى بلاد العجم يَخرج أهلها بنسائهم وأولادهم ، فيمسحون أردَانه ، ويأخذُون تُراب نعليه ، ويَستشفون به. وكان يُخرج من كل بلد أصحابُ البضائع بضائعهم ويَنثُرونها ، ما بين حلوى ، وفاكهة ، وثياب ، وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم حتى انتهوا إلى الأساكفة ، فجعلوا ينثرون المتاعات ، وهي تقع على رؤوس الناس ، والشيخ يتعجَّبُ.

ثم إنَّ الشيخ دخل نيسابور ، وتلقَّاه أهلها على العادةِ المألوفة ممن وراءهم من بلاد خراسان ، وحمل شيخُ البلد إمامُ الحرمين أبو المعالي الجُوَيني غاشيتَه ومشى بين يديه كالخديم ، وقال: أَفتخرُ بهذا» [١].

«وقد كان لإمام الحرمين في ولاية ألب أرْسَلان السَّلْجُوقي ، وفي وزارة نظام المُلك الطُّوسي ،أعظمُ مركز ديني وقد بُنيتْ له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور ، وتولى الخطابةَ بها ، وحضرَ دروسَه الأكابر من الأئمة ، وانتهت إليه رياسة الأصحاب ، وفوض إليه الأوقاف. وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مُزاحَم ولا مدافع. مُسلَّم له المحراب والمِنبر والخطابة والتدريس ومجلسُ التذكير يوم الجمعة [٢] ، وأُغلقت الأسواق يوم موته ، وكُسر منبره في الجامع وقعد الناس لعزائه ، وأكثروا فيه المَراثي.

وكان تلاميذهُ يومئذٍ قريباً من أربعمئةٍ واحد ، فكسروا محابِرهم وأقلامهم على ذلك عاماً كاملاً [٣].

وقد انتشر المذهبُ الأشعري أيامَ وزارة نظام المُلك ـ الذي كان أشعريَّ العقيدة. وكان صاحب الكلمة النافذة في الإمبراطورية السَّلجوقية العظيمة ـ انتشاراً عظيماً. وأصبحتْ شبهَ عقيدة رسمية تتمتَّع بحماية البلاط ، وزاد في

(١) طبقات الشافعية الكبرى: لابن السبكي ج٣ ، ص ٩١ ـ ٩٢.
(٢) ابن خلكان: ج ١ ، ص ٣٦١.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦٢.

انتشارها وقوتها مدرسة بغداد النظامية ومدرسةُ نيسابور النظامية.

وكانت المدرسة النظامية في بغداد أكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي. كان الانتساب إليها شرفاً وفخراً للطالب المتخرِّج، وكانت وظيفةُ التدريس فيها مجداً للعالم وشهادة علمية ليست فوقها شهادة. فكان طبيعياً أن ينتشر المذهب الأشعري ويسودَ في العالم الإسلامي [١].

* * *

(١) تلبيس إبليس: لابن الجوزي ص ١٠٢.



الانحطاط في علم الكلام
وازدهار الفلسفة الباطنية والحاجة
إلى متكلّم جديد



المحاضرة السابعة:

الانحطاطُ في علمِ الكلام ، وازْدهارُ الفَلسفة الباطنية والحَاجةُ إلى مُتكلِّمٍ جديد

الانحراف والانحطاط في علم الكلام:

إنَّ مدرسةَ الأشعري الفكرية ، وإن كانت لا تزالُ مهيمنةً على العالم الإسلامي ، وعلى مناهج التعليم ، وعلى الحياة الدينية ، ولكنها قد فقدتْ حيوتها ونشاطها الفكري ، وضعف إنتاجُها في الزمن الأخير ضعفاً شديداً ، وبدَت فيها آثارُ الهرم والإعياء .

لقد استطاعَ أبو الحسن الأشعري ، بشخصيَّته القوية ، وعقلِه الكبير وابتكاره ، أن يهزم المعتزلة في مُعترك العلم والعقل ، ويُغير اتجاه الطبقة المثقّفة في عصره ، والفضل في ذلك لا يرجع إلى أصوله وقواعده ، ولا إلى نظرياتِه وعقائده فحسب ، فيمكن أن تُناقش في ضوء العلم ، ويمكن ألا يقتنع ببعضها باحثٌ ومتأمل ، ولكنه يرجع كذلك إلى مواهبه العظيمة ، ونبوغه ، وعبقريته ، ومَلَكته القوية في الاستدلال ، وقد كانت هذه المدرسة في حاجةٍ دائمة إلى شخصيات قوية جديدة، تحفظ مكانتها ومركزها في العالم الإسلامي ، وتُجدِّد حياتها ونشاطها ، وفي حاجةٍ دائمة إلى إنتاج جديد ، وبَعث وتجديد ، وابتكار مزيد .

ولكنَّ ذلك لم يكن مع الأسف ، فقد طغى التقليد على تلاميذ هذه المدرسة وأصبحوا عيالاً على ما أنتجهُ الإمام أبو الحسن الأشعري وبعضُ خلفائه ، وقفوا عنده ، وعَضُّوا عليه بالنَّواجذ ، وأصبحَ علمُ الكلام علماً متناقلاً يتناقله الخَلَف عن السَّلف ، والتلاميذ عن الأساتذة ، وقد شعر بعضهم بأنَّ الزمان قد تطور ، والعلم قد تقدَّم ، فأدخل مصطلحات الفلسفة وأسلوبَها في الاستدلال في علم الكلام ، ولم يُحسن صنعاً؛ لأنَّ هذا الأسلوب الفلسفي لا يُورث الإذعان في القلوب كما يفعل أسلوب القرآن الطبيعي ، وليس له سِحْرٌ في النفوس ، ولا إقناعٌ كإقناع القرآن؛ ولأنَّ هذه المقدماتِ والدلائل الفلسفية مثارُ بحثٍ وجدال كبير ، ولا يُفيد العلمَ القطعي ، وكانت معرَّضةً للنَّقْض والرد.

وهكذا لم يُحسنوا تمثيل مذهب أهل السنة ، ومسلكَ السلف ، ولم يُحسنوا إليهما ، ولم ينالوا تقدير الأوساط الفلسفية وإجلالَها كذلك، إذ كانتْ تَعتقدُ أنَّ هذه المصطلحات والمقدمات استُغلَّت استغلالاً، ولم تُهضم هضماً صحيحاً.

شُيوعُ الفَلسفة في العالمِ الإسلامي:

وقد انتقلَتْ إلى العربية ـ بتوجيه المأمون الذي كان من هواة الفلسفة ، وبجهد المترجمين ـ كتبٌ كثيرةٌ في المنطق والفلسفة ، من السُريانية واليونانية والفارسية ، وكان أكثرها لأرسطو ، وكان فيها كتُب المنطق ، وكتبٌ في الطبيعيات والعنصريات والرياضيات ، وهي كتبٌ وعلوم يحسُن الانتفاع بها. ولا يُخاف منها على العقيدة الإسلامية؛ إذ لا صلة لها بالديانات والشرائع ، وفيها كُتب في الإلهيات والميتافيزيقا.

والحقُّ أن هذه البحوث في الإلهيات إنما هو علم الأصنام عند اليونان ، وما هي إلا وثنيَّتهُم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية ، وأضفَوْا عليها صبغة من الفنِّ ، وما العقول والأفلاك إلا رموزٌ للوثنية الإغريقية القديمة ، وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها إلا عقائدُ توارثتها الأجيال عندهم ، ووثنيةٌ

تُعارِضُ التوحيدَ ، وتحل محل عقيدة الصفات الإلهية .

وتشتملُ هذه الفلسفة التي بَهرت المسلمين ، وتسلَّطت على عقولهم من غير حق ومن غير جدارة على ظُنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ، ولا وجود لها في الخارج . وقد كانتِ الأمة التي أكرمها الله بالنبوَّة المحمدية ، ومنحَها العلمَ الصحيحَ الذي لا كدَر فيه ولا تخمين ، العلم الصحيح بالذات والصفات ، والمبدأ والمعاد .

لقد كانت هذه الأمـةُ في غنىً عن الاشتغال بهذه الفلسفة الخرافية ، والتدقيق فيها؛ ولكن الذين بَهرتْهُم براعةُ اليونان في المنطق والطبيعيات والرياضيات ، أقبلوا على هذه الفلسفة الإلهية في شيء من التمجيد والتقديس، وتلقَّوْها كصحيفة سماوية، كأنهم لا عهد لهم بالرسالة والبعثة المحمدية ، وكأنهم ليسوا أصحاب كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] وكأنَّهم أمَّةٌ جاهليةٌ فقيرةٌ في المعاني الدينية والحقائق الإلهية .

الفلسفة اليونانية في الإسلام:

كان من سعادة الفلسفة اليونانية وحُسن حظِّها ، أن رُزقتْ رجالاً أذكياء تطوّعوا لنشر الفلسفة وشرحها ، وجنَّدوا في سبيلها نفوسَهم ومواهبهم ، كيعقوب الكندي (ت ٢٥٨هـ) وأبي النصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) وكانوا في حماستهم في الدفاع عن الفلسفة ونشرها في الأمة الإسلامية ، وفي إخلاصهم لهذه الفلسفة وتمجيدهم لها ، وتقديسهم لأرسطو ، لا يقلُّون عن فلاسفة اليونان وتلاميذهم ، وكانوا يجهلون اللُّغات التي أُلِّفت فيها هذه الكتب ، ودُوِّنت فيها هذه الأفكار ، وكانوا غير قادرين على الانتفاع بالمصادر الأصلية مباشرة؛ فكانوا عيالاً على من ينقلها لهم من السِّريانية واليونانية ، ووقعُوا في أخطاء وأوهام في فهم مقاصد المؤلفين والفلاسفة اليونانيين ، وقد مَنعهم إجلالهم لأرسطو وتقديسهم

له من أن يتناولوا أفكاره ونظرياته بالبحث والنقد ، فأخذوها على علاتها ، وعكفوا عليها دراسةً وشرحاً وإيضاحاً وبياناً ، وحوَّلوا العلوم العقلية إلى نقلية يتناقلونها ويتوارثونها .

الفَرْق بين المُعتزِلَة والفَلاسِفة:

وهنا حقيقةٌ يجب أن نُقرِّرها : أنَّ المعتزلة وإن أَفرطوا في تمجيد العقل وتحكيم الفلسفة في الدين ، واتَّجهوا بالأمة ذات النبوَّة والكتاب والتعاليم اتجاهاً كان يُبعدها عن وضعها الصحيح ، ورُوحها الحقيقية ؛ ولكن ممَّا لا شكَّ فيه ، أن طبيعةَ المعتزلة كانتْ طبيعة دينية ، وكانوا يُفكِّرون التفكيرَ الديني ، كانوا يؤمنون بالنُّبوءة والوحي ، وكانوا في حياتهم متقشِّفين زُهاداً يحترزون عن المعاصي ، ويلتزمون العبادات والأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان كل ذلك بحُكم عقائدِهم التي يدينون بها ، ورأيهم الذي يرونه ، فكانوا يرون أن مُرتكب الكبيرة مُخلَّد في النار ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةٌ ، وكانوا متحمِّسين نشيطين في خدمة الإسلام ونشرِه ، ومحاربةِ المُلحِدين ؛ فلم يكن نتيجة انتشار الاعتزال وسُلطة المعتزلة أن انتشر الكفر والإلحاد في المجتمع الإسلامي ، وفشا إنكارُ النبوءات ، وإنكارُ المعاد ، والميل إلى الإباحية والتعطُّل ؛ بل بقيَ المعتزلة ، وبقيَ الشعور الدِّيني في المسلمين حياً قوياً .

ولكنَّ الفلاسفة يختلفون في ذلك اختلافاً أساسياً ، فالفلسفة تتنافى مع النبوءة وتعارضها في خط مستقيم ، إنها تَنْحرف عن النبوَّة في النقطة الأولى ثم لا تلتقيان ، فكان طبيعياً أنه كلما ازداد الناسُ إقبالاً على الفلسفة وإجلالاً لها ، ازدادوا انصرافاً عن الدِّين واستخفافاً له ، وكلما ازداد الناس خضوعاً للفلاسفة ازدادوا استهانة بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وما من ناحية من نواحي الحياة الدينية إلا وقد تأثرتْ بهذا التحوُّل الفكري ، ووُجدت في المسلمين طبقةٌ تستهزىء بالدين وتزدريه ، وتتمجَّد بخروجها عن ربقة الدين ، وتحرُّرها من تكاليفه وعقائده في غير كتمان ، ومن غير احتشام ، ومنهم من لا يملك شجاعة

أدبية تحمله على هذا الإعلان؛ فكانوا يظهرون في المظهر الإسلامي وهم يُبطنون الكفر والإلحاد.

فِتنَةُ الباطنية:

ونَشأتْ مع الفلسفة وازدهارها فتنة جديدة كانت أضر على الإسلام وتعاليم النبوءة من الفلسفة، تلك فتنةُ الباطنية، وقد كان مُعظم دعاتها أفراداً وأمماً وشعوباً قد فقدت سيادتَها وحُكمها في تيار الفتوح الإسلامية، ولا مطمعَ في استردادها بالحروب والمقاومة المادية، أو رجالاً يدينون بالشهوات واللذات ويؤمنون بالإباحيَّة وعبادة النفس ـ والإسلام يَحُدُّ من شهواتهم ويُقيِّد حرياتهم ـ أو رجالاً يطمحون إلى السُّلطة المطلقة، والسيادة الكبيرة.

وقد اجتمعتْ هذه الأضرابُ من الناس تحت راية الباطنية والتفوا حولها؛ إذ هي الراية التي تجمعُهم وتُمنِّيهم بالوصول إلى غاياتهم.

وقد شعر هؤلاء أن الإسلام ـ وهو لا يزال قوياً ـ لا يُهزم في ميدان الحرب، وأنَّ المسلمين ـ وهم أصحاب عاطفة دينية قوية ـ لا تَصحُّ دعوتهم إلى الإلحاد السافر، والكُفر البواح؛ فإن هذا يُشعلُ عاطفتهم الدينية ويُلهبُ غيرتَهم ويُثير فيهم روحَ المقاومة؛ فتضيع الفُرصة ويُفلت الزمام؛ ولذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يُزعج المسلمين ولا يُثيرهم، إنهم اتَّخذوا للوصول إلى غايتهم نفقاً.

الفَرقُ بَينَ الظَّاهر والباطن:

إنَّهم لاحظوا أنَّ أصول الديانة الإسلامية وعقائدَها وأحكامها ومسائلها، إنما عُرضت في إطار ألفاظٍ وكلماتٍ تدل عليها وتُعبِّر عنها، وكان لا بد من ذلك عند كل رسالة جديدة، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقد تعيَّنتْ معاني هذه الكلمات ومفاهيمها؛ وتواتر ذلك عملياً ولفظياً في الأمة واستفاض، وعرفتهُ الأمة الإسلامية ودانت به.

فكلٌّ من كلمات «النبوَّة» و«الرسالة» و«الملائكة» و«المعاد» و«الجنَّة» و«النار » و«الشريعة» و«الفرض» و«الواجب» و«الحلال» و«الحرام» و«الصلاة» و«الزكاة» و«الصوم» و«الحج» يُؤدي معنى خاصاً؛ وتُفهم منها مفاهيم خاصة لا يشكُّ فيها مسلم ، ولا يختلفُ فيها اثنان.

وكما أنَّ هذه الحقائق الدينية ـ التي تُعبِّر عنها هذه الكلمات ـ ظلَّتْ محفوظة في الأمة تتوارثها الأجيال ، وتنتقل مع الزمان ، كذلك هذه الكلمات ثروةً محفوظة لم تعبث بها يد التحريف ، وقد أصبح كل منها لازماً وملزوماً لصاحبه.

فإذا أُطلقت كلمةُ «الصلاة» مثلاً انتقل الذهن إلى هيئة عبادة خاصة ، فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم إلى غير ذلك مما يَدخلُ في أركان الصلاة وأجزائها وأوضاعها ، وكذلك إذا أطلقت كلمة «النبوَّة» أو «المعاد» تعيَّن منهما ذلك المفهوم الإسلامي الذي يفهمه المسلمون ويدينون به.

ولقد أدرَكَ «الباطنيةُ» بذكائهم ، أن هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها ، أساسٌ تقوم عليه الحياة الإسلامية ، والهيكل الفكري والعملي في حياة المسلمين ، ولهذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التي يمتاز بها المسلمون.

وعن طريق هذه الصلة يتَّصل المسلمون بماضيهم وبمنابعهم الصافية ، فإذا انقطعتْ هذه الصلة ـ بين الكلمات والمعاني ـ وأصبحتِ الكلمات لا تدلُّ على معنىً خاصٍ ومفهوم معين ، أو تَسرَّب الشك والاختلاف إليها ، أصبحتْ هذه الأمة فريسةً لكل دعوة وفلسفة ، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء ، ويُروِّج على كثير من العامة وأشباه العامة؛ بل الخاصة ، وعمت الفوضى العقلية والدينية ، وذلك ما يريدون ، ومنه يدخلون.

قالوا: «إنَّ لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللُّبِّ من القِشر ، وإنها بصُورتها تُوهِمُ الجهّال صوراً جَليَّـة ، وهي عند العقلاء

رموزٌ وإشارات إلى حقائق خفية؛ وإن من تَقاعدَ عقلُه عن الغوص عن الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار؛ وقنَع بظواهرها، كانَ تحت الأغلال التي هي تكليفاتُ الشرع، ومن ارتقى إلى عالم الباطن سقطَ عنه التكليف، واستراح من أعبائِه، قالوا: وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] [الأعراف: ١٥٧].

ولمَّا تَقرَّرَ أنَّ لكل لفظ ومعنى شرعي ظاهراً وباطناً ـ والباطن هو اللُّب ـ استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم، وأطلقوا العنان، وفسَّروا هذه الكلمات والحقائق بما شاؤوا وشاءَ لهم عبَثُهم وثِـقتهم بتقليد المستمعين وبساطتهم، وهنا أمثلةٌ طريفةٌ لهذا التفسيرالتقطناها من كتاب (قواعد عقائد آل محمد)، لمحمد بن الحسن الدَّيلميِّ اليماني، من علماء أوائل القرن الثامن الهجري، وهو ثِقةٌ مأمون في النقل.

«يقولون للشرائع باطنٌ لا يعرفه إلا الإمامُ، ومن ينَوبُ منابه، وكذلك كلُّ ما وَرد في الحشر والنشر وغيرها، فكلُّها أمثلة ورموز إلى بواطن، فمعنى الغُسل: تجديدُ العهد عليه، ومعنى الجِماع: مكالمة من لاعهد له بالباطن... والزِّنى: إلقاء العلم في سمع من لم يعاهده. والاحتلام: سبق اللسان لمذهب الباطن. والطَّهور: التبرؤ من كلِّ مذهب خالف الباطنية. والتيمم: الأخذ للعلم من المأذون. والصلاة: الدعاء إلى الإمام. والزكاة: بَثُّ العلوم لمن يتزكى لها ويستحقها. والصوم: كتمان العلم عن أهل الظاهر، وكذلك كتمان المذهب. والحج: طلب العلم الذي تُشد رحائل العقل إليه. وقيل: الكعبة: النبي، والباب: علي. والصفا: النبي. والمروَة: علي. والميقات: علي. والتلبية: إجابة الداعي إلى باطنهم. والطوافُ بالبيت سبعاً: هو الطواف لمحمد إلى تمام الأئمة السبعة. وصلاة الفجر دليلٌ على السابق. والظهر على التالي.

(١) تلبيس إبليس: لابن الجوزي، ص١٠٢.

والعصر على الأساس، وهو الوصي. والمغرب على الناطق. والعشاء على الإمام»[١].

وفي المعجزات قالوا: الطوفان: هو العِلم غرِق فيه أهل الشبه والظاهر، والسفينة: حِرزه الذي تحصَّن به المستجيب. ونار إبراهيم: غضب نمرودَ عليه. وذبح إسحاق: أخذُ العهد عليه. وعصا موسَى: حجته التي غلب بها عند المناظرة، وليست بخشبة. وانفلاقُ البحر: هو افتراق عِلم موسَى على أقسام، والبحر: هو العالم. والغمام الذي أظلهم: إمامٌ نَصبه موسى. والجراد والقمل والضفادع والدم: هو التزاماتُ موسَى واحتجاجاته. والمن والسلوى: علم نزل من السماء بداع من دعاتهم[٢].

ولعلَّ بعض القراء الكرام يشكُّون في صحة هذه الأقوال، وكيف تصدر من عاقل؟! ويتطرَّقُ الشَّك إلى ناقلها لكونه من أهل السنة، فهنا نُقولٌ من كتاب (ديانتنا الإسماعيلية ونظامها) للدكتور زاهد علي، ظهر حديثاً في الهند، مع ذكر مصادرها وهي كتب أئمة الإسماعيلية ودعاتها:

«لا إله إلا الله، تأويله: لا إمام إلا إمامُ الزمان[٣]. الوضوء: مولانا علي، بحُجَّة أن الحروف في كلتا الكلمتين ثلاثة[٤]. الصلاة: الرسول ﷺ، بحجة أنَّ الحروف في كلتا الكلمتين أربعة[٥]. لا صلاة إلا بوضوء: يعني لا يصِحُّ الإيمان بالرسول بغير الإيمان بوصاية علي[٦]. ركعات الظهر الأربع: محمد عليه الصلاة والسلام[٧]. ركعات العصر الأربع: دعوة مولانا

(١) قواعد عقائد آل محمد: ص ١٧. وقد ذكر مثلها الغزالي في «المستظهري».
(٢) المصدر السابق: ص ١٨.
(٣) تأويل الشريعة من كلام الإمام مولانا المعز: ص ٤.
(٤) تأويل القاضي نعمان.
(٥) المصدر السابق.
(٦) تأويل القاضي نعمان.
(٧) تأويل مولانا المعز.

علي[١] ، عيد الفطر: مولانا المهدي؛ لأنَّه ظهرتْ منه دعوةُ الحق[٢].

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾: مولانا حسن بن علي؛ لأن الله رقَّاه إلى درجة الإمامة، ثم أهبطه؛ فقد قطع من ذُريته الإمامة[٣]. ﴿ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾: مولانا الحسين، وحُجَّته ابنه الذي خَلفه[٤].

ولم يقتصرْ دعاة الباطنية على التمييز بين الظاهر والباطن، وتفضيل الباطن؛ بل تدرَّجوا في استخفافٍ بالظاهر حتى جعلوه موضع سُخرية واستهزاء، يتقذَّره الإنسان ويتبرَّأ منه.

يقول الدكتور زاهد علي: «لقد كان الأئمة والدُّعاة يُفهِمون تلاميذَهم في الطبقة العليا أن الظاهر متناقض ومعوجٌ، وأن أهل الظاهر هم أهل الكفر؛ بل أهل الشرك»[٥].

ويقولُ في موضع آخر: «إن لُبَّ تعليماتنا الإسماعيلية ولبابها، أنَّ الغاية من الشريعة التأويلُ الذي هو من الجسد كالروح، وأن التنزيل ليس إلا جسماً»[٦].

وتقدَّموا خطوةً أخرى، فأعلنوا عقيدتهم أن الأئمة الذين هم أهل الأسرار والحقائق يُعطلون ظاهر الشريعة وينسخونه، يقول سيدنا (إدريس): «بعث الله محمد بن إسماعيل (ابن الإمام محمد باقر) وهو نبيٌّ ناطق، نسخ شريعة محمد ﷺ»[٧].

---

(١) تأويل مولانا المعز.
(٢) تأويل الدعائم.
(٣) المصدر السابق: ذكر ليلة القدر.
(٤) المصدر السابق.
(٥) ديانتنا الإسماعيلية ونظامها: ص ت.
(٦) المصدر السابق: ص ٢٢.
(٧) عاصمة نفوس المهتدين وقاصمة ظهور المعتدين: لسيدنا.

ثورةٌ على النُّبوءة المحمَّديَّة:

لقد كان إنكار المفاهيم الدينية التي تَوارثتها الأمة ، وتفسيرُ الكلمات الشرعية والمصطلحات الدينية حسب الأغراض والأهواء ، والفصل بين الظاهر والباطن ، باباً لم يزَل يدخل منه الثائرون على النبوَّة المحمدية ، والمؤامرات ضدَّ الإسلام.

لقد نصبوها ألغاماً ينسفون بها هذا النبأ العظيم الذي أقامه محمد ﷺ وخلفاؤه ، والذي لا يزال يُؤوي هذه الأمة العظيمة في مشارق الأرض ومغاربها، ويؤسسون على أنقاضه هيكلاً دينياً جديداً. لقد كان ذلك كله محاولةً لإنشاء دولةٍ مستقلة في ضِمن دولة الشريعة الإسلامية ، وإنشاءِ مجتمع مستقل في وسط المجتمع الإسلامي ، ولا شكَّ أنَّ دولةً من الدول لا تسمح بنشوء هذه الدولة واستفحالها في وسطها.

وقد رأينا المنافقين والمُلحدين الذين ثاروا على هذه النبوة المحمدية في زمانهم أسرعوا إلى إنكار هذا التواتر المعنوي ، والتوارث اللفظي ، وحاولوا أن يَجعلوا هذه الشريعة ومصطلحاتها ومفاهيمها بحيث يعبثُ بها العابثون؛ وبذلك مهَّدوا لأنفسهم قيامَ سيادة دينية ونبوة جديدة يتمتعون في ظِلِّها بسلطانٍ روحي ، وسَيطرة سياسية ، وحُرية مادية. ومن أوضح أمثلتها: «البهائية» في إيران ، و«القاديانيةُ» في الهند [١]. وكلها تلتقي إلى إنكار التوارث المعنوي ، وتأويل الكلمات الشرعية الإسلامية المتواترة ـ تأويلاً لا يقوم على اللغة ، والقياس ، والمنطق ـ والاتجاه إلى إنكار الحقائق الغيبية ، والخرق للسنن الطبيعية ، وتلتقي أولاً وآخِراً على إنكار عقيدة ختم النبوَّة.

وقد كانت الباطنيةُ مؤسسةً على الفلسفة اللاهوتية اليونانية ، وعلى

---

(١) اقرأ في هذا الموضوع كتاب المؤلف «القادياني والقاديانية دراسة وتحليل». [وقد طُبع مع مقالات الشيخ أبي الأعلى المودودي والأستاذ إحسان إلهي ظهير ، في دار ابن كثير بدمشق بعنوان: «القادياني والقاديانية دراسة وتحليل وعرض علمي»].

الطبيعيات ، وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها وعقائدها في أدبهم وشرح عقيدتهم بسخاء وحرية ، وطَبّقوا الفلسفة ولغتها وتفكيرها على ديانتهم الجديدة ، ونظامِ عقائدهم وأفكارهم .

ولعلَّهم كانوا يعتقدون أنَّ هذه الفلسفة ، وما جاء فيها من عقائد وأفكار ، حقائقُ علمية ثابتةٌ ، لا تتزعزع ولا تقبل النقاش ، وأنها تَظلُّ كذلك ؛ فأرادوا أن يُضفوا بذلك على عقائدهم الواهية شيئاً كثيراً من قدسية العلم ورَوْعَتِه ، وأن يجذبوا إليها كثيراً من النشء الجديد الذي أغشاه ضوء الفلسفة وخلَع قلبه مصطلحاتُهَا المفخمة ، وتشقيقاتُها الدقيقة ، وقد انتقد ذلك العالم الإسماعيلي الدكتور زاهد علي في كتابه (ديانتنا الإسماعيلية ونظامها) يقول : «لقد اعتقدنا أنَّ جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم ، وفي علم الطبيعيات ، وعلم الإلهيات ، صحيحةٌ لا يتطرَّق إليها الشكُّ ، فاستعنا بها في إثبات دعوتنا الإسماعيلية ونظامِها وحدودها ، وادَّعينا أنَّ المسائل التي قدَّمناها حقائقُ علمية» [١] .

ويقول في موضع آخر :

«لقد تناولنا معارف المعتزلة بشيء من التغيير ، وأفرغناها في قالبنا ؛ ولذلك يقال : إن أكثر معلومات الإسماعيلية ملتقطة من المعتزلة والفلاسفة» [٢] .

ويقول في موضع آخر :

«لقد وضعنا العقلَ الأول أو العقل العاشر أو إمام الزمان (كما نسميه نحن) بكل ما يوصف به المبدأ الأول والذاتُ الإلهية ، حتى إننا نعني العقل الأول أو إمام الزمان بكل ما جاء في وصف الله تعالى في قوله : ﴿ الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

---

(١) ديانتنا الإسماعيلية ونظامها : ص ٢٣ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٥ .

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢] وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] إلى آخر الآيات [١].

ولا شكَّ أنَّ الباطنية تبنَّوا الفلسفة؛ فكان طبيعياً أن يكون أكثر اعتمادهم على المشتغلين بالفلسفة وأنصارها، وكان طبيعياً أن يتتبعوهم ويلاحقوهم، يظهر ذلك في نفس كتابات دعاة الإسماعيلية القدماء ورسائلهم ووصاياهم؛ فقد بعث عبد الله بن الحسن القَيْرواني ـ أحد دعاة الإسماعيلية ـ رسالة إلى أبي الحسن بن سعيد الجنابي، زعيم القرامطة، يقول فيها: «ادعُ الناسَ بأن تقترب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كلَّ واحد منهم بأنك منهم، فمن أنسْتَ منهم رشداً فاكشف له الغطاء، وإذا ظَفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة مُعوَّلنا» [٢].

وقد لاحظ ذلك المستشرقُ (دوزي) فقال عن مؤسِّس الدعوة الإسماعيلية، وهو عبد الله بن ميمون القَدَّاح:

«ولم يبحث ابنُ ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشِّيعة الخُلَّص؛ ولكن بين الوثنية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية، ولم يكن يعتمدُ إلا على الطائفة الأخيرة، وإليهم وحدَهم استطاع أن يُفضي بسره وخَفيِّ عقيدته، وهو: أنَّ الأئمة والأديان والأخلاق ليستْ إلا ضلالاً وسخرية، وأن باقي البشر ـ أو الحُمُر كما يسمِّيهم ـ ليسوا أهلاً لفهم هذه المبادىء؛ غير أنه، تحقيقاً لغايته، لم يَعفَّ عن مؤازرتهم؛ بل كان يلتمسُها، ويحذر في نفس الوقت من أن يَحشُد الأنفس المخلصة الطائعة إلا في المرتبة الأولى لدعوته» [٣].

وقد ساعَدَ الباطنيةَ انتشارُ الفلسفة، والاضطرابُ الفكري الذي كان يسود المجتمع الإسلامي بصراع الفلسفة وعلم الكلام الذي أدَّى إلى التقعُّر وتشقيق

---

(١) ديانتنا الإسماعيلية ونظامها: ص ٢٦.
(٢) الفرق بين الفرق: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٣) إخوان الصفا: تأليف الأستاذ عمر الدسوقي، ص ٢٥.

الشَّعرة ، وقد ألفته الأذهان ، وأُولع به الشبان ، ووُجد في المتعلِّمين وأنصاف المتعلِّمين وَلعٌ بالعلوم الغامضة ، وبما يشبه العلوم الغامضة والحقائق البعيدة الغَور؛ فنفقتْ سُوقُ الباطنية وهَبَّت ريحهم ونَمت تجارتهم ، واجتمع حولهم أناس بدوافع مختلفة وأغراض شتَّى.

منهم من دفعه إليهم أخذُ الثأر من الذين كانوا سبباً في ذهاب دولتهم وملكهم.

ومنهم من دفعه بُغض الدولة العباسية القائمة ، وما يُعانونه من ظُلمٍ وحيفٍ في ظلها ، والباطنية هم الذين يعملون ضدَّها وينتصبون لها.

ومنهم من دفعته الرغبة في الأسرار والغوامض ، ومنهم من دفعه إليهم ردُّ فعل ضدَّ الظاهرية السائدة ، والتمسُّك بالقشور والإلحاح عليهما إلحاحاً زائداً ، وإنكار كل ما زاد عليها.

وكثيرٌ منهم اندفع وراء إشباع الرغبات والتهام اللذات التي يُمكِّن منها الباطنية ولا يُمكِّن منها غيرُهم.

وكثيرٌ منهم من دفعه الغضب لأهل البيت والتَّشيعُ لهم ، وكانت الباطنية تنشر دعوتَها باسمهم وتدعو إليهم.

ومهما اختلفت الدوافع والأغراض فقد كسبتِ الباطنية شيَعاً وأنصاراً، وأصبحتْ مؤسسة سِريَّة يُرهَبُ جانبها وتُخشى غائلتها ، حتى أصبحت في زمنٍ قريب قوة تحسب لها الحكومات الإسلامية الكبيرة الحسابَ الكبير ، وظلَّت منها مدةً طويلةً في تَعب عظيمٍ وعناء كبير ، وأضحى كثيرٌ من رجالاتها ووزراء الحكومات صرعى الإرهاب ، واغتيلت نفوسٌ كان غناؤها للإسلام عظيماً ، كنظام المُلك الطوسي ، وفخر المُلك؛ حتى أتى على المسلمين حينٌ من الدهر، ولا يَعرفُ العالم منهم أو الوزير أو القائد، إذا نام في الليل ، هل يُصبح سالماً أو يكون فريسةَ أحد الإرهابيين ؟!.

قال ابن الجوزي: «واستفحلَ أمرهم بأصبهان ، وآل الأمر إلى أنهم كانوا

يسرقون الإنسان ويقتلونه ويُلقونه في البئر، وكان الإنسان إذا دنا وقتُ العصر ولم يعد إلى منزله ، أَيِسوا منه» (١).

هذا عدا ما دسُّوا في العلم والأدب ، وعدا ما تأثَّرت بهم العقول والنفوس؛ حتى تجاسَر الناس على تأويل النُّصوص والقطعيات، وتحريفِ الأصول والمحكمات ، ووُجد في الناس إقبال غريبٌ على الإلحاد والتطرف في الاعتقاد.

إخـوانُ الصَّفَا:

وقد قَامتْ في العراق في القرن الرابع الهجري ـ وهو قرنٌ قد بلغ فيه الاضطراب الفكري والاضطراب السياسي أوجَهما ـ جماعةٌ سرِّية كالمَاسونية ، تجمع مزيجاً من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية ، تَتسمَّى بإخوان الصَّفاء ، وكان أصحابُها متأثِّرين بالأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الحديثة ، وكانوا يُريدون أن يَضعوا للناس مذهباً جديداً يجمع بين إلهيات اليونان ، ونظرياتِ أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم ، وبينَ العبادات الشرعية الإسلامية ، والطهارة والمروءة والأخلاق الثابتة في كل دين وأمة، وعقيدة الشيعة الإسماعيلية ، ويخرجوا على الناس بخليط فيه حِكمة اليونان وتنظيم الأديان.

يَصفهم أبو حيَّان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» فيقول:

«وكانت هذه العصابةُ قد تألَّفت بالعُشرة ، وتصافت بالصَّداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة؛ فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله؛ وذلك أنَّهم قالوا إنَّ الشريعة قد دُنِّست بالجهالات ، واختلطتْ بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاويةٌ للحكمة الاعتقادية ، والمصلحةِ الاجتهادية ، وزعموا أنَّه متى انتظمتِ الفلسفة اليونانيةُ والشريعة العربيةُ ، فقد حصل الكمال.

---

(١) تلبيس إبليس: ص ١١٠.

وصنَّفوا خمسين رسالة [١] في جميع أجزاء الفلسفة عِلْمِيّها وعَمَليِّها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها «رسائل إخوان الصفا» ، وكتموا فيها أسماءهم ، وبثُّوها في الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشَوْا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطُّرق المُوهِمة» .

وهذه الرسائلُ تشتمل على الطبيعيات والرياضيات والإلهيات والعقليات ، ويعوزُها التَّعمق والنظام ، ويظهرُ فيها الإغراق في الخيال ، والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فَحْص وانتقاد ، والبحث في كل علم من غير إشباع وإقناع .

وقد لاحظ ذلك أبو حيَّان فقال : «مبثوثةٌ من كل فنٍّ بلا إشباع ولا كفاية ، ينكرون فيها البعث بالأجساد [٢] ، ويُفسرون الآخرة والجنة والنار خلافاً لما تواتر عند المسلمين وفُهِم من النصوص الدينية القطعية [٣] ، ويُنكرون الشياطينَ على الصورة التي يَفهمها معظم المسلمين ، ويقولون : هي النفوس الشِّريرة الهائمةُ فيما دون فَلَك القمر مع أخواتها من النفوس التي جَهلت ذواتَها في الدنيا» [٤] . ويُفسِّرون الكفرَ [٥] والعذابَ [٦] تفسيراً باطنياً فلسفياً .

وتشتملُ على كثير من الآراء الخيالية ، وبعضها متلقَّف من اليونان ، وبعضها وليدُ الأذهان ، وبعضها تراث الكهان ، كأسرار الأعداد [٧] والتنجيم ، والفالِ ، والزَّجْر [٨] ، والسِّحر ، والعزائمِ [٩] ، والإيمان بطوالعِ

---

(١) الصحيح أنها إحدى وخمسون رسالة .

(٢) رسائل إخوان الصفا : ج٤ ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٣) انظر : رسائل إخوان الصفا : ج٣ ص٧٨ وج٤ ص٤٠ .

(٤) رسائل إخوان الصفا : ج٤ ، ص٢٦ .

(٥) المصدر السابق : ج٣ ، ص٧٦ .

(٦) المصدر السابق : ص٧٦ .

(٧) المصدر السابق : ص٢٧ ـ ٢٨ .

(٨) المصدر السابق : ص١٠٦ .

(٩) المصدر السابق : ص٣٢٠ .

النجوم وتأثيرها [١]، وموسيقا الأفلاك ونغماتها وألحانها [٢]، وتشتملُ كذلك على عقيدة الوحي [٣]، والإمامِ المستور [٤]، والتقية[٥].

وفيها إعداد النفوس والعقول لدولة جديدة، تقوم على إمامة أهل البيت، وإخطار بانتهاء أمد الدولة العباسية وزوالها، وقد جاء فيها ما يلي: «وقد ترون أيها الإخوان ـ أيّدكم الله وإيانا بروح منه ـ أنه قد تناهت قُوة أهل الشَّر، وكثُرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التَّناهي في الزيادة إلا الانحطاط والنُّقصان، واعلم أنَّ المُلك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان، ودَور وقران من أمة إلى أمة، ومن أهل بيتٍ إلى أهل بيتٍ، ومن أهل بلدٍ إلى أهل بلدٍ» [٦].

وبالاختصار: إنَّ رسائل إخوانِ الصفا مجموعةٌ غريبةٌ من الحكمة والديانة والشَّعوَذةِ والكَهانة والسياسة، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلهية، ونظرياتها وأوهامها، وتنهار بانهيارها، وليست لها أهميةٌ كبيرة. ولولا الاضطراب الفكري الذي يسود في القرن الرابع والخامس، وإجلالُ كل ما يظهر في الصبغة الفلسفية، لمَا نالتْ هذا الاهتمامَ، ولما استحقتْ أن يتناقلها المعتزلة ومن جرى مجراهم، يتدارسونها ويحملونها معهم سيراً إلى بلاد الإسلام [٧].

وكانتْ هذه الرسائلُ محاولةً لوضع نظام جديد: خُلقي، إلهي، علمي، يحلُّ محل الشريعة الإسلامية التي كان يعتقد «إخوان الصفا» أنها ـ بشكلها

---

(١) رسائل إخوان الصفا: ص٩٥.
(٢) المصدر السابق: ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٣) المصدر السابق: ص٤٠٤.
(٤) المصدر السابق: ص٨٦ ج٤، ص٥٧.
(٥) المصدر السابق: ص٣٠٨.
(٦) المصدر السابق: ص٢٣٤ [illegible]
(٧) [illegible] الإسلام: للطفي [illegible]، ص٢٥٤.

الحاضر ـ قد أصبحتْ عتيقة لا تُؤدِّي رسالتها.

وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً؛ فلم تُنتج نظاماً علمياً، ولم تُنْشِىء مجتمعاً يقوم على أساس، وأصبحت في مدة قريبة من الآثار التاريخية العتيقة التي لا تأثير لها في الحياة، ولا محل لها إلا في المتاحف والمكتبات.

ويبدو لي كلَّما قرأتُ تاريخ الباطنية وإخوان الصفا، وتاريخ البهائية والقاديانية، أنَّ أصحابها قرؤوا تاريخَ الإسلام، وتاريخَ الرسالة المحمدية والدعوة الإسلامية؛ فرأوا رجلاً يقوم في جزيرة العرب وحيداً فقيراً أعزل، ويدعو إلى عقيدة وشريعة، فلا يلبثُ أن يكوِّن أمةً، ويُكوِّن دولةً، ويُكوِّن حضارةً، ويُرغم التاريخ على أن يَنحو نحواً جديداً؛ فغرَّت هؤلاء نفوسُهم الطامحة، وأغرتهم بأن يجربوا هذه التجربة، وعندهم الذكاء والدهاء وقوة التنظيم والعلوم والأتباع، عسى أن يُكوِّنوا أمةً ودولةً وحضارة، ولماذا لا تثمر الجهود؟ ولماذا لا تَتكرَّر المعجزة، والفِطرة البشرية لا تزال هي الفطرة، ولا يزال الناس أشباهاً؟!.

لقد رأى هؤلاء الطامحون هذا الرجلَ الوحيدَ الفقير الأعزل، ولم يروا ما يَعتز به من رسالة ونبوءة وشخصية وسيرة، ولم يروا تلك الإرادة الإلهية الغلاَّبة التي قضتْ بانتصاره وظُهوره وخلوده: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقد أثمرتْ جهودُهم مُؤقتاً، فكان لهم أتباعٌ وأشياع، وقد استطاع بعضُهم ـ كالباطنية ـ أن يُقيم دولة، وقد ازدهرتْ هذه الدولة، وبقيتْ ـ ما بقيت ـ تنظيماتُهم وحِيلهم واستدراجاتهم، وما لبث أن تبخَّرتْ وتلاشتْ، وبقيت دياناتُهم في نطاق ضيق لا تقدِّم ولا تؤخِّر في العالم.

أمَّا الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، فلا يزالُ القوة الروحية الكبرى، ولا يزال صاحبَ أمة ودُول وحضارة، وأما شمس النبوة المحمدية فلا تزال مُشرقة لم تنكَسِفْ، ولم تحتجبْ يوماً واحداً.

الحَاجةُ إلى شَخصيَّةٍ قويةٍ جَديدةٍ:

وعلى كلٍّ فقد كان العالم الإسلامي في القرن الخامس ـ وقد تواضعتْ على إضعافه الفلسفةُ والباطنية ، وأحدثتا تبلبُلاً فكرياً ، يَجرُّه إلى الإلحاد في العقيدة ، والتدهور في الأخلاق ، والاضطراب في السياسة ـ في حاجة مُلِحَّة إلى شخصيةٍ قوية جديدة تردُّ إليه الإيمان بالعقيدة ، والاعتمادَ على مصادر الدين الأصلية ، والاستقامة في الأخلاق ، ويُنتج الإنتاجَ الجديد الذي تكسُد معه سوق الباطنية ، وتركُد ريحها ، وتعرض الإسلام عرضاً عقلياً جميلاً تَدْحض معه حُجج الفلاسفة والباطنية ، وكان لا بد لهذه الشخصية أن تكون جَامعة بين العلوم العقلية والنقلية ، لها في كل منهما قدمٌ راسخة ، وباعٌ طويل ، ونظر نافذ ، وتكون عقلية كبيرة تُناهض فلاسفة اليونان ، وقادة الفكر في العالم ، تجري معهم في رهان واحد ، وتستطيعُ أن تُدوِّن كثيراً من العلوم تدويناً جديداً ، وتقول فيهما كلمتها ، وتجمعُ إلى ذلك كله من المواهب العلمية والكفاية العقلية الإيمان القويَّ الراسخَ الذي اكتسَبه هذا الرجل بدراسته وتأملاتِه ، وإخلاصِه وجهاده في سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين ، ويستطيعُ بكل ذلك أن يَنفُخ في المجتمع الإسلامي روحاً جديدة وحياة جديدة.

لقد رُزق العالمُ الإسلاميُّ ـ وهو في أشدِّ حاجةٍ وأدقِّ ساعةٍ ـ هذه الشخصيّة الفذَّة ، في منتصفِ القرن الهجري، هي شخصيةُ الغزاليِّ التي ستكون موضعَ عِدَّة فصولٍ مقبلةٍ.

* * *

حُجَّة الإسلام الغزالي

حياتُه ودراسته

حَيَاتُهُ ودِرَاسَتُهُ.

نَاقِدٌ لِلفَلْسَفَةِ ومُتَكلِّم.

مُصلِح اجتِمَاعِيٌّ.



المحاضرة الثامنة:

حجّةُ الإِسلام الغزالي
حياتُه ودِرَاستُه

نشأته ودراسته:

هو محمَّدُ بنُ محمد بنِ أحمد الطُّوسيُّ ، أبو حامد الغزالي.

وُلد في طابران؛ من ناحية طُوس [١] سنة ٤٥٠هـ ، وكان أبوه فقيراً ، صالحاً ، لا يأكل إلاَّ من كَسب يدهِ في عمل غَزْل الصُّوف ، ويَطوفُ على المُتفقِّهة ويُجالسهم ويتوفَّر على خدمتهم ، ويَجدُّ في الإحسان إليهم ، والنفَقة بما يُمكنه عليهم ، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرَّع ، وسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعلَه فقيهاً. ويحضرُ مجالس الوعظ ، فإذا طاب وقته بكى ، وسأل الله أن يرزقه ابناً؛ فاستجاب الله دعوتَه [٢].

ولمَّا حضرتْ أباه الوفاةُ ، وصَّى به وبأخيه أحمدَ إلى صديقٍ له مُتصوِّفٍ من أهل الخير ، فلما ماتَ أقبل الصُّوفيُّ على تعليمهما، إلى أن فَنِي ذلك النَّزْرُ اليسير الذي كان خلَّفه لهما أبوهما ، وتعذَّر على الصُّوفيِّ القيام بقُوتِهما ، فقال

---

(١) مقاطعة في خراسان شمالي شرقي إيران وتسمى الآن «مشهد».
(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ج٤ ، ص١٠٢.

لهما: اعلما أني قد أنفقتُ عليكما ما كان لكما، وأنا رجلٌ من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأَصلحُ ما أرى لكما أن تلْجأا إلى مدرسةٍ؛ فإنكما من طلبة العلم، فيحصلَ لكما قُوتٌ يُعينُكما على وقتكما. ففعلا ذلك[1].

قَرَأَ الغزالي في صِباه طرفاً من الفِقه ببلده على أحمد بن محمد الرَّاذكاني، ثم سافر إلى جُرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وعلَّق عنه التَّعليقةَ، ثم رجع إلى طُوس، قال: «قُطِعتْ علينا الطريقُ، وأخذ العيَّارون جميع ما معي، ومضوا، فتَبعتُهم، فالتفتَ إليَّ مُقدَّمهم، وقال: ارجع ويحك؛ وإلا هلكتَ. فقلتُ له: أسألك بالذي ترجو السّلامةَ منه أن تَرُد عليَّ تعليقَتي فقط، فما هي بشيء تنتفعونَ به.

فقال لي: وما هي تعليقتك؟

فقلت: كتبٌ في تلك المخلاة، هاجرتُ لسماعها وكتابَتها ومعرفةِ عِلْمها، فضحك وقال: كيف تدَّعي أنك عَرفتَ عِلْمها وقد أخذنَاها منك؛ فتجرَّدتَ من معرفتها، وبقيتَ بلا علم؟! ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إليَّ المخلاة. قال الغزاليُّ: هذا مستنطَقٌ أنطقه الله ليرشد به أمري، فلما وافيتُ طوس أقبلتُ على الاشتغال ثلاثَ سنين، حتى حَفظتُ جميع ما علَّقتُه، وصِرت بحيث لو قُطع علي الطريق لم أتجرَّدْ من علمي»[2].

وقَدِم الغزاليُّ نيسابور ـ وهي عاصمة السَّلجوقيين، ومدينةُ العلم بعد بغداد ـ ولازم إمام الحرمين ـ وهو من عَرفنا شخصيته وجلالته في العلم والتدريس ـ وجدَّ واجتهد حتى برَع في المذهب والخِلاف والجدل والأصول. وكانتِ العلومَ السائدةَ في عصره.

وأُعجِب بذكائه وغَوْصِهِ على المعاني الدقيقة واتساعِ معلوماته إمامُ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ج٤، ص١٠٢.

(٢) المصدر السابق: ج٤، ص١٠٢.

الحرمين؛ فكان يقول: «الغزالي بَحْر مُغدِقٌ»[(١)] وفاق أقرانَه وهم أربعمئة؛ حتى أصبح مُعيداً لأستاذه ونائباً عنه.

ولمَّا مات إمامُ الحرمين (٤٧٨هـ) خرج الغزالي إلى المعسكر قاصداً الوزيرَ نظام المُلك، وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من سِنّه، وقد ظهر فضْلُه وذاع صِيته، وكان مجلسُ الوزير مجمعَ أهل العلم وملاذَهم، وكانت المجالس حتى المآتم لا تخلو من المناظرات الفقهية والمطارحات الكلامية، فناظر الغزاليُّ الأئمةَ العلماء في مجلس نِظام المُلك، وقَهر الخصوم، وظهَر كلامُه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقَّاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولّاه تدريسَ مدرسته (النظامية) ببغداد، وكان ذلك غايةَ ما يطمحُ إليه العلماء، ويتنافسون فيه.

فقدِمَ بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعِمئة ولم يتجاوزِ الرابعة والثلاثين من عمره، وقلَّما تقلَّد هذا المنصب الرفيع عالمٌ وهو في هذه السن.

درَّسَ الغزاليُّ بالنظامية، وأَعجب الخلقَ حُسنُ كلامِه، وكمالُ فضله، وفصاحةُ لسانه، ونُكَتُه الدقيقةُ، وإشاراتُه اللطيفةُ، وأحبُّوه[(٢)].

قال معاصره عبد الغافر الفارسي: وَعَلَتْ حشمَتُه ودرجتهُ في بغداد؛ حتى كانت تغلِبُ حِشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة[(٣)]. وكان يقرأ عليه جَمٌّ غفيرٌ من الطلبة المحصِّلين. يقول في «المنقذ من الضَّلال» في وصف حالهِ والنِّظامية: «وأنا مَمْنُوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئةِ نفس من الطلبة ببغداد»[(٤)].

وأرسله الخليفةُ العباسي المقتدي بالله عام (٤٨٥ هـ) إلى زوجة ملك شاه السلجوقي «تُركان خاتُون» التي كانت مالكةً لزمام المملكة. وكان الخليفةُ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ص١٠٣.
(٢) المصدر السابق: ج٤، ص١٠٦.
(٣) المصدر السابق: ص١٠٧.
(٤) المنقذ من الضلال: مطبعة الترقي، ص٨٥.

المستظهر معجَباً به ، خاضعاً لفضله ، وباقتراحِه ألَّف الغزالي كتابه في الرد على الباطنية وسمَّاه «المُستظهري».

اعتزالُ الغزالي عن التَّدريس وخروجه في طلب السعادة واليقين:

لقد بلغتْ شُهرةُ الغزاليّ ومكانته العلميةُ في العالم الإسلامي أوجها ، ووصَل الرجُل إلى أقصى ما يصل إليه عالِم في ذلك العصر من المجدِ والسُّمو والرئاسة ، وأقبل إليه الطلبة من الآفاق ، وخَضعَ له العلماء والأمراء والوزراء ، وبقيَ في عاصمة العالم الإسلامي يُدرِّس ويُفيد ويؤلف ، وكان في ذلك ما يُرضي عالماً يحرص على الإفادة ونشر العلم ، وطَموحاً يُريد الرئاسة والمجد.

وكان المنتظرُ أن يبقى الغزالي ـ وقد انتهت إليه رئاسة العِلم في العالم الإسلامي ـ في مركزه العلميّ الذي ليس فوقه مركزٌ ، ويقضي حياته بين حلقات الطلبة التي تُحيط به ، وجموع المستمعين والقاصدين التي تُحدِق به ، وبين إعجاب الناس وثنائهم قريرَ العين ، رَخِيَّ البال ، مرفوعَ الرأس ، عظيمَ الجاه ، كما فعل كَثيرٌ من أساتذته وأكثر أقرانه وزملائه. ولكنَّ الغزاليَّ لم يفعلْ ذلك ، ولم تَسْمح له نفسُه القَلقَةُ وهِمَّته القعساء بأن يستمرَّ في ذلك.

وفي هذا القلق ، وفي هذا التمرد على ما تهيَّأ له من جاهٍ ومجْدٍ ، سِرُّ عبقريته ، وسِرُّ خلوده من بين الأقران والأعيان ، ولذلك سُميَ «حُجَّة الإسلام» وقد استطاع بقُوة إرادتِه ، وصِدْق طَلَبه ، وعُلو هِمّته ، أن يُضحِّيَ بأكبر منصب وأعظم جاهٍ يَطمحُ إليه العلماء والأذكياء في عصره ، ثم لا يناله إلا الواحد بعد الواحد في مدة طويلة ، وسَهُل عليه أن يتخلَّى عنه ويَعتزِله ، ويَنفُض يده من كل ما يملكه من مَالٍ وأثاثٍ ورياش ، وينتقلَ من دولة العلم التي كان يَحكمُ فيها وحدَه ويَسُود ، إلى الصحاري والخَلوات التي كان يعيشُ فيها عَيش الفقراء والغُرباء.

إنه مثالٌ رائعٌ في تاريخ العِلم والعقيدة تندُر نظائره في كل زمان ومكان.

وقد حكى لنا الغزاليُّ نفسُه قصةَ هذا التحوُّل العظيم، وذكرَ أسبابه ودوافعه، والصراعَ النفسي الذي ظَلَّ يُعالجه مدةً طويلة، حتى تغلَّبتْ عليه الإرادةُ الصادقة. وخرَج من بغداد في طلبِ السعادة واليقين؛ حتى ظَفر بطُلبته، ورجع سعيداً مؤمناً، يستطيع أن يُقنع غيرَه ويملأه إيماناً ويقيناً، وكلُّ ذلك في أسلوب طبيعي جميل أخاذ، وبيان سهْلٍ سلسالٍ، يُحِلُّه في المكانة الأولى مما كُتب بالعربية من «اعترافات» و«مذكرات»، وفي المكانة السامية من الأدب العربي الذي يتدفَّق بالحياة. وإلى القُراء بعضُ قِطعها بالاختصار والاقتضاب:

بَحْثٌ عَن العِلْم اليقيني:

«قد كان التعطُّشُ إلى دَرْك حقائق الأمور دَأْبي ودَيدَني من أوَّل عمري، غَريزةً وفطِرة من الله وُضعتا في جِبِلَّتي، لا باختياري وحِيلتي حتى انحلَّتْ عني رابطة التقليد، وانكسرتْ عليَّ العقائد الموروثةُ على قُرب عهد سِنِّ الصّبا؛ إذ رأيت صِبيانَ النصارى لا يكون لهم نُشوء إلا على التَّنصُّر، وصبيان اليهود لا نشوءَ لهم إلا على التَّهوُّد، وصبيان المسلمين لا نشوءَ لهم إلا على الإسلام، وسمعتُ الحديث المرويَّ عن رسول الله ﷺ حيث قال: «كلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسَانه»[1] فتحرَّك باطني إلى حقيقة الفِطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضِة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتَّمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تَلقينات، وفي تمييز الحقِّ منها عن الباطل اختلافاتٌ، فقُلتُ في نفسي أولاً: إنما مطلوبي العلمُ بحقائق الأمور؛

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات... برقم (١٣٥٨) و(١٣٥٩)، والترمذي في القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم، برقم (٢١٣٨)، وأحمد (٢/ ٤٧٣)، ومالك في الموطأ (١/ ٢٤١) برقم (٥٧١)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

فلا بـد من طلب حقيقة العلم ، ما هي؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه رَيبٌ ، ولا يُقارنه إمكان الغَلَطِ والوَهْم ، ولا يتَّسعُ القَلْبُ لتَقدير ذلك؛ بل الأمان من الخطأ يَنبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة ، لو تحدَّى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكّاً وإنكاراً.

فإنِّي إذا علمتُ أن العَشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائلٌ: لا؛ بل الثلاثة أكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقَلبها وشاهدتُ ذلك منه ، لم أشكَّ ـ بسببه ـ في معرفتي ، ولم يحصلْ لي منه إلا التَّـعَـجُّب من كيفية قدرته عليه. فأما الشَّكُّ فيما علمتُه ، فلا . . !

ثم علمتُ أنَّ كـلَّ ما لا أعلمه على هـذا الوجـه ، ولا أتيقَّـنُـه هذا النوعَ من اليقيـن؛ فهو عِلْـمٌ لا ثقـة بـه ، ولا أمـانَ معـه؛ فليس بعِلْمٍ يقينـي»[(١)] .

ويذكر الغزاليُّ بعد ذلك ،كيف فتَّش عن علومه ، فوجد نفسه عاطلةً من علم يقينيِّ موصوفٍ بهذه الصفة إلا في الحسِّيات والضروريات ، ثم تأمَّلَ في المحسـوسـات والضـروريـات ، وشكَّـك نفسَـه فيهـا؛ حتـى بَطُلـتِ الثقـة بالمحسُوسات أيضاً ، وجعل يَشكُّ فيها.

يقول: «فأعضَلَ هذا الداءُ ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السَّفْسَطةِ بحكم الحال ، لا بحكم المَنطق والمقال؛ حتى شفى اللهُ تعالى من ذلك المرض ، وعادتِ النفسِ إلى الصحة والاعتدال؛ ورجعتِ الضروريات العقليةُ مقبولةً موثوقاً بها على أَمن ويقينٍ، ولم يكن بِنظْم ودليلٍ وترتيب كلام؛ بل بنور قذَفَـهُ الله تَعالى في الصَّدْرِ»[(٢)] .

---

(١) المنقذ من الضلال: ص٦٩ ـ ٧١.
(٢) المصدر السابق: ص٧٥ ـ ٧٦.

اختبارٌ لِعِلْمِ الكَلام:

وبعد الشفاء من مَرض السَّفْسَطة والشَّكِّ في المحسوسات والضروريات، نظَر الغزالي في أصناف الطالبين حولَه ، فوجدها تَنْحَصر في أربعِ فرق ، هم:

١ ـ المتكلِّمون.

٢ ـ الباطنية.

٣ ـ الفلاسفة.

٤ ـ الصُّوفية.

وبدأ يسبر غورَها ، ويَنشد الحقَّ والشِّفاء من مَرضِه عندها ، وابتدأ بعلم الكلام فحصَّله وعقله ، وطالَع كُتب المحقِّقين منهم ، وأَحكمَ هذا العلم حتى صنَّف فيه.

قال: «فصادفتُه علماً وافياً بمقصوده ،غير وافٍ بمقصودي ، إنما مقصودُه حفظ عقيدة أهل السنة على أهل السنَّة ، وحراستُها عن تشويش أهل البدعة.

واعتمادُ المتكلِّمين على مقدِّمات تسلَّموها من خصومهم ، وكان أكثر خوضهم في استخراجِ مناقضات الخصومِ ، ومؤاخذتهم بلوازم مُسلَّماتهم» يقول: «وهذا قليلُ النفعِ في حقِّ من لا يُسلِّم سوى الضروريات شيئاً أصلاً؛ فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً»[1].

دراســةُ الفَلسفة ورأيُ الغزاليِّ فيها:

ثم أَقبَلَ على الفلسفة اليونانية التي تزعُم أنها الطريقُ الوحيد المُوصِل إلى معرفة الحق و السعادة واليقين ، وهي العلم المبنيُّ على العقل والمَنطق والاستدلال ، ورأى الغزالي بعُلوِّ هِمَّته وما فُطِر عليه من الجدِّ والصرامة ، أنه لا يسوغُ له الحكم عليها ، وَبثُّ الرأي فيها ، حتى يكتنهها ، ويُحيط

(١) المنقذ من الضلال: ص٨٢.

بمقاصدها وكُلِّياتها؛ حتى يُساوي أعلمَ الناس في هذا الموضوع ، وأن لا يعتمدَ في ذلك على ما قال عنها خصومُها والهاجمون عليها ، بل على ما دوَّنه الثقاتُ منهم ، والمدافعون عنهم.

فأقبل يَدرُس الفلسفة في جِد وإخلاص ونهم وشغفٍ ؛ حتى وصل إلى أقصى ما يصل إليه عالِمٌ يتوفَّر على دراسة الفلسفة ويتعمَّق فيها.

وكان أول عالِم ديني فعل ذلك في عصره ، ونسمعُه الآن وهو يتحدَّث عن دراسته للفلسفة :

«ثم إنِّي ابتدأتُ ـ بعد الفراغ من علم الكلام ـ بعلم الفلسفة ، وعلمتُ ـ يقيناً ـ أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقفُ على مُنتهى ذلك العلم؛ حتى يُساوي أعلمَهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيدَ عليه ويُجاوزَ درجته ؛ فيطلعَ على ما لم يَطَّلعْ عليه صاحبُ العلم من غَور وغائلة ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يَدَّعيه من فسادِه حقاً ، ولم أر أحداً من عُلماء الإسلام صرَف عنايته وهِمَّته إلى ذلك».

«ولم يكن في كُتب (المتكلِّمين) من كلامهم ـ حيثُ اشتغلوا بالرَّد عليهم ـ إلا كلماتٌ مُعقَّدة مبدَّدةٌ ظاهرةُ التناقض والفساد ، لا يُظن الاغترار بها بعاقل عاميٍّ ، فضلاً عمن يدَّعي دقائق العلوم ، فعلمتُ أن ردَّ المذهب قبل فهمِه والاطلاع على كُنهه ردٌّ في عَماية ، فشمَّرتُ عن ساق الجِدّ في تحصيل ذَلك العِلْم من الكتُب بمجرَّد المطالعة من غير استعانة بأستاذ. وأقبلتُ على ذلك في أوقات فراغي من التَّصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا مَمْنُـوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئة نفسٍ من الطلبة ببغداد؛ فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلَسة على منتَهى علومهم في أقلِّ من سنتين ، ثم لم أزل أواظبُ على التفكر فيه ، بعد فهمه ، قريباً من سنة ، أعاوده وأردده وأتفقد غوائلَه وأغواره» [١].

(١) المنقذ من الضلال: ص ٨٤ ـ ٨٥.

وبعد هذه الدراسة الشاملة العميقة التي أخلص فيها كلَّ الإخلاص ، وجدَّ فيها كلَّ الجد ، يئس الغزالي من الفلسفة أيضاً ، ولكنه لم يستعجل ولم يسرع في إبداء رأيه شأن كثير من علماء الدين في عصره وفي غير عصره ، ولم يظلمِ الفلسفة ، ولم يشملها باللعن والتكفير ، شأنَ كثير من الفقهاء ورجال الفتوى؛ بل تناولها بالتحليل والتقسيم ، وذكر أصناف الفلاسفة وأقسامهم ، وذكر ما لهم وما عليهم ، وما يمسُّ الدِّين من آرائهم وبحوثهم ويتصلُّ به ، وما لا يمسه ولا يتصل به ، وما يَستحِقُّون به التكفير. وما ليس من الدين في قليل ولا كثير.

وهو أولُ عالمٍ دينيٍّ يقومُ بهذا التحليل العلمي ، ويَتَثبَّت هذا التَّثَبُّتَ ، ويعرف تاريخ الفلسفة ، ويعرف طبقات رجالها ومُدونيها.

وأوّلُ عالم ديني يُنصف علومهم التجريبية النافعة ، ويعترف بصحة بعضها وإفادة هذه العلوم.

يقسِّم علومهم إلى ستة أقسام: (١) رياضية (٢) منطقية (٣) طبيعية (٤) إلهية (٥) سياسية (٦) وخُلقية.

ويقول عن الرياضية:

«وأمَّا الرِّياضية ، فتتعلَّق بِعلم الحساب والهندسة وعلم هَيئة العالم ، وليس يتعلَّق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً؛ بل هي أمور بُرهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمِها ومعرفتها» [١].

وهذا رأيٌ متوازنٌ يَدلُّ على سلامة التفكير وسعة الأفق ، ويزيد في قيمة كل ما يقول هذا الرجل في نَقد الفلسفة ، ولكن الغزالي لا يقتصرُ على الاعتراف بصحَّة العلوم الرياضية؛ بل يذكر ما تولَّد منها من الآفات ـ من غير قصد ـ يُرى تأثيرُها في المجتمع الإسلامي المعاصر.

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٠.

يقول ـ وهو يذكر الآفة الأولى ـ: «الأولى من ينظر فيها يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيَحسن ـ بسبب ذلك ـ اعتقادُه في الفلاسفة؛ فيحسَب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم، ثم يكون قد سَمع كفرهم وتعطيلهم وتهاوُنهم بالشرع ما تَداولَتْهُ الألسنة؛ فَيَكْفُر بالتقليد المحض». ويقول: «لو كان الدين حقاً؛ لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم؛ فإذا عرف بالتسامع كُفرَهم وجَحدهم؛ فيستدلُّ على أن الحق هو الجَحْد والإنكار للدين»[1].

وكأنه يُصَوِّر ـ وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية وردَّ فعلها في كثير من ضعاف العقول والمتكايسين في عصره ـ عقلية النشء الجديد، وكثير من المتعلِّمين في القرن العشرين، الذين خَضعوا لبراعة الأوربيين في العلوم الطبيعية والاختراعات، ورأوا ما هم عليه من إلحاد وزندقة وتفسُّخ خُلُقي؛ فظنوا أنه الطريق الأقوم، وقلَّدوهم فيه.

اسمعوه يقول ـ وكأنه في هذا العصر، ويتحدَّث عن هذا الطراز ـ: «وكم رأيتُ من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستَند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة؛ فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطِّب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو؛ بل لكل صناعةٍ أهلٌ بلغوا فيها رُتبة البراعة والسَّبق، وإن كان الحُمق والجهل قد يلزمُهم في غيرها.

فكلام الأوائل في الرياضيات بُرهانيٌّ، وفي الإلهيات تخمينيٌّ، لا يعرف ذلك إلا من جرَّبه وخاض فيه؛ فهَذا ـ إذا قُرر على هذا الذي اتخذ بالتقليد ـ لم يَقعْ منه موقع القبول؛ بل تَحمِلُه غَلَبَةُ الهوى، وشهوة البطالة، وحُبُّ التكايس، على أن يُصرَّ على تحسين الظن بهم في العلومِ كُلِّها»[2].

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٠ ـ ٩١.
(٢) المصدر السابق: ص ٩١.

وبعدما ذكر الرياضيات تكلَّم عن المنطقيات فيقول:

«لا يتعلَّقُ شيءٌ منها بالدين نفياً وإثباتاً؛ بل هو النظر في طُرق الأداة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان، وكيفية تركيبها، وشروطِ الحَد الصحيح، وكيفيةِ ترتيبه، وأن العلم إما تصوُّرٌ، وسبيلُ معرِفته الحدُّ، وإما تصديقٌ، وسبيل معرفتِه البُرهان، وليس في هذا ما ينبغي أن يُنكَر؛ بل هو جنس ما ذكره المتكلمون وأهلُ النَّظر في الأدلة «وإنما يُفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتَّشعيبات» [١].

وهكذا يقول عن علم الطَّبيعيات، فبعدما يَشرحُه يقول:

وكما ليس من شرط الدِّين إنكارُ عِلم الطب؛ فليس من شرطه أيضاً إنكَار ذلك العلم إلا في مسائل معينة، ذكرناهَا في كتاب «تهافت الفلاسفة». ويقول:

«أمَّا السياسات، فجميعُ كلامهم فيها يَرجع إلى الحِكم المصلحيَّة المتعلقة بالأمور الدنيوية، والإيالة السُّلطانية، وإنما أخذوها من كُتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحِكَم المأثورة عن سَلَف الأنبياء» [٢].

ويقول: «أمَّا الخُلُقية، فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها، وكيفيةِ معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية، ولقد كان في عصرهم؛ بل كان في كلِّ عصرٍ جماعةٌ من المتألِّهين» [٣].

وبعدما ذكر هذه العلوم التي لا تتصادم مع الدين الإسلامي إلا في النادر ذكر الغزالي العلمَ الذي تركَّز فيه الصراع بين الإسلام والفلسفة، وهو علم الإلهيات. يقول:

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٩.
(٣) المصدر السابق: ص ١٠٠.

«وأمَّا الإلهيات ففيها أكثرُ أغاليطهم؛ فَما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق؛ ولذلك كثُر الاختلاف بينهم فيها» (١).

وبعدما نظر الغزاليُّ في جميع هذه العلوم نظرة عميقة واسعة، ودرسها دراسَة مُتخصِّص مُتوسِّع، يَئسَ من أن ينال بُغيته في هذه العلوم. يقول:

«ثم إنِّي لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتَفهُّمه، وتزييف ما يُـزَيَّف منه علمتُ أن ذلك أيضاً غيرُ واف بكمال الغرض. وأن العقل ليس مستقـلاً بالإحاطـة بجميع المطـالب. ولا كاشفـاً للغطـاء عن جميـع المعضلات» (٢).

اختبار للباطنية ويأس الغزالي منها:

وهنا أقبل إلى الباطنية التي عَظُم شأنُها في عصره واستهووا كثيراً من الشبان ومن طلبة العلم. فأقبل إليهم الغزالي؛ لأنه ضعُفت ثِقته بالعقل والدليل. وكان الباطنية يزعمون أنهم يأخذون عِلمهم من الإمام المعصوم القائم بالحق. وهو مَصدَر العلم الذي يصح الاعتمادُ عليه والثقة به؛ فكان طبيعياً أن يلجأ إليهم الغزاليُّ ويجرِّبَهم ـ وقد يئس من الفلسفة ـ وقد قام بهذه التجربة. ودرسَ عقائد الباطنية وعلومَهم دراسته للفلسفة وفروعها. وانتهى إلى نفس النتيجة.

ندعه يَتحدَّث عن تجربته الجديدة (٣):

«وكان قد نَبغتْ نابغةٌ تَعليميةٌ، وشاع بين الخلق تَحدّثُهم بمعرفةِ معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائِم بالحق، عَنَّ لي أن أبحث عن مقالاتهم، لأطَّلعَ على ما في كتبهم، ثم اتّفق أن وَرد عليَّ أمرٌ جازم من حضرة الخلافة بتصنيفِ كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم، فلم يَسعْني مدافعتـه، وصار ذلِك مُستحثّاً من خارج، ضميمـةً للباعث الأصلي من الباطن،

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٨.
(٢) المصدر السابق: ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٣) المصدر السابق: ص ١٠٩.

فابتدأتُ بِطَلب كُتبهم وجمع مقالاتهم ، وكان قد بلغني بعضُ كلماتهم المستحدَثة التي ولَّدتْها خواطرُ أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلَفهم ، فجمعتُ تلك الكلمات ، ورتَّبتها ترتيباً مُحكماً مقارناً للتحقيق ، واستوفيتُ الجواب عنها» [١]. «والمقصود أنِّي قررتُ شُبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرتُ فسادها بغاية البرهان» [٢].

وقد اقتنع أخيراً بأنه «لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوءُ نصرة الصديقِ الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة ـ مع ضعفها ـ إلى هذه الدرجة» [٣].

«إنَّ هؤلاء ليس معهم شيءٌ من الشّفاء المُنجي من ظلمات الآراء ، بل مع عَجْزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام طالما جاريناهم ، فصدَّقناهم في الحاجة إلى التعليم؛ وإلى المُعلّم المعصوم ، وأنه الذي عيّنوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلّموه من هذا المعصوم ، وعرضْنا عليهم إشكالات فلم يَفهموها فضلاً عن القيام بحلِّها ، فلما عجَزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا: إنه لا بُد من السفر إليه ، والعجبُ أنهم ضيَّعوا عُمرهم في طلب المعلم وفي التبجُّح بالظَّفَر به ، ولم يتعلَّموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتضمِّخ بالنجاسة يَتْعَبُ في طلب الماء حتى إذا وَجده لم يستعمله ، وبقي مُتَضمِّخاً بالخبائث» [٤].

«ومنهم مَن ادَّعى شيئاً من علمهم فكان حاصلُ ما ذكره من ركيكِ فلسفة فيثاغورس ، وهو رجلٌ من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرَكُّ مذاهبِ الفلسفة ، وقد ردّ عليه أرسطاطاليس؛ بل استَركَّ كلامه واسترْذَلَهُ ، وهو المحكي في كتاب «إخوان الصفا» وهو ـ على التحقيق ـ حَشْوُ الفلسفة .

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق: ص ١١١ .
(٣) المصدر السابق: ص ١١١ .
(٤) المصدر السابق: ص ١٢٠ .

فالعَجبُ ممَّن يَتعبُ طوال العمر في طلب العلم ، ثم يَقنع بمثل ذلك العلم الركيك المُستَغَث ، ويظُن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم! فهؤلاء أيضاً جرَّبناهم وسبَرنا ظاهرهم وباطنهم ، فرجع حاصلُهم إلى استدراج العوام وضُعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلِّم ، ومجادلتِهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلامٍ قوي مُفْحِم؛ حتى إذا ساعدَهم علَى الحاجة إلى المعلّم مساعدٌ وقال: «هاتَ عِلْمَهُ، وأَفِدنا من تعليمه، وَقف وقال: «الآن إذا سلَّمْتَ لي هذا فاطلبه ، فإنما غرضي هذا القَدْر فقط» إذ علم أنه لو زاد على ذلك ، لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكالات بل عَجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه».

«فهذه حقيقةُ حالهم ، فاخْبُرهم تَقْلِهم ، فلما خَبرناهم نفضنا اليدَ عنهم أيضاً»[١].

إلى التَّصوُّف:

وهنالك أقبل الغزاليُّ إلى التصوف ، وهو أمله الأخير في الحصول على السعادة واليقين ، ونَتركُهُ يُكمل الحديثَ ، ويُرسل النفس على سجيَّتها:

«ثم إنِّي لما فرغتُ من هذه العلوم أقبلت بِهمَّتي على طريق الصوفية ، وعلمتُ أن طريقَتهم إنما تتمُّ بعلمٍ وعمل ، وكان حَاصلَ عملهم قطعُ عقبات النفس ، والتَّنزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثةِ ، وحتى يُتوصَّل بها إلى تخليةِ القلب عن غير الله تعالى ، وتحلِيَتهِ بذكر الله».

«وكان العِلمُ أيسَر عليَّ من العمل ، فابتدأتُ بتحصيل علمهم من مطالعة كُتبهم مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي ـ رحمه الله ـ وكتب «الحارث المحاسبي» والمتفرقات المأثورة عن «الجُنيد» و«الشِّبلي» و«أبي يزيد البَسْطامي» ـ قدس الله أرواحهم ـ وغير ذلك من كلام مشائخهم ، حتى اطَّلعتُ على كُنْهِ مقاصدهم العلمية ، وَحَصَّلْتُ ما يمكن أن يُحَصَّلَ من طريقهم بالتَّعلُّم

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٠ ـ ١٢١.

والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلُّم ، بل بالذوق والحال وتَبدل الصفات» (١) .

وبعدما يشرح الفرقَ بين العلم والحال ، ويَضرب لذلك المثالَ ، يقول: «فعلمت يقيناً أنهم أربابُ الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيلُه بطريق العلم فقد حصَّلْتُه ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك» (٢) .

وهنالك يشعر الغزاليُّ ـ بفطرته السليمة ومُحَاسبتِه الدقيقة ـ بنَقْصٍ فيه ، وبُعْدٍ عن الحقيقة والحال ، وعن مقام الإخلاص ، ويشعرُ بالخطر المحدِق به لو استمر على هذه الحال ، وهذا الشعور هو الذي يمتاز به الغزاليُّ عن عالم آخر كبير ، وعن مُدرس موفَّق تهيأتْ له أسبابُ النبوغ والمجد ، وخضعت له الأوساط العلمية في عصره ، وذلك الشعور هو الذي رَفعه فوق مستوى عصره ، وخلَّده في التاريخ ، يقول في صراحة وقُوة يمثلُ ما كان يَعتَوِرُه من صراعٍ نفسي:

«وكان قد ظهر عندي أنَّه لا مطمعٍ لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكفِّ النفسِ عن الهوى ، وأن رأسَ ذلك كلِّه قطعُ علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبالِ بكُنهِ الهِمَّة على الله تعالى ، وأنَّ ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهَرَب من الشواغل والعلائق» .

«ثم لاحظتُ أحوالي ، فإذا أنا منغمسٌ في العلائق ، وقد أحدَقتْ بي من الجوانب ، ولاحظتُ أعمالي ـ وأحسنُها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مُقبلٌ على علومٍ غيرِ مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة» .

«ثم تفكَّرتُ في نيَّتي في التدريس ، فإذا هي غيرُ خالصة لوجه الله تعالى ،

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق: ص ١٢٦ .

بل باعِثُها ومحركها طلبُ الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقَّنتُ أني على شفا جُرُفٍ هار ، وأني قد أشفيْتُ على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال» [١].

ثم يَذكُر حالةَ الترَدُّد والاصطراع النفسي التي بقي فيها مدة ، وصَوَّر حالَته النفسية تصويراً بارعاً:

«فلم أزل أتفكَّر فيه مُدَّة ـ وأنا بعد على مقام الاختيار ـ أُصَمِّمُ العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحلُّ العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً ، وأؤخر عنه أخرى ، لا تصْدُق لي رغبةٌ في طلب الآخرة بُكْرةً ، إلا وتحمل عليها جُندُ الشهوة حملة ، فتُفتِرُها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تُجاذِبُني بسلاسلها إلى المُقام. ومُنادي الإيمان ينادي: الرحيلَ! فلم يَبقَ من العمر إلاَّ القليل ، وبين يديك السَّفر الطويل ، وجميعُ ما أنت فيه من العلم والعمل رياءٌ وتخييلٌ ، فإن لم تستَعدَّ الآن للآخرة فمتى تستعدُّ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تَنبعِثُ الداعية ، ويَنجَزِمُ العَزْم على الهرب والفرار».

ثم يعود الشيطانُ ويقول: «هذه حالة عارضة ، إياك أن تُطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنتَ لها وتركتَ هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمنَ المسلَّم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتَتْ إليه نفسُك ، ولا يتيَّسر لك المُعاودة» [٢].

الغزالي يُغادِرُ بَغدادَ:

ثم يَذكر كيف غُلِبَ على أمره ، وأفلت الزمام من يده ، وانتقل من الاختيار إلى الاضطرار ، حتى سَهُل عليه مفارقة الأهل والدار ، ونفضُ اليد من الجاه والاعتبار ، وخرَج من بغداد يطلبُ السعادة الروحية والمعرفة الحقيقية ، حتى

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٦ ـ ١٢٨.
(٢) المصدر السابق: ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

أكرمه الله بها ، ولنستمع إليه فهو في نهاية المطاف:

«فلم أَزَلْ أترَدَّدُ بين تَجاذُب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من سِتَّةِ أشهر؛ أوَّلُهَا رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمئة وفي هذا الشهر جاوز الأمر حدَّ الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفلَ الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنتُ أجاهد نفسي أن أدرِّس يوماً واحداً تطييباً للقُلوب المختلفةِ إليَّ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعُها البتة ، حتى أورثَتْ هذه العقلةُ في اللسان حُزناً في القلب ، بَطلت معه قوة الهَضم ومراءةُ الطعام والشراب ، فكان لا يُساغ لي ثريد ، ولا تَنهضِم لي لُقمة ، وتعدَّى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طَمَعَهم من العلاج ، وقالوا: «هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يتروَّح السر عن الهَمِّ المُلم».

«ثم لمَّا أحْسَسْتُ بعجزي ، وسَقط بالكلية اختياري ، التجأتُ إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي ﴿ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وسهَّل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب، وأظهرتُ عزمَ الخروج إلى مكة وأنا أُدبر في نفسي سفرَ الشام ، حذراً أن يطلع الخليفة وجملةُ الأصحاب على عزمي في المقام بالشام ، فتلطَّفْتُ بلطائف الحِيل في الخروج من بغداد على عزمِ ألاَّ أعاودها أبداً ، واستُهدفتُ لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يُجوِّزُ أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلَغهم من العلم».

«ثم ارتبكَ الناسُ في الاستنباطات ، وظنَّ من بَعُدَ عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قَرُب من الولاة، وكان يشاهد إلحاحهم في التعلُّق بي ، والانكباب علي، وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم؛ فيقولون: هذا أمرٌ سماويٌّ ، وليس له سببٌ إلا عين أصابت أهل الإسلام وزُمرة العِلم».

«ففارقتُ بغداد ، وفرَّقتُ ما كان معي من المال ، ولم أدَّخِرْ إلا قَدر الكفاف وقُوتَ الأطفال؛ ترخيصاً بأنَّ مال العراق مُرصدٌ للمصالح ، لكونه وقفاً

على المسلمين ، فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالِم لعياله أصلحَ منه».

«ثم دخلتُ الشام وأقمتُ به قريباً من سنتين ، لا شُغْلَ لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاقِ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما حصَّلتُه من علم الصوفية ، فكنتُ أعتكفُ مدَّة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طوال النهار ، وأُغلق بابها على نفسي».

«ثم رحلتُ منها إلى بيت المقدس ، أدخلُ كل يوم الصخرة ، وأُغلِق بابَها على نفسي ، ثم تَحرَّكت فيَّ داعيةُ فريضة الحج ، والاستمدادُ من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعدَ الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فَسِرْتُ إلى الحجاز».

«ثم جذَبتني الهِمَمُ ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودتُه بعد أن كنتُ أبعدَ الخلق عن الرجوع إليه ، فآثرتُ العُزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر».

«وكانت حوادثُ الزمان ، ومُهمَّات العيال ، وضرورات المعاش ، تُغيِّرُ وجه المراد ، وتُشوّش صفوَة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحالُ إلا في أوقاتٍ مختلفة ، لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها» (١).

الاستقرارُ على طَريق الصُّوفية:

وهنا يذكر الغزاليُ الغايـة التي وصل إليها ، والنتيجـة التي اقتنع بها في هذه الرِّحلة الشاقـة ، والتأمُّلات العميقـة الكثيرة ، والبَحث المُضني:

«ودُمتُ على ذلك مقدارَ عشر سنين ، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقَدْر الذي أذكره يُنتفع به. إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٨ ـ ١٣١.

أحسَن السير، وطريقَتهم أصوب الطرق، وأخلاقَهم أزكى الأخلاق؛ بل لو جُمع عقل العقلاء، وحِكمة الحكماء، وعلمُ الواقفين على أسرار الشرع من العلماء؛ ليُغيِّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويُبدِّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإنَّ جميع حركاتهم وسكَناتهم ـ في ظاهرهم وباطنهم ـ مُقتبسةٌ من نور مِشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نورٌ يُستضاء به» (١).

من الخَلْوَةِ إلى الجَلْوَة:

وكان مُمكناً، بل كان من المتوقَّع، أن يبقى الغزالي في خلوته يتمتَّع بما هو فيه من نَعيم ولذَّة روحية وصفاء نفس، ويقتصر على ما التزمه من عبادات وأوراد وإشغال بخاصة النفس؛ ولم يُلْهَم دراسةَ هذه العلوم الكثيرة، ولم يُرزقِ الاقتدار عليها؛ ليكونَ مُتَعبِّداً، مُنطوياً على نفسه، مُعتزلاً في بيته. وكان الإسلامُ في حاجة إلى من ينتصر له من الفلسفة التي تجاسرت عليه، وتسلَّطتْ على عقول الناس.

وقد أصيب المجتمع الإسلامي بفساد الأخلاق، وشَلل في الفكر، وجمود في العلم، فكان في حاجة إلى من يحارب هذا الفساد، ويُوقظ الفكر، ويبعث العلم، وكان الغزاليُّ أجدر الناس بالاضطلاع بهذه الخدمة العظيمة؛ فقد تهيأ لها عِلميّاً وفكرياً وعملياً، وقد صرح بذلك في غير تَواضع وفي غير أنانية فقال:

«رأيتُ نفسي مُطالبةً بكشف هذه الشبهة، حتى كان فضحُ هؤلاء أيسَر عندي من شربة ماء؛ لكثرة خوضي في عُلومهم وطرقهم أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسِّمين من العلماء» (٢).

وهنا اعترضت له حالة التَّردُّد مثل الأولى، هل يبقى في العزلة أم يخرجُ إلى

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٢) المصدر السابق: ص ١٥٠.

الميدان؟ حتى ساقَه سائقُ التوفيق إلى البُروز ، وتهيّأتْ له الأساليب ، يقول:

«انقدَحَ في نفسي أنَّ ذلك (محاربة الفساد ، والرد على الفلاسفة والباطنية) مُتعيّن في هذا الوقت محتوم ، فماذا تُغنيك الخَلوة والعزلة ، وقد عمَّ الداء ، ومَرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك؟

ثم قُلتُ في نفسي: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ، ومصادمةِ هذه الظلمةِ ، والزمان زمان الفترة ، والدَّور دَور الباطل؟ وأنَّى تُقاومهم؟ فكيف تُعايِشُهم؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مُساعد ، وسلطان متدين قاهر».

«فترخَّصتُ بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، وتَعلُّلاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة ، فقدَّر الله تعالى أن حرَّك داعية سُلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج ، فأمر أمْرَ إلزامٍ بالنهوض إلى نيسابور ، لتدارُك هذه الفترة ، وبلغَ الإلزام حداً كان ينتهي ، لو أصررتُ على الخلاف إلى حَدِّ الوحشة ، فخطر لي أنَّ سبب الرُّخصة قد ضَعُف ، فلا ينبغي أن يكون باعثُك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة وطلبُ عزِّ النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم تُرخِّص نفسَك لعُسر معافاةِ الخلق ، والله تعالى يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣] الآية ، ويقول عز وجل لرسوله ، وهو أعزُّ خَلْقِه:

﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

ويقول عزَّ وجلَّ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ

فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ [يس: ١ ـ ١١].

فشاورتُ في ذلك جماعةً من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتَّفقوا على الإشارة بتَرك العُزلة، والخروج من الزاوية، وانضاف إلى ذلك مناماتٌ إلى الصالحين كثيرةٌ متواترة، تشهدُ بأنَّ هذه الحركة مبدأ خير ورُشد، قدَّرها الله سبحانه على رأس هذه المئة، وقد وعدَ اللهُ سبحانه بإحياء دينه على رأس كلِّ مئة، فاستحكمَ الرجاءُ، وغلَب حُسنُ الظن بسبب هذه الشهادات، ويسَّرَ اللهُ تعالى الحركةَ إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة، سنة تسع وتسعين وأربعمئة، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة، سنة ثمان وثمانين وأربعمئة، وبلغت العزلة إحدى عشرة سنة، وهذه حركةٌ قدَّرها الله تعالى، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداحٌ في القلب في هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوعُ عن تلك الأحوال مما خطر إمكانُه أصلاً بالبال، والله تعالى مُقلبُ القلب والأحوال و«**قلبُ المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**»[(١)] [(٢)].

الفَرقُ بينَ الحَالتين:

لقد خرجَ الغزاليُّ من عُزلته، وبدأ يزاول عملَه من تدريس وتأليف ودعوة وصلاح، ولكن شتَّان بين الحالتين، لقد كان في الأولى ـ قبل أن يخرج من بغداد ـ يفعلُ ذلك عادة، أو بحُكم الوظيفة، أو بدافع من النفس «فأصبح الآن يقوم به بأمر من الله، متجرِّداً عن طلبِ الجاه وحُظوظِ النفس، وقد شرح الفَرْق بين الحالتين، فقال:

---

(١) [أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٨/ ٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٩)، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ٦٥)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٧/ ٢٥٥٧): «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن»].

(٢) المنقذ من الضلال: ص ١٥١ ـ ١٥٣.

«وأنا أعلم أنّي ـ وإن رجعت إلى نشر العلم ـ ما رجعت ، فإنَّ الرجوع عودٌ إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يُكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي ، وأما الآن ، فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه ، هذا هو الآن نيّتي وقصدي وأمنيتي ، يعلمُ الله ذلك مني ، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولستُ أدري أأَصِلُ إلى مرادي ، أم أخترمُ دون غرضي؟ ولكنْ أؤمن إيمان يقين ومشاهدة ، أنه لاَ حول ولا قوة إلا باللهِ العلي العظيم ، وأنّي لم أتحرك؛ لكنه حركني، وأني لم أعمل؛ لكنه استعمَلَني ، فأسأله أن يُصلحني أولاً ، ثم يُصلح بي ويَهديني ، ثم يَهدي بي ، وأن يُريني الحقَّ حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، وَيَرزقني اجتنابَه» (١) .

بَقِيَّةُ حَياتِه:

تَولَّى الغزاليُّ رئاسةَ المدرسة النِّظامية بنيسابور ، عام ٤٩٩هـ ، وكان ذلك في عهد «سَنْجَر السلجوقي» ، ابن ملك شاه ، وَوزارة فَخْر الملك ، ابن نظام المُلك الطُّوسي ، وقد اغتيل «فخر الملك» بيد باطنيٍّ ، سنة ٥٠٠ هـ ، واعتزل الغزاليُّ التدريس على أثر هذه الحادثة ، وأقام ببلدة طُوس ، وبنى مدرسةً وزاوية بجوار بيته ، وعكَف على التعليم والتربية .

ولمَّا استوزر السلطانُ محمد بن ملك شاه أحمد بن نظام الملك ، سنة ٥٠٠هـ ، طلب الوزيرُ من الغزالي الرجوع إلى بغداد ، وكان محلُّه في المدرسة النظامية لم يَسدَّه من يُماثل الغزالي ، وكانت المدرسة مما تتباهى به الخلافةُ العباسية وتتجملُ به بغداد ، فبدتِ الرغبة من الخلافة في أن يرجع الغزالي إلى النِّظامية. وكتب الوزير قوام الدين نظام الملك رسالة خاصة إلى الغزالي يذكر فيها مكانة النظامية ومركزها في العالم الإسلامي ، وحرصَ الخليفة على رجوع الغزالي ، وكانت عليها توقيعات أركان دار الخلافة ،

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

ولكنَّ الغزالي اعتذر ، وبقي في طوس يُدرِّس ويفيد ويُرَبِّي الطالبين.

وقَضى الغزاليُّ بقيةَ أيامه في الاشتغال بالدِّين والعلم ، وكان لا يزال فيه الرُّوح العلمية قويةً وفتية ، فلم ينقطعْ عن التأليف والإنتاج ، وقد ألَّف كتابَ «المستصفى» الذي يُعدُّ من أركان أصول الفقه الثلاثة [١] في سنة ٥٠٤ ، يعني قبل وفاته بعام.

وكان الغزاليُّ لم يتوفَّر على دراسة الحديث، فأقبلَ عليه في أواخر أيامه، واستدعى أبا الفتيان ، عمر بنَ أبي الحسن الرّواسي الحافظ الطّوسي ، وأكرمه وسمع عليه صحيحي البخاري ومسلم [٢]. فقال عبد الغافر الفارسي: وكانت خاتمةَ أمرِه إقبالُـه على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسةُ أهله ، ومطالعـةُ الصحيحين البخاري ومسلم اللَّذين هما حُجَّة الإسلام [٣].

وفاتــه:

وانتقلَ إلى رحمة الله تعالى يوم الإثنين الرابعَ عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمئة ، ودُفن بظاهر قَصَبَة طابران.

وقد حَكى ابنُ الجوزي عن أخيه أحمد قصةَ وفاته ، قال: «لما كان يوم الإثنين وقتَ الصبح ، توضأ أخي وصلى وقال: عَلَيَّ بالكفن فأخذَه وقبّله ووضعه على عينيه ، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على المَلِك ، ثم مَد رجليه ، واستقبلَ ، وانتقل إلى رضوان الله تعالى» [٤].

لقد رأينا كيف تهيّأ الغزاليُّ ـ بعد الدِّراسات المتنوّعة العميقة الواسعة ،

---

(١) وهي «المعتمد» لأبي الحسين البصري، و«البرهان» لإمام الحرمين، و«المستصفى» للغزالي.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ص ١١٢. ج٤.

(٣) تبيين كذب المفتري: ص ٣٩٦ و«طبقات الشافعية الكبرى» ج٤ ص ١٠٩.

(٤) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين: للسيد مرتضى الزبيدي البلكرامي، ج١ ص ١١ نقلاً عن كتاب «الثبات عند الممات» لابن الجوزي رحمه الله.

والمجاهدات الشاقة الطويلة ، وبعد الانتهاء إلى معرفة الحقِّ واليقين ، والوصول إلى مقام الصدق والإخلاص ـ لأن يقومَ بدوره في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وأن يؤدِّي رسالته كعالمٍ وناقدٍ ومُصلحٍ ومتكلِّمٍ وداعٍ ، فلْنَر مقدار إنتاجه. ولْنَر مدى تأثيره في الأمة والمجتمع والعلوم والأفكار. وموعدنا الفصول التالية ، إن شاء الله.

* * *

المحاضرة التاسعة:

حجّة الإسْلام الغزالي
ناقِدٌ للفلسفة ومُتَكلِّمٌ

نقسِّم عملَ الغزالي وإنتاجه وتجديده في ناحيتين رئيسيتين:

الأولى: نَقدُه للفلسفة ومناقشتُه لها، وتجديده لعلم الكلام الذي فقد جِدَّته وحياته.

والثانية: الحُسْبةُ على المجتمع الإسلامي المعاصر، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية، والروح، والتحلِّي بالحقائق. ونتناول الناحية الأولى بالبحث في هذه المحاضرة.

يمتاز الغزاليُّ عن كلِّ مَن سبقه في محاربة الفلسفة: أنهم اتَّخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده، والاعتذار عن الدين الإسلامي، فكانت الفلسفة تُهاجِم الإسلام، وهؤلاء يُدافعون عن الإسلام، ويَنفون التُّهم الموجهة إليه، ويحاولون أن يُبرِّروا موقفه، ويلتمِسوا العذرَ لعقائده ونظرياته، فكأنَّ علم الكلام كان جُنَّةً تتلَّقى هجماتِ الفلسفة وتُحصِّن العقيدة الإسلامية.

ولم يجترىء أحدٌ من المتكلِّمين أن يُهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها؛ لعدم تعمُّقهم في الفلسفة وتضلُّعهم من أصولها وفروعها؛ ولعدم تَسلُّحهم بالأسلحة التي يُواجهون بها الفلسفة ويُوسعونها جرحاً ونقداً؛ فكان موقفُهم

موقفَ الدفاع عن قضية ، وموقفُ الدفاع دائماً ضعيف ، غايته أن يسامح المتهم ويَعفُوَ عنه.

أمَّا الغزاليُّ ، فقد هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنَّقد ، وهجمَ عليها هُجوماً عنيفاً مبنياً على الدراسة والبحث العلمي ، وحُجَّةٍ مثل حُجَّة الفلسفة ، وعقل مثلَ عقلِ الفلاسفة الكبار ومدوِّني الفلسفة ، وألجأ الفلسفة إلى أن تقف موقف المتَّهم ، وألجأ مُمثليها إلى أن يقفوا موقف المدافعين؛ فكان تطوراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة ، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الإسلامية عادتْ به الثِّقة إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها ، وزالت عنهم مهابة الفلسفة ، وسيطرتها العلمية.

خِطَّةُ الغزالي في نقد الفلسفة:

ولم يتهوَّر الغزاليُّ في الهجوم على الفلسفة ، ولم يكن فيه مقلداً لغيره ولا ضيِّقَ التفكير. إنه درس الفلسفة أولاً كما حكى هو بنفسه في «المنقذ من الضلال» ونقلنا عنه في المحاضرة الأولى[1]، وكان يؤمن بأنه «لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يُساوي أعلمَهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته» ، فجدَّ واجتهد في دراستها ، ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطَّلع على مُنتهى علومهم.

ثم لم يستعجلْ كذلك ولم يبدأ بالهجوم بل رأى أنَّ المباحث الفلسفية لا تزال غامضةً معقَّدة ليست في متناول الأوساط من الناس ، وأن الكُتب الفلسفية قد أُلِّفتْ في لغة رمزية وفي أسلوب غير واضح ، وكأنّ مؤلفيها قد تعمدوا ذلك ليقيموا سياجاً حول الفلسفة يَحُوطها من تناول العامة ، أو لم يكونوا يُحسنون التأليف ، فرأى أنْ يؤلِّف كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية ،

(١) [انظر المحاضرة الثامنة: حجة الإسلام الغزالي: حياته ودراسته ، ص(٢٢٣).

ونظريات الفلسفة ومسائلها في لغة سهلة واضحة ، وفي أسلوب مُشَوِّقٍ، وقد رُزق الغزالي قُدرةً عجيبة في تبسيط المسائل العلمية وإيضاحها فكسَر ذلك السياج ، ورفعَ الاحتكار العلمي ، وألَّف كتاب «مقاصد الفلاسفة» ذكر فيه المصطلحات الفلسفية والمباحث الفلسفية من غير تعليق ونقد ، وعرضَ الفلسفة كأحسنِ ما يعرضها رجالُ الفلسفة .

وبعد أنْ انتهى من هذا العمل ـ وكان يَعدُّه مقدمةً لازمةً لما تكفَّله من تزييف الفلسفة ، وإسقاط قيمتها العلمية ـ شرع في عمله الثاني الذي استحق به أن يُلقب حجة الإسلام ، وهو نَقدُ الفاسفة والهجومُ عليها .

ولم يكنْ في هذه المرحلة الثانية أيضاً مُتهوِّراً أو جامداً يشمل الفلسفة كلها بفروعها وشُعَبها بالإنكار ، ويُطلق القول في العلوم الرياضية والمنطقية والسياسية والخُلقية ، وكل ما جاء عنهم في العلوم الطبيعية ، فيُغلطهم فيها ، ويكفِّرهم بها ، كما فعل كثير ممَّن تقدَّمه وكثيرٌ ممَّن عاصره فأثبتوا بذلك أنهم معاندون مكابرون ، وكان ضررهم بذلك أكبرَ من نفعهم ، ولم تكن لأقوالهم وكتاباتهم قيمةٌ علميةٌ .

أمَّا الغزالي فقد اعترف بكل صراحة ، أن القسم الكبير من هذه العلوم التي ذكرناها «ليس يتعلَّقُ شيء منه بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمورٌ بُرهانيةٌ لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها» [1] وانتقد أولئك الذين يَروْنَ أنَّ إنكار هذه العلوم وهذه الحقائق العلمية؛ خدمةٌ دينية ونُصرة للإسلام ومحاربةٌ للكفر والضلال ، فكان جهادُهم في غير عَدُوٍّ ، وكانت جنايةً على الدين .

يقول في كتابه «المنقذ من الضلال» :

«الآفةُ الثانية ، نشأتْ من صديقٍ للإسلام جاهل ، ظنَّ أنَّ الدين ينبغي أن يُنصر بإنكار كُل عِلْم منسوب ، فأنكر جميع علومهم ، وادَّعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكُسُوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٠.

الشرع ، فلما قرع ذلك سمعَ من عَرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يَشكَّ في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مَبنيٌّ على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حُباً ، وللإسلام بُغضاً ، ولقد عَظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرُّضٌ لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه العلومِ تعرُّضٌ للأمور الدينية».

وبعد النظر في جميع فروع الفلسفة ، والاعتراف بصحة بعضها وإفادتها انتهى إلى أنَّ الإلهيات فيها أكثر أغاليطهم ، وعلَّله «بأنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق؛ ولذلك كثُر الاختلاف بينهم فيها»[١].

والنَّاظر المتأمِّلُ يشعر بأن السبب في إصابتهم وتوفيقهم في العلوم الرياضية والطبيعية ، وأغاليطهم وتناقضاتهم وتخيُّلاتهم في الإلهيات ، هو أنَّ العلومَ الرياضية والطبيعية مثلاً لها مبادىء ومقدماتٌ ومحسوساتٌ عرفها الفلاسفة ، ومعلومات أوَّلية توصلوا بترتيبها إلى أمور مجهولة.

أما الإلهيات فبالعكس ، ليس فيها مبادىء ومقدمات ومحسوسات ومعلومات أولية يتوصلون بها إلى أمور مجهولة ، وليس فيها أساسٌ للقياس ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] لذلك كثرت فيها أغاليطُهم وتخيلاتهم ، وجاءت فلسفتُهم فيها مجموع أوهام وقياسات وتخيلات وتخمينات ، وكان ذلك بطبيعة الحال مَدعاة إلى خطأ تصوُّراتهم عن الأمور الغيبية التي لا تُعرف إلا عن طريق الشَّرع المعصوم عن الخطأ.

تهافُتُ الفَلاسفة:

وفي الرَّدِّ على هذه الفلسفة الإلهية ألف الغزالي كتابه العظيم «تهافت الفلاسفة» وقد صدَّره بمقدمة بليغة واضحة ، ذكر فيها سَبب التأليف ، وذكر تأثيرَ الفلسفة في أذهان الناشئة ، وكيف تدرَّج بهم الخضوعُ لبَراعة الفلسفة في

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٢.

العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية ، والإيمان بذكائهم وعبقريَّتهم ، إلى التحلُّل من ربقة الإسلام ، لما رأوا أن هؤلاء ـ مع رَزانةِ عقولهم وغزارة علمهم ـ منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والمِلَل «فألحدوا وأنكروا الدين تظرُّفاً وتكايُساً ، وعظمت الفتنة ، ومسَّت الحاجةُ إلى تأليف كتاب يُبيِّن تهافت عقيدة فلاسفة اليونان ، وتناقضَ كلمتِهم فيما يتعلق بالإلهيات ، ويُبيِّن أنَّ هذه المسائل التي يأخذها المقلدون كحقائق علمية ، وقضايا عقلية «هي ـ على التحقيق ـ مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء» وبيَّن أنه لم يذهب إلى إنكار اللهِ واليوم الآخر إلا شرذمةٌ قليلة من ذوي العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة ، ونحن ننقل هذه المقدمة؛ إذ فيها تصوير بارع لعقلية الملحدين المقلِّدين في كل زمان ومكان ، وتصوير بصفة خاصةٍ للعصر الذي كان يعيش فيه ، ونعرف عظم الحاجة إلى تأليف هذا الكتاب وغنائه في نصرة الدين ، يقول:

«أمَّا بعد ، فإنِّي قد رأيتُ طائفةً يعتقدون في أنفسهم التَّميز عن الأتراب والنُّظراء بمزيد الفطنة والذكاء ، وقد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات ، والتَّوقِّي عن المحظورات ، واستهانوا بتعهُّدات الشرع وحدوده ، ولم يقِفوا عند توقيفاته وقُيوده ، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون ، يتَّبعون فيها رهطاً يَصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ، ولا مستَنَد لكفرهم غيرُ تقليدٍ سماعيٍّ كتقليد اليهودُ والنصارى ، إذ جرى على غير دين الإسلام نَشْؤُهم وأولادهم ، وعليه دَرَج آباؤهم وأجدادهم ، وغيرَ بحث نظري صادر عن التعثُّر بأذيال الشُّبه الصارفة عن صَوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامِع السَّراب ، كما اتفقَ لطوائف من النظار في البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء.

وإنَّما مصدَرُ كُفرهم سماعُهم أسماء هائلة: كسُقراط ، وبُقراط ، وأفلاطون ، وأرسطاطاليس ، وأمثالهم ، وإطناب طوائفَ من مُتَّبعيهم

وضلاَّلهم في وصف عقولهم ، وحُسن أصولهم ، ودِقَّة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم ـ لفرط الذكاء والفطنة ـ باستخراج تلك الأمور الخفيَّة ، وحكايتهم عنهم أنهم ـ مع رزانة عقولهم ، وغزارة فضلهم ـ مُنكرون للشرائع والنِّحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومُعتقدون أنها نواميس مؤلفة ، وحيل مزخرفة .

فلمَّا قرع ذلك سمعَهم ، ووافق ما حُكي من عقائدهم طبعَهم؛ تجمَّلوا باعتقاد الكفر؛ تحيُّزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم؛ وانخراطاً في سلكهم؛ وترفعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء؛ واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء ، ظناً بأن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمالٌ ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد خرقٌ وخبالٌ ، فأية رُتبة في عالم الله أخسُّ من رتبة من يتجمَّل بترك الحق المعتقد تقليداً ، بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خُبراً وتحقيقاً ، والبُله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة ، فليس في سَجيَّتهم حبُّ التكايس بالتشبه بذوي الضلالات ، فالبَلاَهةُ أدنى إلى الخلاص من فطانةٍ بتراء ، والعمى أقربُ إلى السلامة من بَصيرة حَوْلاء .

فلمَّا رأيتُ هذا العِرْقَ من الحماقة نابضاً على هؤلاء الأغبياء؛ انتدبتُ لتحرير هذا الكتاب ، رداً على الفلاسفة القدماء ، مبيناً تهافُتَ عقيدتهم ، وتناقُضَ كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي ـ على التحقيق ـ مضاحِكُ العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء ، أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فُنون العقائد والآراء ، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه؛ ليتبين هؤلاء الملاحدةُ تقليداً اتفاقَ كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان باللهِ واليوم الآخر ، وأن الاختلافات راجعة إلى تفاصيل خارجةٍ عن هذين القطبين اللذين لأجلهما بُعث الأنبياء المؤيَّدون بالمعجزات ، وأنه لم يذهب إلى إنكارهم إلا شِرْذِمَة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم ، ولا يُعبأ بهم فيما بين النظار ، ولا يُعدون

إلا في زمرة الشياطين الأشرار، وغمار الأغبياء والأغمار ، ليكف عن غَلوائه من يَظنُّ أن التجمُّل بالكفر تقليداً يدلُّ على حسن رأيه ، ويشعرُ بفطنته وذكائه ، إذ يتحقق أن هؤلاء الذين يتشبَّه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم براءٌ مما عُرفوا به من جحْدِ الشرائع ، وأنهم يؤمنون بالله ، ومُصدِّقون برسله ، وأنهم قد اختبطوا في تفاصيل بعد هذه الأصول ، قد زَلُّوا فيها ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا عن سواء السبيل ، ونحن نكشف عن فنون من خُدعوا به من التخبيل والأباطيل ، ونُبين أنَّ ليس كل تهويل وراءَه تحصيلٌ ، والله تعالى وليُّ التوفيق ، لإظهار ما قصدناه من التحقيق» (١) .

ويَشرع الغزاليُّ ، بعد أربع مقدِّماتٍ ذكر فيها مناهجه في البحث ، وشرح حال الفلاسفة، وفرق علومهم التي تصادم الشريعة والتي لا تصادمها ، وناقش الفلاسفة في شرائعهم ومقدماتهم للبحوث الإلهية ، بعد هذا كلِّه ، يشرع الغزالي في بيان مسائل الفلاسفة ومناقشتهم في ذلك في ضوء البحث العلمي والحجة العقلية ، وهي ست عشرة مسألة في الإلهيات ، وما بعد الطبيعيات ، وأربع في الطبيعيات، ويبين فيها ضعف استدلالهم ، وتناقضهم ، واختلافهم ، وتهافت عقيدتهم.

ميزة الكتاب:

ويتَّسم هذا الكتابُ بقوة التعبير، وسلامة العبارة ، وسُهولة الأسلوب، بخلاف عامة الكتب التي ألفت في الموضوع ، ويَدلُّ على أن مؤلِّفه ممتلىءٌ بالإيمان والثقة بدينه ، والاعتداد بشخصيته وتفكيره ، ينظر إلى الفلاسفة القدماء كأقران وزملاء ورجال من مستواه العقلي والفكري ، يناقشهم ويباحثهم بحُرِّية واعتداد ، ويقرع الحجة بالحجة.

وكان المسلمون في حاجة شديدة إلى هذا الطراز من المؤلفين والباحثين الذي يواجه الفلسفة بإيمان ، وثقة ، وعقل حر ، وشجاعة علمية ، ويكفر

(١) تهافت الفلاسفة: ص ٣١ ـ ٣٤ طبعة إحياء الكتب العربية.

بعصمة الفلاسفة وقدسيتهم وعبقريتهم وكونهم فوق مستوى البشر في العقل والتفكير، وبهذه الصفة يتَجلَّى الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة»؛ فجاء في أوانه، وقضى حاجة زمانه.

ولا يقتصر الغزاليُّ على مجابهة الفلسفة ومُهاجمة الفلاسفة بالدليل؛ بل قد يبلُغ إلى التهكُّم والنقد اللاذع، ولا شكَّ أنَّ لهما تأثيراً كبيراً في مجتمع قد كاد يؤخذ بسِحر الفلسفة، وقد أُصيب كثيرٌ من أفراده بمُركَّب النقص، وخضَع للفلسفة خضوعاً كاملاً، فجاء تهكم الغزالي ونقدُه اللاذع علاجاً لهذه النفوس المريضة.

ومِن أمثلة هذا التهكُّم والنقد اللاذع تعليقُه على ما قاله الفلاسفة في الذات الإلهية وصفاتها، وعلى ما صنَّفوه من نسبِ العقول والأفلاك، وكيف تَولَّد بعضها من بعض. قال بعد ما ذكر هذا الهُراء: «قلنا: ما ذكرتموه تحكُّماتٌ، وهي ـ على التحقيق ـ ظُلماتٌ فوق ظلمات، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستُدلَّ على سوء مزاجه، أو لو أُورِدَ جِنسُه في الفقهيات التي قُصارى المَطلب فيها تخميناتٌ، لقيل: إنَّها تُرَّهات لا تُفيد غَلباتِ الظنون»[1].

وقال في موضع آخر: «لستُ أدري، كيف يقنَع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يَشقُّون الشَّعر بزعمِهم في المعقولات؟»[2].

وعلَّقَ على بحثهم في عِلْم واجب الوجود، وأنَّه يعقِلُ نفسَه ولا يعقِل غيرَه بكلمته اللاذعة القوية: «فقد انتهى بهمُ التعمُّق في الفِطنة، إلى أن أبطلوا كل ما يُفهم من العظمة، وقرَّبوا حاله تعالى في حال الميِّت الذي لا خبرَ له بما يجري في العالم، إلا أنه فَارق الحياة في شعوره بنفسه فقط.

وهكذا يَفعلُ اللهُ سبحانه بالزَّائغين عن سبيله، والنَّاكبين عن طريق الهدى،

(١) تهافت الفلاسفة: ص ١١٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢٤.

المُنكرين لقوله تعالى ﴿ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] المعتقدين أن أمور الربوبية، تستولي على كُنْهها القوى البشريةُ، المغرورين بعقولهم، زاعمين أن فيها مَندوحة عن تقليد الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وأتباعهم ـ رضوان الله عليهم ـ فلا جَرَمَ اضطُروا إلى الاعتراف بأن لُبَاب معقولاتهم رجعَ إلى ما لو حكي في منامٍ لتُعجِّب منه»[1].

وهكذا يَستمِرُّ الغزالي في نَقد الفلسفة وتشريحها إلى آخر الكتاب، حتى يأتي على جميع المسائل التي تكفَّل الرَّد عليها، وهي عشرون مسألة، أكثرُها في الإلهيات، وكفَّرهم في ثلاث مسائل:

إحداها: مسألة قدم العالم، وقولُهم: إن الجواهرَ كلها قديمة.

والثانية: قولهم: إن الله تعالى لا يُحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.

والثالثة: إنكارُهم بعثَ الأجساد وحشْرَها.

قال: «فهذه المسائل الثلاث، لا تُلائم الإسلام بوجهٍ، ومعتقدها مُعتَقدُ كَذِبِ الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وأنَّهم ذَكروا ما ذكروه على سبيل المصلحة؛ تمثيلاً لجماهير الخلق وتفهيماً، وهذا هو الكُفر الصراح الذي لم يعتقده أحد من فِرَق المسلمين[2]» وتوقَّف في تكفيرهم في المسائل الأخرى.

تأثيرُ الكتاب:

وليس أهميّة الكتاب في تكفير الفلاسفة؛ بل إنَّ غاية الكتاب هو إسقاط قيمةِ الفلسفة العِلمية، والحطُّ من مكانتها، وإثباتُ أنَّها مجموع أفكارٍ وتخيُّلاتٍ، وقياساتٍ وتخميناتٍ. وبذلك خَدم الغزالي الدينَ خِدمةً باهرة، وخلَّف

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٣١٣ ـ ٣١٥.

الفلسفة التي كانت تتقدم بخطىً سريعة وواسعة ، وتُسيطر على عقول الناشئة ، وتَحُلُّ من نفوسهم مَحلَّ القُدسية والإجلال ، خلَّفها الغزاليُّ بضَرباته الموجعة وهجماته العنيفة إلى الوراء ، أو وَقَفها على الأقل وشغلها بنفسها والدفاع عن نفسها ، ولم تستطع الأوساط الفلسفية أن تُقدم كتاباً قوياً جديراً بالذكر يردُّ على «تهافت الفلاسفة» حتى جاء ابن رُشد (ت ٥٩٥) في آخر القرن ، فألف كتابه «تهافت التهافت» يقول علماء الإفرنج: «إنَّ الغزالي طعنَ الفلسفة في الشرق العربي طعنةً قاضية ، وكادَ يكون نصيبها في الغرب كذلك ، لو لم تَلق في ابن رشد حامياً لها أحياها قرناً من الزمان» [١].

رَدُّه على الباطنية:

ولم يَقتصِر الغزاليُّ على الردِّ على الفلسفة؛ بل عُنِي كذلك بالرد على الباطنية التي تَدرعت بالفلسفة ، وظهرت في مظهر ديني وسياسي؛ فكانت أشدَّ خطراً على الإسلام من الفلسفة؛ إذ كانت الفلسفة تعيش في عزلة علمية ، وكانت قليلة الاتصال بالشعب والجمهور ، وكانت ، كما يصف الأستاذُ أحمد أمين «كالسِّفارات الأجنبية» لا شأن لها بالسياسة الداخلية والشؤون الاجتماعية ، ولا شأنَ لها بالجمهور.

أمَّا الباطنية ، فكانت تتسرَّبُ إلى المجتمع وتنفُثُ سمومَها فيه ، وكانت لها الإغراءات المادية القوية ، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحدٌ أجدرَ بالرد عليها ، والكشف عن أسرارها ، ونقضِ ما تُبنى عليه دعوتها من الغزالي لجمعِه بين التضلُّع من الفلسفة والوقوف على لُبِّ التصوف وعلم الباطن ، ولاتِّصافه بالغوص في حقائق الأشياء ، والتعمُّق في العلوم ، وتلك بضاعةُ الباطنية التي تتبجَّحُ بها.

وقد سبق أنَّه ألَّف ـ وهو مدرس في المدرسة النظامية ـ كتاباً في الردِّ على

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب: تأليف محمد لطفي جمعة ، ص ٧٢.

الباطنية ، باقتراح من الخليفة المستظهر بالله أسماه «المستظهري» وقد ألَّف ثلاثة كتب في الرد عليهم ـ ولعل ذلك بعد الرجوع من رحلته ـ وهي «حجَّة الحق» و «مفصل الخلاف» و«قاصم الباطنية» ذكرها في كتابه «جوهر القرآن» ويوجد في جريدة مؤلَّفاته كتاب آخر وهو «مواهم الباطنية» [١] .

عِلْمُ الكَلام:

لم يكن لمثل الغزاليِّ ـ مع مواهبه العظيمة وعقله المبتكر ، وعلمه الذي لم يزل في نمو مستمر ـ أن يكون ناقلاً لكلام المتكلِّمين المتقدِّمين ، أو يكون شارحاً له فحسب ، ولا تظهر شخصيته العلمية فيما يكتب ويؤلِّف ويفكِّر .

لقد كان علمُ الكلام أحوجَ العلوم والمباحث إلى النمو والتطور ومسايرة العصر ، لأنه يتكفَّل الإقناع ودفع الشبهات ، والعقلُ الإنساني متطورٌ ، والشُّبه والأسئلة تتجدَّد ، ولكل عصر تفكيرهُ ومشاكله ، ولكنه جَمُد جمودَ العلوم النقلية ، وغلب عليه التقليد ، وأصبح يُتناقل كرواية ، وأصبح المتكلمون الأشاعرة لا يطالبون بتَسليم عقائدهم فقط ، بل يُلِحُّون على تسليم المقدمات والدلائل التي استدلَّ بها الإمام أبو الحسن الأشعري ، والعلامة أبو بكر البَاقلَّاني ، لإثبات هذه العقائد ، ويُلحون على الاكتفاء بها ، ويَعدُّون العدول عن مسلك الأشعري قيدَ شَعرة؛ ضرباً من البدع والانحراف عن الصراط المستقيم .

لم يخضع الغزاليُّ لهذا التفكير ولهذا التقليد في علم الكلام وإثبات عقيدة الإسلام ، وتكلم في مؤلفاته العظيمة عن عقائد الإسلام والمباحث الكلامية

---

(١) لم يطبع من كتبه في الرد على الباطنية، إلا فضائل المستظهرية، وهو المعروف بالمستظهري، نشر منه (كولد تسيهر) قسماً كبيراً وبحث فيه بحثاً طويلاً باللغة الألمانية، طبع في ليدن ١٩١٦ مع المتن العربي، أما الكتب الأخيرة فمفقودة. كما يظهر من مقدمات «المنقذ من الضلال» للأستاذين جميل صليبا وكامل عياد [وقد طُبع كتابُ «فضائح الباطنية» بتحقيق الأستاذ محمد علي قطب في المكتبة العصرية ـ بيروت].

كلامَ مجتهد ، كلام واعٍ يعرفُ عقلية أهل عصره ، ويعرف من أين يَدخل إلى عقولهم وقلوبهم ، وأقام على هذه الحقائق مقدمات ودلائلَ جديدة.

وجاء في كلامه في صفات الله تعالى ، ومُعجزات الأنبياء ، والتكليفات الشرعية ، وإثباتِ العذاب والثواب ، والبرزخ والمعاد ، والجبر والاختيار، والقضاء والقدر، بمُقدمات وأمثلة ، تورِث الإذعان ، وتفتح القلب للإيمان.

ولم يُسبق إليها ، وعدَل عن تشكيكات المتكلِّمين ، ومُقدماتهم المنطقية إلى أسلوب واضح مُشَوِّقٍ يُسيغه العامة وأوساط الناس ، ولا يُناقشه الخاصة والعلماء ، ولم يلتزمْ تقليد الأشعري وأتباعِه في الكلام التقليدَ المُطْبَق؛ بل عدل عنه في مسائل قليلة؛ وبذلك قام بدور التجديد في علم الكلام الذي عجزَ في الدور الأخير عن إقناع الأذكياء من الشبابِ والمتعلِّمين ، وإفحام الأقوياء من الباحثين والمعترضين ، واستحقَّ بذلك كلِّه تقدير علماء الكلام ، ورجال المدرسة الأشعرية الفكرية بصفة خاصة ، إذ أعاد إليها الحياة والوقار ، واستحقَّ شكرهم وثناءهم؛ ولكن بالعكس ، استُهدِفَ الغزاليُّ للأئمة الأشعرية ، وفقهاء زمانه ، واسْتُهدِف لعتابهم وسخطِهم ، لأنَّه خرج عن الطريق المرسوم ، وجاء بشيء طريف لم يجدوه في كتبهم القديمة ، ولم يسمعوه من أساتذتهم ، وخالفَ في بعض المسائل الأشعريَّ وأتباعَه ، ويظهر أن بعض المتحمِّسين من هؤلاء قد شَمُّوا في بحوثه الطريفة رائحة «الزيغ والضلال»ولما انتشر كتابُه العظيم «إحياء علوم الدين» في العالم الإسلامي ، وعظُمَ الإقبالُ عليه والعناية به ـ وهو مشتمل على جزء كبير من هذه البحوث ، والأمثلة العديدة ـ اشتدت لائمَتُهم ، وصار بعضُهم يشك في صحة عقيدته واستقامته ، وقد كتب إليه بعضُ تلاميذه ومُحبِّيه بذلك ، وأظهر توجعه وحزنه ، لما يرى من العلماء والمعاصرين من التجهُّم له ، والتشكك في عقيدته ونسبتِه إلى الزيغ والانحراف ، وأجاب عن ذلك الغزاليُّ في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزَّندقة» يقول فيه:

«أمَّا بعد. فإنِّي رأيتُك ـ أيها الأخ المشفق ، والصَّديق المتعصب ـ موغرَ

الصدر ، مُقسَّم الفكر ، لما قرَع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمِهم أن فيها ما يُخالِف مذهب الصحاب المتقدِّمين ، والمشايخ المتكلِّمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعري ـ ولو في قَيْد شبر ـ كفرٌ ، ومباينَته ـ ولو في شيء نَزر ـ ضلالٌ وخُسر.

فهوِّن ـ أيها الأخ المشفق المتعصِّب ـ على نفسك ، لا تضق به صدرك! وفُلَّ من غرْبك قليلاً! واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً! واستحقر من لا يُحسد ولا يُقذف! واستصغرْ من بالفكر أو الضَّلال لا يُعرف! فأيّ داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين ﷺ؟! وقد قالوا: إنه مجنون من المجانين ، وأيُّ كلام أجلّ وأصدق من كلام رب العالمين؟! وقد قالوا: إنه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمعَ في إفحامهم ، فتطمعَ في غير مطمع ، وتُصوتَ في غير مَسمَع ، أما سمعت ما قيل:

كُلُّ العَداوة قد تُرجى سلامَتُها إلا عَداوةُ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ[1]

وبعدما ذكرَ دوافعَ هذا الإنكار والمخالفة ، وأنَّ الحاملَ على ذلك طلب الجاه والمال ، وأنَّ بضاعة المعترضين في العلم مسألةُ النجاسة ، وماءُ الزعفران وأمثالها[2] ، قال مخاطباً تلميذه الذي وجَّه إليه هذه الرسالة:

«فخاطب نفسك وصاحبك ! وطالبه بحَدِّ الكفر ، فإن زعم أنَّ حدَّ الكفر ما يُخالف مذهبَ الأشعري ، أو مذهب المعتزلي ، أو مذهب الحنبلي أو غيرَهم ، فاعلمْ أنه بليدٌ ، قد قيَّده التقليد؛ فهو أعمى من العميان؛ فلا تُضيِّع بإصلاحه الزمان! وناهيك حُجَّةً في إفحامه مقابلةُ دعواه بدعوى خصومه ، إذ لا يجد بَين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلاً ، ولعل صاحِبَه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعري ، ويزعُم أن مخالفته في كل وِرْدٍ وَصدْرٍ كُفر من الكُفْرِ الجَليِّ. فاسأله:

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: ص ٧ ـ ٨ مطبعة الترقي.

(٢) المصدر السابق: ١٠.

من أين ثَبت له كون الحق وقفاً عليه ، حتى قضى بكفر الباقلاني ، إذ خالفه في صفة البقاءِ لله تعالى ، وزعمَ أنه ليس هو وصفاً لله تعالى زائداً على الذات؟

ولم صار الباقلاني أولى بالكفر لمخالفته الأشعري من الأشعريِّ بمخالفته الباقلاني؟

ولم صار الحقُّ وقفاً على أحدهما دون الثاني؟ أكان ذلك لأجل السَّبق في الزمان؟ فقد سبق الأشعريَّ غيرُه من المعتزلة ، فليكن الحق للسابق عليه! أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم؟ فبأيِّ ميزان ومكيال قدَّر درجات الفضل؛ حتى لاحَ له أن لا أفضل في الوجود من متبُوعه ومقلَّده؟ فإن رخَّص للباقلاني في مخالفته ، فلِمَ حَجَر على غيره؟

وما الفرقُ بين الباقلاني والكرابيسيِّ والقلانسيِّ وغيرهم؟ وما مَدْرَكُ التخصيص بهذه الرخصة؟

وإنْ زعم أنَّ خلاف الباقلاني يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه ، كما تعسَّف بتكلُّفه بعض المتعصبين ، زاعماً أنهما متوافقان على دوام الوجود ، والخلاف في أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد ، فما باله يَتشدَّد القول على المعتزليِّ في نفيه الصفات. . . إلخ»[1].

ناقش الغزاليُّ في هذه الرسالة خصمَه في هذا التفكير الضيِّق ، وذكَر أنَّ الفحول من العلماء ، والمستقلين بالتفكير ، لم يزالوا ينظرون في المسائل نظرَ المجتهدين ، ويُدلون بآرائهم ، وأنَّ العدول عن رأي سابق في بعض وجهات النظر لا يُعتبر مروقاً في الدين ، قال:

«ولعلَّك ـ إن أنصفتَ ـ علمتَ أنَّ من جعل الحق وقفاً على واحد من النُّظار بعينه ، فهو إلى الكفر والتناقض أقرب.

---

(١) فيصل التفرقة: ص ١١ ـ ١٦.

أمَّا الكفر ، فلأنَّـه نزَّله منزلةَ النبيِّ المعصوم من الزَّلَل الذي لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفرُ إلا بمخالفته .

وأمَّا التناقض: فهو أنَّ كل واحد من النُّـظَّـار يُوجب النظر ، وألاَّ تَـرى في نظرك إلا ما رأيتَ ، وكلَّ ما رأيتَه حجـة. وأيُّ فرق بين من يقـول قَلِّدني في مُجرد مذهبي ، وبين من يقول قلِّدني في مذهبي ودليلي جميعاً؟ وهل هذا إلا التناقض»؟ (١) .

ومع كونِ الغزاليِّ من كبار متكلِّمي الإسلام ومن كبارِ النُّظَّار ، فهو لا يُوافق علم الكلام في جميع اتجاهاته؛ بل ينتقِده على غُلُوه وإسرافه ، وينتقد المتكلمين على مؤاخذة عوام المسلمين بعلم الكلام ، وتكليفهم بمعرفة الدلائل الكلامية ، والتقسيمات المرتبة ، وأن من يجهل ذلك ، ولم يعرف الله عن طريق الكلام والأدلة المحررة ، فهو ناقصٌ في دينه أو شاكٌّ في يقينه .

وبيَّن ـ في شجاعة وصراحة ـ أنَّ الأمر أوسعُ من ذلك ، وأنَّ الإيمان له وسائلُ وطُرقٌ لا تنحصر في علم الكلام. يقول رحمه الله :

«مِنْ أشدِّ الناس غُلوّاً وإسرافاً طائفةٌ من المتكلِّمين ، كفَّروا عوامَّ المسلمين ، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حرَّرناها ، فهو كافر ، فهؤلاء ضيَّقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً ، وجعلوا الجنةَ وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين ، ثم جَهِلوا ما تواتر من السُّنة ثانياً؛ إذ ظهر لهم في عهد رسول الله ﷺ ، وعصر الصحابة رضي الله عنهم حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه ، ومَنْ ظَنَّ أن مَدْرَكَ الإيمان الكلامُ ، والأدلة المجردة ، والتقسيمات المرتبة ، فقد أبدَع جِدَّ الإبداع ، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده ، عَطِيةٌ وهدية من عنده ، تارةً ببيِّـنة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها ، وتارة بسبب رؤيا المنام ،

(١) فيصل التفرقة: ١٨ .

وتارة بمشاهدة حال رجل متدين ، وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينة حال» [(١)] .

ويقول بعد سطور :

«نعم ! لستُ أُنكر أنَّه قد يجوز أن يكون ذِكر أدلة المتكلِّمين أحدَ أسباب الإيمان في حق بعض الناس ، ولكنْ ليس بمقصور عليه ، وهو أيضاً نادر ، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن .

فأمّا الكلامُ المحرَّر على رسم المتكلمين ، فإنه يُشعر نفوسَ المستمعين بأن فيه صنعةً وجدَلاً ، ليعجز عنه العاميُّ ، لا لكونه حقاً في نفسه ؛ وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد في قلبه ، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلِّمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره ، ولا عن مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة ، ولا على العكس .

وتجري هذه الانتقالات بأسباب أخر حتى في القتال بالسيف ؛ ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة لهذه المجادلات ؛ بل شدَّدوا القول على من يخوض في الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال» [(٢)] .

وازدادَ الغزاليُّ ـ مع الأيام ، وبعد التجارب العلمية ـ اقتناعاً بأنَّ أسلوب القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعمُّ وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة ، وبأنَّ علم الكلام علاجٌ مؤقتٌ ومختصٌّ بمَن نشأ عنده شكوك وشبهات ، ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة إليه .

أمّا القرآن فكالغذاء الصالح ؛ والماء السائغ ، يحتاج إليهما كل إنسان وينتفع ، ولا ضرر فيه ولا خطر . يقول في كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» الذي هو من آخر مؤلفاته :

---

(١) فيصل التفرقة : ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) المصدر السابق : ص ٦٩ ـ ٧٠ .

«فأدلَّةُ القرآن مثلُ الغذاء ، ينتفع به كل إنسان ، وأدلةُ المتكلمين مثل الدواء ، ينتفع به آحاد الناس ، ويَستضرُّ به الأكثرون؛ بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع بـه الصبيُ الرضيع ، والرَّجل القـوي ، وسائـر الأدلـة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مَرَّة ، ويَمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيانُ أصلاً» (١).

ويَذكُر تجربتَه ومشاهدَته كشاهدٍ على ذلك :

«والدليلُ على تضرُّر الخلق به المُشَاهدةُ والعَيان والتجربة ، وما ثار من الشرِّ منذ نبغ المتكلِّمون وفشَتْ صناعة الكلام ، مع سلامة العنصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك» (٢).

وهكذا تتجلَّى شخصيةُ الغزالي في نَقْدِ الفلسفة وعلم الكلام ، شخصية فريدة مُستقلة التفكير ، قَويّة التأثير ، تمتازُ بسلامة الفكر ، واتِّزان العقل ، وحَصافة الرأي ، وعُمْق النظر ، والثِّقة بالنفس ، له منهجٌ خاص في نقد الفلسفة ، وفي علم الكلام ، وإثباتِ العقيدة الإسلامية ، وهو ممَّن توفَّرت عندهُ أدوات الاجتهاد في هذا الموضوع ، فكان مِن أئمَّة هذا الفنَّ المجتهدين ، ومن كبار المؤلِّفين المُنتجِين.

* * *

(١) إلجام العوام عن علم الكلام: المطبعة الميمنية ص ٢٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٠.



المحاضرة العاشرة:

حُجّةُ الإسلام الغزالي
مُصْلِحٌ اجتماعي

تحدَّثنا في الفصل السابق عن أُولى الناحيتين الرئيسيتين في تجديد الغزالي وإصلاحه ، وهي ناحية نقد الفلسفة ، وتجديد علم الكلام ، ونتحدثُ في هذا الفصل عن الناحية الثانية ، وهي الحسبة على المجتمع الإسلامي المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية ، والروحِ ، والتحلي بالحقائق ، ويُمثِّل هذه الناحيةَ كتابُه العظيم «إحياء علوم الدين» .

إحيَاءُ عُلومِ الدِّين:

إنَّ كتاب «إحياء علوم الدين» من كُتب الإسلام المعدودة التي أثَّرت في حياة المسلمين وتفكيرهم تأثيراً عميقاً ، وظلت تُسيطر على عقولهم ونفوسهم زمناً طويلاً ، ولا يزال له نفوذٌ في الأوساط الدينية ليس لغيره ، ولم يزل العلماء وأهل النظر يُثنون عليه ، ويعترَفون بجلالة مكانته وتأثيره .

قال الحافظُ الإمام زين الدين أبو الفضل ، المعروف بالعِراقي ، صاحبُ «الألفية في مصطلح الحديث» (ت ٨٠٦) : «إنَّه من أجلِّ كُتب الإسلام» [1] ،

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء : للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس ، ص ١٤ .

وقال الشيخ عبد الغافر الفارسي ـ وهو معاصر للغزالي ومن تلاميذ إمام الحرمين ـ: إنَّه من تصانيفه المشهورة التي لم يُسبق إليها»[1] ، وقال الشيخ أبو محمد الكَازَرُوْنِي: «لو مُحِيتْ جميعُ العلوم لاستُخرجَتْ من الإحياء»[2].

وكان الإمام «النووي» شديدَ الإعجاب به ، عظيم الشغف.

إنَّ لهذه الأقوال ، وكثيراً مما نقله الآخرون ، إن لم تَخلُ من شيء من المبالغة ، فإنَّها تدل على خضوع الناس لتأثير الكتاب ، وظلَّ العلماءُ عاكفين على مطالعته وشرحه[3] وتلخيصه.

وكان الإمامُ ابن الجوزي (٥٩٧هـ) يَنتقِدُ على الغزالي في مواضع كثيرة ، ويرى أنَّ كتاب الإحياء قد اشتمل على أحاديثَ كثيرة لا تَصِحُّ ولا تثبُت على طريق المحدِّثين[4] ، ومع ذلك يَعترف بتأثيره ، وقد اختصر الإحياء في كتاب ، وسمَّاه «منهاج القاصدين».

وقد صنَّفَ الغزاليُّ هذا الكتاب ، وقد خرج من بغداد في طلب السعادة واليقين، واشتغل بالعبادة والمجاهدة والانقطاع عن الناس، ومرَّتْ به أدوارٌ من الخوف والرجاء ، والزُّهد والتَّبَتُّل ، والمعرفة واليقين.

وصنَّف هذا الكتاب بعدما تذوَّق كلاًّ من هذه الأحوال؛ فجاء الكتاب صورةً لنفسيته وانطباعاته وتأملاته؛ لذلك كان شديدَ التأثير في نفوس قرائه؛ ولذلك نجِدُه يتدفَّق حياة وقوَّة.

لقد رأى الغزاليُّ ـ بعدما أكرمه الله بالسعادة الروحية ، والمعرفة الحقيقية ، وانكشفتْ له حقيقة العلم ـ حقيقةَ ما فيه أهلُ الدنيا ، من العكوف على اللذات

---

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء: ص ١٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥.

(٣) من أجلِّ هذه الكتب كتاب «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» في عشرين مجلداً للعلامة السيد مرتضى الزبيدي البلكرامي الهندي (ت ١٢٠٥) وقد اشتمل على مادة غزيرة فيما يتصل بالعلوم الدينية والأدبية.

(٤) راجع «تلبيس إبليس» لابن الجوزي.

وعبادةِ الشهوات ، والتكالُب على الحياة ، وحقيقةَ ما فيه أهل العلم ورجالُ الدين: من طلبِ الجاه والرياسة ، ونيل الحظْوةِ عند أهل الحكم والسياسة ، والجدلِ الفارغ ، والنقاش الحاد ، والاكتفاء بمسائل الفروع والأحكام، والانصراف عن علم الآخرة، وتهذيب النفس، وحقيقة ما فيه المنتدَبون للإصلاح والدعوة من الكلام المُزَخرف ، واللَّفْظ المُسجَع ، والقصَص المُلْهِية .

ورأى عموم الفساد ، وغفلة الناس ، وسُكوت العلماء ، وفُقدان النذير؛ فانبعثَ في نفسه داعيةٌ قوية لتأليف هذا الكتاب الذي يَكشف عن الناس الغطاء ، ويبين لكل طبقة من طبقات الأمة ما فيه هذه الطبقةُ من أوهام وأحلام ، ويكونُ دعوة صارخة سافرة إلى الاستعداد للموت ، والتأهب للآخرة ، والأخذ بلباب الدين وحقيقته ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه ، يقول رحمه الله:

«فأدِلَّة الطريق هم العلماءُ الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغَر منهُم الزمانُ ، ولم يبق إلا المتمرِّسون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستهواهم الطغيان ، وأصبحَ كل واحد بعاجل حَظِّه مشغوفاً؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً؛ حتى ظل علم الدين مندَرساً ، ومَنارُ الهدى في منطقة الأرض منطمساً .

ولقد خيَّلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعينُ به القضاة على فصل الخِصام عند تهاوش الطّغام ، أو الجَدل يتذرَّع به طالبُ المباهاة إلى الغَلَبَة والإفحام ، أو سَجْعٌ مزخرف يَتوسَّلُ به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذا لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدةً للحرام ، وشَبكة للحطام .

فأمَّا علمُ طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة ، وعلماً وضياء ونوراً ، وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً ، وصار نسياً منسياً ، ولما كان هذا ثلماً في الدين مُلماً، وخطباً مُدلهماً ، رأيتُ الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مُهمّاً لإحياء علوم

الدين ، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمناحي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين»[١] .

نَقدُ المجتَمع والحسبَةُ عَليه:

وكان لابـدَّ للإصلاح الذي نَهض لـه الغزالي ، وجاشتْ له نفسه ، وتحرَّكت مواهبه ، أن يعرف المجتمع الإسلامي مواضعَ الضعف والفساد في حياته ، ويَعرف علَله وأدواءه ، وكان لابد لذلك من أن تَعرف طبقاتُه المختلفة ، كيف لَبَّس عليها إبليس؟ وما هي الأوهام التي تعيش فيها؟ وكيف تغيرتِ المفاهيم الدينية؟ وكيف تشوَّهت الحقائق؟ وكيف تشاغلَ الناس بالظواهر والأشكال والرسوم؟ وكيف ابتعدوا عن الحقائق والمقاصد ، حتى أصبح المجتمعُ كله ـ إلا من عصمَ اللهُ ـ في شُغْل شاغل عن الآخرة ، وما ينفع فيها وما يلزم لها؟ وأصبح المفكِّرون في أمور الآخرة ، والسَّاعون لرضا الله تعالى قِلَّـةً قليلةً .

عَرف الغزاليُّ هذا قبل أن يُؤلِّف الكتابَ؛ فنظر إلى المجتمع من خلال المقاييس الدينية الصحيحة؛ فبيَّن بكل صراحة وقوة ما وقعَ فيه من انحرافٍ وابتعاد عن الجادة ، وتناوَلَه طبقةً طبقةً ، فذكر أمراضَها ومغالطاتِها ، وميَّزَ بين المقاصد والغايات ، والوسائل والآلات ، وقسَّم العلوم: بين العلوم الدينية وبين العلوم الدنيوية ، وبين العلوم المحمودة والعُلوم المذمومة ، وبين فَرض العين وفرض الكفاية ، ونبَّه على ما هو فرضٌ ومُتعيِّنٌ في زمانه لا يسع العالِم تركُه ، وما فيه مُتَّسَعٌ ومندوحة ، وذكر العلل التي تَخُصُّ الأغنياء وأهل اليسار وذكر أوهامَهم وغرورهم ، وانتقدَ الملوك والأمراء بشجاعة ، وأنكَر عليهم مظالمهم وأعمالهم المخالفَة للشرع ، وقوانينهم المعارضَة للدين ، وذكر شيئاً كثيراً من أمراض العامة ، والمُنكرات الفاشية في مختلف الطبقات ، والعادات المذمومة والعوائد الجاهلية ، والبدع المنتشرة؛ وبذلك كان هذا الكتاب

---

(١) إحياء علوم الدين: ص ٣ ، ج١ طبع الحلبي.

موسوعةً إسلامية اجتماعية ، وأوسعَ كتاب وأقواهُ في نقد المجتمع والدعوة إلى الإصلاح.

العُلماء ورجَال الدِّين:

يعتقد الغزالي أنَّ التَّبعة الكبرى في هذا الفساد الشامل؛ والضَّعف في الدين والانحلال في الأخلاق ، تقعُ على العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الأول في فساد هذه الأوضاع؛ لأنهم مِلْحُ الأمَّة ، وإذا فسد المِلحُ فما الذي يُصلحه؟! ويتمثَّل الغزالي ببيت خُوطب فيه العلماء:

يـا مَعْشَـرَ القُـرَّاء يـا مِلْـحَ البَلَـدْ ما يُصْلِـحُ المِلْـحَ إذا المِلْحُ فَسَـدْ [١]

ويذكرُ كيف مَرضتْ قلوب النـاس ، واشتدتِ الغفـلة عن المعـاد ، ويذكر أسباب ذلك ، فيذكر منها مَرض العلماء واعتلالهم ، وهم أطبَّاء القلوب ، يقول:

«والثالثـة: ـ وهو الـدَّاء العُضَـال ـ فَـقْد الطبيب؛ فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرِضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً ، وعجزوا عن علاجه».

ويَقُولُ في موضِع آخر:

«فإنَّ الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهمُ المرض ، فالطبيبُ المريضُ قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الدَّاءُ عُضَالاً ، والمَرض مُزمناً ، واندرس هذا العلم ، وأُنكِر بالكلية طبُّ القلوب ، وأُنكرَ مرضُها ، وأقبل الخلق على حبّ الدنيا ، وعلى أعمالٍ ظاهِرُها عباداتٌ ، وباطنُها عاداتٌ ومُراءاة» [٢].

ويَردُّ الغزاليُّ فساد الملوك والأمراء ، إلى ضعف العلماء وإهمالهم لواجبهم يقول: «وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك

---

(١) إحياء علوم الدين: ج١ ، ص ٥٤.
(٢) المصدر السابق: ج٣ ، ص ٥٤.

لفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء ، لقلَّ فساد الملوك ، خوفاً من إنكارهم» [١] .

وَيلومُ الغزاليُّ العلماء على تقاعدهم عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلمة الحق عند سلطان جائر ، ويُعلِّل ذلك بوقوع العلماء في شِباك الأمراء ، وحُبِّهم للدنيا ، وطلبهم للجاه .

يقول ـ بعدما يروي حكايات تدل على شجاعة العلماء السلف ، وإنكارهم على الملوك والكبراء ـ :

«فهذه كانت سيرةُ العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يَحرسهم ، ورضُوا بحكم الله تعالى أن يرزقَهُم الشهادة ، فلمَّا أخلصوا للهِ النيةَ أثَّر كلامهم في القلوب القاسية ، فليَّنَها ، وأزَال قَساوتَها .

وأمَّا الآن فقد قَيَّدتِ الأطماعُ ألسُنَ العلماء ، فسكتوا ، وإن تكلموا لم تُساعد أقوالَهم أحوالُهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقَصدوا حقَّ العلم لأفلحوا ، ففسادُ الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفسادُ العلماء باستيلاء حبِّ المال والجاه ، ومن استولى عليه حُبُّ الدنيا لم يقدر على الحُسبةِ على الأرذال ، فكيف على الملوك والأكابر؟ والله المستعانُ على كل حالٍ» [٢] .

لاحظ الغزاليُّ ـ وقد قضى مدة طويلة في التدريس والإفتاء ، وعاش بين العلماء وخَبَر سيرتهم ـ أنه قد شُغل الناس بالجُزئيات الفقهية ، والمسائل الخلافية ، ووقَع الاكتفاء بعلم الفقه والفتيا ، وانصرفَ بذلك العلماءُ وطلبة العلم عن العلوم النافعة ، والأشغال المفيدة الأخرى ، وشُغلوا عن العلم الذي يُصلحون به نفوسهم ، وينالون به سعادة الدنيا والآخرة ، وجَهلوه ، يقول :

---

(١) إحياء علوم الدين: ج٢ ، ص ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق: ص ١٢ ، ج٣ .

«ولو سُئل فقيهٌ عن معنًى من هذه المعاني ، حتى عن الإخلاص مثلاً ، أو عن التوكُّل ، أو عن وجه الاحتراز عن الرِّياء ، لتوقَّف فيه ، مع أنه فرض عينٍ والذي في إهماله هلاكُه في الآخرة.

ولو سألته عن اللعان ، والظهار، والسَّبق ، والرمي ، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تَخْلُ البلد ممَّن يقوم بها ، ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يتعبُ فيها ليلاً ونهاراً ، وفي حفظه ودَرسه ، ويغفلُ عما هو مهم لنفسه في الدين ، وإذا رُوجع فيه ، قال: اشتغلت به لأنه علمُ الدين ، وفرْض الكفاية ، ويُلبِّسُ على نفسه وعلى غيره في تَعلُّمِهِ.

والفَطِنُ يعلم أنه لو كان غرضُه أداءَ حقِّ الأمر في فرض الكفاية ، لقدَّم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيبٌ إلا من أهل الذمَّة ! ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلَّق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحداً يشتغل به ، ويتهافتون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات؛ والبلدُ مشحونٌ من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى ، والجواب عن الوقائع.

فليت شعري ! كيف يُرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض الكفاية قد قام بـه جماعة ، وإهمال ما لا قيام بـه ؟ هل لهذا سببٌ إلا أن الطب ليس يتيسَّر الوصول به إلى تولِّي الأوقاف والوصايا ، وحيازةُ مال الأيتام وتقلُّد القضاء والحكومة ، والتقدمُ على الأقران ، والتسلُّط به على الأعداء؟» [(١)].

ولاحظَ كذلك ـ وقد شاهد بعينه ـ أنه قد نفقت سوقُ المناظرات في الفقه والعقائد وعلم الكلام ، وطغتْ على كل شيء حتى أصبحتْ زينةَ الأعراس والمآتم ، ومجالس الملوك والأمراء ، وأصبحت كسباقِ الخيل ، ونِطاح الأوعال ، وتَناقُر الدِّيَكةِ ، يتفرَّجُ عليه الأغنياء والأمراء.

---

(١) إحياء علوم الدين: ج١ ، ص١٩.

وقد ذكر أنَّ عِظَم إقبال العلماء على هذا الفنِّ ، وبراعتهم فيه ، لرغبة الملوك والأمراء في ذلك ، وتطوَّرت مع تطوُّر رغبة الأمراء واتجاهاتهم ، وإنما الملك سوقٌ يجلب إليها كل بضاعة تروج فيها ، وهو في ذلك يَظهر مُؤرِّخاً دقيقَ النظر ، قَويَّ الملاحظة ، يقول بعد ما ذكر الدور الأول:

«ثمَّ ظهَرَ بعدَهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها ، فعُلِمتْ رغبتُه إلى المناظرة والمجادلة في الكلام؛ فأكبَّ الناس على علم الكلام، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتَّبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فُنونَ المناقَضات في المقالات ، وزعموا أنَّ غرضهم الذَّبّ عن دين الله ، والنضال عن السنَّة ، وقَمْع المبتدعة ، كما زعم مَنْ قَبلهم أن غرضهم من الاشتغال بالفتاوى الدِّينُ ، وتقلُّد أحكام المسلمين؛ إشفاقاً على خلق الله ، ونصيحةً لهم.

ثمَّ ظهر بعد ذلك من الصدور، من لم يَستصوب الخوض في الكلام ، وفَتْح باب المناظرة فيه؛ لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصُّبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه ، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص؛ فترك الناسُ الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعيِّ وأبي حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك ، وسفيان ، وأحمد ـ رحمهم الله تعالى ـ وغيرهم، وزعموا أنَّ غرضهم استنباط دقائقِ الشرع، وتقريرُ عِلل المذهب ، وتمهيدُ أصول الفتاوى. وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات، ورتَّبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مُستمرون عليه إلى الآن ، ولسنا ندري ، ما الذي يُحدِث الله فيما بعدنا من الأعصار؟

فهذا هو الباعثُ على الإكْباب على الخلافيات والمناظرات لا غيرُ ، ولو مَالتْ نفوسُ أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة ، أو إلى علمٍ آخر من العلوم ، لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعليل بأن ما اشتغلوا به هو

عِلْمُ الدين ، وأنْ لا مطلبَ لهم سوى التقرُّب إلى رب العالمين» [١] .

وتكلَّم بعد ذلك الغزاليُّ بتفصيل في آفاتِ المناظرة وما يتولَّدُ منها من مُهلكات الأخلاق وقد عرفَ ذلك عن تجربة واختبار؛ فقد كانَ فارسَ هذا الميدان وإماماً من أئمة هذا الشأن ، وكلامُه كلامُ خبيرٍ مُجرِّب [٢] .

وقد فَطِن الغزاليُّ ـ لذكائه الباهر وتجربَتِه العلمية ـ أنَّ من أسباب الالتباس وانخداع الناس بالمظاهر ، وبُعدِهم عن الحقائق ، هو أنه قد فشا في هذا العصر استعمال كلمات القرآن والحديث في غير محلها ، وفي غير معناها الأصيل القديم ، وصار يُفهم منها ما لم يكن يُفهم في العصر الأول؛ يَعقِدُ في كتاب «الإحياء» فصلاً خاصاً في بيان ما بُدِّلَ مِن ألفاظ العلوم ، ويقولُ في مُفْتَتَحِه :

«اعلمْ أنَّ منشأَ التباسِ العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريفُ الأسامي المحمودة ، وتبديلُها ونقلُها بالأغراض الفاسدة إلى معان غَير ما أراده السَّلَف الصالح والقَرْن الأول، وهي خمسَة ألفاظ: الفقهُ، والعلمُ، والتوحيدُ ، والتذكيرُ ، والحِكمة ، فهذه أسام محمودةٌ ، والمتَّصفون بها أربابُ المناصب في الدين ، ولكنها نُقِلَتِ الآن إلى معانٍ مذمومة؛ فصارت القلوب تَـنْفر عن مذمَّة من يتَّصف بمعانيها لشُيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم» [٣] .

ثُم شَرَحَ أنَّ اسمَ الفقه كان يُطلق في العصر الأول على عِلْم طريقِ الآخـرة ، ومعرفةِ دقـائق آفـاتِ النفوس ، ومُـفسدات الأعمـال ، وقُـوة الإحاطةِ بحقارة الدنيا ، وشدَّة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاءِ الخوف على القلب .

فخُصِّصَ في هذا العَصر بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى ، والوُقوف على دقائقِ عِلَلِها ، واستكثار الكلام فيها ، وحِفظِ المقالات المتعلِّقة بها .

---

(١) الإحياء: ج١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢) راجع الجزء الأول من كتاب «الإحياء» ص ٤٠ ـ ٤٣ .

(٣) الإحياء: ج١ ، ص ٢٨ .

وكان لفظُ العلم يُطلق على العلم بالله تعالى ، وبآياتِه وبأفعاله في عباده وخلقِه ، وتَصرَّف فيه أهلُ الزمان بالتخصيص ، حتى شهَروه في الأكثر بمن يشتغل بالمُناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها .

وكان التوحيدُ عند الأوَّلين ، هو أن يرى الإنسانُ الأمورَ كُلَّها من الله عز وجل رُؤيةً تقطع التفاتَهُ عن الأسباب والوسائط؛ فلا يَرى الخير والشَّر كله إلا منه جلَّ جلاله ، وقد جُعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفةِ طريق المجادلة ، والإحاطة بطُرق مناقضات الخصوم ، والقُدرة على التشدق فيها ، بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات؛ حتى لقَّب طوائف منهم أنفسَهم بأهل العَدْل والتوحيد ، وتسمَّى المتكلِّمون العلماءَ بالتوحيد.

والتذكيرُ هو الذي عناه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] فنُقل ذلك إلى ما ترى أكثرَ الوعاظ في هذا الزمان يُواظبون عليه ، وهو القصص ، والأشعار ، والشَّطْحُ ، والطَّامات.

والحِكمة هي التي أثنى الله عزَّ وجلَّ عليها فقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فصار اسم الحكيم يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجم؛ حتى على الذي يُدحرج القَرْعة على أكُفِّ السَّوادية في شوارع الطُّرق»[١].

وبعد هذه المقارنة بين معاني هذه الألفاظ القديمة ومحلِّ استعمالها ، وبين معانيها المُحدثة ومحل استعمالها ، وبيانِ التحريف الذي وقع في إطلاق هذه الكلمات وتفسيرها يقولُ:

«فقد عرفتَ كيف صرفَ الشيطانُ دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة ، فكلُّ ذلكَ من تلبيس عُلماء السوء بتبدُّلِ الأسامي ، فإن اتبعتَ هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفاتٍ إلى ما عُرف في العصر

(١) انظر «الإحياء» بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ص ٢٨ ـ ٣٤ الجزء الأول.

الأول ، كنُتَ كمنْ طَلبَ الشرف بالحكمة باتباع من يُسمَّى حكيماً؛ فإنَّ اسمَ الحكيم صار يُطلَق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ».

وهكذا يُهِيب الغزاليُّ بالعلماء ، في قُوة وصراحة وشجاعة وإخلاص وعُمق وتحليل علمي ، ويُثير فيهم الغيرة والشعور ، ويَستحِثُّهم على الرجوع إلى مركزهم في الأمة ، وهو خِلافة الأنبياء والوِصاية الدينية والخلقية على المجتمع الإسلامي ، والحُسبة على الحكومة والحكَّام ، والخواصِّ والعوام ، معتقداً بأنهم حَجَرُ الزاوية في إصلاح المجتمع ، وبصلاحهم صلاَح العالم ، وبفسادهم فسادُ العالم ، ثم يلتفتُ إلى السلاطين والأمراء ، لأنهم الركنُ الثاني في إصلاحِ النوعِ الإنساني.

المُلوكُ والأمراء:

لقد كانتِ الحكوماتُ في عصر الغزالي حكومات شخصيةً مستبدّةً ، وكان نَـقْـدُ السلاطين على سياستهم وأموالهم وتصرُّفاتِهم مُجازفةً بالحياةِ ومغامرةً قد تُودي إلى الحبس والإهانة والعقوبات المؤلمة. وكثيراً ما تُؤدِّي إلى القتل والنَّفي.

وكان الذي يَرفضُ وظيفةً أو منصباً يُقدِّمه السلطان ، أو يَرفُض عطية سلطانية ، يُعتبر في أكثر الأحيان خارجاً على الحكومة غير وَفيٍّ لها؛ ولكن كل ذلك مما كان يَعْلَمُه الغزالي ـ وهو العالم المطَّلع الواعي ـ لم يَمْنَعْه من إبداء رأيه الصريح. في أموال الملوك والسلاطين في عصره ، وعن نقدِ سياسَتِهمُ المالية ، يقول في «الإحياء»:

«إنَّ أموال السلاطين في عصرنا حرامٌ كُلُّها أو أكثرُها ، وكيف لا ، والحلالُ هو الصدقات والفَيء ، والغنيمة، ولا وجود لها! وليس يَدخُل منها في يد السلطان ، ولم يَبق إلا الجزية ، وإنها تُؤخذ بأنواع من الظلم لا يَحلُّ أخذُها به ، فإنَّهم يجاوزون حدودَ الشرع في المأخوذِ والمأخوذ منهُ ، والوفاءِ

له بالشرط ، ثم إذا نُسب ذلك إلى ما يُنصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ، ومِنَ المصادرات والرِّشا وصُنوف الظلم لم يبلغ عُشر مِعشار عُشيره»(١) .

ويَعرف الغزاليُّ ـ وهو الذي عاش بين العلماء ـ أنَّ كثيراً من أهل العلم ، والمتصلين بالملوك والأمراء ، يستدلون بقبول كثير من السلف أموالَ السلاطين وجوائزهم وصِلاتهم ، فيُبَيِّنُ الفَرق بين الأوضاع الأولى وأوضاع العصر ، ويُثبِت أنه لاَ يَصحُّ القياس على أحوالهم ، يقول:

«إنَّ الظلمة في العصر الأول ـ لقُرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين ـ ، كانوا مُستَشعرين من ظلمهم ، ومُتشوِّقين إلى استمالةِ قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلَّدون المِنة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويُفرقون ، ولا يُطيعون السلاطين في أغراضهم ، ولا يَغْشون مجالسَهم ، ولا يُكثِّرون جمعَهم ، ولا يُحِبُّون بَقاءهم؛ بل يَدْعُون عليهم ويُطلقون اللسان ، ويُنكرون المنكراتِ منهم عليهم؛ فما كان يُحذرُ أن يُصيبوا من دينهم بقَدر ما أصابوا من دُنياهم ، ولم يكن بأخذِهم بأسٌ.

فأمَّا الآن ، فلا تَسمحُ نفوسُ السلاطين بعطيَّةٍ إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثُّر بهم ، والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمُّل بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم المواظبةَ على الدعاء والثناء ، والتزكية والإطراء في حضورهم ومَغيبهم ، فلو لم يُذل الآخذُ نفسه بالسؤال أولاً ، وبالتردُّد في الخدمة ثانياً، وبالثناء والدعاء ثالثاً ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وبإظهار الحُب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادساً ، وبالسَّتر على ظلمه ومقابحه ومساوىء أعماله سابعاً ، لم يُنعم عليه بدرهم واحدٍ ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله

---

(١) انظر «الإحياء» ما بدل من ألفاظ العلوم ص ١٢٢ ج٢.

مثلاً؛ فإذاً لا يجوز أن يُؤخذ منهم في هذا الزمان ما يُعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيف ما يُعلم أنه حَرامٌ أو يُشكُّ فيه! فمن استجرأ على أموالهم، وشبَّه نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاسَ الملائكة بالحدَّادين»[١].

وقيمةُ هذه الكلمة الجريئة لا تُعرف إلا في جَوِّ الحكومات الشخصية الرهيب الذي كانت كلمةٌ واحدةٌ تصدر من عالم أو مؤلف في نَقْدِ ملِكٍ أو حاكم تُطيحُ بحياته.

ولم يَكْتَفِ الغزاليُّ بالدعوة إلى الامتناع من قبول العطايا السُّلطانية ورفضها، بل دعا إلى الاعتزال عن السلاطين الجائرين، واعتقادِ بُغضهم، وكراهةِ حياتهم، والابتعاد عنِ المتصلين بهم، يقول في «الإحياء»:

«الحالةُ الثالثةُ: أن يَعتزلَ عنهم؛ فلا يراهم ولا يرونه، وهو الواجب، إذ لا سَلامة إلا فيه؛ فعليه أن يَعتقد بُغضهم على ظُلمهم، ولا يُحبُّ بقاءهم، ولا يُثني عليهم، ولا يَستخبِرُ عن أحوالهم، ولا يتقرَّب إلى المتَّصلين بهم»[٢].

مُصَارَحتُه السلاطينَ والوُزراءَ بالحقّ وحثُّهم على الإصْلاح:

ولم يقتصر الغزاليُّ على إبداء آرائه في السلاطين الجائرين في مؤلفاته؛ بل أبدى رأيَه وجهرَ بالحقِّ والنصيحة أمام الملوك كُلَّما سَنَحَتْ له فرصةٌ، وقد قال للسلطان «سنجر بن ملْك شاه السَّلْجُوقي» الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها:

«أسفاً! إنَّ رقاب المسلمين كادَت تنقضُّ بالمصائب والضرائب، ورقابُ خيلك كادت تنقضُّ بالأطواق الذهبية»[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين: ص ١٢٢ ـ ١٢٣ج ٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ١٢٨.

(٣) رسائل الإمام الغزالي: بالفارسية.

وقد كَتَبَ إلى أخيه الأكبر مُحمد بن ملْك شاه ـ وكان أكبر ملوك عصره ـ رسالة ذكَّره فيها بمسؤوليته ، وحذَّره من عقاب الله وغضبه ، ولفت نظَرَهُ إلى إصلاح المملكة.

وكان الوزيرُ في الحكومات الشخصية في الشَّرق هو الذي يَملك زمامَ المملكة ، وبيَده الحَلُّ والعَقد؛ فإذا صَلح صَلحت الدولة ، وإذا فسد فسدَت الدولة ، وكان الغزاليُّ يعرف هذا جيداً ، وقد عاصر «نظام الملك» الطوسيّ وَزير المملكة السَّلجوقية العظيمة ومديرَها ، وعاصر أبنَاءه؛ فاعتنى بوزراء المملكة أكثرَ مما اعتنى بالملوك؛ لأنَّهم مفتاح المملكة ، وموجهوها ، والمباشرون للأمور ، وكَتب إلى وزراء المملكة رسائلَ مستفيضة ، ولفتَ نظرهم بكل جُرأة وصراحةٍ إلى فساد الأوضاع ، وجَوْر الحكام وابتزازهم للأموال ، وما كان يعانيه الشعب من حَيْف الأمراء ، وغَفْلَةِ المسؤولين ، وطَمَعِ الموظفين ، وحذَّرهم عقابَ الله وبَطْشَهُ ، وذكرهم بمصير الوزراء السابقَين ، والحكام الظالمين ، وحثَّهم على إصلاح الجهاز الإداري ، وتنظيمَ الحكومة والضَّرْب على يد الظلمة. ورسائلُه الفارسية التي وجهها في هذا المعنى إلى الوزراء مثالُ الشجاعة والصَّدْع بالحق ، ومثالٌ لقوة الإنشاء وبلاغة التعبير. ومنها رسالة إلى فَخْر الملك ، يقول فيها:

«اعلمْ أنَّ هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناسَ توجُّهك من إسفرائن ودامغان خافوا ، وبدأ الفلاَّحون يبيعون الحبوبَ، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستَسْمَحوهم؛ لما كانوا يتوقعون من إنصافٍ منك ، واستطلاع للأحوال ، ونشاطٍ في الإصلاح. أما وقد وصَلْتَ إلى طُوس ، ولم يَر الناس شَيْئاً فقد زال الخوف ، وعاد الفلاحون والخبَّازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار ، وتشجَّع الظالمون ، وكل من يُخبرك من أخبار هذا البلد بخلافِ ذلك ، فاعلم أنه عَدُوُّ دِينك».

«واعلمْ أنَّ دُعاء أهل طُوس بالخير والشر مُجَرَّبٌ ، وقد نصحتُ للعميد

كثيراً؛ ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبحَ عبرة للعالمين ونكالاً للآخرين.

اعلمْ يا فخر الملك أنَّ هذه الكلمات لاذعةٌ مُرّةٌ قاسية لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء فاقْدُرها قَـدْرَها؛ فإنك لا تسمَعُها من غيري ، وكلُّ من يقول غير ذلك ، فاعلم أنَّ طمَعه حِجابٌ بينَه وبين كلمة الحق».

وكَتبَ إلى مُجِير الدين: «إنَّ إغاثة الخلق واجبةٌ على الجميع؛ فقد تجاوز الظلم عن الحدود ، ولم أستطع أن أشاهد هذا الظلم ، فهاجرتُ من طوس ولي سنةٌ؛ حتى لا أشاهد هؤلاء الظلمة الذين لا يحملون رحمة ، ولا يُراعون حرمة ، وقد ألجأتني بعض الضرورات إلى زيارة البلد؛ فوجدتُ الظلم مُستمراً لم يَنْقطع»[1].

ويقولُ في هذا الكتاب: «لقد بَلغتِ المُدْيةُ[2] العظمَ ، وبلَغ السَّيل الزُّبى ، وكادَ المسلمون يُستأصلون ، وإن ما قسَمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد ـ أمانة من الملك ـ أخذوا أضعافها من الرعية ، وانتَهبها الظالمون والسَّفَلَةُ من الناس ، ولم يَصِلْ منها شيءٌ إلى السلطان».

ولـم يقتصـر الغزالـيُّ علـى بـذل النصيحـة لمـلوك عصره ووزرائهـم وتوجيههم الديني ، وتحذيرهم من سخط الله ، بل كان يبحث ـ لعلوِّ همته وحِرصه على إقامة الدين وإسعاد المسلمين ـ عن دولة فتية تقومُ على أساس ديني متين ، وفكر ديني سليم ، وكأنه كان يائساً من الحكومات الإسلامية المعاصرة؛ فقد سرى فيها الوهن ، واستولى عليها الفسادُ ، وقد قامت في عصره دولةٌ نشيطة بريئةٌ من كثير من عِلل الحكومات الإسلامية القديمة ، وهي دولة الملثَّمين في المغرب ، كان على رأسها رجلٌ هو أقوى ملوك المسلمين في عصره وأنشطهم ، هو يوسفُ بنُ تَاشَفِين ، صاحبُ مُرَّاكش.

---

(١) رسائل الإمام الغزالي: بالفارسية.

(٢) [المُدْيَـةُ: الشَّفرة الكبيرة].

ويُحدِّثنا ابن خَلِّكان ، أنَّ الغزالي قصَده لعله يتعاون معه على توجِيه الحكومة ، يقول ابنُ خَلكان: «وبلغني أن الإمام حُجَّة الإسلام ، أبا حامد الغزالي ـ تغمَّده الله تعالى برحمته ـ لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة ، ومَيلهُ إلى أهل العلم ، عَزم على التوجه إليه؛ فوصل إلى الإسكندرية ، وشرع في تجهيز ما يَحتاج إليه ، فوصله خبرُ وفاته ، فرجع عن ذلك العَزْمِ» [١].

وإذا فاتَ الغزاليَّ أن يجتمع بيوسف بن تاشفين ويوجِّهه ، فقد ساق الله إليه ـ وهو في بلده ـ من قدَّر الله على يده قيامَ دولة جديدة تقوم على الدعوة والإصلاح ، وعلى الخير والصلاح ، وهو محمد بن عبد الله بن تومرت ، الذي كان على يده زَوالُ دَولة الملثَّمين التي فَسدتْ وجارتْ بعدَ مُؤسِّسها يوسف بن تاشفين ، وقيام دولة الموحدين ، وقد قال عنه ابن خلدون:

«ولقِيَ ـ فيما زعموا ـ أبا حامد الغزالي ، وفاوَضه بذاتِ صَدْره ، فأرادَهُ عليه ، لما كان في الإسلام يومئذٍ بأقطار الأرض من اختلالِ الدولة ، وتقويضِ أركان السلطان الجامع للأمة ، المُقيم للملَّة ، بعد أن سأله عمَّن له من العصابة والقبائل التي يكون بهاَ الاعتزازُ والمَنَعة».

وإذا صَحَّتْ هذه الروايَة ، فإنَّ للغزالي فضلاً ونصيباً في توجيه الرجل الذي كان صاحب دعوةٍ وحركة في المغرب ، انتهتْ إلى قيام دولة فاضلةٍ تَتَمَسَّك بالدين ، وتُقيم القسط ، وتمنعُ الظلمَ ، وترفعُ شعائرَ الإسلام [٢].

طَبقاتُ المُسلمينَ الأُخرى:

ولم يكن نَقْدُ الغزالي مقتصراً على العلماء والسلاطين والأمراء؛ بل إنَّه استعرض المجتمع الإسلامي المعاصرَ كُلَّه ، فذكر ما انتشر فيه من بِدَعٍ

---

(١) وفيات الأعيان: ترجمة يوسف بن تاشفين.

(٢) اقرأ أخبار عبد المؤمن بن علي ودولة الموحدين في «تاريخ ابن خلدون» الكتاب الثالث، أخبار البربر.

ومنكراتٍ وأوهام ومغالطات ، ويدل كتاب الإحياء على أنه ـ وإن كان نشأ نشأة علمية وعاشَ بين الكتب والتلاميذ ـ كان مُتصلاً بالمجتمع اتصالاً وثيقاً ، وقد درسه دراسة عميقة ، وكان واسعَ الاطلاع على المدنيَّة في عصره ، وأساليب الحياة ، وأجواء الطبقات. وإنَّ ما ذكره من أخلاق مختلفِ الطبقات وعِلَلها ليدُل دلالةً واضحة على قوة ملاحظته ، ودقَّة نظره. وقد عقد في كتابه باباً مستقلاً في المنكرات المألوفة في العادات والتقاليد التي أَلِفَها الناسُ ، فلا يشعر كل واحد بأنها مُنكراتٌ دخيلةٌ على الحياة الدينية ، وقد دقَّق فيها واستوعبها استيعاباً لا يقدر عليه إلا من عاشر الناس معاشرةً طويلة ، وخَبر الحياة ودرَسها دراسة واسعة عميقة ، ذكر فيها مُنكرات المساجد ومُنكراتِ الأسواق ، ومنكراتِ الشوارع ومُنكرات الحمامات ، ومنكرات الضيافة والمُنكرَات العامة [١].

وخصَّصَ الغزاليُّ جزءاً من الكتاب بذَم الغُرور ، ذكر فيه أصناف المغترِّين وفِرَق كُلِّ صنف ، ذكر منهم المغترِّين من أهل العلم وفِرَقهم ، والمغترين من المتصوِّفة ، والمغترِّين من أرباب الأموال وفِرَقهم ، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخلَ النفس في هذه الطبقات، وأصنافها ، وذكر من أفكارهم ومزالقهم وعُقدهم النفسية مالا يطَّلع عليها إلا عالمٌ كبيرٌ من علماء النفس ، ومُصلحٌ اجتماعيٌ ذكيٌ له تجارب طويلةٌ ، ونظرٌ نافذ.

وقد انتقَدَ العلماءَ والمشتغلين بالعلم في غُلوِّهم في الإكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافيات ، والكلام ، والجَدل ، والتعمُّق في العلوم الآلية: كالنحو ، واللُّغة ، والشِّعر ، والغريب ، والانهماك به.

وانتقدَ الصوفية بالاكتفاء بحفظ أقوال المشائخ وأخبارهم.

ولاحظ أنَّ هذه العلوم لما كانت متعلقةً بعلوم الشرع اغترَّ بها أربابها.

فأما علمُ الطِّب والحساب والصناعات وما يُعلم أنه ليس من علوم الشرع،

---

(١) إحياء علوم الدين: ج ٢ ، ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠.

فلا يعتقِد أصحابها أنهم ينالونَ المغفرةَ بها من حيث إنها علوم؛ فكان الغرور بها أقلَّ من الغرور بعلوم الشرع [١].

وذكَرَ من التباسات الصُّوفية ومبالغاتهم شيئاً كثيراً يدلُّ على إنصافه وتدقيقه [٢].

وقد ذَكَرَ عن المُغتَرين من أرباب الأموال طرائفَ وحقائقَ تدلُّ على النظر العميق، والفَهم الديني الصحيح، يقول:

«ربَّما يحرصون على إنفاق المال في الحج، فيحُجُّون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً؛ ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحُجاج بلا سبب! يَهون السفر عليهم، ويُبسط لهم في الرزق، ويَرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيرُه بين الرِّمال والقفار، وجارُه مأسور بجنبه لا يُواسِيه» [٣].

ويقول:

«وفرقةٌ أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها، يَحفظون الأموال ويُمسكونها بحكم البُخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يُحتاج فيها إلى نفقة، كصيام النهار وقيام الليل، وخَتم القرآن وهم مغرورون، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، فهو يحتاج إلى قمْعِه بإخراج المال، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مُسْتَغْنٍ عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حيَّةٌ وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السَّكنجبين ليُسكّن به الصَّفراء، ومن قَتَلَتْهُ الحية متى يحتاج إلى السكنجبين!؟ ولذلك قيل لبشر الحافي: إن فلاناً الغنيَّ كثيرُ الصوم والصلاة؛ فقال: المسكين؛ ترك حاله، ودخل في حال غيره؛ وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا

---

(١) إحياء علوم الدين: ج٣، ص ٣٤٣.
(٢) المصدر السابق: انظر المجلد الثالث، صفحة: ٣٤٥ ـ ٣٥٠.
(٣) المصدر السابق: انظر: المجلد الثالث، صفحة: ٣٥١.

أفضل له من تجويعِه نفسه ، ومن صلاتِه لنفسه مع جمعه للدينار ومنعِه للفقراء [١]!.

ويقول عن العامَّة وطوائف من الأغنياء والفقراء:

«وفرقةٌ أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء ، اغترُّوا بحضور مجالس الذكر ، واعتقدوا أن ذلك يُغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنُّون أنَّ لهم على مُجرد سماع الوعظ ـ دون العمل ودون الاتعاظ ـ أجراً ، وهم مَغرورون؛ لأن فضل مجلس الذكر لكونه مُرغِّباً في الخير ، فإن لم يُهيِّج الرغبة؛ فلا خير منه ، والرغبةُ محمودة؛ لأنها تبعث على العمل ، فإن ضعُفتْ عن الحملِ على العمل ، فلا خير فيها. وما يُراد لغيره إذا قَصَّر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له.

وربَّما يَغتر بما يسمعه من الوعظ من فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رِقَّة كرِقَّةِ النساء فيبكي ولا عزمَ ، وربما يسمع كلاماً مخوفاً ، فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلِّم! أو نعوذ بالله! أو سُبحان الله! ويظنُّ أنه قد أتى بالخير كلِّه وهو مغرور.

وإنَّما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء ، فيسمعُ ما يجري ، أو الجائع الذي يحضر عنده من يَصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يُغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً ، فكذلك سماعُ وصف الطاعات ـ دون العمل بها ـ لا يغني من الله شيئاً؛ فكلُّ وعظ لا يغير منك صفةَ تغييراً يُغيِّر أفعالك؛ حتى تُقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً ، وتُعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادةُ حجةٍ عليك ، فإذا رأيتَه وسيلةً لك كُنتَ مغروراً» [٢].

وفي هذه القطع كلها يظهر الغزاليُّ مُصوِّراً حاذقاً ، يتناول بريشته البارعة

---

(١) إحياء علوم الدين: ج٣ ، ص ٣٥٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ، ص ٣٥٢.

مجتمعَ عصره، فيُصوِّر مخايله وقسماتِ وجهه، ويُجسِّم دقائقه وتجاعيده، ويَظهر في ذلك كله ذكاؤه، وسعةُ اطلاعه، ودقة ملاحظته، وبَراعة تصويره، وسلامةُ تفكيره.

مَكانتُه بين عُلماء الأخلاق:

ويدُلُّ كتابُ الإحياء على مكانته العالية بين علماء الأخلاق، وقد بحث عن الأخلاق ودوافِعها ومنشئها وأصنافها بحثاً دقيقاً عميقاً، وتكلَّم في أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كلاماً يجمع بين الحكمة والعلم والتجربة والتربية.

وإنَّ من يقرأ بحثه المستفيض في بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع، حتى لا يخلو عنه قلبٌ إلا بشديد المجاهدة ليخضَع ويقر بذكائه ودراسته للطبيعة البشرية، وتحلِيله العلمي، وعقلِه الكبير [١].

وقد استحقَّ الغزاليُّ ببحوثه العميقة في الأخلاق، وبتأليفه العظيم «إحياء علوم الدين» أن يُوضع في الصف الأول من علماء الأخلاق، وأن يكون موضع دراسة وعناية من الباحثين في علم الأخلاق، وعلم النفس، والمؤرخين لهذا الموضوع.

كتابُ تَرغيبٍ وتَهذيب:

ومِن أشدِّ أجزاء الكتاب تأثيراً في النفس، ما يشتمل على الترغيب والترهيب، يُصوِّر الغزالي غرور الدنيا وخلود الآخرة، والحاجة إلى الإيمان والعمل الصالح وتهذيب النفس، ويُحذِّر من أمراض القلب، ويُحاسب النفس، ويدافع عنها، ويعتذر كأحسن ما يعتذر صديقٌ محبٌّ، ومحامٍ بارعٌ.

ثم يجيب عن ذلك ويُقيم عليها الحجة كأحسن ما يفعل ذلك قاض نابغةٌ، ومُشرِّع بصيرٌ.

---

(١) انظر «إحياء علوم الدين» المجلد الثالث، صفحة: ٢٤١ ـ ٢٤٤.

ثم يُرقِّق القول ويَصفُ العلاج ، كأحسن ما يفعل طبيبٌ حاذق ، ومُربٍّ عطوف ، ويجيء بالعجب العُجاب ، ويَسحر الألباب ، ويُدمع العيون ، ويُرقق القلوب.

وقد أثَّرتْ هذه المواعظ الحكيمة الرقيقة في قلوب الألوف ، وأحدثت في حياتهم انقلاباً وتحولاً عظيماً ، ومن شاء فليقرأ المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها (١).

وقد أصبَحَ كتاب الإحياء بذلك كُلِّه كتاب إصلاح وتربية ، وكأنَّ المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب ـ كمرشد ومرب ـ مغنياً عن غيره ، قائماً مقام المكتبة الإسلامية؛ لذلك جعله يحتوي على العقائد ، والفقه ، وتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، والحصول على مرتبة الإحسان.

تَضرُّرُ بعضِ الناس من كتاب الإحياء:

ولكن ممَّا يُلاحظ أنَّ كثيراً ممَّن يقتصر على مطالعة هذا الكتاب ، أو يُكثر من قراءته ويُشغَف به ، ينشأ عنده غُلوٌّ في الزهد والتقشُّف ، ومخالفةِ النفس في المباحات ، والكراهة للحياة ، والإكثار من الرياضات والمجاهدات؛ حتى تتأثر بذلك صِحَّتهُ وعقله ، خصوصاً في هذا العصر الذي ضَعُفت فيه القِوى والأجسام ، لذلك يَمنعُ بعضُ المربين الحكماء عن مطالعة هذا الكتاب في بداية الحالِ ، خصوصاً الذين عندهم تأثُّر قويٌّ ، وانفعالٌ سريعٌ؛ ولعلَّ السبب في ذلك أنَّ الغزالي صنَّفه في حالةٍ قد غلب عليه فيها الخوفُ والهيبةُ ، وكان متأثراً شديدَ التأثرِ؛ فجاء كلامه صورةَ نفسيَّته وتأثُّره ، وقد جمعَ فيه أقوالاً كثيرة في الزهد وقَهْرِ النفس وعِصيانها ، لا تخلو من المبالغة والإسراف.

والحقُّ ، أنَّ السيرة النبوية ـ ويدخل فيها الحديث الصحيح ـ على صاحبها

(١) انظر «إحياء العلوم» المجلد الرابع ، صفحة: ٣٥٦ ـ ٣٥٨.

الصلاة والتحية ـ هي المدرسةُ الوحيدة الي تُربي تلاميذَها على الاعتدال الكامل والتوازن الصحيح. و«كلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»[١]. ويُمثِّل ذلك بعضَ التمثيل قدوةٌ دينية تجمع بين العلم الراسخ، والسِّيَرة المستقيمة، والقلب الحي الفائض قد تشرَّب السيرة وتذوَّق السنَّة، وذاقَ حلاوة الإيمان، وحاز اليقين.

ولم يزل ولا يزال الدين يؤخذ من الأحياء، ويقوم بالأحياء، ولم يكن الإنسان في دورٍ من الأدوار غنياً عن القدوة والصحبة.

فضل كتاب الإحياء:

وعلى ما تُعقِّب على الغزاليِّ في الإحياء من إيراد أحاديث ضعيفة، بل موضوعة في كثير من الأحيان[٢]، وأشياء من كلام الصوفية الممعِنة في الغلو، وهضْم النفس وترك المباحات، وقد لا تتفق مع أصول الدين، ومع ما ورد فيه من مواد كلام الفلاسفة... إلى غير ذلك من مآخذ تعقَّبها العلامة الحافظُ ابن الجوزي[٣]، وشيخُ الإسلام ابن تيمية[٤]، مع اعترافهما بفضل الكتاب؛ فإن كتاب الإحياء في مقدمة الكتب الإسلامية، التي انتفع بها خلائق لا تحصى في كلِّ عصرٍ وجيلٍ، وأثَّرت في النفوس تأثيراً لا يُعرف إلا عن كتب معدودة، ولا يزال الكتاب الذي يَكثُر قراؤه والمُعجَبون به، والمتأثِّرون به في أكثر البلاد، ولا يزال ثروةً زاخرة في الدين، ومصدراً قوياً من مصادر الإصلاح والتربية.

---

(١) من كلام الإمام مالك رضي الله عنه.

(٢) قام الحافظ الإمام زين الدين العراقي صاحب الألفية بتخريج أحاديث الإحياء وتعريف درجاتها سماه «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» طبع مع الإحياء بمطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٣) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي ج٩ ص ١٦٩ ـ ١٧٠ طبع دائرة المعارف حيدر آباد.

(٤) انظر: «فتاوى ابن تيمية» ج٢ ص ١٩٤.

شخصيّةُ الغزاليّ وفَضْلُهُ:

لا شكَّ أنَّ الغزالي من نوابغ الإسلام وعُقُولِهِ الكبيرة ، ومن كبار قادة الفكر الإسلامي ورجالِ الإصلاحِ والتجديد الذين لهم فضلٌ كبير في بعث الروح الدينية ، وإيقاظِ الفكر الإسلامي ، والدعوةِ إلى حقائق الإسلام وأخلاقه ، وفي مقاومة الغَزوات العقلية التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي. ومهما قيل فيه ، وقيلَ عنه ، فإنَّ إخلاصه أسمىٰ مِن أن يُشكَّ فيه .

وإنَّ عُلوَّ هِمَّته في جميع العلوم والنبوغ فيها ، ثم علو همته في طلب الحقيقة واليقين ، ثم عُلوَّ همته في طلب الآخرة وتحقيق غاية الوجود ، لا يزال موضع استغراب وتقدير وإكبار من الجميع ، وإنَّ ما خلفه من آثار وتُراث علمي ثروةٌ علميةٌ إسلامية لا يُستهان بقيمتها ، ولا يُنكَر فضلُها في عصر من العصور.

سلامُ الله على هذه الروح الزكية والهمة العالية والعقل الإسلامي الكبير! وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين[١] .

* * *

(١) [قد انتهتْ إلى هنا تلك المحاضرات التي ألقاها العلاّمةُ المؤلِّف في مدرج جامعة دمشق عام ١٧٣٥ هـ ـ ١٩٥٦ م كأستاذٍ زائرٍ بكلية الشريعة التابعة لها ، ثم أضاف بعد رُجوعه إلى الهند ـ خمس محاضرات جديدة إلى الكتاب كما صرَّح به في حاشية المحاضرة الحادية عشرة القادمة].



الإمام عبد القادر الجيلاني

عَصْرُهُ، حيَاتُهُ، صِفَتُهُ، تأثِيرُهُ.

دَعْوَتُهُ، إصْلاحُهُ، وَفَضْلُهُ، وَفَضْلُ خُلفَائِهِ في

تَجدِيدِ الإيمانِ والدَّعوةِ إلى الإسْلامِ.



المحاضرة الحادية عشرة:

الإمامُ عَبْدُ القَادر الجِيلانيُّ
عصرهُ ، حياتـهُ ، صِفَتُـهُ ، تأثيرُهُ

الحاجَةُ إلى الدعوة الشعبيّة والإصلاح العام[١]؛

لقد قام حُجَّةُ الإسلام الغزالي ، بشخصيته الفريدة القوية ، وجهادِهِ العلمي والإصلاحي ، بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وكان الرجلَ المطلوب للدفاع عن الإسلام عند هجوم الفلسفة اليونانية ، وإلحادِ الباطنية ، وانحراف العلماء ، ولكن ظلَّ العالم الإسلامي في حاجة شديدةٍ إلى داعٍ شعبي ، وشخصية روحية رفيعة ، أكثرَ اتصالاً بالشعب وطبقاتِ الجماهير ، يَنفُخُ في المجتمع بدعوته ، ومواعظِهِ ، وبتزكيته للنفوس ، وإصلاحه للأخلاق ، روحاً دينية ، وحياة إيمانية .

وقد كانت الكثرةُ الكاثرةُ من المسلمين فريسةَ العِلَل الخُلقية والاجتماعية ، وقد انتشر فيها التعطُّل والغفلة والجهالة والنفاق ، ولَم تُـؤَثِّـر المناقشاتُ العلمية ، والفلسفات الملحدة إلا في الطبقة المثقفةِ الراقية ، وخاصَّة الخاصَّةِ .

---

(١) زاد المحاضرُ بعد رجوعه إلى الهند محاضرات جديدة عن الإمام عبد القادر الجيلاني ومولانا جلال الدين الرومي، ضمت إلى الكتاب.

وقد ظلَّتِ المَلكِيَّةُ المطلقةُ والحكُومة الشخصيةُ ، تعملان عملهما في أخلاق الشعب طيلَةَ أربعة قرون ، وقد وُجِدَت بتأثيرهما طبقة كبيرة لا همَّ لها في الحياة إلا الحصول على الثَّروة والتَّرفِ ، أو نيل الجاه والشرف ، وقد كانت لا تجحدُ بالله والآخرة كعقيدة؛ ولكنها قد نسيتِ الله بتاتاً ، وكانت تعيش في ذهول عن الآخرة ، وتحيا حياة مُترفَة لاهية.

وقد أنشبتِ الحضارةُ العجميَّةُ أظفارها في المجتمع الإسلامي ، وتَغَلْغَلتِ العاداتُ العجمية والتقاليد الجاهلية في نظام الحياة ، وارتفعَ مستوى المعيشة في الحواضر الإسلامية ارتفاعاً عظيماً ، وتضخَّمتْ تكاليف الحياة وضرائب المجتمع ـ وهو ما يفرضُه من لِباس ومظاهر وآداب هي أقسى من ضرائب الحكومة ـ ووُجدت أُمةٌ من «رجال البلاط» وحاشيةِ الأمراء ، ونُدماء أبناء الملوك ، وعُبَّاد الأغراض ، ومُنتهزي الفرص «النفعيين».

وقد كانت الطبقةُ الوسطىٰ على أثر الأمراء والأغنياء ، وكان العامة والعَمَلةُ والفلَّاحون خاضعين لأخلاق الطبقة الوسطى ، يرون الشرف في تقليدها والتشبُّه بها ، وكان الذين يملكون وسائلَ الحياة والسَّعة في المعيشة يستخدمونها في التمتع بالحياة وإرضاءِ الشهوات.

أمَّا الذين حُرِمُوها ، فَكانوا يقضون حياتهم في تَحَسُّرٍ وَتوجع ، ويعتبرون نفوسهم ـ مهما أوتوا من العلم والنَّسَب والأخلاق الفاضلة ـ أذلَّ من الدواب والأنعام.

وكان أصحابُ اليسار والأموال لا يعرفون الإيثار والعطف على الضعفاء والبر بالفقراء ، والشكرَ على ما أكرمهم الله به من سَعةٍ ورخاء.

أمَّا البؤساء والكادحون فكانوا لا يعرفون الصبر والرضا ، والألفة والإباء ، وهكذا فقـدتِ الحياة اتزانهـا وهدوءها ، وأصيبت بنوبة عصبية عنيفة ، لا يُرى إلا من سيطر على أموال عظيمة ، وتَسلَّط على هلكتها واستغلالها للهوى والشباب ، أو الجاه والنفوذ ، وإلا مَن يَحسُد هذه الطبقة ويعيشُ في هموم

وغموم لا أرجاء لها ، ولا تنتهي إلا مع الحياة ، فلا دنيا يلهو بها وَيقضي وطره ، ولا دين يلجأ إليه وَيَعْتَزُّ بـه .

كان المجتمعُ الإسلاميُّ ـ بكل ما ذكرناه ـ في حاجة مُلِحَّةٍ إلى دعوة دينية تُخفِّفُ غَلواء حُبِّ الدنيا ، وتحُدَّ من شدَّته وحدَّته ، وتوقِظُ في النفوس الإيمانَ وتثِير عقيدة الآخرة ، وتُحرِّك في القلوب الحُبَّ لله والحنينَ إليه ، وتَحثُّ على الطموح وعُلوِّ الهِمَّة وبذلِ الجهد في الحصول على علم الله الصَّحيح وعبادته ، ونَيْل رضوانه والمسابقة في سبيله ، وتدعو إلى التوحيد الكامل ، والدين الخالص ، دَعوةً صريحة مكشوفة ، وتُبيِّن ضعفَ أهل الدنيا وأصحابِ الثروة ورجالِ الحكومة وفقرهم ، في قوة ووضوح وثقةٍ واعتداد بالنفس ، وأنَّ الأسبابَ لا قوة لها ولا تأثير ، وأنها مُسخَّرةٌ خاضعة لإرادة الله تعالى يتصرَّف فيها ، وَيملِكُها وَيُصَرِّفُها كيفَ يشاء .

مُؤَهِّلاتُ الدَّاعي العلميَّة:

يتَّسم القرنُ الخامس والسادس في تاريخ الإسلام بسَعةٍ في العلم وتقدُّم في الآداب ، وقد نبغ فيهما علماءُ كبار ومؤلِّفونَ بارعون. وقد كان من رجال أواخرِ القرن الخامس وأوائل القرن السادس والسابع العلامةُ «أبو إسحاق الشِّيرازي»(ت٤٧٦هـ) و«حُجة الإسلام الغزالي»(ت٥٠٥ هـ) و«أبو الوفاء ابن عقيل»(ت٥١٣ هـ) و«عبد القادر الجُرجاني» (ت ٤٧١ هـ) و «أبو زكريا التَّبريزي» (ت ٥٠٢ هـ) و«أبو القاسم الحريري»(ت ٥١٦ هـ) و«جار الله الزمخشري» (ت٥٣٨ هـ) و«القاضي عياضٌ المالكي» (ت٥٤٤ هـ) الذين ظلُّوا قروناً مسيطرين على العقول والاتجاهات ، وكانوا مدارسَ أدبية علمية .

لم يكن لأحدٍ في هذا العهد الزاخر بالحياة العلمية ونوابغ الفن كالقرنِ الخامس والسادس، وفي بلد زاخر بالمدارس وحلقات الدروس كبغداد أن يُؤثر في مجتمعه الذي قطعَ شوطاً واسعاً في العلم ، وانتشرتِ الثقافة في طبقاته انتشاراً كبيراً ، ولم يكن له أن يلفت إليه الأنظار ، وينفذ إلى أعماق النفوس

والقلوب، وتخضعَ له الطبقات المثقفة وحَملَةُ لواء العلمِ في عصره، إلاّ إذا كان عاليَ الكعب طويلَ الباع في العلوم السائدة، متضلِّعاً من علوم الدين والدنيا، قد أقرَّ له معاصروه بالفضل، وشهد له علماء بَلَدِهِ بغزارة العلم وسَعةِ المعارف.

وكان يَجِبُ أن يكون هذا الدَّاعي صاحِبَ بيان ولسان، يخاطب العلماء والمثقَّفين في أسلوبهم، والعامةَ في أسلوبها، وكان يجبُ أن يكون صاحب نفس زكية، وهِمَّةٍ قوية مُؤثرة، وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوفِ عن الشهوات وكِبَر النفس.

يجد ضِعافُ الإيمان وضعاف النفوس في مجالِسه قوةَ اليقين وحرارة الإيمان.

ويجد أهل الشكِّ والارتياب السكينة والإذعان.

ويجدُ أصحابُ النفوس القَلقة والقلوب الجريحة المنكسرة الهدوء والعزاء والسلوان.

وَيجد هواةُ الحقائق والمعارف وأصحابُ الدراسات العلومَ الدقيقة والنُّـكت اللطيفة.

ويَجد أصحاب البطالة والعُطلة وأصحابُ القلوب الخامدة ما يملؤُهم حماسةً وإيماناً، وما يحَفِزُهم إلى العمل والجهاد.

ويَجدُ عُبّاد اللذات والشهوات والمترفون في الحياة، الذين تجرؤوا على المعاصي والمحارم، ما يبعث فيهم الإقلاع والنَّدامة والتوبة والإنابة.

وبالجملة، يجدُ كل أحد في مجالسه غَناءه ودواءه وغذاءَه وشِفاءَه ويقف كمنارةٍ عالية من الإيمان والعلم في بَحْرٍ من الظلمات والجاهلية، يأوي إليها الغَرقىٰ ويهتدي بها الحائرون، ويَخلف الأنبياءَ في دعاء الخلق إلى الله، ودعوة الناس إلى دار السلام، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويَخلُفون

الأنبياء في تهذيب النفوس وتجديد الصلة بالله تعالى ، والتذكير بالآخرة ، وإيثارها على الدنيا ، وتجريد التوحيد وإخلاص الدين لله تعالى .

وذلك كلُّه من أهم مقاصد بعثة الأنبياء ومِن أعظم أهدافهم، ولا يُمكن أن يبقى الإسلام كدين ونظام خُلقي وأسلوب للحياة ودعوة مؤَثِّرة حتى يكون له دُعاة مجددون من هذا الطراز .

لقد كانت وطأةُ الحكومة التي كان على رأسها الملوك المسلمون الذين يتسمَّون بالخلفاء شديدةً على المجتمع الإسلامي ، ولقد كان للمسلمين اندفاع قويٌّ إلى الجاهلية ، ولقد كانت هذه الأوضاع خطراً كبيراً على الإسلام وعلى «المِزاج» الإسلامي ؛ فكان المجتمع الإسلامي المُحاط بهذه الأخطار في حاجةٍ شديدة إلى مُصلح دينيٍّ ومُجَدِّدٍ إسلاميٍّ من الطبقة الأولى ، يُحارب الجاهلية التي تسرَّبت إلى الإسلام ، في عاصمتها وفي أوجها ، وينفخُ روحاً إيمانية جديدة في هذا العالم المنهار .

لقد وُجد هذا المصلحُ في شخص الشيخ «عبد القادر الجيلاني» ، الذي ظهر في بغداد في آخر القرن الخامس ، وتسلَّم الزعامة الدينية ، وعاش نحو قرن فرداً فريداً في الدعوة إلى الله ، والتفَّ حوله العالم الإسلامي ، وأثر فيه تأثيراً لم يؤثِّر مثله عالم أو مصلح من مدَّة طويلة .

دراسته ونبوغه:

وُلِدَ الشيخ عبد القادر الجيلاني سنة ٤٧٠ هـ في جيلان [١] ، ينتهي نسبُه إلى الحسن بنِ عليٍّ رضي الله تعالى عنهما، دخل بغداد سنة ٤٨٨ هـ ، وله ثماني عشرة سنة ، وهي السَّنة التي خرج فيها أبو حامد الغزالي من بغداد تاركاً

(١) جيلان أو كيلان ويقال أيضاً بلاد الديلم، ولاية من القسم الشمالي الغربي من بلاد فارس، يحدها شمالاً ناحية تاليس الروسية، وجنوباً بغرب سلسلة جبال البرز الفاصلة بينهما وبين أذربيجان وعراق العجم، وجنوباً بشرق مازندران، وشمالاً بشرق بحر قزوين، وهي تعد من أجمل ولايات فارس «دائرة المعارف للبستاني».

لتدريس النظامية، زاهداً في الدنيا طالباً للمعرفة واليقين [١]، وأقبل إلى العلم بهمة عالية وجد وحرص، ولم يُعقه شغفه بالعبادة والاشتغال بالله عن الاشتغال بالعلم، ولم يرضَ بالقناعة في العلم والاقتصار على القليل الذي لا بد منه.

قرأ العلومَ السائدة في عصره على أساتذتها والمبرزين فيها، وأتقَنها ومهَر فيها، وحصلت له فيها اليد الطولى، ومن شيوخه أبو الوفاء ابنُ عقيل، ومحمد بن الحسن الباقلاني، وأبو زكريا التبريزي، وأخذَ الطريقة عن الشيخ أبي الخير حماد بن مسلَّم الدَّبَّاس [٢]، وأكملها عند القاضي أبي سعيد المخرِّمي [٣]، وحصلت له الإجازة عنه.

الإصلاح والإرشاد:

عُنِيَ الشيخ عبد القادر ـ بعدما أتم دراسته العلمية والروحية ـ بإصلاح وإرشاد الخلق إلى الحق، وجمَع بين الرئاسة الدينية والرئاسة العلمية، وكان أبو سعيد قد بنى مدرسة لطيفةً بباب الأزج، فَفُوِّضتْ إليه، وتكلَّم مع الناس بلسان الوعظ، وظهرَ له صِيتٌ، فضاقت مدرسته بالناس من ازدحامهم على مجلسه فجلس للناس عند السور أياماً، ثم وُسِّعت بما أُضيف إليها من المنازل والأمكنة التي حولها. وبذل الأغنياءُ في عمارتها أموالهم، وعمِل الفقراء فيها بأنفسهم، واكتملت المدرسة في سنة ثمان وعشرين وخمسمئة، وصارت منسوبةً إليه، وتصدَّر بها للتدريس والفتوى والوعظ، مع الاجتهاد في العلم والعمل.

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٢، ص ١٤٩.

(٢) قال الشعراني: انتهت إليه رئاسة تربية المريدين، وانتمى إليه معظم مشايخ بغداد وصوفيتهم في وقته. توفي سنة ٥٢٥ هـ.

(٣) هو المبارك بن علي بن الحسين. قال عنه ابن كثير: سمع الحديث وتفقه على مذهب أحمد، وناظر وأفتى ودرس، كان حسن السيرة، جميل الطريقة، سديد الأقضية، توفي سنة ٥١١ هـ.

وجمعَ الله قلوب عباده على حبه ، وألهج ألسنتهم بالثناء عليه، وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية والإصلاح والدعوة إلى الله بالعراق ، وقصَده الناس من الآفاق، ورَزقه اللهُ من الوجاهة والقَبول ما أزرى بوجاهة الملوك والسلاطين، وهابَهُ الخلفاء والملوك والوزراء فَمَن دونهم.

قال الشيخ موفَّق ابن قُدامة صاحب «المُغني»: «لم أر أحداً يُعظَّم من أجل الدين أكثر منه». وكان يحضر مجالسه في بعض الأحيان الخليفة والملوك والوزراء فيجلسون متأدبين خاشعين. أما العلماء والفقهاء فلا يأتي عليهم حصر ، وقد عُدَّ في بعض مجالسه أربعمئة مَحبرة[١].

صِفَتُه وأَخلاقُهُ:

كان مِن أخلاقه أن يَقف مع جلالةِ قَدره مع الصغير والجارية ، ويُجالس الفقراء ويُفلِّي لهم ثيابهم؛ وكان لا يقوم قطُّ لأحدٍ من العظماء وأعيان الدولة ، ولم يُلمَّ قَطُّ بباب وزيرٍ ولا سلطان[٢] ، وكان إذا جاءه خليفةٌ أو وزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يَقوم له[٣] ، وقد اتفقت الألسنة وشهاداتُ المعاصرين على حُسن خُلقه وعُلُوِّ هِمَّته ، وتواضعه لله تعالى ، وسخائِهِ وإيثاره لغيره .

قد وصفه أحدُ رجال عصره «جرادة» وقد عاشَ طويلاً ، وصحب كثيراً من الشيوخ الكبار ، فقال:

«ما رَأَتْ عينايَ أحسن خُلقاً ، ولا أوسع صدراً ، ولا أكرم نفساً ، ولا ألطف قلباً ، ولا أحفظَ عهداً ووداً من سيدنا الشيخ عبد القادر ، ولقد كان ـ مع جلالة قدره ، وعُلوِّ منزلته ، وسَعةِ علمه ـ يقف مع الصغير ، ويُوقِّر

(١) ملخصاً من المنتظم، والبداية، وذيل طبقات الحنابلة والطبقات الكبرى.

(٢) الطبقات الكبرى: للشعراني ، ص ١٢٧ .

(٣) المصدر السابق: للشعراني ، ص ١٢٨ .

الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويَتواضع للفقراء، وما قام لأحد من العظماء ولا الأعيان، ولا ألمَّ بباب وزير ولاسلطان» (١).

وقال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف البِرْزَاليُّ الإشبيلي:

«كان مجابَ الدعوة، سريعَ الدَّمعة، دائمَ الذكر، كثيرَ الفكر، رقيقَ القلب، دائمَ البشر، كريمَ النفس؛ سَخيَّ اليد، غَزيرَ العلم، شريفَ الأخلاق، طيّبَ الأعراق، مع قَدَمٍ راسخٍ في العبادة والاجتهاد» (٢).

وقال مفتي العراق، محيي الدين أبو عبد الله بن حامد البغدادي: «كان أبعدَ الناس عن الفُحش، أقربَ الناس إلى الحق، شديدَ البأس إذا انتُهِكَت محارمُ الله عزَّ وجلَّ، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصِرُ لغير ربه».

كان له غَرامٌ بإطعام الطعام، والإنفاق على ذوي الحاجة والعاهة؛ قال العلاَّمة «النَّجار» في تاريخه: قال الجبَّائي: قال الشيخُ عبد القادر: «فتَّشتُ الأعمال كلَّها، فما وجدتُ فيها أفضل من إطعام الطعام، ولا أشرف من الخُلق الحَسن. أَودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمتُها الجائع».

وقال: قال لي: «كفِّي مثقوبةٌ لا تضبط شيئاً، لو جاءني ألفُ دينار لم تَبِتْ عندي» (٣).

وقال صاحب «قلائد الجواهر»: «كان رضي الله عنه يأمُر كل ليلة بِمدّ البساط، ويأكل مع الأضياف، ويُجالس الضعفاء، وَيصبر على طلبة العلم، لا يظُن جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، ويتفقَّد من غَابَ من أصحابه، ويَسأل عن شأنهم، ويَحفظ وُدَّهم، ويعفو عن سيئاتهم، ويُصدِّق من حلف له، ويُخفي عِلمَه فيه» (٤).

---

(١) قلائد الجواهر: ص ٩.
(٢) المصدر السابق: ص ٩.
(٣) المصدر السابق: ص ١٠.
(٤) المصدر السابق: ص ٩.

إحياءُ القُلوب الميّتةِ:

اتفق المؤرِّخون على كثرة كرامات الشيخ عبد القادر؛ قال الشيخ موفق الدين صاحب «المغني»: لم أسمعْ عن أحد يُحكىٰ عنه من الكراماتِ أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر.

وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «إنه لم تتوافر كراماتُ أحد من المشائخ إلا الشيخ عبد القادر؛ فإن كراماتِهِ نُقلت بالتواتر» (١) وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٢).

ولكنْ من أَجلِّ كراماته إحياء موات(٣) النفوس والقلوب، وزرعُ الإيمان وخشية الله وحبّه فيها، وإشعال مجامر القلوب التي انطفأت من جديد؛ فقد أعاد اللهُ به إلى قلوب لا يحصيها إلا الله حياةً وإيماناً، وهبَّت بمواعظهِ وتربيته رياح من الإيمان عاشتْ بها قلوب ميتة، ونشطت بها نفوسٌ خامدة، وانطلقت في العالم الإسلامي موجة من الإيمان الجديد، والروحانية القوية، والأخلاق الفاضلة، والتقوى.

وقد هيَّأ اللهُ له الزعامة الدينية والروحية في العالم الإسلامي فاختار له بغداد ـ عاصمة المملكة العباسية وقلب العالم الإسلامي ـ وجاءته بغداد ـ وهي من أكبر مُدن العالم ـ تَسعىٰ، وازدحم الناس عليه ازدحاماً كبيراً، قال: «كان يجلس عندي رجلان وثلاثة يسمعون كلامي، ثم تسامَع بي الناس وازدحَم عليَّ الخلق؛ فكنت أجلس في المصلَّى بباب الحلبة، ثم ضاق علىٰ الناس، فأخرجوا الكُرسيَّ إلى داخل السُّرر بين التنانير، وكان الناس يجيئون في الليل

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب.

(٢) جلاء العينين: للآلوسي.

(٣) الموات: الأرض الخالية من السكان، أو التي لا ينتفع بها أحد. وفي الحديث: «من أحيا مواتاً من الأرض فهي له». [كما في السنن الكبرى للبيهقي (٦/١٤٧) برقم (١١٥٩٣)].

على الشمع والمشاعل، يأخذُون لهم مواضع، ثم ضاق على الناس الموضعُ، فحُمل الكرسي إلى خارج البلد، وجُعل في المُصلَّى، وكانوا يجيئون على الخيل والبغال والحمير والجمال، وَيقفون ما دار المجلس كالسُّرُر، وكان يحضر المجلس نحوٌ من سبعين ألفاً» [١].

وكان لمَجالسه تأثيرٌ عظيمٌ ونفعٌ كثيرٌ؛ قال الشيخ عمر الكيساني: «لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه تخلو ممَّن يُسْلِم من اليهود والنصارى، ولا ممن يَتوبُ من قطاع الطريق، وقاتلي النفس، وغير ذلك من الفساق ولا ممن يرجع عن معتقدٍ سَيِّيء» [٢].

وقد كان يشعر بذلك ويحمدُ الله عليه، ويُفضله على ما كان يهواه من الخلوة بالله والانقطاع عن الخلق والاشتغال بالعبادات.

قال الجُبائي: قال لي سيدنا الشيخ: «أتمنى أن أكونَ في الصحاري والبراري كما كنت في الأول، لا أرى الخلق ولا يرونني» ثم قال: «أراد الله عزَّ وَجَلَّ مني منفعة الخلق؛ فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يدي من العيارين والمسالحة [٣] أكثر من مئة ألف، وهذا خير كثير» [٤].

وكان الشيخ يعتقد ـ بحق ـ أنه مكلَّف بذلك مأمورٌ به، يقول في المجلس:

«سبحان من ألقى في قلبي نُصحَ الخلق، وجعله أكبرَ همِّي! إني ناصحٌ، ولا أريد على ذلك جزاء؛ أجرتي قد حصلتْ لي عند ربي عز وجل؛ ما أنا طالبُ دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة، ولا ما سوى الحقّ عز وجل،

---

(١) قلائد الجواهر: ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) المصدر السابق: ص٢٢.

(٣) المسالح: الجماعة، أو القوم ذوو السلاح.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٢.

ما أَعْبُدُ إلا الخالق الواحد الأحد القديم. فَرحي بفلاحكم ، وغمِّي لهلاككم»[١].

اشتغاله بالعلم ونُصرَته للسُّنة:

ولمْ يمنعه اشتغاله بالوعظ والإرشاد وتربية النفوس من الاشتغال بالتدريس ، ونشر العلم ونصرِ السنة والعقيدة الصحيحة ومحاربة البدع ، وقد كان في العقيدة والفروع متبعاً للإمام أحمد والمحدِّثين والسلف ، قال ابن رجب: «كان متمسكاً في مسائل الصفاتِ والقدَر ونحوهما بالسنة ، مبالغاً في الرد على من خالفها»[٢].

وقد كان قَوِيَّ الاشتغال بالتدريس ، عالماً متفنناً. قالوا: كان يتكلَّم في ثلاثة عشر علماً ، وكانوا يقرؤون عليه في مدرسته درساً من التفسير ، ودرساً من الحديث ، ودرساً من المذهب ، ودرساً من الخلاف ، وكانوا يقرؤون عليه طَرفي النهار التفسير ، وعلوم الحديث ، والمذهب ، والخلاف ، والأصول ، والنحو.

وكان رضي الله عنه يقرأ القُرآن بالقراءاتِ بعد الظهر ، وكان يُفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمدَ بن حنبل رضي الله عنهما ، وكانت فتواه تُعرض على العلماء بالعراق ، فتُعجبهم أشدَّ الإعجاب[٣] ؛ رُفع إليه سؤال في رجل حَلف بالطلاق الثلاث أنه لا بد أن يَعبد الله عز وجل عبادة ينفردُ بها دون جميع الناس في وقت تَلَبُّسه بها ، فماذا يفعل من العبادات ؟ فأجاب على الفور: «يأتي مكة ، ويُخلَّى لـه المطاف ، وَيطوف سبعاً وحده[٤] ، ويَنحَلُّ

---

(١) الفتح الرباني: المجلس السادس.

(٢) طبقات الحنابلة.

(٣) الطبقات الكبرى: للشعراني ، ص ١٢٦.

(٤) يعني سبعة أشواط.

يمينه» فأعجبَ علماء العراق، وكانوا قد عَجزوا عن الجوابِ عنها [١].

الاستِقامَةُ والتَّحقيقُ:

وقد اتَّجه التصوُّفُ في القرن الخامس اتجاهاً فيه الاستقلال الذي قد ينتهي إلى الانفصال عن الشريعة، وأصبحَ ـ أو كاد يُصبح ـ مؤسسة أو مدرسة قائمة بنفسها، لا تتصل بالشريعة إلا اتصالاً شكلياً. وشاعت شطحاتُ الصوفية، ودعاوي الوصول إلى الحقيقة والنهاية التي تَسقط فيها الفرائض والتكاليف الشرعية، وظهرت نزعة «وحدة الوجود»، وبدأت الفوضى في بعض زوايا الصوفية؛ فكان الشيخ عبد القادر من أكبر المعارضين لهذا الاتجاه الثائر، ومن أكبر الدعاة إلى إخضاع «الطريقة» للشريعة، والتمسُّك بالكتاب والسنة وتحكيمهما في جميع الأحوال والأقوال والأعمال.

وقد استطاعَ بقوة شخصيته وبإخلاصه وعلمه القوي، أن يمنعَ هذا الاتجاه الخطير، ويَرجع بالتصوف إلى ما كان عليه في العصر الأول.

قال الشعراني: «كانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً، وتحقيقهُ الشرعَ ظاهراً وباطناً».

وكان رضي الله عنه يقول لأصحابه: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا» [٢].

ومن قوله رحمه الله: «إنِ انخرمَ فيك شيءٌ من الحدود فاعلم أنك مفتون، قد لعب بك الشيطان؛ فارجعْ إلى حكم الشرع والزمه، ودع عنك الهوى؛ لأنَّ كلَّ حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي باطلةٌ» [٣] ويقول حاثاً على التمسُّك بالكتاب والسنة والتزام اتباع الرسول ﷺ:

---

(١) الطبقات الكبرى: ص١٢٧.
(٢) المصدر السابق: ص١٢٩.
(٣) المصدر السابق: ص١٣١.

«كُلُّ حقيقةٍ لا تشهد لها الشريعة فهي زَنـدَقـةٌ ، طِرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة؛ ادخُلْ عليه وَيـدُك في يد الرسول ﷺ ، اجعله وزيـرَك ومُعلِّمك ، دَع يَـدهُ تُـزيِّنك وتُمشِّطُك وتَعرِضُك عليه»[١]!

ويقول منكراً على من يَعتقدُ أن التَّكاليف الشرعية تَسقُط عن السالك في حال من الأحوال: «تَـركُ العبادات المفروضات زندقـةٌ ، وارتكاب المحظورات معصيةٌ؛ لا تَسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال»[٢].

وقد كان جَبلاً راسياً في الاستقامة على الشريعة ، وقد وصل بكمال اتِّباعه وعلمه الراسخ ، وتأييدِ الله سبحانه وتعالى ، حيثُ صار يُميز بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، والموارد الإلهية والطوارق الشيطانية.

وقد كان أشدَّ الناس إيماناً ـ كما قدمنا ـ بأن الأحكام الشرعية لا تتبدل ، ولا ناسخَ لها بعد الرسول ﷺ ، وأن من ادعى نسخها أو تعطيلها فقد كفر ، وكان مَطيّـةَ الشيطان.

وقد عرضت له محَن ثبت فيها؛ لعلمه الراسخ وبصيرته النافذة ، يَقول:

«تـراءى لـي نُـورٌ عظيـمٌ مـلأ الأفـق ، ثـم تـدلى فيه صـورةٌ تناديني: يا عبد القادر أنا ربك! وقد حَلَّلتُ لك المحرمات، فقلت: اخسأ يا لعين! فإذا ذلك النور ظلامٌ ، وتلك الصورة دخان ، ثم خاطبني: يا عبد القادر نجوتَ مني بعلمك بأمر ربك وفقهك في أحوال منازلاتك ، ولقد أضللتُ بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقلتُ: لله الفضـلُ ، فقيل لـه: كيف علمت أنـه شيطـان؟ قال: بقوله قد حلَّلت لك المحرمات»[٣].

---

(١) الفتح الرباني: المجلس الرابع والأربعون.

(٢) المصدر السابق: المجلس الحادي عشر.

(٣) الطبقات الكبرى: ص١٢٧.

التفويض والتوحيد:

كانت قدمه رحمه الله على التفويض والموافقةِ مع التبري من الحول والقوة. كان الشيخ عديُّ بن مسافر [١] يقول: «كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه طريقتُه الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح».

وقد جاهَدَ في ذلك نفسه مجاهدةً شديدة، يقول في مقالة: «جاهدتُ نفسي في ترك الاختيار والإرادة؛ حتى حصل لي ذلك؛ فصار القَدَرُ يقودني والمِنة تنصُرني، والفعل يحركني، والغيرة تعصمني، والإرادة تُطيعني، والسابقة تقدِّمني، والله عز وجل يَرفعني» [٢].

وقد تجَلَّى هذا الذوقُ وهذا الاتجاه في كلامه واضحاً قوياً.

وقد وصف رجلاً تجرَّد عن إرادته واختياره، واستسلم للقضاء وإرادة الله سبحانه وتعالى ـ وإنما يعني نفسه ـ يقول رحمه الله:

«إذا ابتُليَ العبدُ بِبَليَّة تحرَّك أولاً في نفسه بنفسه؛ فإن لم يتخلَّص منها، استعان بغيره من الخلق كالسلاطين، وأرباب المناصب، وأبناء الدنيا، وأصحاب الأموال، وأهلِ الطب في الأمراض والأوجاع؛ فإن لم يجدْ في ذلك خلاصه، رجَعَ حينئذ إلى ربه بالدعاء والتضرع والثناء، فما دام يجدُ عند نفسه نُصرةً لم يرجع إلى الخلق، ثم ما دام يجد عند الخلق نُصرة لم يرجع إلى الخالق، ثم إذا لم يجد عند الخالق نصرة، استطرح بين يديه مُديماً للسؤال والدعاء والتضرع والثناء، والافتقار مع الخوف منه والرجاء.

ثم يُعجزه الخالق عز وجل عن الدعاء ولم يُجبه؛ حتى ينقطعَ عن جميع الأسباب، فحينئذٍ ينفُذ فيه القدر، ويُفعل الفعل، فيفنى العبد عن جميع الأسباب والحركات؛ فيبقى روحاً فقط؛ فلا يرى إلا فعل الحق عزَّ وجلَّ،

---

(١) الطبقات الكبرى: ص ١٢٧.

(٢) الفتح الرباني: المجلس الثالث والأربعون.

فيصير موقناً موحداً ضرورة، وقطع أن لا فاعل على الحقيقة إلا الله، ولا محرِّك ولا مُسكِّن إلا الله، ولا خير ولا شر، ولا ضُرَّ ولا نفع، ولا عطاء ولا منع، ولا فتحَ ولا غلق، ولا موت ولا حياة، ولا عزَّ ولا ذل، ولا غنى ولا فقر إلا بيد الله.

فيصيرُ حينئذٍ كالطفل الرضيع في يد الظِّئْر، والميِّت الغسيل في يد الغاسل، والكُرةِ في يد صولجان الفارس، يُقلَّب ويغير ويبدّل وَيكوَّن، ولا حراك به في نفسه ولا في غيره، هو غائب عن نفسه في فعل مولاه؛ فلا يرى غير مولاه وفعلَه ولا يرى سواه، ولا يسمَع ولا يعقل من غيره؛ إن أبصَر فلِصُنعه أبصر، وإن سمع وعلم فلكلامه سمع، ولعلمه علم، وبنعمته تنعم، وبقربه سعد، وبتقرُّبه تزيَّن وتشرف، وبوعده طاب وسكن، وبه اطمأنَّ وبحديثه أَنِس، وعن غيره استوحش ونفر، وإلى ذكره التجأ وركن، وبه عز وجل وثِق، وعليه توكل، وبنور معرفته اهتدى، وتقمص، وتسربل»[(١)].

ويقولُ في مقالةٍ أخرى:

«العبدُ إذا عرف الله عز وجل سقطَ الخلق من قلبه، وتناثروا عنه كما يتناثر الورقُ اليابس من الشجر؛ فيبقى بلا خَلْق في الجملة. يَعمى عن رؤيتهم، ويصمُّ عن سماع كلامِهم من حيث قلبه وسره»[(٢)].

شَفَقَتُه على الخَلْق:

وقد كان ـ رحمة الله عليه ـ عطوفاً، شفيقاً، رفيقاً بالأمة المحمدية وعامةِ الناس، دائم الدعوة لهم، يرق قلبه، وَيرثي لضعفائهم والمشتغلين بما لا ينفعهم في الآخرة، ناصحاً لكل طبقة، مُحباً للخير لها، يحرص على إسعادها وإخراجها من الظلمات إلى النور، يقول مخاطباً لمستمعيه:

«يا خَلْقَ الله إنِّي أطلُب صلاحكم ومنْفَعتكُم في الجملة، أتمنى غَلْقَ أبواب

(١) فتوح الغيب: المقالة الثالثة.
(٢) الفتح الرباني: المجلس السادس والخمسون.

النار وعَدْمها بالكلية ، وألاّ يدخلها أحد من خلق الله عزَّ وجلَّ ، وإنما تمنيتُ هذه الأمنية لاطلاعي على رحمة الله عز وجل وشفقته على خلقه ، قُعودي لمصالح قلوبكم بتَهذيبها ، لا لتغيير الكلام وتَهذيبه ، لا تهربوا من خشونة كلامي ، فما ربَّاني إلا الخشن في دين الله عزَّ وجلَّ ، كلامي خشنٌ ، وطعامي خشنٌ، فَمَن هرب مني ومن أمثالي لا يُفلح» [١].

ويقولُ في مناسبةٍ أخرى ، وهو يصف الدُّعاة إلى الله ، والعلماء الربانيين ، ورحمَتهم بخلق الله ، وحِرصَهم على خلاصهم وسعادتهم:

«كيف لا يرحَمونَ العصاة وهم موضع الرحمة، مقام التوبة والاعتذار، العارفُ خُلقه من أخلاق الحق عز وجل ، فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوى ، إذا رأى أحدُكم ولده أسيراً في يد الكافر ، أليس يجتهد في تخليصه ، فهكذا العارف ، الخلقُ جميعهم كالأولاد» [٢].

ويحكي ـ رحمه الله ـ حالَ من خصَّه الله بهذه الشفقة العامة والنُّصح الدائم ويدخل في سوق ، وإنما يصف نفسه الكريمة:

«منهم من إذا دخل السوق ، امتلأ قلبُـه بالله لأهله ، فتشغل الرحمة لهم عن النظر إلى ما لهم بيـن أيديهم ، فهو من حين دخولـه إلى حين خروجه في دعاء واستغفـار ، وشفاعةٍ لأهلـه ، وشفقةٍ ورحمة ،فقلبُـه محترق عليهم ولهم ، وعينُه مُغْرَورِقةٌ لأجلهم ، ولسانُه في ثناءٍ وحمدٍ لله عزَّ وجلَّ أَوْلَى الكافة من نعمه وفضله» [٣].

دَعْـوتُـه للإسـلام:

إنَّ وجود الشيخ عبد القادر الجيلاني في قوة إيمانه ، وقوة عَمله ، وقوة دعوته ، وسُمو سيرته وأخلاقه ، وزُهده في الدنيا في عصر المادية وعصر

---

(١) الفتح الرباني: المجلس التاسع والأربعون.
(٢) المصدر السابق: المجلس الثالث والخمسون.
(٣) فتوح الغيب: المقالة الثانية والسبعون.

الغفلة والانحطاط، كان دليلاً على خُلود الإسلام وصلاحيته للبقاء، وصلاحيته للإنتاج، وعلى أنَّ شجرته لم تنقطع ـ ولن تنقطع ـ عن الإثمار والازدهار.

فإذا كان الإسلام دينَ عقيدة وإيمان، وعمل وجهاد ودعوة وإصلاح ـ وهو كذلك ـ فلا بد أن يظهر في مختلف أعصاره وأمصاره رجالٌ عبقريون، أقوياء في إيمانهم، أقوياءُ في عملهم، أقوياء في دعوتهم، يُمثِّلون سيرة الأنبياء وخُلفائهم بالحق في عصرهم، وكان وجودُ من تخرَّج على يديه، ونشأ في تربيته ـ من أهل الصلاح والتقوى، والصدق والإخلاص، والزُّهد والقناعة، والأخلاق والفضائل ـ دعوةً إلى الإسلام، ودليلاً على صدقه وفضله وحياته وتأثيره، ومقدرته على إنتاج الرَّبَّانيين في كل عصر، وعلى أن مَعينه لا ينضب؛ لذلك كان سبباً لدخول عدد كبير من اليهود والنصارى وغير المسلمين في الإسلام، وإقبالِ عدد كبير هائل من المسلمين إلى تجديد الإيمان، وإصلاح الحال، والإقلاع عن المعاصي والمحارم، وحياة الغفْلة واللهو.

وفـاتُـه:

وظلَّ الشيخُ مثابراً على دعوته وجهاده وتربيته للنفوس، حتى وافاه الأجل المحتوم سنة ٥٦١ هـ، وقد جاوز التسعين، وقد وصَف ولدُه، شرفُ الدين عيسى مرضه الذي مات فيه، وكيف فارق الدنيا وانتقل إلى رحمة ربه، قال:

«لما مرض مَرَضَهُ الذي مات فيه قال له ابنه عبد الوهاب: أوصِني يا سيِّدي بما أعمل به بعدك، فقال:

«عليك بتقوى الله عز وجل ولا تَخف أحداً سوى الله، ولا تَرجُ أحداً سوى الله، وَكِّلِ الحوائجَ إلى الله عز وجل، ولا تعتمدْ إلا عليه واطْلُبها جميعاً منه، ولا تَثِقْ بأحد غير الله عز وجل، التوحيد التوحيد جماعُ الكل».

وقال: «إذا صحَّ القلبُ مع الله عز وجل لا يخلو منه شيء، ولا يخرج منهُ شيء».

وقال: «أنا لُبٌّ بلا قُشورٌ».

وقال لأولاده: «ابعدوا مِنْ حولي، فإني معكم بالظاهر، ومع غيركم بالباطن».

وقال: «قد حضر عندي غيرُكم فأوسعوا لهم، وتأدبوا معهم هاهنا رحمة عظيمة، ولا تُضيِّقوا عليهم المكان».

وكان يقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، غفَر الله لي ولكم، وتابَ الله عليَّ وعليكم، باسم الله، غير مودَّعين» قال ذلك يوماً وليلة.

وقال: «ويلكم أنا لا أُبالِي بشيء ولا بملك، ولا بملَك الموت، يا ملك الموت، افسح لنا من يتولانا سواك» وصاحَ صَيحة عظيمة، وذلك في اليوم الذي مات في عشيَّته.

وأخبرني ولدُهُ عبد الرزاق، وموسى: أنَّه كان يرفع يديه ويمدهما ويقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تُوبوا وادخلوا في الصف، هو ذا أَجيءُ إليكم».

وكان يقول: «ارفقوا»، ثم أتاه الحقُّ وسكرةُ الموت.

وقال ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ: «بيني وبينكم وبين الخلقِ كلِّهم بُعْدُ ما بين السماء والأرض، فلا تَقيسوني بأحد» ثم سأله ولدُه عبد العزيز، عن ألمهِ وحالهِ؛ فقال: «لا يسألني أحد عن شيءٍ، هاأنا أتقلَّب في علم الله عزَّ وجلَّ».

وقد سأله ولدُه عن مرضه، فقال له: «إن مرضي لا يعلمهُ أحد، ولا يعقله أحد: إنسيٌّ، ولا جِنّي، ولا ملَك، وما يُنقصُ علمُ الله بِحُكم الله، الحُكم يَتغيَّر، والعلم لا يتغير، الحكم يُنسخ والعلم لا ينسخ، يمحو الله ما يشاء ويُثبت وعنده أُمُّ الكتاب، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، أَخبارُ الصفات تُمرُّ كما جاءتْ».

وسأله ولدهُ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسدك؟ فقال: «جميع أعضائي تُؤلمني إلا قلبي، فما به ألم، وهو صحيح مع الله عزَّ وجلَّ» ثم أتاه الموت، فكان يقول:

«استعَنْتُ بلا إله إلا الله سبحانه وتعالى وهو الحيُّ الذي لا يموت ولا يَخشى الفَوت، سبحان من تعزَّز بالقدرة وقهرَ العبادَ بالموت، لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ثم خرجتْ روحُه الكريمة رضي الله عنه وأرضاه [1].

* * *

(١) آخر كتاب «فتوح الغيب».



المحاضرة الثانية عشرة:

الإمام عَبد القادر الجيلاني
دَعوته ، إصلاحُهُ ، وَفضله ، وَفَضل خلفائه
في تجديد الإيمَان وَالدّعوة إلى الإسلام

عَصْرُه:

قَضَى الشيخُ عبد القادر الجيلاني ثلاثاً وسبعين سنة في بغداد، وعاصر خمسةً من الخلفاء العبَّاسيين.

دَخَلَ بغداد ، والخليفةُ المستظهر بأمر الله ، أبو العباس (م٥١٢ هـ)، وجاء بعده المسترشد ، والراشد ، والمقتفي لأمر الله ، والمستنجد بالله.

وكان هذا العصر الذي عاش فيه الشيخ مليئاً بالحوادث الجسام ، وكانت بغدادُ مركزها ، وكان الصراع قائماً بين الخلفاء والسلاطين من آل سلجوق ، الذين كانوا حريصين على بَسْط نفوذهم وسيطرتهم على الدولة العباسية ونيابة الخليفة برضا من الخليفة وموافقةٍ منه مرةً ، وبإباءٍ وكراهية منه أخرى ، وقد تقعُ معركَةٌ بين جيش الخليفة وجيشْ السلطان ، ويتقاتل المسلمون.

وَقَعَ ذلك مراراً في عهد المسترشد ، وهو أقوى الخلفاء في أواخر العصر

العباسي وأحسنهم [١] ، وكان هو المنتصرَ في أكثر الوقائع ، والتقـى جيش الخليفـة وجيـش السلطـان «مسعـود» فـي عـاشر رمضـان ٥١٩ هـ ، وانهزم الخليفة في هذه المرة انهزاماً شنيعاً.

قال ابنُ كثير: «وانتصرَ جيش السلطان ، وأُسر الخليفة ، ونُهبت أموال البغداديين وحواصلُهم ، وطار الخبر في الأقاليم بذلـك ، وحين بلغ الخبر إلى بغداد ، انجزع الناس لذلك ، وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، صورةً ومعنى ، وجاءت العامّةُ إلى المنابر فكسروها وامتنعوا من حضور الجماعات ، وخرج النسـاء في البلد حاسرات يَنُحْنَ على الخليفـة ، وما جرى عليه من الأسر.

وتأسَّى بأهل بغداد في ذلك خلقٌ كثير من أهل البلاد ، ونمت فتنةٌ كبيرة وانتشرت في الأقاليم ، واستمرت الحالُ على ذلك شهر ذي القعدة ، والشناعةُ في الأقاليم منتشرة؛ فكتب ملك سنجر إلى ابن أخيه يحذِّره ـ غبَّ ذلك ـ عاقبةَ ما وقع فيه من الأمر العظيم ، ويأمره أن يُعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته فامتثل الملكُ مسعود لذلك ثم إنَّ الخليفة قتله الباطنية في طريقه إلى بغداد».

شاهد الشيخُ عبد القادر هذه الحوادثَ الأليمة ، ورأى ما أُصيب به المسلمون من تَشتُّت وافتراق وتناحر، وما استولى عليهم من حبِّ الدنيا ، والتقاتل على الملك والجاه والسلطان ، وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والولايات ، والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم.

عاش الشيخُ متصلاً بكل ذلك بشعوره وألمه ، بعيداً عن كل ذلك بقالبه وجسمه ، وانصرف بكل همته وقوته وإخلاصه إلى الوعظ والإرشاد ، والدعوة والتربية ، وإصلاح نفوس المسلمين ، وتزكيتها ، ومحاربة النفاق والشغف

---

(١) قال ابن كثير: كان المسترشد شجاعاً مقداماً بعيد الهمة فصيحاً بليغاً عذب الكلام، حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة، محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رُئي خطيباً، قتل وعمره خمس وأربعون سنة وثلاثة أشهر، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وعشرين يوماً. (البداية والنهاية) ج١٢ ، ص٢٠٨.

بالدنيا ،والتكالُب على حطامها ومناصبها ، وإثـارة الشعور الإيمـاني ، وتقويـة عقيـدة الآخـرة ، والتجـافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، وتهذيب الأخلاق ، والدعوة إلى التوحيد والإخلاص لله تعالى.

وقد كانتْ مواعظه وخطبه مطابقةً لعصره وأهل عصره ، تتناول شؤونهم وما هم فيه من علل وأسقام ، تَطِبُّ قلوبهم ، وتُداوي أمراضهم ، وترد على ضلالاتهم ، وكانت تضرب دائماً على الوتر الحساس ، وتمس قلوبهم ، وتجمع هذه المواعظ بين صَولة الملوك ورِقة الدعاة ، وبين زَجر الآباء ورِفق الأطباء.

التَّوحيدُ الخالصُ والاستِخفافُ بغَير الله:

كانت بغدادُ عاصمة الإمبراطورية العباسية ،وقد تعلَّقت بهـا قلوبُ أهل البلاد وقلوب الناس ، الذين يسكنون في أنحاء المملكة الإسلامية الكبرى ، وأصبح قَصرُ الخليفة وقصور الوزراء مناط الآمال ومحطَّ الرحال ، وتعلق الناس بالأسباب والوسائط ـ من التدابير والشفاعات والأشخاص ـ تعلقاً شديداً يعتقدون فيها النفع والضرر ، وأصبحتِ الأسباب أرباباً من دون الله. وأصبح كثير من الناس يعتقدون أن أمراء الدولة وعُمَّالها يملكون أرزاقَ الناس وحظوظهم ونفوسهم؛ يُسعدون ويُشقون ، ويعطون ويمنعون ، ويَنصبون وَيعدلون ، بأيديهم القضاء والقدر ، والنفع والضرر؛ فانصرفت إليهم همم الناس ، وتسابقوا إلى إرضـائهم والتـزلُّف إليهم.

وهكذا نشأت «وثنية» في عاصمة الإسلام ، أصنامُها الأمراء والموظفون ، وهياكلها دور الحكومة ، واتجه الناسُ من عبادة الله وحده والتوكل عليه والسؤال منه ، إلى الالتجاء إلى الخلق ، والاعتماد عليهم ، واستعطافهم وتملقهم.

وصَدَع الشيخُ بالتوحيد وتحقير الخلق من الملوك والوزراء ، والأمراء والأغنياء ، وبيانِ ضعفهم وعجزهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ،

ويُصوِّر عجزهم وضعفهم تصويراً بليغاً دقيقاً، ويضرب لذلك الأمثال. يقول في حديث:

«اجعل الخليقة أجمع كرجل كتَّفه سُلطان عظيم ملكه، شديد أمره، مَهولةٌ صَولتُهُ وسطوته، ثم جعل الغلَّ في رقبته مع رجليه، ثم صلبه على شجرة الأرز على شاطىء نهر، عظيمٍ موجُهُ، فسيح عرضه، عميق غَوره، شديد جريه، ثم جلس السلطان على كرسي، عظيم قدره، عالية سماؤه، بعيد مُرامه ووصوله، وتَرك إلى جنبه أحمالاً من السهام والرماح والنّبل وأنواع السلاح والقسيِّ مما لا يبلغ قدرها غيره؛ فجعل يَرمي إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح.

فهل يَحسن لمن رأى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان، ويترك الخوف منه والرجاء له، ويخاف من المصلوب ويرجو منه؟ أليس مَنْ فعل يُسمَّى في قضية العقل عديم العقل ومجنوناً، بهيمة غير إنسان» (١).

وإذا كان هذا شأن الخليقة كلها، وإذا كان هذا عجزها وضعفها وخستها ونذالتها، فلماذا يستغيثُ بها إنسان، ويلتجىء إليها في مُلمَّة أو حاجة؟

وهنا يحثُّ الشيخُ السامعين على الإقبال إلى الله وحده، والالتجاء إليه، في أسلوبٍ خطابيٍّ قوي بليغ:

«انظرْ إلى من ينظر إليك، وأقبل إلى من أقبل عليك؛ وأَحببْ من يُحبك، واسْتجب إلى من يدعوك إليه، وأعط يدك من يُثبتك من سقطتك، ويُخرجك من ظلمات جهلك، ويُنجيك من هلكتك، ويَغسلك من أنجاسك، ويُنظفك من أوساخك، ويُخلصك من جيفتك ونتنك، ومن هِمَمِك الرَّدية، ونفسِك الأمارة بالسوء؛ وأقرانك الضالين المضلين؛ شياطينك وهواك وأخلائك الجهال، قطّاع طريق الحق عز وجل، الحائلين بينك وبين كل نفيس وثمين وعزيز.

---

(١) فتوح الغيب: المقالة السابعة عشرة.

إلى متى العادة؟ إلى متى الخلق؟ إلى متى الهوى؟ إلى متى الرُّعونة؟ إلى متى الدنيا؟ إلى متى الأخرى؟ إلى متى ما سوى المولى؟ أين أنت من خالق الأشياء ، المكون للأكوان؟ الأول والآخر والظاهر والباطن؛ المرجع والمصدر إليه ، وله القلوب ، طُمأنينةُ الأرواح ، ومحط الأثقال ، والعطاء بلا امتنان» [١] .

ويذكر نفاذَ القضاء والقدر ، وأنَّ إرادة الله هي الغلاَّبة القاهرة ، المتصرفة في الخلق ، ويذكر درجات الموحدين ، وطبقاتهم في التوحيد ، والخضوع للمشيئة الإلهية وفعله تعالى:

«الخَلق عَجَزةٌ لا يضرونك ولا ينفعونك ، إنما الحق عز وجل يُجري ذلك على أيديهم. فعلهُ يتصرف فيك وفيهم ، جَرى القلم في علم الله عزَّ وجلَّ بما هو لك وعليك.

الموحدون الصالحون حجةُ الله على بقية الخلق. منهم من يتعرى عن الدنيا من حيث ظاهره وباطنه.

ومنهم من يتعرَّى عنها من حيث باطنه فحسب ، لا يرى الحقُّ عز وجل على بواطنهم منها شيئاً ، تلك القلوب الصافية !

من قدر على هذا فقد أعطي الملك من الخلق ، هو الشجاع البطل. الشجاعُ من طهر قلبه مما سوى الله عز وجل ، ووقَف على بابه بسيف التوحيد وصمصامة الشرع، لا يخلي شيئاً من المخلوقات يدخل إليه ، يجمع قلبه بمقلب القلوب. الشرع يهذب الظاهر ، والتوحيدُ والمعرفة يُهذبان الباطن» [٢] .

لم يقتصر الشيخُ على أوثان الجاهلية وآلهتها ، وعلى عبَّاد الأصنام

---

(١) فتوح الغيب: المقالة الثانية والستون.

(٢) الفتح الرباني: المجلس الثالث عشر.

ومشركي الملل في عصره؛ بل تعدى ذلك إلى الآلهة الجديدة التي حلت في النفوس محل الآلهة القديمة، وقامت لها دولةٌ في قلب بلاد الإسلام، وهي «المال» و«الثروة» و«القوة» و«السلطان» و«الحيل والحرف» و«الأسباب والوسائل» وحارب هذه الآلهة حرباً لا هوادة فيها ولا رِفق، يقول في مجلس:

«أنت مُعتمدٌ على حولك، وعلى الخَلْق، ودنانيرك ودراهمك، وعلى بيعك وشرائك، وعلى سُلطان بلدك، كلُّ من اعتمدت عليه فهو إلٰهك، وكل من خفته ورجوته فهو إلهك، كلُّ من رأيته في الضر والنفع، ولم تر أن الحق عز وجل يُجري ذلك على يديه فهو إلهك» (١).

ويقول في مقالة أخرى:

«يا موتى القلوب!؛ يا مشركين بالأسباب، يا عابدين أصنَامَ حولِهم وقواهم، ومعائِشهم ورؤوس أموالهم، وسلاطين بلادهم، وجهاتهم التي ينتمون إليها، إنَّهم محجوبون عن الله عز وجل. كل من يرى الضرر والنفع من غير الله عز وجل، فليس بعبدٍ له، هو عَبدُ من رأى ذلك منه» (٢).

ويقول في مقالة أخرى:

«يا مُعرضاً عن الحق عزَّ وجلَّ وعن الصدِّيقين من عباده، مُقبلاً على الخلق مشركاً بهم، إلى متى إقبالك عليهم؟ أيش ينفعونك؟ ليس بأيديهم ضررٌ ولا نفعٌ، ولا عطاء، ولا منع، لا فرق بينهم وبين سائر الجماعات فيما يَرجع إلى الضر والنفع، المَلِك واحدٌ، المسخِّر واحدٌ، المعطي والمانع واحدٌ، الخالق والرازق هو الله عزَّ وجلَّ» (٣).

العالمُ الربانيُ، وداعية الحق، طبيبٌ يأتيه المرضى من كلِّ نوع فيداويهم ويحسم فيهم مادَّة الداء، ويريهم طريق الشفاء، ويتوجَّهُ بهم إلى الله تعالى.

---

(١) الفتح الرباني: المجلس العشرون.
(٢) المصدر السابق: المجلس الثالث والعشرون.
(٣) المصدر السابق: المجلس الثالث عشر.

وكان ممَّن يأتيه ويَحضُر مجالسه رجالٌ تعلَّقت قلوبهم بغير الله ، ثم حِيل بينهم وبينه ، فهم في قلق وحسرة ، ويُسلِّيهم الشيخ ويذكر الحكمة في ذلك ، ويشرح غيرة الله سبحانه وتعالى ، وحرصه على أن يكون عبده خالصاً له ، لا يُنازع حبَّه حُبٌّ ، ولا يزاحم حقَّه حقٌّ.

«ما أكثر ما تقول: كلُّ من أحبه لا تدوم صحبتي له ، فيحال بيننا ، إمَّا بالغيبة ، أو الموت ، أو العَداوة وأنواع الأهوال بالتلف ، والفوات من اليد.

فيقال لك: أما تعلم يا محبوب الحق ، المعني به ، المنظورَ إليه ، المغار له وعليه ، ألم تعلم أن الله غيور ، خلقكَ له وتريد أن تكون لغيره؟!

أما سمعتَ قوله عز وجل: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾؟ [الذاريات: ٥٦] .

أما سمعتَ قولَ الرسول ﷺ : «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اقتناه».

قيل: يا رسول الله ، وما اقتناه؟ قال: «لم يذر له مالاً ولا ولداً»[(١)] .

وذلك: لأنه إذا كان له مال وولد أحبهما، فتشعَّبت محبته لربه عز وجل، فتنتقص وتتجزأ؛ فتصير مشتركة بين الله وبين غيره ، والله تعالى لا يقبل الشريك ، وهو غيور قاهر فوق كل شيء ، غالبٌ لكل شيء؛ فيُهلك شريكه ويعدمه؛ ليخلص قلبُ عبده له من غير شريك ، فيتحقق حينئذ قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، حتى إذا تنظف القلب من الشركاء والأنداد من الأهل والمال والولد ، واللذات والشهوات ، وطلب الولايات والرياسات والكرامات والحالات ، والمنازل والمقامات ، والجنات والدرجات ، والقُربات والزلفات؛ فلا يبقى للقلب إرادة ولا أمنية ، كالإناء المنثلم الذي لا يُضبط فيه مائع؛ فلا ينضبط فيه إرادة شيء من الأشياء؛ لأنه انكسر بفعل الله

(١) [أخرجه أبو بكر الشيباني في «الآحاد والمثاني» (٤/ ٤٤٥) برقم (٢٤٩٩) ، والديلمي في الفردوس (١/ ٢٥٠) برقم (٩٦٨) من حديث أبي عتبة الخولاني].

عز وجل، كلما نجمت فيه إرادةٌ كسرها فعل الله عزَّ وجلَّ وغيرته.

فضُربت حوله حينئذٍ سرادقات العظمة والجبروت والهيبة، وحُفرت من دونه خنادقُ الكبرياء والسطوة؛ فلم يخلص إلى القلب إرادة شيء من الأشياء فحينئذٍ لا يضر القلبَ الأسبابُ من الولد والأهل والأصحاب والكرامات، والحكم والعبادات؛ فإن جميع ذلك يكون خارج القلب؛ فلا يغار الله عز وجل؛ بل يكون جميع ذلك كرامةً من الله لعبده؛ ولطفاً به ونعمة ورزقاً ومنفعة للواردين إليه [(١)].

مَكانةُ الدنيا في نَظرِ الشيخ:

لم يكن الشيخُ عبد القادر من دُعاة «الرهبانية». إنه لا يرى بأساً بالتمتع المباح بالدنيا وأسبابها، واستعمال خيراتها وطيباتها؛ ولكنه يُعارض العكوف على لذاتها وشهواتها بنَهم وتقديس، وتعلُّق القلب والشغف بها، إنه يؤمن بقول النبي ﷺ: «وإنكم خُلقتم للآخرة والدنيا خُلِقَتْ لكم»[(٢)] فيعاملُها الإنسان معاملة سَيِّد مطاع، لا عبد مطيع، ويقول في بلاغة وإيجاز:

«لا تأكل قَسْمك من الدنيا وهي قاعدة، وأنت قائم؛ بل كُلْها على باب الملك وأنت قاعِدٌ، وهي قائمة، والطَّبق على رأسها، تخدم من هو واقف على باب الحق عز وجل، وتُذِل من هو واقف على بابها، كلٌ منها على قدم الغنى والعِز بالحق عزَّ وجلَّ» [(٣)].

إنه لا يُعارض أن يملك أحد الدنيا؛ إنما يعارض أن تملكه الدنيا وتستحوذ على قلبه، يقول في مجلس:

«وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يُحبُّها، يملكها ولاتملكه، تُحبه

---

(١) فتوح الغيب: المقالة الثانية والثلاثون.
(٢) [أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٣٦٠) برقم (١٠٥٨١)].
(٣) الفتح الرباني: المجلس الواحد والعشرون.

ولا يُحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه ، يُفرِّقُها ولاتفرِّقُه ، قد صلح قلبه لله عز وجل ، ولا تقدر الدنيا أن تفسده ، فيتصرف فيها؛ ولا تتصرف فيه، ولهذا قال النبي ﷺ : «نِعْمَ المالُ الصالح للمرء الصالح» (١) .

إنَّه لا يعارض وجودها في بيت أو صندوق ، إنَّما يعارض وجودها في سويداء القلب وأعماق النفس ، يقول في محل آخر:

«ويحك! الدُّنيا في اليد يجوزُ ، في الجَيب يجوز ، ادِّخارها لسبب وبنيَّة صالحة يجوز. أما في القلب فلا يجوز ، وُقوفها على الباب يجوز ، أما دخولها إلى وراء الباب ، فلا ، ولا كرامَة لك» (٢) .

إنَّه يـذمُّ حياة العُطلـة والبطالة ، وأن يعيش الإنسان عيـالاً على غيره متوكـلاً عليهم ، يقـول في مجلس ، حاثـاً على الاشتغال وكسـب الحلال:

«اعْبدوا الله عز وجل ، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال ، إن الله عز وجل يُحب عبداً مؤمناً مطيعاً ،آكلاً من حلاله يُحب من يأكل ويعمل ، ويُبْغض من يأكل ولا يعمل ، يُحب من يأكل بكسبه ، ويُبغض من يأكل بنفاقه وتوكُّله على الخلق» (٣) .

نَقدهُ للخلفاء والأُمراء في عَصْره:

ولمْ يكن الشيخ يقتصر على وَعظ العامة ودعوتهم؛ إنما كان صدَّاعاً بالحق صريحاً قوياً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يتناول الخليفة والملوك

---

(١) الفتح الرباني: المجلس الرابع والثلاثون. [والحديث أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٩٧) برقم (١٧٧٩٨) ، وابن حبان في الصحيح (٦/٨) برقم (٣٢١٠) ، والبيهقي في الشعب (٢/ ٩١) برقم (١٢٤٨) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه].

(٢) المصدر السابق: المجلس الواحد والخمسون.

(٣) المصدر السابق: المجلس السادس والأربعون.

والأمراء بالنَّقد والملامة، ويذمُّ ظلمهم؛ ولا يُحابي في ذلك أحداً، ولا تمنعه منه وَجاهة أو سلطان.

قال ابنُ كثير: «كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسَّلاطين والقضاة والخاصة والعامة، يَصدعُهم بذلك على رؤوس الأشهاد على رؤوس المنابر وفي المحافل. ويُنكر على من يُولي الظلمة، ولا تأخذه في الله لومة لائم».

ويقول صاحبُ قلائد الجواهر: «ولما وَلَّى المُقتفي لأمر الله أمير المؤمنين القاضي أبي الوفاء، يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفَّر، المشهورَ بابن المزحم المظالمَ، قال على المنبر: ولَّيتَ على المسلمين أظلمَ الظالمين، ما جوابُك غداً عند رب العالمين أرحم الراحمين؟! فارتعد الخليفةُ وبكى، وعزل القاضي المذكور لوقته»[1].

إنكاره على عُلماءِ السُّوء:

وكان يُنكِر على «عُلماء» البلاط و«العلماء الرسميين» الذين التزموا صُحبة الملوك والأمراء، وأصبَحوا نُدماءهم ورجال حاشيتهم، يُوافقونهم على كل ما يراه هؤلاء الملوك ويُنفِّذونه من أحكام جائرة، ويُخضِعون لهم الشريعة ونصوصها، ويُؤَوِّلون لهم أحكام الشرع، وقد تجرأ بهم هؤلاء على المعاصي والأهواء وتنفيذ الأحكام الجائرة، وقد كان الشيخ يُشَنِّع عليهم، ويُغلظ لهم القول، يقول في مجلس مخاطباً لهؤلاء العلماء:

«أين أنتم وهم؟ (يعني علماء الآخرة) يا خونة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله عزَّ وجلَّ، أنتم في ظُلم ظاهر، ونفاق ظاهر، هذا النفاق إلى متى؟ يا علماء، يا زهاد، كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها؟ أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمن

(١) قلائد الجواهر: ص ٨.

ظَلمةٌ وخونةٌ في مال الله عز وجل في عباده، اللَّهم اكسر شوكة المنافقين واخذلهم، أو تُب عليهم واقمع الظلمة، وطهر الأرض منهم أو أصلحهم، آمين»[١].

ويقول مخاطباً لفرد من أفراد هذه الطبقة:

«أمَا تستحي! قد حملك حرصك على أنَّك تخدم الظلَمة وتأكل الحرام، إلى متى تأكل وتخدم الملوك الذين تخدمهم؟ يزولُ مُلكهم عن قريب، وتتولى عن خِدمة الحق عز وجل الذي لا يَزول»[٢].

والظاهر أنَّه لا يَجرؤ على هذا الكلام الصريح القوي إلا الصِّدِّيقون الذين أَخلصت قلوبهم لله تعالى، وزال عنها الطمع والخوف من غير الله، وأصبح غيرُ الله ـ من أصحاب الحول والطول ـ مخلوقاً خسيساً لا قيمة له.

وقد قال في مجلس له:

«إنِّي أقولُ لكم الحق، ولا أخافُ منكم ولا أرجوكم، أنتم وأهل الأرض عندي كالبق وكالذَّر؛ لأني أرى الضُّرَّ والنفع من الله عزَّ وجلَّ ـ لا منكم ـ المماليكُ والملوك عندي سواءٌ»[٣].

ذَمُّ المُنافِقين:

ويُشَنِّع في قوة وشجاعة على المنافقين الذين كَثُروا في المجتمع الإسلامي، الذين عكفوا على شهواتهم، ونَبذوا الدين وتكاليفَه وراء ظهورهم، واستغلُّوا اسم الإسلام والانتساب إليه للتمتع بالحقوق التي يُخولها الإسلام من غير قيام بحقوقه، ومعرفة لفضله، وخُضوعٍ لشريعته. يقول في مجلس:

---

(١) الفتح الرباني: المجلس الواحد والخمسون.
(٢) المصدر السابق: المجلس الثاني والخمسون.
(٣) المصدر السابق: المجلس الواحد والخمسون.

«يا منافقون! حَسبْتُم أن الدين سَمرٌ، أنَّ الأمر سُدى، لا كرامة لكم ولا لشياطينكم، ولا لقُرنَائكم السوء، اللهم تب عَلَيَّ وعليهم وخَلِّصهم من ذُلِّ النفاق، وقَيْدِ الشرك»(١).

التَّوجُّع لدين الله:

كان الشيخُ في بغداد، عاصمة الدولة العباسية، وقبة الإسلام، وكان يُشاهد ذلك الانحطاط الديني والخلقي، الذي ابتلي به المجتمع الإسلامي في القرن الخامس الهجري، وكانت بغداد مركزه، وكان يرى تشاغل الناس بأنفسهم، واشتغال العلماء لمصالحهم؛ فكان يحترق قلبه على ذلك بما أوتي من غيرة دينية وحسٍّ مرهف، وحرص على صلاح هذه الأمة، وشعور بالمسؤولية والأمانة؛ فكانت تفيض من لسانه وقلبه كلماتٌ مؤثِّرةٌ، هي آية في الإخلاص والصدق والحميَّة الدينية، يقول في مجلس:

«دينُ محمدٍ ﷺ تتواقع حِيطانُه ويتناثر أساسُه، هلمُّوا يا أهل الأرض، نُشيِّدُ ما انهدم، ونقيم ما وقع! هذا شيء ما يتم، يا شمس ويا قمر! ويا نهار! تعالوا»(٢).

ويقول:

«يا قوم! الإسلام يبكي، ويستغيثُ، يده في رأسه من هؤلاء الفجار، من هؤلاء الفساق، من هؤلاء أهل البدع والضلال، من الظَّلمة، من اللابسين ثياب الزور، من المُدَّعين ما ليس فيهم، انظر إلى من تقدَّمك، وإلى من كان معك آمراً ناهياً، آكلاً شارباً، كأن لم يكونوا، ما أقسى قلبك، الكلب ينصحُ صاحبه في صيده وزرعه وماشيته وحراسته، ويبصبص عند رؤيته، فإنَّما يُطعمه عند عشائه لقمة أو لقيمات، أو يطعمه شيئاً يسيراً، وأنت تأكل

---

(١) الفتح الرباني: المجلس السادس والأربعون.

(٢) المصدر السابق: ٦٤٨ ـ ٦٤٩.

نِعم الله ، وتشبع بها ، لا تعطيه منها مطلوبه ، ولا توفِّيه حقَّه ، تَردُّ أمره ، ولا تحفظ حدوده»[(١)].

البَنيعة والتَّربية:

انتفَعَ أهلُ بغداد ومن أَمَّها من جِهاتٍ بعيدة بهذه المواعظ الرقيقة المرقِّقة ، وبهذه الخطب المُجلْجِلة المدوية ، وتغيرت حياة ألوف من الناس ، ولكنَّ مجالس الدعوة والوعظ حلقاتٌ حرة مؤقتة يَؤمُّها أناس ويحضرونها ، ثم يتغيَّبون عنا ويهجرونها ، ويداوم عليها كثير من الناس، ثم يظلُّون على ما هم عليه من تقاليد وعادات ، وأهواء وشهوات .

اتَّسعَ العمرانُ في الحواضر والمدن ، وشَغلت الحياةُ وحاجاتها النفوسَ ، فقلَّ من يعتكف في المدارس ويَنقطع إليها ليدرس العلوم الدينية ويتوسع فيها ، وهكذا أصبحت هذه المدارس النظامية التي تخضع لقيود وتقاليد كثيرة ، قاصرةً عن إصلاح شعبي وتربية عامة ، وبقيت مُنحصرة في نطاق ضيق ، لا تُفيد ولا تسعف إلا العدد القليل الذي يَلتحق بها وينتسب إليها ؛ فلا صلة لها بالشعب ، ولا صلة للشَّعب بها إلا عند الاستفتاء أو ما يشبه ذلك ، وإنما تعيش في عُزلة عن الحياة ، وكذلك المؤلِّفون والمثقَّفون الكبار ؛ فالفَجوة الثقافية والعقلية بينهم وبين الشعب واسعة وعميقة لا يَعْبُرها إلا الخاصة والشواذ، ثم إنَّ صلة الناس بالمدارس والعلماء والمؤلِّفين صِلةٌ علمية عقلية لا تخضع لها القلوب والنفوس ، ولا تنصبغ بها الحياة والأخلاق والطبائع إلا في النادر ، ولا يتقيَّد بها الناسُ ، ولا يرتبطون بها ارتباطاً روحياً إلا في النادر .

كـان المسلمون في حاجـة إلى دُعاة ، وشخصيات قويـة جامعـة ، تجمع بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس[(٢)] ، وهكذا تخلُف

---

(١) الفتح الرباني: ص ٦٦١ .

(٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] .

الرسول ﷺ في أمّته بعد انقطاع النبوّة ، وتُجدِّد صلتها بالله والرسول وتجدِّد الميثاق الذي دخلت فيه هذه الأمة والمسلمون جميعاً ، عن طريق الإيمان والنطق بالشهادتين ، وما عاهدت عليه وبايعتِ الرسول ﷺ مع بُعد الزمان والمكان من السمع والطاعة ومُخالفة النفس والهوى والشيطان ، والتحاكم إلى الله والرسول ، والكفر بالطاغوت ، والمجاهدة في سبيل الله؛ فقد تغافلَ عن ذلك الخلفاء ، واقتصروا على الجباية والفتوح ، وأخذوا البيعة لأنفسهم وأولادهم ، وعجز عن ذلك العلماء؛ فاشتغلوا بالفتوى والوَعظ والتدريس والعلم والتأليف ، وإذا أرادوا ذلك لم يَخضع لهم العامة؛ لأنهم لا يرون فيهم ـ إلا النادر القليل ـ الإخلاص والزهد وأثر الخلافة النبوية .

وهكذا ضَعُفَ الشعور في العامة والسُّوقة والفلاحين والعَمَلة؛ حتى في كثير من الخاصة والمتعلِّمين بأن الإسلام عهدٌ وميثاق ، وبيع وشراء بين العبد وربه ، وأصبحوا أحراراً في تصرفاتهم ، جامحين عاتين في شهواتهم ، هملاً وقُطعاناً لا يضبطهم راع .

وضعفت في كثير منهم الرغبة في الطاعات وبلوغ درجة الإحسان ، والحصول على نور اليقين وَبشاشة الإيمان ، وتقاصرتِ الهمم ، وخَمدت النفوس ، وأقبل الناس ـ إلا من عصم ربك ـ على اللذات والشهوات بِنَهَم وشَرَهٍ .

ضَيَّعت الخلافةُ الإسلاميةُ ـ كما وصفنا سالفاً ـ روحَ الخلافة وأمانة النبوّة ، وأصبحت مُلكاً وسياسة ، وإدارة وجباية ، فقام في نواحي المملكة الإسلامية الواسعة خلفاء الرسول ﷺ والربانيون ، يُجدد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاقَ الإسلام ، ويدخلون في السِّلم فقهاً وإرادة بعد ما دخلوا في الإسلام وِراثة وعادة ، ويستردُّون بتعليمهم وتربيتهم حلاوةَ الإسلام ولذة الإيمان ، ويخرجون من سلطان الهوى وَرِقِّ الشهوات وعبادة الناس ، وينشطون في العبادات والطاعات ، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله .

مِن أشهر هؤلاء الدُّعاة والمربِّين : «الحسن البصري» و«الفُضَيْلُ بن عياض»

و «معروفٌ الكَرْخِي» و«الجُنيد البغدادي» رحمهم الله تعالى .

وانتهى الأمرُ إلى القرن السادس ، وقد تباعد الزمان عن النبوة وآثارها وبركاتها ، واتسعت الدنيا ، وكثرتْ أسبابُ الغفلة واللهو ، وطال على المسلمين الأمد ، فقست قلوبهم.

هنالك نَهَضَ في بغداد ـ دار السلام وقلب عالم الإسلام ـ رجلٌ قويٌّ الشخصية ، قوي الإيمان ، قوي العلم ، قوي الدعوة ، قوي التأثير؛ فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي ، والعبودية الخالصة ، وأخلاق المؤمنين المخلصين ، وحارب النفاق الذي اجتمع في المجتمع الإسلامي بقوة منقطعة النظير في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وفتحَ باب البيعة والتوبة على مصراعيه ، يدخل فيه المسلمون ، من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي يُجدِّدون العهدَ والميثاق مع الله ، ويُعاهدون على ألا يشركوا ولا يكفروا ولا يَفسقوا ، ولا يبتدعوا ، ولا يظلموا ولا يتناسوا الآخرة.

وقد دَخَلَ في هذا الباب ـ وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر ـ خلقٌ لا يحصيهم إلا الله ، وَصلُحت أحوالهم ، وحَسُن إسلامهم ، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ، ويُشرف عليهم وعلى تقدُّمهم ، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسؤولية بعد البَيعة والتَّوبة وتجديد الإيمان على يد عبدٍ مخلصٍ ، وعالم ربانيٍّ شعوراً جديداً ، وظل بينهم وبين الشيخ رباط وثيق عميق ، أقوى من رباط التلاميذ بالأساتذة والشيوخ ، ومن رباط الجند بالقائد ، ومن رباط الرعية بالراعي ، إنما هو رباط روحي ديني ، لا يَهنُ ولا ينحلُّ ، وإنما هو ميثاق لا يُنقض ولا يُنكث.

ثم يُجيز الشيخُ كثيراً منهم ـ ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية ـ فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله ، ويُربُّون النفوس ، ويحاربون الشرك والبدع ، والجاهلية والنفاق ، فتنتشر الدعوة الدينية ، وتقوم ثكناتُ الإيمان ، ومدارس الإحسان ، ومَرابطُ الجهاد ، ومَجامع الأخوة ، في أنحاء العالم الإسلامي.

وقد استطاع الشيخُ عبد القادر أن يستمر في دعوته وجهاده أكثر من نصف قرن، في بيئةٍ اشتدَّ فيها الاستبداد، وكثُرت فيها الوساوس، وشاعت فيها الوشايات والسعايات، وأخفقتْ فيها الدعوات السياسية، وحورب فيها المعارضون للحكومة بقَساوة وشدة، واحتمل الخلفاء والأمراء نقده الشديد، وإنكاره على تصرفاتهم ومناهج حياتهم، وما كان ذلك إلا لإخلاصه الذي لا يتطرق إليه الشك، ولا ترتقي إليه شبهة، وزُهده في كل ما يحرصون عليه ويَضِنُّون به، وبذله النصيحة والشفقة لكل من يدين بالإسلام؛ بل يتحلى بالإنسانية، وانقطاعه إلى الدعوة إلى الله، والإرشاد إلى معالم الحق.

دُعاة الإسلام ومشَاعِلُ الإيمان:

وقد كان لخلفائه وتلاميذه، ولمن سار سيرتهم في الدعوة وتهذيب النفوس من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلته، فضلٌ كبير في المحافظة على روح الإسلام وشُعلة الإيمان، وحمَاسة الدعوة والجهاد، وقوة التمرد على الشهوات والسلطات، ولولاهم لابتلعتِ الماديةُ التي كانت تسير في ركاب الحكومات والمدنيّات هذه الأمةَ، وانطفأتْ شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها.

وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تَغزُها جيوش المسلمين، أو لم تستطع إخضاعها للحكم الإسلامي [1]، وانتشر بهمُ الإسلام في إفريقية السوداء، وفي أندونيسية وجزر المحيط الهندي، والصين، وفي الهند.

ولما زحف التَّتار على العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، وأثخنوه جراحاً وقتلاً، ولم يتركوا فيه إلا روحاً ضعيفة ونفَساً خافتاً، وَفُلَّ سيف الجهاد والمقاومة؛ فأصبح لا يؤثر ولايعمل، وأغمده المسلمون يأساً وقنوطاً، وآمن

---

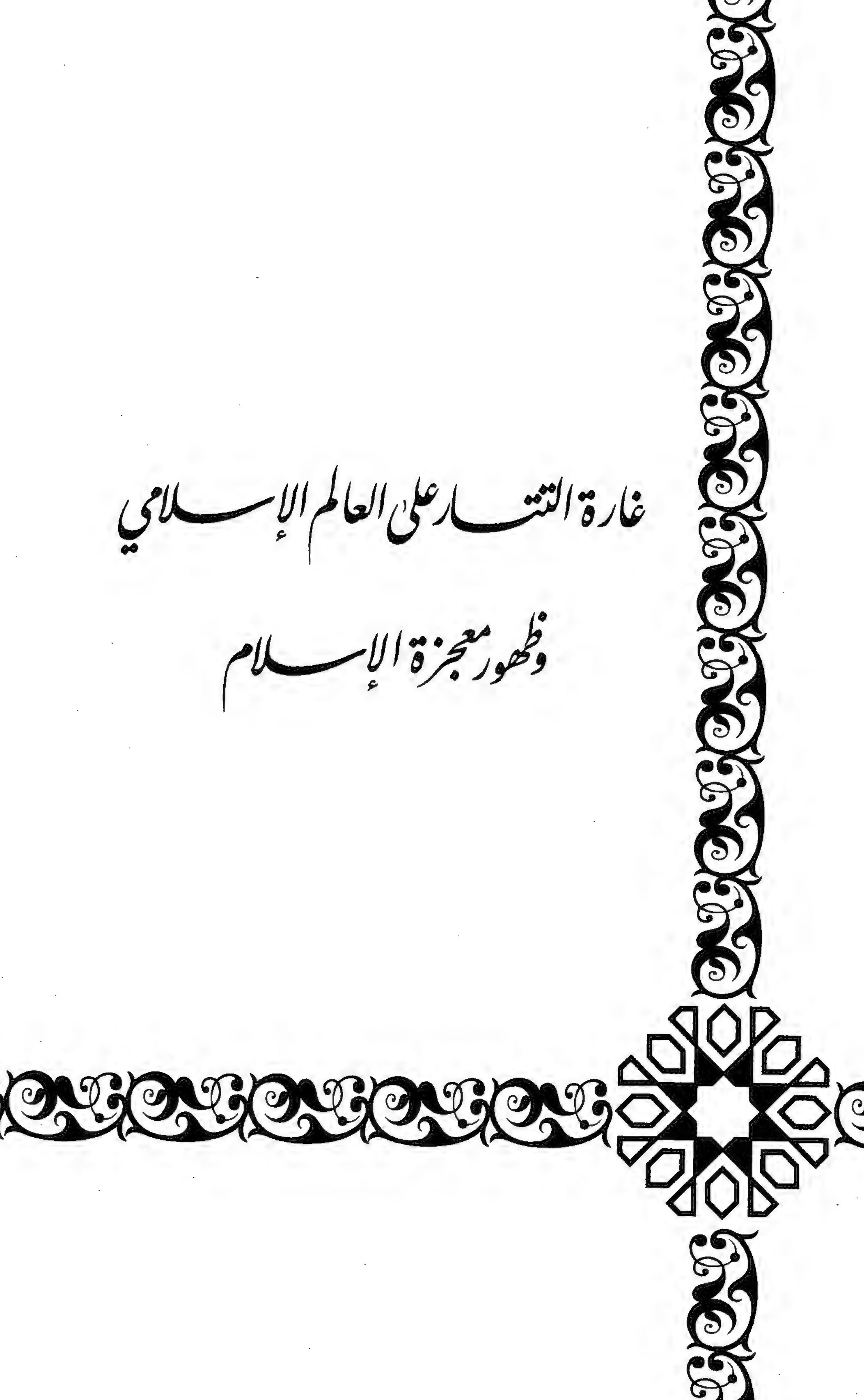
(١) راجع كتاب: «الدعوة إلى الإسلام» لتوماس أرنولد الإنكليزي Preaching of Islam.

الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم، وأن العالم الإسلامي قد كتب عليه أن يعيش تحت تحكم هؤلاء الهمج، وأن الإسلام لا مستقبل له، قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح ـ على إحصائه واستقصائه ـ يجهلُ أسماء كثير منهم، يتسرَّبون في هؤلاء الغلاظ الشداد. يفتحون قلوبهم للإسلام؛ حتى تفتَّحت له وأحبَّته، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً، ولم يمض على زحفهم على العالم الإسلامي وإذلالهم له كثيرُ زمان حتى أسلم جُلُّهم أو كلُّهم، وصاروا حماة الإسلام وحملة رايته وكان منهم فقهاء وزهّاد ومجاهدون.

هكذا أخضعوا للإسلام من أخضع العالم الإسلامي بالأمس من شَرقه إلى غربه، وأدخلوا أمة قهرت الأمم كلها في عصرها في دين لا يحميه سيف ولا يدافع عنه جيش، وقد كانت ثلاث ديانات ـ هي أعظم ديانات العالم ـ تتنافس في اكتساب هذه القوة القاهرة للعالم: «البوذية» و«المسيحية» و«الإسلام» وكانت البوذية أقرب إلى فطرتها وبيئتها، وكانت النصرانية أرفعَ مكانة وأقرب زُلفى في مجالس سلاطينها؛ ولكن الإسلام ـ بفضل دعاته المخلصين انتصر على منافسيه ـ البوذية والنصرانية ـ وأسلم التتار أمة وجنساً، وكوَّنوا دولاً إسلامية كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمَّل بها تاريخُ الإسلام، وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين ـ البوذية والنصرانية ـ حادثة غريبة لا تُعَلَّل إلاّ بمشيئة الله تعالى وتأييده، وتفوَّق دعاة الإسلام في الإخلاص والروحانية على دعاة البوذية والنصرانية، وإليك التفصيلُ في الصفحات التالية.

* * *





غارة التتار على العالم الإسلامي

وظهور معجزة الإسلام



المحاضرة الثالثة عشرة:

غارة التَّتار على العالم الإسلامي وظهورُ مُعجِزَة الإسلام [(١)]

غارَةُ التَّتار وأسبابُها الحقيقيّة في ضوء القرآن:

واجَهَ العالمُ الإسلاميُّ في القرن السابع الهجري كارثةً يَنْدُر نظيرها في تاريخ العالم ، وكادت تقضي هذه الكارثة على شخصية العالم الإسلامي ، وهو زحفُ الوحوش التتار الذين تقدَّموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الإسلامي كلِّه .

والمعروفُ أنَّ السبب في هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطانُ علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنه أمر بقتل التُّجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما أرسل إليه جنكيز خان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضاً ، فاشتعل جنكيز خان غضباً ، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الإسلام كله .

---

(١) فصلٌ كتبه المؤلف في الأردوية لكتابه «تاريخ دعوت وعزيمت» ونقل أكثره الأستاذُ سعيد الأعظمي إلى العربية. وأُضيف إلى الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

ولكن إذا تدبَّرنا في ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذي أشار إليه القرآن ، ولا سيما ما ذكره في بدء سورة «الإسراء» من تدهور بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض ، وعُلوِّهم وتمردهم وما جرَّ ذلك إلى زحف الملوك الظالمين ، وتسلُّطهم على بني إسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا أن السبب الحقيقي في هذه الفتنة الكبرى ، والمِحنة التي أصيب بها العالمُ الإسلاميُّ ، ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ في التدبير والسياسة ، فيتدفَّق سيل عَرِم من المِحَن والبلاء ، ويفاجىء العالم الإسلامي ، وتُصاب الأمة الإسلامية بهذه الفتنة العمياء ـ التي لم تكن تتوقَّعها ولا تستحقها ـ لمجرَّد أن يُخطىء فردٌ من أفرادها.

إذا حملنا نِبْراس القرآن في يدنا ، واستعرضْنا أوضاعَ المسلمين الخُلقية والدينية ، والمدنية والسياسية في ذلك العصر تحقَّق لنا كالشمس في رائعة النهار: أن هذه الحادثة المشؤومة لم تكن مفاجأة ، وإنما هناك أسبابٌ أكثر عمقاً وأصالة مما ظنَّه الناس وذكروه ، ولكي نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصيلة يجب أن نتأخر إلى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس بإجمال أوضاع الدول الإسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع في ذلك العصر.

أوضاعُ العالم العَربيّ ومَركز الخلافة في هذا العصر:

إنَّ المملكة الأيوبية توزَّعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهِّلاتهم وكفاءاتهم في أداء هذه الأمانة التي آلتْ إليهم ، شأن كثير من أولاد الولاة ، وأولي العَزْم من الحكام ، فقد ظل الصراع قائماً بينهم إلى مدَّةً طويلةً ، حتى إنَّ بعضهم لم يتلكؤوا في الاستعانة بالصَّليبيين بتدبير المؤامرة ضد إخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطراباً سياسياً ، وانحلالاً خُلقياً ،

وفوضىً في سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون في جوّ من القلق والخوف.

هذا وكانت الغارةُ الصليبيةُ الإفرنجيةُ تتعاقب على تلك الحواضر الإسلامية ، التي كان السلطان صلاح الدين قد استردَّها بعد تضحيات ضخمة.

وقد فشتْ أمراضٌ وأوبئة ومجاعات شديدة نتيجةً لهذا الانحطاط الخلقي ، والانحراف الإداري.

وفي سنة ٥٩٧هـ حدثت مجاعة في مصر فما فاض فيها النِّيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين العادل والأفضل ، حتى «اشتدَّ الغلاء بأرض مصر ، فهلَك خلق كثير جداً من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناءٌ عظيمٌ ، حتى حكى الشيخ أبو شامة في «الذيل»:

«إنَّ العادل كَفَّن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مئتي ألفِ وعشرين ألفِ مَيِّتٍ ، وأُكلت الكلابُ والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلقٌ كثيرٌ ، يشوي الصغيرَ والداه ويأكلانه ، وكثر هذا في الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم ، فلما فرغَتِ الأطفال والميتات ؛ غلب القويُّ الضعيف فذبحه وأكله» [1].

واستمرَّت هذه الحالُ وفقاً لسنَّة الله في الأرض ، وظلَّت الإنذارات السماوية ، والأحداث الجسام تُحذر الناس ، وكانتْ كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والإنابة إلى الله ، وإصلاح أحوالهم «وحدثت في نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة والروم والعراق. . . وأخربتْ محال كثيرة من طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء ، ومات بها وبِقُراها ثلاثون ألفاً تحت الردم. . . ومات أممٌ لا يُحصون ولايعدون ، حتى قال صاحب «مرآة الزمان»: «إنه مات في هذه السنة بسبب

(١) البداية والنهاية: ج١٣ ، ص٢٦.

الزلزلة نحو من ألف ألف ومئة ألف إنسان قتلاً تحتها [١] والله أعلم».

هذا ، وقد تفاقَمَ الشَّرُّ في مركز الخلافة (دار السَّلام ـ بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبَّهة الملوكية والسلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشَم في قصور الخلفاء ، وبلغت الثروةُ والمدنيةُ ذروتَهما ، ولا يُمكن أن نتصوَّر ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار.

ويكفي أن نذكرَ على سبيل المثال، أنَّ علاء الدين الطبرسي الظاهريَّ، وهو ممَّن اشتراهم الخليفة الظاهر، كان يَحصل له من أملاكه التي استجدَّها نحو ثلاثمئة ألف دينار سنوياً، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها.

وكذلك مجاهد الدين أيبك الدُّويدار المستنصري ، وقد ملك جَزيل الأموال من العين، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين ، والضياع ، ويتعذَّر وصفُ ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التي جهز بها أولاده وبناته في ليالي الزفاف.

كما أنَّ الفرَّاش الصلاح عبد الغني بن فاخر المتوفى ٦٤٨ هـ ، وكان شيخ الفرَّاشين بدار الخلافة ، كان يعيش مع خُلُوِّهِ من العلم عيشة الملوك ، بينما كان مُدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر ، وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يُدرسون في أكبر جامعة إسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ ديناراً شهرياً.

وبجانب ذلك نجد أنَّ ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشَّرابي علي مجد الدين أيبك المستنصري ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابي للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل.

ولكي نُـدرِكَ مدى نفـوذَ هذه المظاهر الكاذبـة والتظاهر بالفخفخة والأبهة

---

(١) البداية والنهاية: ص ٢٧.

الملوكية يجب أن نعرف أن المواكب التي كانت تخرج في مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى إنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات ، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكي ، الذي خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠هـ استمر إلى الليل ، وصلّى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء [١] ، وذكر في «العسجد المسبوك» أنَّ العساكر في عاشر ذي الحجة سنة ٦٤٤هـ خرجوا إلى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس.

وأمّا تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليدِ وعتبة باب النوبي ، وحافِر الخيل والأرض والرغام.

وقد تميَّزَ هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشي الرشوة وعزل كبار الموظَّفين ، وإلقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم أمر الباطنية والشُّطَّار والعيَّارين ، واشتداد النزاع الطائفي والتفكك الخلقي ، والانصراف إلى الملاهي والقِيان والتكاثر في الأموال [٢].

وفي نفس هذه الأيام كان التَّتار يعبثُون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت أبصارُهم شاخصةً إلى بغداد ، أكبر مركزٍ إسلاميٍّ في ذلك العهد ، يتحدَّث المؤرِّخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦هـ بما يأتي:

«استُهلَّت هذه السنةُ وملوك بني أيوب مفترقون ، مختلفون» ، وظلَّت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزاً للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة ، التي قد جَرتْ عادةُ خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠هـ و٦٤٣هـ ، وبقيت جُدران

(١) الحوادث الجامعة: أخبار سنة ٦٤٠هـ.
(٢) استفدنا في هذا الفصل من مقال «عصر الشرابي ببغداد» للأستاذ ناجي معروف المنشور في مجلة «الأقلام» عدد محرم سنة ١٣٨٦هـ.

الكعبة عارية عن الكسوة إلى ٢١ يوماً ، فتشاءم به الناس .

في سنة ٥٧٥هـ جلس الخليفةُ الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته إلى أكثر من ٤٦ سنة ، وهي مدة طويلة لم تتيسر لأحد من الخلفاء العباسين ، ولكنها أظلمُ عهدٍ في تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمَّه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدَّث عنه المؤرِّخ ابن الأثير ، فيقول:

«وكان قبيحَ السيرة في رعيته ظالماً ، فَخرَّب في أيامه العراق ، وتفرَّق أهله في البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشيء وضدَّه ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان ، فبقيت مُدَّة ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج ، فبقيت مُدة ثم أبطلها ، وأطلق بعض المكوس التي جدَّدها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جُلَّ همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة ، فبطَّل الفتوَّة في البلاد جميعها ، إلا من يلبس منه سراويل يُدعى إليه ، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناسُ بالعراق وغيره إلى ذلك ، فكان غرامُ الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سببُ ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى» (١) .

توفِّي الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة حسن السريرة جيّد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات ، مُحسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجاً للخلفاء الصالحين في كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنَّه ـ مع الأسف ـ لم يجد فُرصة للتنظيم والإصلاح ، وخلَفه ولدُه المستعصم بالله في سنة ٦٤٠هـ.

وكان المستعصم صحيح العقيدة متديناً يظهر عليه خشوعٌ وإنابة ، لم ينقل عنه أنه عصى الله بفَمه ، ولا بفَرجه ، ولا شرب مُسكراً ، ولا أخلَّ بصيام

(١) تاريخ الكامل: ج١٢ ، ص ١٨١ .

الإثنين والخميس من كلِّ أسبوع ، وكان يصوم شهر رجب من كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظباً على الصلوات في أوقاتها ، إلا أنَّ المستعصم لم يكن بصيراً بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لينٌ وعدم تيقُّظٍ ، ومحبةٌ للمال وجمعه.

وفي سنة ٦٤٢هـ استوزر الخليفةُ المستعصمُ بالله محمدَ بنَ العَلْقمي ، ولكنه لم يكن وزيرَ صدق ولا مرضيَّ الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين أهل السنة والرافضة في سنة ٦٥٥هـ «نُهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نُهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حِنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهلِه ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يُؤرخ أبشعُ منه منذ بُنيت بغداد» [١].

وبالرَّغم من أنَّ التتار كانوا يتقدَّمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتاري يقرعُ الأبواب ، كانت «جيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش كلهم ، قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعصى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كلُّه عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي» [٢].

كان المستعصم رجلاً صالحاً حَسنَ السيرة والفكر ، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكنَّ فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة ، بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه إلا من رُزق الإرادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سداً منيعاً في وجه الفساد ، ويتغلَّب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع في مثل هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهداً جديداً ، وأسسوا حكومات جديدة في التاريخ.

---

(١) البداية والنهاية: ج١٣ ، ص ٢٠١.
(٢) المصدر السابق: ح ١٣ ، ص ٢٠١.

لقد تكرَّر في التاريخ أنَّ آخر أفراد أسرةٍ حاكمة ، وآخر حاكم في مملكة آخذة بالانحطاط كان يتَّصف بالصلاح والتقوى ، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طَفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة وبين نهايتها الأليمة التي كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الأشياء ، وشاءت الأقدار أن يُعتبر ذلك الرجل الأخير مسؤولاً عن نهاية الحكومة في أسرتِه الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحاً وديانة ، وأحرصَ على إصلاح الفساد من سَلفه الماضين.

وقد كان عددٌ من الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة ، كما كان عدد منهم معتزلين في الزوايا والمساجد ، ولكنَّ الفساد كان قد استحوذَ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجي يَصف أهل العراق يومئذ:

«واهتمُّوا بالإقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر في المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدنيوية ، واشتدَّ ظُلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والمُلك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظُّلم»[١].

القِسمُ الشَّرقِيُّ من المَملَكةِ الإسلَامِيَّة:

وكان مُلوك الخوارزم مُنفردين بالحُكم في الجزء الشرقي للعالم الإسلامي، قامتْ دولتهم ذاتُ الشوكة على أنقاض المملكة السَّلْجُوقيَّة في آخر القرن الخامس الهجري ، وكان العالمُ الإسلاميُّ كلُّه خاضعاً للحكم الخوارزمي باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السَّلْجُوقِيَّة الصغيرة الواقعة في الشمال الغربي لآسيا الصغرىٰ ، وكان علاءُ الدِّين محمد خوارزم

(١) مقال الأستاذ ناجي معروف «عصر الشرابي ببغداد» ، مجلة «الأقلام» ، عدد محرم ١٣٨٦هـ.

شاه (٥٩٦ ـ ٦١٧) أعظم ملوك الأسر طموحاً، وأعلاهم همَّة، وأكثرهم فتحاً وانتصاراً، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم في عهده، يتحدَّث عنه المؤرِّخ «هيرلد ليمب» في كتابه «جنكيزخان» فيقول:

«كان السلطانُ محمد خوارزم شاه متربعاً على عرش الملك في قلب البلاد الإسلامية، وكانت رقعةُ مُلكه تمتد من ثغور الهند إلى بغداد، ومن بحر الخوارزم (آرال) إلى خليج الفُرس، وكان مسيطراً على الممالك الإسلامية كلِّها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصَّليبيين، وأسرةِ السلاطين من مماليك مصر.

وكان محمد إمبراطوراً بالنظر إلى مكانته، بالرغم من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سَخِطَ عليه، ولكنه كان يعترف بقوته، إن الخليفة في بغداد بعد ما تجرَّد عن كلِّ سلطانٍ دُنيويٍّ عاد مجرَّد رمزٍ دينيٍّ، شأن البابوات في رومة» [1].

أمَّا المؤرخون العرب، فإنَّهم لا يُشيرون إلى موضع ضَعْفٍ وعيبٍ شخصيٍّ كبير في سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه، بل إنهم يعترفون بتديُّنه، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلُّبه بوجه عام، ولكن الذي لا خلاف فيه، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته في القضاء على الحكومات الإسلامية الصغيرة والكبيرة، حيثما وُجِدت في هذا الجزء الشرقي الواسع إنه اضطر السلاجقة إلى التأخر والانسحاب إلى آخر حدودهم في جانب، كما أنه ظلَّ يحارب الغُوريين في الشرق والجنوب في جانب آخر، واضطرهم إلى الانحصار في جُزءٍ محدودٍ، وإنَّ خيرةَ عناصر الفروسية والنضال في إيران وتركستان، قد أثخنتها الحروب الطاحنة المتواصلة، التي لم تكد تنتهي، فكان الجو الحربيُّ يسود على المدن والأقاليم الخصبة الغنية وعلى مشاعر أهلها في كلِّ حين، وقد اجتمعتْ غنائمُ البلاد المفتوحة، وحاصلاتُ الأقاليم الخصبةِ، وتأنُّق الصُّناع في الصناعات،

---

(١) جنكيز خان: ص ١٤٧.

وأدوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنيَّة أوْجَها ، واجتمعت جميع عوامل الغنىٰ والجِدة والرفاهية والانتصارات وما يتبعها من تَرَفٍ وبطر.

ومن الصَّعب العسير أن يُوجد حديثٌ عن الأدواء الخُلقية ، التي كانت تُعانِيها الحضارةُ والمجتمع ، في كتب التاريخ التي تدور حول البلاط الملكي ، والسراري ، ورجال الحكومة ، وإنَّ مظنة هذا الحديث هي كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكُتب المواعظ ، التي اكتسح معظمَها السيلُ التتاري ، ولا يسعُنا أن نحمل ما صرَّح به المؤرخ المسيحي «هيرلد ليمب» في كتابه «جنكيزخان» على مُجرَّد التعصب الديني والمبالغة ، إنه يقول:

«إنَّ العالَم الـذي كان يعيش فيـه المسلمون كـان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغَفٍ بالغناء والموسيقا ، ومن الطرب والاهتزاز ، لكنَّه رغم هذا الظاهر كان يعيش في قَلَقٍ واضطراب ، فكان المماليك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس في جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخُلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زِمام الأمور في يد أولئك الذين كانوا يَنْهَبُون الرعية ، ويترفَّهون على حسابها ، وكان حِراسة الحرم والإشراف على السراري للخصيان» [١].

خَطَأُ المُلوك الخوارزمية:

وقد صدَرَ عن الملوك الخوارزميِّين نفسُ الخطأ الكبير الذي وقع فيه الحكام العرب في الأندلس ، ولم يَعْفُ عنهم قانون المكافأة الإلهي ، وذلك أنهم بذلوا كل قواهم في توسيع رقعة الملك ودعمه. وقمع الخصوم، ولم يبذلوا أي اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القِسم البشريِّ الذي كان يعيش بجوار حُدودهم ، وكان بنفسه عالَمَاً مستقلاً ، وبصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي ، كان مُقتضى الحزم السياسي وبعد النظر أن يُعْنَوا بإيجاد الانسجام العقائدي مع هذه الدنيا الإنسانيَة الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا

---

(١) جنكيز خان: ص١٤٣.

حولهم سياجاً ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذي لم يواجهُهُم وحدَهُم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كُلَّهم.

زَحْفُ التَّتار نَحْوَ العالَم الإسلاميّ:

في نفسِ هذه الأحوال والزمان تقدَّم التتارُ باديءَ ذِي بَدء ، كعقاب إلٰهي بقيادة ملكهم «جنكيزخان» [1] نحو الجزء الشرقي للعالم الإسلامي ، إيران وتركستان حتىٰ وصلوا إلى بغداد التي أسلفنا ذِكرَها ، وأخيراً قاموا بتدميرها وإبادة أهلها سنة ٦٥٦هـ ، ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

إنَّ الدافع القريب لهذا الزحف التتاري ، في عالم الأسباب ، هو أن جَنكيزخان بعث إلى خوارزم شاه رسولاً يقول له: إنَّك تحكم رقعة عريضة كما أنني أملك مملكة واسعة، فإذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسُمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك في صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامتِ العلاقات التجارية ، وبدأ التجارُ يتبادلون أموالَ التجارة بين البلدين.

ولكنْ ما الذي حدث بعد ذلك حتىٰ شهد العالم الإسلامي ذلك اليوم المشؤوم الذي يُدعى بغارة التتار؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك المؤرخ الغربي «هيرلد ليمب» ويُصدِّقه تماماً ما جاء في التاريخ الإسلامي ، إنه يقول:

«انفصَمتِ العلاقاتُ التجارية التي أقامها جنكيزخان بين البلدين فجأة ، وكان السبب في ذلك أن قافلة من التجار كانت متوجهة من «قراقورم» إلى الغرب ، فلما وصلت إلى «أترار» تعرَّض لها حاكمها الذي كان يدعى «أينل

---

(١) مبدأ مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥هـ ، وأول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت في سنة ٦١٦هـ وقد مات جنكيز خان ٦٢٤هـ ، فقام أبناؤه وأحفاده بتحقيق غاياته التي أرادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦هـ ، كان هولاكو حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية وأميرها.

جق» وأسر رجالها ، وأخبر مَلِكه خوارزم شاه بذلك ، وقال: إنَّ هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيزخان ، وكان هذا الخبر مما يُـؤيِّـده العقل.

وما إنْ وصل الخبر إلى خوارزم شاه حتى أمر بقتل التجار كلهم دون أن يفكر في هذه القضية ، ويتأنّىٰ في إصدار الأمر ، ونفَّذ أمرهُ بقتل التجار الذين جاؤوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيزخان ، أرسل سفراءَه إلى خُوارزم شاه يشكو إليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهز خوارزم شاه الفرصةَ فقتل رئيس السفراء ، وأمر بإحراق لِحَىٰ الباقين ، الذين رجعوا إلى جنكيزخان وقصُّوا عليه القصة ، وفور سماع هذه القصة صعد جنكيزخان على جبل في «صحراء الجوبي» ليُفكر في القضية ، لأنَّ قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر ، وكان لابد من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول في مثل هذه الأمور.

وأعلنَ جنكيزخان قائلاً: إذا كانت السماء لا تحتمل وجود شَمْسَين ، فإنَّ الأرض كذلك لا تحتملُ وجود مِلكين» [١].

الجُزءُ الشَّرقي للعالم الإسلامي بَينَ التَّتَار والدَّمار:

وقد ابتدَأَ التتارُ ببُخارىٰ وأتوا عليها من كل جانب ، فدمَّروها حتى عادت كومةً من تراب ، ثم توجهوا إلى سمرقند وأحرقوها وأبادوا أهلها ، ولقيت نفسَ المصير المدُنُ الشهيرة بالعالم الإسلامي كهمَدان ، وزنجان ، وقَزوين ، ومَرو ، ونيسابور ، وخُوارزم.

أمَّا خوارزم شاه الذي كان يُعْتَبَرُ الملك الوحيد للعالم الإسلامي وأقوىٰ الملوك في عصره ، فكان يعيشُ في خوف وهلع ، وتنقُّلٍ وارتحال ، يبحث عنه التتار ويتعقَّبونه حتى تُوفي في جزيرة مجهولة.

كان خُوارزم شاه قد ضمَّ ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما

---

(١) جنكيز خان: ص ١٤٧.

المستقلة إلى مملكته ، فلمّا هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم في هذا الجزء الشرقي، وقد دخل رُعب التتار في قلوب المسلمين ، إلى حدٍّ أنَّ أحد التتار دخل بعض الأحياء في سِكة من سكك مدينة حيث وجد مئة رجل من المسلمين ، فقتلهم كلهم وأتىٰ على آخرهم دون أن يتجرأ أحدٌ منهم لمقاومته .

وذاتَ مرَّةٍ دخلت امرأةٌ تاتاريةٌ بيتاً متزيِّية بزيِّ الرجال ، وقَتلت جميعَ أفراد الأسرة ، وقد عَرَفَ أحدُ المسجونين الذي كان معها أنها امرأة فقتلها، وقد حدثَ بعض الأحيان أنَّ تاتارياً أسر مسلماً وقال له : ضع رأسك على هذا الحجر حتىٰ آتي بالخنجر فأذبحك ، وخضعَ له المسلم ولم يَسَعْه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم أتىٰ التتاريُّ بالخنجر من المدينة وذبحه به [١] .

كانت غارةُ التتار فتنةً عظيمةً ، ومحنةً كبيرةً ، هزَّت العالمَ الإسلاميَّ هزاً عنيفاً، وتركت المسلمين مَبهُوتين مشدوهين ، واستولىٰ الرُّعبُ والخوف على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه وغلبَ على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ، ومُقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى ساد المثل : «إذا قيل لك إن التتار انهزموا فلا تصدق» فكلُّ بلاد أو دولة توجهوا إليها عُرف أنها أُبيدت وخُرِّبت ، ولم يبق فيها شيءٌ من مقدسات المسلمين إلا وانتُهكت حرمتها ، فكان اتجاهُ التتار إلى جِهة يُرادفُ معنىٰ التدمير والإبادةِ ، والذِّلة ، وانتهاك الأعراض .

ولا شكَّ أنَّ العالم الإسلامي كلَّه ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة أبيه .

إنَّ المؤرِّخ يشغل بتسجيل كلِّ لون من ألوان الأحداث والوقائع ، وتمرُّ به مناظر كثيرة لإبادة الأمم والبلدان حتى يتعوَّد احتمال كل ذلك، فيجري قلمُه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يَرقَّ لها قلبُه؛ وتدمع لها عينه ،

---

(١) من أراد التفصيل فليرجع إلى «الكامل» لابن الأثير ، ج١٢ ، و«دائرة المعارف» للبستاني ، ج٦ مادة «تتر».

ولكنَّ المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح وتألُمّه النفسي ، حينما وصل إلى ذكر حادث التتار ، إنه يقول:

«لقد بقيتُ عدَّةَ سنين مُعرِضاً عن ذكـر هذه الحادثـة استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فأنا أُقَدِّم إليه رجلاً وأُؤخِّر أخرىٰ ، فمن الذي يَسهل عليه أن يكتب نَعْيَ الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يَهُون عليه ذِكْرُ ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْيَاً مَنسياً ، إلا أني حَثَّني جماعـة من الأصدقاء على تسطيرها وأنـا متوقـف ، ثم رأيتُ أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفصل يتَضمن ذكر الحادثة العظمىٰ ، والمصيبـة الكبـرى ، والتـي عقمت الأيـام والليالـي عن مثلهـا وعمَّت الخلائق ، وخصَّت المسلمين ، فلو قال قائل إنَّ العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمَّن ما يقاربها ولا يُدانيها.

ولعلَّ الخلق لا يرون مثل هـذه الحادثـة ، إلى أن ينقـرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنَّـة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قـوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شرَرُها وعمَّ ضرَرُها ، وسارت في البلاد كالسحاب استدْبَـرَتْـهُ الريح»[(١)].

ويقول مؤلِّف «مرصاد العباد»؛ الذي شهد هذه الوقعة بعينه وما دار في مولده «الري» وموطنه «همذان» من حوادث فظيعة بعينه ومن التخريب والتدمير:

«استولىٰ الجيشُ التتاريُّ ـ خَذَلهم اللهُ ودمَّرهم ـ سنة ٦١٨هـ على بلاد الإسلام ، لا يُعرف نظيرٌ لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والإفساد ، والقتلِ والهدم والإحراق وما ظهر من أولئك الملاعين من فظائعَ تقشعر منها الجلود في أي عصر من عصور التاريخ ، لا في الإسلام ولا في الجاهلية ، فقد قتلوا

(١) الكامل: لابن الأثير ، ج١٢ ، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

وأسروا في «رَيّ» وحدها التي هي مولدي أكثر من سبعمئة ألف مسلم ، إن الفتنة التي أثاروها في العالم الإسلامي ، والمصيبة التي أنزلوها على المسلمين لا تسعُ الكلمات أن تصوِّرها ، وهذه الحادثة أغنى من أن تُشرح للناس.

وعياذاً بالله ، إذا لم تتحرَّك حَميَّةُ الإسلام وغيرتُه في ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا أنهم مسؤولون عن الأمة لقوله ﷺ : «الأميرُ راعٍ على رعيته ، وهو مسؤولٌ عنهم»[١] وإذا لم تنبعث فيهم أريحيَّتُهم ورجولتهمُ لكي يتَّحدوا على كلمة واحدة ، وينقادوا لما أمرهم الله به في قوله : ﴿ انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١] . وإذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال والملك لكي يدفعوا هذه الفتنة ، فإنَّ ذلك كلَّه يدل على أنَّ المسلمين سيُفاجئهم الذُّل والنكسة ، وترتمي مُعظم بلاد الإسلام في أحضان الكفر ، وأخشى أنَّ المسلمين الذين كانوا لا يحملون إلا الاسم ، سيفقِدون الاسم والرَّسم كليهِما نتيجةً لما ندَّعيه ولا نعمل به»[٢].

صَاعِقَةٌ نَزَلَتْ على العالمِ كُلّه:

ولم يكن العالمُ الإسلاميُّ وحده مُصاباً بهذه الفتنة التتارية ، وإنما العالم المتمدِّن كلُّه كان متوجلاً من هذه الغارة ، وقد تفشَّىٰ الذعر والخوف في الأمكنة التي لم يكن يُرجىٰ فيها وصول التتار ، يقول «جيبون» في كتابه الشهير «تاريخ انحطاط رومة» :

«حينما اطَّلع سكَّانُ السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا ، تسلَّط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج إلى سواحل إنجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادةً متَّبعةً لديهم» .

وقد تصدَّىٰ المؤلِّفون لتاريخ «العهد المتوسط» في جامعة كامبردج بذكر

---

(١) [أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١١١) برقم (٥٩٠١) ، وأبو عوانة في المسند (٢/ ٣٨٣) برقم (٧٠٣٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما].

(٢) مرصاد العباد: (المخطوط المحفوظ في مكتبة ندوة العلماء) ، ص٨.

صدام المغول الشديد الذي كان سببه جنكيزخان بما يلي:

«لم يكنْ في وسع الإنسان أن يَسُدَّ سيل المغول، فقد تغلَّبوا على جميع أخطار الصحاري والغابات، ولم يقف في وجههم أي شيء من الجبال والبحار، وشدائد الطقوس والفصول، والقحط والأوبئة، ولم يكونوا يخافون أي خطر ولا مانع، ولا كان هناك قلعةٌ ترد هجومهم، ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم.

نحن نواجه هنا في مجال التاريخ قوة جديدة، قامت بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقَّدة السياسية والوطنية، التي كانت تشغل العقول في ذلك العصر، وقضتْ عليها كما تقضي الصاعقة التي تنزل من السماء على كل ما تُصيبه في الأرض، وقد كانت هذه القضايا الوطنية والسياسية بالغةً في تعقدها إلى حدٍّ لم يكن يُرجىٰ منه الخلاص لولا أن وقعتْ عليها هذه النازلة».

«إنَّ ظهور هذه القوة الجديدة في تاريخ العالم، أعني قُدرةَ رجلٍ واحد على تغيير حضارة النوع البشري، يبتدىء من جنكيزخان، وينتهي إلى حفيده قوبيلائي خان الذي بدتْ في عهده آثار الفرقة والانشقاق في مملكة المغول المتحدة المتماسكة.

والحقيقة أنَّ التاريخ لم يشهد إلى الآن قوة تشبه قوة هؤلاء المغول».

تَدْميرُ بَغْداد:

وأخيراً دَخَلَ هؤلاء الوحوش ـ بعد ما خَضبوا أرضَ العالم الإسلامي كله بدماء أهله، وأتوا عليه ـ بغداد دار الخلافة الإسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر في ذلك العصر بقيادة حفيده هولاكوخان، ودمَّروها تدميراً، ولا شك أن تفاصيل قَتْل المسلمين في بغداد وتدميرها طويلةٌ ومؤلمة، ونستطيع أن نقدر مدىٰ هذه الوقعة العظيمة ببيان بعض المؤرِّخين الذين شهدوا آثارها بأعينهم، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها، يقول المؤرِّخ ابن كثير:

«وما زالَ السيفُ يقتلُ أهلها أربعين يوماً، ولما انقضىٰ الأمرُ المقدور،

وانقضتِ الأربعون يوماً ، بقيتْ بغداد خاويةً على عروشها ليس بها أحد ، إلا الشاذُّ من الناس ، والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد سَقط عليهم المطر فتغيرت صُورهُم ، وأنْتَنَتْ من جِيفِهِمُ البلد ، وتغيَّر الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدَّىٰ وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فماتَ خلق كثير من تغيُّر الجوِّ وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغَلاء والوباءَ والفناء»[١].

ويقول الشيخ تاج الدين السّبكي :

«فأنزل (هولاكو) الخليفةَ (المستعصم) في خيمةٍ ، ثم دخل الوزير فاستدعىٰ الفقهاءَ والأماثل ليحضروا العقد ، فخرجوا من بغداد فضُربت أعناقهم ، وصار كذلك يُخرج طائفة بعد طائفة فتُضرب أعناقهم ، ثم طلب حاشية الخليفة فضرَب أعناق الجميع ، ثم طلب أولاده فضرب أعناقهم ، وأما الخليفةُ فقيل لهولاكو : إنَّ هذا إنْ أُريق دمه تُظْلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك ، فقام نَصير الدين الطوسي[٢] وقال : يُقتل ولا يُراق دمه ، فقيل إن

---

(١) البداية والنهاية : ج١٣ ، ص ٢٠٣ .

(٢) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مدرس رضوي في كتابه «أخبار وآثار خواجه نصير الدين طوسي» الذي نشرته جامعة طهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسي مسؤولاً عن هذه الوقعة ، إنه يقول :
«إنَّ مكيدة الطوسي السياسية التي نجحت أخيراً هي أنه أثار هولاكو خان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكي ، وقد كان هولاكو مأموراً من قبل أخيه منكوقا آن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

إن هولاكو بعث إلى الخليفة المستعصم بالله الأمر بالطاعة ، واستمرت المكاتبة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيراً استشار هولاكو زملاءه ، وكانت المغول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلما أخبره منجم سني المعروف بحسام الدين الذي كان ملازماً لبلاطه بأن هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للاستيلاء على الخلافة في مثل هذه الساعة أخفق في إرادته ، وأصيب ببلاء ، فإنك أيها الملك إذا أبيت إلا أن تغير ، ينقطع المطر ، وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، وأشد من كل ذلك إن الملك (منكوقا آن) يهلك ، فلما سمع بذلك هولاكو تردد هنيهة ، واستطلع رأي الطوسي وقال : ماذا تقول عن مصيرنا إذا أغرنا الآن على بغداد؟ فقال له =

الخليفة غُمَّ في بِساط ، وقيل رَفَسُوه حتى مات».

واستمرَّ القتلُ ببغداد بضعة وثلاثين يومَاً ، ولم يَنْجُ إلا من اختفىٰ.

وقيل: إنَّ هولاكو أمر بعد ذلك بِعَدِّ القتلى ، فكانوا أَلفَ ألفٍ وثمانمئة ألفٍ ، ثم طَلَبَتِ النصارىٰ أن يقعَ الجَهر بِشرب الخمرِ ، وأكل لحم الخنزير ، وأن يَفعل معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان ، وأُريقتِ الخمور في المساجد والجوامع، ومُنع المسلمون من الإعلان بالأذان ، . . هذه بغداد لم تكن دار كفرٍ قط ، وجرىٰ عليها هذا الذي لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله» [(١)].

وقد ظلَّتْ بغدادُ ـ على علاتها ومواضع ضعفها ـ أكبرَ مدينةٍ للعالم الإسلامي ، ومركزَ العلوم والفنون ، ومهْد العلماء والصالحين، وكانت موضع فخر المسلمين لكونها دار الخلافة ، فاضطرب لتدميرها المسلمون كلُّهم ، وبَكَوا عليها ، وقد نظم الشيخ مصلح الدين سعدي [(٢)] رحمه الله ، الذي أقام في بغداد كطالبٍ ، وشهد بهاءَها وجمالها ، قصيدةَ رثاء تنطقُ عن قلوب المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكلوم في ذلك الوقت ، ننقل فيما يلي ترجمةً لعدَّة أبياتٍ منها يقول:

«إنَّ للسَّماء كلَّ الحق أن تُمطر دماً على الأرض لِما أصاب مملكة الخليفة

= الطوسي: إن الغارة على بغداد لا يؤول إلا أنك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاكو المنجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسي: لقد قتل آلاف من الصحابة رضي الله عنهم ولم يظهر فساد ، وإذا كان كل هذا مما يخص العباسيين ، فانظر إلى طاهر الذي قاتل الأمين لما أمره المأمون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلمانه ، وقتل المنتصر والمعتضد الأمراء والغلمان ولكن لم يحدث هناك زلزلة ولا طوفان.

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ج ٥، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسي ، وصاحب كتابي «كلستان» «وبوستان» الخالدين في المكتبة العالمية .

المستعصم من زَوال وفناء ، إذا كانت القيامة حقاً واقعاً يا محمد عليه الصلاة والسلام ، فاخْسر عن وجهك الرداء وشاهدِ القيامة بين الخلق اليوم.

لم يَدُرْ بخَلَد أيِّ إنسان أبداً أن حوادث الدهر تأتي بما أتت به اليوم ، افتح بصرك يا من شهدتَ عَظَمة البيت الحرام لتنظرَ أن الملوك دفنوا تحت التراب واحتل محلَّهم المغول والخاقان ، أُهريقت دماءُ أبناء عمِّ النبي ﷺ على تلك الأرض ، التي كانتِ الملوكُ الكبار يَخرُّون عليها رُكَّعاً سُجَّداً ، وأصبحتْ دَجلة تَزْبَدُ بدم أهلها ، وهي تَعجن التراب في نخل بطحاء بالدِّماء ، إنَّ وجه هذا النهر تغير وامتقع لونه من هذه الوقعة الهائلة وبَدتِ التجاعيد في هذا الوجه ، إنَّ النياحة لا تجدر على تراب هؤلاء الشُّهداء ، فإنَّ أقلَّ جزاء يستحقونه هي جنة الفردوس ، ولكنَّ الواجب الديني ، وصلة الحب والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش في لوعة الفراق»[(١)].

التَّتارُ في الشام:

توجَّه التتارُ نحو حلبَ الشهباء بعد بغداد ، وعاملوها معاملة بغداد كما ذكره ابن كثير ، ثم تقدَّموا إلى دمشق واستولوا عليها في شهر جُمادىٰ الأولىٰ سنة ٦٥٨هـ ، وقد استقبل نصارىٰ البلد التتارَ الفاتحين خارج البلد ، وقدَّموا إليهم الهدايا ، وقدموا بأمرٍ من حاكمهم حتى دخلوا البلد فاتحين ، يُصَوِّر هذه الوقعة ابن كثير ـ الذي كانت دمشق مسقط رأسه ـ تصويراً يمكن به تقدير انتكاس المسلمين وضعفهم:

«ودَخلوا من «باب توما»[(٢)] ومعهم صليبٌ منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهرَ الدين الصحيح ، دين المسيح ، ويذمُّون دين الإسلام وأهلَه ، ومعهم أوانٍ فيها خمر لا يمرُّون على باب مسجد إلاّ رشُّوا عنده خمراً ، وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه

---

(١) كليات سعدي.

(٢) [باب توما: أحد أبواب دمشق القديمة ، يقع في الشرق من المدينة].

الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقومَ لصليبهم ، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سُوق كنيسة مريم ، فوقف خطيبهم فمدحَ دين النصارىٰ ، وذمَّ دين الإسلام وأهلَه».

ثم يقول: «وحكىٰ الشيخ قطب الدين في «ذيله على المرآة» ، أنهم دخلوا إلى الجامع[1] بخمر ، وكان في نيَّتهم إن طالت مدة التتار أن يُخربوا كثيراً من المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين ، والشهود والفقهاء ، فدخلوا القلعة[2] يشكون هذا الحال إلى متسلِّمها «إيل سيان» فأُهينوا وطُردوا ، وقدم كلام رؤساء النصارىٰ عليهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[3].

وَقْعَةُ عَيْنِ جَالوت وتَراجُع التتار عن مصر:

وكان التتارُ متوجِّهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة ، وكانت مصر وحدَها التي لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصرَ المظفَّر سيفُ الدين قطز قد تفرَّس أن التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأىٰ أن يخرج من مصر بالجنود ويشُنَّ عليهم الهجوم في نَفْس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية ، والتتار في عين جالوت يوم ٢٥ من رمضانَ سنة ٦٥٨هـ ، وانهزمَ التتار شرَّ هزيمة بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعقَّبتهم الجنود المصرية فقتلوهم وأسروا منهم عدَداً كبيراً ، يقول العلامة السُّيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»:

«فهُزم التتار شرَّ هزيمة ، وانتصر المسلمون ولله الحمدُ ، وقُتِلَ من التتار

---

(١) [أي الجامع الأموي].

(٢) [هي قلعة دمشق ، بناها تاجُ الدولة تتش سنة ٤٧١ هـ ، وقد خربت عدة مرات ، وجدَّد بناؤها].

(٣) البداية والنهاية: ج١٣ ، ص٢٠٣.

مَقْتَلَةٌ عظيمة ، وولَّوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطَّفونهم وَيَنهبونهم»[١] .

وهَزَمَهُم الملكُ الظاهر بيبرس بعد انهزامهم في عين جالوت مرَّاتٍ عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطرَدهم منها ، حتىٰ بطل المثل السائر : «إذا قيل لك إنَّ التتار انهزموا فلا تُصدِّقْ» .

انتِشارُ الإسلام في التَّتار:

وقبل أن ينجرف العالمُ الإسلاميُّ مع هذا السيل الجارف العنيد ، وتنطمس معالمه وملامحه ، (كما كان المشاهد الملموس عند ذوي البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين في ذلك الحين) بدأت دعوةُ الإسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب ، ويتحقَّق على أيدي دعاة الإسلام ما لم يتحقق بالأسنَّة والرماح ، وبطش السلاطين والملوك ، وبدأ الإسلام يتسرَّب في نفوس أعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم .

إنَّ خضوع هذا الشعب الذي قهر المسلمين أمام الإسلام مِنْ أغربِ الوقائع والأحداث في التاريخ ، فإنَّ هجوم التتار على العالم الإسلامي كالجراد المنتشر ، وإخضاع العالم الإسلامي كله ، ليسَ من الغريب المدهش كما يبدو في الظاهر ، فإنَّ عالم الإسلام في القرن السابع كان بدوره مصاباً بتلك الأمراض والأسقام ، التي تَلحق الأمم عامة في أوج حضارتها وشوكتها ، بالعكس من التتار ، ذلك الشعب القوي الأبي الذي نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكنَّ الغريب المدهش أنَّ هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين واعتنقَ دينهم في أوجِ قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذي فقد كثيراً من سلطانه السياسي والمادي آنذاك ، وكان أتباعُه موضع سُخرية واحتقار في نظر التتار .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٤٢٥ .

وقد أبدىٰ «أرنولد» استغرابَه في هذا الصَّدد في كتابه المشهور Preaching of Islam «الدعوة إلى الإسلام» حيث قال:

«ولكنْ لم يكن بُـدٌّ من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولىٰ، وأطلالِ مجده التَّالد، كما استطاع بواسطة دُعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويَحملهم على اعتناقه، ويرجعُ الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين، الذين كانوا يُلاقون من الصعاب أشدّها لمناهضة مُنافِسَين قَوِيَّيْنِ، كانا يحاولان إحراز قصْب السَّبق في ذلك المضمار، وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كلُّ ديانةٍ تنافس الأخرىٰ، لتكسب قلوبَ أولئك الفاتحين القساة، الذين داسوا بأقدامهم رِقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشِّرين في جميع الأقطار والأقاليم» [١].

«ويظهر أنَّ منافسة الإسلام في مُستهل الحكم المغولي لغيره من الديانات القوية، كالبوذية والمسيحية كانت عملاً بعيد المنال، إذ أنَّ المسلمين كانوا قد قاسَوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول، وإنَّ معظم هذه المُدن التي كانت حتىٰ ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم في الإسلام في القارة الآسيوية، قد أصبح مُعظمها أطلالاً دارسةً، حتىٰ إنَّ الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء كان نصيبُهم القتل أو الأسر [٢].

وكان من بين حُكَّام المغول الذين عُرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يُظهر الكراهية للدين الإسلامي علىٰ درجات متفاوتة، فقد أمر جنكيزخان

(١) الدعوة إلى الإسلام: ـ ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الأساتذة المصريين).

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء، أن رائضي الخيول من أهالي الصين، كانوا إذا عرضوا أشباحاً، أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلاً مسناً ذا لحية بيضاء يجره حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل، وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين. (Howorth Vol.I.p.159).

بقتل كل من يَذبح الحيوانات على النحو الذي قرّره الإسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلائي ، فعيَّن مكافآت لكلِّ مَن دلَّ على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهاداً عنيفاً دام سبع سنين ، حتىٰ إنَّ كثيراً من المعدمين وجَدوا في سَنِّ ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، واتّهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكي يحصلوا على حريتهم [(١)] ، وقد عانىٰ المسلمون أقسىٰ ضروب الحَيْف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨م) الذي ألقىٰ بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيَّين ، والذي امتلأ بلاطُه بالرُّهبان من المسيحيين» [(٢)] .

«وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١م) رابَع إيلخانات المغول في فارسَ ، المسلمينَ في بلاده ، وصرَفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرَّم عليهم الظهور في بلاطه ، وعلى الرغم من جميع المصاعب ، أذعنَ هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة [(٣)] آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم» [(٤)] .

إنَّ هذا الحَدث مثارُ دهشةٍ وعجبٍ ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيلَه وافيةً في بطون التاريخ ، إننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حقَّقوا هذه المآثر ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الإسلام ، مع أنَّ هذه المأثرة لا تقل أهمية عن أي مأثرة إسلامية في التاريخ ، ولهم فضل لا يُنكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الإنسانية كلها ، إلى أن يأذن الله لها بالفناء ، فإنهم أنقذوا العالم من دَمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعبٍ يؤمن بالله وحده ، ويدعو إلى دين محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم .

---

(١) Howorth,Vol.I.p.165.

(٢) Deguignes,Vol.III,p.265

(٣) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكاً. (Cahon p.279).

(٤) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

إنَّ دولة جنكيزخان توزعتْ بعد وفاته إلى أربعة فروع ، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتار يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان ، حتىٰ دخلوا في ظرف مئة سنة في دين اللهِ ، وقد سردَ أرنولد عدة أحداث تُلقي الضوء على هذا الباب ، إنه يحكي قصة شيوع الإسلام في فرع جوجي خان الابن الأكبر لجنكيزخان ، الذي كان يحكم على سيرا داردا ، الجزء الغربي من الدولة ، فيقول:

«وكان بركة خان (١٢٥٦ ـ ١٢٦٧م) أول من أسلم من أمراء المغول ، وكان رئيساً للقبيلة الذهبية في روسيا بين سنتي ١٢٥٦و ١٢٦٧م [١] ، وقد قيل في سبب إسلامه إنه تلاقىٰ يوماً مع عير للتجار آتية من بخارىٰ ، ولما خلا بتاجرَيْن منهم سألهما عن عقائد الإسلام ، فشرحاها له شرحاً مقنعاً انتهىٰ به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له ، وقد كاشفَ أصغر إخوته أولَ الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الإسلام ، وحبَّب إليه أن يحذو حذوَه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين» [٢].

«وقد دخل بركة خان في حِلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) سلطان المماليك في مصر ، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتفىٰ بشرذمةٍ من جُند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المئتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بينَ مَلكهم وبين هولاكو فاتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، فرُّوا إلى سورية ، حيث يُيَمِّمُونَ منها شطرَ مصر ، وهناك استُقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس ،

(١) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهدي ، وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبي الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة ، وتمدنا بوصف للمناظرات التي قامت بين المسيحيين والمسلمين. (Stein (Chneider,p.p.63-4.

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ (أبو الغازي ج٢ ـ ص ١٨١).

الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه [١].

وكان بيبرس نفسه في حَربٍ مع هولاكو ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب ، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتاباً إلى بركه خان ، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر ، أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس [٢] ، وكان من أثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثُر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم» [٣].

إنّه يحكي قصة انتشار الإسلام في الإيلخانية الفرع الثاني لأسرة جنكيزخان ، ويقول :

«كان الإسلام أقلَّ انتشاراً في بلاد الفرس حيث أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول ، ولكي يقوى على صدٍّ هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، وكانت زوجتُه المحبَّبة إليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها في الدين ، كما تزوَّج ابنه أباقا خان (١٢٦٥ ـ ١٢٨١م) من ابنة إمبراطور القسطنطينية .

ومع أنَّ أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية ديناً له ، فقد امتلأ بلاطه بالقسِّيسين من المسيحيين ، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربة ، فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك أرغونة يطلبُ إليهم التحالف معه على المسلمين .

كما أرسل لهذا الغرض أيضاً بعْثاً من ستة عشر سفيراً من المغول إلى مجمع

---

(١) المقريزي (م): ج١ ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، ١٨٧ .

(٢) المقريزي (م): ج١ ص ١٢١٥ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، المقريزي (م) ص ٢٢٢ .

ليون سنة ١٢٧٤م ، حيث دخل رئيسُ أولئك السفراء في المسيحية ، وعُمِّد مع بعض رفاقه ، وقد طمِع المسيحيون ، فعلَّقوا الآمال على اعتناق أباقا خان المسيحية ، ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن إلاَّ سراباً خادعاً.

وكان أخوه تكودار أحمد [١] ، الذي اعتلى العرش من بعده ، أول إيلخانات المغول الذين اعتنقوا الإسلام في فارس ، وقد شبَّ على المسيحية ، لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه) [٢] : «تَعَمَّد في صباه وتسمَّىٰ باسم نقولا ولكنه دان للإسلام عندما بلغ سِنَّ الرُّشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كَلِفاً بهم ، وأصبح مسلماً دَيِّناً ، ولما ارتد عن المسيحية ، رَغِب في أن يُسَمَّىٰ (محمد خان) ، وبذل قصاراه في تحويل كافة التتار إلى دين محمد وعقائده، ولما أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الإسلام، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف ، حتىٰ إن عـدداً كبيـراً من التتـار دخـل في عهـده في عقيـدة المسلمين».

وقد بعثَ تكودار أحمد بنبأ إسلامه إلى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) في ذلك الكتاب : «إلى سلطان مصر ، أما بعد ، فإن اللهَ سبحانه وتعالىٰ بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربُوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته وحُسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبَريَّته ، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضىٰ إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نَوبَة الملك ، فأضفىٰ علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائهِ وعوارفه ، وجَلى هذه المملكة علينا وأهدىٰ عقيلتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قوريليان(Quriltay على الأصح)

---

(١) أوتيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمي أحمد بعد اعتناقه الإسلام.

(٢) (Hayton.Ramusio,Tom II p.60,C.).

المبارك؛ ـ وهو المجتمع الذي تُقدح فيه الآراء ـ جميعُ الإخوان والأولاد ، والأمراء الكبراء ، ومُقدَّمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقتْ كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حُكم أخينا الكبير ، في إنقاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأتِ الأرض رعباً من عظيم صَولتها وشديد بطشها ، إلى تلك الجهة ، بهمَّة تخضع لها صُمُّ الأطواد ، وعَزْمةٍ تلين لها الصُّم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخَّضتْ زبَد عزائمهم عنه ، واجتمعتْ أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يُوجب حقن الدماء وتسكين الدَّهماء ، وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريحُ به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيماً لأمر الله ، وشفقةً على خلق الله .

فألهمنا اللهُ تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه من تقديم ما يُرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء .

وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النِّصال للنضالِ ، إلا بعد إيضاح المحَجة ، ولا نبادر إليها إلاّ بعد تبيين الحقِّ وتركيب الحجَّة .

وقَوي عزمُنا على مارأيناه من دواعي الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن) ، الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبَّى) دعاه ، ونقمةً على من أعرض عنه وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللّذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفُوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميلُ نيتنا ، وبيَّنا لهم أنَّا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله .

فإن تطلَّعتْ نفوسٌ إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحُجة يثقون

بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعمَّ أثره ، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً لناموس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئةً واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا: عفا الله عمَّا سلف.

وتقدَّمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارةِ بقاع الدين والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقّيها بشروط واقفيها.

وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج ، وتجهيز وفدها ، وتأمين سُبلها ، وتيسير قوافلها.

وأنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافرُوا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم».

وهو يلتمس محالفة سلطان مصر «بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتَحل الأمة أرض الهوينى ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل[1] والهوان [2].

وإنَّ مَن يدرس تاريخ المغول ليَرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء ، إلى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير ، التي أعلنتْ عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد إلى

---

(١) وصاف الحضرة: ص (٢٣١ ـ ٣٣٤).

(٢) وقد ورد هذا الكتاب أيضاً في القلقشندي: «صبح الأعشى» ج١ ، ص ٦٥ ـ ٦٨، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة٦٨١ (أغسطس سنة (١٢٨٢)، وقد بعثه به مع رسولين هما قطب الدين شيرازي وأتابك بهلوان، وقد رد قلاوون على إيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمير سنة ١٢٨٣)، وقد ورد الكتاب في القلقشندي ج ٧ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢).

سُلطان المماليك في مصر ، والتي يَدهَشُ الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ «تكودار أحمد» واضطهاده المسيحيين ، المغولَ الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم في الدين ، وشكوه إلى قوبيلائي خان ، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده.

وقد قامت في وجهه ثورةٌ على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبَّر قتله ، ثم خلفه على العرش.

وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١م) القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد ، فصُرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، وحَرَّم عليهم الظهور في بلاطه [١].

وقد ظلَّ خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم ، حتى دخل غازان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأناً ، في الدين الإسلامي في سنة ١٢٩٥م ، وجعله دين الدولة الرسمي في فارس.

وفي عهد إيلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان [٢]، أملَ المسيحيون آمالاً كباراً في تحويل الأسرة الحاكمة في فارس عن الدين الإسلامي ، تلك الأسرة التي أظهرت نحوهم عطفاً شديداً ، وأسندت إليهم كثيراً من مناصب الدولة الهامة ، وكان بيدوخان سلف غازان ، الذي كان رأس الفتنة في فارس ، والذي جلس على العرش في سنة ١٢٩٥م بضعة أشهر فقط ، قد آثر الدين المسيحي ، وجهد في وضع العقبات في سبيل انتشار الإسلام بين

---

(١) De Guignes, Vol.III p.p.263-5.

(٢) هؤلاء هم أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١) ، وأولجايتو (١٢٩١ ـ ١٢٩٥م) وبيدو خان (أبريل ـ أكتوبر سنة ١٢٩٥ م).

المغول ، فحرَّم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين ، أو أن ينشر عقائده بينهم [(١)].

وقد شَبَّ غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام ، وشيَّد عدة معابد للبوذية في خراسان ، وكان يُسرُّ كثيراً بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس في جماعات كبيرة منذ بسَط المغول سلطانهم في هذه البلاد [(٢)].

ويظهر أنَّ غازان كان بطبعه يميل إلى تَقليب نظره في المسائل الدينية؛ لأنه دَرس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في زمانه [(٣)] ، وقد أيَّد رشيدُ الدين ، وزيره العالم ومُؤرخ عصره بالبرهان صحةَ اعتقاده الإسلام ، الذي أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيرة طوال عهده» [(٤)].

إنَّ ابن كثير نفسه ذكر إسلام غازان في وقائع ٦٩٤هـ بارتياح بالغ ، ويبدو منه ـ ويؤيده في ذلك غيره من المؤرِّخين ـ أنَّ الفضل في ذلك يرجع إلى الأمير التركي الصالح توزون [(٥)] ، فإن ملك التتار أسلم بجهوده ، كتب ابنُ كثير في وقائع ٦٩٤هـ ، يقول:

«وفيها مَلَك التتار قازان بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيز خان فأسلم ، وأظهر الإسلام على يد الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ، ونُثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه ، وتسمَّى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرَّب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ، وردَّ مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السُّبح

---

(١) C.D.Ohsson, Tome IV p.p. 141-2
(٢) I p,18p.148
(٣) C.D.Ohsson,Tome IV p.365
(٤) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤.
(٥) يسميه أرنولد وغيره من المؤرخين «نوروزبيك».

والهياكل مع التتار والحمد لله وحده» [١].

يقول أرنولد: «إنَّ أخاه أولجاتيو Aljaytu الذي خلفه في سنة ١٣٠٤ م باسم محمد خدابنده [٢] Khudabandah كان على المسيحية دين أمه، وعُمِّد باسم نيقولا، على أنه لم يلبثْ أن أسلم بعد موت أمه، وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر، وذلك بتأثير زوجته [٣].

---

(١) البداية والنهاية: ج١٣ـ ص ٣٤٠.

(٢) ذكر ابن بطوطة ج١ ص(١٤٣) أن اسمه مختلف فيه، وقد قيل خُدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله، وبنده ومعناه غلام أو عبد، وقيل خربنده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية الحمار، وبنده، معناها غلام أو عبد. فيكون عبد الله، أو غلام الحمار، وقد قيل إن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته، فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة، والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان)، ولعله يريد هنا الحمار فسمي خربنده، وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجاتيو وظل مشرداً يرعى الحمير في إقليم كرمان وهرمز، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعي الحمير، وقيل أيضاً إن أبوي الطفل كانا يطلقان عليه اسماً قبيحاً حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد، ولذلك سمي خربنده كما يسمي العرب أبناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلاً بأن يكون الولد في كبره صخراً أو كلباً على عدوه، وقال ابن الوردي (تاريخ الوردي ص ٢٦٤) إن خربنده اسمه خدابنده، وأن ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي وأذربيجان وديار بكر.

(٣) Hammer-Purgstall: Gesc hichte Der Iichanen Vol.II p.182

ولا يبعد أن تكون سبايا الإسلام قد قمن في تحويل المغول إلى الإسلام، ويظهر أن المرأة شغلت مركزاً من مراكز الشرف والكرامة بين المغول، ويمكن أن نأتي بأمثلة كبيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشؤون السياسية، وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية، ويحدثنا وليم روبرك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات، وكيف وقف ذلك التأثير في سبيل نشر تعاليمه الدينية:

«وفي عيد العنصرة أتى أحد المسلمين عندما أخذنا نشرح تعاليم الدين في أثناء حديثه معنا، فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعميد رغب في أن يعمد، ولكن بينما كنا نعد العدة =

ويـذكر ابن بطوطة[١] ، أنَّ سيرة ذلك الأمير ، كان لها أثرٌ كبيرٌ في نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدينَ السائد في دولة إيلخانات فارس[٢] .

الفرع الثالث من هذه الأسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسِّسها جغطائي بن جنكيز خان .

يقول أرنولد: «وإنَّ ما لدينا من المعلومات عن تقدم الإسلام وانتشاره في إمبراطورية المغول الوسطى ، التي كانت من نصيب جغطائي ، لا يزال ضئيلاً ، وكان كثيرٌ من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يُبد أي ميل إلى الإسلام .

وقد ضيَّق «جغطائي» على رعاياه من المسلمين بما سنَّه من القوانين الشديدةِ الحرج ، التي ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء .

ويذكر الجوزجاني أنَّ جغطائي هذا كان ألدَّ أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغبُ في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته ، اللَّهم إلا إذا أريد بها التحقير والحطُّ من شأنها[٣] .

وقد ربَّتْ أرغنة (Orghana) زوجة «قراهولاكو» (Qara-Hulagu) حفيدَ جغطائي وخليفته ، ابنها على الإسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه في

= لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غفلة ، قائلاً: إنه لا بد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته، وفي اليوم التالي قال لنا في أثناء حديثه معنا ، إنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد ، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس» (Rubruck p.p.90-1)

(١) ابن بطوطة: ص٥٧ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

(٣) الجوزجاني ص٣٨١ ـ ٣٩٧ Raverty, p.p. IIIo, 1145-6

سنة ١٢٦٤ مطالباً بعرش خاقانية جغطائي ، الـذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلعـه ابن عمـه براق خـان ، (Buraq Khan).

ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أيُّ أثر بين المغول ، فإننا لو رجعنا في الواقع إلى أسماء أبنائه ، لا نجد أحداً منهم قد دخل في دين أبيه [١] .

وقد قيل: إنَّ براق خان نفسه «قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة» قبل موته في سنة ١٢٧٠م بأيام قليلة، وإنه تسمَّى باسم السلطان غياث الدين [٢]، إلا أنه دُفن حسب طقوس المغول القديمة ، ولم يُدفن وفق شعائر الدين الإسلامي ، وأن من أسلموا في عهده ارتدوا إلى وثنيَّـتهم الأولى.

ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم مُتمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد.

وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصَّل الميل إلى الإسلام بعدُ في نفوس المغول ، فإن بوزن الذي كان خان المغول في السنين العشر التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث أن طرد طرما شيرين من العرش واضطهدَ المسلمين [٣] ، على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم في كاشَغْر إلا بعد سنين قليلة ، وكان ضعفُ أسرة جغطائي قد أتاح لهذه المملكة أن تستقلَّ بحكم هذه البلاد.

ويقول بعض المؤرِّخين إنَّ إسلام «تغلق تيمورخان» (١٣٤٧ ـ ١٣٦٣) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى في مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصَّصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر بأن تُوثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يَمثلوا بين يديه ، ثم سأله في غضب: كيف جرؤوا على دخول هذه

---

(١) رشيد الدين ١٧٣ ـ ٤ ، ١٨٨ .
(٢) أبو الغازي: ج٢ ص١٥٩.
(٣) رحلة ابن بطوطة: ج٣ ، ص٤٧.

الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يَجُوسون أرضاً محرمة.

ولمَّا علم الأميرُ أنهم من الفرس ، قال: إن الكلبَ أغلى من أي فارسي ، فأجاب الشيخ: «نعم قد كُنَّا أخسَّ من الكلب ، وأبخس ثمناً منه لو أننا لم ندِن بالدين الحق».

ولمَّا راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يُقدَّم إليه ذلك الفارسيُّ الجسورُ عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات ، وما ذلك الدين؟

فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماس ، انفطرَ لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصَوَّر له الكفر بصورة مروعة اقتنعَ معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال: «ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياىَ إلى الصراط المستقيم فلتُمهِلني قليلاً ، فإذا ما آلت إليَّ مملكة أجدادي ، فعُد إليَّ».

وبعد ذلك انقسمت إمبراطورية جغطامي إلى إمارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل، وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضاً شديداً ، فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين: «سيُصبح تغلق تيمور يوماً ما ملكاً عظيماً ، فلا تنس أن تذهب إليه وتُقرئه مني السلام ، ولا تخش أن تُذكِّره بوعده الذي قطعه لي».

ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استردَّ عرش إمبراطورية آبائه ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يَظفرَ بالمثول بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيراً لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة؛ ففي ذات يوم أخذ يُؤذِّن في الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه ، فأمر بإحضاره ومُثوله بين يديه ، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعدَه وقال:

«حقاً ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي ، ولكنَّ الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنتَ على الرحب والسعة» ثم أقرَّ بالشهادتين ، وأصبح مسلماً منذ ذلك الحين.

«وأشرقت شمس الإسلام ومحتْ بنورها ظلام الكفر. . . . ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملكُ الأمراء واحداً بعد واحد، ويعرض عليهم الإسلام، فمن قَبله جوزي الجزاء الحسن، ومن أباه ذُبح كما يُذبح الوثنيون وعُباد الأصنام» (١).

أمّا الفرع الرابع الذي ينتمي إلى «اجتائي خان» والذي برز فيه من الملوك والفاتحين أمثال منجوخان ، وقوبيلائي خان ، والذي كان يحكم الجزء الشرقي من إمبراطورية التتر ، فيقول فيه أرنولد:

«ولا بدَّ أن يكون هناك كثيرٌ من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين في طيٍّ الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام ، ففي عهد اجتائي (١٢٢٩ ـ ١٢٤١م) نقرأ عن إسلام بوذيٍّ يدعى Tangut وكان حاكماً على بلاد الفرس من قبل المغول (٢)، وفي عهد تيمورخان (١٢٢٣ ـ ١٢٢٨) كان آنندا Ananda حفيدُ قوبيلائي (١٢٥٧ ـ ١٢٩٤) وأميرُ كان سو مسلماً متحمساً ، كما دفع كثيراً من أهل تانجوت Tangut وعدداً كبيراً من الجنود الذين كانوا تحت إمرته إلى اعتناق هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد في ارتداده إلى البوذية ، أبى إلا التمسُّك بدينه الجديد ، فألقي به في غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي تانجوت الذين كانوا شديدي التعلُّق به»(٣) .

وهكذا دَخَلَ هذا الشعب (الذي دَوَّخ العالم الإسلامي كُلَّه ، وداس أطرافه

(١) الدعوة إلى الإسلام: ـ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

(٢) C.D. Ohsson, Vol. III 121.

(٣) الدعوة إلى الإسلام: ـ ص٢٥٨، رشيد الدين ص٦٠٠ ـ ٦٠٢.

بأقدامه ونِعال خيوله ، والذي لم تتماسك أمامه أي قوة) في دين الله ـ الإسلام ـ في بِضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى ، واضحةً جليةً ، إنَّ الإسلام لا يزال يملك أكبرَ نفوذ ، ويتمتَّع بأغرب موهبة في تسخير الأرواح وكَسْب الأنصار والأصدقاء ، إن التتار لم يُسلموا رسمياً فحسب ، بل برز فيهم عددٌ كبير من العلماء والفقهاء والمجاهدين ، والدعاة والربانيين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدَّوا دورهم الثمين في حماية حمى الإسلام في ظروفٍ دقيقةٍ ولحظاتٍ عَصيبةٍ من التاريخ .

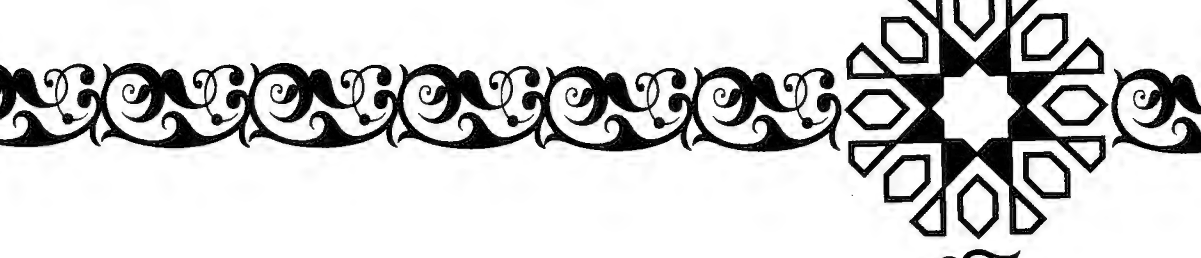
* * *

مولانا جلال الدين الرومي

عَصرُهُ وترجمَةُ حيَاتِهِ.

مُفَكّر مُبتَكِر ومُؤَسّسُ عِلمِ كَلامٍ جَدِيْدٍ.

دَاعٍ إلى الحُبّ والعَاطِفَةِ واحْترامِ الإنسَانِ إلى الإنسانيّةِ.





المحاضرة الرابعة عشرة:

مولانا جَلالُ الدّينِ الرُّومي
عصرُه ، وترجمة حيَاته

ثورة عِلمِ الكَلام العقلية ، ونتائجُها:

خَضَعت الأوساطُ العلميةُ والحركاتُ الفكريةُ في القرن السابع للاستدلال والقياس العقلي خضوعاً زائداً، وأصبح المؤلِّفون والمتكلِّمون والباحثون والدعاة مضطرين إلى البراهين العقلية، والمقدمات الفلسفية ، في إثبات حقيقة غيبية ، أو تقرير عقيدة دينية .

وجاء العلامة «فخرُ الدين الرَّازي» (٦٠٦م) فجدَّد دولة علمِ الكلام ، ووسَّعها بشخصيَّته القوية ، ومؤلَّفاته العظيمة ، وبُحوثه الدقيقة .

انتصر الأشاعرةُ على المعتزلة والفلاسفة في الحياة والمجتمع ، وفقد الاعتزالُ والفلسفةُ شيئاً كثيراً من سيطرتهما ونفوذهما؛ ولكنَّ رُوح الاعتزال والنزعة العقلية تغلغلت في أحشاء علم الكلام ، وسيطرت على تفكيره ومناهج بحثه ، وقد غلا المُتكلِّمون أنفسهم في الزمن الأخير في تقدير العَقل ، ووسَّعوا حدوده ، وسمحوا له أن يبحث في مسائل الذات والصفات؛ التي هي وراء طور العقل[1] بحثاً حراً.

---

(١) إننا إذا قلنا: «وراء طور العقل» فلا نعني أنه يعارض العقل أو ينافيه والفرق بينهما كبير ، وقد يخلط بينهما من لم يدقق ولم يرسخ في العلم.

وكان إثباتهم للمسائل الدينية وحقائق الأشياء يعتمد دائماً على الاستدلال الفلسفي والقياس المنطقي ، كما كان يعتمد على ذلك في أدب المعتزلة وكُتب الفلاسفة باختلاف في التعبير والمصطلحات ، وقد حكَّموا الظواهر والمحسوسات تحكيماً كبيراً.

كانت نتيجةُ ذلك أن طغى على العالم الإسلامي « الجَفافُ الفلسفي» ـ إن صحَّ التعبير ـ وإذا كان الغلو في القياس والاستدلال قد أفاد العقول جِدة ونشاطاً ، فقد أفقدَ القلوبَ إيماناً وحرارة.

لقد استطاع المتكلِّمون بقوة استدلالهم وبَراعتهم في المناظرة أن يقطعوا لسان المعترضين ويُفحموا المجادلين؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا في القلوب سكينة وإيماناً ، وفي أهل الشكِّ يقيناً وإذعاناً.

لقد خَلَقَت مناهج بحثهم وأساليبُ استدلالهم عُقداً في القلوب والعقول ، عَجز علم الكلام عن حلها وفكها ، واستخفَّ عِلمُ الكلام وأصحابه بالوجدان الذي هو مَنْبعٌ فياض للعلم واليقين ، فنضب معينُه.

كانتِ الفلسفة ، ومن سار سيرتها لا تقرر إلا بالحواس الخمس ، وأصبح كل شيء لا يُدرك بهذه الحواس الظاهرة ، ويَتوقف على الحاسة الباطنة محلَّ الجدال والشك ، ويميل «المثقَّفون» إلى نفيه وإنكاره؛ وقد ضَعُفت في الأمة ـ بتأثير علم الكلام والفلسفة ـ قوةُ العمل ولَوعة الحب التي كانت مصدراً من مصادر قوة هذه الأمة كبيراً ، وموهبةً من مواهب النبوة عظيمة.

وقد حَوَّلت المباحثُ الفلسفيةُ والحروب الكلامية العالمَ الإسلامي إلى «مدرسة» يكثر فيها القيل والقال ، والنقاش والجدال؛ ولكنها بعيدةٌ عن الحياة والحب ، والإيمان الوثيق العميق ، والعاطفة القوية الرقيقة ، وقد كوَّن أهل

القلوب جُزراً روحية في هذا المحيط العقلي المادي ، يَسودُ فيها الحب واليقين ، والسكينة والطمأنينة.

الحَاجَة إلى مُتكلّم جَديد:

كان العالمُ الإسلاميُّ حينئذٍ في حاجةٍ شديدةٍ إلى شخصيةٍ قويةٍ عبقريةٍ مُجدِّدةٍ ، قد وصلت بدراستها إلى أحشاء الفلسفة ثم خرجتْ منها سالمة ، وقد شاهدَ بتجاربه الواسعة أن الفلسفة سرابٌ يحسبه الجاهلُ ماء ، وأنَّ تدقيقاتها وما تزهى به من بحثٍ وتحقيقٍ طلاسمُ لفظية وطبولٌ فارغةٌ ، يرغب فيها من لم يختبرها ويتعمَّق فيها.

كان العالمُ الإسلاميُّ في حاجة إلى شخصية تستطيعُ أن تنفخ بقلبها الولوع وعاطفتها القوية روحاً جديدة في المجتمع ، الذي طغى عليه العقل ـ على حساب العاطفة ـ وسادَ عليه الخمود ، شخصية تستطيع أن تؤسس كلاماً جديداً لا يُصارع العقول ، ولا يكتفي بإفحام المجادلين ، بل يَحُلُّ العُقَد النفسية والفكرية التي خلَّفها علم الكلام ، ويملأ القلوب سكينة وإيماناً.

لقد وُجِدَ هذا الرجلُ المطلوبُ في شخصية مولانا «جلال الدين الرومي». وقد كان ديوان شعره الذي يعرف عادة بـ«المثنوي المعنوي» [١] ثورة على علم الكلام الذي فقد جدَّته وقوته ، ونَقد الفلسفة في اتجاهها ومنهجها ، وعلى الفلسفة التي تجاوزت حدودها ، وبالغت في تقدير الحواس وتقديس العقل ، وكان أساساً لكلام جديد كان أكثر إقناعاً للعقول الجامحة الثائرة ، والنفوس المضطربة الحائرة من علم الكلام ، الذي تَزَعَّم ذلك وتكفَّلَ به طوال القرون.

---

(١) تُرجم إلى العربية ترجمة دقيقة من قبل أحد أساتذة جامعة بيروت العربية ، وطبع في جزءين فاخرين عام ١٩٦٩.

تَرْجَمَة حَياتـه:

وُلِـدَ[١] جلال الدين محمـد الرُّومي ، في سادس ربيـع الأول ، سنـة ٦٠٤هـ في «بلْخ» من أعمال أفغانستان ، وكان والده محمد الملقَّب «بهاء الدين ولد» من كبار علماء بلاده ومشائخ عصره ، وقد لقِّب بسلطان العلماء ، ينتهي نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

بدَأَ جلال الدين دِراسته عند الشيخ «برهان الدين المحقق الترمذي» الذي كان من تلاميذ والده ، ونبغ على يده ، وقد كان والدُه الشيخ «بهاء الدين» ينتقد علماء العصر لعكوفهم على دراسة العلوم العقلية وتعليمها ، وانصرافهم عن القرآن والحديث.

وكان الشيخ مُهاباً جليلَ القدر يُجِلُّه العامة والخاصة ، وتأتيه الفتاوى من أقاصي البلاد؛ فحسَده العلماء ، وأوغروا صدر الملك عليه ، وقد هاله التفاف الناس حوله وصدُورهم عن رأيه؛ فأوعزَ إليه بالخروج من البلاد ، وهاجرَ الشيخ بأهلِه ، وأقام في مُدن كثيرة كان فيها موضع حفاوةٍ بالغة وإجلال؛ حتى استقر في «قونية» سنة ٦٢٦هـ بدعوة من «علاء الدين كيقباد» سلطانِ الروم ، الذي احتفى به ، وبالغ في إكرامه ، وبايعه.

مكَثَ الشيخُ «بهاء الدين» سَنتين في قونية وتوفي سنة ٦٣٨هـ ، وخلَفه ولده النابغة مولانا «جلال الدين» وبنى له الأمير بدر الدين «كهرتاش» أستاذُ السلطان ، مدرسةً عرفت بمدرسة «خداوندكار» ووقفَ لها أوقافاً واسعة؛ ولاَّه رئاستها.

واستمرَّ جـلال الدين في التـدريس والوعـظ والإرشـاد على نمـط والـده

---

(١) اعتمدنا في تلخيص ترجمته وأخباره على كتاب «صاحب المثنوي» للأستاذ المحقق القاضي تلميذ حسين الهندي ، وهو خير ما كتب في هذا الموضوع ومن أوثق المصادر ، واستفدنا قليلاً من كتاب «زندكاني مولانا جلال الدين» للأستاذ بديع الزمان فروزانفر أحد أساتذة الأدب في جامعة طهران.

العظيم ، ولم يمنعه هذا الجاه العريض والمكانة المرموقة من التوسع في الدراسات ، والتبحُّر في العلوم.

وسافَرَ سنة ٦٣٠هـ إلى بلاد الشام ، ومكثَ في المدرسة «الحلاوية» بحلب ، واستفاد من كمال الدين ابن العديم ، وقد أقرَّ له علماء حلب بالنبوغ والاطلاع الواسع.

ومِن حلبَ توجَّه جلال الدين إلى دمشق ، حيث أقام بالمدرسة «المقدسية» ، وكانت له مجالسُ لطيفةٌ مع الشيخ محيي الدين بن عربي ، والشيخ سعد الدين الحموي ، والشيخ عثمان الرومي ، والشيخ أوحد الدين الكرماني ، والشيخ صدر الدين القونوي ، وقد اجتمعوا في دمشق في ذلك العصر.

رَجَعَ جلال الدين في سنة ٦٣٤هـ إلى قونية ، وعكفَ على التدريس والإفتاء ، وقد نزح إلى «قونية» كثيرٌ من العلماء والأشراف الذين هاجروا من بلادهم في فتنة التتار؛ فأصبحت مدينة العلم وملجأ العلماء والفضلاء ، واستقرَّ بها أصحاب الشيخ محيي الدين بن عربي بعد وفاته ، منهم الشيخ صدر الدين القونوي.

كان جلال الدين يُدرِّس ويُفيد ويعيش كعالم ومدرِّس؛ حتى حدثت له حادثةٌ قلبتْ تيارَ حياته واتجاهه ، وفتحَتْ قريحته وأشعلت مواهبه ، وكانت سببَ شُهرته وتأثيره وخلوده.

في جمادى الآخرة سنة ٦٤٢هـ وصل إلى «قونية» رَجلٌ من الصوفية من «تبريز» في إيران ، اسمه «محمد بن علي بن ملك داد» ويعرف بشمس تبريز ، يعرف الناس عن نسبه وأحواله قليلاً ، وخرج جلال الدين يوماً في موكبه من التلاميذ والعلماء ، والناس حوله يسألونه ويستفيدون منه ، وتقدم شمس الدين إلى الراكب المحتفَل به وقال: ما المقصود من الرياضيات والعلوم؟

قال جلال الدين: الاطلاع على آداب الشرع.

قال شمسُ الدين في هدوء وثقة: لا؛ بل الوصول إلى المعلوم، وأنشد بيت الحكيم «السَّنائي» الذي يقول فيه: «إنَّ العلم إذا لم يُجرِّدك من نفسك فالجهلُ خير منه» وتحيَّر جلال الدين، وأصاب شمس الدين هدفه، وأصْمىٰ رميتَه.

ورَجَعَ جلال الدين مع أستاذه الجديد، وبَقِيَ معه في حُجرة أربعين يوماً، وفي رواية أنه اعتكف معه ستة أشهر في حُجرة صلاح الدين زركوب «الدقاق» لا يدخلها إلا صلاح الدين، وامتلأ جلال الدين بروح جديدة، وانكشف له عالمٌ جديد من الحقائق والأذواق، وإلى ذلك أشار جلال الدين في بيت له بقوله: «إنَّ الشَّمسَ التبريزي هو الذي أراني طريقَ الحقيقة، هو الذي أدينُ له في إيماني ويقيني» ويقول «سلطان ولد» ابن جلال الدين: «إن الأستاذ الكبير أصبح تلميذاً صغيراً للشيخ التبريزي يتلقى منه الدروس كلَّ يوم، إنَّه وإن كان نابغة في العلوم، ومقدماً في الزهادة؛ ولكنه رأى عنده علماً جديداً لا عهد له به».

وخَضَعَ جلال الدين لشيخه الجديد خضوعاً كاملاً، وانصرف إليه انصرافاً كُلِّياً، وتشاغل عن تلاميذه ومريديه؛ فكبُر ذلك عليهم، وثاروا، وقالوا: «لقد صرفنا أعمارنا في خدمة الشيخ، شاهدنا كراماته، وبنا طار ذكره في الآفاق، وجاء رجل غريب مجهول وقطعه عنا، واستولى عليه؛ فلا سبيلَ لنا إلى لقائه ورؤيته. ووقفتِ الدروس والمحاضرات؛ فلا شكَّ أنه رجل ساحرٌ أو داهية باقعة، جرف هذا الجبل الراسي من العلم كَتِيْبَةٍ حقيرة وورقة خفيفة».

واشتدَّتْ عداوتهم لشمس الدين، وعزموا على إقصائه من «قونية» ليخلو لهم وجه أستاذهم، ويكونوا من بعده قوماً صالحين.

وتحمَّل ذلك شمس الدين في صبر وحلم؛ حتى تجاوز الحد، وخاف شمسُ الدين الشر والفتنة؛ فخرج من قونية مستخفياً، وكان ذلك غرة شوال عام ٦٤٣هـ بعدما أقام في «قونية» عاماً وأربعة أشهر.

وحزِنَ جلال الدين لغيبة أستاذه حزناً شديداً ، واعتزل جميع تلاميذه ومريديه ، ولم يتحقق ما أَمَّلُوه من إقصاء شمس الدين ، وحُرم أصحاب الصدق والوفاء من أصحابه الاستفادة من شيخهم الجليل .

وبقي الشيخُ منقطعاً عن الناس ، مُنصرفاً عن أشغاله؛ حتى فاجأته رسالة للشيخ شمس الدين من دمشق ، فطابت نفس جلال الدين ، وأقبل إلى مجالس السماع كعادته ، وأقبل على من لم يُساهم في إيذاء شمس الدين وإقصائه بعطف ، وكتبَ إلى شمس الدين رسائل حنين وغرام يقول في إحداها :

أيُّها النُّورُ في الفُؤاد تَعالَ ... غَايةَ الوَجْدِ والمُراد تَعالَ

أيُّها السَّابق الذي سَبَقت منْ ... ـكَ مَصدوقةُ الوِداد تعالَ

«جون بيائي ، زهى كشاد ومراد ... جون نيائي ، زهى كسادَ تعال»[1]

أنتَ كالشَّمس إذْ دَنتْ ونَأتْ ... يا قريباً على البِعَاد تعَالَ

وهَدأت ثائرة الناس ، وعرف جلال الدين أنَّ الناس أقلعوا عن عداوة شمس الدين وإيذائه؛ فأرسل ولده «سلطان ولد» مع هدايا نفيسة ينثرها على قدميه ، ويطلبُ منه العفو عمن آذاه ، وأن يصرف عنان عزيمته إلى «قونية» وكتب رسالةً رقيقة منظومة .

ورَجَعَ شمس الدين إلى «قونية» وابتهج بقدومه جلال الدين ، وسُرَّ سروراً عظيماً ، وطابتْ مجالسه مع شمس الدين ، وصفَتْ له الأوقات .

وازدادَ جلالُ الدين إجلالاً لشيخه وحبّاً له واتحاداً معه؛ ولكنَّه لم يمض على هذا النعيم زمنٌ طويل؛ حتى ثارت الفتنة من جديد ، وكان من ساهم في هذه الفتنة ولدُه الأوسط «شلبي علاء الدين» وغاب شمس الدين ثانية .

وقامتْ قيامةُ جلال الدين وجُنَّ جنونه ، وأقصى جلال الدين كلَّ من تسبب في إيذاء شمس الدين ، وطردهم من عنده؛ ولكنه شغل نفسه في هذه المرة

---

(١) معنى البيت بالعربية :

يا سروراً وسعادة إذا قدمت ، ويا حزناً وكساداً إذا غبت

بمجالس السماع ، وكان ذلك في سنة ٦٤٥هـ.

وبَحَثَ جلال الدين عن شيخه في كل مكان ، ولما لم يجد له أثراً تغيرت حالته ، وأصبح لا يَصبِرُ عن مجالس السماع لحظة ، وكان يدور في مدرسته كالهائم ، ويَئنُّ ويُرسل زفراته ، ويقول في الحنين إلى شيخه الشعر الرقيق ، وينظم القصائد الطوال ، وكان إذا حدّث أحدٌ بأنه رأى شيخه أو لقيه في مكان خلعَ عليه لباسه شُكراً.

وخَرَجَ جلالُ الدين إلى الشام ليبحث عن شمس الدين ، ورافَقَهُ أصحابُه، ووصل إلى دمشق وأشعل قلوب أهل دمشق حباً وغراماً ، وتعجَّب الناس وقالوا: من هذا الرجل الذي هام به نابغةُ عصره ونادرةُ زمانه هذا الهيام؟! .

ولمَّا لم يَـرَ للشمس عيناً ولا أثراً سكنت نفسه ، وقال: لا فرق بيني وبين شمس الدين ، إن كان هو شمساً فأنا ذَرَّةٌ ، وإن كان هو بحراً فأنا قطرةٌ ، ونورُ الذَّرةِ من الشمس ، وحياة القطرة من البحر ، ورَجع إلى «قونية».

وأقامَ في «قونية» بضعَ سنين ، وثار الحبُّ مرةً ثانيةً ، ورجع إلى دمشق مع جماعة من أصحابه ، ثم رجع إلى «قونية» مقتنعاً بأنَّه عين «الشمس» ، وقال: إنني لم أكن أبحث عن «شمس الدين» إنما كنت أبحث عن نفسي ، وإنَّ كل ما في «شمس الدين» هو في نفسي، وأصبح يشاهد في نفسه ما كان يشاهده في «شمس الدين».

واتخذ الشيخَ «صلاح الدين الدقاق» صاحب سِرِّه ، وخليفة له ، وجليسَه الخاص ، وصار لا يسكن إلا إليه ، وعاش صلاح الدين في هذه الحال عشرَ سنين ، وتوفي سنة ٦٥٧هـ.

واتخذ جلال الدين «حسام الدين شلبي» جليساً له بعد صلاح الدين ، وكان السَّبب في تأليف «المثنوي» ، فقد سالتْ له قريحته بهذا الشعر الخالد ، ولما

تُوفيت زوجة حسام الدين الشلبي وتشاغل حسام الدين ، جمُدت قريحتُه وتوقفَ تأليف «المثنوي».

وكان جلالُ الدين ـ كما وصفنا من حاله ـ لا يسكن ولا يرتاح إلا إلى صاحب موافق تنسجم نفسه مع نفسه ، وكان أستاذه السيد «بهاء الدين» أول صاحب له؛ فلما مات بقي الشيخُ خمسَ سنوات يشعُر بفراغ في نفسه وفي حياته ، وجاء «شمس الدين التبريزي» فملأ هذا الفراغ وزاد ، ولما غاب؛ شعرَ جلال الدين بفراغ هائل ، وبقي في قلق دائم حتى ملأه بِصلاح الدين «الدقاق» و«الشلبي حسام الدين» بعده؛ وكأنما كانت المواهب المُودَعة في ضميره وفطرته في حاجة إلى من يُثيرها ويحرِّكها ، ولم يكن تأليف «المثنوي» إلا استجابة روحية لهذا النداء الخفي.

ولـمْ يكـن اختيـار جـلال الـديـن لأصحـابـه وجلسـائـه كصـلاح الـديـن وحسام الدين بفضل علمٍ وزهد أو كشف وكرامة ، وإنما كان لمجانسةٍ بين الأرواح والخواطر ، والنفوس والقلوب.

وقد ذكر أنَّ سبب إيثاره لصلاح الدين على غيره واستئثاره به مجانسة بينهما لا غير.

وقال: إنَّ الحبَّ الذي يقوم على المجانسة لا يعقبه ندامة في الدنيا والآخرة؛ ولذلك يتمنَّىٰ من لم يلاحظ هذه المجانسة ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٨] ؛ أما المحبُّون المتجانسون فلا فُرقة بينهم ولا عداوة ، ولا ندامة ولا ملامة ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

ويقول: «إنَّ هذه المجانسة هي التي خلقت الإيمان في الصحابة ، وجذبت النفوس إلى الرسول ، وإليها يرجع الفضل في إيمان كثير من السابقين الأولين ، لا إلى المعجزات ، فإنَّ المُجانس يجذب صفات المجانس ، وينصبغ بصبغته».

وفاتـه:

شَهِـدَتْ «قونية» ـ بلد جلال الدين ـ زلزالاً سنة ٦٧٢هـ ، ودامتِ الرجفة أسبوعاً كاملاً ، وكان جلال الدين مريضاً رهين الفراش ، وزاره الناسُ وطلبوا منه الدعاء؛ فقال: «إن الأرض جائعةٌ تطلب لقمة دسمة ، وستنالها عن قريب ، ويرفع عنكم البلاء» وقال أبياتاً وقصائد يَحنُّ فيها إلى لقاء الحبيب ، ويستقبل الموتَ بنفس منشرحة وثغر باسم.

وعاده صديقُه «صدر الدين» فدعا له بالشفاء القريب؛ فاعتذر وقال: «هنَّأَكَ الله بالشفاء وما يضرُّك إذا رُفع الحجاب بين الحبيب والحبيب»؟.

وقال وهو في سياقة الموت: «إن كُنت مؤمناً وحلواً طاب الموت ، وكان الموت مؤمناً ، وإن كنت كافراً ومرّاً ، كان موتاً كافراً ومراً».

ولم يزل مشغولاً ببيان الحقائق والمعارف؛ حتى فاضت روحه عند غروب الشمس ، لخمس خَلَوْنَ من جمادى الآخرة ، سنة ٦٧٢هـ.

ولمَّا خرجت جنازتُه ، ازدحم عليها أهلُ البلد ازدحاماً كبيراً ، وشيَّعها أتباعُ كل ديانـة وهم يبكون. وكان اليهـود والنصارى يَتلُـون التوراة والإنجيل ، وكان المسلمون يُـنَـحُّونَهم فلا يَـتَـنَـحَّـوْن ، وبلغَ ذلك حاكـمَ البلـد، فقـال لقساوسَتِهم ورُهبانهم: مالكم ولهذا الأمر؟ وإنها لجنـازة عالمِ مسلم ، فقالوا: «بـه عرفنـا حقيقة الأنبياء السابقين ، وفيه رأينا سيرة الأولياء الكاملين» وكانتِ الجنازة قد خرجتْ في الصباح الباكر ، ووصلتْ إلى مقبرة البلد عند المساء ، ودُفنت في الليل.

أخـلاقُـه وصِفَتُـه:

كان جلالُ الدين [١] شديدَ الرياضة والمجاهدة ، كثيرَ التَّعبد ، قال «سِبَهْ

---

(١) أكثر معلومات هذا الفصل مستفادة من كتاب «سوانح مولانا روم» باللغة الأردوية للعلامة المرحوم شبلي النعماني.

سالار» وقد كان صاحبه أعواماً طوالاً: «لم أره قَطُّ في لباس النوم، ولم أر عنده فراشاً ولا وسادة، فإذا غلبه النوم نام جالساً» ويقول في بيته: كيف ينام من يتقلَّب على حَسكِ السَّعْدان؟!.

وكان إذا حانت الصلاةُ توجَّه إلى القبلة وتغيَّر لونه.

وكان كثيرَ الاستغراق في الصلاة يقول «سبه سالار»: «رأيته مراراً دخل في الصلاة وقت العشاء، وقضىٰ الليلَ كُلَّه في رَكعةٍ».

وقد وصف جلالُ الدين صلاتَه في شعره وصْفاً جميلاً بليغاً يَدُلُّ على أن صلاتَه صلاة محبٍّ مستغرقٍ هائمٍ، يغيب عن نفسه ويشتغلُ بربه؛ فلا يشعر بمكان ولا زمان، وإمامٍ وركوعٍ وسجودٍ، يسيل دموعاً ويذُوبُ محبة، ويحترق.

وقد بكىٰ مرَّة في الصلاة وابتلَّ الوجه واللِّحية بالدموع الغزار، وكان الزَّمن زمنَ شتاء، والبردُ في «قونية» شديد، فجمدتِ الدموعُ على الخدِّ واللحية وهو في صلاته.

وكان زاهداً متقلِّلاً قَنُوعاً، يقسِّم كُلَّ ما يأتيه من هدايا الملوك والأمراء والأغنياء، وقد يكون في خصاصة، وكان يفرح إذا كان في فاقةٍ أو جوع، ويقـول: «الآن أَشُـمُّ رائحة التجرَّد والافتقار إلى اللهِ».

وكان عظيمَ السَّخاء، كثيرَ البذلِ والإيثار، إذا جاء سائلٌ وليس عنده شيء خلعَ له قميصَه أو عباءتَه، لذلك كان يلبس قميصاً ليسهل عليه خلعه، وكان عظيمَ الصبر والاحتمال.

مرَّ في طريقه بكلبٍ نائمٍ في عرض الطريق، فوقف ينتظر انتباهه، وكَره إزعاجه، ومرَّ به رجل يعرفه، فزجر الكلب وخلَّىٰ له الطريق، وكره ذلك جلال الدين، وقال: قد آذيتَـه.

ومَـرَّ برجلين يتَسابَّان، وقـال أحدُهما للآخر: إنَّك إذا أسمعتني واحدة

أسمعتُك عشراً ، فقال: دونكما نفسي فإن أسمعتماني ألفاً لم أُسْمِعْكُمَا واحدةً، وخرَّ الرجلان على قدميه وتصالحا.

وكان حريصاً على كسب الحلال ، يكره البِطالة والرزق الذي يأتيه من غير شغلٍ ، وكانت له جِراية خمسةَ عشر دينارٍ من الأوقاف ، فكان يكتُب الفتاوىٰ مقابل ذلك ، حتىٰ يستحلَّ ويستحقَّ هذه الجراية ، وكان قد أوصىٰ تلاميذَه أن يُخبروه إذا جاء استفتاءٌ ، حتىٰ لا يتأخر عن إجابته. وكان محتجباً عن الناس ، زاهداً في لقاء الأمراء والسلاطين ، اعتذر إليه أميرٌ عن عدم الزيارة ، فقال: «لا داعي إلى الاعتذار ، فالغَيبة أحبُّ إليَّ من الحضور».

* * *

المحاضرة الخامسة عشرة:

مولانا جَلَال الدِّين الرُّوميّ
مفَكِّر مبتَكر ، ومؤسِّسُ علمِ كلامٍ جديد

«المَثنَويُّ المعنوي» مَوضُوعه وأغراضُه:

تدلُّ ترجمة حياة «جلال الدين» على أنه كان قويَّ العاطفة ، وجدانياً ، مُلتَهبَ الرُّوح وَلوعَ القلب ، صاحب استعداد كبير ومواهبَ عظيمة ، قد عُجنت طينتُه بالحبِّ ، وقد غطَّىٰ هذه الشرارة الانهماكُ في العلوم الظَّاهرة ، والاشتغالُ الزائد بالعقليات.

وجاء شمسُ الدين التبريزي ـ وهو شعلة حب ووجدان ـ فألهبَ هذه الشرارة الكامنة ، وأثارَ الطبيعة المطمورة في ركام البيئة والعادة ، والثقافة والتربية ، فإذا بجلال الدين عُودٌ مُلتهب ، ومَجْمَرة مشتعلة ، وعَينٌ بصيرةٌ مفتوحة ، ونفسٌ حسَّاسة تواقة ، قد اشتعلتْ حاسته الباطنة ، وارتفعتْ عن عينه الحُجُب، وانكشفتْ له الحقائق المستورةُ وراءَ الألفاظ، وانهالتْ عليه المعاني ، وتوارثْ على قلبه وضميره العلومُ الصحيحة؛ فأُترِعَتْ كأسه وفاضت ، وكلُّ من كان هذا شأنُه يصعب عليه السكوت والهدوء ، ويَعِزُّ عليه ألا يجد أنيساً أو جليساً يرىٰ فيه صورة نفسه ، ويُفضي إليه بذات صدره ، ويشكو إليه آلامه وآماله ، ويَبُثُّ إليه أسرارَه وأفكاره.

وكلُّ من كان هذا شأنه يُقبل على السماع يتسلَّىٰ به ، ويتغذَّىٰ ويتعالج به ويتداوىٰ ، وأقبلَ على الشعر ـ إن كان صاحب قريحة ـ يُعَبِّرُ به عن علومه الدقيقة ، وخواطِره الرقيقة ، ويُـخَفِّف به عن نفسه وبُرَحَـائِـه ، وغَـلبه الشِّعر والتغني؛ فما يستطيع لـه دفعاً ، وأنشد معتذراً:

سَقَـوني وقالوا لا تُـغنِّ ولو سَـقَوا جِبـال سُلَيْمـىٰ مـا سُقِيْـتُ لَغَنَّـتِ

واتَّجه هذا الشعر الفائض المرسل؛ الذي هو فيض الخاطر ورَشْح القلب إلى الموضوع؛ الذي يشغل الشاعر ، أو يَشغل العصر ، فتناوله واشتغل به.

واستخدم الشاعرُ رِقَّـةَ الشعر ولطف التعبير ، وحلاوة الجرْس وموسيقا الوزن والقوافي ، وفكاهة الأدب؛ لتأديةِ فلسفته الدقيقة العميقة ، والمعاني اللطيفةِ الغامضة ، والمبادىءِ الرفيعة التي تَشْغَلُ فِكرَهُ وتجيش في خاطره؛ فكان كلامه أوقَع في النفوس ، وأحلىٰ في القلوب ، وأسهل فهماً وأيسر تناولاً ، وأكثرَ نفوذاً وتغلغلاً في المجتمع والآداب.

وكذلك فعل الحكيم (السَّنائي) [(١)] في «الحديقة» و(فريد الدين العطَّار) [(٢)] في «منطق الطير» فكان لهما تأثيرٌ لم يكن لكتابِ فلسفةٍ جاف ، أو بحث علمي دقيق؛ فكان هذان الكتابان السائران المقبولان في الأدب الفارسي؛ بل الأدب الإسلامي ، حافِزَين لجلال الدين إلى تأليف «المثنوي» وقدوةً ومثالاً له ، كما حكاه صاحبُه حسام الدين الشَّلبي.

ولمَّا كان عِلْمُ الكلام هو الشغلَ الشاغل لعصر جلال الدين ، وأصبحت الحقائق من عقائدَ ومباحثَ إلٰهية وحقائق غيبية؛ كالألوهية وصفاتها ، والنُّبوَّةِ وأحكامها ، والغيب والوحي ، والجنة والنار ، إلى غير ذلك أصبحت هذه الحقائق موضوع البحثِ والجدال ، وحديثَ النوادي والمجالس ، واتَّجهتِ

---

(١) هو أبو المجد ابن آدم السنائي الشاعر الصوفي المشهور كان معاصراً لبهرام شاه الغزنوي توفي سنة ٥٢٥هـ.

(٢) ولد سنة ٥١٣ وتوفي ٦٢٧هـ وكان معاصراً لخوارزم شاه.

النفوس إلى التشكك فيها أو نفيها ، وظهر في الأوساط العلمية الاضطرابُ في العقيدة ، كان ذلك موضوع «المثنوي» والقُطْبَ الذي يدور حوله .

لقد عاش جلال الدين في وَسَطِ الأشاعرة ومدرستهم الفكرية ، وكان قبل أن يُقابل شمس الدين أستاذاً كبيراً وعالماً جدلياً؛ ولكن بعد ما جذبته الجاذبة الربانية ، وانتقل من القِيل والقال ، إلى حقيقة الحال ، ومن الخَبَر إلى النَّظر ، ومن الألفاظ إلى المعاني ، وبَطِل عنه سِحر المصطلحات والتعريفات التي يتبجَّح بها المنطق ، ووصلَ إلى لُبِّ اللباب وغاية ما في الباب؛ انكشفتْ له مواضعُ غلطهم في الاستدلال والقياس والاعتماد في تقريرها أو نفيها على العقل والحواس ، وعرف أنَّ بضاعَتَهُم مُزْجاةٌ في هذا الموضوع ، وَمِن هنا تناول علم الكلام والفلسفة بالنَّقد والتزييف .

نَقْدُه للاعتماد على الحَواسّ في تَقرير الحقائق الدينية:

لقد كان أكبرَ اعتماد الفلسفة والعقليات في هذا العصر على الحَواسِّ الظاهرة ، وقد كانتِ الحواس الخمسُ تُعْتَبَرُ الميزانَ الصحيح لثبوت «الحقائق» ، وكانت تُعتبر أوثقَ مصدر وأقواهُ لحصولِ العلم الصحيح واليقين ، وقد كان «المثقَّفون» ـ كما ذكرنا ـ يميلون إلى نَفْيِ كل ما لا يُدرك بالحواس الخمس ولا يأتي تحتَ الحِسِّ ، ويُسْرعون إلى إنكاره ، ويتحاشون تَقريره والاعتراف به ، وكانت هي النزعة السائدة في المدارس والمجالس .

وقد كان المعتزلةُ ـ ومن نحا نحوَهم ـ أكبرَ الدعاة إلى هذه الفكرة التي نُسميها «الحِسِّيَّة» وقد أضعفتْ هذه الفكرةُ الإيمانَ بالغيب، وضَعُفَتْ بتأثيرها الثقةُ بالحقائق الغيبية التي جاءت بها الشرائع ، وألَحَّتْ عليها الأديانُ السماوية .

وقد انتقدَ جلال الدين هذه النَّزْعة وأنصارها في «مَثْنويه» بقوة وصراحة ، يقول في موضع :

إنَّ «الحِسِّيَّةِ» : (الاعتماد على الحواس في تقرير الحقائق الدينية) يتزعمها

المعتزلةُ ، وهم عبيد مسخَّرون لها ، ويزعمون أنَّهم من أهل السنة ؛ ولكن أهل السنة لا يَتَقَيَّدون بهذه الحواس ، ولا يعكُفون عليها عبادةً وخضوعاً»[١].

إنَّه يُقَرِّرُ؛ أنَّ هناك حواسَّ باطنية وراء هذه الحواس الظاهرة ، كنسبةِ التراب والخزَف إلى الذهب الخالص والتِّبر المسبوك. ويقول: «إن الحَواسَّ الظاهرة تستمدُّ غِذاءها وقُوَّتها من النفوس والأشباح ، أما الحواسُّ الباطنية ، فإنها تستمدُّ غذاءها وقُوَّتها من النفوس والأرواح ، وإنَّ قُوتَ الأولىٰ الظلامُ الذي فُطِرتْ عليه الأجسام ، وقُوت الآخرة ـ الحواس الباطنة ـ النورُ الذي فُطِرتْ عليه الأرواح والقلوب»[٢].

إنَّه يُقرِّر أنَّه لا يكفي لنفي شيء أنه لا يُرىٰ بالأبصار ، ولا يُدرَك بالحواس. إن الباطن دائماً كامِنٌ وراء الظاهر ، ومُضْمَرٌ فيه ، كالفائدة في الدواء. يقول: «إن المُنْكِرَ يقولُ دائماً: إني لا أرىٰ إلا الظاهر ، والظاهرُ دائماً يُخْبِرُ بالحكم المُضْمَرَةِ ، ألا ترىٰ إلى الأدوية النافعة كيف كَمُنَ فيها فائدتُها وتأثيرها ؟»[٣].

يقول: «إنَّ الذين اعتمدوا على حواسِّهم الظاهرة واقتصروا عليها ، وأنكروا كل ما عداها، ضيَّعوا حواسَّهم الباطنة ، وفقدوا قُوَاهم ومواهبهم التي مَنحهُم الله إيَّاها وأصبحوا محجوبين عُمياناً ، لا يمشون إلا بعُكَّازة أو بقائد يَقُودهم ، وأصبح كثيرٌ من الحقائق والدقائق مستورةً عنهم»[٤].

وَظيفةُ العَقلِ وحُدوده:

إنَّه لا يَقتصِر ـ في نقده ـ على الحواس الظاهرة ، ولا يُقرِّر قصورها وعَجزها عنِ الوصول إلى الحقائق الغيبية فحسب ، بل يشرك معها العقل

---

(١) المثنوي: طبع لكهنؤ ص ١٠١.
(٢) المصدر السابق: ص ١٠١.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦٨.
(٤) المصدر السابق: ص٢٣٢.

أيضاً ، ويقرر أنه عاجز عن الوصول إلى حقائق عالم الغيب ، وعلوم الأنبياء؛ لأنه لا يملك أساساً وقاعدةً للقياس في هذه المعلومات ، ولا عهدَ له بهذا العالَم الفسيح ـ عالَم الغيب وعالَم ما بعد الطبيعة فمثله كَمَثَلِ رجلٍ وُلد وعاش في البحر المالح ، وليستْ عنده أية فكرة ولا تقدير للماء العَذْبِ الفُراتِ؛ يقول في تَهَكُّم: «يا من يعيش في البحر المالح ماذا تعرف عنِ الشَّطِّ وجَيحونَ والفُرات؟» (١).

إنَّـه يُسمِّي العقل الذي قيَّد نفسه بالمحسوسات والمقدمات المنطقية بـ: «العقل الجزئي المحدود؛ وهو عقلٌ ثَمَرتُهُ الأوهام والشكوك ، ووطنه عالمُ الظلمات ، إنه عقل كان عاراً للعقل ، وسُبَّةً للعاقلِ ، والجهلُ أفضل من هذا العقل ، ويُفضِّل أن يتحرَّر الإنسان من أسرِه ويُحكِّم عاطفته وقلبَه ولو سماه الناس مجنوناً» (٢).

ويقولُ: «لقد جَرَّبْتُ طويلاً هذا العقل المحدود الذي لا يُبصر إلا المحسوسَ ولا يَعقل إلا الظاهر ، الذي يُسميه الناس «العقل الحكيم البعيد النظر». ومَن جرَّب تجربتي ثارَ مثلي على هذا العقل، وفضَّل الانطلاق من قُيوده والخروجَ من حدوده» (٣).

«ولو كان هذا العقلُ كافياً في معرفة الحقائق الدينية لكان فخرُ الدين الرازي ـ زعيم المتكلِّمين ـ أكبرَ العارفين، والغوَّاصَ في أعماق الدين (٤)؛ ولكنَّ الأمر ليس كذلك ، فتفوُّقه في معرفة حقيقة الدين كان من تَشبُّعِه بالإيمان واليقين.

«أولئك أصحابُ محمد ﷺ أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقُهم علماً ، وأقلُّهم

---

(١) المثنوي: ص ٩٦١.
(٢) المصدر السابق: ص ١٥٢.
(٣) المصدر السابق: ص ٤٨٩.
(٤) المصدر السابق: ص ٤٨٩.

تكلُّفاً» [١] ولم يقرؤوا كتابَ حكمة ، ولم يتلقَّوا درسَ فلسفة [٢] .

الاستدلالُ الفلسفي رِجلٌ خشبية:

إنَّه يعتقدُ أنَّ العلوم التي اصطنعها الإنسانُ والحكمة التي نُسِبت إلى اليونان ، لا تزيدُ الإنسانَ إلا بعداً عن الحقائق واشتغالاً عن الخالق ولا تُفيد إلا «الجهل المركَّب» ، وغروراً وصَلَفاً وإعجاباً بالنفس ، وإدلالاً بالألفاظ والقُشور؛ فمن كان حريصاً على سعادته فليَزْهد في هذه الفلسفة التي سماها الناس ـ عن جَهْلٍ ـ حكمةً؛ فإن كُلَّ فلسفة هي وليدة الخيال ولم تَتنوَّر بنور ذي الجلال ، تُولِّد الظَّنَّ والشك ، وتَحْجُبُ عن الرَّبِّ ، أما الحكمة التي تُتَلَقَّىٰ عن الأنبياء؛ فإنها هي الحكمة التي من أُوتِيَها فقد أُوتِيَ خَيْراً كثيراً [٣] .

ويُقَرِّر أن الاستدلال المنطقيَّ والفَلسَفي ، وترتيبَ المقدمات والبراهين، واستخراجَ النتائج طريقةٌ مصطنعةٌ لا تفي بكل غَرض ، ولا تُفيد في كل موضوع ، ولا تُساير كل سالك ، إنها أسلوب ضَيق محدود ، ومن اعتادها وتقيَّد بها وعاش عليها ، كان كمن كانت له رِجلٌ من خشب لا تمشي بحُرية ، ولا تنعطف بسهولة ، وقد ذهبَ قوله مثلاً «إن رِجْل أصحاب الاستدلال المنطقي مِنْ خشب ، وإن الرِّجْل الخشبية صُلبةٌ خشبية لا مُرونة فيها ولا تمكين» [٤] .

ويقولُ: «إنَّ كلام هؤلاء المقلِّدين ، الذين يُردِّدون دلائل الفلاسفة والمنطقيين كالببغاوات ، ويستدلون استدلالهم ، كلامٌ جافٌ ميِّتٌ لا روح فيه ولا حياة ، ولا تأثيرَ فيه ولا جمال؛ لأنه يصدُر عن قلبٍ

(١) جملة مأثورة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وصف بها الصحابة رضي الله عنهم [مشكاة المصابيح (١/ ٣٢)].

(٢) المثنوي: ص ٤٨٩ .

(٣) المصدر السابق: ص ١٧١ .

(٤) المصدر السابق: ص ٥٥ .

ميتٍ ، وكيف يُؤثِّر ويُثمر كلامٌ ميِّتٌ يَصْدُرُ عَنْ مَيِّتٍ [١]؟!».

العَقلُ الإيمانيُّ:

ويعتقد جلالُ الدين أنَّ هنالك عقلاً إيمانياً ، هو نبراس ودليل العقل الجسماني ، وهو مرشد هذا العقل «الجزئي المحدود» وقائدُه ، ويرشدهُ ويبصره الطريق ، كما أنَّ هذا العقل «الجزئي المحدود» ـ مرشدُ الجسم وقائده ـ ، يقضي حاجاته ويخدُمه في أغراضه المادية ، ويَصحُّ أن يُسَمَّىٰ هذا العقل الإيماني «عقلَ العقلِ» لأن العقل يمشي بنُوره ويُبصر بعينه ، ولا يُرزقُ هذا العقل الإيماني إلا المؤمنُ [٢]؛ وإذا كان هذا العقلُ الجسمانيُّ قد سوَّد الأوراق [٣] ، فالعَقْلُ الإيماني قد نوَّر الآفاق ، وبزغَ نورُه على القلوب والأرواح [٤].

«إنَّ العقل الإيمانيَّ هو خفيرُ ركب الحياة ، وكصاحبِ شُرطة البلد ، يحكم بالعدل ويُقيم الموازين القسط ، ويَردعُ الظالمَ ويَنْصُرُ المظلوم ، ويحافظ على النظام ، ويَقهر النفسَ عن شهواتها الجامحة ، ونَزَوَاتها العاتية» [٥].

«أمَّا العقلُ الجسمانيُّ فإنه يُزيِّن الآثام ، ويُثَبِّطُ عن معالي الأمور ، ويَعِدُ صَاحبه الفقرَ ، ويُهوِّل له الأمر [٦] ، وإنَّ العقل الإيماني يَحُلُّ عُقَدَ العقل الجسماني ، ويُنْجِده في المشاكل والأزمات ويَفتح له الأقفالَ المُعقَّدة ، ويُحَقِّقُ له ما أعياه أمرُه بكل سُهولةٍ وسرعةٍ» [٧].

«إنَّ الفلسفيَّ يتحدَّث عن «المعقولات» التافهة التي لا قيمةَ لها ،

---

(١) المثنوي: ص ٤٤٩.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٤٦.
(٣) يشير إلى أنه كوَّن مكتبة ضخمة من الفلسفة والعلوم.
(٤) المصدر السابق: ص ٢٤٦.
(٥) المصدر السابق: ص ٣٤٧.
(٦) المصدر السابق: ص ٣٤٧.
(٧) المصدر السابق: ص ٢٣.

لا يتجاوزها ولا يعرف غيرها ، لأنَّ عقله لم يخرجْ من الباب ، ولم يعرِف العالَم الفَسيح وما خَلقَ اللهُ فيه من عجائبَ وبدائعَ ، إنَّ عقله طفلٌ رضيعٌ لم يبلغ سنَّ الرُّشد وإن زَهْرَة فِكْرِهِ مكمومةٌ لم تتفتَّح» [١] .

جَهلٌ للنَّفس وغَفلَةٌ عن غَايَة الحياة:

«إنَّ الفلسفيَّ إنما جنىٰ عليه عقلُه وفكره ، وهو ذلك المسافر الشَّقيُّ الذي ظَهْرُه إلى غايته؛ فَكُلَّما أمعن في السفر وجدَّ به السير ازداد بُعداً عن المنزل ، وحُرِم الوصول» [٢] .

«إنَّ الفلسفيَّ قد أحاط بعلم الكائنات ، وجمعَ ثروة هائلة من المعلومات ، ولكنه لا يزال يَجْهَلُ نفسه ، إنه يعرف خاصِّيَّة كل «جوهر» و«عرَضٍ» ولكنه في معرفةِ نفسه وقيمتها أجهلُ وأضلُّ من حمار أهله. إنه يعرف قيمةَ كل شيء؛ ولكنه لا يعرف قيمة نفسه ، مع أن روح العِلم وجوهَرَ المعرفة ولُباب الحكمة أن يعرفَ الرَّجل قيمةَ نفسه وغايةَ خَلقه ، وموقفه من خالقه ومن هذا العالم ومصيره بعد الممات» [٣] .

دَعْوَةٌ إلى الحِكْمة الإيمانيـة:

وبَعد هذا النَّقد المرير والعِتاب الصريح ، يَدعو المشتغلين بالفلسفة وعلم الكلام دعوةً مخلصة إلى دراسة الحكمة الإيمانية والاستفادة منها ، يقول زاجراً ناصحاً: «إلى متىٰ العُكوف على الفلسفة اليونانية والحكمة المادية؟ دونكم الحكمة الإيمانية التي يَحويها كلام الأنبياء ، وتُوجَدُ عند خلفائهم والعلماء الربانيين ، فادرسوها وفكِّروا فيها» [٤] .

---

(١) المثنوي: ص ٨٢.
(٢) المصدر السابق: ص ٥٤٤ .
(٣) المصدر السابق: ص ٤٤٩ .
(٤) المصدر السابق: ص ٨٦.

ويقول: «إنَّ المعرفة الصحيحة لا تتأتّىٰ إلا بتزكية النفس؛ فإذا تجرَّد لَوْحُ القلب عن نُقوش العلوم المرسومة وصَفَا، تجلَّت فيه الحكمةُ الإيمانية، ووردتْ عليه علُومُ الأنبياء الصحيحة، وجَرتْ على لسانه ينابيع الحكمة».

يقول: «جَرِّدْ نَفسَك من صفاتك حتىٰ تُشاهدَ نفسَك وحقيقتها، إنك ترىٰ في قَلْبِكَ عُلُومَ الأنبياء من غير كتاب ومُعلم ومُعيد [1]، فإن المرآة كُلَّما صَفَتْ تجلَّتْ فيها الأنوار، وإذا تفتَّحتْ نافذةُ نفسك دخلَ منها النور الإلٰهي من غيرِ واسطة ومن غيرِ حجاب».

المبَاحثُ الكلامية وأسلُوب «المَثْنَويّ» فيها:

ولم يَقْتَصِر جلالُ الدين على النَّقد الإجمالي للتفكير الفلسفي ومَنْهج علم الكلام وخُضوعه للظاهر، ولم يقتصرْ على التَّنويه بالحواس الباطنة والاهتمام بالوجدان والروح؛ بل بَحث في المباحث الكلامية ومُعضلاتها بأسلوبٍ طريفٍ بديع، وعرَض مُهمَّات مسائلها عرضاً جميلاً يقبَلُه القلب، ويُسيغه الذوق السلَيم، ويَعْتَقِدُ السامع والقارىء أنَّها شيءٌ بَدَهيٌّ، وحقيقةٌ من الحقائق المعلومة لا تعقُّدَ فيها ولا غموض، ولا جفافَ فيها ولا عُبوسَ؛ فالمسائل التي تَتعب فيها الفلسفة كأنما تصَّعَّد في السماء، وتَقْبض على الهواء، تتراءىٰ في شِعْره كالماء الزلال.

وهو لا يحرص ـ كالفلاسفة والمتكلِّمين ـ على أن يُعجز مخاطبه بالدلائل الطويلة العريضة، والمقدمات المرصوفة المنسَّقة، ويُفخِّمُها، بل يحرص على أن يَقْبَلَها قَلْبُه كأنه شيء محقق، وكأنه يُعَبِّرُ عن خواطره وأفكارِهِ.

لذلك كان «المثنويُّ» العظيمُ مصدرَ إيمانٍ جديد وإذعان مزيد في كل عصر، تَنشرح بقراءته الصدورُ الحرجة، وتَطْمئِنُّ بدراسته العقول المضطربة، ويَجِدُ فيه كثير من القراء حَلاً لمعضلاتهم، وشفاءً لدائهم، وهو من هذه

---

(١) المثنوي: ص ٨٦.

الناحية مؤسِّسُ علمٍ جديدٍ. وإذا كان لابدَّ من مصطلح الفلسفة فهو مؤسِّس فلسفة جديدة ، وهو في ذلك إمامٌ مجتهد من أئمة الكلام ، لا يُقلِّد ولا يتبعُ إلا القرآن الحكيم ، ولا يستوحي إلا فطرته السليمة.

وُجود الفاطِر الحَكِيم ودلائِلُه:

فهو في إثبات وجود الله تعالىٰ مثلاً لا يَتَّبع الطرق الفلسفية والمناهج الكلامية المعروفة؛ بل يتَّبع القرآن الحكيم في الاستدلال بالمصنوع على الصانع ، والمتحرِّك على المُحَرِّك ، ويضرب لذلك الأمثال الحكيمة ، ويُثير في الإنسان الفطرةَ السليمة التي تأبىٰ وُجود مصنوع من غير صانع ، ومُتحرِّك من غير مُحَرِّك ، ومتأثِّر من غير مُؤثِّرٍ ، ويقول في بساطةٍ وَثِقَةٍ:

«إنَّك ترىٰ قلماً كاتباً ، واليَدُ التي تُحرِّكه من ورائه مَخْفيَّةٌ ، وترى جواداً يَعدو ، ولا ترىٰ فارساً ، السَّهمُ يُصيبُ غرضه ، والقوس غَائبةٌ عن العيون ، النُّفوس موجودة وبارئها ومصدر وجُودها وحياتها مستورٌ ، لا يُرىٰ بالأبصار [1] ، ولكن أليس الحركة دليلاً على المحَرِّك؟ إذا سمعْتَ صريراً للهواء وخريراً للماء ألا تستدل بذلك على وُجود الهواء والماء؟ إذا رأيت هواءً يَهُبُّ ، والأوراق تَهفّ ، والأغصان تَهْتَزُّ ، فاعلم يقيناً أنَّ هنالك من يُحرِّكُ الهواء ، فإنَّ مع كل مُتحرِّك مُحرِّكاً [2].

وإذا عجَزتَ أن ترىٰ المؤثر فإنك لا تعجز عن أن ترىٰ الآثار؛ فاستدلَّ بها على وجود المؤثر.

وإذا رأيت جسماً يتحرَّك ويعيشُ ، فإنك ـ ولو لم تَرَ الروح في حياتك ـ تُبرهن به على وُجُود الروح التي هي مصدر الحركة والحياة في الجسم [3] ،

---

(١) المثنوي: ص ٣٠٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٥.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٥.

وهل لوجُود الشمس دليلٌ أكبر وأقوىٰ من نورها الساطع وضيائها الباهر ؟» [١].

وليس هذا الكونُ موجوداً فحسب؛ بل هو في غاية النظام والانتظام ، كل شيء فيه في مَحلِّه اللائق ، وكل شيء خُلق بقدر ، ولكل شيء نظام مرسوم لا يتجاوزه ولا يخالفه؛ فالكواكب لها نظام ، والشمس والقمر لهما نظام ، وليس الهواء والسحاب كالفيل الهائج والناقة العشواء لانظامَ لهما ولا قيدَ؛ بل كلٌّ خاضع لنظام ، خاضع للأحكام ، فلا تمرُّد ولا عصيان ، ولا فوضىٰ ولا طغيان ، ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] ، ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] .

يقول: «إن فاتك أن ترىٰ الأمرَ الإلٰهي والتدبير السماوي بعينيك ، فانظر في نظام الكون؛ فالشمسُ والقمرُ نوران مسخرانِ يدورانِ ولا يتوقَّفان ، ويُطيعان ولا يعصيان ، والكواكبُ لها دوائر مخصوصة ومجالاتٌ مرسومة ، والسحابُ له سَوْطٌ من نار ، يُنظِّم سيرهُ ويأمره وينهاه ، يأمرُه بأن يَسقي الوادي الفلاني ، وَيَتركَ الوادي الفلاني ، وَيُنبِّهه إذا غفا» [٢] .

غَايـةُ الخَـلق:

ثم يُقرِّر أنَّ الله لم يخلق هذا الكون ، ولم يخلق هذا الخلق لفائدة تعود عليه؛ إنما خَلَقه لفائدة الإنسان نفسه ، ولِيَبْلُغَ كماله المطلوب ، ويَستخدِم قواه ويستعملَ مواهبه ، يقول:

قال الأنبياءُ: إنَّ اللهَ يقول: غايتي في الخَلقِ الإحسانُ إليهم والمَنُّ عليهم ، إنَّما خَلَقْتُهُم لِيَـنْـتَفِعُوا بي ويَنتفعوا بخيراتي ونِعمتي ، لم أَخْلُقْهم لأنتفعَ بهم

(١) المثنوي: ص ٣٠٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٥١٣.

وأقضيَ بهم حاجة لنفسي ، إنما خلقتُهم إفاضةً للوجود ، وإظهاراً للسخاءِ والجود» (١).

النُّبوَّة والأنبياء:

إنه يَدَعُ الأنبياء ـ عليهم صلوات اللهِ وسلامه ـ يُعرِّفون نفوسهم بأنفسهم ، يقول على لسانهم «نحنُ أطباء الروح ، تلاميذُ الرحمن ، انفلقتْ لنا البحار ، وتفجَّرت لنا العُيُون من الأحجار ، إنَّ أطباء الجسم يَجُسُّون النَّبضَ ، ويتعرَّفون المرض ، ولكننا ننظر بنور الله ، ونتكلَّم بوحي الله ، أولئك أطباء الغذاء والثمار ، يعرفون منافع الأغذية والأدوية ومضارَّها وتأثيرها في جسم الإنسان ، أما نحنُ فأطباءُ الأقوال والأفعال ، والعقائد والأخلاق ، نُخبر الخلق بعواقب الأعمال والأخلاق وتأثيرها في الحياة ونتيجتها بعد الممات ، ونقول: إذا عملتَ كذا سَعدتَ ونَجوتَ ، وإذا عملت كذا شَقيتَ وهَلَكْتَ ، وإن الخُلق الفلاني دواءٌ نافع ، وإنَّ الخلُق الفلاني سُمٌّ ناقع ، إن العقيدة الفلانية مُسعِدة مُنجية ، وإن العقيدة الفلانية مُهلكة مُرديةٌ ، إن دليلَ أطباء الجسم الرائحةُ واللونُ والطعمُ ، أما دليلنا فكلام الله وأعلامُه وإلهامُه» (٢).

النَّبيُّ مُعجِزَةٌ كامِلَةٌ وبُرهانٌ على نبُوَّته:

ولا يستدلُّ جلال الدين على صدقِ نبوَّة الأنبياء بالدلائل الخارجية والمعجزات والبراهين الكلامية ؛ إنَّه يقول:

«إنَّ كلَّ شيء في النبي ﷺ يَدل على أنه نبيٌّ مرسلٌ من اللهِ ، إنه يكون في سيرته وخلقه وشمائله ومخايله معجزةً كاملةً وبُرهاناً صادقاً على نبوته ؛ ولذلك لما وقع بصر عبد الله بن سلام ـ عالِم اليهود ـ على وجه الرسول هتف قائلاً: «واللهِ ليسَ هذا بوجْهِ كذَّاب».

---

(١) المثنوي: ص ١٥٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٥٠.

«إنَّ كل من رُزق العقل السليم والطبع المستقيم شعر بالإعجاز في صوت النبي ووجهه ، ولم يحتجْ بعد ذلك إلى دليل وبرهان» .

بين النَّبيِّ ﷺ وضميرِ الأمَّة مناسَبة وصلةٌ:

ثم يُقرِّر أنَّ بين النبي ﷺ وضمير أمته مناسبةٌ خفيةٌ وصلةٌ روحيةٌ؛ فلا يتكلم النبيُّ بشيء إلا وأسرع ضميرُ المستمعين الأصحاء من أمته إلى تصديقه وإجابته ، ويهتز لسماعه ويطرب؛ لأنه صوتٌ بريء لا يتطرَّق إليه الشك ، وصوتٌ غريب لم يطرُق الآذان من قبلُ ، وليس بينه وبين أصوات الخلق وما ألِفَهُ العالم من أدبٍ وفلسفة وعلم مُشابَهةٌ يقول:

«إذا رفعَ النبيُّ صوته بالأذان ودعا إلى اللهِ سجدتْ له أرواحُ أمته وطَرِبَتْ؛ لأن هذا النداء لم تسمَعْهُ الآذان من قبل؛ فلا يعلو هذا الصوتُ الغريب إلا وأسرعَ السعداءُ إلى إجابته قائلين: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣] »[١] .

ويقول: «إنَّ المؤمن ليسَ بحاجة إلى دليل خارجي على صِدق النبي إذا كان صحيحَ المزاج مُستقيم الطبع؛ إنَّ دليله في نفسِ المستمع ، وعلى ذلك يقوم نظام الحياة .

فهل إذا دعوتَ عطشانَ إلى الماء وقلتَ له إنَّ في هذا القدح ماءً ، هل يقول لك: أين الدليل؟ وكيف أؤمن بدعوتك وأصدق كلامك؟

وهل إذا دَعتِ الأمُّ الحنون طفلَها الرَّضيع ليرتضع من ثديها ، قال الطفل: هاتي الدليل يا أمي حتىٰ أروي نفسي وأشبعها؟ إنَّ وجود العطش في نفس العطشان وَوجُود الجوع في الرضيع ، ووجود الإخلاص في الداعي لكفيلٌ بالتصديق مُغْنٍ عن كلِّ دليلٍ»[٢] .

---

(١) المثنوي: ص١٨٠ .

(٢) المصدر السابق: ص١٨٠ .

ويَعتقِد مولانا جلال الدين: أنَّ المعجزات لا تُوجب الإيمان؟ لأنها لقَهر العدو وإسكات الخصم وإعجاز العنيد.

إنَّ الذي يُولِّد الإيمان في القلب ويُخْضِع الإنسان للمحبة والطاعة هو المجانسة والمناسبة الروحية، إنَّ المعجزة تَـقْـهَرُ، والمقهُور لا ينشرح صدره، ولا يَـتَفتَّحُ قلبه» [١].

ويَذْكُرُ من صفات الأنبياء وخصائصهم الأنفة والإباء والغيرة، فلا بدَّ للاستفادة منهم من الخضوع والأدب والتذلُّل، يُريدون حسن الاستماع وتمام الالتفات، فيهم عِزة الملوك وإباؤُهم وكبرياؤهم، شأنُهم أن يتكلَّموا ويستمع الجميع، ويأمروا ويُطيعَ الجميع، فمن أخلَّ بالأدبِ معهم حُرم الاستفادة منهم، وشَقي» [٢].

وقال: «كيف تستغرب هذا الخضوع لهم والأدب معهم وقد جاؤوا من محل رفيع، وحملوا رسالةً من العليِّ الكبير؟» [٣].

الحِكمة في المعَاد وحَشرِ الأجساد:

أمَّا المعاد وحشرُ الأجساد، فإنَّ جلال الدين ينظر إليه بغير النظر الذي ينظر به إليه عامة الناس، إنه ليس متشائماً ينظر إلى الموت بالمنظار الأسود، إنه لا يعتبرهُ نهايةً لحياة سعيدة ثمينة عزيزة؛ بل بالعكس من ذلك، يعتبرُه مقدِّمة لحياةٍ خالدةٍ باقيةٍ، وعيشةٍ سعيدةٍ راضيةٍ، ومقدِّمةٍ لرقيٍّ دائمٍ وازدهارٍ مستمرٍّ، إنَّ العمران لا يكون إلا بعد الخراب، وإنَّ الرِّكاز أو الكنز الثمين لا يُعثر عليه ولا يُستخرج إلا بعد حفر الأرض وإثارتها، فإذا رأيتَ بيتاً يُهدم ويخرب، فاعلم أنَّ هناك تصميماً جديداً وبناءً جديداً، كذلك الملك

(١) المثنوي: ص ٥١٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٢١٧.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٢.

يخرب الأجسام ليعمرها ويَبنيها بنـاءً جديداً ، إنما يُخرب البيت ليستَخرج منه الكنز الدَّفين ، ويُعمر عمارةً جديدة» [١] .

إنَّ الشجرة لا تُعطي الأثمار حتىٰ تتفتَّح وتَسقطَ الأزهار ، كذلك الروح لا تقوىٰ ولا تجدَّ ولا تَلبِسَ كِسوة جديدة قشيبة حتىٰ يتهدَّم الجسم الفاني ، ويَخلع العُمُرَ البالي [٢] .

إنَّ الله ـ وهو الجواد المطلق ـ لا يسلبُ نعمة أنعم بها إلا ويُعطي نِعمةً أكبَرَ منها؛ فلا يَسلبُ هذه الحياة الضعيفة السقيمة ، التي لا تَستحقُّ أن تُسمَّىٰ الحياة الباقية ، إلا ويعطي حياةً أوسع منها وأبقىٰ؛ وأجملَ وأفضل؛ فمن رأىٰ هذا الملك الكريم يقتل أحداً من مُقَرَّبيه ، فليعلم أنه يَخْلَعُ عليـه خِلَعاً سنيـة ، ويُعطيـه ما لا عيـنٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ ، ولا خطر على قلب بشرٍ» [٣] .

ويقولُ في شرح وتفصيل: «إنَّ كُلَّ بناء يسبِقُه خَراب وكل إثبات يسبقه مَحْو؛ إن الكاتب إذا أراد أن يكتبَ على لوحٍ محا النقوش السابقة والكتابات الماضية ، وإذا أراد الإنسان أن يستخرج الماءَ أثار الأرض وحفرها ، إذا أراد الزارعُ أن يزرع اختار للفلاحة أرضاً لا زَرْعَ فيها ولا نبات ، وكلما كان الفناء أتمَّ ، والمحوُ أقوىٰ؛ كان الإثبات أكثرَ وأبقىٰ» .

ويقولُ في بلاغةٍ وحكمةٍ: «إنَّ الفقرَ التام أجلبُ لصفة الجود ، إن الأغنياء والأسخياء؛ تَرِقُّ قلوبهم ، ويجيش جُودهم على الفقراء الذين لا يملكون شيئاً» .

لا داعيَ إلى الإشفاق من الموت:

ويقولُ: «لماذا هذا الإشفاقُ من الموت؟ ولماذا هذا الفِرارُ من الأجل؟ إنك

---

(١) المثنوي: ص ٢٧١ .

(٢) المصدر السابق: ص٤٧ .

(٣) المصدر السابق: ص١٠ .

لم تزلْ في انتقالٍ من مرحلةٍ إلى مرحلة ، ومن عَدَم إلى وجود ، ثم من وُجود إلى عدم ، ولم تزل تخلع لباساً وتلبس لباساً حتىٰ وصلت من العناصر الأربعة إلى القالب الإنساني؛ فإذا تَشَبَّثْتَ بحالة وعضَضْتَ عليها بالنواجذ ، وأصررْتَ على أن تبقىٰ فيها ، وأبيتَ الانتقال منها إلى حالة أخرىٰ ، بَقِيْتَ على بدايتك ، ولم تصل إلى أوج الإنسانية وقِمة الكمالات العلمية والروحانية. إنك لم تَنَل البقاء إلا عن طريق الفَناء؛ فلماذا تَفرُّ يا هذا من الفناء الجديد الذي هو مُقدّمة للبقاء الجديد المزيد ، ولماذا تتشبَّثُ بهذه الحياة وتلتصق بها ، مع أنها تخلفُ حياة لا زوال لها ولا خوفَ فيها ولا حزن؟!(١).

ويقول: «تحقَّقتُ أن الموت كائن في هذه الحياة ، فإذا فارق الإنسان هذه الحياة نالَ الحياة الخالدة التي لا موت فيها»(٢).

ويقولُ: «إنَّ هنالك فرقاً بين مَوْتٍ وموت؛ فالعارفون لا يُقاس موتهم على موت الجُهلاء والعامة ، إن العارفين لا يتوجعون ولا يحزنون لمفارقتهم هذه الدنيا الفانية ، ويستقبلون الموت مسرورين فرحين ، إنَّ الموت في حقهم نفحةُ حياة ، ورسالة فوز ونجاة ، لقد كانت الريح التي أرسلها الله على أمةِ هودٍ لفحةً وجحيماً على الكافرين ، ونفحةً ونعيماً على المؤمنين ، كذلك الموتُ للكفار سموم وبلاء ، وحرمان وشقاء ، وللمؤمنين نَسيم عليل ، وهَواء بليل ، وكوثر وسَلسبيل»(٣).

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٤].

(١) المثنوي: ص٤١٠.
(٢) المصدر السابق: ص٢٧٦.
(٣) المصدر السابق: ص٢٥.

الجَبْر والاختيار:

إنَّ الجبر والاختيار من المسائل المُهمَّة العويصة التي شغلت حيزاً كبيراً من كُتب علم الكلام ، وذهبتْ فرقة إلى نفي الاختيار المطلق وإثبات الجبْر المحض ، وسُمِّيت في تاريخ الملل والنحل بالجَبرية ، يردُّ عليها جلالُ الدين رداً واضحاً معقولاً ، يقول:

«لو كان الجَبْرُ ، لما توجَّه الأمر والنهي إلى الإنسان ، وما كُلف الإنسان بالشرائع والأحكام ، فهل سُمع إنسانٌ يأمرُ حَجَراً وينهاه» ويقول: «إن القرآن كلَّه أمرٌ ونهيٌ ووعيدٌ ، ولم نسمع عاقلاً يأمر الرُّخام أو يَنهى الحديد» (١) .

عَقيدةُ الاختيار في الإنسان والحَيوان:

يقولُ: «إنَّ الإنسان مفطورٌ على عقيدة الاختيار ، وهو يمثل هذه العقيدة ويطبقها في حياته اليومية ، ويُقرر بعمله وسلوكه الاختيار ، ويُنكر الجبر ، فلا يعاقب الجماد ، ولا يغضب على الحجر والخشب والسيل والنار والريح ، مهما لحِقه الأذى والعنتُ من هذه الأشياء .

ويتساءلُ: إذا سقط عليك جَذع من السقف وجرحَك جُرحاً شديداً وأدماك ، فهل يثور غضبك على هذا الجذع؟ وإذا عاتَبْتَه ، وقلت له: لماذا كسرت يدي أو أدميتَ رأسي؟

كذلك إذا جاء سَيلٌ أو فيضان وفاض بأثاثِك ومتاعك ، أو هاجتِ الريح وطارت بعمامتك ، اشتعلتَ غضباً على السَّيل أو الريح ، وتصديت لهما بالعتاب أو العقاب؟!» .

أمَّا إذا تعرَّضَ إنسانٌ لإهانتك أو هتْكِ عرضك ، ثُرتَ عليه ، وعاقبته عقاباً شديداً ، فدلَّ ذلك على أنك تُميز بين المجبور والمختار ، وتعتقدُ أن الإنسان

---

(١) المثنوي: ص٤٦١ ـ ٤٧٢ .

صاحبُ اختيار وإرادة ، فتحاسبُه وتعاتِبُه وتعاقبه وتشكوه وتَلُمْه ولا تقبل لهُ عذراً؛ لأنه مخيَّر ليس مجبوراً»[١].

ولا يَقْتَصِرُ جلال الدين على ذلك؛ بل يقرِّر أنَّ الحيوان يعرف ذلك ، ويُميز بين المجبور والمختار ، وتهديه إلى ذلك فطرته ، فإذا ضربتَ كلباً بحجر هجم عليك وأراد أن يَعضَّك ، ولم يُقبل إلى الحجر وينتقم منه ، كذلك إذا ضرب السائق بعيراً هاج البعير ، ولم يثر على الهراوة التي ضُرب بها ، إنما يثور على الجمَّال المُسرف في ضَرْبه ، فعارٌ عليك أيها الإنسان العاقل أن تَنْسُب الجبر إلى الإنسان ، ويَفوقك الحيوانُ غيرُ العاقل في فَهمِ هذه الحقيقة وإدراكها»[٢].

ويقولُ: «إنَّ الإنسانَ لا يَجهلُ هذه الحقيقة؛ لكنه يتعامى عنها لأجل مَصلحته وهواه وشَهوته ، شأنَ الصائم الذي يتحقَّق طلوع الصبح الصادق؛ لكنه يصرف وجهَه عن النُّور ويُغلق عليه الباب فيستمر في التَّسحُّر والأكل والشُّرب»[٣].

العلّة والمَعلول:

وَقَعتْ فرقٌ إسلاميةٌ في مسألة الأسباب والعلل في إفراط وتفريط ، فمذهبُ الحكماء أن العالم خاضعٌ خضوعاً تاماً لسلسلة العِلة والمعلول ، والمعلولُ لا يتخلَّف أبداً عن العلة ، والمسبَّب لا ينفكُّ حيناً عن السَّبب.

ويميلُ المعتزلةُ إلى هذا الرأي فإذا قرروا عِلَّة لشيء ، أو اعتقدوا خاصيَّة وتأثيراً في شيء ، رأوا ذلك ضربَة لازب لا يقعُ خلافه إلا في نادر النادر ، ولذلك تراهم يستبعدون وقوعَ شيء خلاف خاصته ، ووقوع حادثة من غير سبب ، ويجتهدون في تعليل ما ثبت في القرآن والحديث ، وتواتَر نقلُه من المعجزات والخوارق ، وردها إلى الأسباب العادية والعِلَل الطبيعية ، فإذا

---

(١) المثنوي: ص٤٦٣.

(٢) المصدر السابق: ص٤٦٣.

(٣) المصدر السابق: ٤٢٧.

أخفقوا في ذلك ـ وهو نادرٌ جدّاً ـ اعترفوا بالمُعجزة مضطرين.

والأشاعرةُ بالعكس من ذلك على طرف آخر، فيُقرِّرون أنه لا شيء علّةٌ لشيء آخر، ولا خاصّة في شيء ولا تأثيرَ، وقد أضرَّ هذا التطرُّف أيضاً وأحدث فوضى، واستطاع كلٌّ أحد أن يقول ما شاء ويُنكر ما شاء، وتطرّق كثير من الناس من هذا إلى إنكار الأسباب ورفضها، والتعطُّل والبطالة.

الأسبابُ حَقيقةٌ، ولكنَّ خالقها لم يُعزل ولم يُعطّل:

والشيخ جلال الدين مذْهبه وسَطٌ بين الطرفين؛ فهو يقرِّر أنَّ الأسباب حقيقةٌ، وأنَّ العِلَل والمعلولات والأسباب والمسببات مربوطة بعضُها ببعض، ليس من الإنصاف ولا من المعقول إنكارُها، ولا يمكن ذلك، وسنةُ الله السائرة أن يُخضع المُسببات لأسبابها، ويُظهر من الأشياء خواصَّها؛ ولكنَّ خرق العادة ممكنٌ وواقعٌ؛ فإنَّ الذي خَلق الأسباب وبرأ العلل لم يُعزَل ـ بعدَ خَلْقه الأسبابَ ـ من قُدرته وفعلهِ، إنه لا يزال رَبَّ الأسباب والقادر المطلق. فإذا شاء ترك المسبّبات مرتبطة بأسبابها، خاضعةً لنواميسها وعِلَلها، وذلك هو الغالب الأكثر، وإذا شاء جرَّدها من أسبابها وخَلَقها من غير سببٍ أو خلافَ سَببٍ، وهذا هو الخارق للعادة. يقول:

«إنَّ عامة الأحوال والحوادث على السُّنة الإلٰهية الجارية؛ يَخرقُ هذه العادة ويخالف هذه السُّنة بقدرته ومشيئته أحياناً لأنبيائه وأوليائه، فإذا رأينا الأسباب مؤثرة عاملة في غالب الأحوال، فلا ينبغي لنا أن نعتقدَ أنَّ القُدرة الإلٰهية عاجزة مشلولة، وأن الإرادةَ الإلٰهيةَ معطَّلةٌ معزولةٌ، لا نستطيع عزل المسببات عن أسبابها، وفكَّ المعلولات عن عِلَلِها» [1].

الأسبابُ الباطنة وسَبَب الأسباب:

وليست الأسبابُ مقصورةً على ما عرفناه وجرَّبناه، وعلى ما نشاهده ونعرفه،

---

(١) المثنوي: ص ٤٢٧.

بل هنالك أسباب خفية مستورة عن عيوننا ، وهذه الأسباب الباطنة سَبَبٌ ومحرك للأسباب الظاهرة ، كما أن هذه الأسباب الظاهرة سَبَبٌ ومحرك لمسبّباتها تحرك هذه الأسباب الظاهرة؛ ولكن كثيراً مايجهل السببُ الباطن ، فيلاحظ مثلاً إذا قُدح الزّند بالزند اشتعلت النار؛ فيدرك أن القَدْح سببٌ للشُّعلة؛ ولكن لا يعرف السَّبب الباطن(١) .

وسببُ الأسباب الذي تنتهي إليه ، والسبَبُ الحقيقي الأصيل ، هو الأمر الإلٰهي والإرادة الإلٰهية التي هي فوقَ كل سبب ، وأصلُ كلِّ حادث، ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] .

والأنبياء يعرفون الأسبابَ الباطنة ، ويَروْنَها كما نعرف الأسباب الظاهرة ونراها ، ثم هم يؤمنون بأن السبب الحقيقي الذي تنتهي إليه جميع الأسباب والعلل ، والذي هو مصدر كل حادث وعلم إنما هي الإرادة الإلٰهية.

إنَّهم يشاهدون هذه الإرادة الإلٰهية تتصرف في الكائنات ، وتتحكَّم في هذا العالم ، وتعلو كل إرادة وكل قانون ، وهي التي يخضع لها نظام الكون ، وهي التي تخلق في الأشياء خاصيّتها ، ثم تُجرِّدها منها إذا شاءت ، وتُغير طبائع الأشياء وفطرها ، فتجعل من النار برداً وسلاماً.

ويرون الأسبابَ الظاهرة ضعيفة حقيرة تافهة أمام الأسباب الباطنة ، ثم يَرون الأسباب الباطنة ضعيفة حقيرة تافهة أمام السبب الحقيقي «المشيئة الإلٰهية» ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥] .

وَثَنيَّةُ الأسباب ومحاربةُ الأنبياء لها:

ويُبالِغُ الناسُ قصيرو النظر ـ بتأثير الجاهلية والمادية ـ في تقديس

---

(١) المثنوي: ص٢٥.

الأسباب ، والإيمان بقوتها وتأثيرها ، والتمسُّكِ بها ، والعُكوف عليها ، ويتخذون الأسباب أرباباً من دون الله ، ويتغافلون عن سبب الأسباب ورب الأرباب ، ويعكفُون على عبادة الظواهر والمظاهر.

هنالك يقوم الأنبياءُ يحاربون هذه الوثنية ـ وثنية الأسباب ـ ويَدْعون الناس من الأسباب إلى المسبِّب ، ويُجري الله على أيديهم ـ تنبيهاً وتعليماً ـ حوادث تنتقض بها قوانين الطبيعة ، ويظهر بها ضعفُ الأسباب وعجزها ، وتتجلَّى بها قدرة الله المطلقة ، وإرادتُه الحرة ، ومشيئته القاهرة ، وأنه يملك زمام الكون ، وبيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ ، وهو قادر على كل شيء غيرُ مفتقر إلى الأسباب وغيرُ متقيدٍ بها ، فتنفلق لهمُ البحار ، وتتفجَّر لهم الأنهار من غير الأسباب العادية ، وتنشأ لهم الزروع والحقول من غير زراعة ، ويتحوَّل الرملُ دقيقاً ، والصوف حريراً ، وتنتصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، ويملكُ الفقيرُ الضعيفُ ، ويَهلكُ الغنيُّ القويُّ.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

لا رَهبانية ولا بطالة:

ولكنَّه لا يغلو في ذلك غُلوَّ كثير من المتصوِّفة ، وغُلوَّ الأشاعرة؛ فينكر وجود الأسباب ويدعو إلى رفضها والتجرُّد منها ، والتوكل المفضي إلى البطالة والتعطل والرهبانية؛ بل يقول:

«إنَّ السُّنة الجارية والعادة الغالبة ، هي وجود المسبب من السبب حتى

يَعرف الطالب أهمية السعي والجهاد ، ويأتي البيوت من أبوابها ، ويَطلب الأشياء من معدنها»[(١)].

بل هو يُحارِب البطالة والتعطُّل والرهبانية والتوكُّل السلبي الذي لجأ إليه العاجزون في القرون الأخيرة ، ويدعو دعـوة قويـة إلى الكَدْح والجهاد ، والأخذ بأسباب المعاش ، ويدعو إلى الحياة الاجتماعية ؛ يقول:

«لو لم تكن الحياة الاجتماعيـة مطلوبـة ومفضلـة في الإسلام ، لم يكن الأمر بالجُمعة والجماعة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(٢)].

وكان التوكُّلُ الإسلاميُّ الممدوح عنده هو الاستعداد والأخذ بالاحتياط اللازم، ثم التوكل على الله ، وتفسير قول الرسول ﷺ : «اعقِلها وتوكَّلْ على الله»[(٣)].

دَعـوةٌ إلى الكَـدْح والجِهـاد:

يَحث جلال الدين على الكَسْب والجهد ، وقد ذَكَر مناظرة بين الحيوانات في موضوع التوكل والعمل ، فذكر خير دلائل وجوب العمل والسَّعي على لسان الأسد ، زعيم العاملين المجاهدين في الحيوانات ، فقال:

«إنَّ الله وهَب الإنسان الأعضاء ، والجوارح ، ومواهب وطاقات ، فدل ذلك على أنه يريد منه السعي والجهد ، كما إذا منح سيدٌ عبدَه فأساً أو مِعولاً ، فالظاهر أنه يريد أن يحفر الأرض أو يشق صخرة ، نَطق بذلك أو لم ينطق ، كذلك لما أعطانا الله هذه الأيدي العاملة ، والسواعد القوية ، والأقدام السائرة ، والطاقات الغنية ؛ فإنه يريد منا ـ بداهة ـ أن نشتغل ونستخدم قُوانا ،

---

(١) المثنوي: ص٤٢.

(٢) المصدر السابق: ص٥٠٣.

(٣) [أخرجه الترمذي بمعناه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في أبواب صفة القيامة ، باب حديث اعقلها وتوكل . . . ، برقم (٢٥١٧) ، وابن حبان في الصحيح من حديث جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه (٢/ ٥١٠) برقم (٧٣١)].

ونكدح في الحياة ونجاهد فيها ، ونكسَب رِزْقَنا بقُوَّة اليمين ، وعرقِ الجبين؛ فالتوكل الصحيح ألا نُقصر في جهدنا ، ثم نعتمد في نتيجة السعي على الله تعالى ، فالسعيُ شكر لنعمة القدرة ، والجَبْـرُ كُفران لهذه النعمة . والله يقول:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] .

فـاكسَـبْ وصُـبَّ عَـرقَ الجبيـن ، ثـم تـوكَّـل علـى الـرَّزَّاق ذي القـوة المتين» (١) .

لقد شاعَ في الناس أنَّ التصوُّف مرادفٌ للبطالة والاستسلام للأوضاع الفاسدة والحكومات الجائرة ، وأن لا شأن له بالجهاد في سبيل الله والكفاح لإعلاءِ كلمة الله (٢) .

وكان آخر ما يتوقَّعه المُعجبون بشعر الرُّومي أن يُشيد بشأن الجهاد في الإسلام وأن يتحدَّث عنه في إيمان وحماس ، ولكننا نقرأ في شعره الرنَّان وفي حديث الحب والحنان ، أبياتاً خلاصتها «أنَّ المصلحة في دين عيسى المغارة وقُلَّة الجبل ، والمصلحة في ديننا الحرب(في سبيل الله) والشَّوكة لدين الله ، ولما كان الرسول نبياً بُعث مع السيف المسلول ، نَهض من أمته الأبطالُ والفحول» .

ما هِـيَ الـدُّنيا المَذمُومـة ؟

ولا يقتصر جلال الدين على ذلك: بل يزيد عليه ويقول على لسان الأسد: «إن السعي والكسب سُنة الأنبياء والمرسلين ، وإنَّ الدنيا ليست الذهبَ والفضةَ ، والأهلَ والأولادَ ـ كما يعتقد بعضُ غلاة الصوفية ـ إنَّ الدنيا المذمومةَ

---

(١) المثنوي: ص٢٧ .

(٢) وقد تناول المؤلف موضوعَ نفي هذه الشائعة في ضوء التاريخ في كتابه «ربانية لارهبانية» طُبع في دار ابن كثير بدمشق.

الغفلةُ عن الله ، أما قال الرسول ﷺ : «نعم المالُ الصَّالحُ للمَرْءِ الصالح»[١] .

إنَّ تَعطُّل الصالحين مَهْدٌ لِسيادة الفُسّاق والظالمين:

بل إنَّه يُقرر ، أنَّ تَعَطُّلَ الصالحين وقعودهم عن الجهاد ، وتوكُّلَهم العجميَّ الذي لا يتفق وتعاليم الإسلام ، أفضى إلى سيادة الفُسّاق والظالمين وحكومة السفهاء والجاهلين ، الذين سفكوا دماء الأبرياء ، وقتلوا العلماء والصلحاء ، وجاروا في الحكم ، وخانوا في أموال الناس[٢]، وتسلَّط في عهدهم الحمقى ، وتوارى الحكماءُ والعقلاء ، ووُسِّدَ الأمر إلى غير أهلِه»[٣] .

* * *

(١) المثنوي: ص٣٨.
(٢) المصدر السابق: ص١٣١.
(٣) المصدر السابق: ص٣٣٥.

المحاضرة السادسة عشرة:

مَولانا جَلال الدّين الرُّومي داع إلى الحب والعاطفة، واحترام الإنسان والإنسانية

عصرُ الرومي:

قد هَبَّتْ عاصفةٌ عقليَّةٌ جامحة في القرن السابع، بعثَها عِلْمُ الكلام الذي كان الشُّغلَ الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة، وكانت هذه العاصفة عاتيةً شديدة، انطفأتْ بها كوانين القلوبِ ومَجامرُها. وإذا كانت لا تزال بقيةٌ من جَمرات الحب والعاطفة، فقد كانت كامنةً في الرماد مغلوبة على أمرها. وقد أصبح المسلمون ـ بعدما كانوا شُعلة من الحياة وجذوة من النار ـ رُكاماً بشرياً أو فحماً حجرياً، بَعُدَ عهده بالنار والحرارة.

في هذا الجوِّ الهادىء الخامد هتف مولانا جلال الدين الرومي بالحب والعاطفة، حتى هبَّ العالم الإسلامي من نومه العميق، ودبَّت فيه الحياة.

الدَّعوةُ إلى الحُب:

لقد دعا الشيخُ إلى الحبِّ دَعوةً سافرة، وذكر عجائِبَهُ وتصرُّفاته في بَسْطٍ وتفصيل، فيقول:

«إنَّ الحُبَّ يُحَوِّلُ المُرَّ حُلْوَاً ، والتُّراب تبراً ، والكَدَرَ صفاءً ، والأَلَم شفاءً ، والسِّجْن روضة ، والسُّقْمَ نِعمة ، والقَهْر رَحمة ، وهو الذي يُلينُ الحَديد، ويُـذيب الحجر، ويَبْعثُ الميْتَ ، ويَـنْفُخ فيه الحياة ، ويُسوِّد العَبْد» .

«إنَّ هذا الحُبَّ هو الجَناح الذي يَطير به الإنسان الماديُّ الثقيل في الأجواء ، ويَصل من السَّمْكِ إلى السِّماكِ ، ومن الثَّرى إلى الثُّريا .

إذا سرى هذا الحُبُّ في الجبال الراسيات ، ترنحت ورقصتْ طرباً :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣]» .

ويذكرُ: أنَّ الحبَّ غَنيٌّ أبيٌّ ، لا يحتفل بالملك والسلطان ، من ذَاقَه مرَّة لم يُسغ شراباً ، يقول: «إن الحب غنيٌّ عن العالمين ، إن كان الشَّغفُ بالمحبوب ونَفْيُ ماسواه جُنوناً فهو سيِّد المجانين .

إنَّه ملك المُلوك تخضع له أسِرَّة الملوك وتيجانُهم ، ويَخدمه الملوك كالعبيد ، يقولُ: إنَّ الحبَّ كامنٌ كالنار؛ ولكنَّ الحيرة بادية ، متواضعٌ ؛ ولكنَّ نفوس الملوك الذين يملكون النفوسَ له خاشعَةٌ» .

وإذا ذَكر الرُّومي هذا الفقر الجسور ، والحُبَّ الغَيور؛ أخذته نَشْوةٌ ، ونادى بأعلى صوته «بارك الله لعبيد المادة وعُبَّاد الجسم في مُلْكهم وأموالهم! لا نُنازعهم في شيء ، أمَّا نحن ، فأُسارى دولةِ الحب التي لا تزول ولا تحول» .

«إنَّ جميعَ المرضى يتمنون البُرء من سقمهم ، إلا أنَّ مرضى الحب يَستزيدون المرض ، ويُحبُّون أن يُضاعف في ألمهم وحنينهم؛ لم أرَ شراباً أحلى من هذا السُّم ، ولم أرَ صحةً أفضل من هذه العِلة» .

«إنَّها عِلَّةٌ ولكنها عِلَّةٌ تُخلِّص من كل علةٍ ، فإذا أصيب بها إنسانٌ؛ لم يُصَبْ بمرض قط ، إنها صحَّة الروح؛ بل رُوح الصحة ، يتمنَّى أصحابُ النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم ، كأنه يُعارِض الشاعرَ العربيَّ في قوله :

وَلِـي كَبـدٌ مَقـروحَـةٌ مَـن يَبيعُنـي بهـا كَبـداً ليسَـتْ بـذاتِ قُـروحِ

أبَـاهـا عَلـيَّ النـاسُ ، لا يَشتـرونَهـا ومَـنْ يَشتـري ذا عِلَّـةٍ بصَحيـحِ؟

فلو عرَفَ هذا الرجلُ الذي كان يُنادي على كبده قيمة هذه الكبد المقروحة ، لما تنزَّل إلى بيعها والتخلي عنها ، ولو عرف الناس قيمتها لاشتروها بمُلك الدنيا وعافية الأجسام ، فما قيمة كَبِدٍ لم تُقرَّح؟ إنَّها مُضْغَةُ لحمٍ وقِطعةُ حَجر!

إنَّ هذا الحبَّ البريء السامي يصلُ بالإنسان إلى حيث لا تُوصله الطاعات والمجاهدات ، «لم أرَ طاعة أفضلَ من هذا الإثم عند من يُسمِّيه إثماً ، إنَّ الأعوام التي تنقضي بغيره لا تُساوي ساعةً من ساعات الحبِّ».

«إنَّ الدم الذي يسيل في سبيله لا يُشكُّ في طهارته ، إنَّ شهيد الحب لا يحتاج إلى الغسل «إنَّ دماء الشهداء أفضل من الماء الطهور ، يا لها من خطيئة إنْ كانت خطيئة» يقول: «إن المحبِّين الذين بذلوا مُهَجهم وأحرقوا قلوبهم لا تنفُذ عليهمُ القوانين العامة ؛ ولا يَخضعون للنظم السائدة».

ويَضْرِبُ الروميُّ لذلك مثلاً بليغاً فيقول: «إنَّ القرية التي خرِبتْ لا تُفرضُ عليها الجبايات والضرائب».

ويقارن بين الحُبِّ البريء ، والعقل الشاطر فيقول: «إنَّ الحُبَّ تراثُ أبينا آدم ، أَمَّا الدهاء فهو بِضاعة الشيطان ، إنَّ الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله ، أمَّا الحُبَّ فتفويضٌ وتسليم.

إنَّ العقلَ سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطىء وقد يغرق ، وإن الحبَّ سفينة نوحٍ لا خوف على رُكابها من الغرق».

هذا ، وبحر الحياة هائجٌ ليس السباحة فيه بالخَطْب اليسير ، فخيرٌ للإنسان أن يأوي إلى سفينة مأمونةٍ من الغرق ، وهي سفينةُ الإيمان والحب ، يقول: «لقد رأينا كثيراً ممن يُحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجِّي ولكنا ما رأينا سفينةَ الإيمان والحب تَغرق».

ثم إنَّه يفضِّل حيرةَ المحبين على حكمة الحكماء الباحثين ، ويَحُثُّ على

الحرص عليها والتنافس فيها؛ «لأن الحكمة ظنٌّ وقياس، والحَيرة مشاهدة وعرفان».

إنَّه يقول: «ليس لكلِّ أحدٍ أن يكون محبوباً، فإنه يحتاج إلى صفات وفضائل لا يُرزقها كل إنسان، ولكن لكل أحد أن يأخذ نصيبه في الحب وينعُم به.

فإذا فاتك أيها القارىء العزيز أن تكون محبوباً، فلا يَفتك يا عزيزي أن تكون مُحباً، إن لم يكن من حظك أن تكون يوسفَ، فمَن يَمنعك من أن تكون يعقوب؟ وما الذي يحولُ بينك وبين أن تكون صَادق الحب، دائمَ الحنين؟».

يزيد الشيخ على ذلك «إن لذة المُحب لا تعدِلُها صَولَةُ المحبوب؛ فإذا عَرف المحبون ما يَنعَم به العشاق المقيمون، والمُحبون المُخلصون؛ لتمنَّوا مكانَهم، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء إلى صفِّ المُحبِّين البؤساء».

إلى مَن يُوجَّهُ هذا الحبُّ؟

ولكن إلى من يُوجَّه هذا الحبُّ الذي هو نور الحياة وقيمة الإنسان؟

«إنَّ الحبَّ خالد لا يجدر إلا بالخالد. إنه لا يجمل بمن كتب له الفناء والأفول. إنه حقٌّ الحي الذي لا يموت، الذي يُفيض الحياة على كلِّ موجود».

ويستدل الرومي على ذلك بقصة سيدنا إبراهيم ويتمثَّل بقوله ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦].

«إنَّ هذا الحُبَّ يجري من صاحبه مَجرى الدم، إنْ وُضع في محله وصادف أهلَه، فإنَّه شَمسٌ لا ينتابها الأفول، وزهرةٌ ناضرة لا يعتريها الذبول. عليك بهذا الحُب السرمدي الذي يبقى، ويَفنى كُلُّ شيء، الذي يدور عليك بكؤوسه التي تروِي ظمأك، عليك بهذا الحب الذي ساد به الأنبياء وحكموا».

لا دَاعيَ إلى اليأس:

ولكن ليسَ للمُحب الطَّموح أن يشكو قُصورَه ويحتقرَ نفسه مُتعلِّلاً بسمُوِّ المحبوب وعُلوّ مكانته وغناه عن العالمين ، فما للتراب ورب الأرباب؟!.

إنَّ المحبوب الحقيقي هو الذي يُحب أن يُحَب ، ويجذب إليه من انجذب ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] .

يقول مشجِّعاً: «لا تقل لا سبيل إلى ذلك الملك الجليل ، فأنا عبد ذليل ، لأن الملك كريم ، يدعو عبده ويُسهِّل له السبيل».

ويعود فيتغنَّى بهذا الحب ويُقرّظه في سرور ونشوة ، ويقول:

«إنَّه فيما يبدو للناظر عِلّةٌ علاجها عسير ، وصاحبها في تعب وعذاب؛ ولكنه إذا احتملها وثابر عليها ، وصلَ إلى المعرفة الحقيقية الأبدية».

«إنَّ الحُبَّ مَنشؤهُ انكسار القلب ، وجَرح الفؤاد ، إنه علة لا تُشبهها عِلة ، إن عِلة المحب تختلف عن كل عِلة . إنَّ الحُب اصطرلاب الأسرار الإلٰهية».

ثم يذكر أنَّ هذه العلَّة ، وإن كانت في ذات نفسها علة؛ ولكنها شفاء للأسقام النفسانية والأمراض الخُلقية.

إنَّ الأمراض التي أعْيَتِ الأطباء ، وتعذَّر منها الشفاء ، وقَطع منها المصلحون الرجاء تبرأ وتزول بلفتة من هذا الحب ، فإذا برىء منها السقيم يئس من صحته ، هتف في سرور وطربٍ «حيَّاك اللهُ أيُّها الحُبُّ المضني، يا طَبيب علَّتي وسقمي، يا دواء نَخوتي وكبري، يا طبيبيَ النَّطاسيَّ ، يا مُداويَ الآسي».

هـذا؛ لأنَّ الحُب شعلة إذا التهبت؛ أحرقتْ كل ما سواه؛ فلا كبر ، ولا خُيلاء ، ولا جُبن ولا خوف ، ولا حزن ، ولا حسد ، ولا بخل ، ولا عيب من العيوب النفسية؛ إنَّ موجة الحب تَجرف الحشيش ، وتسري في النفس سريان النار في الهشيم . «إن الحب شُعلة تحرق كل ما سوى المحبوب»

إنَّ التوحيد سيفٌ إذا سلَّه صاحبه؛ قطع كل ما عدا الله؛ فحيَّاك الله وحياك أيها الحب الذي لا يحتمل الشرك».

ويُمسِك مولانا بعد هذا النفس الطويل في مدح الحب ووصفه، ويقول: «إنَّ حكاية الحب لا تنتهي، وتفنى الدنيا ولا تنقضي عجائبه؛ لأنَّ الدنيا لها نهاية وغاية، والحبُّ وصفُ من لا يَفنى ولا يموت».

عَالَمُ القَلْب:

ولكنْ لا سبيلَ إلى هذا الحبِّ بالقلب الحيِّ الفائض بالحياة والحرارة. وقد طغتِ الناحية العقلية في عصره كما قدَّمنا، وتخطت حدُودَها، وتضخَّمت على حساب القلب والعاطفة؛ فمهما استنارت العقول فقد بردتِ القلوب وفقدت حياتها وحرارتها، وأصبحت المعدة قُطباً تدور حوله رَحى الحياة.

وقد أثار الروميُّ حديثَ القلب وماله من مكانة وكرامة في حياة الإنسان، وما تحويه من عجائب وكنوز، وذكر أنَّ الإنسان يحمل في جسمه روضة، أُكُلُها دائمٌ ورَبيعُها قائم، وأنه يحمل في نفسه الصغير عالماً أوسع من هذا العالم المادي، لا يُخاف عليه من عدو، ولا يَطرقه لِص.

«إنَّ القلب بلد عامرٌ مأمون، وحصن مُحكَم مصون، روضة مباركة لا ينفد نَعيمها، ولا ينضُب معينها، تؤتي أكُلها كل حين بإذن ربها».

وذَكَرَ أنَّ حدائق العالم لا تطول حياتها، ولا تأمنُ الآفات والعاهات؛ ولكنَّ نخلة القلب دائمة النضارة والثمار «إن الحدائق تُبطىء في النماء، وتُسرِع في الفناء» أمَّا القلب فسريع النمو، بطيء الزوال: «إنَّ روضة الجسم لا تلبث أن تُصبح صريماً هشيماً؛ فينادي صاحبها: واحسرتاه! أمَّا روضة القلب، فلا تزال مُخضرَّة مُثمرة؛ فينادي صاحبها: وافرحتاه!».

فالذي يُحاوِلُ أن يُحَافِظ على صحته وشبابه، ويبقى شاباً قوياً، لا تتحقق أمنيته، والذي يعتني بقلبه ويُحسن تربيته يبقى شابَّ الروح، نشيط الجسم،

قرير العين ، ناعم البال ، جذلان مسروراً. «عليكَ بالقلب حتى تدوم شاباً ، تتجلى في وجهك الأنوار فيشرق».

«عليك بالقلب حتى تبقى زاخر الحيوية والنَّضارة مثل الصهباء ، مُتهللاً كزَهرة ناضرة ووَردة باسمة».

ولكن لا تغرَّنك كلمة (القلب) فليس هذه القطعة التي تخفق في صدرك ، وتتجمعُ فيها الشهوات والمطامع ، ليس القلبُ هو الذي لم يذق طعمَ الحب ولم يعرف معنى اليقين ، ولا يملك شيئاً من الشوق الذي لا تتفتح زهرته ولا يُشرق ليله؛ فليس هو القلب؛ إنما هو قطعة من حجر أو خشب.

«إنَّه ضَيِّقٌ مظلم مثل قلب اليهود ، لا نصيب له من حُبِّ الملك الوَدود ، إنه لا يُشرق ولا ينير ، ولا ينشرح ولا يتسع».

إنَّه ليس بين هذا القلب الميت وبين القلوب الحية إلا الاشتراك في اللفظ ، والشَّبهُ في الجسم ، كما أن الماء الذي يَجري في العيون الصافية والأنهار الجارية يُسمى ماء ، والذي يختلط بالطين والوحل ويُرى في المستنقعات يسمَّى ماءً كذلك؛ ولكن الأول يروي الظمأ ويُنَقِّي الثوب ، والثاني تُغسَل منه اليَد. هذا هو الفرق بين القلب والقلب.

إنَّ قلوب الأنبياء والأولياء لتعلو على السماء ، أما قلوبُ أشباه بني آدم ، فهي قلوبٌ أشباه القلوب ، وليست بقلوب؛ فإذا قلت (قلبي) فانظر ماذا تقول! .

«تقولُ: قلبي! قلبي! فهل تعرف أنَّ القلب من أمانات السَّماء؟ إنَّ الحَمأ لا شكَّ يحمل ماء ، ولكنك لا ترضى أن تغسل به يدك؛ لأنه إذا كان ماء، فهو ماء يغلب عليه الطين والوحل ، فلا تُسمِّ ما يخفق في صدرك (القلب)، إن القلب الذي هو أعلى من السموات العلى ، هو قلب الأنبياء والأصفياء».

ولكنه يُسلِّي قارئه ولا يريد أن يكسر قلبه ويُثبِّط همته ، فيقول: «إنَّ سلعتك

التي لا يرغب فيها مشتر قد اشتراها الكريم تكرماً وتفضلاً ، إنَّه لا يرفض قلباً من القلوب؛ لأنَّه لا يقصد به الربح».

ثم ينصَحُ قارئه بالانطلاق من هذا القفص الذهبي الذي يسمَّى «المعدة» والطيران في أجواء القلب الفسيحة ، والاطلاع على عجائب خلق الله ، والتنعم بلذة الروح ، يقول: «إنَّ المعدة وعبادة المادة هو الحجاب الصفيق بينك وبين ربك؛ فإذا رفعت هذا الستر لم يكن بينك وبين ربك حجاب «تخطَّ حدود المعدة ، وتقدَّم إلى قلبك ، تأتك تحياتُ الرحمن من غير حجابٍ».

كَرامَةُ الإنسان وشَرفُهُ:

لقد تَواضَعت الحكوماتُ الشخصيةُ المستبدةُ ، والفلسفاتُ الخاطئةُ ، والأديانُ المحرَّفةُ على الاستهانة بقيمة الإنسان ، والحط من قدره وشرفه.

وقد نشأ ـ بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع ، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ـ مَقْتٌ شديدٌ في الناس للحياة ، وتبرم من امتدادها واستمرارها ، وقنوط من المستقبل ، وشعورٌ عميقٌ بالمهانة أو ما يسمى اليوم (بمركب النَّقص) وأصبح الإنسان حقيراً في عينه.

وجاء بعضُ المتصوِّفين العجم ، فدعوا دعوة متحمِّسة إلى الفناء الذي تُمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي «مُوتوا قبل أن تموتوا» وغلوا في إنكار الذات حتى أصبح الاعتداد بالنفس وحُبّ الذات الذي يتوقَّف عليه الكفاح والحركة والنشاط ، جريمة خُلقية ، وحجر عثرة في سبيل الكمال الروحي.

وقد أسرف الدعاة والمؤلِّفون في الحث على اكتساب الصفات الملكية ، والانسلاخ من اللوازم البشرية؛ حتى أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته ، وأصبح يعتقد أن رقيّه في الثورة على الإنسانية ، لا في الاحتفاظ بإنسانيته ، وأنَّه كلما كان أبعد من الإنسانية وأشبه بالملائكة ، كان أقرب إلى السعادة والكمال.

ونَشَأَ ـ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات ، وانحلال المجتمع ، وجور

الحكومات ـ أدبٌ متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس ، والنِّقمة على الآباء في جنايتهم على ذريتهم ، كما فعل (أبو العلاء المعرِّي) في عصره ، وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامَّةً الثقةَ بنفوسهم ، والأمل في مستقبلهم ، والرَّغبة في حياتهم.

وأصبح الإنسانُ في هذا المجتمع المتبرِّم الضجر كاسف البال ، منكسر الخاطر ، ضعيف الإرادة ، مُحطَّم الأعصاب ، قد يحسُد الحيوانات في حريتها ، والجمادات في سلامتها وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لإنسانيته شرفاً ، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذي هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة ، والقوى الجبَّارة ، والمواهب العظيمة التي أودعها الله في باطنه ، ولا يعرف أنه قد خُلق ليكون «خليفة رب العالمين في هذا العالم الفسيح» ، و«وصياً عليه» ، وأُخْضِع له هذا الكون ، وماكان سجودُ الملائكة لأول بشر إلا إشارة لهذا الخضوع؛ فإنَّهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بأمر الله ، ويبلغون رسالاته؛ فإذا خضعوا فقد خضَع له الكون بالأولى.

في هذا المجتمع الثائر على الإنسانية الذي كفر بالإنسان وقيمته ومركزه في هذا العالم ، قام مولانا «جلال الدين الرومي» يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة في شعره الرَّنان ، ويُثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية في حماسة وإيمان وبلاغة؛ حتى دبَّ في المجتمع دبيبُ الحياة ، وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته ، وترنَّح بهذا الرّجز والحُداء القوي (الأدب الإسلامي) كلّه ، وردَّدهُ الشعراء ، وضربوا على وتره ، وانطلقت في عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تُسمَّى «الاعتزاز بالإنسانية».

يُذَكِّر جلال الدين الرومي قرَّاءَ شعره وتلاميذه ، أن الله سبحانه وتعالى قد خصَّ الإنسان بأحسن تقويم؛ فقد قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]

وإن هذا اللباس الفضفاض قد فُصّل على قامة الإنسان؛ فلا يطابق كائناً آخر.

ويَحثُّ قارئه على دراسة سورة (التين) والتدبُّر في معانيها، وأن يحسب لكلمة (أحسن تقويم) حساباً خاصاً؛ فإنَّها ميزة للإنسان لا يشاركه فيها غيره.

ثم يزيدُ على ذلك، ويرجع إلى سورة (الإسراء) ويُذكر بقوله تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] ويقول للقارىء: «هل وُجِّه هذا الخطاب الكريم وهذا الأسلوب من التكريم إلى السمواتِ والأرض أو الجبال؟ إنه لم يُوجَّه إلا إلى هذا الإنسان الذي يستهين بقيمته، ويجهل مكانته. إن الله قد توَّجَكَ ـ أيها الغافل ـ بتاج الكرامة، وخصك بقوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا ﴾ وحلّى جيدك بالمنحة الخالصة فقال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ [الكوثر: ١]».

إنَّه يقول: إنَّ الإنسان خلاصةُ هذا الكون، ومجموع أوصاف العالم «يتمثل في هذا الجسم الصغير ما شئت في العالم من خيرات وكنوز، وبدائع وعجائب؛ إنه ذرة حقيرة انعكست فيها الشمس؛ فإذا طلعت لم يبد كوكب. إنه قطرة صغيرة انصبَّ فيها بحر العلم، وثلاثة أذرع من الجسم انطوى فيها العالمُ.

يقولُ: إنَّ الإنسان غايةُ هذا الخلق؛ لأجله خُلق العالم، وهو القطب الذي يدور حوله رحى الكون، تحسده الكائنات، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات؛ إنَّ كل ما في هذا العالم من جمال وكمال إنما خُلق لأجلك ويطوف حولك، أنت الذي يَحسُده المقرَّبون، لستَ في حاجة إلى جمال مستعار؛ فأنت جمال الدنيا، وواسطة العقد، وبَيتُ القصيد، الإنسان جوهر، والفلَك عَرَض، كلُّ ما عداك فَرْع وظل، أنت الغَرض، إنَّ خدمَتك مفروضة على جميع الكائنات، إنَّ عاراً على الجوهر أن يخضع لعَرَض».

ولا يَقْتَصِرُ الرَّدُّ على ذلك؛ بل يقول: «إنَّ الإنسان مَظهرٌ لصفات الله، وهو المرآة الصادقة التي تجلَّت فيها آياته يقول: «إنَّ الذي يتراءى في الإنسان (من الكمالات والمحاسن) عكس لصفاتِ الله، كعكس القمر المنير في الغدير الصافي، إن الخلق كالماء تتجلى فيه صفاتُ الله، وينعكس فيه علمه و عدلُه

ولطفه ، كما ينعكس ضوء الكوكب الدُّريِّ في الماء الجاري».

ولكنَّه يشعر بقصوره وعجزه في وصف الإنسان وضخامة المهمة ودقتها ، ويُعلِن بصراحة وشجاعة:

«إذا صَرَّحتُ بقيمةِ هذا المُمتَنع (١) لاحْتَـرقـتُ واحْتـرَق المُستَمِـع»

ثم يتساءلُ: هل يجرؤ أحدٌ أن يساوم هذا الإنسان الغالي ويُمنِّي نفسه بشرائه؟ هل يجوز لهذا الإنسان أن يبيعَ نفسه ـ مهما تضخَّم ثمنُها ـ؟.

ثم يندفع مخاطباً الإنسان ، ويقول في تَلهُّفٍ وتوجُّع ، وفي شيء من العتاب والأنفة: «يا مَنْ عبيدُه العقلُ والحكمة والمقدرة ، كيف تبيعُ نفسَك رخيصةً؟».

ثم يقول: لا محلَّ للمساومة؛ فقد تَمَّتِ الصَّفقة ، وتحقَّق البيع: «إنَّ الله اشترانا وخلَّصنا من المساومات والمقاولاتِ إلى آخر الأبد ، فالشيء لا يُباع مرَّتين».

ثم يَحثُّ الإنسان على أن يعرف قيمتَه ، ولا يرضى إلا بأكرم المُشترين. ويقول: «ابحثْ لك ـ إنْ كنت باحثاً ـ عن مُشترٍ يطلبُك ويبحثُ عنك ، والذي منه بدايتُك وإليه نهايتُك».

ويُلاحِظ الشاعر أنَّ من بني آدم من لا يستحق هذا الوصف «أشباه الرِّجال ولا رجال» الذين هُم فَريسةُ نفوسهم ، وقَتلى شهواتهم ، لا يعرفون من الإنسانية إلا ما يَفوقُ فيه الحيوان ، من الشِّبَع والرِّي والشَّبَق.

يقول بكلِّ صراحةٍ: «إنَّ هؤلاء ليسوا رجالاً ، إنما هم صُوَر الرِّجالِ ، هؤلاء الذين يحكُم عليهم الخبز ، وقتلتِ الشهواتُ فيهم الإنسانية».

وقد ندَرَ وُجود الإنسان الحقيقي في عصره ، كما ندر في عصر غيره ، حتى أصبحَ في حكم عَنْقَاءِ المغرب ، والكبريت الأحمر ، وحتى اضطرَّ الباحثون أن

(١) يعني به الإنسان.

يبحثوا عنه بمصِباح ديوجانس. وقد حكى الروميُّ حكايةً لطيفة في هذا الموضوع في ديوان شِعره فقال:

«رأيتُ البارحةَ شيخاً يدور حول المدينة وقد حمل مشعلاً ، كأنَّه يبحث عن شيءٍ! فقلت: يا سيدي تبحث عن ماذا؟

قال: قد مَلَلْتُ معاشرة السِّباع والدواب وضِقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحثُ عن إنسان عملاق ، وأسد مغوار. لقد ضاق صدري من هؤلاء الكُسالى والأقزام الذين أجدهم حولي.

فقلتُ له: إنَّ الذي تبحث عنه ليس يَسير المنال، وقد بحثتُ عنه طويلاً فلم أجده.

فقال: إنَّني مغرمٌ بالبحث عمَّن لا يوجد بسهولة ، ولا يُعثر عليه في (الطرقات)».

* * *

رجال الفكر والدعوة
في الإسلام

شيخ الإسلام
أحمد بن تيمية
٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ

للمفكر الكبير ، الداعية الحكيم
العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
تعريب الدكتور سعيد الأعظمي الندوي
مدير دار العلوم ـ ندوة العُلماء ، لكهنؤ (الهند) ورئيس تحرير
مجلة «البعث الإسلامي» الصادرة منها

الجزء الثاني





كلمة المؤلف

الحمد للهِ رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من أئمة المسلمين المجددين ، الذين ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وانتحال المُبطلين ، وتأويل الجاهلين.

أمّا بعد ، فَيسرُّ المؤلِّف ويُسعده أن يقدِّم للقرّاء العرب الجزء الثاني من كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، وهو الجزء الخاص بحياة شيخ الإسلام تقيِّ الدين أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي ، وقد سبق تأليفه باللغة الأردية سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ م ، وهي الحلقة الثانية من سلسلة كتب المؤلِّف «تاريخ الدعوة والعزيمة».

وقد تولَّى المؤلِّف نقل الجزء الأول من هذا الكتاب إلى العربية مع حذف وزيادة ، وتحسين وتعديل ، سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م ، وأفرغه في قالب محاضرات ألقاها في المدرج الكبير بجامعة دمشق أمام طلبة كلية الشريعة ، وصفوة من أساتذة الجامعة ، وعلماء البلد وأعيانه وقادة الفكر ورجال التعليم والتربية ، في عاصمة بني أميّة.

وصدر لهذا الجزء عدةُ طبعات ، وقدم له فقيد العلم والإسلام الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ، وقد نال هذا الكتاب قبولاً عظيماً في الأوساط العلمية ، والدينية ، والتربوية ، واعترفَ كثير من أهل العلم ، ورجال التربية أنه سدَّ عَوزاً كبيراً ، وملأ فراغاً في المكتبة الإسلامية العربية المعاصرة ، وجاء في أوانه .

وقد صدر الجزء الثاني لكتاب «تاريخ الدعوة والعزيمة» في أردو سنة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م من المجمع الإسلامي الأكبر في الهند ، المعروف بـ«دار المصنفين» في أعظم كره ، وصدرتْ له طبعة ثانية من المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ونقل الى اللغة الإنجليزية سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م .

ورَحَّبتْ بالترجمة الإنجليزية الأوساطُ العلمية ، والمشتغلون بالدراسات الإسلامية ، والبحوث التاريخية ترحيباً كبيراً ، وأبدى عدد من الباحثين والمعنيين بالفكر الإسلامي ، وحركات الإصلاح والتجديد في الإسلام ، إعجابهم الكبير بهذا الكتاب ، وكان أولَ كتاب يصدر في حياة شيخ الاسلام ابن تيمية في اللغة الإنجليزية بهذا التفصيل والتحقيق .

كان كلٌّ ذلك كافياً لانتهاز أول فرصة لنقل هذا الجزء إلى اللغة العربية ، ويصح أن يقال : إن هذا العصر عصر ابن تيمية ، وقد كانت لشخصيته ودعوته ودوره الإصلاحي عودةٌ في هذا العصر ، ولكتاباته وأفكاره واتجاهاته انتفاضةٌ لم تكن لمصلحٍ إسلاميٍّ ، أو مؤلِّف من المؤلِّفين القدامى ، لأسباب يطلع عليها القارىء في ثنايا هذا الكتاب ومطاويه ، فكان من المعقول والمنتظر أن يبادر المؤلِّف إلى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، وإتحافِ المعجبين بشيخ الإسلام بهذا السِّفر .

ولكنَّ المؤلِّف كان يُزهِّده في القيام بهذا العمل ، ويُثنيه عنه صدور عدة كتب لكبار علماء هذا العصر ، وفي مقدِّمتهم علامة مصر الجليل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ، وما كان يَعلمه من آثار ابن تيمية في اللغة العربية ، وقد

قيّض الله للمملكة العربية السعودية ، علماء وأمراء ، لإثارة هذه الكنوز ونشرها ، وكان يُخيَّل للمؤلف حين كان يحدِّث نفسه بإصدار هذا الجزء بالعربية أنَّه كناقل التَّمر إلى هَجَر[١].

ولكنَّ الله شَرح صدره لتحقيق هذه الأمنية ، وقبول هذا الاقتراح من إخوانه الذين عرفوا وجود هذا الكتاب باللغة الأردية ـ وفي مقدمتهم صديق المؤلِّف الأستاذ عبد الحليم محمد أحمد صاحب دار القلم الكويتية ـ واقتنع أخيراً بأن لكل مؤلف طابعاً ، ولكل كتاب شخصية يتفرَّد بها كشخصية الإنسان ترجع إلى بيئة المؤلف ، وتجاربه الخاصة ، وفهمه الخاص ، فلا يكون إصدار هذا الكتاب من قبيل تحصيل الحاصل ، ومن قبيل الجهاد في غير طائل ، وإلا كان كلُّ من ألف في موضوعٍ طُرِق وبحث واستوعب من زمان من فضول الأعمال ، وإضاعة الوقت.

هنالك عهد المؤلِّفُ بنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية إلى زميله العزيز الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي أستاذ دار العلوم لندوة العلماء ، ومحرر مجلة «البعث الإسلامي» فقام به خير قيام ، وقرأه المؤلِّف حرفياً ، وتناوله بالتنقيح والتهذيب ، والحذف والزيادة ، وعلَّق عليه بعض تعليقات جديدة مفيدة ، فجاء أكمل وأجمل ، وأوفق للذوق العربي السليم.

وها هو ذا الكتاب بين أيدي القرَّاء ، والله المسؤول أن ينفع به الإسلام والمسلمين ، ويرفعَ همة الباحثين والمؤلفين ، والعاملين في مجال الإصلاح ، والتربية ، وخدمة الدين ، وهو الموفق والمعين.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

يوم الخميس ٩/ ٥/ ١٣٩٥هـ
٢٢/ ٥/ ١٩٧٥م

---

(١) [هَجَر : اسمُ بلدٍ معروف بالبحرين ، اشتهر بالتمر].

البَابُ الأوَّل

سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية

وميزاته وخصائصه



الفصل الأول

الحاجَة إلى تَرجُمَان للشريعَة وَمُصلحٍ شَامِل

حَدٌّ من حرِّية الفلسفة ، وإدالةٌ لتعليم النُّبوة منها:

تزعَّم مولانا جلال الدين الرومي تلك الثورة العقلية التي كانت رَدَّ فِعل ضد الفلسفةِ اليونانية وعقليَّة المتكلِّمين [١] ، لقد كان ذلك نموذجاً لعقليةٍ أسمى وفكرةٍ أرسخ ، وكان افتتاح عهد جديد لكلام جديد قام أساسه على سُمُوِّ العقل والقلب وطهارتهما ، وعلى تجربةِ المتكلِّم الشخصية.

كان مولانا جلالُ الدين الرُّوميُّ عالماً متبحِّراً ومتكلِّماً نابغاً في عصره ، أكرمه الله تعالى بالقلبِ العارف وطبيعة الحبِّ والحنان ، وكان قد سَئِمتْ نفسه من كلام الفلاسفة وتقعير المتكلمين ، وقد بلغ بفضل تربية رجلٍ مؤمن حنون ، ومن أجل المجاهدات والرياضات التي قام بها إلى حيثُ أدرك فيه أنَّ المعارك الكلامية التي تدور في زمنه إنما تقوم على أساس الذكاء والخطابة أكثرَ منها على الحقيقة ، وهنالك شرح الحقائق الدينية بلُغته ، واتخذ لإثباتها

(١) كما مرَّ تفصيله وبسط القول فيه في الفصل الأخير من الجزء الأول لكتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

طريقاً كان أقرب إلى الحقيقة ، ومبنياً على التجربة والوجدان .

ولكنَّ الظُّروف كانت تُـؤكِّد الحاجةَ إلى ردِّ فعل آخر ضد طُغيان الفلسفـة وعُدوان عِلم الكلام لَا يَقل في خطورته من رد فعلِ سبقَ ذِكره ، فقد كان البحثُ عن ذاتِ الله وصفاته من رؤوس القضايا الَّتي شَغلت بُحوثَ الفلسفـة وعلم الكلام .

أمَّا الشريعـةُ الإسلاميـةُ فلم تترك موضوع العقائد غامضاً مُلتوياً غير واضح للإنسان ، بل إنها جَعلت هذه الناحية موضع عنايـة بالغة بالنسبة إلى الأديان السابقة؛ لأنها أساسُ المجتمع الفاضل والمدنيَّة المُثلى ، والفضائل من الأعمال والأخلاق .

إنَّ الشريعـة الإسلاميـة وجَّهت إلى الإنسان توجيهاتٍ حاسمةً ، سهلةً واضحةً حول ذاتِ الله وصفاته ، لم تَعُد بعد ذلك أيُّ حاجـة إلى تحقيقٍ وتدقيقٍ أو قياس .

إنَّ مَصدَر هذا العلم والإيمان إنما هو تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنَّ كلامهم أكبرُ برهان على أنهم هم العارفون بما وراء الكون من إله ، وبصفاته النادرة الفَذَّة التي لا تَقبل القياس والنهاية .

ما كان للفلسفة أن تَتحدَّث عن هذا الموضوع أو تقوم خَصْماً بإزائه؛ إذ لم تكن تُمسك مبادىء هذا العلم الأساسية ، ولا تلك المعلومات التي تتوصَّل بترتيبها إلى مجهول ، ولم تكن تصلح لإجراء اختبار أو تحليل ، ولم يكن الفلاسفـة أهلاً لذلك .

ولكنَّ الفلسفـة على الرغم من عجزها العلمي تخطَّتْ حدودها ، ولم تكتفِ بالتدخل في هذا الموضوع فحسب بل إنَّها بحثت قضاياه وفروعَه بثقة كبيرة وتحكُّم بالغ ، وبتفصيلٍ زائد وتدقيق شديد ، وقامت بتحليلٍ يختص بالمعامل الكيمياوية فقط .

ظهر علمُ الكلام لِمقاومة الفلسفـة ونُصرة الدين ، وكان ذلك أمراً لازماً ،

غيرَ أنَّه تأثر بالفلسفة ، وتسرَّبت إليه روحُها حتى تكونت «فلسفة دينية» تنتهج نفسَ المنهج ، وتبحثُ نفس الموضوع ، وتتَّبع نفس الأسلوب للبحث والاستدلال ، وتُعيد نفس الخطأ في اعتبار ذات الله وصفاته وقضايا ما وراء العقل أموراً عقلية يُمكن إثباتُها عن طريق العقل ، وكذلك تُسيطر عليه روح عدم الاقتناع بما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من شَرْحٍ ، وتعبير في هذا الموضوع ، واستخدام مصطلحاتٍ يونانية تقوم على علم محدود ناقصٍ ، وتُثير شبهاتٍ ، الأمر الذي دَعا إلى تَعقُّدِ القضايا وتوسُّعها بله أن تنحلَّ أو تُختصر.

ووُجدت «فلسفة إلٰهية» وكُتب ضخمة في شرح العقائد ، إزاء أسلوب مُقْنع مُؤثِّر كان جديراً بشحن النفوس بالإيمان والإذعان ، وإقناع العقول في كل زمان ، وكان مؤسَّساً على نصوص الكتاب والسنة.

وكانت هذه الفلسفةُ الإلٰهية الجديدة قد تأثرتْ بالفكر اليوناني رغم أنها ظَهرت ضدَّ الفلسفة اليونانية ، فكانتْ رُوح الكتاب والسنة تحتجُّ دائماً على هذا الموضوع ، وَوُجدت طبقةٌ وجيهةٌ للأمة الإسلامية معارضة لهذه التفاصيل الفلسفية والتآويل الكلامية.

غير أنَّ الحاجة إلى عالمٍ كبيرٍ نافذ البصيرة ، واسع العلم ، قويّ الإيمان كانتْ أكيدة لشرح الكتاب والسنَّة والتعبير القويّ المؤثر عنهما ، ذلك الذي يَعتقد أجزم الاعتقاد أنَّ في نصوص الكتاب والسنَّة حَول ذاتِ الله وصفاته وفي تعبيراتهما عنها غنىً وكفايةً تامة.

ذلك العالِمُ الذي يتوصل بذكائه ودراسته إلى أعماق الفلسفة ويطَّلع على خباياها وكوامنها ، ويتمكَّنُ من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمي ، بما عنده من علم بمواضع ضَعْفِها الأساسية.

ذلك الذي قد تعمَّق بتفكيره فوصل إلى أغوار علم الكلام ، واطَّلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الإسلامية ، ولا يخفى عليه شيءٌ من تاريخ علم الكلام ونُمُوِّه.

ذلك الرجلُ الذي يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزازِ بنصوص الكتاب والسنة ومذهبِ السلف بفضل دراسته وتجاربه ، يَفيض عزماً وحماساً بنصرته وشرحه ، ويَعيش على حَسَك السَّعدان لكي يُثبت رجحان مذهب السلف وفَضله من الناحيـة العقليـة على غيره من الفلسفاتِ والنُّظم العقليـة ، كما يكون مُتمتِّعاً بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التي يتطلَّبها هذا العمل العظيم ، ومتميِّزاً في ذكائه وقوة بيانه واستدلاله ، وسَعَةِ نظره وعُمق دراسته عن غيره ، يكون فوق مستوى عصره وكُفؤاً للقيام بهذه الخدمة بمعنى الكلمة .

في مُواجَهةِ المسيحية ، ونَقْدِها العلمي:

هذا وقد كان الإسلامُ هدفاً للهجمات الداخلية والخارجيـة بجانب آخر ، وكان المسيحيون قد تحمَّسوا لإثبات أن المسيحية هي الدينُ الحق ، وتوجيهِ الإيرادات إلى الإسلام ، إنَّ الهجومَ الصليبي المتتابع ووجودَ عددٍ وجيه مِن مسيحيي الغرب في الشام وقبرص؛ شجَّعهم على مواجهة المسلمين في المجال العلمي وعلى تأليفِ كُتب تثبت فضلَ دينهم ، وأخرى تَرفُضُ نبوة محمد ﷺ .

وللردِّ على كلِّ ذلك كانت الحاجة مُلِحَّةً إلى عالم كبير ومتكلِّم ، له دراسةٌ عميقةٌ في المسيحية والديانات الأخرى ، وله اطلاعٌ واسعٌ على الصحف السماوية وما واجَهَتْهُ من تغيير وتحريف ، ويستطيعُ أن يُحسن المقارنة بين الديانات ويُثبت فضلَ الإسلام وخلودَه في أسلوبِ علميٍّ مؤثِّر قوي ، ويتمكنُ من دعوة أتباعِ الديانات الأخرى إلى الإسلام بحكمةٍ وقوةٍ.

فَضحُ المذاهبِ المُنحَرفة والحَركاتِ الهدَّامة:

وقد كان أشدَّ وأكثَر خطورة من هذه الهجمات حملةٌ شنَّتها فرقـةٌ إسلاميةٌ دخيلةٌ على الإسلام ، وهي الفرقة الباطنية التي كانت ديانتها وتعاليمها مجموعة عجيبة للعقائد المجوسية ، والأفكار الأفلاطونية ، والأغراض السياسية ، وقد

كانتْ هذه الفرقـةُ وفروعُها المختلفة تتعاون مع القوى العدوانية والمهاجمين الأجانب على الإسلام ، وهي التي مهّدت الطريقَ ، ودبّرتِ المؤامرات للهجوم على الأقطار الإسلامية ، فساعد الصليبيين في شن هجومهم على الشام.

وذلك ما جعل الصليبيين عند استيلائهم على الشام أنْ قرّبوا رجالَ هذه الفرقة الباطنية ، وجعلوهم موضع ثقتهم ونجواهم ، وأحسنوا إليهم اعترافاً بمساعداتهم المخلصة.

وقد ظلّ هؤلاء الباطنيون مُشتغلين بتثبيت المؤامرات ، وتدبيرِ الثورات في عهدي صلاح الدين ، ونور الدين ، فلما قصدَ وحوشُ التتار أرضَ الشام بهجماتهم العنيفة؛ ساعدهم الباطنيون عَلناً وجهاراً ، وأصابوا المسلمين بضرر بالغ.

وذلك عدا ما كانوا يقومون به بصفة دائمة من نشرِ اضطراب فكري وتشاؤم بالدين وإلحاد وزيغ وثورة على الدين ، وكانوا «كالطابور الخامس» في حِصن المسلمين الديني.

كلُّ ذلك كان يُحتِّم على المسلمين أن يقتلعوا جذور هذه الفرقة من الناحيتين العلمية والعملية ، ويكشفوا القناع عن معتقداتها وأغراضها ليطّلع المسلمون على نواياها ، ويُعاقبوها معاقبة شديدة على أعمالها العدائية ومحاربتها للإسلام.

ولم يكن يقوم بهذه المهمة إلا مَنْ له اطلاع تام على حقيقة هذه الفرقة وأسرارِها وتاريخها ، وله معرفةٌ بجميع فروعها ومعتقداتها وأفكارها مع قدرته البالغة على تناولها بالرّدِّ والنقد ، مضافاً إلى ذلك حَماسُه الزائد للإسلام ، ودافِعه القوي للجهاد مع أعداء الإسلام.

مُحاربة العقائد ، والأعمال الشّركية ، والدعوةُ إلى الدّين الخالص:

هذا وكانتِ الجماهيرُ المسلمة فَريسةَ العقائد الباطلة وأعمال الشِّرك بضغط عواملَ عديدة ، منها اختلاطُهم بغير المسلمين ، وتأثيرُ العجم ، وتَهاونُ

العلماء، وقد أصبح الدِّين الخالص والتوحيد النَّقي وراء حجابٍ وحجاب.

ونشأ الغُلُوُّ والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأنَ اليهود والنصارى، حتى بدأتْ عقيدةُ التوسُّط والتقرُّب بالأولياء ترسَخُ، ويَنطبقُ عليهم ما حكاه القرآن من قول مشركي العرب الأولين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وتنتشر هذه الفكرةُ الجاهلية في أوساط المسلمين، وأصبَحَ كثيرٌ من العلماء لا يرون بأساً في الاستغاثة بغيرِ الله والاستعانةِ به، واتُّخذتْ قبورُ الأنبياء والصالحين مساجدَ، وتحقَّق الخطرُ الذي كان قد أنذر به النبي ﷺ وشدَّد النهي عنه.

ولم يكنِ المسلمون يَشعرون بأي غَضاضةٍ في التخلُّق بأخلاق الذِّمِّيين والكافرين واتخاذ شعائرهم وخصائِصِهم، والحضورِ في أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم، واصطناع تقاليدهم وعاداتهم.

فَكانتِ الحاجةُ ماسةً إلى عالم مجاهد يَتصدى لمحاربة هذه الجاهلية المشركة، والدَّعوة إلى التوحيد الخالص بكُل قوةٍ وإيضاح، ويكونُ عارفاً بالفرق بين التوحيد والشرك معرفةً دقيقة، ولا تخفى عليه الجاهلية مهما تقنَّعت وتنكرت أو ظهرت في مظاهر، ويكونُ قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرةً من الكتاب والسنَّة وحياةِ الصحابةِ الكرام رضي الله عنهم لا من كُتب المتأخرين وتعامُلِ المسلمينَ الجهلاء، وتقاليدِ الزمان وعادات الناس.

ولا يُبالي في الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضةِ الحكومات وعداوة الناس ومخالفة العلماء، ولا يخاف في ذلك لومةَ لائمٍ، ويكون ذا نظرٍ دقيقٍ وعلمٍ واسعٍ بالكتاب والسنة ومصادر الدين الأولى الموثوق بها، وبأحوالِ القرون الأُولى، وذا اطلاعٍ كاملٍ على تاريخ اليهود والنصارى، وقصةِ انحرافهم ومَسخِهم وتحريفهم، وعلى عقليةِ الأمم الجاهلية ونفسيَّتهم، ويعيش في تألُّمٍ وقلقٍ لكي يُعيد المسلمين إلى تعاليم القرآن وعقيدةِ الصدر الأول، ويَراهم مُنتهجين طريق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وأتباعهم.

مُحاربةُ الانحرَافاتِ والمُغالطاتِ في الطوائف الدينية، وتَنقيةُ الدِّين من الشوائب:

وقد تسرَّبَ إلى المُتصوِّفين ـ لأسباب تاريخيةٍ وعلميةٍ عديدةٍ ـ تأثيرُ الفلسفة الإشراقية التي جاءت من يونان، والهند، وامتزجتْ بالعقائد الإسلامية وأفكارها امتزاجاً لا يتسنَّى لكل واحد فصلُها عنها.

إنَّ إشراقية الأفلاطونية الجديدة، أو تنسُّك الهنود، وعقيدة الحلول والاتحاد، ومذهبَ وحدة الوجود، وتقسيمَ الظاهر والباطن، وفِتنة الرموز والأسرار، والعلم الدفين، وسقوط التكاليف الشرعية عن «الكاملين» و«الواصلين» واستثناءهم عن الأحكام الشرعية، كلُّ ذلك كانت معتقداتٍ وأفكاراً نالتْ إعجابَ طبقة كبيرة من المتصوِّفين.

وبالرَّغم من إنكار أصحاب التحقيق والرسوخ في العلم من هذه الطائفة في كل زمان لهذه المعتقدات الفاسدة، كانت طبقةٌ من المتصوفين تُلِحُّ عليها، حتى تَسفل بعضُ فروع التصوُّف وسَلاسلهُ إلى حد الشَّعوذة والتهويل، ولا سيَّما بعضُ فُروع السِّلسلةِ الرفاعية التي انحرفتْ في العهد الأخير عن أصلها وتعاليم مؤسِّسها الكبير، وآثرَ كثير من رجالها الذين لم تَرسخْ قدمُهم في العلوم الشرعية والعقائد الإسلامية الأعمالَ البهلوانية، زاعمين أنها تؤثِّر في عقول المغول والتتار وتُرغِّبُهم في الإسلام، وكان لذلك ضررٌ عظيم على سلامة العقيدة ومكانة الشريعة.

وقد استفحلتْ هذه الفتنةُ في القرنين السابع والثامن، ووقع العامة وكثيرٌ من الخاصة فريسة هذه المغالطات.

وَلِقَمْع هذا الخطر الناجم أيضاً والحفاظِ على الشريعة كانت الحاجة شديدة إلى مؤمن قوي ومصلح جريء، يتناول هذه الطوائف المنحرفةِ بالنقد اللاذع، ويكشفُ القِناع عن وجه أخطائها ومغالطاتها بكل حُرية وجراءة، معرضاً عن صَولتها وقُوتها، وغيرَ مُبال بعدد أتباعها ونفوذهم.

تجديدُ الفِكْر الإسلامي:

وكانت الحَلَقات العلميةُ والتدريسية مُصابةً بِجُمودٍ شديد ، فكلُّ طائفةٍ تعتبرُ الخروج عن دائرتها الفقهية قيدَ شعرة جريمةً لا تُغتفر ، وكان مألوفاً لدى كل طائفة أن تَنْظُرَ إلى الكتاب والسنة بمنْظار مذهَبها الفقهي ، وتحاولُ تطبيقَ الكتاب والسنَّة في الخلافات الفقهية على آرائها في كل حالٍ فضلاً عن تحكيمها فيها ، وكان بابُ الترجيح والاختيارات الفقهية مُغلقاً عملياً.

وكانت مشكلاتٌ حديثةٌ وقضايا جديدةٌ قد حدثتْ مع تغيُّر الزمان والأحوال ، الأمر الذي كان يحتاج إلى إرشاد المسلمين فيها والبحثِ عن حُلولها إلى رجلٍ يجمع بين سَعَة النظر في ذخائر الفقه الإسلامي ، والتعمُّق في الكتاب والسنة ، والاطلاع على تعامل القُرون الأولى ، والعلمِ الدقيق بأصول الفقه.

وقد كان يضيق مجالُ العلم والنظر والدراسة على مر الزمان ، وتضمحِلُّ القوى الفكرية ، ولم يكن عالمٌ من علماء الإسلام يتجرَّأ على استنباط الأحكام الجديدة ، وكان الفقهُ الإسلامي قد فقد جَدارة النموِّ والتقدُّم ، ويَعتبر من المستحيل أن يُزاد إلى ثروة الفقه القديمة أيُّ زيادةٍ.

فكان إصلاحُ هذا الوضع كذلك يحتاج إلى مُحدِّث فقيهٍ وأصوليٍّ ضليعٍ ، يكون قد استعرضَ ذخائرَ المكتبة الإسلامية بأسْرها ، ويستحضرُ الكتاب والسنة بحيث يُحيِّر الناس ، ويَعرف الحديث وأنواعه وطبقاته ومجموعاته معرفة دقيقة تضطر الناس إلى الاعتراف بمكانتهِ في صناعة الحديث ، حتى يقولوا: «إنَّ الحديث الذي لا يعرفه هذا الرجلُ ليس حديثاً» (١).

ويكون مستحضراً لخلافات الفقهاء ومراجعِهم ودلائلهم في كلِّ حين.

---

(١) من الأقوال التي قالها كبارُ علماء العصر في شيخ الإسلام ابن تيمية كما سيأتي في الفصل الرابع.

كما يكونُ له اطلاعٌ تامٌّ على المذاهب الفقهية الأخرى وفروعها أكثَرَ من أصحاب الاختصاص فيها والمنقطعين إليها من أهل المذهب ، ولا يَتعدى حدود السلف مع قوة استنباطه وتحقيقه ، عارفاً بمكانة الأئمةِ المجتهدين وفضلِهم وحقِّهم ، ومتطفلاً على موائد علمهم ودينهم ، ويكون ذا قدمٍ راسخةٍ في علوم اللغة وباع طويل فيها ، حتى تأهَّل لذلك للنَّقْدِ والصَّيرفة في مجالها.

يجمعُ إلى ذلك عُلُوَّ الكعب ودقَّةَ النظر في النحو؛ حتى يأخذ على أئمة النحو الكبار أخطاءَهم الفنية.

ويُجددُ بقوةِ عارضته عَهد المحدِّثين الأولين ، ويعتبر ذكاؤه آيةً من آياتِ الله وعلمِه دليلاً على فضل الله ، ويُبرهن بشخصيته على خصوبةِ تربة الأمة الإسلامية وغَضارة دوحة الإسلام ،ونضارةِ العلوم الإسلامية ونُموِّها وازدهارها ، ويكون تصديقاً لما جاء في حديث النبي ﷺ من قولته الخالدة: «مَثَل أُمَّتي مثلُ المطر ، لا يُدرى أوَّله خيرٌ أم آخره» (١).

جَامِعٌ بين العِلْم والعَمل ، والسَّيف والقلَم:

ويكون مع ذلك من فُرسان العملِ والكفاح ، ويَجمعُ بين القلم والسيف ، جَريئاً على الملوك في الصَّدع بالحق ، لا يُحجِمُ عن قيادة الجيش الإسلامي أمام أَضرى عدوٍّ مِثل الوحوش التتار ، ويَعرِفُه كُلٌّ من حِلَقِ الدرس ، وزوايا المكتبات ، وخلواتِ المساجد ، ومجالس المناظرة ، ومُعتقلاتِ السجونِ ، وساحاتِ الحرب كفارسٍ عظيم ورجل ذي شكيمةٍ ، مُبجَّلاً في كل عين ومعترَفاً بإمامته في كل طبقة.

---

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الأدب ، باب مثل أمتي مثل المطر... ، برقم (٢٨٦٩) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٣٠) برقم (١٢٣٤٩) ، وأبو يعلى في المسند (٦/ ٣٨٠) برقم (٣٧١٦) وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه].

كان القرنُ الثامن بحاجةٍ إلى مثلِ هذا الرجل الكامل الذي يَسعُ نشاطُه كلَّ مجال من مجالات الحياة من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاويةٍ واحدة أو تتركّز على جانب واحد ، كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظُ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاطٍ وحياة بحركات علمية وعملية ، لا تزال آثارُها خالدةً باقية على مر القرون والأجيال.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني:

العَصْرُ الذي عَاش فيه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية

العَصْر الذي وُلد فيه ابنُ تَيميَّة:

يَتَّسمُ عَصرُ ابن تيميَّة بحوادثَ خطيرة وقلاقلَ كثيرة ، وهو عصر ذو أهميَّةٍ كبيرةٍ من النواحي السياسية والاجتماعية والخُلقية والعِلمية والدينية ، ولكي نطَّلع على قيمةِ الجهود الإصلاحية التي قام بها شيخُ الإسلام ابن تيمية ، ونعرفَ طبيعتهُ العلمية والدَّعوية ، يجب أن نَستَعرضَ ذلك الوسط الذي نشأ فيه ، وتركَّزت عليه مُهمته التجديدية والإصلاحية.

وُلد ابن تيمية بعد تدمير بغداد بخمسِ سنوات ، ودخول التتار في حلب ودمشق بثلاث سنواتٍ فقط ، فمِن البديهي أنه يكون قد رأى منذ تَعقُّله آثار الدَّمار لهذه المُدن الإسلامية ، وسمعَ قصة مذابح المسلمين وصدى حكايات الفظائع الوحشية التي قام بها التتار في كل مكان ، وترددت على ألسنة الناس جميعاً.

وعندما كان ابنَ سبع سنين شنَّ التَّتارُ حملةً على مسقطِ رأسِه حرَّان؛ التي كانت تَقع في شمالي الأرض المحتلة (العراق) بين دجلة والفرات.

وقد خرجت أُسرتُه شأنَ الأُسر الكثيرة من حَران فراراً من فظائعِ التتار وظُلمهم ، وتوجَّهت إلى دمشق .

وكانت هَيبةُ التتار فاشيةً في الطرق كلّها ، فما عسى أن تُمحَىٰ ذكرى هذه الفَوضى ، والإرجاف والذُّعر من ذاكرته العظيمة ، ولا بُد أن يكون قد شاهَد آثار هذا الخراب والدَّمار بأُمِّ عينيه ، وسَمع تفاصيله المؤلمة عمَّن رأوا مناظره وشهدُوها وشاهدوها ، فمِن الطَّبيعي أن يتأثَّر قلبُه الغيور المرهفُ بنكبَة المسلمين هذه وذلَّتهم ، وتمتلىء نفسُه غيظاً وكراهية لأولئك الوُحُوش الضَّواري .

وكذلك ما حدَثَ في عَين جالُوت من انتصار المسلمين الزاهر إنَّما وقع قبل مَولِده بثلاث سنوات ، كما أن فتوحَ الملك الظاهر بيبرس كانت أحاديثَ صباه وسميرَ المجالس في ذلك العهد ، فلا شكَّ أن ذلك يكون قد بَعث في قلبه سروراً وقُوة ، وأثارَ في نفسه شجاعة وحماساً .

مُلوك مِصرَ المماليك:

كانَ المماليك يحكمون مِصر والشام من قَبل مولد ابن تيمية بثلاثَ عشرةَ سنة ، وقد كان هؤلاء المماليك أتراكاً أسكَنَهُم الملك الصالح نجمُ الدين أيوب (المتوفى ٦٤٧ هـ) آخرُ ملوك أسرة صلاح الدين الأيوبي اعترافاً بشجاعتهم ووفائهم في مصر ، وعرفوا باسم البَحرية [١] ، وكان مِن بينهم رجلٌ عرف باسم عز الدين أيبك التركماني الذي اغتال تُوران شاه خليفَة الملك الصالح سنة ٦٤٧ هـ واستولى على الحكم ، وتلقَّب بلقب الملك المُعز ، واغتيل هو في سنة ٦٥٥ هـ فخلَفه ابنه نور الدين علي .

وفي سنة ٦٥٧ هـ سيطرَ على عرش الحكم غُلام عز الدين أيبك سيف الدين قُطُز وكان رئيس إدارة الحكم ، وذلك هو الذي هزم التتار لأول مرة هزيمة

---

(١) كان مقرُّهم على ضفَّة النيل ولذلك اشتهروا بهذا الاسم، ومن عادة المصريين أنهم يسمُّون النيل بحراً.

نكراء ، وما إن مَضى على تربُّعه عرشَ الحكومة سنةٌ واحدة؛ إذ قتله رُكن الدين بيبرس مملوكٌ من مماليك الصالح نجم الدين أيوب واستولى على الحكم ، واتَّخذ لنفسه لقب الملك الظاهر ، واستمرَّ في الحكم إلى مدَّة ثمانية عشر عاماً في غاية من الأُبهة وعظَمةِ الشأن ، وانتصر على التَّتار والصليبيين متتابعاً.

وُلد ابن تيمية في أيام الملك الظاهر بيبرس ، الذي كان يحكم آنذاك مصر والشام ، إنَّه قضى أيام صباه في حكمه ، فلما تُوفِّي بيبرس كان ابن تيمية شاباً بالغاً من العمر ١٥ عاماً.

وكان الظاهرُ بيبرس أولَ ملك قويِّ مسلم بعد صلاح الدين اعتنى بأمر الجهاد ، وهزَمَ أعداء الإسلام بالتوالي ، يتحدَّث عنه ابن كثير فيقول:

«كان رحمه الله مُتيقِّظاً ، شَهماً شُجاعاً لا يَفتُر عن الأعداء ليلاً ولا نهاراً ، بل هو مناجزٌ لأعداء الإسلام وأهله ، ولَمِّ شَعثه واجتماع شمله ، وبالجملة أقامه اللهُ في هذا الوقت المتأخر عوناً ونَصراً للإسلام وأهله ، وشجاً في حُلوق المارقين من الفرَنج والتتار والمشركين ، وأبطلَ الخمور ، ونفى الفسَّاق من البلاد ، وكان لا يَرى شيئاً من الفساد والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته»[1].

كانت رقعةُ حكومته واسعةً ، ونظامها متقناً ، فقد امتد حكمه إلى نهر الفرات في الشرق وإلى آخر حدود السودان في الجنوب.

وكانت مصرُ مركز الحكومة ، والقاهرةُ مقرها الرئيسي التي تحولت إلى مركزِ علمي وسياسي وحضاريّ للعالم الإسلامي في ذلك الحين بفَضل الملك الظاهر ، وإقامة أحد الخلفاء العباسيينَ فيها[2].

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢٧٦.

(٢) بقي المسلمون بعد شهادة الخليفة المستعصم بالله ثلاث سنوات من غير خليفة، يقول المؤرخون عند استهلال العام الجديد «دخلت سنة... والمسلمون بلا خليفة» وأخيراً بايع الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ أحد أفراد بني العباس اسمه المستنصر بالله =

وقد أقبل الملكُ الظاهر على تأسيس المدارس في عدد كبير ، حتى اجتمعَ أهلُ الفضل والعلم في القاهرة من أنحاء بعيدة .

وكان الملكُ الظاهر بيبرس ـ على كفاءته الشخصية ودوافعه الإسلامية وحماسه للجهاد ـ حاكماً مستبداً برأيه ، فلا غرابةَ إذا وُجدت فيه بعضُ مواضع الضعف ممَّا يتَّصف به الملوك المستبدُّون ، وإنَّ تاريخه حينما يتجمَّل بمآثره الجليلة وخدَماته الإسلامية؛ يتَّسم بخصائص المملكة الشخصية وأحداث الاستبداد ، والعناد ، والإصرار أيضاً ، وما حدث للإمام النووي معه من معاملة مؤسفة ، لَدَليلٌ على ذلك [١] .

ومُنذ نهاية حكومة الملك الظاهر التي عاشت ثماني عشرة سنة ، تداول عرشَ الحكم في مصر والشام ملوكٌ كثيرون ، ويمكن أن نُقدِّر ذلك بأنَّ تسعة ملوك تربَّعوا على عرش مصر في فترة ما بين ٦٧٦هـ (وهي السَّنة التي توفي فيها الملك الظاهر) إلى ٧٠٩هـ في خلال ٣٣ عاماً فقط .

وفي خلال هذه الفترة تمتعتِ الدولة الإسلامية في مصر والشام والحجاز بملِكٍ مجاهد قوي مُنظِّم للأمور ، اسمه الملك المنصور سيف الدولة قلاوون؛ الذي شن الغارة على التتار في سنة ٦٧٨هـ وهزمَهم هزيمةً مُنكرة .

وكذلك فَتح طرابلس الشام التي كانت بيد الصليبيين منذ ١٨٥ سنة ، إنَّه حكم بين فترة سنة ٦٧٨هـ و٦٨٩هـ مدةَ اثني عشرة عاماً بغاية من الحكمة والدقة .

ولمَّا تُوفي المنصور قلاوون عادَ عرش مصر لُعبة بين ملوك وأشباههم ،

= أبو القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر، وقرر مصر قاعدة الخلافة، ولكن هذه المبايعة إنما كانت بالاسم والبركة فقط، إذ كان الملك الظاهر بيبرس هو الحاكم الأصلي في الحقيقة.

(١) اقرأ القصَّة بطولها في ترجمة الإمام النووي في «طبقات الشافعية الكبرى» للشيخ تاج الدين السبكي.

وأخيراً في سنة ٧٠٩ هـ تقلَّد زمام الحكم ابنُه الملك الناصر محمد بن قلاوون في المرة الثالثة ، حتى استقر حكمه إلى ٣٢ سنة .

والحقيقة أنَّ الملك الناصر هو المعاصرُ الأصيل للإمام ابن تيمية الذي يتصل به تاريخه الإصلاحي ، والتجديدي ، إنه كان خليفة الملك الظاهر بيبرس إلى حد كبير ، ومُشاركاً له في عديد من صفاته وخصائصه ، وكان مثالاً لوالده العظيم المنصور قلاوون ، وفي عصرِهِ نالت الدولة الإسلامية وحدةً وقوةً ، وانتصر على التتار انتصاراً باهراً شأن سَلَفِهِ ، وسَبَّبَ ازدهار الحكومة الإسلامية وانتشار سُمعتها الطيبة .

ظلَّت خراسان ، وفارس ، والعراق تحتَ حكم التتار في هذه الفترة ، ولم تَعُد بغداد إلى أيدي المسلمين ما لم يهتدِ حكامها التتار إلى الإسلام ، على أنَّ الخليفة العباسي في مصر غزا بنفسه ، وأراد الملكُ الظاهر بيبرس غيرَ مرة أن يستردها من أيديهم ولكن دُونَ جدوى ، وقد كانت مصر ، والسودان ، والشام ، والحجاز في حكم المماليكِ آنذاك .

نِظام المَملَكة:

كان الإسلامُ دينَ الدولة الرسميَّ في مملكة المماليك ، فقد كان الملكُ وأعيان المملكة كلُّهم يُحبون الإسلام ، وتَجيشُ في قلوبهم حميَّة الإسلام ، والحكومةُ كانت تتولى نَصْبَ القضاة والأئمة وشيوخ الإسلام ، ورجال المناصب الدينية ، مع وجود قسم الحِسبة واعتبار أحكام القضاة واجبة الامتثال ، وكانت المدارس تقوم بتدريس العلوم الدينية الحُرَّة ، ولكنَّ العامل الأساسي في جميع شؤون المملكة ونظامِها كان هو الملك ووزراؤه الموثوق بهم وأعضاء مملكته ، وكان حُكمهم وإرادتهم قانونَ المملكة الأصيل ، ولذلك كانتْ مساحةُ تنفيذ القوانين الإسلامية محدودةً ضيقةً في مملكتهم الواسعة ، وكان نظام الحكومة يشبه النظام العسكري ، ولم يكن يَعتمدُ على دستورٍ مُدَوَّنٍ ، ولا نظامٍ معينٍ ولا كان له مجلسٌ استشاريٌّ .

ولكنَّ الملكَ الظاهر وخلفاءَه من الملوك كانوا يحاولون أن تنال قوانينُ مملكتهم وأحكامِهم وإجراءاتهم تأييدَ العلماء المعاصرين ، ولا ينفذوا أمراً إلا بالاستشارةِ معهم واسترضائِهم ، وقد يُلغى بعض الأحيان قانون جديدٌ صدر من الملك إذا خالفه العلماء.

ولمَّا أراد الملكُ الظاهر بيبرس مصادرةَ الإقطاعات وأراضي الإقطاعيين في مصر ، والشام؛ خالفه الإمام النووي مخالفة عنيفة، ولو أنَّ بيبرس أبدى سخطه على ذلك، واضطرَّ الإمام النووي إلى مغادرة دمشق من جرائه، ولكنَّه لم يتشجَّع على مصادرة الأراضي والإقطاعات كما أرادها ، بل تركها على سابقِ حالها ، ولم يُدخل فيها أيَّ تغييرٍ أو تعديلٍ.

لقد كان أساسُ هذا النظام للمملكةِ قائماً على التوارث ، غيرَ أنَّ الواقع كان على عكس ذلك ، إلا أنه لم يكن مبنياً على أساس إسلامي ، ولا لأنَّ روح الإسلام وتقاليدَه المتبعة تقتضي اختصاص الأمير بكفاءة شخصية وكونهِ موضع ثقة الأمة ، بل لأن أساسَ أسرة المماليك كان يقوم على الكفاح الذاتي ، والشهامة الشخصية ، والسَّعي الدائب والعمل المتواصل ، وأصبحت طبيعةُ هذه المملكة أن يَتغلَّب القويُّ الشجاع ، ويتولى الحكم.

ومعلومٌ أنَّ مماليك الدولة الأيوبية إنما استولوا على مملكة ساداتهم بجهودهم الشخصية ، وهمَّتهم العالية ، واستمرت هذه السِّلسلة إلى آخر زمانهم ، فقد ظل كُلُّ مَلك منهم يجتهد أن يُولِّي ابنه الخلافة ، إلا أن الأقوى جُرأة وهمة من المماليك كان يتغلَّب على غيره ويتربَّع على عرش المملكة ، وإنَّ فُرص الحكم هذه وإمكانياته قد فَتحت أمام الأقوياء وذوي الطُّموح منهم بابَ المنافسة ، وبما يَجري بينهم من مُباراة وتنافسٍ في الحصول على الحكم ، فإذا شُن عليهم هجوم من جهة ، من التتار أو الأفرنج اتحدوا وتعاونوا فيما بينهم أكثر الأحيان.

الوَضعُ الخُلقي والاجتماعيُّ للبلاد:

هذهِ الفئةُ الحاكمةُ التُّركيةُ كانت تعيش في شعور بالأفضلية ، وتمتاز في كل شيء عن المجتمع العام في الدولة ، وتتكلَّم بلغتها الأم التركية عدا مناسبات العبادة أو الخطاب مع العلماء أو الحديث مع الجماهير (وقلَّما كانت تحتاج إلى الحديث مع الجماهير مباشرة) ، فإنها كانت تستخدم اللغة العربية ، وقد كان البعضُ من هؤلاء الملوك لا يعرفون من العربية إلا القدر الذي يُؤدون به الواجب ، وكانوا مع ذلك يُقدِّرون العلماء ، ويُحبُّون المشايخ والصلحاء ، ويُقبلون على بناء المساجد وتأسيس المدارس ، لم يكونوا يتحيَّزون في تقسيم المناصب إلى فئةٍ دون فئةٍ أو جنسٍ دون جنسٍ ، إلا أنَّ المناصب الإدارية والعسكرية كانت تتحوَّل إلى الرؤساء الأتراك بحكم الطبيعة ، وكان الأتراك والتتار هم أصحابُ الحكم والإقطاعات الذين كانوا يَستغلون المزارعين والعمال.

وفي ٦٩٧ هـ حينما حاول الملكُ حسامُ الدين لاجين في أيام حكمه توزيعَ الأراضي بطريق ينفع المزارعين ويُصلح حالهم ، وتتقدَّم به الزراعة والإنتاج الزراعي ، لم يرضَ به الحكام في مملكته وثاروا عليه.

كان التتارُ عُنصراً مهماً في المجتمع ، إنَّهم كانوا من مُخلفات الحروب التي نشبت بين سيفِ الدين قطز والملك الظاهر وناصر الدين قلاوون وبين التتار ، فقد أُسر فيها عدد كبير من التتار وجيء بهم إلى مصرَ والشام حيث استوطنوا ، إنَّهم كثروا في أيام الملك بيبرس وملؤوا مصر والشام وانتشرت عاداتهم وطرائقُهم فيهما ، كما تحدَّث عنهم المقريزيُّ في «خِطَط مصر» وأنهم على رغم إسلامهم لم يتركوا كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم ، واستمروا على خصائصهم القومية.

وفي الحقيقة يتعذَّر في التاريخ نظيرُ المهتدين الجدد إلى الإسلام الذين تحوَّلوا إلى الإسلام كلياً ، وتجرَّدوا عن عقائدهم وأفكارهم السابقة وخصائص

حضارتهم وتأثير عقلياتهم تجرداً كاملاً ، إنما كان ذلك من خصائص الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومعجزة النبي ﷺ إذ أن صراع الجاهلية والإسلام انتهى في حياتهم تماماً ، كأنهم خُلقوا في الإسلام من جديد.

ففي هذا المجتمع والعصر إذ لم يكن للتعليم والتربية نظامٌ دقيق ، وليس في المجتمع الإسلامي من قوة إذابة المهتدين الجدد وصَوغهم في قالبه ، لا يصح أن يُرجى من التتار والأتراك العجم أن ينصاغوا في قالب العقائد والعبادات الإسلامية ، ويتنازلوا عن قديم عاداتهم وأخلاقهم ، ويتجردوا عنها مئة في المئة ، ولذلك فقد كانت حياةُ هؤلاء التتار المسلمين مزيجاً من الإسلام والتأثير الجاهلي ، يتحدَّث عنهم المؤرِّخ المصري الشهير المقريزي في «خطط مصر» فيقول:

«وكانوا إنَّما رُبُّوا بدار الإسلام ، ولُقِّنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملَّة المحمدية ، فَجَمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيِّد إلى الرديء ، وفوَّضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية كتداعي الزوجين ، وأربابِ الديون ، ونحو ذلك.

واحتاجوا في ذاتِ أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيزخان والاقتداء بحكم الياسق ، فلذلك نَصَبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم ، والأخذ على يد قويِّهم وإنصاف الضعيف منه على مقتَضى ما في الياسق ، وجعلوا إليه مع ذلك النظرَ في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات؛ ليُنفِّذوا ما استقرتْ عليه أوضاع الديون وقواعد الحساب ، وكانت من أجلِّ القواعد وأفضلها حتى تحكَّم القِبط في الأموال وخراج الأراضي» (١).

وكان لزاماً أن يتأثَّر المجتمع الإسلامي والعرب القدامى بما حمل إليهم هؤلاء الأتراك العجم والتتار المُهتدون ، من عادات ، وأخلاق ، وحضارات ،

---

(١) خطط مصر: ج ٢ ، ص ٢٢١.

وتقاليد ، واجتماع ، حتى بما اتَّصفوا به من عقائد وأفكار ، لقد كان الشرق والغرب يختلطان فيما بينهما ويجتمعان بهجوم التتار وفي حالة انتصارهم وانهزامهم ، كما اختلطت آسيا وأوربة في الحروب الصليبية ، قد بدأ هذا الاختلاط من الاشتباكاتِ في ساحة القتال ، ولكنَّه انتهى بالامتزاج الحضاري والفكري والخُلقي ، وتأثَّر كل واحد بصاحبه وأَثَّر عليه.

إنَّ هذا الاختلاط أحدثَ مشكلاتٍ جديدةً وعديدة ، فقد نشأتْ حضارةٌ جديدةٌ واجتماعٌ جديدٌ ، يَصعُبُ الحكمُ فيها هل هي حضارة إسلامية أو اجتماع عربي؟ وفي مثل هذا الوضع تتَضاعف مسؤولية مُصْلِحٍ ومُربٍّ لا يَرضى بوجود أيِّ عادة من عادات الجاهلية أو تأثير غير إسلامي في مجتمع المسلمين ، ويُريد أن يرى هذا المجتمع تابعاً للكتاب والسنَّة بأكملهِ ، ومقتفياً آثار الصَّدر الأول وخيرِ القرون من المسلمين ، ويُحب أن يراه تفسيراً عملياً لقول الله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الوَضعُ العِلمي:

نهَضَ في أوساط هذا القرن أئمةٌ كبارٌ كالعلاَّمة تقيِّ الدين أبي عمرو ابن الصَّلاح (٥٧٧ ـ ٦٤٣هـ) وشيخ الإسلام عزِّ الدّين بن عبد السلام (٥٧٨ ـ ٦٦٠هـ) والإمام محيي الدين النَّووي (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ).

وظهر في أواخر هذا القرن علماء كبار مثل المحدِّث الكبير شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العِيد (٦٢٥ ـ ٧٠٢هـ) ، والأصولي المتكلِّم العلامة علاء الدين البَاجي (٦٣١ ـ ٧١٤هـ).

وقد كان من مُعَاصري ابن تيمية كبارُ المحدِّثين والمؤرخين كالعلامة جمال الدين أبي الحجاج المِزِّي (٦٥٤ ـ ٧٤٢هـ) والحافظ علم الدين البُرزالي (٦٦٥ ـ ٧٣٩هـ) والعلامة شمس الدين الذَّهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨هـ) الذين كانوا يُعدُّون «الأركان الأربعة» للحديث والرواية في عصرهم ، والذين يَعتمدُ على كتبهم المتأخِّرون من العلماء.

كما نَبغ في عصره أساتذةُ الفنِّ البارعون وعلماءُ ذوو كفاءاتٍ علمية قوية كانوا مرجع الخلق وطار صيتهم العلمي في الآفاق، كقاضي القضاة كمال الدين بن الزَّمْلكاني (٦٦٧ ـ ٧٢٧هـ) وقاضي القضاة جلال الدين القَزْويني (م٧٣٩هـ) وقاضي القضاة تَقي الدين السّبكي (٦٨٣ ـ ٧٥٦هـ) والعلامة أبي حيَّان النَّحوي (٦٥٤ ـ ٧٤٥هـ).

لقد كان انتشارُ العلم في تقدُّم مطردٍ، فقد وُجدت في مصر والشام مدارسُ كبيرة، ودور الحديث، تلك التّي أسسها الأيوبيون والمماليك، كان يَـؤُمُّها الطُّلاب من أنحاء العالم لتلقي العلوم الدينية والعقلية، وكانت مكتباتٌ كبيرةٌ تابعةٌ لهذه المدارس وأخرى مستقلة بذاتها تحتوي على ذخائر علمية ونوادر من كلِّ علمٍ وفنٍ، لا يُوصد بابُها لأي دارس، ولقد كانتِ المكتبةُ التابعة للمدرسة الكاملية التي أسَّسها الكامل محمد الأيوبي سنة ٦٢١هـ تحتوي وحدَهَا على مئة ألفِ كتاب.

وقد أُلِّفَ في نفس هذا القرن كتبٌ جليلة تعتبر مرجعاً للمتأخِّرين من العلماء، مثل: «مقدِّمة» العلامة تقي الدين ابن الصلاح، و«القواعد الكبرى» للشيخ عز الدين ابن عبد السلام، و«المجموع» (شرح المهذَّب) وشرح مُسلم للإمام النووي وكتاب «الإمام»، و «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» لابن دقيق العيد و«تهذيب الكمال» لأبي الحجاج المِزِّي، و«ميزان الاعتدال» و«تاريخ الإسلام» للعلامة الذَّهبي.

باستثناء عددٍ من الشخصيات ومآثرَ علمية كان يتَّسم العلم والتأليف في هذا القرن بالسَّعة وقلَّة التعمُّق، ويغلب طابع النَّقل والاقتباس على التفكير والدراسة والتعمق في العلم، وتكوَّنت للمذاهب الفقهية قوالبُ من حديد لا تقبل المُرونة والتسامح، وإن كان القولُ السائد أنَّ الحق دائر بين المذاهب الأربعة، ولكنَّ أتباع كُلِّ مذهب يحصُرون الحق في مذهبهم في الواقع، ولا يزيدون إذا توسعوا كثيراً على أن يقولوا: «رَأيُ إمامنا صوابٌ يحتمل الخطأَ، ورأي غيرنا خطأٌ يحتمل الصوابَ».

لقد كان أتباعُ كُلِّ مَذهب يُرجِّحون مذهبهم الفقهي على سائر المذاهب الفقهية ، ويعتبرونه مَقبولاً ومؤيَّداً من الله ، كانوا يبذلون كُلَّ ذكائهم وقوة بيانهم وتأليفهم في ترجيحه وتفضيله على غيره.

أمَّا النظرةُ التي كان أتباع المذاهب ينظرون بها إلى مذاهبهم ، والعقلية التي كانت تسود على أهلها فيمكن تقديرُ ذلك بأن الملك الظاهر بيبرس لمَّا نصب لكل مذهب قاضياً للقضاة خاصاً به ، خلافاً للعادة المتَّبعة في زمنه ، وهي ألا يكون قاضي القضاة إلاّ شافعياً ، استنكر ذلك فقهاءُ الشافعية ، إذ كانوا لا يرضون إلا أن يروا مصر خاضعة للقاضي الشافعي. ظنّاً منهم أن مصرَ أحق بالمذهب الشافعي لأنها مَدفن الإمام الشافعي ، ولما انتهى حكم الملك الظاهر وانتقلت المملكة من أسرته إلى غيرها ، رأى ذلك بعضُ الشافعية نقمة إلٰهية وعقاباً لِفعلته التي فعلها.

وقد كان التعصُّبُ الكلاميُّ مع التحزُّب الفقهي بالغاً مداه ، كان أتباع المذاهب الأربعة تلاميذ وشيوخاً فيما بينهم معترفين بعضهم بفضل بعض، يتبادلون الحبَّ والإكرامَ والزيارةَ ، غير أنَّ اتحاد الأشاعرة مع الحنابلة كان شبه مستحيل ، فبينما كانت المذاهب تختلفُ في الأفضلية والأولوية، كانت الأشعرية والحنبلية تختلفان في الكُفر والإسلام ، كلُّ طائفة كانت تُلِحُّ على تكفير الطائفة الأخرى ، وكانت المباحث الاعتقادية وتقعُّر المتكلِّمين تتغلَّب على جميع المباحث الأخرى ، وكان هذا الذَّوق فوق كلِّ ذوق ، يَسكَر به العامةُ والخاصة جميعاً وتُبتلى به الحكومات أيضاً.

هذا ، وكان التصوُّف في جانبٍ آخر قد بلغ أوجَه ، ودخل فيه كثير من الأفكار والعناصر غير الإسلامية ، وانتمى إليه كثيرٌ من الجهلاء والمحترفين والمبتدعين المارقين ، وسبَّبوا ضلال العامة والخاصة ، وازدهارَ الشرك والبدع في المجتمع.

كما اشتغلتْ طائفةٌ من الفلاسفة بنشر تعاليمها جَهراً وعلانية حيناً ، وسِرّاً وخفية بعض الأحيان ، مُتحرِّرة من قيود الدين وتعاليم الأنبياء ، وطائفةٌ أخرى

كانت تعتبر الفلسفةَ مقياساً أصيلاً وتُريد ترقيعها بالأديان ، وتحاول التوفيق بين العقل والنقل. وكانتِ الطائفتان كلتاهما من مُقلِّدي أرسطاطاليس ، وأفلاطون ، ومُقدّسي أفكارهما وآرائهما ، ومن المعتقدين لصحةِ علومهما وفضلهما ، وكونهما أمراً فوق الطاقة البشرية ، فلم تكونا تَعترفان بخطئِهما في أي ناحية ، ولا تحيدانِ في شيءٍ عن نتاج أفكارهما ، ودراستهما.

كان ذلك هو الوسطُ السياسيُّ والاجتماعيُّ والفكريُّ والعلميُّ الذي ترعرع فيه ابنُ تيمية ، ورَفع فيه لواءَ الإصلاح والتجديد.

* * *

الفصل الثالث:

نشأةُ ابنِ تيمية وَحَيَاته

مَسْقَطُ رأس ابنِ تيمية:

تَتَوَزَّع بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) بين جُزءين:

١ ـ الجزء الجنوبي الذي يُسمى بالعراق العربي، وهو يتضمن بغداد والبصرة.

٢ ـ الجزء الشمالي ويسمى في الأدب العربي القديم بديار بكر وديار مضر، ويُعبِّر عنه الجغرافيون العرب باسم «الجزيرة»، ويقع في شمالها أرمينيا، وفي جنوبها العراق العربي، وفي شرقها كردستان، وفي الغرب آسيا الصغرى وبادية الشام، وفي هذه المنطقة تقع الموصل والرقة (البيضاء) ونصيبين والرُّها [1]، وفي جنوب الرُّها على بعد ثماني ساعات تقع حرَّان، المدينة التاريخية الشهيرة التي ظلت مركزاً دينياً وعلمياً للصابئين من قديم كما يقول ابن حوقل، واشتهرتْ هذه المدينة وامتازت بصفةٍ خاصة بالفلسفة والعلوم اليونانية القديمة، وتلك هي حران التي كانت موطن ابن تيمية القديم حيث كانت أُسرته تسكن من قرون.

---

(١) وتُعرَف اليوم باسم «أورفا» وهي ضمن دولة تركيا اليوم.

أُسْرةُ ابـن تيميـة:

أُسرةُ ابن تيمية [١] التي عُرِفتْ بهذا الاسم من قديم ، كانت أُسرة حران المعروفة بالعلم والدين ، وكانت هذه الأسرة ـ منذ أن عُرف تاريخها ـ حنبليةَ العقيدة والمذهب ، تتزعَّم المذهب الحنبلي في تلك الديار ، واشتغل رجالُها العلماء دائماً بالتدريس والإفتاء والتأليف .

كان جَدُّ ابن تيمية أبو البركات (مجد الدين) من أئمة المذهب الحنبلي وكبارِ علمائه ، وقد سماه بعض أهل العلم بالمجتهد المطلق [٢] ، يقول الحافظ الذَّهبي إمام فَن الرجال في كتاب «النبلاء» :

«وُلد مجد الدين ابن تيمية حوالي سنة ٥٩٠هـ ، وأخذ العلم أولاً عن عمه الخطيب والواعظ الشهير فخر الدين ابن تيمية ، ثم تلقى العلم من محدِّثي وعلماء حرَّان وبغداد ، وتخرَّج عليهم ، وبرع في الفقه ، وانتهت إليه الإمامة في الفقه . ولمَّا وصل إلى بغداد في سنة ٦٥١هـ في رحلته إلى الحج قضى عُلماء بغداد العجبَ مما رَأوه من ذكائه وبراعته في العلم .

يقول الإمامُ الذهبي : «حكى لي شيخُ الإسلام ابن تيمية بنفسه أنَّ الشيخ ابن مالك [٣] كان يقول : لقد ألان الله الفقه لمجد الدين ابن تيمية كما ألان الحديد لداودَ عليه السلام» .

---

(١) كانت بداية هذه النسبة منذ جده الأكبر محمد بن الخضر، واختلف المؤرخون في سبب هذه التسمية، وقيل: إن اسم أم محمد بن الخضر التي كانت واعظة كان: تيمية، ومن هنا انتمت هذه الأسرة إليها.

(٢) راجع ترجمة صاحب «منتقى الأخبار» بقلم العلامة محمد بن علي الشوكاني صاحب «نيل الأوطار».

(٣) [هو محمد بن عبد الله بن مالك ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة في علوم العربية ، وُلد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق وتوفِّي بها سنة ٦٧٢ هـ ، ومن أشهر كُتبه «الألفية» في النحو].

وكان يقولُ أيضاً: «إنَّ جدنا (مجد الدين) كان فيه شيء من السَّورة والغضب.

وقد سأله أحدُ العلماء مرَّة عن مسألة علمية، فقال له: إنَّ جواب هذه المسألة على ستين طريقاً، ثم عدد عليه كلَّ جواب واحداً بعد آخر وقال له: حَسْبُك أن تُعيدها، إنه دُهش بهذا الذكاء النادر وبُهت.

ويقول ابنُ تيمية أيضاً: إنَّه كان فريد دهره في نقل المتون وحفظ المذاهب، لم يكن يفتقر في ذلك إلى تكلُّف أو اهتمام[١].

توفِّي سنة ٦٥٢هـ، ومن أشهر تصانيفه وتذكاره العلمي «منتقى الأخبار» استفاد منه العلماء، واعتنوا به في كل عصر، وقد اهتم المؤلف في هذا الكتاب بِجَمع الأحاديث حول الأبواب الفقهية، التي تُعتبر دليلاً لأهل المذاهب ومرجعهم.

وقد تَصدَّى في الأخير عالمُ اليمن المجتهد ومحدِّثها النابغة العلامة محمد بن علي الشَّوكاني المتوفى ١٢٥٥هـ لشرح هذا الكتاب فشرحه في ثمانية مجلَّدات باسم «نيل الأوطار» الذي يَحْتلُّ مكانةً مرموقةً في الأوساط العلمية والتدريسية لما يحتوي عليه من حسن التلخيص وجودة الترتيب والبحوث المقنعة، وسَعة نظر المؤلف، ورَحابة قلبه[٢].

أمَّا والدُ ابنِ تيمية الشيخ شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية فقد كان عالماً مُحدِّثاً، وفقيهاً حنبلياً، وصاحب تدريس وإفتاء، ولمَّا انتقل من حران إلى دمشق قام بالتدريس بصورة مُنظمة في الجامع الأموي الذي كان يعتبر مركزاً لكبار العلماء والمدرسين، ولم يكن يَسعُ كلَّ عالمٍ أو مدرِّسٍ أن يُدرِّس فيه، وقد كانت تمتاز دروسه بالارتجال والتكلُّم عن ظهر القلب، من غير أن يستعين في أثناء التدريس بكتاب، إنما كان يعتمد على ذاكرته وحفظه، ووَلِّي مع ذلك

---

(١) وقد انتقلت هذه الخصائص كلها إلى حفيده العظيم.

(٢) راجع «البداية والنهاية» ج١٣ ص٣٠٣.

شياخة دار الحديث السُّكرية[١] بالقصَّاعين وبها كان سكَنه ، توفي سنة ٦٨٢هـ ودفن بمقابر الصوفية[٢] رحمه الله [٣].

مَولدهُ وانتقاله من حرَّان إلى دمشق:

وُلد تقي الدين ابن تيمية يوم الإثنين ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١هـ في هذه الأسرة العلمية والدينية الشهيرة ، وسماه والده بأحمد تقي الدين ، واكتنى بأبي العباس يافعاً ، ولكنه اشتهر بابن تيمية ، وغَلب لقبُه النسبي على اسمه وبذلك عُرف بين الناس.

وقد ذكرنا أنَّ عصرَ ابن تيمية كان مليئاً بالقلاقل وفظائع التتار ، فقد كان العالم الإسلامي كُلُّه يرتجف خوفاً من التتار الوحوش ، غير أنَّ أرض العراق والجزيرة كانت مجالهم بصفةٍ خاصةٍ ، وما كاد ابنُ تيمية يبلغ سبع سنين من عمره حتى أغار التتار على حرَّان ، فالتجأتْ أسرته إلى الفرار منها بجميع ما كان لديها من تراث العلم والفضيلة ، وما كانت تملكه من الفضل والكرامة والشرف والطهارة شأنَ مئات من أُسَر العلماء والأشراف.

وبما أنَّ العراق كان مركز غارة التتار ونهبِهم لم تُفكِّر هذه الأسرة في الهجرة إليه ، وكانت الشام أقرب بلدٍ لم يصل إليه لهيب هذا الفساد والدمار حيث كانت تحكم ملوك مصر الأقوياء ، فاتجهتْ إليها أسرة ابن تيمية ، وقصدت دمشق فراراً من فِتنة التتار وغارتهم.

---

(١) [كانت داراً ، وقفها زكي الدين أحمد بن طلائع على الأمير شرف الدين سُكَّر ، ومن بعد تصبح دارَ حديثٍ ومسجداً ، وبعد أن أصبحت دارَ حديثٍ ، سكَنَ فيها شيخُ الإسلام ابن تيمية ، والمدرسة اليوم داخلة في البناء الملاصق لدار القرآن الخيضرية من الجنوب ، ولا أثر لها (خطط دمشق: للأستاذ أكرم حسن العلبي: ٨٠ـ٨١)].

(٢) [وهي المقبرة الشهيرة التي هي مدفن كبار أهل العلم والصلاح ، كابن عساكر ، وابن الصلاح ، وابن الأثير ، والحافظ المزِّي ، وابن كثير ، وقد دُرِسَتْ وبُنيتْ عليها عمارة جامعة دمشق].

(٣) راجع «البداية والنهاية» ج ١٣ ص٣٠٣.

ولم تنسَ هذه الأسرةُ العظيمةُ في مثل هذه الحالة القَلِقَةِ والوضع القاسي أن تنقل معها مكتَبتها الثمينة التي كانت تراثها العلمي التَّليد الوحيد ، ولم ترض بمفارقتها على الرغم ما ستُقاسِيه من جرائها من متاعب ومشاقّ شديدة ، وحمَّلت الكتب أغلى متاعها على مركبةٍ وخرجت ليلاً من غير أن يُفارقها خوف التتار ، فقد كان الخوف يشملُ كلَّ مكان ومعها النساء والولدان ، وقد تزايدتِ الصعوبة والمشقة في جرِّ المركبة بالأيدي لعدم توفر الدَّواب ، وكان هذا الركب سائراً على قدم وساق ، إذ كاد العدو (التتار) يلحقهم لتوقف المركبة عن السير ، وهنالك تضرَّع أعضاءُ الأسرة إلى الله واستعانوا به ، حتى نَصرهم الله وأنجاهم من المهلكة.

في دمشق:

وما كادتْ هذه الأُسرةُ العلمية تصِل إلى دمشق حتى شاع خبرُها في أوساط الناس ، وقد كان أصحابُ العلم عارفين باسم أبي البركات مجد الدين ابن تيمية وأعمالهِ ، كما كان عبد الحليم ابن تيمية معروفاً بينهم بعلمه وفضله ، وما هي إلا بضعةُ أيام إذ بدأ عبد الحليم يُدرس في الجامع الأموي ، وفي دار الحديث السُّكَّرية ، وصار مرجعَ الطلبة وعلماء المذهب الحنبلي ، وهكذا لم تشعرْ هذه الأسرة في هذا البلد الجديد بأيِّ غُربةٍ أو وحشةٍ.

وانتهى ابنُ تيمية الصغيرُ من حفظ القرآن الكريم في وقت مُبكِّر ، واشتغل بدراسة الفقه والحديث وعُلوم العربية ، وكان يحضُر خلال ذلك رغم صِغر سنِّه مجالسَ التدريس والوعظ عند والده ، وعندَ العلماء في حِلَقهم ، ويُشارِكهم في المذاكرات العلمية التي كانت سبباً لتوسع عقلهِ الأخّاذ وتفتُّح ذهنه الفحّاص.

ذاكِرةٌ عَبقريّةٌ:

عُرِفت أسرةُ ابن تيمية بقوة الذاكرة وكثرةِ الحفظ وسُرعتِه ، فقد كان أبوه وجدُّه قويي الذاكرة ، ولكنَّ تقي الدين ابن تيمية سَبق أسرته كُلَّها في هذه

النعمة ، فقد أدهش العلماءَ وأساتِذته بذاكرته القوية النادرة وسرعةِ حفظه واشتهر بذلك في دمشق ، يتحدَّث عن ذلك صاحب «العقود الدرية»[١] فيقول:

«اتَّفق أنَّ بعضَ المشايخِ العلماء بحلَب قدِم إلى دمشق ، وقال: سمعتُ في البلاد بصبيٍّ يقال له أحمد ابن تيمية ، وأنَّه سريع الحفظ ، وقد جئتُ قاصداً لعلِّي أراه ، فقال له خيَّاط: هذه طريقُ كُتَّابه ، وهو إلى الآن ما جاء ، فاقعد عندنا الساعة يَجيء ، فجلس الشيخ الجليل قليلاً فمرَّ صَبِيَّان ، فقال الخياط للشيخ الحلبي: هذا الصبيُّ الذي معه اللوح الكبير هو أحمد ابن تيمية ، فناداه الشيخ فجاء إليه ، فتناول الشيخُ اللوح ، فنظر فيه ثم قال: يا ولد امسح هذا حتى أُملي عليك شيئاً تكتبه ، ففعل ، فأملى عليه من مُتون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً فقال: اقرأ هذا ، فلم يزد على أن تأمَّله مرة بعد كتابته إياه ، ثم رفعه إليه ، وقال: اسمعه ، فقرأ عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع ، فقال: يا ولدي امسح هذا ، ففعل ، فأملى عليه عِدةَ أسانيد انتخبها ، ثم قال: اقرأ هذا . فنظر فيه كما فعل أول مرة ، فقام الشيخ وهو يقول: إنْ عاش هذا الصبيُّ ليكوننَّ له شأنٌ عظيمٌ ، فإنَّ هذا لم يُر مثلُه»[٢].

وبالنسبة إلى حكايات سرعة الحفظ وقوة الذاكرة التي تتضمَّنها كُتب التاريخ الموثوق بها ، وما نشاهده ونجربه في رواة وأئمة الأدب من أمثلة عديمة النظير للذاكرة النادرة ، فليست قصةُ ذاكرة ابن تيمية هذه مستحيلةٌ ولا غريبةٌ ، وإنما يُصدَّق ما ظهر منه نفسُه في حياته الآتية من وقائع الحفظ والنقل أنه رُزق ذاكرة عبقرية يتعذَّر نظيرها.

الدِّراسةُ والتَّخرُّج:

بدأ ابنُ تيمية دراسة العلوم باهتمامٍ وعناية بالغين ، يتحدَّث عنه معاصروه

---

(١) [هو تلميذ شيخ الإسلام الحافظ ابن عبد الهادي المقدسي ، وكتابه العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية؛ قد طبع بعناية الشيخ محمد حامد الفقي].

(٢) ابن تيمية: لمحمد أبي زهرة ، ص٢١.

ومؤرخوه أنه رَغم صِغَر سنه لم يكن يتَّجه إلى الملاعب والملاهي كما يفعل الأطفال فلم يكن يُضيع فيها وقته ، ولكنْ كان على ذلك مطلعاً على أمور الحياة والمجتمع في ذلك الوقت وخبيراً بأحوال المدينةِ وعاداتِ الناس وأخلاقهم ، ويبدو من تأليفاتهِ أنه كان واسعَ النظر عميقَ الدراسة للحياة والمجتمع ، ولم يكن يعيش في عُزلة عن الجماهير قابعاً في ركن علمي فحسب.

درس ابنُ تيمية العلومَ المعروفة في عصره ، وعُني بالعربية عناية كبيرة وبرع في اللغة والنحو براعةً تامة ، وقد اعتنى بدراسة «الكتاب» لسيبويه بنظر ناقد ، وعقل فاحص ، وهو كتاب له أهمية كبرى في النحو ، (حتى إذا قيل «الكتاب» مُطلقاً يعنى به كتاب سيبويه) فخالفَ فيه بعضَ مسائله وانتقد مواضع ضَعفه ، وأخذ على المؤلف أخطاءه ، وكانت له مَلَكةٌ قوية في العربية واللغة والنحو استخدمها في حياته العلمية واعتمد عليها في أبحاثه وتأليفاته ، وقد حَفِظَ على ذلك جزءاً كبيراً من مَنثور كلام العرب ومنظومه.

ودرس أحوالَ الجاهلية والعرب الأولين ، وتوسَّع في دراسة تاريخ العهد الإسلامي والدول الإسلامية ، واستفاد من كلٍّ هذه الدراساتِ المتنوِّعة الواسعة في مناحي حياته العلمية المختلفة فيما بعد ، ولم يُوجد ممن عاصروه وناظروه من العلماء أحدٌ يساويه في سَعة المعلومات وعُمق النظر ، وكان ذلك سبباً كبيراً لتفوُّقه العلمي وكَعْبه العالي في العلم والتحقيق.

وعُني مع دراسته للعلوم بالخط والحساب والعلوم الرياضية ، وتلقاها من أساتذتها.

كما أنه اعتنى بالغ الاعتناء بالعلوم الدينية من الفقه والأصول والفرائض والحديث والتفسير.

أمَّا الفقهُ الحنبلي فقد ورثه من آبائه ، وكان أبوه أستاذه العطوف ومربِّيه المخلص في هذه الناحية.

وكان سماعُ الحديث وحفظه وكتابته من عاداتِ عصره المتبعة ، وأولُ

كتاب حفظه في الحديث «الجمع بين الصحيحين» للحُميدي ، ثم استفادَ من شيوخ عصره وعلماء الشام وأخذ عنهم الحديث ورواهُ.

يقول ابن عبد الهادي : «إنَّ شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مئتي شيخ ، ومن خواص شيوخه ابن عبد الدائم المقدسي ورجال طبقته ، وسمع (مسند الإمام أحمد) مرات ، وكذلك سمع الصحاح الستة مراتٍ عديدة» (١).

أمَّا التفسير فكان أحبَّ موضوع لدى ابن تيمية ، وكان له شَغفٌ زائد بهذا الفن ، يتحدث بنفسه أنه درس أكثر من مئه كتاب في تفسير القرآن ، وكانت له مناسبة طَبعية بهذا الفن ، وقد أفاضَ الله عليه علومَ القرآن بوجه خاص لكثرةِ تلاوته القرآن والتدبُّر في معانيه ودراستِهِ بتأمُّل وبصيرة ، وكان لا يكتفي بدراسة القرآن فحسب بل يُنيب إلى ربِّه ويسأله نِعمة فَهم القرآن وشَرْح الصدر ، إنه يتحدث عن طَلَبِه لعلم القرآن وتدبُّره فيه ، يقول:

«ربَّما طَالعتُ على الآية الواحدة مئة تفسير ثم أسأل الله الفهم وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علِّمني ، وكنت أذهبُ إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله وأقول: يا مُعلِّم إبراهيمَ فهِّمني» (٢).

وكانت لِعلمِ الكلام الذي حمل لواءه الأشاعرةُ كلمةٌ نافذة في هذا العصر ، ولا سيما في مصر والشام ، فقد كان السلطان صلاح الدين نفسُه أشعرياً ، حافظاً لمتن قُطب الدين أبي المعالي الأشعري (الذي كان قد ألَّفه في العقائد) منذ صِغره ، وكان يُشرف على تحفيظه لأولاد أسرته الصغار ، وكان هو وخلفاؤه بنو أيوب قَد جعلوا الناس ملتزمين للعقيدة الأشعرية ، فكانت «الأشعرية» تتمتَّع بحماية الحكومة إلى عصره وعصر خلفائه مماليك مصر (٣).

وكانت الحنابلة يُعتبرون خصماً معارضاً للأشاعرة ، تَحدث بينهم بعض المناوشات الكلامية ويشتغل كلا الفريقين بالجدل والكلام ، فقد كان كلام

---

(١) راجع «الكواكب الدرية».

(٢) العقود الدرية : ص٢٦ .

(٣) راجع «خطط مصر» للمقريزي.

الأشاعرة وطريقُ إثباتهم مبنياً على الاستدلال العقلي والبرهان المنطقي.

أمَّا الحنابلة فكانوا يبحثون عن المعاني الظاهرة للنصوص والآيات والأحاديث ، وكان يبدو بعض الأحيان أنَّ كفتهم تطيش في الجدال العلمي لعدم تعمقهم في علم الكلام وانقطاعِهم عن ممارسة العلوم العقلية ، فكان يغلب على الظن ويُخيل إلى الناس أنَّ خبرتهم بالعلوم العقلية قليلةٌ أو عديمة وأنهم ليسوا متعمِّقين في العلم.

ولعلَّ ذلك ما حفز ابن تيمية ، ذلك الشاب الغيور والعالم الذكي على التوسع والتعمُّق في علم الكلام والاطلاع على العلوم العقلية مباشرة ، فعكف على الدراسة العميقةِ لهذه العلوم وتبحَّر فيها حتى أدرك مواضع الضَّعف فيها وأخطاء مؤلفيها وأئمتها من حكماء اليونان ، وتصدَّى للرد على هذه العلوم وانتقادها ، وألف كتباً عَجزت الأوساط الفلسفية كُلُّها عن الردِّ عليه.

والحاصلُ أنَّ ابن تيمية شمَّر عن ساق الجد لشرح الكتاب والسنة في عصره وإثبات تفوُّق الدين وصحته، وإزالة معالم الضلالات العلمية والعملية، وتسلَّح له بأسلحة علمية ، كان يتطلَّبها ذلك العصر في خضمِّ علومه وفترةِ الفوضى العلمية والفكرية ، إنه تعلم المحاربة بالأسلحة التي كان معارضوه من أعداء الإسلام قد تسلَّحوا بها ، إنه تبحَّرَ في العلوم بما أدهش معاصريه ، يَعترف بفضله ونبوغه العلمي مُعاصِرُه الشهير العلامة كمال الدين الزَّملكاني ، ويقول:

«قد أَلانَ الله له العلوم كما ألان لداود الحديد ، كان إذا سُئل عن فن من العلم ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثلَه ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه ، ولا تكلَّم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرِها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه ، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف»[(١)].

---

(١) الكواكب الدرية: ص٥.

دَرْسُ ابن تيميَّة الأول:

وما كاد ابنُ تيمية يبلغ من عمره ٢٢ سنة حتى تُوفِّي والده العظيم عبد الحليم بن تيمية في سنة ٦٨٢هـ ، وحدَث فراغ كبير في مشيخة التدريس بدار الحديث السُّكَّرية.

ولكن لم يَطل على فراغه زمن طويل ، وخلفه في التدريس ابنهُ النابغة في الثاني من محرم ٦٨٣ هـ وسدَّ ذلك الفراغ ، وألقى درسه الأول وكان في ذلك الحين ابن ٢٢ سنة ، وقد حَضر درسه هذا الأول كبار علماء دمشق وفضلاؤها ، فالشيخ قاضي القضاة بهاء الدين بنَ الزَّكي الشافعي كان حاضراً بنفسه علاوة على الشيخ تاج الدين الفِزاري شيخ الشافعية ، والشيخ زين الدين بن المنجا الحنبلي من علماء الحنفية ، وغيرهم من سراة العلماء وكبارهم حضروا درسه الأول الذي ترك في نفوسهم تأثيراً عميقاً ، وجعلهم يعترفون بالتبحر العلمي ، وسرعة بديهة العالم الشاب ، وفصاحته ، وجراءته.

يتحدَّثُ الحافظ ابن كثير تلميذُ ابن تيمية ضمن أحداث سنة ٦٨٣ هـ عن درسه هذا ، ويصفه بما يأتي:

«وكان دَرساً هائلاً ، وقد كتَبَهُ الشيخ تاج الدين الفِزاري بخطه لكثرة فوائده، وكثرةِ ما استحسنه الحاضرون ، وقد أطنبَ الحاضرون في شكره على حداثة سِنِّه وصغره ، فإنه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين» [(١)].

«ثم جلسَ الشيخ تقيُّ الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هُيىء له لتفسير القرآن العزيز فابتدأ من أوله في تفسيره ، وكان يجتمعُ عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يُورد من العلوم المتنوعة المحرَّرة مع الديانة والزهادة والعبادة مما

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٣ ص٣٠٣.

سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان ، واستمرَّ على ذلك مدة سنين متطاولة»[١] .

رِحلته إلى الحج:

«في سنة ٦٩٢ هـ حَجَّ الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله مع الركب الشامي» وكان أميرُهم الباسطي ، ونالهم في «معان» ريحٌ شديدة جداً مات بسببها جماعة ، وحملتِ الريح جمالاً عن أماكنها ، وطارتِ العمائم عن الرؤوس واشتغل كل أحد بنفسه» [٢] .

عُقوبة شاتِم الرسول ﷺ :

«في سنة ٦٩٣ هـ حدَث ما ظهرت به حميَّتُه الدينية وعاطفته الإيمانية بشكل علمي ، فقد كان في دمشق رجلٌ اسمه عساف النصراني شهد عليه جماعة أنه سبَّ النبي ﷺ ، وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجي أمير آل علي ، فاجتمع الشيخ تقي الدين ابن تيمية والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث ، فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة ، فكلماه في أمره ، فأجابهما إلى ذلك ، وأرسل ليحضره ، فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس ، فرأى الناس عسافاً حين قدم ومعه رجل من العرب ، فسبُّوه ، وشتموه ، فقال ذلك الرجل البدوي: إنه خير منكم ـ يعني النصراني ـ فرجمهما الناس بالحجارة ، وأصابت عسافاً ، ووقعت خبطة قوية ، فأرسل النائب ، فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقي ، فضربهما بين يديه ، ورسم عليهما في العذراوية ، وقدم النصراني فأسلم ، وعقد مجلس بسببه ، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة ، فحُقن دمه ، ثم استدعى بالشيخين ، فأرضاهما ، وأطلقهما .

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٣ ، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق ج ١٣ ، ص ٣٠٣.

وصنَّف الشيخ تقي الدين ابن تيمية في هذه الواقعة كتابه الشهير «الصارم المسلول على شاتم الرسول» [١].

«وفي الرابع من شهر شعبان سنة ٦٩٥ هـ تُوفي شيخ الحنابلة العلامة زين الدين ابن المنجَّا فخلفه ابنُ تيميـة ، وشَغَل شياخة التدريس في المدرسة الحنبلية» [٢].

المعارضة الأولى:

وبينما كان ابنُ تيمية مَشغولاً بالدرس والتدريس ، وكان إقبالُ الناس من الخاصة والعامة كبيراً عليه؛ إذْ قامت عليه الضَّجة لأوَّلِ مرة في سنة ٦٩٨ هـ ، واستهدفت شخصيته ، ومُعْتقداته بصفة خاصة .

وممَّا يُحكى عن تفاصيـل هذه القصـة أنَّ بعض أهل «حماة» من الشام وجَّهوا إليه استفتـاءً في سنة ٦٩٨ هـ يسألونـه فيه عن تحقيـق العلماء في الصِّفتين التي وصف الله بهما نفسه في هذه الآيات: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] و﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٩] وما أشبههما؛ وعن تحقيقهم في هذه الأحاديث «إنَّ قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن» [٣] و«يضع الجبَّـار قدمه في النار» [٤] وما شاكلهما ، وسألوه عمَّا يذهب إليه أهل السنة من

---

(١) البداية والنهاية: ج١٣ ، ص ٣٣٥ ـ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٤٤.

(٣) [أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٤/ ٤١٤) برقم (٧٧٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٧) برقم (٣١٤٠) من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه ، والطبراني في الأوسط (٢/ ١٤٧) برقم (١٥٣٠) من حديث عائشة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٠): رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه العلاء بن الفضل. قال ابن عدي: في بعض ما يرويه نكرة وبقية رجاله وثِّقوا].

(٤) [لم نجده في مصادر الحديث إلا ما ذكره أبو الحسن الجزري في «اللباب في تهذيب الأنساب» (١/ ٤٠٨) ، وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه (٥/ ١٢٧) بمعناه من =

العلماء في باب صفات الله تعالى.

فأجابهم شيخُ الإسلام عن هذه الأسئلة بتفصيل كبير وإيضاح كافٍ[(١)] ، وتحدَّث عن مذهب الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والمتكلِّمين والمتقدِّمين من العلماء (كالإمام أبي الحسن الأشعري ، والقاضي أبي بكر الباقلاني ، وإمام الحرمين) مستدلاً بأقوالهم وتآليفهم ، وأثبتَ من مقتطفات كتبهم أن كل هؤلاء العلماء إنما كانوا يرون الإيمان بصفات الله تعالى من واجبات الدين ، وأنهم يعترفون بحقيقتها التي تتفق مع جلال الله تبارك وتعالى وتجدر بذاته العلية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ومع التنزه الكامل من كل تشبيه أو تجسيم ومن كل نفي وتعطيل.

يعني أن هذه الصفات لا يقيسونها على صفات الخلق ، ولا أنهم ينكرونها ، وينفونها من شِدَّة المغالاة والإفراط في التنزية والتقديس ، ولا أَنهم يُؤولونها تأويلاً يبعدها عن الحقيقة ويتركها مجرد كناية ومجاز ، بل إنهم كما يؤمنون بذاته وصفاته السبع (من الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والإرادة) يؤمنون كذلك بحقيقتها التي تتَّفق وعظمة الألوهية.

كما أَنَّهم يؤمنون بالألفاظ المنصوصة من الوجه ، واليد ، والغضب ، والرضا ، وفي السماء ، وفوق العرش ، حقيقةً من غير تأويل أو مجاز ، ويُثبتون حقيقتها بما يليق ذاته المنزهة المقدَّسة التي ليس كمثلها شيء والتي لا تُحدُّ ولا تقاس.

إنَّ مذهب هؤلاء الرجال من علماء أهل السنة ونظرتَهم لا يختلفان في هذين النوعين من الصفات ، وكما أن الإيمان بالحياة ، والعلم ، والقدرة ، وما إلى ذلك لا يستلزم أن المراد بذلك حياة المخلوقات والمحدَثات الضعيفة ،

= حديث أنس رضي الله عنه].

(١) عُرف هذا الجواب باسم «العقيدة الحموية الكبرى» رسالة تقع في ٥٠ صفحة ضمن «مجموعة الرسائل الكبرى» طبع في مصر سنة ١٣٢٣ هـ.

وعلمها المستعار المحدود وقدرتَها الناقصة ، ولا أنَّ الجماعة المؤمنة بحقيقة هذه الصفات تسمَّى «المجسِّمة».

وكذلك الاعتقاد بما جاء في القرآن من ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧] و﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] و﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦] من غير تأويل أو توجيه لا يَعني أن المراد باليد والوجه المخلوق ويد الحادث ، وأن القَصد من الفوقية والمكانية كفوقية ومكانية المحدود بإزاء المحدود ، والجسم مقابل الجسم ، كما لا يصح الطَّعن «بالتشبيه والتجسيم» لمن يُؤمن بحقيقة هذه الصفات .

يُؤيِّد هذا المذهب ما استدلَّ به ابن تيمية من أقوال السلف الأولين والمتكلمين المتقدمين وعباراتهم ، إنه يقول: «ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولا عن أحدٍ من سلف الأمة ، ولا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرفٌ واحدٌ يخالف ذلك ، لا نصاً ولا ظاهراً ، ولم يقلْ أحد منهم: إن الله ليس في السماء ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه في كل مكان ، ولا أن جميعَ الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها .

فلئنْ كان الحقُّ ما يقوله هٰؤلاء السَّالبون النافون من هذه العبارات ونحوها دونَ ما يُفهم من الكتاب والسُّنة إما نصاً وإما ظاهراً؛ كيف يَجوزُ على الله ثم على رسوله ثم على خير الأمة أنهم يتكلمون دائماً بما هو نَصٌّ أو ظاهر في خلاف الحق ؟

ثم الحقُّ الذي يجب اعتقاده لا يَبوحُون به قط ولا يدلُّون عليه نصاً ولا ظاهراً حتى أنباطُ الفرس ، والروم ، وفروخُ اليهود ، والفلاسفة يُبيِّنون للأمة العقيدة الصحيحة التي يجب على كل مكلف أو كل فاضلٍ أن يَعتقدها»[1] .

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى: ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

ثم إنَّه أثبت بالدلائل أنَّ المتكلِّمين المتأخِّرين اندفعوا بتأثير الفلسفة اليونانية وشيءٍ من المغالاة في التنزيه إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً بعيداً عن حقيقة اللُّغة، وفهم الصحابة، ونصوص الحديث بُعداً شائناً مسَّ حُدود النفي والتعطيل.

إنَّهم ابتعدوا في ذلك عن مذهب السلف من العلماء وأئمة السنة والمتكلِّمين المتقدِّمين أنفسِهم، حتى جعلوا يتكلَّمون عن السلف ما يُزري بعلمهم، أما مَن يأخذ بالحيطة البالغة منهم فيقول: إنَّ طريقة السلف أسلمُ وطريقة الخلفِ أعلمُ.

ولا شكَّ أن هذا الكلام مبنيٌّ على الجهل بمكانة السلف وحقيقتهم ودليلٌ على قلة علمهم، فإنَّ السلف إنما كانوا على علم جَمٍّ بالشريعة، وأين فروخ فلاسفة اليونان، والملتقطون من فُتات مائدة الهنود والفرس من ورثة الأنبياء المتقدِّمين وخلفاء الرُّسل وحملةِ الكتاب والسنة في المعرفة الإلهية وتَفهُّم الأسماء والصفات؟!

إنَّ أقوال الفلاسفة والمتكلِّمين عند رحيلهم من الدنيا تشهدُ على أنهم كانوا نادمين على تقعيراتهم، هائمين على وجوههم، وباكين على خيبتهم، حتى قال بعضهم: إنَّني لم أَدَّخر طول حياتي سوى القيل والقال.

وقال آخر: «لقد ضَيَّعتُ الحياة في خوض بحرٍ لا ساحل له، نَقَّبتُ في الصحارى معرضاً عن علوم الإسلام، ولا أدري ماذا سيكون مصيري إذا لم يأخذِ الله بيدي، أشهد أنني أموت على عقيدة أمي».

هذه الفتوى رسالةٌ علميةٌ مستقلة تتجلَّى فيها خصائص شيخ الإسلام العلمية والتأليفية بوضوح، فإنَّ السهولة وقوة الاستدلال، والخطابة، وحُسنَ الاستشهاد بالكتاب والسنة، وجدَّة الأسلوب، والخطاب إلى العقل، والارتجال، وعدم التكلُّف، والمعلومات التاريخية، والنقد اللاذع، للمتكلمين والفلاسفة، كل ذلك خصائصُ تتميز بها هذه الرسالة، بينما خَلت

منها عامةُ الكتب التي أُلفت في ذلك العهد ولا سيما كتب الفتاوىٰ التي كانت تؤلَّف باللغة الفقهية ومصطلحاتها.

لأوَّل مرَّة ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الفتوى كمدافع قويٍّ عن العقيدة التي كانت عقيدة السَّلفِ، واعتقادَ أهل السنة في نظره، وعقيدةَ «التجسيم» والحنبلية المشوَّهة عند معارضيه.

إنَّ الأسلوب الذي احتوت عليه هذه الفتوى والتحدِّي السافر الذي ضمنته، ثم الاستقبال الرائع الذي لقيته من الأوساط الحنبلية، كان من النتائج الطبيعية لكل ذلك أن يَعُم بذلك سخط واستنكارٌ عام في وَسط الأشاعرة والمتكلِّمين الذي كان يتمتع بتأييد الحكومة والجماهير، والذي كان رجاله متبوِّئين مناصبَ القضاء والإفتاء الرسمية ومُسيطرين على مراكز التدريس والتأليف.

يتحدَّثُ عن ذلك ابنُ كثير ضمن الأحداث التي وقعت في سنة ٦٩٨هـ يقول:

«قامَ عليه جماعةٌ من الفقهاء، وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي فلم يحضُر، فنوديَ في البلد في العقيدة التي كان قد سألَهُ عنها أهل حماة المسماة بالحموية فانتصرَ له الأمير سيف الدين جاغان، وأرسل يطلب الذين قاموا عندَه فاختفى كثيرٌ منهم، وضُرب جماعة ممن نادى على العقيدة، فسكَت الباقون، فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقيُّ الدين الميعاد بالجامع على عادته، وفسَّر في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ثم اجتمعَ بالقاضي إمام الدين يوم السبت، واجتمع عنده جماعةٌ من الفضلاء وبَحثوا في الحموية وناقشوه في أماكن فيها، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير، ثم ذهب الشيخ تقيُّ الدين وقد تَمهَّدتِ الأمور، وسكنتِ الأحوال»[(١)].

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ص٤.

وكان من المتوقَّع جداً أَنْ تكون هذه القِصة قد امتدَّت وثارتْ هناك ضجَّةٌ أخرى ، ولكن حدثَ في الوقت نفسه من الأحوال ما لم يسمح بالخوض في الخلافات والمناقشات العقائدية ، أعني بذلك غارة التتار ، بَرز فيها ابنُ تيمية كمجاهدٍ عظيم ، وقائدٍ عام.

تَوَجُّه التتر إلى دمشق:

وما إن استهلَّت سنة ٦٩٩ هـ إذ تتابعت الأخبار بأن قازان حاكم التتار في العراق وفارس يَنوي الغارة على الشام ، وأنَّ عساكره متوجِّهة إلى دمشق ، لقد أثار هذا النبأ دهشةً في بلاد الشام كُلِّها نظراً إلى ما جرَّبته الأقطار الإسلامية من شدائد غاراتهم ، وما خلَّفته هذه الغارات من حكايات النهب والقتل الشنيعة ، وهنالك جعلَ الناس يَخرجون من حلب وحماة متوجِّهين إلى العاصمة حتى غلتِ الأسعار والأجور ، وارتفعت أجرة السفر من حماة إلى دمشق إلى مئتي درهم بالفَرَسِ ، ولكن سُرعان ما اطمأنَّ الناس أنَّ سلطان مصر (الملك الناصر محمد بن قلاوون) قادمٌ مع العساكر الملوكية إلى الشام لحمايتها من غارة التتار ومقاومتهم.

في ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٩ هـ دخلتِ الجيوش المصرية دمشقَ ، فاستقبل الناسُ السلطانَ وجيوشه استقبالاً رائعاً رغم شِدة المطر وكثرة الوَحل في الطريق ، وزُيِّنت المدينة واهتمَّ الناس بالدعاء لانتصار السلطان والمسلمين على التتار ، وخرج السُّلطان بعساكره لمبارزة التتار في ١٧ ربيع الأول ، وخَرج معه قاضي القضاة الحنفي وأعيان البلد وعلماؤهُ ، وساند الجيشَ جماعةٌ من المجاهدين وعددٌ من المحاربين ، وعني الناس بالدعاء والقنُوت في المساجد عنايةً خاصة.

انهزامُ السُّلطان ، والوَضعُ في دِمشق:

في ٢٧ ربيع الأول قامتِ المبارزة بين قازان والسلطان ، فحارَب المسلمونَ بشجاعةٍ نادرة ، ولكنَّهم هُزموا ، فتوجهت عساكر السلطان إلى مصر راجعة ،

والتجأ أهل دمشق إلى دمشق وقد عمَّ الخوف في البلد من انسحاب الجيوش المصرية وخطرِ اقتحام التتار في دمشق منتصرين غالبين، فكان كبار العلماء وأعيان الناس يغادرون دمشق إلى مصر، فالقاضي الشافعي، والقاضي المالكي، وبعضُ العلماء المشهورين، ووالي البلد، والمحتسبُ، وغيرهم من التجار والعامة كانوا قد غادروا البلد، كما أن الحكَّام كانوا قد خرجوا من دمشق، سوى نائبِ القلعة فقد كان لا يزال مقيماً، أما سائرُ الحكام المسؤولين عن الإدارة والنظام فلم يستطيعوا البقاء في المدينة، وكانت الأسعار قد غلت إلى حد مخيف، وأُغلقت الحدود.

والذي زاد الطينُ بلَّة أن المسجونين في سجن المدينة هدموه وخرجوا يَنهبون المتاجر والبضائع، واستغلَّ الوضعَ أوباشُ الناس وعاثوا في ظاهر البلد وكسروا أبواب البساتين (وعليها معظمُ الاعتماد في معاش أهل دمشق) وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً وباعوها بأرخص الأثمان.

وبينما كانت دمشق تعيشُ في هذا الوضع المُرعب إذ طار الخبر في الناس بقصد قازان إلى دمشق، فزادوا فزعاً على فزع، وعمَّ الخوف والإرجاف في طول المدينة وعرضها.

لِقاءُ ابنُ تَيميَّة مع قازان:

اجتمع ابنُ تيمية بأعيانِ البلد للتفكير في الوضع الحاضر، واتَّفقوا على المسير إلى قازان لتلقِّيه في وفد من العلماء وأصحابهم، وذلك لأخذِ الأمان منه لأهل دمشق.

ففي يوم الإثنين ٣ ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هـ اجتمع مُمَثِّلُ أهل دمشق وسفيرُ الإسلام ابن تيمية بقازان طاغية التتار في بلدة «النبك» [1]، ولْنتركِ الشيخ كمال

---

(١) يقع هذا البلد بين دمشق وحمص، معروف بمائه بصفة خاصة، وهو مُتنزَّه في الوقت الحاضر.

الدين ابن الأنجا الذي رافق ابن تيمية ، وحضر معه إلى قازان يتحدَّث عن هذا اللقاء :

«كنتُ حاضراً مع الشيخ ، فجعَل يُحدِّث السلطان بقول الله ورسولهِ في العدل وغيره ويرفعُ صوته على السلطان ويقربُ منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قربَ أن تلاصق ركبتهُ ركبةَ السلطان ، والسلطان مع ذلك مُقبلٌ عليه بكلية مُصغٍ لما يقول ، شاخصٌ إليه لا يُعرِض عنه ، وإن السلطان من شدَّة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل: من هذا الشيخ؟ فإني لم أرَ مثله ، ولا أثبتَ قلباً منه ، ولا أوقعَ من حديثه في قلبي ، ولا رأيتُني أعظمَ انقياداً لأحد منه ، فأُخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان: قلْ للقازان: «أنتَ تزعم أنك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمامٌ وشيخٌ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتَنا ، وأبوك وَجدُّك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهَدت فغدَرت ، وقلتَ فما وفيت وجُرْتَ».

ثم خرج من بين يديه مُكرَّماً معززاً بحُسن نيته الصالحة من بذل نفسه في طلب حَقْن دماء المسلمين ، وبلَّغه الله تعالى ما أراده ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غَالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردِّهم على أهلهم وحفظ حريمهم ، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات ، وقُوَّة التجاسر.

وكان يقول: «لن يخاف الرجل غيرَ الله إلا لمرضٍ في قلبه ، فإنَّ رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفَه من بعض الولاة فقال: لو صحَّحتَ لم تخف أحداً ، أي خَوفُك من أجل زوال الصِّحة من قلبك».

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس: أنَّهم لما حضروا مجلس قازان ، قدَّم لهم طعاماً فأكلوا منه ، إلا ابن تيمية ، فقال: لم لا تأكل ؟

فقال: كيف آكلُ مِن طعامك ، وكله مما نَهبتم من أغنام الناس وطبختُموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟!!

ثم إن قازان طلب منه الدعاء ، فقال في دعائه: اللَّهم إن كنت تعلم أنَّه إنما

قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وجاهَد في سبيلك ، فأن تؤيِّده وتنصره ، وإن كان للمُلك والدنيا ، والتكاثر فأن تفعل به ، وتَصنع ، فكان يدعو عليه ، وغازان يؤمن على دعائه ، ونحن نجمع ثيابنا خوفاً أن يُقتل فيطرطش بدمه.

ثم لمَّا خرجنا قلتُ له: كدتَ تُهلكُنا معك ، ونحن ما نصحبك من هنا ، فقال: وأنا لا أصحبكم ، فانطلقنا عصبة ، وتأخر ، فتسامعت به الخَوانين والأُمراء ، فأَتَوه من كل فج عميق ، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته ، فما وصل إلا في نحو ثلاثمئة فارس في ركابه ، وأمَّا نحن فخرج علينا جماعة فشلَّحونا [١].

وَحْشِيَّة التتار في دمشق:

وإنْ كان أهل دمشق قد حَصلوا على وثيقة الأمن من سلطان التتار وأُعلن ذلك في دمشق ، غير أنَّ التتار كانوا مُستمرين في السلب والنهب ونقضِ القانون والوحشية في نواحي دمشق وضواحيها ، وكان الوضعُ شِبه ثورةٍ خارج سور البلد ، وغلتِ الأسعار غلاءً فاحشاً أزعج الناس.

وممَّا زاد في هَلع الناس أنَّ التتار طالبوا أهلَ دمشق بتسليم جميع ما عند الناس من الخيول والسلاح والأموال المخبَّأة من جهة الدولة السابقة إلى التتار ، وقد عَيَّن التتار سيف الدين قَبجق حاكم الشام من قبلهم ، فبدأ يُشدد على سكانها ، وكانت سيطرة التتار قد تمت على البلد ، إلا القلعة فإنَّ نائب القلعة أرجواش امتنع عن تسليمها إليهم أشد الامتناع ، وكان ذلك بإشارة من الشيخ ابن تيمية كما يقول ابن كثير: «فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسلَ إلى نائب القلعة يقول له ذلك: لو لم يبقَ فيها إلا حجرٌ واحدٌ فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام ، فإنَّ الله حفظ لهم هذا

---

(١) الكواكب الدرية: ص ٢٥ ـ ٢٦.

الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان وسنة»[١].

عاث التتارُ فساداً في البلد ، وما تركوا شيئاً إلا غيّروه بالنهب والسلب ، وسجنوا عدداً كبيراً من المسلمين رجالاً ونساء، واسترقّوهم ، ففي محلة الصالحية[٢] وحدها قتل نحو أربعمئة وأُسر نحو من أربعة آلاف أسير ، وَسَبوا كثيراً مِن الفتيان والفتيات من أُسرٍ شريفةٍ وبيوتاتِ فضلٍ وعلمٍ ، واستباحوا حرمات المسلمين بوجه عام ، ونُهبت كتبٌ كثيرة من المكتبات الكبرى ومن الوَقْفِ وباعوها بأبخسِ ثمنٍ.

رأى ابنُ تيمية هذه الأحوال من النهب والقتل والأسر فلم يصبر عليها وخرج في جماعة من أصحابه يوم ٢٥ ربيع الآخر للاجتماع بملك التتار (قازان) مرة أخرى ، وانتظره يومين ولكن لم يُتح له اللقاء وَحَجَبَه عنه وزيره ، واشتهر في البلد أن التَّتار يريدون دخول دمشق ، فانزعج الناس بهذا الخبر وخافوا خوفاً شديداً ، وأرادوا الخروج منه والهرب على وجوههم ولكن أين المفرّ ، ولات حين مناص ؟ وبدا التتار بعمل مجانيقَ بالجامع ليرموا بها القلعة من صَحنه ، ويحفرون الخنادق ، وقعدَ الناس في بيوتهم خوفاً من أن يؤخَذوا بالسخرة ، يقول ابن كثير: «وكانت الطرقات لا يُرى بها أحد إلا القليل ، والجامع لا يُصلِّي فيه أحد إلا اليسير ، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد ، ومَن خرج من منزله في ضرورة يخرج بثياب زَيِّهم ثم يعود سريعاً ، ويظن أنه لا يعود إلى أهله»[٣].

وفي التاسع عشر من جمادى الأولى توجَّه «قازان» إلى بلاد العراق وترك نُوَّابه بالشام في ستين ألف مقاتل ، وأعلنَ عند رحيله من الشام «إنا قد تركنا

---

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ص ٧ ـ ٨.
(٢) [الصالحية: أحد أحياء دمشق ، ويوجد على سفح جبل قاسيون ، وقد بناها المقادسةُ في القرن السادس الهجري ، كانت فيها مدارس ومساجد كثيرة].
(٣) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص٩.

نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العودُ إليها في زَمَن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها» ، وبالرغم من أن قازان كان قد ارتحل من الشام ولكنَّ أميراً آخر من التتار اسمه «أمير بولائي» ظلَّ مستمراً في النهب والسلب في نواحي دمشق ، وقد خرَّب قرى كثيرة ، وسبى عدداً كبيراً من أطفال المسلمين ، وجَبى من دمشق نفسها أموالاً طائلة ، وفي ثامن رجب خرج الشيخ ابن تيمية إلى مخيم بولائي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم ، وكان من بين هؤلاء الناجين مسلمون وغيرهم من الذميِّين الشاميين .

وفي الثالث من رجب نُودي في البلد من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام ، وفي عشية اليوم التالي رحل بولائي وأصحابه من التتار وانشمروا عن دمشق ، وقد خَلَتْ دمشق ونواحيها من التتار ، وظلت كذلك حتى السابع من رجب ، وأزاح الله عز وجل شرَّهم عن العباد والبلاد .

وفي الثامن من رجب خرج الشيخ ابن تيمية إلى مخيم الأمير بولاي ، فاجتمع بـه في فكاك مَنْ كان معـه من أسارى المسلمين ، فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهـم ، وكان مِنْ بين هـؤلاء النـاجين مسلمـون وغيرهـم من الذميين الشاميين .

وفي التاسع من رجب وصل الخبر بخروج الجيوش المصرية والسلطان محمد بن قلاوون إلى الشام لإنقاذها من أيدي التتار ، ولم يكن بالبلد أحدٌ في ذلك الوقت من الحكام والمسؤولين ، وكانتْ أسوار البلد متهدمة من غارة التتار ، فنادى أرجواش نائب القلعة : احفظوا الأسوار والأبواب ، لا يَبيتنَّ أحدٌ إلا أن يحرس السور مُسلَّحاً ، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ ابنُ تيمية يدور كلَّ ليلة على الأسوار يُحرِّض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آياتِ الجهاد والرباط [١] .

---

(١) البداية والنهاية : ج ١٤ ، ص ١١ .

أَعماله الإصلاحيَّة:

ولمَّا سَمع المسلمون بقدُوم الجيش المصري وسلطان مصر ، وأن التتار قد تراجعوا ، فرحوا بذلك كثيراً ، وارتفعت هِممهم ، وصمَّموا على إزالة آثار الفساد الذي كان قد انتشر في ظلِّ هذه الأمة الجاهلية وحُكَّامها المفسدين ، وكان ابن تيمية قد تولى قيادَةَ المحاربة لهذا الفساد ، وكان نائبُ الشام سيف الدين قَبْجَق هو الذي انتشرتِ الحاناتُ في أيام حكمه القصير وشاع شرب الخمر في الناس ، وكانت هذه الحانات مورداً كبيراً من موارده المالية ، ولم يعدِ الآن أيُّ مبرر لبقائها ، ولم يكن في دمشق أي حاكم ولا مسؤول من الحكام ، فتولى ابن تيمية قطع دابر هذا الفساد وتجوَّل في طول البلد مع تلاميذهِ وأنصاره ، وحيثما رأوا حانةً أو خمَّارة كسروا أواني الخمور فيها وشقَّقوا الظروف وأراقوا الخمور ، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتَّخذة لهذه الفواحش ، ففرِح الناس بذلك .

إِصلاحُ عَقائِد السُّكان في الجبال:

وفي عام ٦٩٩ هـ عندما كان قد دخل الجيش التتاري إلى دمشق وعاثُوا فيها فساداً وقتلاً ، كانتْ هناك جماعة من الغلاة ساكنةٌ في الجبال من المسيحيين والباطنيين ، قد لاذت بالتتار ووازرتْهم وآذت المسلمين معهم ، ولمَّا كان جيش المسلمين يرجع منهزماً ومرَّ بمنطقتهم حالتْ هذه الجماعة دون طريقهم ووَثبت عليهم ، وسلَبتْ ما كان معهم من الأسلحة والخيول وقَتلت كثيراً من المسلمين ، ولم تكن هذه الجماعة قبل ذلك داخلةً في طاعة الجند ولا ملتزمةً أحكام الملة ولا مُتدينةً بدين الحقِّ ولا محرِّمة ما حرَّم اللهُ ورسولُه .

ولمَّا استقرَّتِ الأحوالُ في دمشق ، وانقشع السحاب المكفَهرُّ ؛ فكَّر ابن تيمية في تأديب هؤلاء المفسدين وإصلاح أحوالهم ، ومِن حُسن الصدفة خرج نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان وانتهزَ هذه الفرصة الشيخ ابن تيمية وخرج معه في خلق كثير من المتطوِّعة

والحوارنة إلى أهل تلك الناحية ، فلمَّا وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فاستتَابهم ، وبيَّن للكثير منهم الصواب ، وحصل بذلك خيرٌ كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين ، والتزموا بردِّ ما كانوا أخذوه من أموال الجيش ، وقرَّر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال ،. . وعاد نائب السلطنة مع ابن تيمية ، وكُلِّلت مساعيهم بالنجاح [(١)].

عَودة التتار إلى الشام وإعلانُ ابنِ تيمية الجهاد:

وفي مستهلِّ عام ٧٠٠هـ وَردتِ الأخبار إلى دمشق بقصد التتار بلاد الشام فمادتِ الأرض بالناس ، وطاشَتْ عقولُهم وألبابهم ، وبدؤوا يتهرَّبون إلى مصر والبُلدان الأخرى والحصون المنيعة ممَّا كان بنجوة عن مَعرَّة التتارِ وغائلتهم ، وبيعتِ الأمتعة والثياب والغلاَّت بأرخصِ الأثمان ، فارتفعت أجرةُ الحمَّارة والنقل إلى آخر نقطة ، وأسعار الجمل والحمار من خمسمئة إلى ألف.

واستعدَّ الشيخ ابن تيمية لإلقاء المواعظ والدروس في الجامع بنشاط بالغ ، وحرَّض الناس على القتال ، ونهاهم عن الإسراع في الفرار ، وذمَّ هذه الخصلة ورغَّبهم في إنفاق الأموال في الذَّبِّ عن المُسلمين وبلادهم وأموالهم ، وأن ما يُنفق في أجرة الهرب إذا أُنفق في سبيل الله كان خيراً ، وأوجَبَ جهاد التتار حتماً في هذه الكرة.

وسكنتِ الأحوالُ بمجالسهِ المتتابعة في ذلك ، ونُودي في البلاد:

لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة ، فتوقَّفَ الناس عن السير والفرار وسكنَ جأشهم ، وتحدَّث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ، ودُقَّت البشائرُ لخروجه.

الرّحلةُ إلى مصر:

وفي ربيع الآخر قَوِيَ الإرجاف بأمر التتار وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى

---

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص١٢.

البيرة بالجهاد العام ، وكانت الأنباء تتوالى بتقدُّم التتار إلى الشام ونُودي في البلد بتطييبِ القلوب بالناس ، وإقبالهم على معايشهم ، وأنَّ السلطان والعساكر واصلةٌ ، ثم فوجيء الناس بأن سلطان مصر رجع عائداً إلى مصر بعد أن خرج منها قاصداً إلى الشام فكثُر الخوف واشتد الحال ، وخرج كثيرٌ من الناس خِفافاً وثقالاً يتحمَّلون بأهليهم وأولادهم ، وجعلوا يحملون الصغار على الدوابِّ والرقاب .

وخرَج الشيخ ابن تيمية إلى نائب الشام في المَرْج، وكان مُرابطاً خارج دمشق لمقاومة التتار وسدِّ سيولهم ، فثبَّته وقوى جأشه وطيب قلبه ، ووعدهُ بالنصر والظفر على الأعداء وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠] .

وسأله النائبُ والأمراءُ أن يركب على البريد إلى مصر ، ويَستحثَّ السلطان على المجيء ، فساقَ وراء السلطان ، وكان قد وصل إلى الساحل ، فلم يُدركه إلا وقد دخل القاهرة ، وتفارَط الحال فاستثار غيرته ، وقال له فيما قال: «لو قُدِّر أنكم لستم حُكَّام الشام ولا ملوكه ، واستنصركم أهله ، وجبَ عليكم النصر ، فكيف وأَنتم حكَّامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم» وقال أيضاً: «إن كنتم أعرضْتُم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يَحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن».

وقوَّى الشيخُ ابن تيمية جأشَ السلطان وأكَّد له أن النصر حليفُهُ في هذه الكرة ، وظل الشيخ مُقيماً في حِصن مصر إلى ثمانية أيام يُحرِّض الناس على الجهاد ومقاومة التتار.

واستعدَّ السلطانُ للخروج إلى الشام مرة أخرى نتيجةً لجهود ابن تيمية المخلصة التي بذلها في هذا السبيل ، وتوجهتِ العساكر إلى الشام لجهاد التتار ، ولما سمع الناس بذلك فرحوا أشدَّ الفرح بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

ثم قَويَتِ الأراجيفُ بوصول التتار ، وتحقَّق عَودِ السلطان إلى مصر ، ونادى ابنُ النحاس متولي البلد في الناس: من قدر على السفر فلا يَقعد بدمشق ، وهنالك ارتفعت الأصوات ، وتَصايَح النساء والولدان ، ورَهق الناس ذِلَّة عظيمة وخمدة ، وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، وغُلِّقت الأسواقُ ، وتيقنوا أن لا ناصر إلا الله عز وجل ، ويقولون: ما بقي أهل دمشق إلا طعمةً للعدو.

ودخل كثيرٌ من الناس إلى البراري والقفار والمُغر بأهالِيهم من الكبار والصغار ، ولم يبقَ بدمشق من أكابرها إلا القليلُ ، ونودي بالناس: مَن كانت نيّتـهُ الجهـاد فليلحـق بالجيش ، فقـد اقترب وصول التتار وخرجَ العلماء ، ومن بينهم شرفُ الدين ابن تيمية أخو ابن تيمية إلى نائب السلطنة الأفرم ، وقوّوا عزمه على لقاء العدوّ ، واجتمعوا بـ «مُـهَنا» أمير العرب ، فحـرَّضوه على قتال العدوّ ، فأجابهـم بالسمع والطاعة.

ورجعَ ابنُ تيمية من مصر ، وبشَّر الناس باستعداد سلطان مصر وأعيان الدولة لجهاد العدو ، ثم جاءتِ الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفُرات راجعاً عامَه ذلك ، فطابت النفوس لذلك وسكنتْ ، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين[1] ، ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾.

الحَربُ الحاسمة مع التتر ، وصَنِيعَةُ ابنِ تيمية:

وفي رجب سنة ٧٠٢هـ قَويَتِ الأخبارُ بعزم التتار على دخول بلاد الشام ، فانزعج الناسُ لذلك واشتدَّ خوفهم جداً ، وقَنتَ الخطيبُ في الصلوات ، وقُرىء صحيح البخاري ، وشَرع الناس في الجَفل إلى الديار المصرية ، والكرك ، والحصون المنيعة ، وتأخّر مجيءُ العساكر المصرية عن إبّانها فاشتد لذلك الخوف.

وفي ثامن عشر من رجب قدمتْ طائفةٌ كبيرةٌ من جيش المصريين بقيادة

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ١٦.

الأمراء الأتراك المشهورين ، وتَلَتْها طائفةٌ أخرى فقَويتِ القلوب واطمأنَّ كثيرٌ من الناس ، ولكن الناس في جَفلٍ عظيم من بلاد حلب ، وحماة ، وحمص ، وتلك النواحي ، وتحدَّث الناس بالأراجيف ، فاجتمع الأمراءُ بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو وشجَّعوا أنفسهم ، ونُودي بالبلد أن لا يرحل أحدٌ منه، وتوجَّه ابنُ تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القُطَيْفَة[١] ، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو ، فأجابوه إلى ذلك ، وحلَفوا معهم ، وكان الشيخ يَحلِفُ للأمراءُ والناس: إنَّكم في هذه الكرَّة منصورون ، فيقول له الأمراء: قُل إنْ شاء الله ، فيقول: إنْ شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً ، ويقول: نحن مظلومون ، والمظلوم منصور «ومَن بُغي عليه لَينصرنه الله» ، ولذلك فإن النَّصر مؤكَّدٌ ، والفتح قريبٌ ، وإنَّ وعد الله كان مفعولاً [٢].

وقد تكلَّم الناسُ في حُكم قتال هؤلاء التتار من أيِّ قبيل هو؟ فإنهم يُظهرون الإسلام ، وليسوا بُغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقتٍ ثم خالفوه ، فكيف يَجوز القتال ضدَّهم؟ وقد ارتبك العلماء في ذلك ، فقال ابنُ تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على سيدنا عليّ ، ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ورأوا أنهم أحقُّ بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحقُّ بإقامة الحق من المسلمين ، ويَعيبون على المسلمين ما هم متلبِّسون به من المعاصي والظلم وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطَّن العلماء والناس لذلك ، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني في صفِّ التتار موالياً لهم وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ، فتشجَّع الناس في قتال التتار وقَويَتْ قلوبهم ونياتهم.

كانت دمشق كلُّها تعيش في قلق وانزعاج شديدين ، لم يصل أيُّ خبر بقدوم السلطان ، ولم يكن الناس متأكِّدين أن العساكر المصرية والشامية ستُحارب

---

(١) [بلدةُ تقع في شمال شرق دمشق على طريق حمص].
(٢) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص٣٤.

التتار، وقد وصلتِ التتار إلى قارة [١]، وقيل إنَّهم وصلوا إلى القُطَيْفَة، فانزعج الناس لذلك انزعاجاً شديداً، ولم يَبق حولَ القرى والحواضر أحدٌ، وامتلأتِ القلعة والبلد، وازدحمت المنازلُ والطرقاتُ، واضطرب الناس، وخرج ابن تيمية من باب النَّصر بمشقة كبيرة، وصحبه جماعة ليشهدَ القتال بنفسه ومن معه، فظنوا أنه إنما خرج هارباً فحصلَ اللوم من بعض الناس، وقالوا: أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد! فلم يَرُدَّ عليهم، وبقي البلد ليس فيه حاكم، وجاسَ اللصوص، والحرافيش فيه، يُخرِّبون، ويَنتهبون ما قدروا عليه.

ولم يَعُد للناسِ شُغلٌ غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً فتارةً يقولون: رأينا غَبرةً فيخافون أن تكون من التتار، ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجُودة عِدَّتهم وعددهم أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم، وكلُّ شخص كان ينتظر حكم القضاء فيه، ويفكر فيما إذا وقعت الحرب أم لا؟ وإذا وقعتْ فمن ينتصر، وإذا انهزم الجيش ـ لا قدَّر الله ـ فماذا سيكون مصيرهم؟ ومن يحمي أنفسهم، وأعراضهم، وأموالهم، وكان كما صوَّر القرآن الكريم ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

ووَصَلَ ابنُ تيمية إلى العسكر الشامي فطلب منه أمراءُ الجيش أن يسير إلى السلطان يَستحِثهُ على السير إلى دمشق، فسار إليه فحثَّه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً فسأله السلطانُ أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السُّنة أن يقف الرجلُ تحت راية قومه، ونحن مع جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرَّض السلطان على القتال وبشَّره بالنصر، وجعل يَحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة. فيقول له الأمراء: قُلْ إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

---

(١) [بلدةٌ تقع في القلمون على طريق حمص].

وفي ليلة التاسع والعشرين من شعبان ثَبتت رُؤية هلال رمضان فبدأ الناسُ يستعدُّون لصلاة التراويح وقد استبشروا بشهر رمضان وبركته ، وأصبحوا يوم الجمعة في هَمٍّ شديدٍ ، وخوفٍ أكيدٍ ، ورأوا يوم السبت من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو ، فغلب على الظنون أن الوقعة اليوم فابتَهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد ، وطَلع النساء والصغار على الأسطحة ، وكشفوا رؤوسهم ، وضجَّ البلد ضجةً عظيمةً ، فلمَّا كان بعد الظهر قُرئت بطاقةٌ بالجامع تتضمن أن في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان ، وفيها طلبُ الدعاء من الناس ، والأمرُ بحفظ القلعة .

وفي ثاني من رمضان اصطفَّ الجيشان في ساحة شَقْحَب ، وأفتى ابنُ تيمية بالفِطر مُدَّة قتالهم ، وأفطرَ هو أيضاً ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليُعلمهم أن إفطارهم ليتقوَّوا على القتال أفضل ، وكان يقرأ لهم حديثَ رسول الله ﷺ «إنكم ملاقو العدوِّ غداً ، والفطر أقوى لكم»[1] .

ولمَّا ابتدأتِ الحربُ والتحم الفريقان ثَبت السلطان ثباتاً عظيماً ، وكان الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان في صحبته ، وأمر السلطان بجواده فقُيِّد حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف ، وجرت خطوبٌ عظيمةٌ وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ ، ولكنْ نزل النصر على المسلمين واستظهروا على التتار ، فلما جاء الليلُ ، لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام ، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب ، ويَرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر ، فقتل منهم ما لايعلم عددَه إلا الله ، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال فتُضربُ أعناقهم ، ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك ، وغرِق منهم جماعةٌ في الفرات بسبب الظلام .

---

(١) [ذكره العراقيُّ في «فتح المغيث» في بحث «الناسخ والمنسوخ» (٣/ ٦٥) ، ولم أجده عند غيره في المصادر الحديثية ، والله أعلم].

وفي يوم الإثنين رابع من رمضان دخل ابن تيمية في دمشق ، ففرح به الناس ودعوا له وهنَّؤوه بما يسَّر الله على يديه من الخير ، ودخل السلطانُ إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس من رمضان ومعه الخليفة والعساكر منتصرين فرحين ، واستقرتِ الخواطرُ ، وذهبَ اليأسُ ، وطابت قلوب الناس.

إنكارُ البدع وتَغييرُ المنكرات:

وما أنْ فرغ ابنُ تيمية من قضية التتار إلا وقد عكف على إلقاء دروسه ومواعظه ، ونشر السنة وردِّ البدع كسابق عهده بذلك ، واشتغل بجهاد الشرك ، والجاهلية ، وكان أحبَّ عمل لديه وأسمى غاية في حياته بكل نشاط وهمة.

وكان قد دخل في ذلك العهد إلى مجتمع المسلمين كثيرٌ من أعمالٍ كانت بقيةَ عهدِ الجاهلية ، وشعارَ المشركين والوثنيين بحكم اختلاطهم باليهود والنصارى ، وتعاليمَ الزعماء الجاهليين وفاسدي العقائد ، كانت بنهر قلوط في ضواحي دمشق صخرةٌ تُزار ويُنذر لها النذور قد اشتهرت عنها قصص وروايات عديدة ، فعادت فتنةً كبيرةً لِضعاف العقيدة من المسلمين ، إذ كانوا يزورونها ويُقدِّمون لها النذور ، فذهبَ إليها ابنُ تيمية مع جماعة من الحجَّارين في رجب عام ٧٠٤ هـ وقطَعها ، وأراح المسلمينَ منها ومن الشِّرك بها ، وأزاح عنهم شبهةً كان شرُّها عظيماً[(١)].

لم يكن ابنُ تيمية يَصْبِرُ على أمور تخالف الشريعة والسنة ، فإذا رآها قام بتغييرها بيده من غير تأخير؛ إذ كان ذلك هو الدرجةَ العليا للإيمان والحاجةَ الأولى للحميَّة الدينية «مَن رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فمَن لم يستطع فبلِسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعفُ الإيمان»[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان برقم (٤٩) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب وقت الخروج إلى العيد ، برقم (١١٤٠) ، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٥٣٢) برقم (١١٧٣٩) ، وابن ماجه في أبواب =

أمّا الحُكّام فكانوا في شُغلٍ شاغلٍ عن أمور الدين ، وكان العلماء لا يُعيرون الأمورَ المخالفة للشرع أهمية في بعض الأحيان ، كما كانوا يَخافون من المعارضة والإنكار في حين آخر ، ولذلك فكان ابنُ تيمية يتولّى هذه المسؤولية بنفسه في أكثر الأحيان ، وكانت معه جماعةٌ من تلاميذه ومحبيه يؤازرونه في هذه الأمور ويساعدونه ، ولذلك فإنه كان قد أقام حِسبةً شرعيةً وخُلقيةً ابتغاء وجه الله ، فإن كان المنكر يُفلِتُ من عتاب الحكام الذين كان أكثرُهم من أهل البدع ، ومعارضين لابن تيمية ، ومن غضب العلماء؛ لم يكن ليُفلِتَ من رقابة «البوليس الشرعي» الذين كان على رأسِهم ابنُ تيمية .

وفي رجبَ هذا العام أُحْضِر إلى ابن تيمية شيخٌ كان يلبس دلقاً كبيراً متَّسعاً جداً ، يُسمى المجاهد إبراهيم القطّان ، وكان ذا شعر طويل ، وأظفار طوال ، وشارب مسبل ، يُكثِر من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات ، فأمَرَ ابنُ تيمية بتقطيع ذلك الدلق ، فتناهبه الناس من كلِّ جانب وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً، وأمَر بحلق رأسه وشاربه وتقليم أظفاره ، واستتابه من كلام الفحش ، واستعمال الحرام [١] .

وكذلك كان شخصٌ اسمه محمد الخبّاز البلاسي ، يُكثر من أكل المحرمات ، ويُجالس اليهود والنصارى ، ويتكلّم في تأويل الرؤىٰ ، ويتدخَّل في العلوم والمسائل التي لم يكن له بها علم ، فاستحضره ابنُ تيمية ، واستتابه عن أكل المحرمات ، يقول ابن كثير: «وبهذا وأمثاله حَسدوه ، وأبرزوا له العداوة» .

الجِهادُ مع الملحِدين والمُفسدين:

وعلى ما قام به ابنُ تيمية من الإصلاح في الداخل لم يكن في شغل عن

= الصلاة ، باب ما جاء في صلاة العيدين ، برقم (١٢٧٥) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٠) برقم (١١٠٨٨) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه].

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٣٣.

أولئك المفسدين الذين لم يألوا جهداً في الإضرار بالمسلمين والمؤامرة مع أعداء الإسلام ، كلما حَزَبَـهُم أمرٌ أو أحاطتْ بهم مصيبةٌ ، ولو أنه كان قد قام بإصلاح القبائل الساكنة في جبال الجُرد وكسروان ومعه نائب السلطة الأفرم في عام ٦٩٨هـ ، وقد تاب منهم كثيرٌ ، ووعدوا باتِّباع أحكام الإسلام واحترام نظام السلطنة ، ولكنَّ التجارب أثبتت أنهم لم يَمتنعوا عن تخابُثهم ، وأنهم لا يزالون بحاجةٍ ماسة إلى مزيد من الإصلاح والتنبيه ، ولا يزال الخطر موجوداً من قبلهم كلما سنحت لهم بذلك فرصة .

وفي مستهلِّ ذي الحجة ركب ابنُ تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبال الجرد وكسروان ومعه نقيبُ الأشراف زين الدين بن عدنان ، فقامَ فيهم بالتبليغ واستتَاب خلقاً منهم ، وألزمهم بشرائع الإسلام .

إنَّ قبائل الروافض في جبال الجرد أصابوا المسلمين بأضرار ، وجَاهروا في إيذائهم ومعارضتهم ، وهمُ الذين دعوا الصليبيين والتتار للعدوان على البلاد الإسلامية ، ووفَّروا كلَّ نوع من التسهيلات ، واستبَاحوا كُلَّ فرصة لاستغلال ضعف المسلمين وقلةِ وسائلهم ، ونالوا من أعراضهم وأموالهم ، وأذلُّوهم حتى باعوهم بيد الأعداء كالغنم .

لقد شاهَدَ كلَّ ذلك ابنُ تيمية ، فكان يَعيشُ في تألُّمٍ شديدٍ ، وقلقٍ عظيمٍ جداً ، وكان قلبه الغَيور يشعر بشدةِ هذا التألم ، إنه لم يكن ليعفو عن هؤلاء الخساس الأشرار ، ولم يكن ليرضى بالتغاضي عن هؤلاء المنافقين ، الذين أصابوا المسلمين بالذِّلة والتضييق في ساعة حرجة جداً ، وساعدوا أعداءهم ونصروهم ، وقد أراد ابن تيمية ألَّا يترُك المجرمين إلا ويُذيقهم عقاب أعمالهم ، وأن يَسُدَّ في وجوههم كلَّ طريق يتسلَّلون منه إلى المسلمين بإيلام ، أو إيذاء عند أي حرب ، أو ساعة حرجة ، إنه استَلْفَت نظر السلطان الناصر (سلطان مصر والشام) إلى هذه المهمَّة ، وأخبره بخطرهم ونواياهم الفاسدة ، وقد قال في رسالة وجَّهها إلى السلطان:

«ولمَّا قَدم التتار إلى البلاد؛ فَعلوا بمعسكر المسلمين ما لا يُحصى من الفساد ، وأرسلوا إلى أهل قبرص ، فملكوا بعض الساحل ، وحملوا راية الصليب ، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يُحصي عددَه إلا الله ، وقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص (أي الصليبيين المحاربين للمسلمين) وفرحوا بمجيء التتار.

ولمَّا خرجتِ العساكر الإسلامية من الديار المصرية؛ ظهر فيهم من الخِزي والنكال ما عرفه الناس منهم ، ولمَّا نصر الله الإسلام النُّصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعَزاء. . . كلٌّ هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة كان من أسباب خروج جنكيزخان إلى بلاد الإسلام ، وفي استيلاء هولاكو على بغداد وفي قدومه إلى حلب ، وفي نهب الصالحية ، وغير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله».

ويقول فيها أيضاً: «ولقد كان جيرانُهم من أهل البقاع وغيرها منهم في أمر لا يُضبط شره ، كل ليلة تتنزل منهم طائفة ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا ربُّ العباد ، كانوا في قطع الطرقات ، وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عُرفت من أهل الجنايات ، يَرِدُ إليهم النصارى من أهل قبرص ، فيضيفونهم ، ويعطونهم سلاح المسلمين ، ويَقعون بالرجل الصالح من المسلمين ، فإمَّا أن يقتلوه ، وإما أن يَسلبوه ، وقليل منهم من يَفلت بالحِيلة»[١].

وفي الثاني محرم عام ٧٠٥هـ توَّجه ابن تيمية في طائفة من الجيش لغزو أولئك المفسدين الملحدين ، وسار إلى بلاد الجرد ، وكسروان ، فخرج نائبُ السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغَزوهم ، فنصرهم الله عليهم ، وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ، ومن فرقتهم الضالة ، ووطئوا أراضي كثيرة من صُنع بلادهم، وقد أفتى ابن تيمية: أنَّه يجوز قطع أشجارهم، ونخيلهم كبني النضير؛

---

(١) ابن تيمية: للشيخ محمد أبو زهرة ، ص ٤٥.

لأنهم يتخذونها كَميناً يتستَّرون فيه ، يجعلونها قواعد للحرب والمؤامرة على المسلمين ، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خيرٌ كثير ، وأبانَ الشيخُ علماً وشجاعة فيها ، وقد امتلأتْ قلوبُ أعدائِه حَسَداً له ، وغماً»[١].

مُنَاظرتُه مع الأحمدية:

وفي يوم السبت التاسع من جمادى الأولى عام ٧٠٥هـ حضَر جماعةٌ كثيرةٌ من الفقراء الأحمدية[٢] إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق ، وحضر الشيخ تقيُّ الدين ابن تيمية ، فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكفَّ الشيخ تقي الدين إمارته عنهم ، وأن يُسلّم لهم حالهم ، فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن ، ولا بدَّ لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة ، قولاً وفعلاً ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه.

قال ابنُ كثير: «فأرادوا أن يفعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التي يتَعاطونها في سماعاتهم ، فقال الشيخ: تلك أحوال شيطانية باطلة ، وأكثر أحوالهم من باب الحِيَل ، والبهتان ، ومن أراد منهم أن يدخل النار؛ فليدخل أولاً إلى الحمام ، وليغسل جسده غسلاً جيداً ، ويُدلكه بالخل ، والشنان ، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار؛ إن كان صادقاً.

ولو فرض أنَّ أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل فإن ذلك لا يدل على صلاحه ، ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالِفة

---

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص ٣٥.

(٢) تدرج كثير من المنتمين إلى الطريقة الرفاعية ـ التي قد تسمى الأحمدية ، عَزواً إلى مؤسسها السيد أحمد الرفاعي الكبير رحمه الله ـ إلى أعمال ومظاهر ، تبدو أنها كرامات وخوارق ، ويقولون: نقيم بها برهاناً على فضل الإسلام ، ونستدرج بها الجهال من الحكام التتار والمغول إلى الإسلام ، وتورط كثير منهم مع الزمان ، وتأثير الجهل ، وافتتان الناس بالعجائب والشعوذة فيما لا يصح من الاعتقاد ، ولا يجوز من العمل ، والإسلام منه بريء ، وقد أنكر عليهم كثير من علمائهم ، ومن رسخت قدمه في علوم الشريعة وفهم الدين ، والتمسك بتعاليم إمامهم الشيخ أحمد الرفاعي ، وسيرته في التزام الأحكام الدينية ، والتأدب بآداب الشرع. (المؤلف).

للشريعة إذا كان صاحبها على السنة ، فما الظنُّ بخلاف ذلك .

فابتدر شيخُ المنيبع الشيخ صالح وقال: نحن أحوالنا إنما تَـنْـفُق عند التتار ليست تنْفق عند الشرع ، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة ، وكثُر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق للحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديدية من رقابهم وأن من خرج عن الكتاب والسنَّة ضُربت عنقه ، وصنَّف الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية، وبيّن فيه أحوالهم، ومسالكهم، وتخيُّلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول، ومردود بالكتاب، وأظهر الله السُّنة على يديه، وأخمدَ بدعتهم»[١].

مُوافقةُ العلماء على العَقيدةِ الواسطية:

وفي الثامن من رجب في مجلس من العلماء كان قد انعقد عند نائب السلطنة قُرِئت رسالة ابن تيمية «العقيدة الواسطية» وتباحث معه العلماء ووجهوا إليه الأسئلة ، وقرَّروا أخيراً أنها مقبولة ومتَّفقة مع عقيدة أهل السُنّة ، وعاد الشيخ إلى منزله بغاية من الحفاوة والإكرام وقد حمل له العامة شُموعاً طول طريقه ، على جاري عادتهم لإبداء الحب والإعجاب في ذلك الزمان .

ابنُ تَيميـة يـواجهُ المُعارضـة:

كان ابنُ تيمية يتمتَّع بنوع من السيادة الدينية في دمشق ، فكلَّما رأى أنَّ الحكومة تتساهل في منع بدعة أو تغيير منكر ، وأن العلماء صامتون لا يُعارضون الوضعَ؛ رأى نفسه مسؤولاً عن ذلك فلم ينتظر إصدار حكم من الحكومة ، ونفَّذ الأحكام الشرعية بنفسه ، وقد كانت معه جماعة كبيرة من تلاميذه المحبِّين له ، والجماهير المتمسكة بالعقيدة الدينية الصحيحة ، ولم يزل نِطاق عمله يتوسَّع ، حتى كرهت طبقة من أهل العلم سُموَّ مكانته الدينية ، وتأثيره الشخصي ، ورأت في ذلك تفرده واحتكاره لأمر الدين ، ونشأت من

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٣٦.

هنا جماعةٌ من حُسَّاده كانت تتمنى زوال نعمته ، وتُحاول النيل من شخصيته ، ويقول ابن كثير :

«وكانَ للشيخ تقيِّ الدين من الفقهاء جماعةٌ يَحسُدونه لتقدُّمه عند الدولة ، وانفرادِه بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وطاعةِ الناس له ، ومحبَّتهم له ، وكثرة أتباعه ، وقيامِهِ في الحق ، وعلمه ، وعمله» [1].

رَدُّه على عَقيدة وَحْدة الوجود:

وقد أثارتْ بعضُ الأحداث النقاشَ حول العقائد ، وانعقدت له مجالس عديدة ، وكان من أعظم ما فعله ابن تيمية: أنه كان يردُّ مذهب الشيخ محيي الدين ابن عربي في وحدة الوجود بكل صراحة وإعلان ، وقد كان له جماعة كبيرة من الأتباع والأنصار في مصر والشام ، كما كانت طائفة كبيرة من العلماء والمشايخ كانوا يعتبرونه عارفاً كبيراً ومحقِّقاً جليلاً ، وإمام مشرب «التوحيد» والشيخ الأكبر الذي لا يدانيه أحدٌ في ذلك العصر.

وكان ابن تيمية يرى أن تحقيقاته وإلهاماته تُعارض تماماً تعاليمَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتخالف تعليمَ التوحيد الذي جاء به كل نبيِّ في عصره ، وقام بتفسيره الأخير وإكماله نبيُّنا محمد ﷺ ، والذي يُستفاد بكل إيضاح من الكتاب والسنة وبلغنَا بالتواتر اللفظي والمعنوي.

وكان الشيخُ محيي الدين بن عربي قد توفي عام ٦٣٨ هـ (قبل ولادة ابن تيمية بثلاث وعشرين سنة) وكانتْ مؤلفاته متداولة بين الناس ، بخاصة «الفتوحات المكية» و «فصوص الحكم» اللَّذين نالا إعجاب الأوساط العلمية.

أمَّا ابن تيمية فكان قد درس الفلسفة والتصوف والإشراق بتأمُّلٍ ودقةٍ ، ومن بين ما قرأ من الكتب كان هذان الكتابان أيضاً ، إنه يقتطف في مؤلفاته عبارات من هذين الكتابين ويرد عليهما ، الأمر الذي يدل على أن دراسته لِمثل هذه

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٣٧.

الكتب كانت مباشرة وعميقة ، وكان قد توصَّل بها إلى نتيجة أن التوفيق بين ما جاء في هذه الكتب من أفكارٍ وآراء وبين تعاليم النبوة مستحيلٌ ، إنه يقول وهو يتحدث عن مذهب الشيخ ابن عربي [(١)]:

«يقولون ـ ابن عربي وأتباعه ـ: إنَّ الوجود واحدٌ ، ويقولون: إن وُجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يُثبتون مَوجودين خَلق أحدُهما الآخر ، بل يقولون: الخالق هو المخلوق ، والمخلوقُ هو الخالق. . . فأمَّا الوجود فلا يُتصور أن يكون فيه رَبٌّ وعَبْدٌ ، وخالقٌ ومخلوقُ ، وداعٍ ومُجيبٌ ، وإنما الوجود لمَّا فاض على الأعيان فظهر فيها ، حصل التفرق من جهة الأعيان ، كتفرق النور في الزجاج لاختلاف ألوانه.

ويقولون: إنَّ عُبَّاد العجل ما عبدوا إلا الله ، وإن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد الشيخ محيي الدين أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المشهور بابن عربي ولد سنة ٥٦٠هـ بمرسية بالأندلس وتوفي سنة ٦٣٨هـ بدمشق، اقرأ ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان وفي كتب التراجم والتاريخ.

ولا تزال شخصيته وآراؤه الشاذة موضع نزاع وخلاف من العهد القديم وحارت الأذهان في تأويلها ، ويرجح بعض أهل العلم أن كثيراً من ذلك مدسوس عليه ، ومما لا شك فيه أنها موحشة ، وفتن بها كثير من الناس ، وتضرروا بها ، وشغل قسطاً من ذكائهم ، ووقتهم ، لو صرف في محله لعاد على الإسلام والمسلمين بخير كثير ، ويعجبني ما قاله العلامة شمس الدين الذهبي وهو يترجمه في كتابه المشهور «ميزان الاعتدال» قال: «فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئاً سوى سورة من القرآن يصلي بها في الصلوات ويؤمن بالله وباليوم الآخر ، خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق ، ولو قرأ مئة كتاب وعمل مئة خلوة» (ج٢ ، ص ٤٢٤).

وقد حمل لواء المعارضة له وتصدى لنقده اثنان من أعلام هذه الأمة أحدهما شيخ الإسلام ابن تيمية من رجال القرن الثامن والثاني الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي من رجال القرن الحادي عشر ، كل بأسلوبه الخاص وفي ضوء تجاربه الشخصية ، ولهما موافقات ، والتقاءات لا تدل إلا على أن الحق واحد ، وعلى رسوخ قدمهما ، وعلو كعبهما في العلوم الصحيحة والأذواق الصادقة ، (المؤلِّف).

الذين يَرون الحق في كل شيء ، بل يرونه عينَ كل شيء وأن فرعون كان صادقاً في قوله ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] بل هو عين الحق [١].

وهم يُعظِّمون فرعون ويقولون ما قاله صاحب الفصوص (ابن عربي) قال: ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز في العرف الناموسي ، لذلك قال «أنا ربُّكم الأعلى» أي وإن كان الكل أرباباً بنسبةٍ ما فأنا الأعلى منهم بما أُعطيتُه في الظاهر من الحكم فيكم ، قال: ولما علمت السَّحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقروا بذلك وقالوا له ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢] قال: فصح قول فرعون «أنا ربكم الأعلى» وإن كان فرعون عين الحق.

ولهذا عابَ ابن عربي نوحاً. . . وعظَّم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنَّهم ما عبدوا إلا الله وأنَّ خطاياهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله [٢].

يَبدو أنَّ الناس غالوا كثيراً في الاعتقاد بوحدة الوجود في عصر ابن تيمية ، حتى تخطَّوا حدود الشرع ، والعقل ، والأخلاق في هذه العقيدة ، وحدثت «أزمة اعتقادية» في هذا الموضوع ، إنه يقول:

«وقد ضَلَّ في هذا جماعةٌ ولهم معرفةٌ بالكلام ، والفلسفة ، والتصوف المناسب لذلك كابن سبعين ، والصدر القُوْنَوِي تلميذ ابن عربي ، والبَلْيَانِي ، والتِّلْمِسَاني ، وهو من حُذَّاقهم علماً ومعرفة ، وكان يُظهر المذهب بالفعل ، فيشربُ الخمر ، ويأتي المحرمات.

وحدَّثني الثقةُ أنه قرأ عليه «فصوص الحكم» لابن عربي وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما رآه يخالف القرآن قال: فقلتُ له هذا الكلام يخالف القرآنَ.

فقال: القرآن كله شركٌ ، وإنما التوحيد في كلامنا.

---

(١) الردُّ الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم: ص ١١.

(٢) الفرقان بين الحق والباطل: ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول.

وحدَّثني من كان معه ومع آخر نظير له فمرَّا على كلب أجرب ميِّت بالطريق عند دار الطعم فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله، فقال: وهل ثم شيء خارج عنها؟ نعم الجميع في ذاته [١].

وقيل لبعضهم: «إذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأمُّ حراماً؟

فقال: الكلُّ عندنا واحدٌ، ولكنْ هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا حرام عليكم» [٢].

ولقد كتب شيخُ الإسلام ابن تيمية رسالة مفصلة في سنة ٧٠٤هـ إلى الشيخ أبي الفتح نصر المَنْبَجِي وذكر له فيها:

«لولا أنِّي أرى دفعَ ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى السالكين إليه من أعظم الواجبات، وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين لم يكن للمؤمنين بالله تعالى ورسوله حاجة إلى أن يكشف أسرار الطريق، ويهتك أستارها، ولكن الشيخ أحسن الله تعالى إليه يعلم أن مقصود الدعوة النبوية بل المقصود بخلق الخلق، وإنزال الكتب، وإرسال الرسل أن يكون الدين كله لله هو دعوة الخلائق إلى خالقهم.

وهؤلاء موَّهوا على السَّالكين التوحيد الذي أنزل الله تعالى به الكتب وبعثَ الرسل بالاتحاد الذي سمَّوه توحيداً، وحقيقتُه تعطيلُ الصانع وجُحود الخالق، وإنما كنتُ قديماً ممن يحسن الظن بابن عربي وتعظيمه لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من «الفتوحات» و«كنه المحكم المربوط» و«الدرة الفاخرة» و«مطالع النجوم» ونحو ذلك، ولم نكن بعدُ قد اطَّلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نُطالع الفصوص ونحوه، وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل: ص ١٤٥.

(٢) الرد الأقوم على فصوص الحكم: ص ٤٢.

الحقَّ ونتبعه ونكشف حقيقة الطريق، فلما تبيَّن الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا.

فلمَّا قدم من المشرق مشايخ مُعتبرون، وسألوا عن حقيقة الطريقة الإسلامية والدين الإسلامي وحقيقة حال هؤلاء، فوجب البيانُ.

وكذلك كَتب إلينا من أطراف الشام رجالٌ سالكون أهل صدق وطلب أن أذكر النكت الجامعة لحقيقة مقصودهم، والشيخ أيَّده الله تعالى بنور قلبه، وذكاء نفسه، وحق قصْده من نصحه للإسلام وأهله لإخوانه السالكين يفعلُ في ذلك ما يرجو به رضوان الله سبحانه ومغفرته في الدنيا والآخرة».

وهو بعد ذلك يستعرِضُ بشرح وتفصيل العقائد والنظريات والمذاهب التي كانت شائعة حول الاتحاد والحلول بين الفرق المسيحية كاليعقوبية والنسطورية والملكانية، وبين بعض الفرق التي كانت تُنسب إلى المسلمين كالرَّوافض والجهمية.

كما أنَّه يشرح بتفصيل «الاتحاد المعيَّن» و«الاتحاد المطلق» و«الحلول المعين» و«الحلول المطلق» ويذكُر القائلين بذلك، مما يدل على سعة نظره، واطلاعه على المذاهب السابقة، ثم إنه يقوم بشرح مذهب ابن عربي بغاية من التحقيق والدقة والحيطة، ممَّا يدلُّ على أنه كان قد درس كتبه كـ«الفتوحات» و«فصوص الحكم» بتأمل بالغ.

وكان قد أدرك مفتاح كلامه الذي سَهَّل عليه فتح مغاليق علومه وحقائقه، ومن ثم يتَّضح الفرق بينه وبين دُعاة وحدة الوجود الآخرين، وتنكشف حقيقةُ قولِ ابن عربي، وهو عندما يتكلم عن جميع هذا يتصدى لشرح نتائجه والتزاماته الفاسدة، ويمنحه حقَّ الشك والاحتمال بغاية من الإخلاص والانشراح، ويفرِّق بينه وبين الاتحاديين الآخرين، يقول في الرسالة نفسها:

«لكنَّ ابنَ عربي أقربهم إلى الإسلام وأحسن كلاماً في مواضع كثيرة، فإنه يفرِّق بين المظاهر والظاهر، فيُقر الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشائخ من الأخلاق والعبادات، ولهذا كثيرٌ من العُبَّاد يأخذون من كلامه سلوكهم فينتفعون بذلك وإن كانوا لا يفقهون

حقائقه ، ومن فَهمه منهم وفقِه ، فقد تبيَّن قوله»[١].

ويقول في موضع آخر: «وهذه المعاني كلُّها هي قولُ صاحب «الفصوص» والله تعالى أعلم بما مات الرجلُ عليه ، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠][٢].

ثم إنَّه يتحدَّث عن مذهب صدر الدين القونوي فيقول: هو أبعدُ عن الشريعة والإسلام.

ويردُّ بعد ذلك على التلمساني وابن سبعين رداً قوياً ، ولكنه يُبغض التلمساني بغضاً شديداً ، فلا يلبث أن تبعثه الحمية الدينية على أن يقول:

«وأمَّا الفاجرُ التلمساني[٣] فهو أخبث القوم ، وأعمقهم في الكفر ، فإنه لايُفرِّق بين الوجود والثُّبوت ، كما يفرِّق ابن عربي ، ولا يفرِّق بين المطلق والمعين ، كما يفرق الرُّومي ، ولكن عنده ما ثم غيره ، ولا سوىً بوجهٍ من الوجوه ، وأن العبد إنما يشهد السوى ما دام مَحجوباً فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثَمَّ غير يبين له الأمر ولهذا كان يستحلُّ جميع المحرَّمات»[٤].

وفي الأخير يشير إلى نُكتة مهمة ويقول: «مُتكلِّمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومُتعبِّدة الجهمية يعبدون كل شيء ، وذلك لأن متكلِّمهم ليس في قلبه تألُه ولا تعبد ، فهو يصف ربَّه بصفات العدم والموات».

وأمَّا المتعبد ففي قلبه تألهٌ وتعبُّدٌ ، والقلبُ لا يقصد إلا موجوداً لا معدوماً فيحتاج أن يَعبُدَ المخلوقات ، إمَّا الوجود المطلق وإمَّا بعضَ المظاهر:

---

(١) جلاء العينين: ص٥٨.
(٢) المرجع السابق: ص ٥٨.
(٣) يعرف التلمساني لدى أتباعه بالعفيف التلمساني.
(٤) جلاء العينين: ص ٥٨.

كالشمس والقمر، والبشر والأوثان، وغير ذلك، فإنَّ قول الاتحادية يَجمع كل شرك في العالم، وهم لا يوحدون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما يُوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات، فهم بربِّهم يعدلون.

ولهذا حدَّثني الثقةُ أن ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند، وقال: إنَّ أرض الإسلام لا تسعه، لأن الهند مشركون [1]، يعبدون كلَّ شيء حتى النبات والحيوان.

وهذا حقيقةُ قول الاتحادية فإذا أخذوا يصفون الربَّ سبحانه بالكلام قالوا: ليس بكذا ليس بكذا، ووصفوا بأنه ليس هو ربُّ المخلوقات كما يقوله المسلمون، لكن يجحدون صفات الخالق التي جاءت بها الرسل عليهم السلام.

وإذا صار لأحدهم ذَوقٌ ووَجْدٌ، تألَّه وسلك طريق الاتحادية، وقال: إنه هو الموجودات كلها، فإذا قيل له: أين ذلك النفي من هذا الإثبات؟

قال: ذلك وجدي، وهذا ذوقي.

فيقال لهذا الضالِّ: كلُّ ذوقٍ ووجْدٍ لا يُطابق الاعتقاد فأحدهما أو كلاهما باطلٌ، وإنما الأذواق والمواجيد نتائج المعارف والاعتقادات، فإنَّ عِلْم القلب وحاله متلازمان، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الوجد والمحبة والحال.

ولو سلَكَ هؤلاء طريق الأنبياء عليهم السلام ـ الذين أمروا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ووصفوه بما وصف به نفسه وبما وصَفته به رسله، واتَّبعوا طريق السابقين الأولين: لسلكوا طريق الهدى ووجدوا بردَ اليقين وقُرة العين، فإنَّ الأمر كما قال بعض الناس: إنَّ الرسل جاؤوا بإثبات مفصَّل ونفي مجمل، والصابئة المعطلة جاؤوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، فالقرآن مملوءٌ من قوله تعالى في الإثبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] وأنه ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١] ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً

(١) سكَّان الهند الأصليون.

وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] وفي النفي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1] [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨١].

ويتحدَّثُ عن الفوضى الخُلقية التي نشرتها هذه العقيدة، واتخذها الفُسَّاق وأهل الهوس حِجاباً لشهواتهم، فيقول:

«إنَّ دُعاة هذه العقيدة يجمعون بين شهوات النفس، والهوس، وفساد الاعتقاد، مما أنتج في بعض البلدان أن بعض الناس يُصابون بهوى المُردان، ويقولون: إنهم مظهر الله تعالى، ومظهرُ جماله. وبعضُهم يُقبِّلون المحبوب ويقولون له: أنتَ الله، وبعضُهم يعتدي على أولاده، ويدعي الألوهية، وما إلى ذلك».

ذلك هو الزمنُ الذي كان فيه الملك الناصر محمد بن قلاوون مَلكاً رمزاً ليس له من الأمر شيء، كان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، هو الذي يأمر وينهى ويتصرف في المملكة تصرفاً مطلقاً، وكان جاشنكير هذا من المعجبين بالشيخ نصر المنبجي، الذي كان ممن يحب الشيخ ابن عربي حباً شديداً، ولقد كان الشيخ نصر المنبجي لا يزال يطّلع في مصر على آراء الشيخ ابن تيمية في ابن عربي التي كان يُبديها حيناً لآخر كِتابةً وكلاماً، ويكفي ذلك لإثارة سَخطه على الشيخ ابن تيمية، وكان جاشنكير ضعيفَ الثقافة شأن الأمراء الأتراك مُتمتعاً بتدبير الأمور العسكرية والإدارية، ولكنه كان متأثراً برأي شيخه ويرى ابن تيمية كما يراه شيخُه.

أمّا الشام فكانت ولايةً للمملكة المصرية، وتابعةً لها بالكُلية، فكان سُلطانها يتمتَّع بامتيازات واسعة، وله الحق أن يطلب أيَّ شخص إلى البلاط يُخشى منه أن يُسبب ضرراً بالأمن العام أو يُثير فتنة وخصاماً، وكانت أهواء رجال البلاط أو الاتجاهات الشخصية تعمل في مثل هذه المواقف بوجهٍ عامٍ،

---

(١) الرد الأقوم على فصوص الحكم: ص ٥٢.

وكان الوضع إذ ذاك أنَّ الشيخ نصر المنبجي الذي كان يُعظِّمه نائب السلطنة ويقتدي به كان يُبغض ابن تيمية ، ويُريد أن يحط من شأنه ، ويُحبط مساعيه .

ابن تيمية يُطلب إلى مصر:

وعلى كُلٍّ فقد وصل كتاب السلطان إلى ابن تيمية في خامس رمضان عام ٧٠٥هـ يطلبُه إلى مصر ، وقد أقلق ذلك أصحابه وتلاميذه ، وأشار عليه نائب السلطنة ـ وكان من المعجبين به ـ بتَرَكِ الذهاب إلى مصر ، وقال له : أنا أكاتب السلطانَ في ذلك ، وأزيل الوحشة وألمّ الشَّعث ، ولكن الشيخ ابن تيمية امتنع عن ذلك وقال له : إن في توجهه إلى مصر مصالح كثيرة ، فازدحم الناسُ لوداعه ورؤيته وشيَّعوه إلى بعض الطريق ، وهم فيما بين باكٍ وحزين .

ودخَلَ الشيخُ غَزَّةَ في طريقه إلى مصر ، فعمل في جامعها مجلساً وألقى فيه درساً ، ووصل إلى مصر في ٢٢/ من رمضان ، وعُقد له مجلس بالقلعة يوم الجمعة بعد الصلاة ، حضره القضاة وأكابر الدولة ، وأراد أن يتكلَّم على عادته فلم يتمكن من البحث والكلام ، وانتدب له الشمس بن عدنان خصماً وأورد عليه بعض الحاضرين في عقائده ومسائله [١]، فسأله القاضي عن الجواب عليه، فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه ، فقيل له : أجِبْ ، ما جئنا بك لتخطب .

فقال : ومن الحاكم فيَّ؟

فقيل له : القاضي ابنُ مخلوف المالكي [٢] .

فقال له الشيخ : كيف تحكم فيَّ وأنت خصمي؟

---

(١) هذه العقائد والمسائل هي تلك البحوث الكلامية القديمة التي نوقشت في دمشق مراراً وكان ابن تيمية قد ألف في موضوعها رسائل وكتباً مستقلة، مثلاً «حقيقة الاستواء على العرش» وحقيقة كلام الله، وبحث الحرف والصوت.

(٢) كان خصماً لابن تيمية ومن معارضيه في مصر.

فغضب غضباً شديداً ، وانزعج وأصدر حُكمه عليه [١] ، وحُبس في بُرج أياماً ، ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجبِّ ، هو وأخوه شرف الدين عبد الله ، وزين الدين عبد الرحمن [٢] .

وفي ليلة عيد الفطر عام ٧٠٦هـ أحضَر الأميرُ سيف الدين سلار نائبُ مصر القضاة ، والفقهاء الذين تكلموا في إخراج الشيخ ابن تيمية من الحبس فاشترط بعضُ الحاضرين عليه شروطاً بذلك ، منها أنه يلتزم بالرجوع عن بعض العقيدة ، وأرسلوا إليه ليحضر ليتكلَّموا معه في ذلك ، فامتنع من الحضور ، وصمَّم ، وتكررت الرُّسل إليه ستَّ مرات ، فصمَّم على عدم الحضور ولم يلتفت إليهم ولم يَعِدْهُم شيئاً ، وكان جوابه دائماً ، ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [٣] [يوسف: ٣٣].

ابنُ تيمية يتحدَّث عن سَبب الخلاف ويُوضِّح مَذهَبه:

ومِن حُسن الحظِّ أن رسالة مُستقلة لابن تيمية صدرت جديداً ، حكي فيها عن مجلس النقاش الذي أقيم في مصر للنظر في قضيته ، وسرَد بنفسه قصة الحبس والأسر ، ثم كلام الناس للإفراج عنه ، وإنكاره ، وإيضاحه لمذهبه ، وهذه الرسالة تُضيء كثيراً من الجوانب المهمة والأحوال الجديدة ، وهنا أقدم نتفاً من مقتطفاتها [٤] .

فجاء الفتَّاح (ذات يوم) فقال: يسلِّم عليك النائب ، وقال: إلى متى يكون

---

(١) وقد حدَّث الشيخ عمَّا جرى له في هذا المجلس في رسالة له، صدرت باسم «المحنة» حديثاً.

(٢) ابن كثير: ج ١٤ ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٢.

(٤) وُجِدت نسخةٌ من هذه الرسالة في المكتبة الظاهرية بدمشق بخط شقيقه ورفيقه في السجن الشيخ شرف الدين ابن تيمية، وقد صدرت باسم «مجموعة علمية» تحتوي على بعض رسائل الشيخ ابن تيمية الأخرى كذلك، اهتمَّ بطبعها وإخراجها فضيلةُ الشيخ عبد الرزاق حمزة إمام الحرم المكي سابقاً، وفضيلة الشيخ محمد نَصِيف (رحمهما الله).

المقام في الحبس، أما تخرج؟ هل أنت مقيمٌ على تلك الكلمة أم لا؟

وعلمتُ أن الفتَّاح ليس في استقلاله بالرسالةِ مصلحةٌ ، لأمور لا تخفى ، فقلتُ له: سلِّم على النائب وقل له: أنا لا أدري ما هذه الكلمة؟ وإلى الساعة لم أدر على أي شيء حُبِستُ؟ ولا علمتُ ذنبي؟ وأن جواب هذه الرسالة لا يكون مع خدمتك ، بل يُرسل من ثقاته الذين يفهمون ويصدقون أربعة أمراء ليكون الكلام معهم مضبوطاً عن الزيادة والنقصان ، فأنا قد علمت ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب.

فجاء بعد ذلك الفتَّاح ، ومعه شخصٌ ما عرفته ، لكن ذُكر لي أنه يُقال علاء الدين الطبرسي ، ورأيت الذين عرفوه أثنوا عليه بعد ذلك خيراً ، وذكروه بالحسنى ، لكنه لم يقل ابتداءً من الكلام ما يحتمل الجواب بالحسنى ، فلم يقل: الكلمة التي أنكرت كَيْتَ وكَيْتَ ، ولا استفهم هل أنت مُجيب إلى كيت وكيت؟ ولو قال ما قال من الكذب عليّ والكفر والمجادلة على الوجه الذي يقتضي الجواب بالحسنى؛ لفعلتُ ذلك ، فإنَّ الناس يعلمون أني من أطول الناس روحاً وصبراً على مُرّ الكلام ، وأعظم الناس عدلاً في المخاطبة لأقل الناس ، دَعْ ولاة الأمور ، لكنه جاء مجيء المُكره على أن أوافق إلى ما دعاه إليه ، أخرج درجاً فيه من الكذب والظلم ، والدعاء إلى معصية الله والنهي عن طاعته ما الله به عليم ، وجعلتُ كلما أردتُ أن أجيبه وأحمِّله رسالة يُبلغها: لا يُريد أن يسمع شيئاً من ذلك ويبلِّغه ، بل لا يريد إلا ما مضمونَه الإقرار بما ذكر ، والتزام عدم العودة إليه ، والله تعالى يقول: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فمتى ظَلم المخاطِب لم نكُن مأمورين أن نجيبه بالتي هي أحسن.

فقلتُ له في ضِمن الكلام: الحقُّ في هذه القضية ليس لي ، لكنْ للهِ ولرسوله ولسائر المسلمين من شرق الأرض إلى غربها ، وأنا لا (أستطيع) تبديلَ الدين وتغييره ، وليس لأجلك أو أجل غيرك أرتدُّ عن دين الإسلام ، وأقرُّ بالكفر والكذب والبُهتان ، راجعاً عنه أو موافقاً عليه.

لمَّا رأيته يُلح في الأمر بذلك ، أغلظتُ عليه في الكلام ، وقلت: دَعْ هذا الفشار ، وقُمْ رُحْ في شغلك ، فأنا ما طلبت منكم أن تخرجوني ، وكانوا قد أغلقوا الباب القائم الذي يدخل منه إلى الباب المُطبق ، فقلت أنا: افتحوا لي الباب حتى أنزل ، يعني: فرغ الكلام.

وقلتُ له: أنا لم يصدر منِّي قطُّ إلا جواب مسائل ، إفتاءُ مُسْتَفْتٍ ، ما كاتبتُ أحداً ابتداءً ، ولا خاطبتُه في شيء من هذا ، بل يجيء الرجل المسترشد المستفتي عمَّا أنزل الله على رسوله ، فيسألني مرة بعد مرة ، وهو متحرِّق على طلب الهدى ، أفيَسَعُني في ديني أن أكتمَه العلم؟ وقد قالَ النَّبي ﷺ: «مَن سُئل عن علمٍ يَعلمُه ، فكتمَه ، ألجَمَهُ الله يومَ القيامة بلِجَام من نار»[1] وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] أفعلى أمرك أمتَنِعُ من جواب المُسترشِد؛ لأكونَ كذلك؟! وهل يأمُرني بهذا السلطان أو غيره من المسلمين؟! ولكن أنتم ما كان مقصودُكم إلا دفعُ أمرِ الملك لِما بلغتكم من الأكاذيب.

فقال: يا مولانا دع أمر الملك ، أحدٌ ما يتكلم في الملك؟ فقلت: إيه ، الساعة ما بقي أحد يتكلم في الملك ، هل قامتْ هذه الفتنة إلا لأجل ذلك؟ نحن سمعنا بهذا ونحن بالشام ، إن المُثير لها تُهمـة المَلكِ ، لكن ما اعتقدنا أن أحداً يُصدِّق هذا.

وذكرتُ له أنَّ هذه القضية ليس ضَررُها عليَّ ، فإني أنا من أي شيء أخاف؟ إن قتلتُ كُنت من أفضل الشهداء وكان ذلك سعادة في حقي يُترضَّى بها عليَّ إلى يوم القيامة ، ويُلعن الساعي في ذلك إلى يوم القيامة ، فإن جميعَ أمة محمد

---

(١) [أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب من سئل عن علم فكتمه ، برقم (٢٦٦) ، وأحمد في المسند (٢/ ٤٩٥) برقم (١٠٤٢٥) ، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٨٢) برقم (٢٢٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه].

يعلمون أني أقتل على الحق الذي بعث الله به رسولَه ، وإن حبست؛ فوالله إنَّ حَبسي لمن أعظمِ نِعَمِ اللهِ عليّ ، وليس لي ما أخاف الناس عليه ، لا مدرسةٌ ، ولا إقطاعٌ ، ولا مَالٌ ، ولا رئاسةٌ ، ولا شيءٌ من الأشياء ، ولكنْ هذه القضية ضررُها يعود عليكم ، فإن الذين سعوا فيها من الشام ، أنا أعلم أنَّ قَصْدهم فيها كيدُكم ، وفسادُ مِلتكم ودولتكم ، وقد ذهبَ بعضُهم إلى بلاد التتار ، وبعضهم مقيم هناك ، فهمُ الذين قصدوا إفساد دينكم ودنياكم ، وجعلوني أنا ما نستر؛ لعلمكم بأني أُواليكم ، وأنصحُ لكم ، وأريد لكم خير الدنيا والآخرة ، والقضية لها أسرارٌ كلَّما جاءت تنكشف ، وإلاَّ فأنا لم يكن بيني وبين أحد بمصر عداوة ولا بغضاءُ ، وما زِلتُ محبّاً لهم ، مُوالياً لهم ، أمراءَهم ومشايخَهم وقُضاتهم.

فقال لي : فما الذي أقوله لنائبِ السلطان؟

فقلتُ : سلِّم عليه ، وبلِّغهُ كلَّ ما سمعتَ.

فقال : هذا كثيرٌ.

فقلتُ : ملخصه أن الذي في هذا الدرج أكثرُه كَذِبٌ.

وأمَّا هذه الكلمة «استوى حقيقة».

ويعني : قلتها حقّاً.

فهذه قد ذكر غيرُ واحدٍ من علماء الطوائف المالكية وغير المالكية : أنه أجمع عليها أهلُ السُّنَّة والجماعة، وما أنكر ذلك أحدٌ من سلف الأمة ، ولا أئمتها ، بل ما علمتُ عالماً أنكرَ ذلك ، فكيف أترك ما أجمع عليه أهلُ السُّنَّة ، ولم ينكره أحد من العلماء.

قال أبو عمرَ بنُ عبد البرّ : أهل السُّنَّة مُجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كُلِّها في القرآن والسنة ، والإيمان بها وحملِها على الحقيقة لا على المجاز، إلاَّ أنهم لا يُكيِّفون شيئاً من ذلك ، ولا يجدون فيه صفة محصورة.

وأمَّا أهلُ البدع الجهمية ، والمعتزلة كلها ، والخوارج ، فكلُّهم يُنكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعمون أنَّ من أقرَّ بها مُشبِّهٌ وهم عند من

أقرّ بها نَافُونَ للمعبود ، والحقُّ فيما قاله القائلون بما نَطقَ به كتابُ الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة.

وقال الشيخُ العارفُ أبو محمد عبد القادر بنُ صالح الكيلاني في كتاب «الغنية» وهو بجهة العلو ، مُستو على العرش محتوٍ على الملك ، محيطٌ عليه بالأشياء.

قال: ولا يجوز وصفُه بأنه في كلِّ مكان ، بل يُقال: إنه في السماء على العرش كما قال ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] وذكر الآيات والأحاديث ، إلى أن قال: ينبغي إطلاقُ صفة الاستواء ، من غير تأويل؛ وأنَّه استواءُ الذات على العرش [١] ، فلو كان الذي حَكم بهِ ابنُ مخلوفٍ وهو مذهب مالك أو الأشعري ؛ لم يكن له أن يُلزم جميع الناس به ويعاقب من لم يوافقه عليه باتفاق الأمة ، فكيف والقولُ الذي يقوله ويُلزم به هو خلاف نصِّ مالك وأئمةِ أصحابه ، وخلاف نص الأشعري وأئمة أصحابه كالقاضي أبي بكر ، وأبي الحسن الطبري ، وأبي بكر ابن فورك ، وأبي القاسم القشيري ، وأبي بكر البيهقي وغير هؤلاء ، وكلهم مُصرِّحون بمثل ما قلناه وبنقيض ما قاله!

ولهذا اصطلحت الحنبليةُ ، والأشعريةُ ، واتفق الناس كلُّهم ، لمَّا رأى الحنابلة كلام أبي الحسن الأشعري قالوا: هذا خيرٌ من كلام الشيخ الموفَّق ، وزالَ ما كان في القلوب من الأضغان ، وصار الفقهاء من الشافعية وغيرهم يقولون: الحمد لله على اتفاق كلمة المسلمين.

فقال لي: نعم هو مستوٍ على العرش حقيقةً بذاته بلا تكييف ولا تشبيه؟ قلت: نعم ، وهكذا هي العقيدة ، فقال: فاكتب هذه الساعة ، وقال: التزمه ، أو نحو هذا.

---

(١) لقد تصدَّى الشيخُ في هذه المناسبة بذكر كثير من آراء أكابر العلماء للمذاهب الأربعة نكتفي هنا بذكر هذين الرأيين فقط.

فقلتُ: هذا هو مكتوبٌ بهذا اللفظ في العقيدة التي عندكم التي بُحثت بدمشق واتَّفق عليها المسلمون فأيُّ شيء هو الذي أزيده؟

قلت له: أنا أحضرت أكثر من خمسين كتاباً من كتب أهل الحديث والتصوُّف والمتكلمين والفقهاء الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، يُوافق ما قلته.

قلت: أنا أمهل من خالفني ثلاث سنين أن يجيء بحرف واحد عن أئمة الإسلام يُخالف ما قلته، فما الذي أصنعُه؟

فلمَّا خرج الطبرسيُّ، والفتاح؛ عاد الفتَّاح بعد ساعة، فقال: يُسلِّم عليك نائب السلطان وقال: فاكتب لنا الآن عقيدة بخطك.

فقلت: سَلِّم على نائب السلطان، وقل له: لو كتبتُ الساعة شيئاً لقال القائل:

قد زاد ونقص أو غيَّر الاعتقاد، وهكذا بدمشق لما طلبوا الاعتقاد لم آتهم إلا بشيء قد كُتب متقدماً.

قلتُ: وهذا الاعتقادُ هو الذي قُرىء بالشام في المجالس الثلاثة، قد أرسَله إليكم نائبكم مع البريد والجميعُ عندكم، ثم أرسل إليكم مع العمري ثانياً لما جاء الكتاب الثاني ما قاله القضاة، والعلماء، والمحضر، وكتاب البخاري الذي قرأه المِزِّي، والاعتقاد ليس هو شيئاً أبتدعه من عندي، حتى يكون كل يوم لي اعتقاد، وذلك الاعتقاد بعينه، والنسخة بعينها، فانظروا فيها.

فراح، ثم عاد، وطلب أن أكتب بخطي أيَّ شيء كان.

فقلت: فما الذي أكتُبه؟

قال: مثل العفو، وألا تتعرَّض لأحد.

فقلت: نعم هذا أنا مُجيبٌ إليه، ليس غرضي في إيذاء أحد، ولا الانتقام منه، ولا مؤاخذته، وأنا عافٍ عمن ظلمني، وأردت أن أكتب هذا، ثم قلت: مثلُ هذا ما جرت العادة بكتابتِه، فإنَّ عَفْوَ الإنسان عن حقه لا يحتاج إلى هذا.

فينبغي أن يعرف الشيخ نصر بحقيقة الأمر وباطن القضية ليَطُبَّها بتدبيره ، فأنا ليس مرادي إلا في طاعة الله ورسوله وما يخافُه على جميع المصريين إلا من بعضهم في بعض كما جرت به العادة ، قد سمعتُم ما جرى بدمشق مع أن أولئك أقرب إلى الاتفاق من تجديد القاضي المذكور إسلامَه عند القاضي الآخر ، وأنا لما كنت هناك كان هذا الأذرعيُّ الحنفيُّ قد ذهب إلى القاضي تقي الدين الحنبلي ، وجدد إسلامه ، وحكم بحقن دمه لمَّا قام عليه بعض أصحابهم في أشياء.

وكان من مُدة لمَّا كان القاضي حسام الدين الحنفي مباشراً لقضاء الشام أراد أن يحلقَ لِحية هذا الأذرعي ، وأحضر الموسى ، والحمار ليركبه ، ويطوفَ به ، فجاء أخوه عرَّفني ذلك ، فقمتُ إليه لم أزل به حتى كفَّ عن ذلك ، وجرت أمورٌ لم أزل له فيها مُحسناً إليهم ، وهذه أمورٌ ليست من فعلي ، ولا فعل أمثالي نحن إنما ندخل فيما يُحبه الله ، ورسوله ، والمؤمنون ، ليس لنا غرضٌ من أحد ، بل نجزي بالسيئة الحسنَـة ، ونعفو ، ونغفر.

وهذه القضيةُ قد انتشرت ، وظهرَ ما فعل فيها وعلمه الخاصُّ والعام ، فلو تغيَّرت الأحوال حتى جاء أميرٌ ، أو وزير له في نقل ملك قد أثبته ، أو حكم به؛ لكان هذا عند المصريين من أسهل ما يكون ، فيُثبتون ردته ، والمرتدُّ أحكامه مردودة باتفاق العلماء ويعود ضررُه على الذين أعانوه ، ونصروه بالباطل من أهل الدولة وغيرهم ، وهذا أمرٌ كبير لا ينبغي إهمالُه ، فالشيخ خبيرٌ يعرف عواقبَ الأمور.

وأنا والله مِن أعظمِ الناس معاونةً على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها ، وإقامة لكلِّ خيرٍ.

وابنُ مخلوف ولو عمل مهما عمل والله ما أقدرُ على خير إلا وأعمله معه! ولا أعين عليه عدوَّه قط ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه نيَّتي وعزمي مع علمي بجميع الأمور ، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين ، ولن أكون عوناً للشيطان على إخوتي المسلمين ، ولو كُنت خارجاً؛ لكنتُ أعلم بماذا أعاونه ،

لكن هذه قد جعلوها مسألة دور ، والله يَخيرُ للمسلمين جميعهم ما فيه الخِيرة في دينهم ، ودنياهم.

ولنْ ينقطعَ الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى الله ، والاستغفار ، والتوبة ، وصدق الالتجاء ، فإنه سبحانه لا ملجأ منهُ إلا إليه ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

أمَّا ما يتعلقُ بالاستغاثة بالنبي ﷺ ، فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام: أن العبد لا يجوز له أن يعبد ، ولا يدعو ، ولا يستغيث ، ولا يتوكَّل إلا على الله ، وأنَّ من عبدَ ملكاً مقرباً ، أو نبياً مُرسلاً ، أو دعاه ، أو استغاث به فهو مشرك ، فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل: يا جبرائيل ، أو يا ميكائيل ، أو يا إبراهيم ، أو يا موسى ، أو يا رسول الله ، اغفر لي ، أو ارحمني ، أو ارزقني ، أو انصرني ، أو أعني ، أو أجرني من عَدُوِّي ، أو نحو ذلك ، بل هذا كُلُّه من خصائص الألوهية ، وهذه مسائلُ شريفةٌ معروفة قد بيَّنها العلماء.

وأنتَ لمّا ذكرتَ لي ذلك اليوم هذا ، قلتُ لك: هذا من أصول الإسلام ، فإذا كان القاضي لا يُفرق بين دين الإسلام ودين النصارى الذين يَدْعُون المسيح وأمَّه فكيف أصنع أنا؟ ولكن من يتخذ نفيسة [1] رَبّاً، ويقول إنها تُجير الخائف ، وتُغيث الملهوف ، وأنه والهٌ في حبها ، ويَسجدُ لها، ويتضرَّع في دعائها، مثلَ ما يتضرع في دعاء رب الأرض والسموات، ويتوكَّل على من قد مات، ولا يتوكل على الحيِّ الذي لا يموت، فلا ريب أن إشراكه بمن هو أفضلُ منها يكون أقوى ، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٨ - ٨٩] ، وحديث معاذ لمَّا رجع من الشام فسجَد للنبي ﷺ فقالَ: «ما هذا يا معاذ»؟

---

(١) السيدة نفيسة من أهل بيت الرسول ﷺ وقبرها معروف بالقاهرة يعظِّمه العامةُ.

فقال: رأيتُهم في الشام يسجُدون لأساقِفتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم.

فقال: «يا معاذ، أرأيتَ لو مررتَ بقبري أكنتَ ساجداً له؟».

قال: لا.

قال: «فلا تسجد لي، فلو كُنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»(١).

فمن لا ينهى الضالِّين من مثل هذا الشرك المحرم بإجماع المسلمين كيف ينهى عما هو أقلُّ منه؟

ومن دعا رجلاً أو امرأة من دون الله؛ فهو مُضاهٍ لمن اتَّخذ المسيح وأمَّه إلٰهين من دون الله.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُطروني كما أطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسوله»(٢) بل من سَوَّغَ أن يُدعى المخلوق ومنع دعاء الخالق الذي فيه تحقيق صمديَّته، وإلٰهيته؛ فقد ناقض الإسلام في النفي والإثبات، وهو شهادةُ أن لا إله إلا الله».

وأمَّا حُقوق رسول الله ﷺ - بأبي هو وأمي - مثلُ تقديم محبَّته على النفس، والأهل، والمال، وتعزيره، وتوقيره، وإجلاله، وطاعته، واتباعِ سنته، وغير ذلك؛ فعظيمة جداً.

---

(١) [أخرجه ابن ماجه في أبواب النكاح، باب حق الزوج على المرأة، برقم (١٨٥٣)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى، والطبراني في الكبير (٨/ ٣١) برقم (٧٢٩٤) من حديث صُهيب، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٠٠): رواه البزار والطبراني، وفيه النهاس بن فهم وهو ضعيف].

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾، برقم (٣٤٤٥)، وابن حبان في الصحيح (١٤/ ١٣٣) برقم (٦٢٣٩)، وأحمد في المسند (١/ ٢٣) برقم (١٥٤)، وغيرهم عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه].

وكذلك ما يُشرع التوسُّل به في الدعاء كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصحَّحه: أن النبي ﷺ علَّم شخصاً أن يقول: «اللَّهم إنِّي أسألك، وأتوسَّلُ إليك بنبيِّك محمَّد نبيِّ الرحمة، يا محمد! يا رسول الله! إنِّي أتوسَّل بك إلى ربِّي في حاجة لِتقْضِيها، اللهم فشَفّعْهُ فيَّ»[1] فهذا التوسلُ به حسنٌ، وأما دُعاؤه والاستغاثة به، فحرامٌ.

وأنا قد صنَّفتُ كتاباً كبيراً سميته «الصارم المسلول على شاتم الرسول» وذكرتُ فيه في هذه المسألة ما لم أعرف أحداً سبق إليه، وكذلك هذه القواعد الإيمانية، وقد كتبتُ فيها فصولاً هي من أنفع الأشياء في أمر الدين.

وممَّا ينبغي أن يُعرف به الشيخ أني أخاف أن القضية تخرج عن أمره بالكُلية، ويكون فيها ما فيه ضررٌ عليه، وعلى ابن مخلوف ونحوهما، فإنه قد طُلب مني ما يجعل سبباً لذلك، ولم أجب إليه، فإني إنما أنا لون واحد، والله ما غَشَشْتُهما قط، ولو غَشَشْتُهما كتمتُ ذلك، وأنا ساعدٌ لهما على كل برٍّ، وتقوى.

وتُعرِّفه: أن الأصل الذي تَصلُح عليه الأمور: «رُجوع كل شخص إلى الله، وتوبتُه إليه في هذا العشر المبارك، فإذا حَسُنتِ السرائرُ؛ أصلحَ الله الظواهر، فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]»[2].

قِيامُه بالإصلاحِ والتَّعليم في السِّجن وتأثيرُ ذلك:

يتحدَّث الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي صاحب «الكواكب الدرية» عن مُعاصر الشيخ ابن تيمية وزميله في الدراسة الشيخ عَلمِ الدين البرزالي، يقول:

«ولمَّا دخل الحبسَ وجَد المحابيس مَشغولين بأنواع من اللعب يَلْتهون بها عما هم فيه، كالشطرنج، والنَّرْد مع تضييع الصلوات، فأنكرَ الشيخُ ذلك

---

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات، برقم (٣٥٧٨) من حديث عثمان بن حُنَيْف بهذه الألفاظ: «اللَّهم إنِّي أسألك وأتوجَّهُ إليك بنبيِّك محمد نبيِّ الرحمة، إنِّي توجهتُ بكَ إلى ربِّي في حاجتي هذه لتُقضَى لي، اللَّهمَّ فشَفِّعْهُ فِيَّ»].

(٢) مجموعة علمية: ص ٦٥.

عليهم ، وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجّه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة ، والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلَّمهم من السُّنَّة ما يحتاجون إليه ، ورغَّبهم في أعمال الخير ، وحضَّهم على ذلك ، حتى صار الحبسُ بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخَوانق والمدارس، وصار خلْقٌ من المحابيس إذا أُطلقوا يختارون الإقامة عنده» [١] .

وفي الرابع عشر من صفر سنة ٧٠٧هـ بعد أربعة أشهر استؤنفت جهودٌ للإفراج عنه ، ولقيَه قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة نفسُه وتكلم معه في الموضوع طويلاً ، ولكنه لم يَرض بالخروج من السجن.

وأخيراً في الثالث والعشرين من ربيع الأول ذهبَ إليه الأمير حسام الدين مُهنّا بن عيسى ملك العرب [٢] في السجن، وناشده الله وجاء به إلى منزل نائب السلطنة ، وكان الأمير حسام الدين يُريد أن يذهب به إلى دمشق ، ولكنَّ النائب أشار عليه بالإقامة في مصر لمدةٍ حتى يعرف الناس بمكانته العلمية والدينية ، ويتمكّنوا من الاستفادة منه.

سُمُوُّ أخلاقِ ابنِ تيمية:

وتَجلّى سُموُّ أخلاق ابن تيمية في هذه الفترة أكثر مما كان عليه ، فإنه لم يُطأطِىء رأسَه أمام أيّ قوة ، ولا راوَدَتْهُ رغبةٌ دنيوية ، أو منفعةٌ مالية ، إنه رَفض بصراحةٍ أن يَقبل أي خلعةٍ سُلطانية ، أو عَطايا ملوكية.

وكانتْ مأثَرتُه الأخرى أنه عفا عن جميع من حاولوا إيذاءه ، أو عارضوه فور خروجه من السجن من غير استثناء وتلكُّؤ ، وأعلن مُدوِّياً: أنه لا مؤاخذة ،

(١) الكواكب الدرية: ص ١٨١.

(٢) كان الأمير حسام الدين أحد أفراد أسرة الأمراء العرب، ومن سراة الشام ورؤسائها الأقوياء وكان أكثر اطلاعاً على مآثر ابن تيمية وجهوده الإصلاحية بالنسبة إلى المصريين ، وقد بذل اهتمامه بصفة خاصة في الإفراج عنه وتأثر ابن تيمية بإخلاصه ، وعلو نسبه وحبه للحرية فقبل اقتراحه ورضي بالخروج من السجن.

ولا عتاب على أحد ، يقول في رسالته التي وجّهها إلى الشام بعد الإفراج عنه :

«تَعلَمُون رضيَ الله عنكم أني لا أحبُّ أن يُؤذى أحدٌ من عموم المسلمين فضلاً عن أصحابنا بشيء أصلاً لا ظاهراً أو باطناً ، ولا عندي عَتبٌ على أحد منهم ، ولا لَوْمٌ أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة أضعاف ما كان ، كل بحسَبه ، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً ، فالأول مأجور مشكور ، والثاني مع أجره على الاجتهاد مَعفُوٌّ عنه ، والثالثُ فاللهُ يغفرُ لنا وله ولسائر المؤمنين ، لا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذِبه عليَّ ، أو ظلمه ، أو عُدوانه ، فإنِّي قد أحللتُ كلَّ مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي ، والذين كذبوا ، وظلموا هم في حلٍّ من جهتي» [١] .

التَّدريسُ والإفَادةُ:

اشتغلَ ابنُ تيمية بعد خروجه من السجن بالتدريس والإفادة ، ولم يكن الجوُّ في مصر مُلائماً له بعد ، وكان العلماء والقضاة قد أذاعوا عنه في الناس أنواعاً عديدة من سُوء الظن ، فقد كانت جماعةُ الصوفية ـ التي كانت تتسم بالتوحيد الوجودي ـ مُسيئَة الظنِّ به ، ومتألمةً منه ، ولم تكن هناك شخصية قوية تُمثل المذهب الحنبلي وحده من بين المذاهب الأربعة ، كما تُمثِّل عقيدة السلف من بين العقائد [٢] ، بينما وُجد كبارُ العلماء والقضاة للمذاهب الأخرى هناك .

وعلى ذلك فقد عَزم ابنُ تيمية على الإقامة في مصر لمدة يقوم فيها بإلقاء الدروس والإفادة العامة ، وابتدأت دروسه ومجالسُه منظَّمةً وغير منظمة ، وقد ألقى عِدّة دروس عن القضايا العلمية والكلامية الخالصة في مدارس القاهرة

---

(١) ابن تيمية : محمد أبو زهرة ، ص ١٦٢ .
(٢) كان القاضي الحنبلي آنذاك قليل العلم ومحدود الذكاء ، فكان الحنابلة ضعيفي الجانب لذلك .

الشهيرة وبخاصة في الصالحية ، استفاد منها الخاصَّة ، واطلعوا على أفكاره وعقائده الأصيلة.

استمرَّتْ هذه الدروسُ والمجالس إلى ستة أشهر ، استفاد منها العامة والخاصة كلهم فوائد علمية ودينية ، وشُغف الناس بوجهٍ عام بإخلاصه ، وذكائه النادر ، وعقله الكبير ، ونُبوغِه العلمي.

رسالة ابن تيميَّة إلى أُمِّه:

لقد كان قدُوم ابن تيمية إلى مصر على غفلةٍ منه ، وما كان يعرفُ أنه يمكُث هناك هذه المدَّة الطويلة ، وكانتْ أمُّه وأسرته كلها في الشام تنتظرُ عودته بسلامة ، ولما أراد ابنُ تيمية أن يقضي بعض المدة في مصر أخبرَ أمَّهُ بهذه النية ، واستأذنَها في ذلك برسالة تحتوي على عواطف لطيفة ، وحُبّ بريء ، وبِرٍّ مع الأم ، وطموح ، ورجولة ، وعزم ، كما أن أسلوبها سهل مطبوع ، وهي جديرة بأن أنقُل جميعَها إلى القراء الكرام:

«مِن أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقرَّ الله عينيها بِنعَمِه وأسبغَ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من إمائِهِ وخدمه.

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته:

إنَّا نحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو لِلحَمد أهلٌ ، وهو على كلِّ شيء قدير ، ونسألُه أن يُصلي على خاتم النبيين وإمام المتقين محمدٍ عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نِعَم من الله عظيمة ، ومِنَنٍ كريمة وآلاء جسيمةٍ نشكر الله عليها ، ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلما جاءت في نُموٍّ وازديادٍ ، وأياديه جلَّت عن التعداد ، وتعلمون أن مقامنا الساعةَ في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية ، متى أهملناها؛ فسد علينا أمرُ الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبُعد عنكم ولو حملَتنا الطيورُ؛ لَسرْنا إليكم ، ولكنَّ الغائب عذرُه معه وأنتم لو اطَّلعتُم على باطن الأمور؛ فإنكم ـ ولله الحمد ـ ما تختارون

الساعة إلا ذلك ، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً بل كلَّ يوم نستخيرُ الله لنا ولكم ، وادعوا لنا بالخِيرة ، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا وللمسلمين ما فيه الخيرة في خيرٍ وعافية .

وقد فتحَ الله مِن أبواب الخير ، والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطُر بالبال ، ولا يدور في الخيال ، ونحن في كلِّ وقتٍ مهمومون بالسفر مُستخيرون الله سبحانه وتعالى ، فلا يظنّ الظانُّ أنَّا نؤثر على قُربكم شيئاً من أمور الدنيا قطُّ ، بل لا نؤثر من أمور الدين ما يكون قُربُكُم أرجح منه ولكن ثَمَّ أمور كبار نَخافُ ضرر الخاصِّ والعام من إهمالها ، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائب .

والمطلوبُ كثرة الدعاء بالخيرة فإن الله يعلم ، ولا نعلم ، ويَقْدِر ، ولا نقدر ، وهو علاَّم الغيوب ، وقال النبي ﷺ : «مِن سعادة ابن آدم استخارتُه الله ، ورضاه بما يقسم الله له ، ومِن شقاوة ابن آدم تركُ استخارته الله ، وسخَطُه بما يقسم الله له»[١] .

والتاجر يكون مسافراً ويخافُ ضياع ماله ، فيحتاجُ أن يُقيم حتى يستوفيَه ، وما نحن فيه أمر يَجِلُّ عن الوَصف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً كثيراً ، وعلى سائر من في البيت من الكبار ، والصغار ، والأهل ، والأصحاب واحداً واحداً ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً» .

اعتِقالُ ابنِ تَيميةَ مَرَّةً أُخرى:

لقد كانت مِصر مركزاً مُستقلاً لعقيدة وحدة الوجود ونظرتها ، ويبدو أن

---

(١) [أخرجه أحمد في المسند (١/١٦٨) وقال الهيثمي في المجمع (٢/٢٧٩): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار بنحوه ، وفيه محمد بن أبي حميد ، وقال ابن عدي: ضَعْفُه بيِّن على ما يرويه ، وحديثه مقاربٌ ، وهو مع ضعفهِ يُكتَبُ حديثه ، وقد ضعَّفَه أحمد والبخاري وجماعة ، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/٥١٨) ، والترمذي في أبواب القدر ، باب ما جاء في الرضا بالقضاء ، برقم (٢١٥) والبزار كما في «كشف الأستار» (٧٥٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه].

الشاعر المتصوف الشهير ابن الفارض الذي توفي عام ٦٣٢هـ كان من أصحاب هذا «المشرب»، وفي شعره إشارات يستدلُّ منها على هذا الاتجاه، وكان ابنُ تيمية يردُّ على هذه العقيدة جَهاراً، ويعترض على هذه الأقوال والأعمال في دروسه ومجالسه، التي كان يَعتبرها فيما يرى ضدَّ الكتاب والسنة، ومن زيادات المتأخرين من الصوفية، إنه يذكر في مواضع كثيرة من كتبه ومؤلفاته المحقِّقين من الصوفية والراسخين منهم أمثال: الإمام عبد القادر الجيلاني، والشيخ عدي بن مسافر الأموي في غاية من الاحترام والتأدب، ولكنه لا يتلكأ في انتقاد مُعاصريه من المتصوفين والمشايخ، الذين كانوا مُعجَبين فيما يعتقد بفلسفة اليونان، وفلسفة الإشراق لمصر والهند.

وكان من الطبيعي أن تُثير انتقاداتُه هذه استنكاراً في أوساط التصوف، ونَهض شيخ الطريقة في مصر المعروف بابن عطاء الله الإسكندري (صاحب الحِكَم) واشتكى إلى الحكام ضدَّ ابن تيمية نيابة عن جماعة الصوفية، كما ذهبتْ طائفة من الصوفية إلى القلعة تشكو ابن تيمية، فلما سمع السلطان بهذه الشكاوى أمر بعقد المجلس في دار العدل، وتحقيقِ هذا الأمر، وحضر ابنُ تيمية في المجلس وتولَّى قضيته بنفسه، وأسكتَ الناس بدلائله وقوة كلامه، وأمسكَ السلطان عن إصدار أي مرسوم ضدَّه.

غير أنَّ الثورة التي قامت عليه لم تَنْتَهِ، وكان من بين ما اتُّهم به أنه يُعلن جهاراً أنه لا يُستغاث إلا بالله، وحتى لا تَصِحَّ الاستغاثةُ بالنبي ﷺ، ولما عُرضت هذه الشَّكاةُ قال بعض العلماء: ليس عليه في هذا شيء، ورأى قاضي القضاة: أن هذا فيه قِلَّةُ أدب، أمَّا أن يؤدي هذا إلى الكفر، فلم يَقُل به أحَد، ولذلك لم يَعُد للشكوى أيُّ أثرٍ.

ولكنَّ الحكومة تضجَّرتْ من هذه الإثارات التي استمرت في غير انقطاع فخيرتِ ابن تيمية بين ثلاث أمور: إمَّا أن يسير إلى دمشق، أو يُقيم في

الإسكندرية بشروط [١] يستوفيها ، أو يختار الحبس ، فاختار الحبس ، فألحَّ عليه جماعة من تلاميذه وأنصاره أن يسافر إلى دمشق ، فأجابهم جبراً لخواطرهم ، وتوجه إليها ليلة ١٨ من شوال سنة ٧٧٠هـ ، ولكنه ردَّ في نفس اليوم إلى مصر ، وقيل له: إنَّ الدولة ما ترضى إلا بالحبس ، غير أن القضاة والعلماء كانوا مُرتبكين في حبسه؛ إذ لم يَثْبت عليه شيء ، وقد صاح القاضي المالكي شمسُ الدين التونسي وقال: لم يثبت عليه شيء يُبرر حَبْسه ، وكان نور الدين المالكي متردِّداً في هذا الأمر فسكت.

ولمَّا رأى الشيخ ابن تيمية صراع العلماء والقضاة الفكري حكم لنفسه بالحبس ، فقال نور الدين الزواوي: يكون في موضع يَصْلُح لمثله ، فقيل له: الدولة ما ترضى إلا بمسعى الحبسِ ، فأرسل إلى حبس القضاة ، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه.

واستمرَّ الشيخُ ابن تيمية في الحبس يُستفتى ، ويقصِده الناس ويزورونه وتأتيه الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء ، وأعيان الناس ، فيكتب عليها بما يُحيِّر العقول من الكتاب والسنة.

وبعد مدَّةٍ عُقِدَ مجلسٌ للشيخ في الصالحية ، وأفرج عنه نزولاً على رغبة الفقهاء والقضاة ، فاستقبله الناس بحماس وحرارة ، وأكبُّوا على الاجتماع به ليلاً ونهاراً [٢].

التَّطوُّراتُ السياسية ، وابن تيمية يُواجه الشدائد:

فُوجِئت مصرُ بتطوُّراتٍ وتغييراتٍ سياسية أحدثتْ لابن تيميَّة مشكلات جديدة ، وانتهز المعارضون هذه الفرصة للتآمر عليه بحُرِّية تامة ، وكان ناصر بن قلاوون لا يزال سلطان مصرَ والشام ، وهو الذي كان مُعْجَباً بعلمه

---

(١) ولعلَّ من أهم الشروط: ألا يدعو الناس إلى اعتناق معتقداته بوجه عام.

(٢) اقرأ التفاصيل في «البداية والنهاية» ج١٤ ، ص٤٦.

وإخلاصه يَعطف عليه ، فإنّ ابن تيمية هو الذي كان قد حمله على مقاومة التتار ، فكان قد شاهد بنفسه شجاعته ، وقُوَّة إيمانه واستقامته.

وفي سنة ٧٠٨ هـ اعتزل السلطانُ السَّلطنةَ لأسباب كثيرة بعثَتْ فيه التشاؤم ، واقتنع بالإقامة في كرك ورقعة مملكته المحدودة فيها.

وتخلَّى عن عرش مصر لرُكن الدين بيبرس الجاشنكير ، فأعلن بسَلطنته المستقلة ، ومن ثمَّ أصبح ركن الدين الحاكم المستقلَّ لمصر والشام ، وصار الشيخ نصرُ المنبجي المربِّي الروحي لهذه المملكة الكبيرة ومستشارها الخاص.

أمَّا ابن تيمية فكان يُعتبر من أنصار السلطان ناصر بن قلاوون عدا ما اشتُهر به من عقائد وتحقيقات دينية تُضادُّ اتجاهات الشيخ نصرٍ المنبجي تماماً ، ولذلك فقد اجتمعتِ العوامل الدينية والسياسية لتنفيذ الأحكام ضدَّه.

وفور هذا التغييرِ الذي حَدث في سياسة الدولة صدر مرسومٌ ملكي لنفي ابن تيمية إلى الإسكندرية وحبسِه هناك ، فقد أرسل إلى الإسكندرية في اليوم الأخير من صفر سنة ٧٠٩هـ ، ويقال: إنَّ الغرض من توجيهه إلى هذه المدينة الجديدة التي كانت تُعتبر مركز التصوُّف والصوفية القديم ، أن يتصدَّى له بعضُ من يغتاله ، وتنجُوَ الدولة من هذا الصداع المتكرر من غير اتِّهام ، أو سُوء سُمعةٍ.

ولكنَّ سُرعان ما اجتمع لديه حلقةٌ من تلاميذه والمعجبين به ، وتزايد إقبال العامة عليه ، فلم يؤثر الصَّمتَ ، والتعطيل على الكلام والعمل ، وشغله نشرُ تعاليم الكتاب والسنة ، والردُّ على البدع والمنكرات عن كلِّ شيء ، وبدأ الناس يُحبُّونه ، ويُكرمونه حتى أحرز قبولاً عاماً بينهم ، يقول شقيقهُ شرف الدين ابن تيمية الذي كان رفيقَه ومشاركه في الحبس في رسالة بعث بها إلى أهل دمشق:

«وانقلبَ أهْلُ الثَّغر أجمعون إلى الأخ مُقبِلين عليه مُكرمِين له ، وفي كل وقت ينشر من كتاب الله وسُنَّة رسوله ما تَقرُّ به عين المؤمنين ، وذلك شجيَ في حلوق الأعداء. . . واستقرَّ عند عامة المؤمنين وخواصِّهم من أمير ، وقاض ،

وفقيه، ومفتٍ، وشيخ، وجماعة المجتهدين إلا من شذَّ من الأغمار الجُهَّال مع الذِّلة والصَّغار محبةُ الشيخ، وتعظيمُه، وقبول كلامه، والرجوعُ إلى أمره ونهيه» (١).

ووُجِد بالإسكندرية في ذلك الحين غلبةٌ لأفكار فرق السَّبعينية ووحدة الوجود، وكان هناك بعض دُعاتها المتحمسين، حتى نالتْ هذه الأفكار قبولاً في أوساط العامة أيضاً، فكان لها تأثيرٌ سيِّءٌ في أخلاقهم وأعمالهم، وأنتجت فيهمُ انطلاقاً في أمور الشريعة وحُرِّية فيها، فقاومَ ابنُ تيمية هذا الاتجاه بشدة وحماس، وردَّ أفكار هؤلاء الدعاة، ومزَّق كلمتهم، فشتَّتَ جمعَهم، وفرَّق شملَهم، وذلك في فترة إقامته فيها التي لا تجاوز ثمانيةَ أشهر، وأعرض عنهمُ العامة، والخاصة، واستتاب جماعةً كثيرة منهم، وتاب رئيسٌ من رؤسائهم كبير.

وكان مَقرُّ ابن تيمية في الإسكندرية مُتَّسعاً نظيفاً مليحاً، له شُبَّاكان أحدُهما إلى جهة البحر والآخرُ إلى جهة المدينة، وكان يدخل عليه مَنْ شاء ويتردَّدُ إليه الأكابر، والأعيان، والفقهاء، يقرؤون عليه، ويَستفيدون منه (٢).

انقِراضُ أمرِ رُكن الدين الجاشنكير:

كان الشيخُ ابن تيمية يتنبَّأُ أحياناً عن نهاية أيام الجَاشَنْكِيْر وشيخهِ نصر المنبجي، ويقول: «زالتْ أيامه، وانتهت رئاسته، وقرب انقضاء أجله» وما كان قد مرَّ على حكمه عام واحد؛ إذ قرر السلطان ناصر بن قلاوون العودة إلى الحكم، فتوجَّه إلى دمشق في ١٣/ من شعبان سنة ٧٠٩هـ واستقبله أهل دمشق الذين كانوا يُحبونه بحماسٍ بالغ، ودخل إلى دمشق في ١٧/ من شعبان في أبَّهةٍ عظيمة، وتوجَّه من دمشق إلى مصر حيث أعدَّ أهلُها إعدادات كبيرة لاستقباله، ودخل ركبُ السلطان إلى مصر.

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤، ص ٥٠.
(٢) المصدر السابق: ج١٤، ص٥٠.

ولمَّا رأى ركنُ الدين الجاشنكير أنَّ الأحوال تنقلب؛ استقال عن الحكم، وفي ٧/ من ذي القعدة قبض عليه الأمير سيف الدين نائب الشام، وقُتل في مصر.

والمؤرِّخون متفقون على أن الجاشنكير كان مقبولاً لدى الناس أيام نيابته كما كان راجح الجانب، ذا هيبة ووقار، وقد بدأت سلطنتُه المستقلة وخُذلانه في وقت واحد، فقد انتهت هيبته، وزال نجمه الطالع منذ إعلانه بالسلطنة، وابتدأ زوال دولته، وظل يتفاقم أمره فساداً، وحكمهُ اضطراباً، وتحدَّث عنه مؤرِّخ مصر الكبير المقريزي فقال:

«وكان رحمه الله خيّراً، عفيفاً، كثيرَ الحياء، وافرَ الحُرمة، جليلَ القدر، مُهاب السطوة في أيام إمارته، فلما تلقَّب بالسلطنة، ورسم باسم الملك؛ اتَّضع قدرُه، واستضعف جانبه، وطُمع فيه، وتغلَّب عليه الأمراء والمماليك، ولم تنجحْ مقاصده، ولا سَعِد في شيء من تدبيره إلى أن انقضتْ أيامُه، وأناخ به حِمَامه»(١).

ولا عجَبَ أن يكون انقراض دولة الجاشنكير من غير أسباب مسبقة نتيجة إيذائه لرجل مخلص كبير، ومعارضته له، وتفسيراً لما قاله الشاعر الفارسي، ومعناه:

«كم جرَّبنا في عالم المكافأة: أن من حارب عبداً مخلصاً لله تعالى تفانى في دعوته، وهجر فيها راحته ولذته؛ انطمسَ، وقُضي عليه بالزوال».

الإفراج عن ابن تيمية، والحفاوَةُ المَلكية:

يقول الشيخُ علَمُ الدِّين البرزالي معاصرُ الشيخ ابن تيمية: إنَّ السلطان لمَّا دخل إلى مصر يومَ العيد لم يكن له همٌّ إلا أن يُفرج عن ابن تيمية، ويؤتىٰ به

(١) خطط مصر: ج ٢، ص ٤١٨.

مِصْرَ مُعززاً ، مكرماً ، مبجلاً ، فوجَّه إليه في الثاني من شوال ٧٠٩هـ يطلبه إلى مِصْر.

في ٨ من شوال غادر ابن تيمية الإسكندرية ، وودَّعه خلقٌ كثيرٌ في إجلال كبير ، واحتفاء بالغ.

ولمَّا وصَلَ ابنُ تيمية إلى البلاط الملكي مشىٰ إليه السلطان خطوات ، واستقبله في مجلسٍ حافل فيه كبار علماء مصر والشام وقُضاتِهما ، يتحدث عن هذا القدوم واستقبالِ السلطان إياهُ القاضي جمالُ الدين ابن القلانسي قاضي الجيش الذي كان حاضراً في المجلس يومَ ذاك ، وشاهد الأمور بنفسه ، يقول:

«إنَّ السلطان لمَّا قدم عليه الشيخُ تقي الدين ابن تيميّة ؛ نهض قائماً للشيخ أوَّل ما رآه ، ومشى له إلى طرف الإيوان ، واعتنقا هناك هُنيهةً ، ثم أخذه معه ساعة إلى طبقة فيها شُباك إلى بستان ، فجلسا ساعة يتحدَّثان.

ثم جاء ويدُ الشيخ في يد السلطان ، فجلس السلطان وعن يمينه ابنُ جماعة قاضي مصر ، وعن يساره ابنُ الخليلي الوزير ، وتحته ابن صَصْرَىٰ ، ثم صدرُ الدين علي الحنفي ، وجلس الشيخُ تقي الدين ابن تيمية بين يدي السلطان على طرف طُرَّاحته ، وتكلم الوزير في إعادة أهل الذّمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم [١] ، وأنهم قد التزموا الديوان بسبعمئة ألفٍ في كل سنةٍ زيادة على

(١) توصَّلَ علماء الإسلام في ضوء بعض التجارب الماضية إلى أنه لا بدَّ من وجود علائم في لباس الرعية غير المسلمة في المملكة الإسلامية ، فقد بقي في مصر والشام بعد الحروب الصليبية عددٌ لا بأس به من المسيحيين الذين كانوا قد قدموا من الخارج ، ويعملون كجواسيس للأجانب تطوُّعاً ، كما أنهم كانوا ينشرون عدوى تقاليدهم في المجتمع المسلم ، وكتب ابن كثير في أحداث ٧٢١: «وقع حريقٌ عظيمٌ في ٦ جمادى الأولى في القاهرة في الدور الحسنة والأماكن المحلية المرتفعة وبعض المساجد وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك ، وقنتوا في الصلوات ثم كشفوا عن القضية فإذا هو من قبل النصارى... فقتل السلطان بعضهم ، وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقاء على رؤوسهم وثيابهم كلها» ، ولمَّا عاد السلطان ناصر حاول بعض النصارى أن ينسخ هذا القانون.

الحالية ، فسكت الناس ، وكان فيهم قُضاة مصر ، والشام ، وكبار العلماء من أهل مصر ، والشام ، من جملتهم ابنُ الزملكاني. قال ابنُ القلانسي: وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني ، فلم يتكلَّم أحدٌ من العلماء ، ولا من القضاة ، فقال لهمُ السلطان:

ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك ، فلم يُجبْ أحدٌ ، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه ، وتكلَّم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ وردَّ على الوزير ما قاله رداً عنيفاً ، وجعلَ يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويُسكته برفق ، وتؤدَة ، وتوقير ، وبالغ الشيخ في الكلام ، وقال ما لا يستطيع أحدٌ أن يقول بمثله ، ولا بقريب منه ، وبالغ في التَّشنيع على من يُوافق في ذلك ، وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلستَه في أبهة الملك تنصُر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية ، فاذكر نعمة الله عليك؛ إذ ردَّ ملكك إليك ، وكبَتَ عَدُوك ، ونصرك على أعدائك».

فذكر: أن الجاشنكير هو الذي جدَّد عليهم ذلك ، فقال: «والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائباً لك ، فأعجب السلطان ذلك ، واستمرّ بهم على ذلك» (١).

اتباعُ سُنة يُوسف عليه السلام في مِصر:

يقول ابنُ القَلَانسي: إنَّ ابنَ تيمية حدَّثه ، قال: إن السلطان استفتاه في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلَّموا فيه ، وأخرج فتاوى بعضهم بعزله من المُلك ، ومبايعة الجاشنكير ، وأنهم قاموا عليك ، وآذوك أنت أيضاً ، وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيه في قتل بعضهم ، ففهمتُ قصده بذلك ، فأخذتُ في تعظيم أولئك العلماء ، والقضاة ، وأنكرُ أن ينال أحداً منهم بسوء ، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٥٤.

فقال: إنَّهم قد آذوك، وأرادوا قتلك مراراً.

فقلت له: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصرُ لنفسي، وما زِلتُ به حتى حَلُم عنهم السلطان، وصفح.

ويقول ابنُ كثير: «كان قَاضي المالكية ابنُ مخلوف يقول: ما رأينا مثلَ ابن تيمية، حرَّضنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدرَ علينا، فصفحَ عنا، وحاجَجَ عنا»[١].

ثم إنَّ الشيخ بعدَ اجتماعه بالسُّلطان نزل إلى القاهرة وعاد إلى بثِّ العلم ونشرِه، وأقبلت الخلقُ عليه، ورحلوا إليه يشتغلون عليه، ويستفتُونه، ويُجيبهم بالكتابة والقول، وجاء الفُقهاء يعتذرون مما وقع منهم في حقه، فقال: قد جعلتُ الكُلَّ في حِلٍّ.

ولمَّا اطمأنَّ الشيخُ، واستقرَّتْ به الحال؛ بعثَ كتاباً إلى أهله يذكرُ فيه ما هو فيه من نعم الله، ويَطلُب منهم جملةً من كُتب العلم.

ولمَّا رأى خصومُ ابن تيميَّة أنَّ مكانته ارتفعتْ، وَصَفَتْ حياتُه أكثر من ذي قبلُ، وعجزوا عن تحريض الناس عليه في مسألة علمية؛ اتجهوا إلى العامة يُحرّضونهم ولقد كان تحريضُهم عليه في مصر حيث لم يكنِ الناس عارفين بمكانتِه أسهل شيء، فحدث في الرابع من رجب سنة ٧١١هـ أنه انفرد به جماعةٌ بتحريض خصومِه، فامتدتْ أيديهم الأثيمة إليه بالضرب، ولكنَّ سُكَّان الحُسينية (حيثُ رأس سيدنا الحسين مدفونٌ كما هو المشهور لدى العامة) تجمَّعوا ليثأروا للشَّيخ فردَّهم، ولم يأذنْ لهم بذلك، وقال لهم:

«إمَّا أن يكون الحق لي أولكم أو للهِ، فإن كان الحق لي؛ فهم في حِلٍّ منه، وإن كان لكم، فإن لم تَسمعوا مني، ولم تستفتُوني؛ فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق للهِ؛ فاللهُ يأخذُ حقَّه إن شاء الله».

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤، ص ٥٤.

وفي أثناء هذه المناقشة حضَر وقتُ العصر ، فذهب ليصلِّي في الجامع ، فنهوه عن ذلك حتى لا يُؤذى ثانية ، فلم يلتفتْ إلى قولهم ، ومضى إلى المسجد ، وتبِعَتْهُ جماعةٌ كبيرةٌ من الغاضبين له .

وحَدَثَ لهُ بعدَ ذلك أنْ أساءَ إليه بعضُ الفقهاء بالقول ، ثم اعتذر إليه ، ولعله اعتذَر خوفاً من بَطشِ السلطان أو النَّاس ، ولكنَّ الشيخ على أيِّ حالٍ عفا وقال: لا أنتصرُ لنفسي [1] .

ولم يكتفِ الشيخُ ابن تيمية خلال إقامته في مصر بالبحث ، والتدريس ، ونشر الكتاب والسنة ، بل انتهزَ فرصة اتصاله بالسلطان ، فأشار عليه في بعض الأمور وأصدَر منه بعض الأوامر مما كان له تأثيرٌ حسن ، وفائدة كبيرة ، يقول ابن كثير :

«وفيها (سنة ٧١٢ هـ) قدم كتابٌ من السلطان إلى دمشق أن لا يُولَّى أحدٌ بمال ، ولا برشوة ، فإنَّ ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية ، وإلى ولاية غير الأهل ، وكان سببَ ذلك الشيخ تقيُّ الدين ابن تيمية رحمه الله ، وكذلك جاءَ كتاب السُّلطان أن من قُتل لا يجني أحدٌ عليه بل يُتَّبعُ القاتل حتى يُقتَص منه بحكم الشرعِ الشريف ، وكان سببُه ابن تيمية أيضاً .

العودةُ إلى دمشق:

وفي شوال سنة ٧١٢هـ كانتِ الأخبار تتوارد عن عَزْم التتار على الهجوم ، وأخيراً قضى السلطانُ بخروجه عن مصر ، ومقاومتهم بنفسه ، وفي الثامن من شوال توجَّه إلى دمشق ، ودخل فيها في الثالث والعشرين من شوال ، وكان ابنُ تيمية يَصحبُ السلطان في هذه الرِّحلة ، وكان يعود فيها إلى وطنه الحبيب بعد سبعِ سنين كوامل ، فاستقبله الناس بحماسٍ زائد ، وأبدَوا سُرورهم بقدومِه ، وقدَ خرج عددٌ كثير من النساء ـ فضلاً عن ـ الرجال لرُؤيته ، وكانتْ رِحلَتُه هذه

---

(١) ابن تيمية: لمحمد أبو زهرة ، ص ٧٤.

بِنيَّةِ الجهاد ، ولكنه علم بعد مقدمه إلى دمشق: أن التتار عادوا راجعين ، فنَوى الشيخُ زيارة بيت المقدِس من دمشق ، وبعدما مكثَ هُناك مُدَّة من الزمان عادَ إلى دمشقَ زائراً بعضَ البلدان الأخرى ، وانهَمك في عَملِه ، وعكف عليه كامل العكوف.

شَغَفُ شيخ الإسلامِ بالأحكام الفقهية:

ولو أنَّ الشيخَ ابن تيمية بعدَ رجوعه إلى دمشق في هذه المرة كان قد عاد إلى وظيفته القديمة من الأشغال العلمية ، والدينية ، والتربوية ، وبدأ بالتدريس ، والإفتاء ، والتأليف كما هي عادتُه ، غير أنه انصرف في هذه المرَّة إلى دراسة الأحكام الفقهية وفُروعها بوجهٍ خاص بينما كانتِ العقائد ، والأصول ، والمسائل الكلامية مجالَه الأول ، تلك التي كانت موضع خلاف بين الأشاعرة والحنابلة.

ويبدو أنَّ الشيخ أدرك: أنَّ الموضوع الأول قد أشبَعه وفرَة معلومات ودلائل ، وأنَّ الحقَّ اتَّضح كالشَّمس في رائعة النهار بمواعظِه ، ودروسه ، وتأليفاته ، فلا بُد من الالتفات إلى جانب مهم آخر ، حيث يمكن استخدام خصائِصه العلمية ، ومواهبه الطبيعية ، وهو الفقه الإسلامي من غير شك.

لقد كانت أسرةُ ابن تيمية متمسِّكة بالمذهب الحنبلي ، ولذلك فإنَّ مُعظم فتاويه تُبتنى على المذهب الحنبلي [١] ، إلا أنه لم يَتقيَّد بالمذهب الحنبلي مئة في المئة ، إذ كان من الصعب جداً أن يفعل ذلك بعد ما أوسعه الله اطلاعاً على ذخائر الكتاب ، والسنة ، واستحضاراً بالمذاهب الفقهية ، وأصولها ، ودلائلها ، فكان يُرجِّحُ بعض الأحيان المذهب الذي يراه أقوى دليلاً من الكتاب ، والسنة ، وأقربَ إليهما بالنسبة إلى المذاهب الأخرى ، ويجدُ أنه ينال تأييدَ الجمع الكبير من الصحابة ، والتابعين.

---

(١) انظر «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ١ ـ ٥ .

إنَّ شيخَ الإسلام كانَ شديدَ الاعتراف بعُلوِّ مكانةِ الأئمة الأربعة ، وحُسنِ اجتهادهم ، ودينهم ، وورعهم ، وتفوّقهم العلمي ، على تبحُّره في العلم ، وقُـوَّة استنباطه ، واستقلالِ فكره ، كان يَعتبرُهم طُـلاَّبَ الحقِّ ، ومُـتَّبعي السُّـنـةِ ، وراسخي العلم ، الذين كان مَصدرَ اجتهادهم الكتابُ ، والسنة ، ونُصوصهما ، والإجماع ، والقياس الشرعي ، وقد كانوا في ذلك متَّبعين ، لا مبتدعين.

ولذلك فقد كان ابنُ تيمية يكره الذي يتناول هؤلاء الأئمة الأعلام بالنَّقْد والطعن ، وقد ركّز عِنايته بالإشادة بذِكْرهم والانتصار لهم ، والحدِّ من ألسنة المعترضين المنتقدين ، فألَّف رسالته الشهيرة «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» التي تُعتبر من أحسن ما ألف في هذا الموضوع؛ إنَّه يقول في فاتحة الرسالة:

«يَجبُ على المسلمين بعدَ موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين ، كما نطق به القرآنُ وخصوصاً العلماءُ الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدىٰ بهم في ظُلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ، ودرايتهم ، إذ كُلُّ أمة قَبْلَ مبعثِ محمد ﷺ علماؤُها شِرارُها إلاَّ المسلمين فإنَّ عُلماءَهم خيارُهم ، فإنَّهم خلفاء الرسول في أمته ، والمُحْيُون لما مات من سُنَّته ، بهم قام الكتاب ، وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب ، وبه نطقوا.

ولْيعلم أنَّه ليس أحدٌ من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يَعتمدُ مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنة دقيقٍ ، ولا جليل ، فإنهم مُتَّفقون اتفاقاً يقينياً على وُجوب اتِّباع الرسول ، على أن كلَّ أحدٍ من الناس يُؤخذ من قوله ، ويُترك إلا رسول الله ﷺ ، وإذا وُجد لواحدٍ منهم قولٌ قد جاء حديثٌ صحيح بخلافهِ فلا بُدَّ له من عُذْرٍ في تَركه ، وجميعُ الأعذار ثلاثةُ أصنافٍ:

أحدها: عدم اعتقاده أنَّ النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدمُ اعتقادِه إرادَة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقادُه أنَّ ذلك الحكم منسوخٌ.

مَسألَةُ الطَّلقاتِ الثَّلاث:

وعلى ذلك كلِّه فإنَّه كما رجَّح المذاهبَ الأخرى على المذهب الحنبلي وخرَج عن نطاقه بعضَ الحين؛ خالفَ الأئمة الأربعة كذلك في بعض المسائل أحياناً، وأفتى مخالفاً لهم واتَّبع فيها نصوص الكتاب والسنة، ودلائلَهما، ولكنَّ هذه المسائل التي خالف الأئمة الأربعة فيها لا تَعدُو عِدَّة مسائل، ولكنَّ أشهرها مسألةُ الطلقات الثلاث في مجلسٍ واحدٍ.

مسألة: إذا طلَّق أحدٌ زوجته ثلاث طلقات في مجلسٍ واحدٍ (سواء بلفظ واحد أو بألفاظ متعدِّدة) فمهما ارتكبَ المُطلِّق بدعة باتفاقِ الأئمة، وجمهور الأمة، وخالف الشرع، وأثم، ولكن ما حكم هذه الطلقات؟ هل وقعتْ، وبانتِ المرأةُ، واستحالتِ الرَّجْعَةُ بحُكم الشريعة ما لم تتزوَّجْ رجلاً آخر يتَمتَّعُ بها، ويطلّقها؟ أو أنَّ هذه الطلقات الثلاث تُعتبر واحدة وتُمكِنُ الرجعةُ؟

فمذهبُ الأئمة الأربعة، وأئمةِ الفقه، والحديث: (الأوزاعيّ، والنَّخْعيّ، والثَّوري، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والبُخاريّ) وجمهورِ الصحابة، والتابعين: أنَّ هذه الطلقات تقع من غير أن المطلِّق ارتكبَ بفعلِه هذا بدعةً ومعصية، يقول الإمام النووي في «شرح مسلم»:

«وقد اختلفَ العُلماء فيمن قال لامرأته أنتِ طالق ثلاثاً، فقال الشافعيُّ، ومالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وجماهيرُ العلماء من السَّلف والخَلف يقع الثلاث».

ويقولُ العلاّمة ابن رشد في «بداية المجتهد»: «جُمهُور فقهاء الأمصار على أنَّ الطلاق بلفظِ الثلاث حُكْمُه حُكْمُ الطَّلْقةِ الثالثة»، كما يقول العلامة ابن قيم الجوزية تلميذُ ابن تيميَّة في كتابه «زاد المعاد»: «وهذا قول الأئمةِ الأربعة وجمهورِ التابعين وكثير من الصحابة».

إنَّ أقوالَ هؤلاء الأعلام تستندُ إلى عدَّةِ أحاديث مرفوعةٍ تُثبت أنَّ

النبي ﷺ اعتبَر هذه الطلقات الثلاث ، أو أكثر ، ثلاث طلقات ، وأفتى ببينُونة المرأة [١].

أمَّا مذهبُ شيخ الإسلام ابن تيمية وبعضِ أصحابه وتلاميذه؛ فهو: أن هذه الطلقات الثلاث إنما تعتبر واحدةً ، ويُمكن معها الرجعة مثلما يمكن الرجل أن يرجع إلى زوجته التي طلَّقها واحدة ، إنه يقول: «وهذا القول منقول عن طائفة من السَّلَفِ من أصحاب رسول الله ﷺ مثل الزُّبير بن العَوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ويروى عن عليٍّ ، وعن ابن مسعود ، وابن عبَّاس ، وهو قول داود وأكثرِ أصحابه ، ويُروى عن أبي جعفر محمد الباقر بن علي بن حسين ، وابنِه جعفر الصادق ، ولهذا ذهبَ إلى ذلك مَن ذَهب من الشيعة [٢].

ويَستدلُّ شيخُ الإسلام لتأييد مذهبه، وإثباته بالقرآن، والسنة، والقياس[٣].

وفي الحقيقة: إنَّ شيخ الإسلام كانَ السبب في ظهور هذه المسألة ، واشتهارها ، وإليه يرجع الفضلُ في ذلك ، سواء تفرَّد هو بذلك ، أم كان من السلف من يرى فيها هذا الرأي ، إنه هو الذي حمل رايتها ، ولمَّا أبدى رأيه؛ وتحقيقه فيها؛ أثار ذلك استغراباً واضطراباً في الأوساط الفقهية.

مسألَةُ الحَلِف بالطَّلاقِ واعتقالُه:

وعلى كُلٍّ فإنَّ مسألة الطَّلقات الثلاث إنما كانت مسألةً فِقهيةً خالصة تَختصُّ بحياةِ الرجل المنزلية ، وكانت تُؤثِّر على حياة أسرةٍ واحدة ، ولكنَّ المسألة الثانيةَ التي خالف فيها المذاهبَ الأربعة والمذهبَ المشهور ، والتي كان يتعدَّى

---

(١) تكلَّم الفريق الثاني في إسناد ومتون هذه الأحاديث ، ولكن الفريق الأول ردَّ على ذلك في أسلوب المحدِّثين.

(٢) فتاوى ابن تيمية: ج ٣ ، ص ٦٣.

(٣) وللاطلاع على البحث والاستدلال بتفصيل راجع «زاد المعاد» للحافظ ابن القيم مبحث (من طلق ثلاثاً بكلمة واحدة) ج ٤ ، و«إغاثة اللهفان».

تأثيرُها إلى المعاملات والسياسة ، وعلاقاتِ الدولة والرعية كانت مسألةَ الحَلفِ بالطلاق .

وقد كان الحَلفُ بالطَّلاق عامّاً بين الناس في ذلك الحين؛ إذ كانوا يستندون إلى الحلف بالطلاق للتأكيد على كلام ، أو إبداء عزم ، أو صدق من غير تردُّدٍ ، ولا تكلُّفٍ ، فمثلاً كانوا يقولون «عليّ الطلاق لأفعلن كذا» «عليّ الطلاق لأمتَنِعنَّ عن كذا» «عليَّ الطلاق لتفعَلَن كذا» «عليَّ الطلاق اشتريتُها بكذا» .

كان ابنُ تيمية يرى : أن هذا أسلوب من القسم ، أو التأكيد واليقين ، من غير أن يُريدوا بها الطلاق في أي حال ، ولذلك فإن هذا نوعٌ من القسَم ، ولكنه ينفذ عليه أحكامُ الطلاق من أجل اعتبارهم ذلك الطلاق بالتعليق ، وذلك ما يُسبِّب خراب مئات من الأسر ، والبيوتات ، واضطراب الحبل في الحياة المنزلية .

وقد أُدخلت في صيغة البَيعة كلماتُ الطلاق؛ لتثبيت البَيعة وتأكيدها منذ عهد الحجاج بن يوسف ، حتى إن هذه الكلمات صارت كجُزء للبيعة ، وذلك كأنْ يقول : «لو أنَّني خرجتُ عن بيعة فلان؛ فزوجتي طالقٌ» .

تأمَّل ابنُ تيمية في هذهِ المسألةِ ، وبدأ يُفتي بأن هذا نوعٌ من الحلف ، وأنَّ القائل يَحنُث إذا خالف قولَه ، وعَمِلَ خلافَه ، وتَلزُم عليه كفارة اليمين من غير أن يقعَ الطلاق .

وليت أنَّ ابنَ تيمية قدَّم أقوال بعضٍ من الأئمة الأربعة وأصحابهم؛ لتأييد فتواه [١] ، ولكنَّ الحقيقة أن هذه الفتوى إنما كانت تُعارض القول المشهور ، والمفتى به لهذه المذاهب، وكان يبدو ذلك تحقيقاً جديداً، واجتهاداً صريحاً ، ولذلك فإنّها أثارت اضطراباً عاماً ، ورأى العلماء والقضَاة أن يَمنعوه عن هذه الفتوى لكيلا يَشتدَّ الاضطراب ، يقولُ ابنُ كثير ضمن أحداث عام ٧١٨هـ:

«وفي يوم الخميس مُنتصف ربيع الأول اجتمع قاضي القضاة شمس الدين

---

(١) راجع كتاب «ابن تيمية» للشيخ محمد أبي زهرة ، مبحث الحلف بالطلاق ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

ابن مُسلم بالشيخ الإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية ، وأشار عليه في ترك الإفتاء في مسألة الحلفِ بالطلاق ، فقبل الشيخ نصيحته ، وأجاب إلى ما أشار به رعايةً لخاطره وخواطر الجماعة المفتين.

ثم ورد البريدُ في مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه مَنعُ الشيخ تقي الدين من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق ، وانعقد بذلك مجلس ، وانفصل الحال على ما رسم به السلطان ، ونودي به في البلد ، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضي ابن مسلم الحنبلي جماعة من المفتين الكبار ، وقالوا له أن ينصح الشيخ في ترك الإفتاء في مسألة الطلاق ، فعلم الشيخ نصيحته ، وأنه إنما قصد بذلك ترك ثَوران فتنةٍ وشرٍّ» [(١)] .

ويبدو أنه بعد صدور المرسوم ازداد ثقة وطمأنينة في هذه المسألة ، وبدأ يُفتي فيها حسب ما تحقَّق له من غير أن يبالي بأي منع من قبل الحكومة ظناً منه: أن الحكومة ليس لها حقٌّ التدخل في هذه المسألة ، ولا يجوز لأيِّ عالمٍ أن يُخفي عقيدته وعلمه خوفاً من الحكومة ، يتحدَّث ابن كثير في أحداث عام ٧٢٠ هـ فيقول:

«وفي يوم الخميس ثاني عشرين رجب عُقد مجلسٌ بدار السعادة للشيخ تقي الدين ابن تيمية بحضرة نائب السلطنة ، وحضر فيه القضاة ، والمفتون من المذاهب ، وحضر الشيخ ، وعاتبوه على العود إلى الإفتاء بمسألة الطلاق ، ثم حُبس في القلعة» [(٢)] .

ولكنَّ مُدةَ الحبس هذه لم تَطُل كثيراً ، وورد مرسوم من السلطان من مصر بإخراجه يوم الإثنين يوم عاشوراء من عام ٧٢١هـ بعدما مكث فيه خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً.

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٨٧.
(٢) المصدر السابق: ج ١٤ ، ص٩٧.

اعتقالُهُ الأخير:

اشتغل ابنُ تيمية من عام ٧٢١هـ خمس سنين بالتدريس والإفتاء والتأليف والوعظ بكل حرية وانهماك بالغ ، فكثيراً ما كان يُدرس خلال هذه المدة في المدرسة الحنبلية أو مدرسته الخاصة به الواقعة في القصاصين ، كما أنه أعاد النظر خلال ذلك في مؤلفاته ورسائله القديمة ، وقام بتأليفاتٍ جديدة.

ولعلَّه كان يتمكَّن من إنجاز أعمال مفيدة جدّاً في هذه المدَّة ، وإخراج مؤلفات كبيرة القيمة في موضوعات مهمة ، غير أن تفوقه العلمي ، وتفرُّده في بعض المسائل سبَّب له ولمعاصريه امتحاناً يدفع ثمنه وغرامته بين فينةٍ وأخرى ، وعلى ذلك ما كان يتيسَّرُ له الهدوء إلى مدة طويلة ، فما كاد يُمضي إلا مدة قليلة إذ عرضتْ مسألة أخرى كانت موضع بحث وجدال بين الخاصة والعامة على السواء ، وهي لم تكن مسألة فقهية خالصة كمسألة الطلاق ، بل كانت تحتوي على العنصر العاطفي ، وتكفي لإثارة الاضطراب في النفوس ، وهي مسألة زيارة قبر النبي ﷺ .

وقد كان ابن تيمية أفتى قبل سبعة عشر عاماً بأنَّه لا يجوز شد الرحال لزيارة القبور بما فيها قبر النبي ﷺ ، وذلك لأنه جاء في الحديث الشريف: «لا تشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى»[(١)] ، ثم إنه يفيض حسب عادته في بيان الحِكم الشرعية في ذلك وما

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة ، والمدينة ، برقم (١١٨٩) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب فضل المساجد الثلاثة ، برقم (١٣٩٧) ، وأبو داود في كتاب المناسك ، باب في إتيان المدينة ، برقم (٢٠٣٣) ، والنسائي في «السنن الكبرى» (١/ ٢٥٨) برقم (٧٧٩) ، وفي الصغرى في كتاب المساجد ، باب ما تشد الرحال إليه من المساجد ، برقم (٧٠١) ، وابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات ، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس ، برقم (١٥٠٩) ، وأحمد في المسند (٢/ ٥٠١) برقم (١٠٥١٤) وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد روي بنحوه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً].

في خلاف ذلك من المضار، والمفاسد، إن كلامه يتلخص في أن الاهتمام الشديد بالسفر لزيارة القبور يفتح الأبواب، والأعمال التي قد تُفضي إلى الشِّرك، ويعتقدُ كثير من الناس أنَّ مثل هذه الزيارة عِبادةٌ وذريعة إلى التقرب إلى الله، وعندما يفعلون ذلك يتعدَّوْن حدود الشريعة، ويتفلَّتُ منهم حبل التوحيد.

وقد كان النبي ﷺ شديدَ الاهتمام بحفظ قبره من العادات والتقاليد الجاهلية، التي كانت شائعة منتشرة بين اليهود والنصارى حتى قال:

«لَعنَ الله اليهودَ والنصارى اتخذوا قُبورَ أنبيائهم مساجدَ»[١]، وابتهل إلى الله تعالى فقال: «اللَّهم لا تجعلْ قَبري وثناً يعبد، اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»[٢] وقال أيضاً: «لا تـتَّخِذوا قبري عيداً، وصَلوا عليّ، فإنَّ صلاتكم حيثما كنتم تبلغني»[٣].

ولذلك لم يُحبَّ النبي ﷺ أن يدفن في الصحراء، وإنما دفن في حُجرة عائشة ـ رَضي الله عنها ـ التي هي مكان حريز، وذلك لكي يُصان قبره من جميع هذه الأخطار، ولا يسمح للناس بالرحلة إليه وزيارته أفواجاً إلا الذي يأتي إلى المسجد النبوي للصلاة فيه يزور القبر الشريف بالطريق المسنون، ويصلي

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، برقم (١٣٣٠)، ومسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور...، برقم (٥٣٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١/ ٢٥٩) برقم (٧٨٢) و(١/ ٦٥٨) برقم (٢١٧٣)، وأحمد في المسند (١/ ٢١٨) برقم (١٨٨٤). وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنه].

(٢) [أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الصلاة، باب جامع الصلاة، برقم (٤٢٣)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٢/ ١٥٠) برقم (٧٥٤٤) و(٣/ ٣٠) برقم (١١٨١٩)، وعبد الرزاق في المصنف (١/ ٤٠٦) برقم (١٥٨٧) مرسلاً من حديث عطاء بن يسار].

(٣) [أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٦٧) برقم (٨٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٥٠) برقم (٧٥٤٢) و(٣/ ٣٠) برقم (١١٨١٨)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٥٧٧) برقم (٦٧٢٦)، وأبو يعلى في المسند (١/ ٣٦١) من حديث علي بن حسين رضي الله عنه].

ويُسلم على النبي ﷺ كما كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يفعلون [١].

لقد أُخرجت هذه الفتوى بعدَ سبعة عشر عاماً بحكم عوامل عديدة، وشُهرت، واتُّخذت ذريعة لإثارة عواطف المسلمين لما للنبي ﷺ من مكانٍ قُدسيٍّ في القلوب، إنهم رأوا فيها إساءة أدبٍ إلى مكانة النبي ﷺ، كما أنَّ العلماء رأوها يتجلَّى فيها الاعتماد الزائد على الرأي الشخصي، ومعارضة لجمهور الأمة، ولعلَّ ذلك هو العامل الأقوى لمعارضتهم إياه.

وعلى كلٍّ حالٍ فإنَّ هذا الخلاف قد نال من الأهمية والشهرة ما جعل الحكومة (سواء على طلب من العلماء، أو نُزولاً على مصالح النظام) تتدخَّل فيه، وصدر المرسومُ في السابع من شعبان ٧٢٦هـ بحبسه، فرحب به الشيخُ ترحيباً بالغاً، وأبدى سروره على ذلك، وقال فور ما علِمَ بحبسه «أنا كُنت منتظراً ذلك، وهذا فيه خيرٌ كثير، ومصلحة كبيرة»، ونُقل الشيخ إلى قلعة دمشق حيث أُخْليت له قاعةٌ، وأجري إليها الماء، وأقام معه أخوه زينُ الدين ابن تيمية يخدمُه بإذن السلطان، وأجري عليه ما يقوم بكفايته.

«وما إنْ اعتقل الشيخُ حتى تكشَّفت القلوب عن خبيئاتها، وتوجَّه الأذى إلى تلاميذه، وأوليائه، فأمر قاضي القضاة بحبس جماعة من أصحابه، وعزّر جماعة منهم بإركابهم على الدواب، والمناداة عليهم، وبعد ذلك أطلقوا من محابسهم، ما عدا صفيه، وحامل اللواء من بعده شمس الدين محمد ابن قيم

---

(١) إنَّ قضية صيانة عقيدة التوحيد، وسد ذرائع الشرك، والغلو في التعظيم، والتشبه بالأمم التي اتخذت قبور أنبيائها مساجد قضية مسلمة لا تقبل نقاشاً، ويؤيدها كل من فهم روح الدين وتذوق الكتاب والسنة، ولكن المنع عن زيارة القبر النبوي الشريف بتاتاً، والتشديد في ذلك لا يخلو من شيء من المغالاة، والتطرف إنما كان ذلك نتيجة ذكاء ابن تيمية المتوقد، وحسه المرهف، الذي يمثل لصاحبه أبعد الإمكانات، وأقبح الاحتمالات، وذلك لا يغطي فضائله الكثيرة ومواقفه العظيمة في خدمة الإسلام والمسلمين، وبلوغه درجة الإمامة في علوم الدين، ولم يكن يستحق بذلك ما لقيه من نكران وجفاء، وبقاء في الحبس إلى أن يفارق الدنيا. (المؤلِّف).

الجوزية فإنه حُبس بالقلعة»[١] ، وظلَّ معه في الحبس ، وما أفرج عنه إلا بعد وفاته.

تَأسُّف أهلِ العلم والدين واحتجاجُهم:

إذا كان اعتقالُ شيخ الإسلام ابنِ تيمية موضعَ سرور عند شِرْذِمَةٍ قليلةٍ من الحُسَّاد والمناوئين؛ فلقد كان مَبعثَ أَلَمٍ عميق عند جماعة كبيرة من أهل العلم والمسلمين والمخلصين الذين اعتبروه انتصاراً للبِدعة على السنة ، وذلةً للحق وأهله ، ولقد بعَثَ أهل العلم والدين من أنحاء المملكة المختلفة إلى السلطان الناصر بمصر كتاباً يُصوِّرون فيه النازلة التي نزلت بالإسلام والمسلمين ، ويَحسُن بي أن أنقلَ إلى القارىء الكريم كتاباً بعثَه علماء بغداد إلى السلطان ، وحسبُنا أن نقدِّر بذلك أنَّ دعوة الشيخ وشُهرته كانت قد انتشرت في جميع الأقطار الإسلامية ، وأنَّ أهل الحق جميعاً إنما كانوا يحبونه ، ويُعجبون به. يقول علماءُ بغداد:

«لمَّا قرأ أهلُ البلاد المشرقية والنواحي العراقية التَّضييق على شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية سلَّمه الله ، عظُم ذلك على المسلمين ، وشقَّ على ذوي الدين ، وارتفعت رؤوس المُلحدين ، وطابت نفوسُ أهل الأهواء ، والمبتدعين ، لمَّا رأى علماءُ أهل هذه الناحية عِظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع وأهل الأهواء بأكابر الفضلاء ، وأئمة العلماء؛ أنهوا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع إلى الحضرة الشريفة السلطانية زادها الله شرفاً ، وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ سلَّمه الله في فتاواه ، وذكروا مِن علمه وفضائله بعض ما هو فيه ، وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء أعزَّ الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ، غيرةً منهم على هذا الدين ، ونصيحةً للإسلام ، وأُمراء المؤمنين»[٢].

---

(١) ابن تيمية: محمد أبو زهرة ، ص ٨٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٣٥٠ ـ و«الكواكب الدرية» ص ١٩٨.

وهذا الكتابُ يدلُّ على أمرين:

أحدهما، وهو العُمدة: أن ذلك العالم الجليل قد عمَّت دعوته إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة البقاعَ الإسلامية، ولم تَعُدْ آراؤه ومنهجه مقصورة على أهل الشام، بل تجاوزتها إلى البقاع الإسلامية كلِّها، وفوق ذلك لم تعد مقصورة على الحنابلة، بل تحمَّسَ لها المالكيةُ، والحنفيةُ، والشافعيةُ، مما يُثبت أنه لم يعد نصيراً لمذهب مُعيَّن مِن مذاهب الإسلام بل نصيراً للإسلام في لُبِّه وصميمه.

الأمر الثاني: أنَّ أهل الأهواء قد أظهروا الشماتة، والعداوة، وأبدوا صفحتهم بعد أن كانوا قد أخفوها، وكانوا مستورين غير مكشوفين، وإذا كان أوَّلُ متهم بجريمة هو المنتفع منها فلا بدَّ أن أولئك الذين والوا دَسَّهم على الشيخ، وكانوا يتظاهرون بالمذاهب السُّنية؛ ليخدعوا الأمراء والقضاة، ولمَّا تمَّتِ الخديعة ظهرت شماتَتُهم للعيان، وبدت ظاهرة غير مستورة.

أشغالُ الشَّيخ في القلْعة:

تمتَّع الشيخُ بنعمة الهدوء والخلوة في القلعة بعد مُدَّة طويلة، ولعلَّه كان قد أشار إلى ذلك بقوله: (فيه خيرٌ كثيرٌ، ومصلحةٌ كبيرةٌ) إنه قدَّر فرصة الخلوة والانقطاع هذه حقَّ قدرِها، وأقبل على العبادة والتلاوة بكل رغبة وانهماك، فإذا توفَّر له بعضُ الوقت من هذه الأعمال شَغَله بالمطالعة والتأليف، وتنقيح كتبه، الأمر الذي كان يُعدُّ عبادة من العبادات، وطاعةً من الطاعات التي يتقرَّب بها إلى الله، غير أنه كان لتلاوة القرآن قسطٌ أكبر، ونصيبٌ أوفر من أوقاته وأشغاله؛ إذ أنه ختم القرآن مع أخيه الشيخ زين الدين ابن تيمية خلال الفترة التي قضاها في هذا المحبس (وهي سَنتان) ثمانين ختمة.

وجُلُّ ما ألَّفه في ذلك المحبس كان يتَّصل بالتفسير، ولعلَّ إكثارَه من تلاوة القرآن والتدبر فيه كان السبب في ذلك، كما أنه ألَّف الرسائل، وردَّ على بعض

المسائل ، وكان يُجيب على كل ما يرِدُ إليه من الخارج من الأسئلة العلمية ، والاستفتاءات الفقهية ، وهكذا فقد كان مستمراً في جميع أعماله وأشغاله سوى المواعظ والدروس العامة ، أضِف إلى ذلك كثرة التلاوة ، والعبادة .

القُيود الجَديدة وحرمانُه أدواتِ الكتابة والدراسة:

كانَ الناس يتلقَّفون كُلَّ ما كان يكتُبه الشيخ في المجلس ، ويصل من أقصى البلاد إلى أقصاها ، ومن بين ما كتبه الشيخ من الرسائل والمسائل في حبسه رسالةٌ في موضوع مسألة الزيارة ردّاً على أحد قضاة المذهب المالكي في مصر القاضي عبد الله ابن الأخنائي [١] ، أثبتَ فيها أنَّ القاضي المذكور رجلٌ قليلُ البضاعة في العلم ، فاشتكى القاضي من ذلك إلى السلطان ، وأبدى سخطه ، واستنكاره ، فأصدر السلطان مرسوماً يُصرح بمصادرة جميع ما عند الشيخ من أدوات الكتابة والكُتب، حتى لا يبقى عنده ما يستعينُ به في التأليف، والكتابة .

وفي التاسع من جمادى الآخرة سنة ٧٢٨ هـ نفِّذ المرسومُ وصُودرت جميعُ أدوات الكتابة والدراسة من الشيخ باسم الحكومة .

وفي غرة رجب أرسلت جميع مسوداته وأوراقه من المحبس إلى المكتبة «العادلية [٢] الكبرى» وكان ذلك نحو سِتِّين مجلَّداً من الكتب ، وأربع عشرة ربطة كراريس التي كان يشتغل بها دراسة وتأليفاً.

الكِتابةُ والتَّأليفُ بالفَحم:

ولكنَّ الشيخَ لم يُفزعه كلُّ ذلك ، وما أبدى شَكاةً منه للحكومة ، ولمَّا مُنع من الكتابة ، وأُخذ منه القلم والدواة ، بدأ يكتُب بالفحم على أوراق مبعثرة هنا وهناك ، ووجدت له عدةُ رسائِل وكتابات مكتوبة بالفحم ، وظلَّت محفوظة في

(١) اقرأ «الرسالة الأخنائية» طبع مصر.

(٢) [والتي تقع اليوم أمام مكتبة الظاهرية ، كانت مقرَّ المتحف الوطني ، ومجمع اللغة العربية في عصر الانتداب].

هذه الحالة ، وإنه في مثل هذا الاضطرار والعجز يبدو شاكراً ، وراضياً بقدر الله ، إنه يشعر بأنه سيُحرز بهذه الأحوال فضيلةَ الجهاد ، وكأنَّ الوضع لم يتغير عما كان عليه ، ويقول في رسالة له :

«نَحنُ ولله الحمدُ في عظيم الجهاد في سبيله ، بل جهادُنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان ، والجبلية ، والجهمية ، والاتحادية ، وأمثال ذلك ، وذلك مِن أعظم نعمِ الله علينا ، وعلى الناس ، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون».

الخضوع أمام قَدَر الله وعاطفةُ الحَمْد والشُّكر:

ويتجلَّى في رسالةٍ أُخرى الخضوعُ أمام قدرِ الله وعاطفةُ الرضا والشكر ، يقول :

«كلُّ ما يقضيه الله تعالى فيه الخيرُ والرحمة والحكمة ، إنَّ ربي لطيفٌ لما يشاء إنه هو القوي العزيز العليم الحكيم ، ولا يَدخلُ على أحد ضررٌ إلا من ذنوبه ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] .

فالعبدُ عليه أن يَشْكُر الله ويحمده دائماً على كلِّ حالٍ ، ويستغفر من ذنوبه ، فالشُّكر يوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفَع النِّقم ، ولا يقضي الله للمرء من قضاءٍ إلا كان خيراً له ، إنْ أصابته سرّاءُ شكَرَ ، وإن أصابته ضرَّاء صبَر فكان خيراً له».

إنَّه في هذه الحال أيضاً متأكدٌ من صحة مذهبه وبراءته ، ويعتقدُ أنه ليس عليه ذَنب سوى أنه لم يخضع أمامَ السلطان في مسألةٍ شرعية ، وظل قائماً على ما كان يراه حقاً ، ولكنه يعترفُ بجريمته ، ويعتبرُ ذلك مقتضى الإيمان والتوحيد ، يقول :

«غايةُ ما عندهم أنه خُولف مرسوم بعض المخلوقين ، والمخلوق كائناً مَن كان إذا خالف أمرَ الله تعالى ورسوله لم يَجبْ بل لا تجوزُ طاعته في مخالفة أمر الله ورسولهِ باتفاق المسلمين».

أيّامه الأخيرةُ ووفَاته:

يقولُ الشيخ زين الدين عبد الرحمن شقيقُ شيخ الإسلام:

إنّه لمّا بدأ يقرأ القرآن بعد ما أكمل ثمانين ختمة ووصل إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقْتَدِرِۭ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥] تركني وأخذ في مدارسة القرآن مع الشيخ عبد الله بن مُحب وعبد الله الزَّرعي ، وكانا في غاية من الصلاح والتقى ، وأخوين شقيقين ، وذلك لأن الشيخ إنما كان مُعجباً بقراءتهما القرآن ، وما كادت تنتهي هذه المُدارسةُ حتى انتهت أيام حياته.

ولمّا بلغ نائبَ دمشق نبأُ مرضه الأخير استأذن في الدخول عليه ليعوده ، فأذن له ، فلمّا جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يعفو عنه إذا كان قد وقع منه تقصير أو أذى في حقه ، فأجابه الشيخ:

«إنِّي قد أحلَلْتُك ، وجميعُ من عاداني، وهو لا يعلم أني على الحق ، وأحلَلْتُ السلطان المعظَّم الملك الناصر من حبسِه إياي ، لكونه فعل ذلك مُقلِّداً معذوراً ، ولم يفعله لحظ نفسه ، وقد أحلَلْتُ كلَّ أحد مما بيني وبينه إلا مَن كان عدواً لله ورسوله ﷺ».

دامت العِلَّةُ مُدةً تُقارب ثلاثة أسابيع ، واستمر به الحال حتى وافاه الأجل في ليلة ٢٢ من شهر ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ ، وارتحل من هذه الدنيا وقد بلغ من العمر ٦٧ سنة ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ونعى الشيخَ مؤذِّنُ القلعة على المنارة ، وتكلَّم بها الحرَّاس على الأبرجة ، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم ، وبادروا على الفور إلى القلعة من كلِّ مكان أمكنهم المجيء منه ، وفُتح بابُ القلعة واجتمع حَشْدٌ عظيم من الخاصة والعامة يدخلون إليه أفواجاً ويزورونه ، ومنهم

من كان يقبل رأسَه وناصيته التي كانت تَـنْصَب على الأرض ساعات طوالاً أمام ربِّـه.

وبدأ الناسُ يختمُون القرآن قبل غسله، وأُذِن للنساء بعد الرجال فزُرْنَه، ولم يبق عند الغسل إلا من كان عليه أن يُغسله.

وَصْفُ الجنازة والتَّدفين:

وصُلِّيَ عليه أولاً بالقلعة، وتقدَّم في الصلاة عليه أولاً الشيخُ محمد بن تمام، وأخرِجت الجنازةُ بعد الصلاة، وغصَّتِ الطرقُ كلها ما بين القلعة والمسجد بالناس حتى حضرت الجنازةُ في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك، ووُضعت في الجامع، والجُند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وتزايدَ الزحامُ إلى حدٍّ لا يبلغ الإحصاء والتقدير، وقد صاح بين هذا الزحام صائحٌ يقول «هكذا تكونُ جنائز أئمة السنة» الجملةُ التي هاجت الناس وأثارت أحزانهم، وحماسهم، فارتفعتِ الأصوات، وعلا النشيج.

وصُلِّي عليه عقيب صلاة الظهر في الجامع الأموي، وقد تضاعف اجتماعُ الناس إلى أن ضاقت الرِّحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، وأُغلقت الأسواق، والمتاجر، والمطاعم، وقد نَوى كثير من الناس الصيام؛ إذ كانوا في شُغل شاغل عن الطعام والشراب.

ثُم حُمِلَ بعد أن صُـلِّي عليه على الرؤوس والأصابع، واشتد الزحامُ، وعَلَتِ الأصواتُ بالبكاء، والنحيب، والترحُّم عليه، والثناء، والدعاء له، وألقى الناس على نعشِه مناديلهم، وعمائِمهم، وثيابهم، وفارقتِ النعالُ، والقباقيبُ الأرجلَ، والأقدامَ، وسقطت المناديلُ، والعمائم عن الرؤوس، والناس لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النَّعش على الرؤوس تارةً يتقدم، وتارة يتأخر، وتارة يقف، حتى يمر الناس.

وعَظُمَ الأمر بسوق الخيل، وتضاعف الخلق، وكثر الناس، ووُضعت

الجنازةُ هناك ، وتقـدَّمَ للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن ، وحُمل إلى مقبرة الصوفية [١] حيث دُفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله .

وكان دَفْنُه قبل العصر بيسير ، وذلك من كثيرٍ من يأتي ويُصلِّي عليه ، ولم يتخلَّف عن الحضور إلا مَن هو عاجز عن الحضور ، ويُحزَرُ الرجال الذين حضروا الجنازة ما بين ستين ألفاً إلى مئة ألف ، عدا النساء ، يُقدَّر عددُ الحاضرات منهن خمسة عشر ألف امرأة ، عدا من كُنَّ على الأسطحة والغرف ، ولم يُعهد مثل هذا الزحام في تاريخ دمشق ، ويمكن أن يكون ذلك في زمن بني أمية حين كان الناس كثيرين وكانتْ دمشقُ دار الخلافة [٢] .

صَلاةُ الغائب على ابنِ تيمية:

وصُلي عليه صلاة الغائب في معظم الأقطار الإسلامية حتى في أقصى الجنوب والشرقِ. يقول ابنُ رجب في ذيل «طبقات الحنابلة» :

---

(١) هي المقبرة الشهيرة التي هي مدفن كبار أهل العلم والصلاح كابن عساكر ، وابن الصلاح ، وابن الأثير ، وأبي الحجاج المِزِّي ، والحافظ عماد الدين ابن كثير ، وغيرهم ، وقد زالت آثارها وتقوم عليها الآن عمارات شامخة ، إلا أن قبر ابن تيمية لا يزال باقياً أمام قاعة الجامعة السورية ، وعمارة مستشفى الولادة ، وقد أتيحت لي زيارته في ١٠ شوال عام ١٣٧٠هـ (٢٨ يوليو سنة ١٩٥١م) بصحبة علامة الشام الشيخ بهجة البيطار ، وقد حدَّثني الشيخ بأن هذه المقبرة درست من القبور في إحدى الليالي بمناسبة تأسيس عمارة في الجامعة السورية ، ولمَّا انتشر الخبر في الصباح أرسل الرئيس شكري القوتلي إلى مدير الجامعة النصراني ، وقال له: لو أنَّ قبر ابن تيمية اندرس ماذا عسى أن يكون جوابي لصديقي الملك عبد العزيز بن سعود إذا سألني عن هذا الحادث فإنه من محبي ابن تيمية ، وأنصاره؟! وهنالك أبقي قبر الشيخ ابن تيمية الذي لا يزال موجوداً حتى الآن. (المؤلِّف).

(٢) كلُّ هذه التفاصيل مما كتبه ابن كثير برواية الشيخ علم الدين البرزالي الذي كان من معاصري الإمام ابن تيمية وزميل دراسته ، انظر «البداية والنهاية» ج ١٤ ص ١٣٦ - ١٤٩ .

«وصُلِّي عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة ، والبعيدة ، حتى في اليمن ، والصِّين ، وأخبر المسافرون: أنه نُودي بأقصى الصين للصلاة عليه يوم جمعة ، وأُعلِن: «الصلاة على ترجمان القرآن».

* * *

الفصل الرابع

ميِّزاتُ ابن تيميَّة البارزة وخصائِصُه

ذَاكرَتهُ الموهوبة وذَكاؤه النادر:

إنَّ المكانة الاجتهادية في العلوم الإسلامية التي أحرزها شيخُ الإسلام ابن تيمية في عصره ، وإنَّ التأثيرَ العميق الذي خلَّفه على أهل زمانه لإمامته في التفسير والحديث معاً ، وتبحُّره ، ونبُوغه في العلوم إنما كان الفضلُ الأكبرُ في ذلك يرجعُ إلى ذاكرته النادرة ، وذكائه المفرط ، وكلُّ ذلك نعمةٌ أكرمه الله بها ، وموهبةٌ اختصه بها.

وكانتِ العلومُ الإسلاميةُ قد توسَّعت في عصره، وتجمَّعت ذخيرةٌ واسعةٌ للعلوم النَّقلية بحيث لم يكن بإمكان أحد أن يُحيط بها علماً ، ولا أن يتجرَّأ على الكلام في المسائل المختلفة فيها أمام مُعاصريه الكبار ، ولا كان يَملك حقَّ اختلاف مع عالم متقدِّم في أي مسألة ما لم يكن يتمتع بذاكرةٍ نادرةٍ ، وذكاءٍ مفرطٍ.

ولكنَّ الذاكرة القوية ، وقُوة الاستحضار التي كان قد أكرمَ اللهُ بها ابن تيمية مكَّنته من الإحاطة بالذخائر الموجودة آنذاك من التفسير ، والحديث ، والفقه ،

وعِلْمِ الخلاف ، والكلام ، والتاريخ ، والسير ، والآثار ، وعلم الرجال ، واللغة ، والنحو.

فقد درس ما تيسَّر له من الكتب ، والمواد العلمية ، ووعتْها ذاكرتُه القوية الأمينة ، واستعانَ بها في حياته العلمية ، والتأليفية ، كما يستعينُ الجنديُّ المُحنَّك بذخائر كِنانته.

كان مُعترَفاً بذاكرته النادرة القوية وذكائِه البارز لدى معاصريه من العلماء. وقد اتفق المعاصرون ، والمتأخِّرون كُلُّهم على قوَّة حفظه ، وسُرعة فهمه ، وشِدة ذكائه ، يقول زميلُه في الدراسة العلامة عَلم الدين البِرْزَالي: «قَلَّ أنْ سمع شيئاً إلا حفظه ، وكان ذكياً كثير المحفوظ» (١).

ويقول الحافظُ الذهبي الذي يُعتبر من أئمة علم الرجال ومؤرِّخ الإسلام: «ما رأيتُ أشد استحضاراً للمتون ، وعَزْوِها منه ، وكانت السُّنة بين عينيه وعلى طرف لسانه» (٢).

ومِن أكبر الشهادات على حفظِه للمتون وقُوَّة ذاكرته هو قول معاصريه فيه: «كلُّ حديث لا يعرفُه ابنُ تيمية فليس بحديث».

ولا يخفى أنَّ حفظَ ذخائر الحديث الواسعة إنما كان من الصعوبة بمكان ، ولكنَّ الاعتماد على عِلمه وذاكرته وحدهما في موضوع الحديث والحكم على أساس قوله لا يمكن مالم يُعترف بأنه أكبر حافظ للحديث في عصره ، وأنَّ قوة حفظه لا تخذله في أي حال ولا مجال.

يقول الحافظُ الذهبي: «يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» (٣).

وحتى قال بعضُ معاصريه: وهذا معاصره العلامة كمال الدين الزَّملكاني

---

(١) الرد الوافر: ص ٦٦.
(٢) القول الجلي: ص ١٠١.
(٣) الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

الذي كان خصمه في مجلس المناظرة ، وكان بينه وبين ابن تيمية خلاف كبير في كثير المسائل يشهد بصفته الموهوبة هذه ، فيقول:

«لم يُرَ من خمسمئة أو أربعمئة سنة ـ والشك من الناقل ـ أحفظ منه »[١].

ويَتحدَّث عن ذكائه المُفرط الحافظُ الذهبي ، فيقول: «كان يتوقَّد ذكاء» ، ويقول في مكان آخر: «كان آية على الذكاء ، وسُرعة الإدراك» [٢].

التَّبحُّر العِلمي والجَامعيَّة:

لقد تبحَّرَ ابنُ تيمية في العلوم الإسلامية ، والموضوعات السائدة في زمانه ، وتمتَّع بصفة الجامعية في هذه العلوم والفنون بفضل ذاكرتِه الموهوبة، وذكائه النادر، وذوقه العلمي الذي ورثَه من آبائه ، ثم بجُهوده البالغةِ والمشاقّ التي احتملها في سبيل دراسته ، وبفضل التوفيق الإلهي قَبل كل شيء؛ بحيث إنَّ معاصريه الكبار الذين كانوا يكبُرونه في السنِ ، وكانوا أساتذة الفن ، والذين انتهت إليهم رئاسة التدريس ، والإفتاء ، وسُلِّمت إمامَتهم في العلوم الإسلامية قد قضوا من هذه الصفات عجباً ، وشهدوا: أنه بحر العلوم ، ومكتبةُ الإسلام الناطقة ، وله في كل فَنٍّ براعة تدلُّ على أنه صاحب اختصاص في هذا الفن.

ولمَّا سافر ابنُ تيمية إلى مصر في عام ٧٠٠ هـ ولقي هناك العلامة ابن دقيق العيد؛ أعجب به على ما كان يحتله من المكانة العليا في علم الحديث ، ويعتبر أستاذ العلماء ، وكبيرهم ، وقد عبَّر العلامة عن إعجابه بابن تيمية ، فقال: «لما اجتمعتُ بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلُّها بين عينيه ، يأخُذ منها ما يريد ، ويَدعُ ما يريد» [٣].

ويُبدِي عَجبه من ابن تيمية زميلُه العلاَّمة كمال الدين الزَّمْلكاني، الذي كان

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

(٢) الرد الوافر: ص ٢٩.

(٣) المرجع السابق: ص ٣١.

عالماً مُتبحِّراً بنفسه في كثير من الفنون، فيقول: «كان إذا سُئل عن فَن من العلم؛ ظن الرائي، والسامع: أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحَكم أنَّ أحداً لا يعرف مثله»[(١)].

أمّا العلاَّمة تقي الدين السّبْكِي الذي هو خصمه الشهير، وألَّف في الردِّ عليه حول مسألة شد الرحال، وفي بعض المسائل الفقهية كُتباً مستقلة بذاتها، وأبدى رأيه عنه في النظام أيضاً، فإنه بالرغم من ذلك كتب في رسالة له موجهة إلى الحافظ الذهبي:

«المملوكُ يتحقَّق كبيرُ قدره، وزَخارة بحره، وتوسُّعه في العلوم الشرعية، والعقلية، وفرط ذكائه، واجتهاده، وبلوغه في كل ذلك المبلغ الذي لا يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائماً»[(٢)].

إنَّ التاريخ لم يكن من اختصاص ابن تيمية: ولم يتوفر على دراسته كتوفره على دراسة العلوم الدينية، ولكن الذهبي الذي كان من مؤرِّخي الإسلام المبصرين في التاريخ والناقدين له يتحدَّث عن معرفته بالتاريخ فيقول:

«ومعرفته بالتاريخ، والسير فعجبٌ عجيب».

وقد نقلَ تلميذُه النابغةُ ابن قيم الجوزية حادثاً مدهشاً عن علمه بالتاريخ، وسَعةِ نظرِه، وحضور ذهنه في كتابه «زاد المعاد» إنه يقول:

«ولمّا كان في بعض الدول التي خَفيت فيها السُّنة وأعلامها أظهر طائفةٌ منهم كتاباً قد عتَّقوه، وزوَّروه، وفيه: أنَّ النبي ﷺ أسقط عن يهود خيبر الجزية، وفيه شهادةُ عليّ بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، فراج ذلك على مَنْ جَهل سُنَّة رسول الله ﷺ ومغازيه وسيره، وتوهَّموا بل ظنوا صحته، فأُجيزوا على حكم هذا الكتاب المزور، حتى ألقي إلى شيخ الإسلام ابن تيمية (قدَّس الله روحه) وطُلب منه أن يعين على تنفيذه،

---

(١) الرد الوافر: ص ٣٠.
(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» (ترجمة العلامة تقي الدين السبكي).

والعمل عليه ، فبصَق عليه واستدل على كذبه بعشرة أوجه :

منها : أنَّ فيه شهادة سعد بن معاذ ، وسعدٌ تُوفِّي قبل خيبر .

ومنها : أنَّ في الكُتب : أنه أسقط عنهم الجزية ، والجزية لم تكن نزلت بعدُ ، ولا يعرفها الصحابة حينئذ ، فإن نزولها كان عام تبوك بعد خيبر بثلاثة أعوام .

ومنها : أنَّه أسقط عنهم الكُلَف ، والسُّخَر ، وهذا محالٌ ، فلم يكن في زمانه كُلَفٌ ؛ ولا سُخَرٌ تُوجد منهم ، ولا من غيرهم ، وقد أعاذَهُ الله ، وأعاذَ أصحابه من أخذ الكلف ، والسخر ، وإنما هي من وضع الملوك الظَّلَمَة ، واستمر الأمر عليها .

ومنها : أنَّ هذا الكتاب لم يذكره أحدٌ من أهل العلم على اختلاف أصنافهم ، فلم يذكُره أحدٌ من أهل المغازي ، والسير ، ولا أحدٌ من أهل الحديث ، والسنة ، ولا أحدٌ من أهل الفقه ، والإفتاء ، ولا أحدٌ من أهل التفسير ، ولا أظهروه في زمان السَّلَف لعلمهم أنهم إن زوَّروا مثل ذلك ؛ عَرفوا كذبه ، وبطلانه (١) .

ويُمكن تقدير ذكائه وتبحُرِه العلمي بما حدَّثه أحدُ معاصريه الشيخُ صالح تاج الدين ، إنه يقول :

«حَضَرْتُ مجلسَ الشيخ رضي الله عنه وقد سألهُ يهوديٌّ عن مسألة في القدر ؛ وقد نظمها شعراً في ثمانية ، فلما وقف عليها فكَّر لحظة يسيرة ، وأنشأ يكتب جوابها ، وجعل يكتب ، ونحن نَظُنُّ أنه يكتب نثراً ، فلما فرغ تأمَّله من حضر من أصحابه ؛ فإذا هو منظوم من بحر أبيات السؤال ، وقافيتها ، تقرُب من مئة وأربعة وثمانين بيتاً ، وقد أبدى فيها من العلوم ما لو شُرح لبلغ مجلَّدين كبيرين» (٢) .

ولمَّا رأى المعاصرون من العلماء والمتأخِّرون منهم تبحُّره في العلوم ،

---

(١) زاد المعاد : ج ١ ص ٣٣٦ ، فصل في هدي النبي ﷺ في عقد الذمة وأخذ الجزية .
(٢) الكواكب الدرية : ص ١٥٤ .

وجَمعه للصفات العالية ، والمميزات البارزة ، لم يلبثوا أن وصفوه بأسمى الصفات ، فاعتبروه نادرة الزمان ، إمام المحققين ، آخر المجتهدين ، وآيةً من آيات الله ، حتى يقول ابن سيد الناس (المتوفى عام ٧٣٤هـ) : «لم ترَ عَيْنُ مَن رآه مثله ، ولا رأت عينُه مثل نفسه» [١] ولم يملك الحافظُ شمس الدين الذَّهبي ذلك المؤرِّخ الكبيرُ الناقد البصير إلا أن يصفه بقوله :

«لو حَلَفْتُ بين الركن والمقام لحلفتُ أنّي ما رأيت بعيني مثله ، ولا والله رأى هو مِثل نفسه في العِلم».

الشّجاعةُ والاستقلال الفكريّ:

لقد كانتْ شجاعةُ ابن تيميَّة وبسالتُه وصمُوده ، أمامَ الموت موضع دهشةٍ عندَ جميع معاصريه حتى ضباط الجيش، وقواد الأتراك ، فإن الشجاعة والجرأة التي أبداها إزاء المغول ، وثبات الجأش الذي ظهر به أمامهم أثار استغراب الجميع ، ولم يترك «قبجق» نفسه الذي يعتبر من كبار الضباط العسكريين الأتراك وأشهرهم في عصره إلا وجعله يندهش من شجاعته الفذة التي لا يُعرف لها نظير في حملة العلم ، يصفه الحافظُ سراج الدين بالكلام الآتي:

«وكان إذا ركب الخيلَ يجول في العدو كأعظم الشُّجعان ، ويقومُ كأثْبت الفرسان ، ويُنكي العدو من كثرة الفَتك بهم ، ويخوض بهم خوض رجلٍ لا يخاف الموتَ» [٢].

ولكنِّي لا أريد أن أتحدَّث هنا عن شجاعته التي أبداها في ساحة القتال وبلاط الملوك إعلاءً لكلمة الحق ، فقد مرَّ بعض التفاصيل عنها في الصفحات الماضية ، إنني أتحدث هنا عن شجاعته التي ظهرت منه في مجال العلم ، والتحقيق ، والمعارك الكلامية ، والصَّدع بالحق.

يعرفُ أهلُ العلم من القُرّاء أن ابن تيمية ليس مُتفرِّداً في أكثر المسائل ،

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٤.

(٢) المرجع السابق: ص ١٦١.

فقد نوقشتْ هذه المسائل من قبل ، وأُلِّفتْ في موضوعها رسائل ، وقد وُجد في عصره من كان يوافقُه في آرائه من معاصريه ، غير أنَّ الجُرأة والصراحة اللتين اتَّسم بهما في إبداء آرائه وتحقيقاته ، وأعلنهما في كتاباته وخُطبه كان المجلِّي فيهما ، ولا أدلَّ على صفته هذه مما قام به من شرح التوحيد الخالص ، وردِّ الاستغاثة والاستعانة بغير الله ، ومُعارضة البدع والمنكرات السائدة في عصره ، والكِفاح بالقلم واللّسان مقابل وحدة الوجود ، ونظرية الحلول والاتحاد ، وهَتْك الأستار عن تلبيسات المتصوفين الدُّخلاء والمبتدعين المفترين.

إنَّ الجرأةَ البالغةَ التي مَثَّلها في إحقاق المسائل والتحقيقات التي كان يراها حقاً سواء كان لها علاقة بالمباحث الكلامية ، أو المذاهب الفقهية ، وإنَّ الأسلوب القويَّ الذي اتخذه لإثبات عقائده ونظرياته ، وإن الأذى الذي احتمله في هذا السبيل ، كلُّ ذلك ليس حجَّة على شجاعته واستقامته فحسب ، بل يَدُلُّ على عظمته ، وإمامته في الدين أيضاً.

يتحدَّث الحافظُ الذهبي عن شجاعته ، واستقامته العلمية والدينية ، فيعبر عنهما بما يلي:

«أطلَقَ عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا ، وجسَر هو عليها، حتى قام عليه خلقٌ من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه ، وبدَّعوه ، وناظروه ، وكاتبوه ، وهو ثابت لا يُداهن ، ولا يُحابي ، بل يقول الحقَّ المرَّ الذي أدَّاه إليه اجتهاده ، وحِدَّة ذهنه ، وسعة دائرته في السنن والأقوال مع ما اشتُهر عنه من الورع ، وكمالِ الفكر ، وسعة الإدراك ، والخوف من الله العظيم ، والتعظيم لحرمات الله ، فيَجري بينه وبينهم حملاتٌ حربيةٌ ، ووقعات شامية ومصرية ، وكم من نوبة رَموه عن قوس واحد ، فيُنجيه الله» [١].

ولا شكَّ أنَّ ابن تيمية إنما كان يمتاز في تبحُّره العلمي عن معاصريه ، كما

---

(١) الرد الوافر: ص ٧١.

اعترف بذلك معاصروه بكلمات قوية ، غير أنَّ مِيزَته الأصيلة التي جعلته فَذّاً بين أقرانه المعاصرين ، وخلَّدتِه في التاريخ لم تكن مجرد تبحُّره في العلم ، بل إنما هو استقلالُه الفكري ، وذوقه للبحث والتحقيق وأسلوبُه الاجتهادي ، إنه لم يدرس من العلوم والفنون إلا ما كان قد درسه أكثر معاصريه ، ولكنَّه شق فيها طريقه الذي سار عليه ، وسُرعان ما أحرز مكانته الخاصة ، لقد كان كلّ العلماء في زمنه قد تعلموا النحو ، واعتقدوا في سيبويه إماماً للنحو واجبَ الاتباع ، واعتبروا قَوله هو الحُجَّة الأخيرة في النحو ، ولكنَّ ابن تيمية كان قد درس «الكتاب» لسيبويه دراسةَ نقد وتحليل ، فلما ذكر أبو حيان النحوي بعض مسائل النحو برواية سيبويه ، أجابه الشيخ ابن تيمية ، بأنه لم يكن نبياً نزل عليه النحو ، بل إنه أخطأ في ٨٠ موضعاً من «الكتاب».

وقد أخذ أكثرُ علماء عصره بالحيطة في دراسة المنطق والفلسفة اليونانية ، أما الذين كانوا درسوهما؛ فقد تأثروا بهما في قليل أو كثير ، حتى إنَّ حُجة الإسلام الغزالي الذي يُعتبر أكبر ناقد للفلسفة اليونانية ، ومُطَّلع على مواضع ضعفها في جماعة المسلمين لم يتمكَّن من صَون مؤلفاته وحتى كتابه «إحياء علوم الدين» من تأثير العلوم الإلهية اليونانية ، وفلسفةِ أخلاقها كلياً ، ويتجلَّى ذلك لكثير من مؤرخي الفلسفة في كثير من مؤلفاته» [(١)].

أمَّا ابن تيمية فإنَّه رفع لواء الثورة على المنطق ، والفلسفة اليونانية ، ولم يتفاهم معهما في أي حال ، إنه ناقش مسائل ومقدمات المنطق ، والفلسفة المعتَرف بها كناقد بصير ، وصوفي خبير في كتابه «الرد على المنطقيين» وتناولها بعملية جراحية ، وزَعزع أساسها بالكلية ، ولم يترك موضعاً إلا وثَـقَـبَـهُ بسهامه الحادة.

مُنذُ مدَّةٍ كان البحث والدراسة في مجال الفقه والحديث قد انحصر في نطاق

---

(١) راجع للتفصيل «فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية» و«تاريخ الأخلاق» للدكتور محمد يوسف مرسي.

محدود ، ولم يكن يتجرأ أحدٌ أن يخرج عنه ، ولا كانت ذخائرهما العلمية تتسع ، وتنمو منذ مُدة طويلة ، وجاءَ ابنُ تيمية فاستأنفَ النظرَ في كثير من المسائل الفقهية التي كانت تُعتبر مقرَّرةً لا تحتاج إلى تفكير ، أو دراسة من جديد ، وقدَّم نتائج بحثه ودراساته إلى أوساط العلماء والفقهاء بكل شجاعة وصرامة علمية ، لقد أثار ذلك سواكن العقول ، وحرَّك الأوساط العلمية ، وفتح باب التفكير والدراسة من جديد ، وفي الأخير بدأ يُفتي على أساس الكتاب ، والسنة ، وآثار الصحابة.

يقول الحافظُ الذهبي ـ وابن تيمية لا يزال بقيد الحياة ـ:

«ولهُ الآن عِدَّة سنين لا يُفتي بمذهب معيَّن ، بل بما قام الدليل عليه ، ولقد نَصر السنة المَحضةَ ، والطريقة السلفية ببراهين ، ومقدمات ، وأمورٍ لم يُسبق إليها»[1].

وهو يتقرَّرُ في هذه الاجتهادات أحياناً ، ولا يَبعد أن يُخطىء كما هو الشأن في جميع البشر ، ولا يتحَتَّم أن تكون دلائله في كلِّ مسألة قوية واجبة التسليم ، ولكن الذي لا شك فيه: أنه إنما كان جد مُخلص في مقاصده ، وأنه لم يكن يترك مذهب إمام من الأئمة أو قول الجمهور ، ولا كان يستنبط مسألةً اتباعاً للهوى ، أو النفس ، أو لأجل مصلحة ، أو حاجة في نفسه ، بل إنه كان طالباً للحق ، خاضعاً للدليل ، مُتَّبعاً للكتاب ، والسنة.

وللحافظِ ابن حجر العسقلاني الشافعي صاحب «فتح الباري» قولٌ فصلٌ في هذا الموضوع إنه يقول:

«إنَّه شيخ مشايخ الإسلام في عصره بلا ريبَ ، والمسائل التي أُنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي. ولا يُصر على القول بها إلا بعد قيام الدليل عليه[2] غالباً ، فالذي أصاب فيه وهو الأكثر ، سيُستفاد منه ، ويترحم عليه بسببه ،

---

(١) الرد الوافر: ص١٧.

(٢) الضمير يعود على «القول».

والذي أخطأ فيه لا يُقلَّد فيه بل هو معذور لأن أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد فيه، حتى كان أشدُّ المتعصبين عليه، والعاملين في إيصال الشرِّ إليه، وهو الشيخ جمال الدين الزَّملكاني شهدَ له بذلك»[(١)].

إخلاصُه وانهماكُه:

ومِيزَتُـه البارزةُ الثانية: أنه وَقف نفسَه لخدمة علوم الدين، إنه لم يسمح لنفسه بأيةِ علاقة بأمرٍ آخر طول حياته، بينما ظل أكثر معاصريه، وزملائه، وأترابه ـ الذين وُجد من بينهم كبار المخلصين والفضلاء ـ يَشغلون مناصب الحكومة المختلفة، أو أنهم كانوا يحملون المسؤولية عن منصب دينيٍّ، أو إداريٍّ، أو حَظُوا بمنحة ملك، أو خِلعة سلطان، أو جائزة ملكية، أو كانوا يَقبلون رواتب الحكومة، ولكنَّ ابن تيمية ظل في غِنىً عن جميع هذه الملابسات، وكان في شُغل عن كل شيء سوى الاشتغال بالعلم والدين من الإفتاء، والتدريس، والوعظ والإرشاد، والتأليف، والتحقيق.

يشهد بانهماكه الديني، وانصرافه إلى العلم مع الانقطاع عن الدنيا أحدُ معاصريه بالكلام الآتي:

«وما خالطَ الناس في بيع ولاشراء، ولا معاملة ولاتجارة، ولا مشاركةٍ، ولا مزارعة، ولا عمارة، ولا كان ناظراً، أو مباشراً لمالِ وقف، ولم يقبل جراية، ولا صِلةً لنفسه من سلطان، ولا أمير، ولا تاجِر، ولا كان مدَّخراً ديناراً، ولا درهماً، ولا متاعاً، ولا طعاماً، وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثُه بعد وفاته رضي الله عنه العلمُ، اقتدى بسيِّد المرسلين، فإنه قال: «إنَّ العلماء ورَثَةُ الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً، ولا درهماً، ولكن ورَّثوا العلمَ، فمن أخذ به؛ أخذ بحظٍّ وافر[(٢)]»[(٣)].

---

(١) الرد الوافر: ص٧٨.

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٥٦و١٥٧.

(٣) [أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم =

ويَقولُ صاحب «الكواكب الدرية» رواية عن الثقات: «إنه كان قد قَطع جُلَّ وقته وزمانهِ في العبادة حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلةً تشغلهُ عن الله وما يزاوله، لا من أهلٍ، ولا من مالٍ»[1].

لم تُمهِله أشغالُه وأفكاره، وانهماكه في العلم والدِّين، وحياتهُ المشغولة (وقد قضى جزءاً وجيهاً منها في الحبس والاعتقال) أن يتزوَّج، فقد عاش طوال حياته عَزباً، اشتغالاً بطلب العلم والمجاهدة.

يتحدَّث مؤِّلف «الكواكب الدرية» عن برامجه اليومية، وأعماله الرتيبة فيقول:

«ولا يزالُ تارةً في إفتاء الناس، وتارةً في قضاء حوائجهم حتى يُصلِّي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه، ثم يُصلِّي المغرب ويُقرأ عليه الدرس، ثم يصلِّي العشاء، ثم يُقبل على العلوم إلى أن يذهب طويل من الليل وهو في خلال ذلك كله يقضي الليل والنهارَ يذكر الله تعالى، ويُوحِّده، ويستغفره»[2].

إذا كان العلمُ شُغلاً مؤقَّتاً، وخدمة طارئة لأي مدرِّس، أو مُفتٍ؛ فإنه كان غِذاءه، ولباسه، امتزج بطبيعته.

يقول الشيخ سراج الدين أبو حفص البزَّار: «وكان العلم قد اختلط بلَحْمِه، ودمه، وسائره، فإنه لم يكن مُستعاراً، بل كان له شعاراً، ودثاراً»[3].

ولا أدلَّ على إخلاصه ووَرَعه من أنه عفا عن أعدائه، ومعارضيه في كلِّ مناسبة، وأعلنَ بصراحة: «أَحلَلْتُ كلَّ مسلم عن إيذائه لي».

وإنَّنا نستطيع أن نُقدِّر مدى وَرَعه، وسماحةِ نفسه، وإخلاصه بقصة عفوه

= (٢٢٣)، وابن حبان في الصحيح (١/ ٢٨٩) برقم (٨٨) وغيرهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه].

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٦.

(٢) المرجع السابق: ص ١٥٦.

(٣) المرجع السابق: ص ١٥٦.

عن أكبر معارضيه القاضي ابنِ مخلوف بعد عودة السلطان الناصر ، ورغم إلحاحه على عدم الصفح عنه ، وبما أَثنى على القاضي ، وجميع شركاء المملكة ، وعلمائِها للسلطان ، وشفاعته لهم إليه ، وقد ثَبت بذلك أنَّ كُلَّ خلافاته إنما كانت على الأساس العلمي ، والديني ، لا تَشُوبها شائبة من النفسانية والعداوة.

إنه خلَّف ذخيرةً من الآثار العلمية والمؤلَّفات القيمة، التي تُعتبر مفخرة لجماعة من أهل العلم في حياته البالغة ٦٧ سنة الحافِلة بالحوادث والوقائع الشاذَّة نتيجَةَ إخلاصه ، وانهماكه ، وخلَّف نتيجةً لذلك أيضاً تأثيراً عميقاً في عصره يُؤهِّله بكل جدارة أن يُسمى رائدَ عهدٍ جديد ، وذا شخصيةٍ قويَّةٍ تُغيِّر مَجرى التاريخ.

* * *

الفصل الخامس

خَصائِصُه التَّأليفية

إنَّ مؤلَّفاتِ ابن تيمية تَتفرَّد بخصائص بارزة تُميزها من بين مؤلفات عصره بكل وضوح ، إنها لا تزال تُؤثِّر في قلوب الجيل الجديد وعُقوله رغم أنه مضى عليها قرون عديدة ، وحَدثت في خلالها ثورات في دنيا العلم والتفكير ، وقد أنتج ذلك أنها تَنالُ الإعجاب والقبول من جديد في هذا العصر الوَلوع بالتجديد والعقلية ، وهناك أربعةُ جوانبَ ذاتُ أهمية في هذه الخصائص :

١ ـ كُلُّ دارسٍ لمؤلَّفات ابن تيمية يرجع بانطباع : أنَّ مؤلِّفها عارفٌ بمقاصد الشريعة ، ومُطَّلعٌ على روح الدين ، وأنهُ آخذ بأطراف الدين وأصوله ، ولذلك فإنه يركز بحثه في كل أمر من أموره على الأصول بحيث يشفي العليل ، ويروي الغليلَ ، ويَبعث الطمأنينة ، واليقين في النفس ، إنَّه يضغط على الأصول دون الفروع ، ويبدأ كلَّ بحث بأسلوب يُشعر القارىء بأنه هو طبيعة الدين ، وروحه ، ومقتضى الشريعة المحمدية بالبَداهة والاضطرار ، إنَّ السرَّ في تفوقه بإزاء معاصريه ، والمؤلفين الآخرين هو اطِّلاعه على مقاصد الشريعة ، وروح الدين ، وشرحهِ الناجح لهما ، وذلك ما يتجلى في كل ما ألَّفه من صغير ، وكبير ، ولا سيَّما عندما يَتحدَّث في العقائد ، والمسائل الكلامية ، والفقهية المهمَّة .

٢ ـ الميزة الثانية البارزة : أنَّ كُتبه تفيض حيويّة ، ويبدو أنها لم تُؤلَّف في

رُكن من المكتبة مُنْـزَوٍ ، أو جزيرة منقطعة عن الناس ، بل إنها أُلِّفت في معترك الحياة ، وأوساط العامة ، إن من يدرسها يستطيع أن يُعيِّن ، ويُقدِّر العصر الذي أُلفت فيه بسهولةٍ عقليةَ المجتمع وأخلاقه الذي كان يتصل به مؤلِّفها [١].

كما أَنَّ مؤلَّفاته تُشير إلى عواطفه ، وحماسه ، وحُبِّه ، وكراهيته ، ويبدو أنَّ مؤلفها كان صاحب عقل واعٍ ، وقلبٍ حساس ، ومشاعرَ حية قوية ، ولم يكـن مُجـرَّد آلـة للكتابـة ، ولا محْض عقل.

وكذلك أُسلوبُ تفسيره يتَّسم بارتباطه مع الحياة ، إنَّه يُطبق الآيات القرآنية على ما حوله من الحياة ، والإنسان ، ويستعرض الحياة من وجهة نظرها ، ويتناول معاصريه ، وطبقات الأمة المختلفة بالاحتساب ، إنَّه يضع الأصبع في مواطن الانحراف عن هذه الآيات ، والحقائق ، ويُخبر بنتائج ذلك [٢].

إنَّ ميزة الحيوية هذه مَنحتْ مؤلفاته حياة طويلة ، وتأثيراً عميقاً ، وروعة عجيبة ، قد تندر في مؤلفات غيره ، وقد تكون مفقودة فيها.

٣ ـ إنَّه يَجمع معلوماتٍ ، وموادَّ في كل موضوع يطرقه في عشراتٍ من الكتب ومئات من الصفحات ، إنَّ أسلوب تأليفه هذا ـ الذي يمكن أن يُسمَّى أسلوباً موسوعياً ـ أبرز ميزة لجميع مؤلفاته سواء كانت في المباحث النقلية ، أو العقلية ، وهكذا فإن كتبه تجمع معلومات كثيرة وفيرة تُغني أكثر الأحيان عن مكتبة ، بل تقوم مقامها ، ويَستغني بها الطالب عن مراجعة المصادر ، والمباحث.

وطالمَا يُفلِت منه طرفُ البحث في تأييد كلامه بالمواد ، والمعلومات؛ حتى إنَّ الدارس يضل في خضم الأقوال والشواهد ، ويتعسّر عليه التغلب على البحث ، ولكن على الرغم من ذلك لا يُستهان بجانب الإفادة في كتبه ، وهو أنها مخزن أقوال المعاصرين ، وآرائهم ، وموسوعة صغيرة في مواضيعها ، إنه حفظ كثيراً من المواد ، والمعلومات القديمة ، وكثيراً من الآراء ، والأفكار في

---

(١) وكنموذج اقرأ كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم».
(٢) اقرأ تفسير «سورة النور» و«سورة الإخلاص» وما إلى ذلك، لابن تيمية.

كتبه ، وصانها من الضياع ، وهي مِنَّةٌ علمية كبرى ، لا تنسى من ابن تيمية .

٤ ـ تمتازُ كتبه بين كُتب الفقه والكلام العامة بخُلوِّها من الجفاف ، والتعقيد ، والاختصار ، الأمر الذي يُعتبر سِمة الكتب المؤلَّفة في هذا الموضوع ، ولكن بالعكس من ذلك إن مؤلفات ابن تيمية تتَّسم بالسلامة ، والقوة ، والعربية ، وأحياناً بصفة البلاغة ، والأدب ، والخطابة من غير قصد ، تلك التي تجعل كتبه (وأكثرها دفاتر ضخمة) ذاتَ روعة ، وحيوية ، وقوَّة ، لا سيما عندما يبحث هو في ترجيح مذهب السلف ، وفي تفوُّقهم العلمي ، والديني ، وفضلِهم العملي ، والفكري يستمد قلمه قوَّةً ، ويستوحي بحثه صفة من الرجز .

لقد تحدَّثَ معاصروه ، والمؤلفون عن حياته ، وبلاغته ، وخطابته بصفة خاصة ضمن الحديث عن أحواله ، وفضائله ، يقول الحافظ أبو حفص :

«يجري كما يجري التيار ، ويَفيض كما يفيض البحر ، ويَصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين ، مُغمضاً عينيه ، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يُرعد القلوب ، ويُحيِّر الأبصار ، والعقول»[(١)] .

يبدو من دراسة مؤلَّفاته : أنَّ سلاسة الألفاظ ، وفيضان العلم ، لا يختصان بمجالسه ، بل يشارك قَلَمُهُ لسانه ، هكذا أبدى الأقشهري انطباعه عنه في رحلته ؛ إذ إنه يقول : «وقلمه ولسانه متقاربان» .

وعلى هذا الاعتراف بمحاسنه لا بدَّ من الإشارة إلى بعض جوانب الضعف لكل مؤرخ ناقد ، وهي أن في كتبه ومباحثه اضطراباً ، وانتقالاً من معان إلى أخرى ، وبدء بحث جديد بأدنى مناسبة ، كما أنها تتَّسم بالإطناب ، والتطويل ، ولا شك أنَّ ذلك مما يسبب حيرة شديدة للقارىء لا سيما إذا كان يجهل أسلوبه ، وطراز تأليفه ، إنَّ السبب الكبير لذلك إنما هو حِدَّةُ ذهنه ، وفَرطُ ذكائه ، ووفرةُ عِلمه ، وحماسُ طبيعته ، ويبدو أنَّ ذهنه وقلمه لا يكادان

---

(١) الكواكب الدرية : ص ١٥٥ .

يستقران في مجال البحث على نقطة واحدة وترد إليه الخواطر ، وينتقل ذهنه بسرعة بالغة ، لا تضع عليهما حداً ، وذلك ما كان يتصف به درسه ، يقول تلميذه أبو حفص البزَّار:

«كان ابنُ تيمية إذا شرع في الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم، وغوامض ، ولطائف ، ودقائق فنون ونقول ، واستدلالات بآيات وأحاديث ، واستشهاداً بأشعار العرب ، وهو مع ذلك يجري كما يجري التيار ، ويفيض كما يفيض البحر» (١) .

وهذه الخِصِّيصة مِن وفرة المعلومات ، وكثرة البراهين ، والدلائل ، وتَموُّج ذهنه هي التي كانت تسد الطريق على مناظريه في مجلس المناظرة ، إنه كان يُدخل في ثنايا بحثه ومناظراته علوماً ومسائل تعسر على خصمه أن يرتكز علىٰ بحث واحد ، ويَنضبط في مسألة واحدة ، وذلك ما جعل العلماءَ والفقهاء في مصر والشام يتجنَّبون مناظرته في المجالس العامة ، ويعتذرون إليه ، وقد عبر عن هذه الصعوبة أحد معاصريه ، ومناظريه الفضلاء الشيخ صفيُّ الدين الهندي بكلامه الآتي:

«ما أرَاكَ يابن تيمية إلا كالعصفور حيث أردتُ أن أقبضه من مكان فرَّ إلىٰ مكان آخر» (٢) .

إنَّ هذه الطبيعة العلمية (التي ليست نتيجة نقص ، أو عيب ، بل إنها دليلٌ على كثرة معلوماته ، ووفرة فضله ، وذكائه ، وعلمه) توجد في مؤلَّفاته ، فإذا تجلَّد الطالب الصادق ، ودأب على الغوص في بحره؛ فلا شك أنه يرجع منها بدرر ثمينة ، ولآلىء فاخرة.

* * *

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٥ .

(٢) نزهة الخواطر: ج ٢ ، ص ١٤٠، ترجمة محمد بن عبد الرحيم الأرموي (الشيخ صفي الدين الهندي).

الفصل السادس

أسْبَابُ معَارضة ابن تيميّة بين نُقّاده والمُدافعين عنه

ينشأُ هنا سؤالٌ في نفس كلِّ إنسان سليم الطبع ، هو أن ابن تيمية على رغم تبوئه هذا المنصب العالي للعلم ، والدين ، وتحلِّيه بالفضائل الفكرية ، والتدين ، والإخلاص إلى حدِّ الإبداع ، والتفرد ، لماذا خُولف وعورض هذه المعارضة الشديدة [(١)] من قِبل معاصريه وبعض المتأخرين من العلماء؟

ولماذا ظلَّت شخصيتُه موضع بحث وانتقاد منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا؟ .

ولماذا لم يتفقِ الناس على عظمة هذا الإنسان الجامع للفضائل والكمال؟ .

إنَّ هذا السؤال حقٌّ ، ويجدر بأن نردَّ عليه في وضوح ، وصراحة في ضوء سيرته ، وتاريخه المعاصر .

١ ـ إنَّ وجود فريقين منافسين في شخصيةٍ ، وصراعهما في تحديد مكانتها لدليل على عظمتها قبل كلِّ شيء ، فإن الشخصيات التي لمعت في التاريخ ، وتميَّزت بفضائل خارقة للعادة إنما واجهتْ هذا الوضع دائماً، ونالتْ تأييدَ

---

(١) لا يغيبنَّ عن البال: أنَّ هناك فرقاً بين المخالفة والاختلاف؛ إذ أن الاختلاف حقٌّ لأهل العلم والتحقيق دائماً، لا يمكن سلبه من العلماء في أيِّ زمان، ولذلك فإننا لا نعني هنا الاختلاف مطلقاً بل نبحث في المخالفة ، وأسباب تضليله ، وتكفيره .

فريق ، وإعجابه ، ومبالغةً في مدحها والثناء عليها ، وانتقاد فريق آخر ومعارضته ، ومغالاته في الحط من شأنه ونقص منزلته ، إنها تجربة مستمرة للتأريخ ، فيما يتصل بالشخصيات العظيمة ذات العبقريات حتىٰ إنَّ بعض فلاسفة التاريخ وعلم النفس ، وأصحاب البصيرة للعظمة والعبقرية اعتبروا ذلك من مبادىء العظمة ، وشروط العبقرية .

٢ - كان ابنُ تيميَّة أعلىٰ من المستوىٰ الفكري والعلمي للجيل الذي نشأ فيه ، وكان ذلك بـلاءً عظيماً لمعاصريه؛ إذ أنَّ السمو على المستوىٰ السائد نعمةٌ موهوبة ، ومِنحةٌ من الله يغتبط عليها ، إلا أن صاحب هذه النعمة يضطرُّ إلى دفع ثمنٍ باهظٍ لها ، إنَّـه يعيش في بلاء مستمر ، ومحنة دائمة من قِبل معاصريه .

كما أنَّ أولئك المعاصرين يُعانون من شقاء ومصيبة طول حياتهم من أجله ، وذلـك لأنهـم لا يسايـرون طـراوة فكـره ، وعُلـو نظـره ، وقـوة اجتهـاده ، ولا يستطيعون أن يتوصلوا إلى آفاق عِلْمِه وفكره العالية .

هذا وهو لا يقدر على أن يبقىٰ مُقيَّداً محدوداً في مصطلحاتهم المحدودة المرسومة ، وحدودهم المدرسية ، بل إنه يطير بحرية في أجواء العلم والفكر الواسعة ، ويَسْبَح في بحار الكتاب والسنَّة الزاخرة ، إنَّ مبلغ علمهم لا يعدو فَهْمَ كتب المتقدِّمين ، وأهل التدريس ، أمَّا هو فإنه يكون مجتهداً ، ومجدداً في علوم كثيرة ، وقد يكون مُرْسِياً لقواعد بعض الفنون ، مُبْتكراً لها .

وبالجملة فإنَّ تفاوت المدارك والكفاءات يُحدِث صراعاً عجيباً ـ لا يكاد ينتهي ـ بينه وبين معاصريه المخلصين ، فلا يستطيع أن يقنعهم في حال ما ، إن أصحاب الفضل ، ومجتهدي الفن من العلماء واجهوا هذه المشكلة في كلِّ زمانٍ ، إنهم وجدوا أنَّ تحقيقاتهم وعلومهم تعدَّت المستوىٰ العلمي ، والدراسي السائد في عصرهم ، فلم يتمكنْ من فهمها ، والتغلب عليها أولئك العلماء الذين لم ينطلقْ فكرهم من نطاق الكتب المتداولة ، وذلك هو العامل

الكبير لمعارضة كثير من أهل العلم [1].

٣ ـ إنَّ طائفةَ المعارضين إنما كانت تُعارض هؤلاء العباقرة على أساس أنهم إنما كانوا يسيطرون على رجال الحكومة، وينالون إعجاب الجميع من العامة والخاصَّة بفضل ذكائهم، وعِلمهم، وعُلوٍّ مكانتهم، وجمال شخصيتهم.

ولا يقوم أحدٌ أمام علمهم، وبيانهم، إنهم يستولون على الجميع حيثما كانوا، فإن درَّسوا؛ أوحشتْ مجالس الآخرين، وإنْ خطبوا، تتدفَّقُ منهم بحار العلم، ولقد أشار الحافظ الذهبيُّ في الفقرة التالية ذات المغزىٰ الدقيق إلى كوامن النفوس هذه، يقول «غيرِ أنه يَغترفُ من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السَّواقي» [2].

ولا شكَّ أنَّ العلماء في كل عصرٍ إنما كانوا بشراً يتمتعون بأفكار، ومشاعر البشر، فلا غرابة إذا كان سببُ معارضتهم لدىٰ كثير منهم ما يسمَّىٰ في عصرنا بمُركَّب النقص، وضَعْف الطبيعة البشرية، ذلك الذي يتعسَّر التحرُّز منه، إنَّ المؤرِّخين حينما يتحدَّثون عن أسباب العداوة والمعارضة مع الإمام أبي حنيفة ينشدون البيت الذي يصدق في كل عصر:

حَسدوا الفَتىٰ إذْ لم ينالوا سَعْيَه ... فالناسُ أعداءٌ لَهُ وخُصُومُ

٤ ـ إنَّ السَّبَبَ الطبيعيَّ لمعارضته لدىٰ كثير من المعاصرين خِصِّيصةٌ كانت في نفس شيخ الإسلام تلك التي توجد عند كثير من أهل الفضل الذين يتميزون بذكاء غير عادي، وسعة النظر، وكثرة المعلومات، وأعني بها حِدّة الطبيعة؛

---

(١) ولقد أشار إلى هذه النقطة أفضل المتأخِّرين شيخُ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدِّهلوي في مؤلفاته، يقول في موضوع من كتابه «إزالة الخفاء»: «بما أنّك لم تقرأ هذه المقدمة في كتب علم الكلام بمثل هذه الروعة يحتمل أن تتطرق إلى قلبك وحشة»، ويقول في مكان آخر: «إنْ فهم هذا المعنى في غاية من الدقة، فإن الجماعة التي لا يتجاوز علمها شرح «الوقاية» و«الهداية» كيف تستطيع أن تدرك هذا السر الدقيق» (ج٢، ص ٨٤).

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

التي تَبعثهم في بعض الأحيان على تَناول بعض معاصريهم بالنقد اللاذع؛ وإظهار جهلهم، وغبائهم، وقِلَّة علمهم، وتخرج من أفواههم من شِدَّة التأثر كلماتٌ تجرح شعور أهل العلم من معاصريهم والمعجَبين بهم تُثَبِّط همةَ تلاميذهم، الأمر الذي يبذرُ في قلوبهم بُذور النفور، والعداوة الدائمة، وذلك ما يُنتج إصدار فتاوىٰ الكفر والضلال عليهم، والمعارضة المستمرة، والتربص لهم بالدوائر.

لم يَصرفْ معاصرو شيخ الإسلام ومترجمو حياتِهِ نظرهم عن تلك الخِصِّيصة الطبيعية التي كانت نَتيجة أحواله، ويقول الحافظ الذهبي الذي كان مُعْجَباً بفضائله العلمية، والدينية:

«تَعْتريه حِدَّةٌ في البحث، وغضبٌ، وصَدْمةٌ للخصوم، تَزْرَعُ له عداوةٌ في النفوس، ولولا ذلك لكان كلمةَ إجماع، فإنَّ كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بأنه بحرٌ لا ساحلَ له، وكنزٌ ليس له نظير».

ونجد في حياته عدداً مِن أحداث تؤكِّد: أنه لم يتمكن من تحمُّل قِلَّة فَهْم، أو قِصرَ نظرٍ ودراسة لمعاصره في أي مسألة دينية، وعلمية، فلم يلْبث أن جهر بذلك حتىٰ إنَّ معاصره عاد منافساً، ومعانداً له بصورة دائمة.

ففي مسألة الزيارة حينما ردَّ عليه تقي الدين ابن الأخناني المالكي، وقرأ رسالة ردِّه تصدىٰ للردِّ عليها، وقال فيها: إنه قليل العلم والمعلومات، لا يَصلُح للكتابة في هذه المسألة ولكنَّ نَقْدَه هذا سببُ محنته وإيذائه، فقد يرىٰ بعضُ مترجمي حياته ومؤلِّفي سيرته: أن ذلك هو السبب في اعتقاله الأخير وطول أسارته ومصادرة أدوات كتابته [١].

وهكذا حضر أبو حيَّان المفسِّر الذي كان يُعتبر إمام عصره في النحو ابنَ تيمية مُعْجَباً به ومعترفاً بفضله، وقد كان قد قرض قصيدة في مدحه كان مطلعها:

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ص ١٣٤.

لمَّا أتانا تَقِيُّ الدِّينِ لاحَ لَنَا داعٍ إلىٰ اللهِ فَرْدٌ ما له وِزْرُ

ومن جُملتها قوله:

يا مَنْ يُحدِّث عَنْ عِلْمِ الكِتاب أصِغْ هٰذا الإمامُ الذي قَدْ كَانَ يُنْتَظَرُ

وفي ثنايا الكلامِ دار الحديثُ حَول مسألة نحوية، فأورد أبو حيان مذهب سيبويه مؤيِّداً جانبه، وكان يتوقَّع أن يسكُت ابن تيمية، ويعترف بفضل سيبوبه، ولكنه ردَّ عليه قائلاً: «إنَّ سيبويه ليس نبياً للنحو معصوماً عن الأخطاء بل إنه أخطأ في «الكتاب» في ثمانين موضعاً، لا تستطيعُ أن تتفطَّن لها»، وما إن صادف أبو حيان هذا الكلام الشاذَّ من ابن تيمية؛ إذ تنغص خاطره، حتىٰ أخرج قصيدة ابن تيمية من ديوانه، ولم يَعُد مُعْجَباً بابن تيمية بل أصبح من معارضيه، ونقَّاده.

٥ ـ وسببٌ آخر لمعارضته هو تحقيقاته، وترجيحاته التي ينفرد بها، ويَنْشَقُّ فيها عن جماعة الأئمة الأربعة والمذاهب المشهورة في بعض الأحيان، إنَّ هذه التفردات لا تَبْعَثُ وحشةً واستنكاراً في نفوس مَن لهم اطلاعٌ واسعٌ على تاريخ الفقه والخلافيات وأقوال الأئمة والمجتهدين ومسائلهم، إنَّهم يعرفون جيداً: أَنَّ تفردات الأئمة المشهورين والأولياء المقبولين ومسائلهم الغريبة إذا جُمِعَتْ تتضاءل أمامها هذهِ التفرُّدات وتبدو لهم كلُّ شيء، ويتضعضعُ اعتقادهم بالتفرد الذي يعتبرونه مُضاداً للقبول، ومُنافياً للحق، ويشترطون لعظمته، وولايته ألا يكون له رأيٌ، أو تحقيق يُعارض الآراء، والتحقيقات المشهورة.

أمَّا الذين لا يملكون نظرةً واسعةً حول الخِلافيات، أو أنهم يَسمحون بالتفرد، والشُّذوذ للمتقدِّمين، لكنهم لا يَرون في ذلك مندوحة للمعاصرين مهما بلغوا من التَّفوُّق، والكمال شأواً بعيداً، فقد أصبحَ لهم هذا التَّفرُّد أيضاً مبعثاً للمخالفة، وفساد العقيدة، والضلال، ودليلاً إلى خرق الإجماع.

وما أعدلَ وأجملَ كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني (وقد تقدم فيما مضىٰ) وأبعد من الإفراط والتفريط في هذا الموضوع ، إنه يقول:

«فالذي أصابَ فيه ـ وهو الأكثر ـ يستفاد منه ، ويُترحم عليه بسببه ، والذي أخطأ فيه لا يُقلَّد ، فيه بل هو معذور».

٦ ـ وهناك سببٌ آخر قويٌّ لمعارضته ، وهو أنه خالف ذلك الأسلوب في تأويل الصفات والمتشابهات الذي كان يعرف باسم «العقيدة الأشعرية» بل باسم عقيدة أهل السنة ، وكان الناس يرون العدول عنه نوعاً من الجهل ، أو معارضة أهل السنة ، وقد أسلفنا التفصيلَ بأن الإمام ابن تيمية خالفَ ذلك بكل جرأة وقوة ، وشرح مذاهب الصحابة ، والتابعين رضي الله عنهم ، والأئمة المجتهدين ، والمتكلمين ، والمتقدِّمين ، والإمام أبي الحسن الأشعري ، والقاضي أبي بكر الباقلاني، وإمام الحرمين بأقوالهم ومؤلفاتهم ، وأثبت من مقتطفات كتبهم: أنَّ هؤلاء الأئمة كلهم إنما يُوجبون الإيمان بالصفات ، إنهم يعترفون بحقيقتها التي تتفق وعظمة الله سبحانه وتعالىٰ أو تنطبق على قوله: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورىٰ: ١١] وتتنزَّه من النفي والتعطيل والتشبيه والتجسيم ، إنهم يَدَّعون: أنَّه لم يثبت خلاف ذلك لفظٌ واحدٌ لا نصاً ولا ظاهراً من الصحابة ، والتابعين ، والسلف رضي الله عنهم.

لقد كان العالم الإسلامي آنذاك تحتَ تأثير العلماء والمتكلِّمين الأشعريين، ولذلك فإنَّ اختلاف ابن تيمية الذي كان مؤسَّساً على أُسس علمية خالصة اعتبره الناس نوعاً من البدعة ، ومرادفاً لقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾: [النساء: ١١٥] واتهموه بالتجسيم.

وبما أنَّ العلماء في ذلك العصر كانوا يَرون: أنَّه لا مناص منه قد أطبقوا على «التأويل» ركَّز ابن تيمية كل قُوته على رد التأويل ، وقد شكَّ الناسُ بجهره برد التأويل في اعتقاده ، ورمَوْه بالتجسيم ، وغالوا في ذلك إلى حدٍّ أنهم نسبوا إليه رواياتٍ تؤكد: أنَّه من الفرقة المجسمة ، مثلاً: أنَّه كان يخطب في الجامع

الأموي بدمشق، ونزل من درجة المنبر إلى أدناها، وقال: إنَّ الله تعالىٰ ينزل كنزولي هذا [(١)].

إنَّ الإمام ابن تيمية وتلاميذَه كلهم نَفَوا هذه التهمة، وأبدوا، وأعادوا براءتهم عن التجسيم، ولكن كتاباته القوية في معارضة التأويل التي كانت عن ضرورةٍ قدَّمها معارضوه كدليلٍ على عقيدة تجسيمه، وقد كان ذلك أقوىٰ سبب من الأسباب التي دعت كثيراً من العلماء وأتباعهم إلى معارضته، والواقع: أنَّ الطريق بين التأويل والتجسيم شائك حَرِج بحيث لا يتسنَّىٰ لكلٍّ إنسان أن يَفهم الفرق بينهما، وقد لُوحظ: أنَّ عدداً من الحنابلة ومنكري التأويل تسرَّبوا إلى ثغر التجسيم، فلا غرابة فيما إذا رمي ابنُ تيمية بالتجسيم في مثل هذه الأوضاع، علىٰ أنَّ الحقيقة تؤكد أنَّه كان بريئاً من هذه التهمة كل البراءة.

٧ - وسببٌ آخر لمعارضته هو مخالفته للشيخ محيي الدين ابن عربي، فإنَّ ذلك ذنبٌ لا يُغتفر لدىٰ كثير من الناس، ولا سيما الذين يغالون في المذهب الصوفي، ويتَّجهون إلىٰ أنهم يرون أن نفيه لمذهب وحدة الوجود، وردَّه على آراء الشيخ محيي الدين وتحقيقاته المشهورة يكفيان للقضاء على جميع فضائله، ومحاسنه التي كان يتحلَّىٰ بها.

وليس شيخُ الإسلام ابن تيمية هو الفريد في نقده لآراء الشيخ محيي الدين ابن عربي ومذهبه، بل يوافقه في هذا الاتجاه بعضُ كبار الصوفية وأئمة الطرق المحقِّقين، وقد حمل لواء الرد على الشيخ محيي الدين، ومخالفة مذهبه في وحدة الوجود الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي، إمام الطريقة المجدِّدية

(١) سجَّل ابن بطوطة هذه القصة في رحلته كحادث رآه بعينه، وقد سألتُ علامة الشام الشيخ بهجة البيطار عن هذه القصة فقال: إنها لا تستند إلى أصلٍ تاريخيٍّ، فإنَّ ابن بطوطة يتحدَّث عن وصوله إلى دمشق في رمضان ٧٢٦هـ والمعلوم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان قد اعتقل في ٧٢٦، ثم إنه لم يكن خطيباً في الجامع الأموي في أيِّ زمان، وكان الشيخ جلال الدين القزويني هو خطيب الجامع الأموي في عهده، وهذا يؤكِّد: أنَّ ابن بطوطة التبس عليه الأمر، أو أنه زوَّر الكلام.

النقشبندية في رسائله الخالدة ، وانتهت إليه رئاسة معارضة الشيخ ، والدفاع عن العقيدة السنية ، ورسائله وجهها إلى أحد أصحابه :

«إنَّ أكثر معارفه التي تتعلق بالكشوف ، وتُعارض علومَ أهل السنة بعيدة عن الصواب ، ولا يتَّبعه فيها إلا من هو مريض القلب ، أو أنه مُقلِّدٌ بحتٌ» (١) .

وقد ذكر العلاَّمةُ نُعمان الآلوسي صاحبُ «جلاء العينين» قائمة لأولئك العلماء الذين كانوا يؤيِّدون ابن تيمية في هذه المسألة ، وقد ألَّف عدد منهم رسائل مستقلة في هذا الموضوع نجد من بينهم العلامة السَّخاوي ، والعلامة سعد الدين التَّفتازاني ، والعلامة نور الدين بن علي بن سلطان محمد الهَرَوِي المعروف بمُلاَّ علي القاري ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، وأبا حيَّان المفسر ، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبا زُرْعة ، وشيخ الإسلام سراج الدين البَلْقِيني ، شخصيات لامعة من الأئمة الأعلام وعلماء الإسلام (٢) .

ثم إنَّ مخالفة شيخ الإسلام ابن تيمية مع الشيخ الأكبر لا تقوم علىٰ أساسِ الشخصية أو العاطفة ، إنما هي مخالفة باعثُها الحمية الدينية ، والغيرة الشرعية ، يزخر بأمثلتها تاريخُ السلف ، والخلف ، فإن أهل الحمية الدينية ، والمحافظين على الشريعة كلما رأوا كلاماً لأحد يعارض السنة ونصوص الشريعة ، ويتنافىٰ مع عقائدهم القطعية المتواترة ، تصدوا للردِّ عليه ، ولم تَحُل دون ذلك عظمةُ صاحب ذلك الكلام ، وشهرتُه ، ولا آثار ولايته وقبولهِ العام ، وذلك لأن حُرمة الشريعة ، وعظمةَ مكانة النبوَّة فوق كلِّ حرمة وعظمة ، وإن الشيخ السرهندي نفسه لم يستطع أن يضع حَدّاً على حماسه العُمري ، وسَوْرَة حمِيَّته الدينية ، وتصدَّىٰ للرد على مثل هذه الأقوال بكل

(١) مجموع رسائل: رقم ٢٦٦، ج١.

(٢) جلاء العينين: للعلامة خير الدين نعمان ابن العلامة محمد الآلوسي ، ص٤٣ ـ ٤٤.

قوة ، أخبره أحد العلماء المعاصرين مرة: أن الشيخ عبد الكبير اليمني يعلم غيبَ الله تعالىٰ ، فردَّ عليه قائلاً:

«يا سيِّدي! إن هذا الفقير لا يحتمل أن يسمع مثل هذه الترهات ، فإن العِرْق العُمري الذي ورثته عن آبائي ينبض ، ويثور ، ويفور فيَّ ، ولا يتركني أن أؤوِّل مثل هذا اللغو من الأقوال ، وإنْ كان الذي يقوله الشيخ عبد الكبير اليمني ، أو الشيخ الأكبر الشامي ، إنَّ الحجة في كلام سيدنا محمد العربي (عليه وعلىٰ آله الصلاة والسلام) ، لا في كلام محيي الدين ابن عربي ، وصدر الدين القونوي ، وعبد الرزاق الكاشي ، إنما يَعنينا النصُّ [١] لا الفصُّ [٢] ، وقد أغنَتْنا الفتوحات المدنية [٣] عن الفتوحات المكيَّـة» [٤].

هذه الحميةُ والغيرةُ ، وهذا الاختلاف والإنكار ، ذلك الذي لا ينبعث إلا من الحمية الدينية ، والانتصار للكتاب والسنة ، وإيثار جانب الله والرسول ﷺ على كل شيء سواهما ، وهذا الحُب الخالص لمن يستحق الحب والاحترام ، ليس كُلُّ ذلك ما يُعَدُّ من المعائب ، إنما يجدر أن يعتبر ذلك من أفضل المناقب ، وأعلىٰ الفضائل؛ إذ إنه مصداق كامل لما صح من حديث:

«ثلاثٌ مَنْ كَنَّ فيه وجد بِهِنَّ حلاوة الإيمان ، مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، ومَن أحبَّ عبداً لا يحبه إلا لله ، ومَن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أنِ يُلْقَىٰ في النار» [٥].

---

(١) يريد به نصوصَ الكتاب والسنة.

(٢) يشير إلى كتاب الشيخ محيي الدين بن عربي المعروف بـ «فصوص الحكم».

(٣) يريد بها تعاليمَ الكتاب والسنة.

(٤) كتاب الشيخ محيي الدين ابن عربي المعروف بـ«الفتوحات المكية».

(٥) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، برقم (١٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن. . . ، برقم (٣٤) والترمذي في أبواب الإيمان ، باب حديث «ذاق طعم الإيمان» برقم (٢٦٢٤) ، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٢٧/٦) برقم (١١٧١٨) ، وأحمد في المسند (١٠٣/٣) برقم (١٢٠٢١) وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه].

٨ ـ وأُصيبت طائفةٌ بسوء ظنٍّ كبيرٍ به ، ومغالطات كثيرة في بابه ، فقد نسبَ إليه بعض المؤلِّفين الحاقدين عليه أقوالاً تُوجب الكفر ، وِفقاً لمذاهب الجمهور ومعتقدات أهل السنة العامة ، كما نُسبت إليه أقوال أخرىٰ تحط من شأن صاحب النبوة العظمىٰ ، وتسيء إليه (أعاذنا الله وجميع المسلمين منها).

ولم يكن ابنُ تيمية وحده هدفاً لهذه المعاملة الشنيعة ، بل تناول المعاندون رجال الأمة الآخرين أيضاً بهذه المؤامرة الدنيئة ، إنهم لم يكتفوا بنسبة تلك الأقوال ، والعقائد التي كانوا أبرياء منها ، بل زادوا في مؤلَّفاتهم من المواد التي تستوجب الكفر ، والضلال.

وتقدَّموا خطوة زائدة ، فألفوا كتباً بذاتها ـ مشتملة على مواد الكفر ـ ونسبوها إليهم ، جاهدين في نشرها على أوسع نطاق ، هكذا عُومِل حجَّة الإسلام الإمام الغزالي من قِبل معارضيه ؛ إذ أنَّ جماعةً كبيرةً من العلماء تعتقد أن الكتب التالية: «المضنون به على غير أهله» و«المضنون به على أهله» و«معراج القدس» «ومشكاة الأنوار» منحولة إليه ، فعلَ ذلك أعداؤُهُ وحُسَّاده ، ويقال: إن بعض مؤلفات الشيخ محيي الدين ابن عربي دسَّ فيها مواد وآراء تُخالف مبادىء الإسلام ، وما ثبت بالضرورة في الإسلام ، كما يقول الإمام الشعراني ، وقد جرب هو نفسه في كتبه أيضاً قصة تثير الاستغراب والدهشة ، يقول في «الأجوبة المرضية»:

«لقد ألحَقَ بعضُ الحسَّاد إلى كتابي «البحر المورود في المواثيق والعهود» زياداتٍ كانت تعارض الشريعةَ ، وتولَّوا إشاعتها في الجامع الأزهر وغيره ، حتىٰ نجمتْ بذلك فتنة ، وهنالك اضطررت إلى أن أقدم النسخة الصحيحة الأصلية من كتابي إلى العلماء ، فكتب عليه كبار العلماء ، ومشايخُ الإسلام تزكية وتصديقاً ، ومن ثَمَّ اطلعوا على حقيقة تلك الزيادات التي كان قد ألحقها الحسَّاد إلى كتابي ، وماتت الفتنة».

ولا شكَّ أن المعاملة القاسية التي لقيها ابن تيمية من بعض المعاصرين ، والمتعصبين تؤكد أن كثيراً من أقوال الكفر والعبارات التي يستدل بها على

الإساءة إلى مقام الرسالة العظمىٰ ، وقلة الأدب معه (أعاذ الله شيخ الإسلام وجميع المسلمين منها) ، مما حمل كثيراً من المخلصين والعلماء ذوي حميَّة دينية على معارضته ، بل على تكفيره ، وضلالته.

وقد غالت طائفةٌ من معارضيه وأعدائه في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع إلى حدٍّ أنها أصدرت فتوىٰ بأنَّ من يُسمي ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر [(١)] ، فألَّف حافظ الشام شمس الدين الشهير بـ«ابن ناصر الدين» الشافعي (م ٨٤٢) رداً على هذه الفتوىٰ ، وإثباتاً لفضل شيخ الإسلام ابن تيمية ، وعظمته ، وإمامته ، وبراءته من هذه الأقاويل كتابه الشهير «الردُّ الوافر على من زعم أن من سمَّىٰ ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر» [(٢)] ، جمع فيه شهادات من ٨٧ عالماً وإماماً وآراءهم وانطباعاتهم واعترافاتهم بعظمته وإمامته ، وقدَّم لهذا الكتاب الحافظُ ابن حجر العسقلاني والعلامة العيني ، وأفاضا في الثناء على ابن تيمية وتأييده ، وأبديا أنه كان صحيحَ العقيدة ، وسنيَّ المذهب ، وشيخَ الإسلام بلا نزاع ، حتىٰ إن العلامة بدر الدين العيني قال فيما كتب «من نَسبه إلى الزَّندقة؛ فهو زنديق ، وقد سارت تصانيفُه إلى الآفاق وليس فيها شيءٌ مما يدل علىٰ الزيغ والشقاق».

بيد أنَّ هذه المؤامرة على ابن تيمية ظَلَّت مستمرةً ، ولم تزل طائفةٌ من

---

(١) يتقدَّم هذه الطائفة الصغيرة الشيخ محمد بن محمد البخاري المشهور بعلاء البخاري، ولد سنة ٧٧٩هـ، وتوفي ٨٤١هـ، كان فقهياً حنفياً ، ولد بإيران ، ونشأ ببخارى ، ورحل إلى الهند ، ثم إلى مكة ، ومصر ، وأقام بهما طويلاً ، ثم انتقل إلى دمشق ، ومات فيها، وكان شديد الإنكار على ابن تيمية ، وعلى الشيخ محيي الدين ابن عربي في وقت واحد، وألف في الأخير كتاباً أسماه «فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين».

(٢) صدر هذا الكتابُ في مجموعة ألَّفها ورتَّبها فرج الله زكي الكردي، واهتم بطبعها الشيخ عبد القادر التلمساني في مطبعة كردستان العلمية في مصر عام ١٣٢٩هـ، وقد أصدر المكتب الإسلامي في بيروت طبعة جميلة منقحة بتحقيق صديقنا الفاضل الأستاذ زهير الشاويش مع حواش مفيدة وفهارس عديدة سنة: ١٣٩٤هـ، فكان عملاً مشكوراً، والكتاب أثمن ذخيرة تحتوي على حياة الشيخ وسيرته (المؤلِّف).

الناس تنسب إليه أقوالاً لم تكن تمتُّ إليه بصلة ، وتناقلها الناسُ مما أثار العواطف خلافه ، وجعل الناس يُخالفون بكتاباتهم ، وكان في مقدِّمتهم عالم القرن العاشر ومؤلِّفه الشهير العلامة ابن حجر الهَيْتَمِي المكِّي (١) ، الذي أصدر فتاوى قاسية على ابن تيمية ، تضمَّنت كلمات نابية مثلاً «عبدٌ خذلهُ الله تعالىٰ ، وأضلَّه ، وأصمَّه ، وأذلَّه».

ولكنَّ عبارة الفتوىٰ نفسها تدل على أن العلامة ابن حجر نفسه لم يطلع على كتبِ ابن تيمية ، وأن معلوماته لم تكن مباشرة وشخصية ، إنما كان جُلُّ اعتماده في ذلك على تلك النقول ، والإشاعات التي تولىٰ إشاعتها ، وترويجها بين الناس معارضوه ، ودسوها في كتبهم ومؤلفاتهم ، وتحدَّثوا عنها في مجالسهم في ذلك العصر ، إنه يقول في نفس الفتوىٰ بعد ما يَنقل تفرُّدات ابن تيمية الفقهية ، والكلامية : «وقال بعضهم : ومَن نظر إلى كتبه لم ينسب إليه أكثر هذه المسائل» ويُبدي شكَّه في آخر الفتوى بقوله : «فإنْ صحَّ عنه مُكَفِّر ، أو مبدِّع ؛ يعامله الله تعالىٰ بعدله ، وإلا يغفرُ الله لنا وله».

وقد قام بالردِّ على هذه الفتوىٰ والمحاكمة بين ابن حجر وابن تيمية العلاَّمةُ خير الدين نعمان الآلوسي ابن العلاَّمة محمود الآلوسي صاحب «روح المعاني» في كتابه القيم «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» ، وردَّ على العلاَّمة ابن حجر بتفصيل ، وأثبت : أنَّ جزءاً من هذه المنقولات زُورٌ ، وافتراء محض ، لا أساس له ، فإن كتب شيخ الإسلام ابن تيمية تتضمن بياناً وتصريحاً تعاكس هذه المنقولات ، وتضادها تماماً ، وإنَّ جزءاً خفيفاً جداً من هذه المنقولات

---

(١) [وُلد عام ٩٠٩هـ في مصر ، وتوفي سنة ٩٧٣هـ بمكة المكرمة، وأشهر كتبه «تحفة المحتاج» أربعة أجزاء و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» و«الصواعق المحرقة» و«الفتاوى الفقهية والحديثية»، وابن حجر المكي هذا غير العلامة ابن حجر العسقلاني صاحب «فتح الباري» ومتأخر عنه، إن ابن حجر العسقلاني إمام شهير في الحديث ومحقق بالغ النظر، يتعذر نظيره في المتأخرين، ولا يدانيه ابن حجر المكي في العلم وسعة النظر ورحابة الصدر والتحقيق].

يحتاج إلى تفصيل؛ إذ أنه لا يتحدث عن الحقيقة التي بينوها، أو أن ابن تيمية لا يتفرد فيه وحده كما أنه جمع في هذا الكتاب ذخيرةً قيمةً من سيرته وأحواله [١].

ولقد ظلَّ العلماءُ المحقِّقون، والمؤلفون من العلماء المنصفين، وواسعي النظر يُعارضون ابنَ حجر المكِّي في هذا الموضوع، ويُبرئون ابن تيمية، ويعترفون بنبوغه، وعلو مكانته في رسائلهم ومؤلفاتهم، حتى إن تلميذ ابن حجر المكي العلامةُ نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المشهور بالمُلاَّ علي القاري [٢] يعارض آراءَه في ابن تيمية، فإنه يُثني عليه في مؤلفاته ثناء بالغاً، يقول في «شمائل الترمذي» و«المرقاة شرح المشكاة»:

«ومَن طالع شرح «منازل السائرين» تبين لهُ: أنَّهما[٣] كانا مِن أكابر أهل السنة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة».

وقد تصدَّرَ في آخر الزمان إمامَ المتأخرين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله الدَّهلوي بالدفاع عن ابن تيمية بكل قوّةٍ، وصرح بأنه لم يكن عالماً سني العقيدة، وسلفي المذهب فحسب، بل كان شارحاً كبيراً، ومناضلاً قوياً عن الشريعة الإسلامية، وخادماً مخلِصاً للكتاب والسنة، وعالماً جليلاً أتحفَ الله به الأمة المحمدية، كان من نوادر الزمان ممن لا يجودُ

---

(١) طُبع هذا الكتاب في مطبعة بولاق بمصر عام ١٢٩٨هـ، بالحروف الحديدية الدقيقة ويقع في ٣٦٢ صفحة.

(٢) [كان مِن أهل هرات (أفغانستان) ويعتبر من أكابر العلماء الحنفية في عصره، سافر إلى مكة المكرمة حيث توطّن، وكان من علماء المناسك، والفقه، والحديث البارزين، اشتهر من بين مؤلفاته «المرقاة شرح المشكاة» و«شرح الفقه الأكبر» و«شرح الشفاء» و«شرح شمائل الترمذي» و«شرح النخبة» و«شرح الشاطبية» و«شرح الجزرية» و«خلاصة القاموس» وما إلى ذلك، كانت له قدم في التصوُّف أيضاً، توفي عام ١٠١٤هـ، وصلَّت عليه جماعةٌ كبيرةٌ صلاة الغائب في الجامع الأزهر بمصر].

(٣) [أي: الإمام ابن تيمية، وتلميذه النابغ العبقري: الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمهما الله].

به الدهر إلا بعد قرون ، والذين عارضوه ، وتعقبوا عليه لم يبلُغوا معشار ما آتاه الله من العلم العميق ، والنظر الدقيق.

يقول عنه الشيخ الدَّهلوي تعديلاً لعلماء الإسلام ، وحملة الكتاب والسنة ، ومستشهداً بالحديث الشهير : «يحمل هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عُدوُله»[(١)] :

«وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فإنا قد تحققنا من حاله : أنه عالم بكتاب الله ، ومعانيه اللغوية ، والشرعية ، وحافظ لسنَّة رسول الله ﷺ ، وآثار السلف ، عارفٌ لمعانيهما اللغوية والشرعية ، أستاذ في النحو واللغة ، مُحرِّرٌ لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله ، فائقٌ في الذكاء ، ذو لسان وبلاغة في الذَّبِّ عن عقيدة أهل السنة ، لم يُؤثَر عنه فِسقٌ ، ولا بدعةٌ ، اللهم إلا هذه الأمور التي ضُيِّق عليه لأجلها ، وليس شيءٌ منها إلا ومعه دليلُه من الكتاب ، والسنة ، وآثار السلف ، فمثلُ هذا الشيخ عزيز الوجود في العلم ، ومن يُطيق أن يلحق شأوه في تحريره وحديثه ، والذين ضيَّقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى ، وإن كان تضييقه ذلك ناشئاً من اجتهاد ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ، وما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما بينهم ، والواجب في ذلك كَفُّ اللسان إلا بخير»[(٢)].

---

(١) [أخرجه أبو القاسم الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه في «سنن الشاميين» (١/ ٣٤٤) برقم (٥٩٩) ، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٤٠): رواه البزار ، وفيه عمرو بن خالد القرشي ، كذَّبه يحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، ونسبه إلى الوضع].

(٢) هذه العبارة جزء من رسالة وجهها الشيخ الدهلوي إلى أحد معاصريه المخدوم معين الدين تَهْتَهْوِي (تهتهة مدينة بولاية السند). رداً على رسالة له. وقد كان صاحب هذه الرسالة وجه إلى الشيخ الدهلوي بعض الأسئلة حول تفردات ابن تيمية، مشيراً إلى خلافات معارضيه ، وطلب منه أن يبدي رأيه في ابن تيمية، وقد تولىٰ تلميذ الشيخ الدهلوي ومسترشده الشهير الخواجه محمد أمين الكشميري تدوين مجموعة لرسائله، طبعت في المطبعة الأحمدية باسم «مناقب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وفضيلة ابن تيمية» وتوجد نفسُ هذه العبارة المذكورة لرسالة الشيخ الدهلوي في «جلاء العينين» أيضاً.

وبَعد هذه التزكية والشهادة من شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي، وثنائِهِ البالغ على ابن تيمية لا يقام أيُّ وَزنٍ لنقدٍ أو جَرحٍ يصدران من عالم، أو مؤلف لا يبلغ إلى آفاق ابن تيمية العلمية والفكرية، وإنّ كلام الشيخ الدَّهلوي الذي كان قد أكرمه الله بالتبحُّر العلمي، وتنوع الفضائل، والفكر المجتهد، وملكة الاعتدال، والاتِّزان، وميزة المعرفة لمكانة علماء الإسلام وقيمتهم لهو القولُ الفصل في هذا الموضوع، ولا أحَدَ يُجيد الدفاع، والقول أحسنَ مِن هذا.

* * *



الفصل السابع

شيخُ الإسلام ابنُ تيمية
كعارف بالله ومُحقِّق

اكتِشافٌ جَديد في شَخصية ابنِ تيمية:

عُرف شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ بوجه عام ـ كعالم متكلم ، وفقيهٍ جدليٍّ ، ومُحدِّثٍ كبيرٍ ، ولا يَتخيَّله الدارسون لكتاباته العلمية ومؤلفاته الجدلية أكثر من أنه كان عالماً ذكياً ، واسعَ العلم ، قوي الحجة ، غزير المادة .

والذين عرفوه عن طريق التراجم التي كتبها عامة المؤرِّخين ، أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمنتسبين إليه [(١)] لا يرون فيه شيئاً أكثر من محدِّث جافٍّ ، وعالم متبحر في العلوم الظاهرة .

أمَّا ما ذكره الحافظ ابن قيم الجوزية في «مدارج السالكين» من أحواله وأقواله بمناسبات شتّى ، وكذلك ما ذكره العلامة الذهبي وأمثاله في ترجمته ، من أخلاقه وأذواقه ، وعاداتِه وشمائله ، وأشغاله وأعماله ، فيدلُّ دلالةً

---

(١) عدا تلميذه النجيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذي بحث عن ناحية أستاذه الروحية الباطنة؛ في كتابه «مدارج السالكين» شرح «منازل السائرين» لشيخ الإسلام الهروي، وأثبت فيه أن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانا يحتلان مكاناً عالياً في المعرفة والروحانية، والذوق الباطني.

واضحةً على أَنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية يستحقُّ كلَّ الاستحقاق أن يُعدَّ من العارفين ، ورجالِ الله في هذه الأمة ، وهنالك يَنشرح كلُّ صَدرٍ للاعتراف بأنه كان يتبوأ تلك المكانة ، ويتمتع بجميع تلك الغايات التي لا تتيسّر ـ بوجه عام ـ إلا برياضات شاقة ، ومجاهدات طويلة ، وتربيةِ أئمة الفن ، ودوام الذكر والمراقبة ، وذلك ما يُعبِّر عنه الصوفية المتأخرون بالنِّسبة مع الله [١] ، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

تَنوُّعُ الوسائل ، ووَحدة الغاية:

ولا يخفى على أصحاب البصيرة: أنَّ الذوق والمعرفة ، والإيمان الحقيقي ، واليقين ، والإخلاص ، والاستقامة ، وتَزكية الباطن ، وتهذيب الأخلاق ، والاتباع الكامل للسنة ، والتفاني في الشريعة غاياتٌ حقيقيةٌ مقصودةٌ ، تُتخذ لأجلها وسائل مختلفة ، وطرق متعددة ، ولا يقصُر المحققون اكتسابها على طريقة واحدة ، وقد كان الطريق القويُّ المؤثِّر للحصول على هذه الغايات في فجر تاريخ الدعوة الإسلامية صحبة النبي ﷺ؛ التي لا يَجهل تأثيرها وقُوَّتها أحدٌ.

ولمَّا حُرمت أمةُ الإسلام هذه النعمة؛ قام خلفاء النبوة ، وأطباء هذه الأمة في عصورهم بطريقة تَنوب عنها ، وأخيراً ركزوا جُلَّ عنايتهم لأسباب مختلفة على الصحبة وكَثرة الذكر ، ولها طريقةٌ مدونة مُنقَّحة تُعرف بنظام التصوف والسلوك.

غير أنه لا مَساغ لإنكار ، أن الحصول على هذه الغايات ، والمقاصد لا يَتوقف على هذه الوسائل ، فإن الإيمان والاحتساب ، ومحاسبة النفس ، وتتبع السنة ، والاشتغال بكتب السنة ، والشمائل درساً وتدريساً ، وخِدمة ونشراً مع الحُب ، والإجلال ، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ ، وخدمة الخلق ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة والتبليغ بصدقِ النية

---

(١) يعني الصلة الروحية بالتدين.

والاحتساب ، كلُّ ذلك ـ عدا الاجتباء والموهبة التي يخص بها بعض الأفراد ـ سببٌ للتقرب إلى الله ، وحصـول النسبة معـه؛ إذا صدر عن إيمان واحتساب ، وحُضورٍ ، واهتمام.

ولا مانعَ عن أن تكون الوَسائلُ مختلفةً ، والطرق متعددة ، فإن الغاية واحدةٌ ، ولا شك أنَّ جُملة أحوال شيخ الإسلام تدل بوضوح على أنه كان يتمتع بهذه الغاية ، وذلك ما أُريد إيضاحَه في السطور التالية:

مِيزانُ كَمال الإنسان ، وآيَةُ بلوغه درجةَ الولاية والتحقيق:

ونَستطيعُ أن نَشهدَ لرجلٍ بأنه كان من العارفين والمحقِّقين الكاملين ، وممَّن وضعَ الله لهم القبول نظراً إلى الأحوال والأذواق ، والعادات التي عاش فيها ، ولا يكونُ له مقياس ظاهرٌ أو دليلٌ منطقيٌ ، وقد يُخطىء من رُزق سلامة الفطرة ، وصفاء الذوق؛ لكثرة ما يدرسُه من أحوال العارفين ورجال الله ، ويَلزم صُحبتهم بملكةٍ ، ووجدان ، يتمكَّن بهما من الحكم في ذلك.

ولكنْ هناك علامات وأحوالٌ يُدرك بها: أن مستوى هذا الرجل الديني أرفعُ من مستوى عامة الناس ، وهو يتمتع بأخلاق رجال الله ، وأذواقهم ، وفهم الدين الصحيح مُثَلاً ، وذوقٌ خاص للعبودية ، والإنابة إلى الله ، وتذوُّق العبادة ، والانهماك فيها ، ولذة الدعاء ، والابتهال ، والزهد ، والانقطاع عن الدنيا ، وازدرائها ، وسجية السخاء ، والإيثار ، والتواضع وهضم النفس ، والسكينة والسرور ، والكمال في اتباع السنة ، والقبول في الصالحين ، وشهادة العلماء له ، وتصلُّب أتباعه ومحبيه في الدين ، وحسن سيرتهم ، وما إلى ذلك.

وبهذه المناسبة ننقل للقرَّاء شهاداتِ معاصري شيخ الإسلام ، وما سجَّله المؤرِّخون في كتبهم عن هذه القسمات التي سبق ذكرها.

ذَوقُه في العبودية والإنابة إلى الله:

إنَّ الذوق الحقيقي الصحيح للعبودية والإنابة إلى الله شهادة جليةٌ على أن قلبَ صاحبه عامرٌ باليقين ، ومغمور بجلال الله وكبريائه ، ومُنوَّر بمشاهدة قُدرة

الله سبحانه وتعالى وجلاله ، وبشعور العجز والضعف أمامه ، وحينما يَرسخ هذا اليقين والمشاهدة في الباطن؛ يتجلّى ذلك في الأعمال والألفاظ ، والفرق بين الحقيقة والصناعة في ذلك كالفرق بين الأصل والنقل ، وهو لا يخفى على صاحب البصيرة والوجدان ، وقد قال الشاعر العربي :

. . . . لَيْسَ التَّـكَحُّل في العَينينِ كالكَحَل

والأَحوالُ التي عاش فيها شيخ الإسلام ابن تيمية تشهد بأنه كان مُتحلِّياً باليقين والمشاهدة ، التي بَعثتْ فيه صفةً من الافتقار والاضطرار ، والعبودية والإنابة .

وقد رُوي أنه إذا أشكلتْ عليه مسألة أو صَعُب فهمُ آية؛ التجأ إلى مَسجد مهجور، ووضع جبهته على التراب، وردد قوله : «يا معلِّم إبراهيم! فهِّمني»[١] .

يقول العلاَّمةُ الذَّهبي :

«لم أرَ مثلَه في ابتهاله ، واستغاثته ، وكثرة تَوَجُّهه» ويقول : «إنه ليقف خاطري في المسألة ، أو الشيء ، أو الحالة التي تُشكل عليَّ ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة ، أو أكثر ، أو أقل ، حتى يَنشرح الصدر ، وينجلي إشكال ما أشكل» .

ولا يَحُول دون هذه الحالة نوعٌ من الجَلوة ، والمجالس ، وصَخب الأسواق يقول :

«وأكونُ إذ ذاك في السوق ، أو المسجد ، أو الدروب ، أو المدرسة ، لا يمنعني ذلك من الذكر ، والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي»[٢] .

وعندما ينشأ هذا اليقينُ ، وذَوقُ العبودية في النفس ، ويتمكن في الباطن يَشعر الإنسان بعجزه ، وافتقاره ، وضَعْفِهِ ، وقِلة بضاعته ، ويتمثل كأنه واقف

(١) العقود الدرية : ص٦ .
(٢) الكواكب الدرية : ص ١٤٥ .

على الباب الملكي بكَشكُوله [١] الفارغ ، ويستَجدي من الله رحمته ، وفضله .

وحياةُ ابن تيمية ، وما ذُكر له من أحوالٍ ، وأقوالٍ ، ومواقفَ تشهد بأنه كان يَنعم بنِعمة الفقر ، وعزة التذلُّل .

يقول ابنُ القيم : «إنَّني لم أشاهد هذه الحالة عند أي شخص بمثل ما شاهدته في شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد كان يقول: «مالي شيءٌ ولا مِني شيءٌ ، ولا فيَّ شيءٌ» ، وطالما كان ينشد البيت التالي :

أنــا المُكَــدِّي وابــن أَلْــمُكَــدِّي وهكــذا كــانَ أبــي وجَــدِّي» [٢]

تَذوُّق العبادة ، والانهماكُ فيها:

لا يستطيع أَيُّ إنسان أَن يتذوق العبادة ، وينهمك فيها ما لم يشعر بلذَّتها ، وَيَذُق طعمها [٣] ، وما لم تحتل العبادة محلَّ الدواء ، والغذاء ، والقوت ، ويصل إلى درجة تصبحُ الصلاة فيها لعينهِ قُرَّةً ، ولروحه مسرةً .

أمَّا الشيخ ابن تيمية فيشهد معاصرُوه والمطَّلعون على أحواله بأنه كان له القدح المعلَّىٰ في هذه الثروة الغالية ، وكان له ذوق خاص في العبادة ، والمناجاة والخلوة ، وكان شديد الشغَف بهذه الناحية ، عظيم الانهماك فيها .

جاء في «الكواكب الدرية» :

«وكان في ليلهِ منفرداً عن الناس كلِّهم ، خالياً بربه عز وجل ، ضارعاً إليه ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، مُكرراً لأنواع التعبدات الليلية ، والنهارية ،

---

(١) وعاء المتسوِّل الذي يجمع فيه رزقه.

(٢) مدارج السالكين: ج١ ص ٢٩٦، طبعة «المنار».

(٣) [وقد ورد في الحديث: «جعلت قـرَّة عيني في الصلاة» (أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٢٠) برقم (١٠١٢) عن المغيرة بن شعبة ، وفي الصغير (٢/ ٣٩) برقم (٧٤١) عن أنس بن مالك) وكان النبي ﷺ يقول: «يا بلال! أقم الصلاة أرحنا بها» (أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة ، برقم (٤٩٨٥) ، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٦) برقم (٦٢١٤) وغيرهما من حديث مسعر)].

وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يَمنـةً وَيسرةً» [(١)].

ولا شكَّ في أنَّ قـوت أصحـاب الـذوق ، وأهـل القلوب ونشاطهم ، إنمـا يقوم على الذكـر والعبـادة ، فإذا اختـلَّ ذلك؛ انهـارت قُواهـم ، ويشعرون كأنهم أصيبوا بفاقة ، يقول ابنُ القيم :

«وكان إذا صلَّى الفجرَ يجلس في مكانه ، حتى يتعالى النهار جداً ، يقول هذه غَدوتي لو لم أتغدَّ هذه الغدوة سقطت قواي» [(٢)].

ويَرزقُ الله سبحانه وتعالى الاستقامة بعد هذا الذوق والاهتمام ، فيصبح الذكرُ والعبادة ، والمواظبةُ عليهما طبيعةَ الإنسان.

يقول العلامةُ الذهبي : «له أورادٌ وأذكارٌ يُدمنها بكيفية ، وجَمعية» [(٣)].

الزُّهدُ في الدنيا ، وازْدِراؤُها:

لا يَنبعثُ الدافع الصحيح الخالص للزُّهد في الدنيا وازدرائها ما لم تنكشف حقيقةُ الدنيا بوضوح ، وما لم يطرأ على المرء حال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الشورى: ٣٦]، وذلك لا يتحقق بدون اليقين ، والمعرفة الصحيحة ، والاتصال بالله.

وقد ذكر مُعاصروه أحوال زُهدَ شيخ الإسلام وتجرده من الدنيا ، وافتقاره إلى الله.

يقول زميلُه في الدراسة ومعاصره الشيخُ علم الدين البِرْزالي المتوفى سنة ٧٣٨ هـ: «وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر ، والتقلُّل من الدنيا ، وَردِّ ما يُفتح به عليه» [(٤)].

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٦.
(٢) الرد الوافر: ص ٣٦.
(٣) المرجع السابق: ص ١٨.
(٤) المرجع السابق: ص ٦٥.

ومَن انصبغ بهذه الصبغة ، ورَزقه الله نِعمة غنى القلب الخالدة؛ تلاشت في عينه مملكة كسرى ، وقيصر ، ورأى النظر إليها كفراناً بنعمة الله تعالى ، وجحوداً لِمِنَّتِهِ ، وهو ينشد في نشوة الحب والمعرفة ما معناه:

«إنَّني لا أرضى بإعطاء مُسوحي عوضاً عن حالة الملوك ، ولا أرضى ببيع فقري بملك سليمان ، إنَّ الثروة التي نِلتها في آلام الفقر لن أرضى باستبدالها بتنعُّم الملوك».

ومَن جَهِلَ حالَه يُسيء به الظن ، ويتَّهمه بالطمع في الملك ، والحكم ، ولكنه يتأسَّف على جهله وفساد ذوقه ، ويقول: «كيف يمكن النظر إلى هذا المُلْكِ الفاني بعد هذه الثروة الغالية ، والنعمة الخالدة؟».

وقد كانت هذه قصةُ الشيخ ابن تيمية ، فقد قال له الملك الناصر ذات مرة: سمعتُ بأن الناس أطاعوك ، وأنت تفكر في الحصول على المُلْكِ ، فردَّ عليه الشيخ قائلاً بصوت عالٍ سمعه الناس الحاضرون كلُّهم:

«أنا أفعل ذلك؟! والله إنَّ مُلكَك وملك المغول لا يساوي عندي فلساً!» (١).

السَّخاء والإيثار:

وممَّا يتصف به رجالُ الله ، والعاملون بالسنة النبوية بصفة خاصة ، هو السَّخاء ، والإيثار ، وقد بسطَ الحافظ ابن القيم الكلام في أسباب شرح الصدر في كتابه: «زاد المعاد» وذكر ما للإحسان إلى الخَلْق ، ونفعهم بالمال والجاه ، والبدن من التأثير العميق في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب (٢).

وقد اعترفَ معاصروه ، وأَحِبَّته بسخائه ، وأثنوا على جوده ، وإنفاقه ،

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٦٦.
(٢) راجع زاد المعاد: ج٢ ص ١٥٤ـ طبع المطبعة المصرية.

وقد جاء في «الكواكب الدرية»: «وهو أحد الأجواد الأسخياء؛ الذين يُضرب بهم المثل»[(١)].

ويتحدَّث الحافظُ ابن فضل الله العُمري، أحدُ معاصري الشيخ عن جُوده وسخائه، فيقول: «كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام، والحرث، فيهبُ ذلك بأجمعه، ويَضعهُ عند أهل الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيئاً إلا ليَهبه، ولا يحفظه إلا ليُذهبه»[(٢)].

وقد بلَغَ من السخاء والإيثار أن كان يَخلع ما كان عليه من ثياب، ويُقدِّمها إلى السائل إذا لم يجد شيئاً آخر، يقول الحافظُ ابن فضل الله: «كان يتصدَّق، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه، فَيَصِلُ به الفقراء»[(٣)].

ويقول أحدُ الرواة: «وكان يتفضَّل من قوته الرغيفَ، والرغيفين، فيؤثر بذلك على نفسه»[(٤)].

ومِن مواقف الإيثار المُحرجة أن يعامل المرءُ أعداءه ومعارضيه برحابة الصدر، بل بالعفو عنهم، والإحسان إليهم، وفوق ذلك بالدعاء، والنصح، وهذا منصبٌ خطيرٌ لا يناله إلاَّ من تجاوز حدودَ الكبر، والأنانية، ونسي نفسه، وأنعم الله عليه بنعمائه، ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كل عِداء، ومعارضة، فيجدُ قلبه عامراً بدافع النصح، والرِّثاء لأعدائه.

وقد سبقَ أنه عندما أُطلق سراحه في سنة ٧٠٩ هـ مرة أخرى خلا به السلطان، واستفتاه في قتلِ أولئك القضاة الذين قاموا بحمايةِ «جاشنكير» وأفتوا بعزل السلطان، وزاد له السلطان قائلاً: إنهم أثاروا عليك الضَّجة، والأقاويل، وآذَوك، فما وسع ابن تيمية إلا أن مَدحهم، وأثنى عليهم أمام

(١) الكواكب الدرية: ص ١٤٦.
(٢) المرجع السابق: ص ١٥٨.
(٣) المرجع السابق: ص ١٥٧.
(٤) المرجع السابق: ص ١٥٧.

السلطان، وشفع لهم بالعفو، والصفح عنهم، ومَنَعه عن قتلهم.

وقد مدحه القاضي ابنُ مخلوف المالكي الذي كان من أشد معارضي شيخ الإسلام ومنافسيه، بقوله: «ما رأيتُ كريماً واسعَ الصدر مثل ابن تيمية، فقد أثرنا الدولة ضدَّه، ولكنَّه عفا عنَّا بعد المقدرة، حتى دافع عن أنفسنا، وقام بحمايتنا».

يقول تلميذُه النجيب، ورفيقه في كلِّ آنٍ[1]: «كان يدعو لأعدائه، ما رأيتُه يدعو على واحدٍ منهم، وقد نَعيتُ إليه يوماً أحد معارضيه الذي كان يفوق الناس في إيذائه، وعدائه، فزجرني، وأعرض عني، وقرأ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وذهب لساعته إلى منزله، فعزَّى أهله، وقال: «اعتبروني خليفةً له، ونائباً عنه، وأساعدُكم في كل ما تحتاجون إليه، وتحدث معهم بلطفٍ، وإكرام بعثَ فيهم السرور، فبالغ في الدعاء لهم حتى تعجَّبوا منه».

إنَّ مكانة العفو، والإحسان، والشفقة، والرحمة مع الأعداء أرفع، وأسمى من مكانة الإيثار المالي، والمادي بكثير، إنها مكانة لا يَسعَدُ بها إلا الأولياء، والصديقون، وقد كان لابن تيمية قدم راسخة في هذه المكانة، وكأنه كان يُنشد بلسان حاله ما أنشده الشاعر الربَّاني الذي سَعد بهذه المكانة بالفارسية وهذا معناه:

«إنَّ مَن ضاق صدره عن مودَّتي، وقَصُرَتْ يدُهُ عن معونتي؛ كان الله في عَونه، وتولى جميع شؤونه.

وإن كل من عاداني، وبالغ في إيذائي لا كدّر الله صفو أوقاته، ولا أراه مكروهاً في حياته.

وإن كل من فرش الأشواك في طريقي، وضيَّق عليَّ السبل؛ ذُلل له كل طريق، وحالفه النجاح والتوفيق».

---

(١) [أي: الحافظ ابن قيِّم الجوزية].

التَّواضُع وهَضْمُ النَّفس:

إنَّ التواضع وهَضْمَ النفس من خصائص رجال الله الخاصة ، وهو المنصِب الأعلى في الدين ، أفضلُ من ألف فضيلة وألفِ كرامة ، ولا يبلغ الإنسانُ هذه المنزلة ، إلا أن تموت الأنانية ، ويتزكّى قلبهُ من جميع الشوائب والعلائق ، وقد كان شيخ الإسلام مُتحلياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية ، وسُموِّه الديني ، والعلمي ، وأقوالُه تشهد بما كان يتصف به من التواضع ، والربانية ، وهضمِ النفس.

يقول الحافظ ابنُ القيم: إنه كثيراً ما كان يقول: «مالي شيء ، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء». وإن مدَحه أحدٌ في وجهه ، قال: «والله إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كل وقت ، وما أسلمتُ بعد إسلاماً جيداً» [(١)].

وقد يقول لمَن مدحه: «أنا رَجل مِلَّةٍ ، لا رجل دولةٍ» [(٢)].

وإذا بلغ الإنسانُ إلى هذه المنزلة من العبودية ، وهضم النفس لا يرى له حقاً على أحد ، ولا يُطالبه بشيء ، ولا يعاتب أحداً ، ولا ينتقم لنفسه في أيِّ حال ، وقد بلغ به الله هذه الدرجة.

يقول ابن القيم:

«سمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: «العارف لا يَرى له على أحد حقاً ، ولا يشهدُ على غيره فضلاً ، ولذلك لا يُعاتب ، ولا يطالِب ، ولا يضارب» [(٣)] ويَعلَم المطَّلعون على أحواله جيداً: أنه في ذلك إنما يتحدَّث عن نفسه ، ويحكي حاله».

---

(١) مدارج السالكين: ج١، ص ٦٩٦.

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٦٤.

(٣) مدارج السالكين: ج١، ص ٤٩٦.

السَّكينةُ والسُّرور:

وبعدَ هذا الإيمانِ، واليقينِ، وهذا الاتصال الصحيح بالله تعالى، والتحرر من الخلق، وانطلاقِ القلب من القيود المادية يحصُل للعارف السكينة، والسرور، يذوق بهما لذة النعيم والجنة في الدنيا.

ويقول ابنُ القيم: إنَّ شيخ الإسلام قال مرة:

«إنَّ في الدنيا جنة، مَنْ لَمْ يَدخُلها لم يدخل جنة الآخرة»[1].

ولا يخفى على أهل البصيرة: أنَّ عباد الله تعالى المخلصين ينطبقُ عليهم وصف الله تعالى لعباده المكرمين: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] يذوقون هذه اللذة ويرون نموذجها في الدنيا، ولا شكَّ أن شيخ الإسلام ظفر بهذه النعمة، كما ذكر أصحابه، وقد قال مرَّةً في حماس:

«ما يصنع أعدائي بي؟! إنَّ جنتي وبستاني في صدري، إنْ رحتُ فهي معي لا تفارقني»[2].

وظلَّت نسبةُ السكينة والرضا هذه، لا تُفارقه في حياته، وبعد مماته، يقول ابن القيم:

زرتُه ذات ليلة في الرؤيا، وذكرتُ له بعض الأعمال القلبية، فقال: «أمَّا أنا فطريقي الفرحُ والسُّرور به»[3].

ويقول ابنُ القيم في «مدارج السالكين»: «هكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله»[4].

---

(١) الرد الوافر: ص ٣٦.

(٢) الوابل الصيِّب: ص ٦٦.

(٣) إغاثة اللهفان.

(٤) مدارج السالكين.

الكَمالُ في اتِّباع السنة:

وتبتدىءُ هذه المكانة (مكانة القبول والولاية) باتِّباع السنة ، وتنتهي بكمال اتباع السنة ، وقد اعترفَ الناس جميعاً حتى الأعداء بشغفِ شيخ الإسلام بالسنة ، وانهماكه في الحديث ، ولم يكن هذا الشغف والانهماك علمياً ، أو نظرياً فقط ، وإنما كان يتصل بالسنة عملياً ، وفي الظاهر .

وقد شهدَ مُعاصروه : أنهم لم يَروا جَلال مكانة الرسول ﷺ والاهتمام باتباع سنته عند أحد من العلماء مثل ما رأوا ذلك عند شيخ الإسلام ابن تيمية .

يقول الحافظ سراج الدين البزَّاز ، وهو يُقسمُ بالله :

«لا وَاللهِ ما رأيت أحداً أشدَّ تعظيماً لرسول الله ﷺ ، ولا أحرصَ على اتباعه ، ونصْرِ ما جاء به منه»[(١)] .

وقد كانت هذه الناحيةُ تستحوذ عليه ، وتُسيطر على قلبه ، فكل من رآه شهد قلبه بكمال اتِّباعه للسنة ، وحُبِّه العميق للرسول ﷺ .

يقول العلاَّمة عماد الدين الوَاسِطي :

«ما رأينا في عصرنا هذا من تُستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل ، يَشهد القلب الصحيح : أنَّ هذا هو الاتباع حقيقةً»[(٢)] .

وهنالك مُقتطفاتٌ من كلام شيخ الإسلام الملتقطة من موسوعة معارفه المسماة بـ«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ، تَدل على إقراره بحقيقة السلوك وضرورته ، وعُمق نظره ، ورُسوخ علمه فيه ، يقول رحمه الله :

«فإنَّ السلوك هو الطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات ،

---

(١) الكواكب الدرية : ص ١٤٩ .

(٢) جلاء العينين : ص ٨ .

والعبادات ، والأخلاق ، وهذا كُلُّه مُبيَّن في الكتاب والسنة ، فإن هذه منزلةُ الغذاء الذي لا بُدَّ للمؤمن منه» (١) .

ويقول: «وفي السلوك مسائلُ تنازع فيها الشيوخ ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين ، فمسَائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصةٌ في الكتاب والسنة» (٢) .

ومِن إفادتـه: «وكذلك من بنـى الإرادة ، والعبـادة ، والعمـل ، والسمـاع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية ، والأعمال البدنية على الإيمان ، والسنة ، والهدي الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه؛ فقد أصابَ طريق النبوة ، وهذه طريق أئمة الهدىٰ» (٣) .

ومِن مَعارفه: «أعمالُ القلوب التي تسمى (المقامات والأحوال) مثلُ محبة الله ورسوله ، والتوكل عليه ، وإخلاص الدين له ، والشكر ، والصبر على حكمه ، والخوف ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك واجبة على جميع الخلق: خاصتهم وعامتهم ، للخاصة خاصَّتُها ، وللعامة عامتها ، تتفاوت أحوال القلوب ، وصفاتها» (٤) .

قَبولهُ في الصالحين ، وشهادةُ علماءِ عصره له:

إنَّ ثناء حَشْد من الناس على رجل لا يُعتبر دليلاً على قبوله عند الله ، واستقامتهِ وعلو منزلته ، أمَّا إذا شهد له رجال العلم والبصيرة ، وأصحاب الصلاح والتقوى في عصره ، فلا شك أنه يعتبر دليلاً على قبوله ، وعلو منزلته ، ولا بد من أن يتَّصف أتباعه ، ومحبوه ، وجلساؤه بالصلاح والسداد ،

---

(١) جلاء العينين: ج١٩ ، ص ١٧٣ .
(٢) المرجع السابق: ج١٩ ، ص ٢٧٤ .
(٣) المرجع السابق: ج ١٩ ، ص ١٧٣ .
(٤) المرجع السابق: ج ١٠ ، ص ٢١ .

وحسن الاعتقاد والتقوى ، والاهتمام بالآخرة ، ويمتازوا من أبناء عصرهم في تديُّنهم ، وحسن سيرتهم.

وهذا كان شأنُ شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد شهد بفضله ، وصحة اعتقاده ، وسلامة عقيدته ، ومكانته العالية كبارُ رجال العلم ، والبصيرة ، وأصحابُ الصلاح ، والرشد في عصره ، واعترفوا بعلو منزلته في ذلك ، فمدحوه ، وأثنوا عليه ، أما معارضوه؛ فقد كان معظمهم ممن يتزلفون إلى الدولة ، ويطلبون الدنيا ، ويطمعون في الجاه والمنصب دائماً[١] .

يقول مؤلِّف «الكواكب الدرية» :

«قالوا: ومَن أَمعن النظر ببصيرته ، لم ير عالماً من أهل أيِّ بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من أَتْبع علماء بلده للكتاب والسنة ، وأشغلهم بطلب الآخرة ، والرغبة فيها ، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا ، والإهمال لها ، ولا يَرى عالماً مخالفاً له ، مُنحرفاً عنه إلا وهو من أكبرهم تُهمة في جمع الدنيا ، وأكثرِهم رياءً وسمعة ، والله أعلم»[٢] .

ويقول العلاَّمةُ الذهبي: «وأُخيف في نَصْر السنة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى منارهُ ، وجمعَ قلُوبَ أهل التقوى على محبَّتِهِ ، والدعاء له»[٣] .

الفِراسة والكَرامة:

وبالرَّغم من أنَّ الكُشوف والكرامات ، لا تعد جزءاً من الولاية ، والقبول ، ولا دليلهما ، وقد أوضح المحققون ، فقالوا: «الاستقامة فوق الكرامة» ، وهي قَضيةٌ لا تقبل الجدل.

ولكنَّ الحقيقة: أن الله سبحانه وتعالى يُنعم على كثير من عباده المخلصين

---

(١) ويستثنى من هذه الكلية من عارضه لسوء تفاهم، أو اختلفوا معه في أصول بعض المسائل العلمية فحسب، وما من عام إلا وقد خص منه البعض.

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٦١ .

(٣) جلاء العينين: ص ٦ .

بهذه النعمة ، فتظهر من أيديهم ، أو ألسنتهم وقائعُ تؤيد قبولهم ، ووجاهتهم عند الله ، والناس.

وقد اتفق أهلُ السنَّة على أن «كرامات الأولياء حق» ، وتؤيِّد ذلك بعض الوقائع ، والشواهد في الكتاب والسنة أيضاً.

وقد جاء في مؤلَّفات شيخ الإسلام إثبات هذه الحقيقة ، وتقرير هذه المسألة.

وقد شهد معاصروه ، وتلاميذُه ، ومحِبُّوه بتلك الوقائع التي حدثت كخَرْقٍ للعادة والكرامة ، واعترف بها المتأخِّرون ، وقالوا: لا يمكن إنكارها لكثرة ما عُرفت ، ونقلت.

يقول العلاَّمة بدر الدين العيني ، صاحب «عمدة القاري ، شرح صحيح البخاري» في «تقريظ الرد الوافر»:

«وهذا الإمام مع جلالة قدره في العلوم نُقلت عنه على لسان جَمٍّ غفير من الناس كراماتٌ ظهرت منه بلا التباس»[1].

والفِراسة الصادقةُ من هذه الكرامات التي يُكرم الله بها عباده المتقين وكبار المؤمنين ، وتُحكَى لهذه الفراسة حكاياتٌ عجيبة ، ذكر الحافظ ابن القيم [2] ، طائفةً منها في كتابه «مدارج السالكين»:

«ولقد شاهدتُ مِن فراسة شيخ الإسلام أموراً عجيبة ، وما لم نُشاهده منها أعظم وأعظم ، ووقائع فراسته تستدعي سِفراً ضخماً».

ونظراً إلى كل ذلك قال العلامة علي بن سلطان محمد القاري الهَرَوِي المتوفَّى بمكة المكرمة سنة ١٠١٤ هـ: «ومن طالع شرح «منازل السائرين» تبين

---

(١) الرد الوافر: ص ٩٨.

(٢) مدارج السالكين: ج٢، ص ٢٥٠.

له: أنهما [١] كانا من أكابر أهل السُّنة، والجماعة، ومن أولياءِ هذه الأمة» [٢].

وقال شيخُ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي المعروف بولي الله المحدِّث (م ١١٧٦ هـ)، في كلام طويل:

«مثلُ هذا الشيخ عزيزُ الوجود في العالم، ومَن يُطيق أن يلحق شَأوه في تحريره، وتقريره، والذين ضيَّقوا عليه ما بلغوا معشار ما أعطاه الله تعالى» [٣].

* * *

(١) [يعني شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيِّم الجوزية].

(٢) المرقاة شرح المشكاة: ج ٤، ص ٤٢٧.

(٣) التفهيمات الإلهية: لشيخ الإسلام ولي الله الدهلوي.

الباب الثاني

الدور الإصلاحي والتجديدي

لشيخ الإسلام ابن تيمية

أركان الإصلاح والتجديد الأربعة في حياة شيخ الإسلام ابنِ تيمية

الدَّور الذي مثَّله شيخُ الإسلام ابن تيمية في تاريخ الإسلام الدعويِّ الفكريِّ ـ وإن كان ذا جوانب علمية وعملية كثيرةٍ ـ يمكن توزيعه في أربعة أجزاء ، تلك التي لها أهميةٌ خاصة في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وهي كما يلي :

١ ـ تجديدُ عقيدةِ التوحيد ، وإبطال العقائد والتقاليد المشركة .

٢ ـ نَقْدُ الفلسفة ، والمنطق ، وعلم الكلام ، وترجيحُ منهج الكتاب والسنة ، وأسلوبهما على كل منهج وأسلوب .

٣ ـ الرَّدُّ على الفرق ، والمِلَل غير الإسلامية ، ومقاومة عقائدِها ، وتقاليدها ، وتأثيرها .

٤ ـ تجديدُ العلوم الشرعية ، وبعثُ الفِكر الإسلامي .



الفصل الأوَّل

تجديد التوحيد
وإبطالُ العَقائدِ والتقاليد الشركية

العقائد والتقاليد في عهد ابن تيميّة:

كانت العقائدُ والتقاليدُ المشركة قد نالتْ رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين، والعَجم، ونُفوذ الحكومة الباطنية، وتأثيرها، وانتشار تعليماتِ الجهلَة، والضالة من الصوفية وأعمالهم.

فقد وُجد عددٌ وجيهٌ من المسلمين في ذلك الحين يعتقدون في أئمة دينهم، ومشايخهم، والأولياء، والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة، ويحملون من الأفكار المشركة ما كان يعتقده اليهود، والنصارى في عُزير، والمسيح عليهما السلام، وأحبارهم، ورُهبانهم.

وكلُّ ما كان يدور حول قبور الأولياء، والمشايخ إنما كان تقليداً ناجحاً للأعمال، والتقاليد التي كانت تُنجز في معابد غير المسلمين، وقبور المقدسين عندهم، فالاستغاثة بهم، والاستعانة بهم، ومَدُّ يد الطلب، والضراعة إليهم، كل ذلك كان عاماً شائعاً بينهم.

كما عمَّت عادةُ بناء المساجد الفخمة على قبورهم، وجَعلِها مسجداً، وعَقْدُ المهرجانات عليها عاماً فعاماً، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها.

وقد تفاقمتْ هذه العقائدُ السيئةُ، وانتشرت هذه البدع، والمنكرات في أواخر القرن السابع بشكل فظيع، ولكي نُقدّر مدى هذا الفساد نُقدِّم مقتطفات من مؤلفات شيخ الإسلام وكتاباته نفسه، فقد تناول فيها ذكر بعض الضلالات الشائعة في عصره ضِمن بحث أو رَدِّ على سؤالٍ، وهي تشير بعض الشيء إلى الانحطاط الديني، والهجمات التي شنتها الجاهلية على قلب الإسلام في ذلك العصر، يقول:

«وآخرون قد جعلوا الميِّتَ بمنزلة الإله، والشيخَ الحيَّ المتعلِّق به كالنبيِّ، فمِن الميتِ يُطلب قضاء الحاجات، وكشف الكُربات، وأما الحيُّ فالحلال ما حلَّله، والحرام ما حرَّمه، وكانوا في أنفسهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلهاً، وعزلوا محمداً ﷺ عن أن يتخذوه رسولاً، وقد يجيء الحديث العهد بالإسلام أو التابعُ لهم لحُسن الظن بهم، أو غيره يطلب من الشيخ الميِّت إما دفعَ ظُلم ملك يريد أن يظلمه، أو غير ذلك، فيدخل ذلك السادن فيقول: قد قلت للشيخ، والشيخُ يقول للنبي، والنبي يقولُ لله، والله قد بعث رسولاً إلى السلطان فلان، فهل هذا إلا محض دين المشركين، والنصارى؟! وفيه من الكذب والجهل مالا يستجيزُه كل مشركٍ، ونصراني، ولا يروج عليه، ويأكلون من النذور ما يؤتى به إلى قبورهم ما يدخلون به في معنى قوله تعالى ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٩]»[١].

عبادة القُبور السافرة:

«فطائفةٌ مِن هؤلاء يُصلُّون إلى الميت، ويَدعو أحدُهم الميِّتَ، فيقول: اغفرْ لي، وارحمني، ونحو ذلك، ويسجد لقبره.

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٩٨.

ومنهم من يستقبل القبرَ ، ويُصلِّي إليه مستدبراً الكعبة ويقول: القبرُ قِبلة الخاصة ، والكعبة قِبلة العامة ، وهذا يقولُه من هو أكثرُ الناس عبادة وزهداً وهو شيخ متبوعٌ ، ولعله أمثلُ أتباع شيخه يقوله في شيخه.

وآخَر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق ، والاجتهاد في العبادة ، والزهدِ يأمر المريد أول ما يتوب أن يذهب إلى قبر الشيخ ، فيعكف عليه عكوف أهل التماثيل.

وجمهورُ هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرّقة ، والخشوع ، والدعاء ، وحضور القلب ما لا يجد أحدهم في مساجد الله تعالى التي أذن أن تُرفع ويذكر فيها اسمُه »[1].

يَخشَونَ القبُور وأصحابها ولا يخْشَونَ الله:

«حتى إن طائفة من أصحاب الكبائر الذين لا يتَحاشون فيما يفعلونه من القبائح كان إذا رأى قُبة الميت ، أو الهلال الذي على رأس القبة خشي من فعل الفواحش ، ويقول أحدهم لصاحبه: ويْحَك هذا هلال القبة ، فيخشون المدفون تحت الهلال ، ولا يخشون الذي خلق السموات والأرض ، وجعل أهلَّة السماء مواقيتَ للناس ، والحج.

وهؤلاء إذا نُوظروا خوَّفوا مناظِرَهم كما صنع المشركون بإبراهيم عليه السلام ، قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢].

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٩٥.

الاستخفافُ بشعائر الله والاستهزاءُ بالله:

«وهؤلاء الذين اتَّخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله تعالى وعبادته ، ويُعظّمون ما اتخذوه من دون الله شفعاءَ؛ حتى إن طوائف منهم يستخفُّون بحج البيت وبمن يَحجُّ البيت ، ويرون أن زيارة أئمتهم وشيوخهم أفضل من حج البيت ، وهذا موجود في الشيعة وفي المنتسبين إلى السنة ، وآخرون يسْتخفون بالمساجد ، وبالصلوات الخمس فيها ، ويرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا، وهذا موجود في الشيعة المنتسبين إلى يونس القيسي حتى إنهم ينشدون:

تعالوا نخربِ الجامعْ ونَجعَلْ فيه خَمَّارَه
تعالوا نكْسِر المِنبَر ونَجْعَل منه طِنْبَارَهْ
تعالوا نَخْرِقِ المُصحَفْ ونَجعْلْ مِنهُ زَمَّارَه
ونَنْتِفْ لِحيةَ القَاضي ونَجْعَلْ منهُ أوتارَهْ [1]

وَقَاحَةُ المُشركين وجُرأتُهم:

«ويَحلِفُ أحدُهم اليمين الغموس كاذباً ، ولا يجترىء أن يحلف بشيخه اليمين الغموس كاذباً ، ومنهم من يقول: كل رزق لا يرزقه إياه شيخه لا يريده ، ومنهم من يذبح الشاة ، ويقول: باسم سيدي ، ومنهم من يقول: إن شيخه أفضل من الأنبياء والمرسلين ، ومنهم من يعتقد فيه الإلهية كما يعتقده النصارى في المسيح ، فإذا ذكروا شيخهم؛ عظَّموه ، وادعوا فيه الإلهية ، وأنشدوا على لسانه:

مُوسىٰ على الطُّور لما خَرَّ لي ناجىٰ وصاحِبُ التُّرب أنا جئتُه حتى جا

ولهم أيضاً:

وأنا صرختُ في العرش حتى ضجّ وأنا حملتُ على علي حتَّى هج
وإنَّ البحار السبعة من هَيْبتي تَرتَجّ»

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٥١.

العَقيدة بألُوهية المشايخ:

«وهؤلاء يجعلون الرسلُ، والمشايخ يُدبرون العالم بالخلق، والرزق، وقضاء الحاجات، وكشف الكربات، وهذا ليس من دين المسلمين، بل النصارى تقول هذا في المسيح وحده لشُبهة الاتحاد والحلول، ولهذا لم يقولوا ذلك في إبراهيم، وموسى، وغيرهما من الرسل مع أنهم في غاية الجهل في ذلك» (١).

«ومِن هؤلاء مَن يظن: أن القبر إذا كان في مدينة، أو قرية؛ فإنهم ببركته يُرزقون، وينصرون، وأنه يندفع عنهم الأعداء، والبلاء بسببه، ويقولون عمن يعظمونه: إنه خفير البلد الفلاني، كما يقولون: السيدة نفيسة خفيرة مصر القاهرة، وفلان، وفلان خفراء دمشق، أو غيرها، وفلان خفير حران، أو غيرها، وفلان، وفلان خفراء بغداد، أو غيرها، يظنون: أن البلاء يندفع عن هذه المدائن والقرى بمن عندهم من قبور الصالحين، أو الأنبياء» (٢).

«حتى إنَّ العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجُون عندها كشف ضرِّهم، وقال بعضُ الشعراء:

يَا خَائفينَ مِنَ التَّتَرْ لُوذوا بقَبْرِ أبي عُمَرْ

أو قال:

عُوذُوا بقَبْرِ أبي عُمَرْ يُنجِيكُمُ مِنَ الضَّرَرْ

فِتنَةُ المَشاهد:

وكانت النتيجةُ الحتميةُ لهذا الإجلال والتعظيم أن تتزايد أهميةُ المشاهد بإزاء المساجد، وتتحوَّل المشاهد مزارات الجهلة، ومراكز قضاء الحاجات، والاستغاثة بها لدى هذه الطبقة، فقد انتشرتْ هذه المشاهدُ، والمزاراتُ في

---

(١) الرد على البكري: ص ٣٢٨.

(٢) الرد على الأخنائي: ص ٨٢ ـ٨٣.

كل ركن من أركان العالم الإسلامي ، ووُجدت آلاف مؤلفة من القبور المزورة ، وتصدّى الأمراء ، والسلاطين لوقف الممتلكات والأراضي الواسعة عليها ، وأقيمتْ عمارات ضخمة ، وقباب فخمة في أمكنة هذه القبور ، ومشاهد المشايخ ، كما وُجدت أمة بأسرها من العاكفين ، والكنّاسين ، والخدم لهذه القبور ، ونالتِ الرحلة إليها كلَّ إعجاب ، واهتمام ، حتى بدأت تصل قوافل الحجاج إليها من مسافات بعيدة تضارع قوافل الحجيج إلى بيت الله ، بل تفوقها بعض الأحيان في الشوكة ، والزينة ، وتحوَّل إقبالُ عامة المسلمين من المساجد إلى هذه المشاهد.

وفي القرنين السابع ، والثامن دخلتْ هذه المشاهدُ ، والضرائحُ في حياة المسلمين الدينية ، ونالت عندهم من القبول ، والمركزية ما جعلها تُنافس بيت الله ، وتتحدَّاه ، ونستطيع أن نقدِّر مدى خطورة فتنة المشاهد هذه ، وتَغلغل جذورها في أحشاء المجتمع ، وكم كان للجَهلة من المسلمين ، والانتهازيين من علاقةٍ عميقة بها عن طريق كتابات ابن تيمية ، ومؤلفاته.

ومن الأسباب التي أدَّت دوراً هاماً في توسُّع هذه الفتنة ، وتأصلها: أن الدولة الباطنية [١] حكمت قروناً طويلة في رُقعة تمتد من المغرب الأقصى إلى مصر والشام ، وما يعرفه الجميع: أن أهل الرفض والتَّشيّع كانوا يتصلون بالمشاهد أكثر منهم بالمساجد ، وبالنجف ، والكربلاء ، والمشهد أكثر منهم بالحرمين الشريفين.

ولو أنَّ دولة مصر الفاطمية كانت قد انتهت قبل ولادة ابن تيمية ، إلا أن تأثيرها الفكري والحضاري لم ينته بعد ، وبخاصة في الشام فقد وُجد فيها عدد كبير من الشيعة ، والباطنية ممن لم تكن صحبتهم تخلو من تأثير سيِّئ على العامة والجهلة من المسلمين.

كما أنَّ التصوُّف الدخيل الذي ابتعد عن تعاليم الإسلام في العصر الأخير

---

(١) وتعرف بوجهٍ عامٍّ باسم الدولة الفاطمية ، والحقيقة أنها دولة العبيدية.

الذي تحتل فيه المشاهد والضرائح محلاً خاصاً من الأهمية والتقديس ، وتنعقد عليها اجتماعات سنويـة ، سبَّبت ازدهارها ، حتى غدت وسيلة كبرى من وسائل الشرك ، والبدع، يقول الإمام ابن تيمية وهو يتحدث عن هذه المشاهد والقبور:

الحَجُّ إلى المشاهدِ والقبور:

«وآخرون يَحجُّون إلى القبور ، وطائفةٌ صنَّفوا كتباً ، وسمَّوها مناسك حجِّ المشاهد ، كما صنَّف أبو عبد الله محمد بن النعمان الملقَّب بالمفيد أحد شيوخ الإمامية كتاباً في ذلك ، وذكر فيه من الحكايات المكذوبة على أهل البيت ما لا يخفى كذبه على من له معرفةٌ بالنقل ، وآخرون يُسافرون إلى قبور المشايخ ، وإن لم يُسمَّوا ذلك منسكاً وحجاً ، فالمعنى واحد ، ومن هؤلاء من يقول: وحقِّ النبي الذي تحجُّ إليه المطايا ، فيجعلُ الحج إلى النبي لا إلى بيتِ الله عز وجل» [١].

التَّرجيح على الحجِّ إلى الكعبة:

«ومِن هؤلاء من يُرَجِّحُ الحج إلى المقابر على الحجِّ إلى البيت ، لكن قد يقول أحدهم: إنك إذا زُرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثاً؛ كان كحجةٍ، ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ بمنزلة عرفات ، يُسافرون إليها وقت الموسم ، يُعرِّفون بها كما يُعرِّف المسلمون بعرفات ، كما يفعل هذا في المغرب ، والمشرق.

ومنهم من يجعل السفر إلى المشهد والقبر الذي يُعظمه أفضل من الحج ، ويقول أحد المريدين للآخرين وقد حج سبع حجج إلى بيت الله العتيق: أتبيعُني زيارة قبر الشيخ بالحِجج السَّبع؟ فشاور الشيخ: فقال: لو بعتَ؛ لكنتَ مغلوباً ، ومنهم من يقول: من طاف بقبر الشيخ سبعاً كان كحجة» [٢].

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٩٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٩٦.

الإعراضُ عن المساجد والاهتمام بالمشاهد:

«وكثيرٌ مِن هؤلاء يُخرِّبون المساجد، ويعمرون المشاهد، فتجد المسجد الذي بُني للصلوات الخمس معطلاً مخرباً ليس له كسوة إلا من الناس وكأنه خانٌ من الخانات، والمشهد الذي بُني على الميت عليه الستور، وزينةُ الذهب، والفضة، والرخام، والنذورُ تغدو، وتروح إليه، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله تعالى، وآياته، ورسوله، وتعظيمهم للشرك، فإنهم اعتقدوا: أنَّ دعاء الميت الذي بُني له المشهد، والاستغاثة به أنفع لهم من دعاء الله تعالى، والاستغاثة به في البيت الذي بُني لله عز وجل، ففضَّلوا البيت الذي بُني لدعاء المخلوق على البيت الذي بُني لدعاء الخالق، وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم؛ مُضاهاة لمشركي العرب الذين ذكر الله تعالى حالَهم في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1] [الأنعام: ١٣٦].

وبهذه المقتطفاتِ التي أوردناها يستطيع أن يُقدِّر القارىء الكريم مدى الضلالات العقائدية، والعملية التي كان الجهلة، والعامة من المسلمين قد أصيبوا بها في القرنين السابع، والثامن الهجري على رغم وجود حكومات إسلامية قوية، ووجود كبار أئمة الفن من المحدِّثين، والفقهاء، والمدارس الدينية، والمراكز العلمية، وكيف كانتِ العقائد، والأعمال المُشركة قد تسرَّبت إلى نفوس العامة منهم.

وبصرفِ النظر عن هؤلاء العامة والجهلة من الناس، فإن كثيراً من العلماء والفقهاء وجدتِ الشبهات سبيلاً إلى نفوسهم حول هذه العقائد والأعمال، فإن

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٥٠.

كتاباتهم ، وفتاواهم تشير إلى أن أفكارهم لم تكن نقيّةً في موضوع الشرك ، والتوحيد كما ينبغي أن تكون لرجل استفاد عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة مباشرة ، واطّلع على سيرةِ السلف الصالح ، وعقيدتِهم ، وسلوكهم.

وتُقدَّر وجهةُ نظرِ هذه الطبقة التي تأثرت بتقاليد عصرها الرائجة ، وعاداته القديمة من كتاباتِ مُعاصِري ابن تيمية الشيخ علي بن يعقوب البكري ، والأخنائي التي تصدى شيخ الإسلام ابن تيمية للرد عليها ، فألَّف كتابين مبسوطين [١] اقتطفنا منهما ما مرَّ آنفاً.

مُهمّته الإصلاحية ومعارضته للعقائد المشركة:

رفع ابنُ تيمية لواء الجهاد ، والتَّجديد محارباً لهذه الأعمال ، والأفكار ، والتقاليد المشركة الرائجة ، مُستغنياً في ذلك عن سَخَط العامة ، وغَضب الخاصة ، وعِتابهم ، وضربَ على جذور تلك العقائد ، والآراء التي كانت أساسَ هذه الأعمال المشركة.

والذي دفع العامة من الناس إلى زيارة هذه القبور ، وممارستهم لهذه الأعمال، والتقاليد المشركة هو أنَّهم إنما كانوا يدعون أصحابها لتحقيق أغراضهم ، ومآربهم، فكانوا يستغيثون، ويستعيذون بهم، وقد صرَّح ابن تيمية في مؤلفاته أن دعاء غير الله لا يجوز ألبتة، وهو شِركٌ جليٌّ دخل فيهم بجهالتهم، واختلاطهم بغير المسلمين ، إنه يقول في كتابه «الرد على البكري»:

المَنع عن الدعاء والاستغاثةِ بغير الله:

«فإنَّا بعدَ معرفة ما جاء به الرسول نعلمُ بالضرورة: أنه لم يَشرع لأمته أن تدعو أحداً من الأموات ، لا الأنبياء ، ولا الصالحين ، ولا غيرهم ، لا بلفظ الاستغاثة ، ولا بغيرها ، ولا بلفظ الاستعاذة ، ولا بغيرها ، بل نعلم: أنه نهى

---

(١) تلخيص كتاب «الاستغاثة» المعروف بـ«الرد على البكري» ، المطبعة السلفية مصر عام ١٣٤٦هـ ، وكتاب «الرد على الأخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية» ، المطبعة السلفية عام ١٣٤٦هـ ، والكتاب المذكور آخراً على هامش المذكور أوَّلاً.

عن كل هذه الأمور ، وأنَّ ذلك من الشرك الذي حرّمه الله تعالى ورسوله ، لكنْ لغلبة الجهل ، وقِلَّة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخِّرين لم يكن تفكيرهم بذلك حتى يتَبيَّن لهم ما جاء به الرسول ﷺ ممَّا يُخالفه »[(١)].

ويقول في مُناسبة أخرى:

«(أبعدُها) عن الشرع أن يَسأل الميِّتَ ، أو يَستغيث به ، كما يفعل كثيرٌ من الناس بكثير من الأموات ، وهو من جنس عبادة الأصنام، ولهذا تتمثل لهمُ الشياطين على صورة الميت ، أو الغائب كما كانت تتمثل لعُبَّاد الأصنام ، بل أصلُ عبادة الأصنام إنما كانت من القبور ، كما قال ابن عبَّاس ، وغيره»[(٢)].

ويقول في موضع آخر:

«سؤالُ الميِّت ، والغائب ـ نبياً كان أو غيره ـ من المحرَّمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين لم يأمر الله به ، ولا رسوله ، ولا فعله أحد من الصحابة ، ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا استحبَّه أحدٌ من أئمة المسلمين ، وهذا مما يُعلم بالاضطرار من دين المسلمين : أن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترةٌ، أو عرضت له حاجةٌ لميتٍ : يا سيدي فلان! أنا في حَسْبك ، أو اقضِ حاجتي ، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى ، والغائبين ، ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعدَ موته ، ولا بغيره من الأنبياء ، لا عند قبورهم ، ولا إذا بَعُدوا عنها ، وقد كانوا يقفُون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال ، ويشتد البأسُ بهم ، ويظنون الظنون ، ومع هذا لم يَستَغث أحدٌ منهم بنبي ، ولا غيره من المخلوقين ، ولا أقسموا بمخلوقٍ على الله أصلاً ، ولا كانوا يَقصدُون الدعاء عند قُبور الأنبياء ، ولا قبور غير الأنبياء ، ولا الصلاة عندها ، وقد كرِه العلماء كمالكٍ ،

---

(١) الرد على البكري: ص ٣٧٧.

(٢) المرجع السابق: ص ٥٦.

وغيره أن يقومَ الرجل عند قبر النبيِّ ﷺ يدعو لنفسه ، وذكروا : أنَّ هذا مِن البدع التي لم يفعلها السلفُ »[١] .

ويقول في رسالته المعروفة باسم «التوسل والوسيلة»:

«فإنَّ دعاء الملائكة ، والأنبياء بعد موتهم ، وفي مغيبهم ، وسؤالهم ، والاستغاثة بهم ، والاستشفاع بهم في هذه الحال ، ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم ، هو من الدِّين الذي لم يَشرَعْهُ الله ، ولا ابتعثَ به رسولاً ، ولا أنزل به كتاباً »[٢] .

الحِكمة في تَحريم دُعاء غير الله:

ويتحدَّثُ في هذا الكتاب عن الحكمة في تحريم دعاء غير الله ، فيقول: «نهىٰ سبحانه عن دعاء الملائكة ، والأنبياء ، مع إخباره لنا: أنَّ الملائكة يدعون لنا ، ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وإن كانوا أحياء في قبورِهم ، وإن قدر: أنهم يدعون للأحياء ـ وإن وردت به الآثار ـ فليس لأحد أن يَطلُب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأنَّ ذلك ذريعةٌ إلى الشرك بِهم ، وعبادتهم من دون الله ، بخلاف الطَّلب من أحدهم في حياته ، فإنه لا يُفضي إلى الشرك ، لأنَّ ما تفعله الملائكة ، ويَفعله الأنبياء ، و الصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني ، فلا يُؤثِّر فيه سؤال السائلين ، بِخلاف سؤال أحدهم في حياته فإنه يُشرع إجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم»[٣] .

أَشْكَالٌ وأنواعٌ متعدِّدة للداعين:

وفي موضع آخر يشرح ألوان ، وأحوال الداعين ، والسائلين علىٰ القبور ، ويَذكرُ أحكام كلٍّ منهم ، يقول:

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٣٣.

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ص ١٥.

(٣) المرجع السابق: ص ١٣٢.

«وأمَّا مَن يأتي إلى قبر نبيٍّ ، أو صالح ، أو من يُعتقد فيه: أنه قبر نبي ، أو رجل صالح ، وليس كذلك ، ويسأله ، ويستنجده فهذا على ثلاث درجات: أحدها: أن يسأله حاجته ، مثل أن يسأله أن يُزيل مرضه ، أو مَرضَ دوابِّه ، أو يقضي دَينه ، أو ينتقمَ له من عدوِّه ، أو يعافي نفسه ، وأهله ، ودوابه ، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ، فهذا شِرك صريح يجب أن يُستتاب صاحبه ، فإنْ تاب ، وإلا؛ قُتل.

وإنْ قال: أنا أسأله لكونه أقرَب إلى الله منِّي؛ ليَشْفع لي في هذه الأمور لأني أتوسَّل إلى الله به كما يُتوسَّلُ إلى السلطان بخواصِّه وأعوانه ، فهذا من أفعال المشركين ، والنصارىٰ ، فإنهم يزعمون: أنهم يتخذون أحبارهم ، ورهبانهم شُفعاءَ يستشفعون بهم في مطالبهم ، وكذلك أخبرَ اللهُ عن المشركين: أنهم قالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] ، وقال سبحانه وتعالى:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤].

وقال تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فهذا هو القِسم الثاني ، وهو ألاَّ تَطلبَ منه الفعل ، ولا تدعوه ، ولكن تَطلُبُ أن يدعو لك كما تقول للحيِّ: ادع لي ، وكما كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون من النبي ﷺ الدعاء ، فهذا مشروع في الحيِّ ، كما تقدَّم.

وأمَّا الميتُ من الأنبياء ، والصالحين ، وغيرهم؛ فلم يُشرع لنا أن نقول: ادع لنا ، ولا اسأل لنا ربك ، ولم يفعل هذا أحدٌ من الصحابة ، والتابعين ، ولا أمر به أحد من الأئمة ، ولا وردَ فيه حديث.

بل الذي ثبت في الصحيح: أنهم لما أجدَبوا زمن عمر رضي الله عنه استسقىٰ بالعباس ، وقال: «اللهم إنا كنَّا إذا أَجْدَبنا؛ نتوسَّلُ إليك بنبيِّنا ،

فتسقيَنا، وإنا نتوسَّلُ إليك بِعمِّ نبيِّنا، فاسقنا! فيُسقون»[١].

ولم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين: يا رسولَ الله! ادعُ لنا، واستسقِ لنا، ونحن نشتكي إليك مما أصابنا ونحو ذلك، لم يفعل ذلك أحدٌ من الصحابة قطُّ، بل هو بِدعة ما أنزل الله بها من سلطان.

وأمَّا القِسمُ الثالث: وهو أن يقول: اللَّهم بجاه فُلانٍ عندك، أو ببركة فلان، أو بِحُرمَة فلانٍ عندك افعل بي كذا، وكذا، فهذا يفْعَله كثير من الناس لكن لم يُنقل عن أحد من الصحابة أو التابعين وسَلَفِ الأمة: أنَّهم كانوا يَدْعُون بمثل هذا الدعاء، ولم يَبْلُغني عن أحدٍ من العلماء في ذلك ما أحكيه إلا ما رأيتُ في فتاوىٰ الفقيه أبي محمد بن عبد السلام[٢] فإنه أفتىٰ أنه لا يجوز لأحدٍ أن يفعل ذلك إلا للنبيِّ ﷺ؛ إن صحَّ الحديث.

وقالتْ طائفة: ليس في هذا جوازُ التوسُّل به في مماته وبعد مغيبه، بل إنما فيه التوسُّل في حياته بحضوره»[٣].

لا يَجوز للمَرء أن يطلب من أيِّ كائنٍ حيٍّ ما وراء الأسباب الدنيوية:

ولا يكتفي ابنُ تيمية باعتبار حُرمة مَدِّ يد السؤال إلى شيخ ميت، أو نبيٍّ، أو صاحب قبر، بل إنه يعتبرُ طَلب كلِّ شيء يكون وراء الأسباب الدنيوية، ويتَّصل بالقدرة الإلٰهية، أو بالإرادة المطلقة التي عبَّر عنها بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، برقم (١٠١٠)، وفي كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، برقم (٣٧١٠)، والبيهقي في السنن (٣/٣٥٢) برقم (٦٢٢٠)، والطبراني في الكبير (١/٧٢) برقم (٨٤) عن أنس رضي الله عنه، ولم يذكر أحدٌ منهم لفظَ «أجدبنا»].

(٢) [هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم، عز الدين الملقَّب بسلطان العلماء، فقيه شافعي بلغ رتبةَ الاجتهاد، توفِّي بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ].

(٣) ملخصاً عن رسالة «زيارة القبور» ص ١٠٦، ١١٢.

لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. واختصَّهُ الله بنفسه وإن كان ذلك إنساناً حيّاً، يقول في رسالته «زيارة القبور»:

«إنَّ مطلوب العبد إن كان من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله مثل أن يَطلُب شفاءَ مرضه من الآدميين، والبهائم، أو وفاء دينه من غير جهة معينة، أو عافيةَ أهله، وما به من بلاء الدنيا والآخرة، وانتصاره على عدوه، وهداية قلبه، وغفران ذنبه، أو دخوله الجنة، أو نجاته من النار، أو أن يتعلَّم العلم، والقرآن، أو أن يُصلح قلبه، ويحسن خلقه، ويزكي نفسه، وأمثال ذلك، فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تُطلب إلا من الله تعالىٰ، ولا يجوز أن يقول لمَلك، ولا نبي، ولا شيخ سواء كان حيّاً، أو ميّتاً اغفر لي ذنبي، ولا انصُرني على عدوي، ولا اشف مريضي ولا عافني، أو عاف أهلي، أو دابّتي وما أشبه ذلك، ومن سألَ ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك برَبه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة، والأنبياء، والتماثيل التي يُصَوِّرونها على صورهم، ومن جِنس دُعاء النصارىٰ للمسيحِ وأمه»[1].

حقِيقَةُ الواسطة:

ويحتوي هذا الموضوع على بحث آخر يسمىٰ بالواسطة، أو التوسُّط، ويقال لمن يخالفون أن يُدعى الرسول، أو الشيخ، أو الولي: أنَّهم يُنكرون الواسطة، على أن من المعلوم أن النبيَّ هو الواسطة بين الخلق والخالق، ويستحيل الوصول إلى الله بدونه.

وقد تصدَّىٰ ابنُ تيمية للردِّ على الاعتراض بطريق واضح، وبيَّن: أنَّ هناك مفهومين للواسطة، مفهوماً حقاً مُتَّفقاً عليه، وعليه أساس الدين كله، ومفهوماً باطلاً لا أساس له اختَرَعَه الناس، وقد وضع في هذا الموضوع رسالةً مُستقلة باسم «الواسطةُ بين الخَلْقِ والحقِّ» يقول فيها:

«إنْ أراد بذلك أنَّه لابد من واسطة تُبَلِّغُنا أمر الله فهذا حق، فإنَّ الخَلْقَ

---

(١) رسالة زيارة القبور: ص ١٠٤، ١٠٥.

لا يعلمون ما يُحِبُّه الله ويرضاه ، وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعدَّه لأوليائه من كرامته ، ما وعدَ به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقُّه الله تعالىٰ مِن أسمائه الحسنىٰ ، وصفاته العليا التي تعجز العقولُ عن معرفتها ، وأمثالِ ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عبادِهِ . . وهذا مما أجمع عليه جميعُ أهلِ المِلَل من المسلمين ، واليهود ، والنصارىٰ ، فإنهم يُثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن أمر الله وخبره قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج: ٧٥]. ومن أنكر هذه الوسائط؛ فهو كافرٌ بإجماع أهل الملل»[١] .

«وإنَّ مَن أراد بالواسطة: أنَّه لا بد من واسطة في جلبِ المنافع، ودفع المضار، مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهُداهم يسألونه ذلك ، ويرجعون إليه فيه ، فهذا من أعظم الشرك الذي كفَّر الله بهِ المشركين ، حيثُ اتَّخذوا من دون الله أولياء ، وشُفعاء ، يجتلبون بهم المنافع ، ويجتنبون المضار»[٢] .

وقد غالىٰ العامَّةَ ، والجهلةَ ، وكثير من الخواص أيضاً إلى حدٍّ أن اتخذوا الأولياء ، والصلحاء واسطة بينهم وبين الله تعالىٰ فضلاً عن الأنبياء ، والرسول ﷺ فكانوا يرجعون إليهم في كل شيء من الدعاء ، والاستعانة ، والتوكُّل ، والرجاء، يتحدَّث ابن تيمية عنِ الفَرْقِ بين هؤلاء، وأولئك، فيقول:

«ومَنْ سِوىٰ الأنبياء من مشايخ العلم والدين ، فَمَنْ أثبتهم وسائط بين الرسول وأمَّته ، يُبَلِّغونهم ، ويعلمونهم ، ويُؤَدِّبونهم ، ويقتدون بهم؛ فقد أصاب في ذلك ، وهؤلاء إذا أجمعوا؛ فإجماعهُم حجَّة قاطعة ، لا يجتمعون على ضلالة ، وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول ، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق بل كُلُّ أحد من الناس يُؤخذ من كلامه ، ويُترك إلا رسول الله ﷺ .

---

(١) الواسطة بين الخلق والحق: ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) المرجع السابق: ص ٤٦ .

وإنْ أثبتُّم وسائطَ بين الله وبين خلقه كالحجاب الذي بين المَلك ورعيَّته ، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائجَ خلقه ، فالله إنما يهدي عباده ، ويرزقهم بتوسطهم ، فالخلق يسألونهم ، وهم يسألون الله ، كما أنَّ الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقُربهم منهم ، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يُباشروا سؤال الملك ، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفعُ لهم من طلبهم من الملوك؛ لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج ، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافرٌ مشرك يَجب أن يُستتاب ، فإن تاب ، وإلا؛ قُتل ، وهؤلاء مُشبِّهون لله ، شبَّهوا المخلوق بالخالق ، وجعلوا لله أنداداً»[1] .

المَشاهِدُ بِدْعَةٌ قَبيحة:

يُعارِض ابنُ تيمية بعنفٍ ، وصراحةٍ هذه المشاهد و«المزارات» التي كانت قد تحولت في العالم الإسلامي كُلِّه إلى مرتع للشرك ، والبِدع ، والفِسق ، والفجور ، وألوان من المنكرات ، وظهرتْ فيه كفِتنة عظيمة ، ويَعتبرها ابن تيمية معارَضة مكشوفة للشريعة ، وبدعة قبيحة في الزمن المتأخِّر ، يقول في «الرد على البكري»:

«وكذلكَ المساجدُ المبنيَّةُ على القبور التي تسمَّىٰ المشاهد مُحدَثة في الإسلام ، والسفرُ إليها محدَث في الإسلام ، لم يكن شيء من ذلك في القرون الثلاثة المفضَّلة.

بل ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : أنه قال: «لَعنَ اللهُ اليهودَ والنصارىٰ اتَّخذوا قُبور أنبيائهم مساجد»[2] يُحذِّرُ ما فعلوا. قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأُبرز قبره ، ولكن كَرِه أن يُتَّخذ مسجداً.

---

(١) الواسطة بين الخلق والحق: ص ٤٧ـ ٤٨ .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، برقم (٤٤٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها ، والنسائي في «السنن الكبرى» (١/ ٦٥٨) برقم (٢١٧٤) ، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦٦) برقم (٨٧٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

وثبت في الصحيح عنه: أنه قال قبل أن يموت بخمس: «إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجدَ، ألا فلا تتخِذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك[(١)]» [(٢)].

ويتقدَّم فيقول: «وأيضاً فلمَّا فتح المسلمون تُسْتَر[(٣)]؛ وجدوا فيها قبر دانيال عليه السلام، وكان أهل البلد يستسقون به، فكتب في ذلك أبو موسىٰ إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه: أن احفِر بالنهار ثلاثة عشر قبراً، وادفنه في الليل في واحد منها؛ لئلا يفتتن به الناس، فيستسقون به، فهذه كانت سنة الصحابة رضوان الله عليهم، ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين لهم بإحسان علىٰ وجه الأرض في ديار الإسلام مسجد مبنيٌّ على قبرٍ، ولا مشهد يُزار، لا بالحجاز، ولا باليمن، ولا مصر، ولا العراق، ولا خراسان» [(٤)].

ويقول في كتابٍ آخر:

«وأمَّا الحُجَّاج إلى القبور، والمتَّخذون لها أوثاناً، ومساجدَ، وأعياداً فهؤلاء لم يكن على عهد الصحابة، والتابعين، وتابعيهم منهم طائفة تُعْرَف، ولا كان في الإسلام قبرٌ، ولا مشهد يُحجُّ إليه، بل هذا إنما ظهر بعد القرون الثلاثة.

والبدعةُ كُلَّما كانت أظهرَ مخالفة للرسول؛ يتأخَّرُ ظهورها، وإنما يحدث أولاً ما كان أخفىٰ مخالفةً للكتاب والسنة» [(٥)].

---

(١) [أخرجه أبو نعيم الهراني في «المسند المستخرج على صحيح مسلم» (٢/ ١٣٣) من حديث جندب بن سفيان].

(٢) الرد على البكري: ص ٣٣٣.

(٣) [مدينة إيرانية تقع في خوزستان شمالي الأهواز، وهي تسمَّى بالفارسية «شُوشْتَر»].

(٤) الردُّ على البكري: ص ٢٨٢.

(٥) الرد على الأخنائي: ص ١٠٢.

المَشاهد «مسرحة» الرّوافض والباطنية:

إنّه يعتقد: أنَّ الروافض، والباطنية هم الذين أحدثوا بِدْعة المشاهد، ووضعوا أحاديث تُؤيِّد مذهبهم فيها، وذلك لأنَّهم مُعْجَبون في الحقيقة بقبور أئمتهم ومشاهدهم، يقول:

«وأول مَن وضع هذه الأحاديث في السَّفر لزيارة المشاهد التي على القبور أهلُ البدع من الروافض، ونحوهم الذين يعطِّلون المساجد، ويُعظِّمون المشاهد التي يُشْرَك فيها، ويكذب فيها، ويُبتدع فيها دينٌ لم يُنَزِّل الله بهِ سُلْطَاناً.

فإنَّ الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد دون المشاهد كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾، [الأعراف: ٢٩].

وقال: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨].

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨].

وقال: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٤].

وقد ثبت عنه ﷺ: أنه كان يقول: «إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك[(١)]» [(٢)].

معظَم هـذه المشاهد والقُبور مُزَوَّرة:

وقد حقَّق ابنُ تيمية: أن معظم هذه المشاهد، والقبور مُزوَّرةٌ مفترَضةٌ، وما أحسن ما يقول في تأييد هذا المعنىٰ:

«وكثيرٌ من المشاهد كَذِبٌ، وكثيرٌ منها مشكوكٌ فيه، وسبب ذلك: أن معرفة المشاهد ليست من الدين الذي تكفَّل الله بحفظه للأمة لِعَدمِ حاجتِهم إلى

---

(١) قد سبق تخريجه قبل قليل.

(٢) الرد على الأخنائي: ٤٨، ٤٩.

معرفة ذلك»[1]، ولذلك فقد وَقع فيها التزوير بصفة عامة، وكثيرٌ منها تزوير بَحْتٌ لا يستند إلى أيِّ أصل ولكن ينخدعُ به خَلْقٌ كثيرٌ.

قَصصٌ يُزوِّرونها لإنجاز أغراضهم من المشاهد:

ومِنَ الفتن التي شاعتْ، وانتشرتْ في الناس هي أنَّ هذه المشاهد، والقبور تُوفِّرُ الشِّفاء للمرضىٰ المزمِنين، ويُستجاب عندها الدعاء، وكان الناس يتحدَّثون في ذلك عن تجارِبهم، ومُشاهداتهم الشخصية، ولكنَّ ابن تيمية لم يكن ليتـأثر بمثـل هـذه الإشاعات والدَّعاوىٰ الكاذبة لما كان يتمتع به من الرسوخ في الدين وقُوَّة الإيمان واليقين، ولم يكن ليترك قطعيات الدين ومنصوصات الكتاب والسنة لمُجرَّد إشاعات وروايات يتناقلها الناس.

إنَّه ظلَّ قائماً على فِراسته الإيمانية، وفَهمه النَّيِّر للدين، وأثبت أنَّ هذه الإشاعات، والدعاوىٰ كلها وَهم على وَهم لا يمتُّ إلى الحقِّ والصدقِ بِصِلَةٍ ما، وكثيراً ما كان الناس يَروون عن شفاء الحيوانات والبهائم على هذه المشاهد والقبور، ولكنَّ ما ذكره ابنُ تيميّة لهذه الأحداث من تأويل عجيب إنما يستلفتُ الأنظار، ويُـنـوِّرُ الأبصار، إنَّه يقول:

«وكان بالبلد جماعةٌ كثيرون يَظنُّـون في العُبيديين: أنَّهم أولياء الله تعالىٰ صالحون، فلما ذكرتُ لهم أن هؤلاء كانوا منافقين زنادقة، وخيارُ مَن فيهم الرافضة، جعلوا يتعجَّبون، ويقولون: نحن نذهب بالفَرس التي بها مَغْلٌ إلى قبورهم، فقلتُ: إن هذا من أعظم الأدلة على كفرهم، وطلبتُ طائفة من سُيَّاس الخيل، فقلتُ: أنتم بالشام ومصر إذا أصاب الخيل المَغْلُ أين تذهبون بهم؟ فقالوا: في الشـام نذهب إلى القبـور التي ببلاد الغـلاة كالعليقـة، والمنقية، ونحوهما.

وأمَّا في مصر فنذهب بها إلى ديْرٍ هناك للنصارىٰ، ونذهبُ بها إلى قبور هؤلاء

---

(١) الرد على البكري: ص ٣١٢.

الأشراف، وهم يَظنُّون أن العبيديين شرفاءُ لِما أظهروا أنَّهم من أهل البيت.

فقلتُ: هل تذهبون بها إلى قبور صالحي المسلمين مثل قبر الليث بن سعد، والشافعي، وابن القاسم، وغير هؤلاء؟، فقالوا: لا، فقلت لأولئك: اسمعوا إنما يذهبون بها إلى قبور الكفار، والمنافقين، وبيَّنتُ لهم سبب ذلك، قلت: لأن هؤلاء يُعذَّبون في قبورهم، والبهائم تسمع أصواتهم كما ثبتَ ذلك في الحديث الصحيح، فإذا سمعت ذلك فزعت، فبسبب الرُّعب الذي يحصل لها تنحلُّ بطونها، فترُوثُ فإنَّ الفَزع يقتضي الإسهال، فـيَعْجَبون من ذلك، وهذا المعنىٰ كثيراً ما كنت أذكُره للناس، ولم أعلم أحداً قاله، ثم وجدتُه قد ذكره بعضُ العلماء»[1].

تَمثيلُ الشَّياطين للمُشْركين:

ويتحدَّثُ ابنُ تيمية عن عِلَّة ما يحدث على قبور الأولياء والصالحين من استجابة الدعاء، وانقِضاء الحاجة، ومن كلام صاحبِ القبر، وزيارته، فيقول:

«وكثيرٌ مِن هؤلاء إذا استغاث بالشيخ رأىٰ صورته، وربما قضىٰ بعض حاجاته، فيظنُّ أنه الشيخ نفسه، أو إنه ملك تصوَّر على صورته، وأنَّ هذا من كراماته، فيزداد به شركاً وفيه مُغالاة، ولا يعلم: أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بِعُبَّاد الأوثان، حيث تتراءىٰ أحياناً لمن تَعْبُدها، وتخاطبهم ببعضِ الأمور الغائبة، وتقضي لهم بعض الطلبات، ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة في الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضَّلة»[2].

ويقُـولُ فـي مكـان آخـر:

«إنَّ هذه الشياطين تتصوَّر على صُورة المستغاثِ بهِ، وحَكى لي غير واحد من أصحاب الشيوخ: أنَّه جرىٰ لمنِ استغاث بهم مثلُ ذلك، وحَكىٰ خلقٌ كثيرٌ: أنَّهم استغاثوا بأحياءَ وأموات، فرأَوا مثل ذلك، واستفاض هذا، حتىٰ عُرِف

---

(١) الرد على البكري: ص ٣١٠، ٣١١.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٣٣.

أنَّ هذه من الشياطين تغري الإنسان بحسب الإمكان فإن كان ممَّن لا يَعرفُ دينَ الإسلام؛ أوقَعَتْهُ في الشرك الظاهر، والكفرِ المحض، فأمَرَتْهُ ألا يَذْكُرَ، وأن يَسجُدَ للشيطان، ويذبَح له، وأَمَرتْهُ بأكل الميتة، والدم، وفعل الفواحش، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكُفر المحض، وبلاد فيها كُفر، وإسلام ضعيف، ويجري في بعض مدائن الإسلام في المواضع التي يَضْعُف إيمان أصحابها، حتىٰ قد جرىٰ ذلك في مصر، والشام على أنواع يطول وصفها، وهو في أرض الشرق قبل ظهور الإسلام في التتار كثيرٌ جداً، وكلَّما ظهر فيهم الإسلام، وعرفوا حقيقته؛ قَلَّتْ آثار الشياطين فيهم»[١].

يقول ابنُ تيمية: إنَّ ذلك لا يحدث مع الصالحين فقط، بل يحدث ذلك لعُبّاد الكواكب أيضاً، ويحصلُ لهم مثل هذه الانتصارات والأحاسيس:

«والذين يَدْعون الكواكب تنزل عليهم أشخاصٌ، يسمونَها روحانية الكواكب، وهو شيطان نزل عليه لمَّا أشرك ليُغويه، كما تدخل الشياطين في الأصنام، وتكلِّم أحياناً بعض الناس، وتتراءى للسَّدنة أحياناً ولغيرهم أيضاً»[٢].

دورُ ابنِ تيميّة في إصلاحِ العقيدة وتأثيرُه:

إنَّ القرنين السابع والثامن (وقد مضىٰ الحديث عن خصوبتهما وإنتاجاتهما في أول الكتاب) وإن كانا حافلين بكبار العلماء والشيوخ، وكان العمل في كل مجال من مجالات التأليف، والوعظ، والإرشاد، والدعوة، والتبليغ مستمراً بكل قوة لا يترك مجالاً للشكِّ في أن العلماء الراسخين وحمَلة الكتاب والسنة لابدَّ أنهم قد استنكروا هذا الشرك الجَليَّ، والجاهلية، والوثنية كلَّ الاستنكار، وعارضوها بالقلم واللسان.

ولكنَّ ابن تيمية يمتاز بأنه كان في طليعة العلماء الذين رفعوا راية الجهاد

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ١١٨.
(٢) كتاب النبوات: ص ٢٧٤.

لمحاربةِ هذا الوضع ، وتصدَّوا لمقاومة هذه الفتنة الكبرىٰ رغم اشتغالهم وبَحْثهم في العلم ، وخاطبوا عقول الجماهير ، وتبنَّوا مُهِمَّة الرد على الشرك الصريح ، غايةَ حياتهم ، وكانوا يتمتَّعون بمكانة عالية في العلم والدين ، وخلَّفوا ذخيرة علمية ذات قيمة كبيرة في هذا الموضوع تُخَلِّد شخصيَّتهم وتجدِّدُ مهمَّتهم الإصلاحية حيناً لآخر.

والحقيقةُ: أنَّ مقاومة هذه الفتنة العامة ، وشرحَ عقيدة التوحيد ، وبَعثَ الفكر الإسلامي الصحيح ، واستعراضَ هذه التقاليد والعقائد المشركة التي كانت تُغَطِّي المجتمع ، وتُسَيْطِرُ عليه ، والردَّ عليها رداً قوياً حاسماً ، كل ذلك كان يحتاج إلى شخصية ابن تيمية القوية ، وطبيعة التوحيد تأبىٰ أن تلوذ بالتأويل والمداهنة أو المحاباة إنها تتطلَّب خطاب الأنبياء الواضح الحاسم وأسلوب دعوتهم الصريح الذي يتسم بميزة «الفرقان».

ولا شكَّ أنَّ ابن تيمية ، إنما قام بمسؤولية النيابة عن الأنبياء في عصره ، وعمل بمصداق ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]. حتىٰ إن هذه العقائد والتقاليد الباطلة التي كانت قد عمَّت في المجتمع الإسلامي باختلاط غير المسلمين وصحبتهم وتأثير الفرق الضالة والمُغرضين قد انهزمتْ ، وذهبتْ ريحُها ، وتمثَّلت عقيدةُ التوحيد التي ترتكز عليها دعوة الأنبياء ، وتُعتبر غايتهم الكبرىٰ بملامحَ أوضح وأجمل من جديد: ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

إنَّ هـذا العملَ الذي قـام بـه ابن تيمية كفاه دليلاً على ما خصَّهُ الله به من مكانـة عالية في مجال الإصلاح ، والتربية ، والدعوة ، والتجديد ، وقد وُجِـد بتأثير كتابـاته ومؤلفاتـه رجالٌ من أهل الدعوة والتربية بين حين وآخر ممن رفعوا راية الجهاد ضد هذه التقاليد و«الوثنية الجاهلية» بكل صَدْع وإعلان ، وارتفع صوت القرآن مدوِّياً عالياً: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر: ٣٩]. فارتجَّ العالمُ الإسلاميُّ ، وتجاوَب معه السهلُ والجبل.

* * *

الفصل الثاني

نَقْدُ الفلسَفة وَالمنطق وَعلم الكلام وَترجيحُ أسلوبِ الكِتاب والسّنةِ

مُهِمّة الإصلاح والتّجديدِ الثانيةُ:

أمَّا مهمَّة الإصلاح والتجديد الثانية التي قام بها شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهي أَنَّه تناول الفلسفة، والمنطق، وعلم الكلام بنَقْد مفَصَّل، وأثبت فضلَ أسلوب الكتاب والسنة إزاء هذه العلوم مؤيِّداً بالدلائل والبراهين.

ولكي نُقدِّر مدى عظمة هذه المهمة يجب أن نَعرف ما كان يتمتع به المنطق والفلسفة من مكانة عالية في العالم الإسلامي، وما كان لهما من سيطرة على الأفكار، والآراء، وفي مثل أي ظرفٍ وبيئة قام شيخ الإسلام بمهمتُّه هذه.

تَأثيرُ فلسفةِ اليونان وسَيطرتُها على العالم الإسلامي:

لا يَخفى: أَنَّ مهمة تَرجمةِ كتب الفلسفة والمنطق اليوناني كانت قد بدأت منذ عهد الخليفة المنصور عام ١٣٦هـ، وكانَ المُعتزلة قد درسوا هذه الكتبَ واستفادوا منها، ومنذ ذلك العهد دخلت في كتبهم مُصطلحات الفلسفة اليونانية.

إلاّ أنَّ علوم اليونان ازدهرتْ في الحقيقة في عصر المأمون، ذلك الذي

أشرف على حركةِ الترجمة إشرافاً مَلكياً ، واحتضنَ هذه الحركة ، فقد كان من أحرص الناس على هذه العلوم ، وأكثرِهم تقديراً لها ، فقد ذكر صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الأمم» أنّـه طَلب من ملوك الروم كُتب حكماء اليونان ، فأرسلوا إليه مؤلّفات أفلاطون ، وأرسطو ، وبقراط ، وجالينوس ، وإقليدس ، وبطليموس كهديّةٍ ، وأمر المأمونُ بترجمتها في غاية من الاهتمام ، وحثَّ الناس على دراستها ، وفي عهده نالتْ هذه المؤلفات رَواجاً عاماً ، ونالت الفلسفة ازدهاراً كبيراً ، وأقبل الشباب هم الآخَرون على إتقان هذه المواد ، وجاء به كُلٌّ كَهديّة غالية إلى بلاط المأمون السخي ، وأُكرموا بالجوائز ، والصلات ، والمناصب العالية ، وهكذا فإن الدولة العباسية أصبحتْ منافسة للدولة الرومية في هذه العلوم (١) .

وظلَّ عملُ الترجمة هذا مستمراً إلى ما بعد المأمون ، وفي التاريخ ما يدلُّ على أنَّ ذخائر وجيهة من علوم اليونان كانت قد انتقلت إلى العربية حتى القرن الرابع الهجري (٢) .

وعلى أنَّ هذه الذخيرة العلمية إنما كانت تحتوي على مؤلفات وتحقيقات أفلاطون و غيره من حكماء اليونان ، إلا أن كتب أرسطو نالتِ القبول والإعجاب في أوساط العالم الإسلامي العلمية والمدرسية أكثر من غيره ، ولعل ذلك جاء من قبل المترجمين الذين كانوا في الغالب من النصارى النَّسطوريين ، واليَعقوبيين ، ومن فلاسفة جُنْد يسابور ، وحرَّان ، إما لاتجاهاتهم الشخصية ، أو لأن عصر أرسطو أقرب بالنسبة إلى غيره ، وأنَّ كتبه تحتوي على مباحث الفلاسفة المتقدِّمين بشكل أكثر تدويناً وترتيباً ، حتى أصبحتْ هي الأخرى مُمثِّلةً فلسفة اليونان ، والحاميَة لها ، ورمزَ الفلسفة وآيتَها في العالم الإسلامي ، ومِن سوء حظِّ العالم الإسلامي : أنَّه لم يحظَ من فلاسفة

---

(١) طبقات الأمم : ص ٤٧ .

(٢) وللاطلاع على التفاصيل ، راجع «فهرست ابن النديم» ، و«طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة ، و«أخبار الحكماء للقفطي» ، وما إلى ذلك .

اليونان إلا بمن كان أبعدَ ، وأجهل من الجميع في تَفَهُّم روح الأديان السماوية ، ومفاهيمها ، وحقائقها ، وكانَ أكبر داعية للفكرة المادية ، ومن كبار أنصارها ومؤيِّديها (وستأتي تفاصيل البعض منهم في كتابات الإمام ابن تيمية وانتقاداته).

عَـهْـدُ تَقليد الفَلسفَـة:

في أَوَّل الأمر رفض علماءُ الفلسفة في العالم الإسلامي قبول فلسفة أرسطو ومنطقه على علاّتهما ، وما رأوه فوق النقد والتحقيق ، بل تصدَّى كثير منهم ، وألفوا كتباً في الرد عليه ، وتناولوا بحوثه الفلسفية والمنطقية بالنقد الحرِّ ، وتجاهروا بكل ما ظهر عليهم ضعفُه وركاكته ، وكان المعتزلة أوَّل من حملوا لواء ذلك ، وَيجدُر بالذكر منهم النظَّام ، وأبو علي الجبّائي.

وجاء حسن بن موسى النّوبخْتي في القرن الثالث ، فألف «كتاب الآراء والديانات» ، ورد على بعض المسائل المنطقية لأرسطو ، كما ألف الإمام أبو بكر الباقلاني كتاباً باسم «الدقائق» في القرن الرابع ، فَنَّدَ فيه الفلسفة ، وأثبتَ فضْلَ منطق العرب على منطق اليونان.

أمّا في القرن الخامس؛ فنهضَ العلاَّمة عبد الكريم الشهرستاني صاحب كتاب «الملل والنحل» وألَّف كتاباً في الرد على برقلس ، وأرسطو ، ونقض فيه دلائلهما وِفق قواعد المنطق.

وفي أواخر هذا القرن نفسه تصدى الإمام الغزالي كمنافس للفلسفة ، وألف كتابه المعروف باسم «تهافت الفلاسفة» ذلك الذي أحدث ضجة في إيوان الفلسفة بقيت إلى قرن كامل [1].

وقامَ أبو البركات البغدادي في القرن السادس فواصلَ هذا العمل ، وتقدم به إلى الأمام ، وألف كتاباً باسم «المعتبر» أصبح موضعَ البحث والنقد فيما بعد ، أبطل فيه أفكار أرسطو في معظم المسائل ، وفي هذا القرن برز الإمام فخر

---

(١) اقرأ التفاصيل في المجلد الأول من هذا الكتاب.

الدين الرازي (٦٠٦ هـ) «كمحامٍ» لمتكلمي الإسلام، والأشاعرة، واستهدف الفلسفة لإيراداته.

أمّا الأوساط العلمية في العالم الإسلامي التي كانت تُعتبر حاملةً لواء الفلسفة اليونانية في الواقع، وتُرجمانها؛ فقد ظَلَّت مسحورةً بشخصية أرسطو، وعظمته، وكانت تراه فوق كل نقدٍ وتحقيق، وكان هذا الهيام، والإعجاب بشخصية أرسطو يتزايد مع مرور الأيام لدى علماء الفلسفة، ويكاد يَحتلُّ في أوساط الفلسفة محل القدسية والعظمة، فكلُّ خلَفٍ يفُوق سلَفه في تقديسه وتعظيمه.

يقول أبو نصر الفارابي والمتوفى ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م عن أفلاطون، وأرسطو:

«وكان هذان الحكيمان هما المُبدعان للفلسفة، والمنشئان لأوائلها، وأصولها، والمتمِّمان لأواخرها وفروعها، وعليهما المُعوَّل في قليلِها وكثيرها» [1].

وهذا «أبو علي ابن سينا» (م ٤٢٨ هـ) أكثر اعترافاً بعظمة أرسطو وسلطانه من الفارابي، إنه يقول في كتابه «الشفاء» ما معناه: «إن أرسطو مضى عليه أمد طويل إلا أن القضايا والتحقيقات التي أدلى بها لم تحتجْ إلى زيادة» [2].

ولم تُنجِبْ أوساطُ الفلسفة بعد أبي علي ابن سينا أيَّ عالمٍ ومحامٍ للفلسفة أكبرَ من ابن رشد (م ٥٩٥ هـ) إنه يتقدم خطوةً في تقديس وتعظيم أرسطو من أبي علي ابن سينا أيضاً، واسمحوا لي بهذه المناسبة أن أُعبر عن ذلك بما اعتاده المتصوِّفون من كلمة «التفاني في الشيخ» يَتحدَّث أحدُ مُترجميه عن خصِّيصَتِه هذه، فيقول:

«أمّا تَمجيدُ ابن رِشد لأرسطو فلا حدَّ له، فيكاد يُؤَلِّهه، وقد وضع له

(١) «الجمع بين رأيي الحكيمين».

(٢) مأخوذ من مقال العلاّمة شبلي النعماني «بين الإسلام وفلسفة اليونان» المنشور في مجلة «الندوة» ج١، رواية عن كتاب «الشفاء».

أوصافاً تجعلُه فوق درجات الكمال الإنساني عقلاً ، وفضلاً ، ولو كان ابنُ رُشد يقول بتعدُّد الآلهة لجعلَ أرسطو ربَّ الأرباب»[(١)].

وفي القَرن السابع تَبرُز شخصية نَصير الدين الطُّوسي (م٦٧٢هـ) في أوساط الفلسفة ، ذلك الذي عرفته حلقات المدارس الفلسفية بالمحقّق الطوسي ، وكانَ العالم الإسلامي قد أصابَتْه دَهشة الفتْح ، وأصيب بالذهول في هذا الزمن بهجوم التتار ، وسقوط بغداد ، وأظلَّ العالم الإسلامي كله انحطاط علمي عام ، وقد كان نصيرُ الدين الطوسي هو حامل لواء العلم ، والفلسفة اليونانية ، وهو من مُقرَّبي هولاكوخان ، ومستشاريه ، وتولى تلاميذُه أمور التدريس ، والتأليف (وأَخُصُّ بالذكر منهم قطب الدين الشِّيرازي ، وسَميّه قطب الدين الرَّازي) ، وعلى يَدهم وُجد ذلك المنهج الخاص للتعليم السائد في إيرَان ، الذي يَحُل فيه المنطق ، والفلسفة محلاً رئيسياً ، وقد كان نصيرُ الدين الطوسي يتصل بالمدرسة التي كانت تعتبر أرسطو العقلَ الكلَّ ، وتَرى في نظراته ، وتحقيقاته المرجع الأخير ، وقد دافع عن فلسفة أرسطو مخالفاً للإمام الرازي ، وكان قد نفخ في فلسفة أرسطو روحاً جديدة.

المُحاسبة العلمية للفلسفة والمنطق ومأثرة ابن تيمية في هذا المجال:

وُلِد شيخُ الإسلام ابن تيمية قبل وفاةِ نصير الدين الطوسي بعشر سنين ، وكان للفلسفة والمنطق اليونانيين غَلبةٌ ، وازدهار عظيم ، بتأثير نصير الدين الطوسي ، وتلاميذِه البارعين ، وكان يُعتبر منتهى الذكاء ومقياس الفضل آنذاك أن يَفهم المرء مسائلهما وبحوثهما ، ولم يكن لأحد أن يتجرَّأ على القول بإزائهما أو ضدهما ، ولم يكن المحدِّثون والفقهاءُ فرسان هذا الميدان ، وجُلّ ما كان يَسعُهم هو أن يُفتوا بحُرمتها ، إلا أن هذا السَّيل ما كان يقف بهذا ومثلِه من الأعمال ، فقد كان العالم الإسلامي كُلُّه يعيش تحت ضغطهما ، ولقد كان

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب: لطفي جمعة ، ص١٥٥.

للتشكُّكِ، والارتياب جولةٌ في بعض الأوساط التي كانت تتَّصل بالفلسفة اليونانية مباشرةً، ويوجد فيها اتجاهٌ نحو إنكار حقائق الأشياء.

أمّا الطَّبقةُ التي ابتعدت عنها، ولم تتصل بها مباشرة؛ فقد وقعتْ فريسة مركَّب النقص، والشعور بالعَجز.

ولِمُحاربة هذا الوضع كانتِ الحاجة ماسَّة إلى نَقْدٍ صريح، واستعراضٍ علمي حُرٍّ للفلسفة والمنطق، وإلى إزاحة الستار عن مواضع ضَعفها العلمية، وقد أنجزَ حاجةَ الساعةِ هذه شيخُ الإسلام ابن تيمية، وقام بنَقْدِ الفلسفة اليونانية، ومحاسبتها العملية مُؤيِّداً بحوثه بالدلائل والبراهين، وناظرَ أرسطو مناظرة علمية وجهاً لوجه، ذلك الذي كان علماءُ الفلسفة يعتبرونه شخصيةً فوق مستوى البشر، وغنيةً عن النَّقدِ والردِّ.

ولكنْ لِنُدرك مكانَةَ علمه هذا وطبيعَته، ونعلم معيارَ نقدِه ومحاسبته، ووجهةَ نظرِه، وأساس خِلافه معه، نرجع إلى كتبه، ونقتطف فيما يلي ملخصات من كتاباتِه بعناوينَ مختلفة، ومقتطفاتٍ من كتبه تُبيِّن وجهةَ نظره، وأسلوب تفكيره.

الاعتِراف بالطَّبعيات والرياضيات:

إنَّ رأيَه في تلك الذخيرة العلمية التي تنتَمي إلى أرسطو، وفلاسفة اليونان مُتَّزِنٌ معتدل، إنه يُفرّق بين الطَّبعيات، والرياضيات، والإلهيات، ويعترف بصحةِ معظم مسائل الطبعيات، والرياضيات، وبذكاءِ علماء اليونان في هذا الموضوع، كما فعل ذلك الإمام الغزالي يقول في إحدى المناسبات:

«نَعَمْ لهم في الطَّبعيات كلامٌ غالِبُه جيد، وهو كلامٌ كثير واسع، ولهم عُقولٌ عَرفوا بها ذلك، وهم قَد يَقصدون الحق لا يَظهرُ عليهم العناد»[1].

كما يَعترفُ في محلٍّ بوضوح بالغ: أنَّ الطَّبعيات، والرياضيات، وما إلى

---

(١) الرد على البكري: ص ١٤٣.

ذلك موضوعٌ خاص بفلاسفةِ اليونان ، ومجالِ تفكيرهم ، ودراستهم ، يقول:

«لكنْ لهمْ معرفةٌ جيدة بالأمور الطبعية ، وهذا بَحرُ علمهم ، وله تفرغوا ، وفيه ضيَّعوا زمانهم»[(١)] .

إنَّه يُبدي رأيه في العلم الرياضي لليونان ، يقول في كتابه الشهير «الرد على المنطقيين»:

«فهذه الأمورُ وأمثالُها مما يَتكلَّم فيه الحُسَّاب أمرٌ معقول مما يَشترك فيه ذوو العقول ، وما من أحد من الناس إلا يَعرف منه شيئاً ، فإنه ضروري في العلم ، ضروريٌّ في العمل ، ولهذا يُمثِّلون به في قولهم: الواحد نصف الاثنين ، ولا ريبَ أن قضاياه كلِّية واجبة القبول ، لا تَنتقِض ألبتَـة»[(٢)] .

فلسفة الإلهيات ، المجالُ الرئيسيُّ للخِلاف:

إنَّ الجانبَ المهم الذي يُعارضه ابن تيمية في فلسفة اليونان هو جانب «الإلهيات» إنَّه يؤكد عجزَ فلسفة اليونان عن إدراك سرِّ الإلهيات ، وفقرها ، وقلة بضاعتها في ذلك ، ويُثبت مرة أخرى إخفاق فلاسفة اليونان ، وخيبتَهم ، وجهلَهم بذلك ، إنه يعتقد: أنَّ هذا الجانب المهم لم يكن مجالاً لفلسفة اليونان ، ولا مضماراً لتفكير فلاسفتها ، وموضع بحثٍ لدراستهم ، وإنَّهم بخوضهم في هذا الموضوع إنما تعدَّوا حدُودهم ، ومَهَّدوا الطريق لتحقير شأنهم ، والضحك عليهم يقول:

«للمُتَفلْسِفة في الطبعيَّات خوضٌ ، وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات ، فإنهم أجهلُ الناس بها ، وأبعدُهم عن معرفة الحق فيها ، وكلامُ أرسطو معلِّمهم فيها قليلٌ كثيرُ الخطأ»[(٣)] .

---

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ٥٧ .

(٢) الرد على المنطقيين: ص ١٣٤ .

(٣) معارج الوصول: ص ١٨٦ .

وفي موضع آخر حيث يَعترف باطِّلاعهم على الطبيعيات، ويذكر إفلاسهم في الإلهِّيات يقول:

«وأمَّا معرفةُ الله تعالى فحظُّهم منها مَبخوسٌ جداً، وأما ملائكتُه، وكتُبه، ورسُله؛ فلا يعرفون ذلك ألبتة، ولم يتكلَّموا فيه لا بنَفْيٍ، ولا بإثبات، وإنما تكلَّم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل» (١).

يقولُ ابن تيمية: إنَّ أساطين فلسفة اليونان، وأركانَها يعترفون هم أنفسُهم بأنَّهم لا يملكون وسائل، ومبادىءَ اكتساب هذا العلم، وصرّحوا بأن التوصل إلى اليقين في هذا الموضوع يصعبُ عليهم أيّما صعوبة، يقول:

«بل قد صرَّح أساطين الفلسفة: أنَّ العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين، إنما يُتكلم فيها بالأحرى والأَخْلق، فليس لهم فيها إلا الظَّن، وإن الظنَّ لا يُغني من الحق شيئاً» (٢).

المُقارنةُ بين الإلهيات اليونانية وعلومِ الأنبياء وتعاليمِهم:

إنَّه يتعجَّب حينما يتناول مباحثَ العلوم الإلهية لفلسفة اليونان، وأقوالَ فلاسفتهم الذين يُقرنونها بالعلوم والحقائق التي يأتي بها الأنبياء عليهم السلام، يقول في حماسٍ زائد وقوةٍ بالغة:

«إذا نَظر في كلام مُعلِّمهم الأول ـ أرسطو ـ وتَدبَّرهُ الفاضلُ العاقل لم يُفِدْه إلا العلم بأنهم كانوا من أجهلِ الخلق برب العالمين، وصار يتعجَّب تَعجُّباً لا ينقضي ممن يَقرنُ عِلمَ هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء، ويرى: أنَّ هذا من جنس من يَقرِن الحدَّادين بالملائكة، بل من يقرن دهاقين القُرى بملوك العالم، فهو أقرب إلى العِلم والعدل ممن يَقرن هؤلاء بالأنبياء، فإنّ دُهقان القرية مُتَولٍّ عليها كتولِّي الملكَ على مملكته، فلَه جُزءٌ من المُلك».

---

(١) تفسير سورة الإخلاص: ٥٧.

(٢) نقض المنطق ص ١٨٧.

«وأمَّا ما جاءتْ به الأنبياء؛ فلا يَعرفه هؤلاء ألبتة ، وليسوا قريبين منه ، بل كُفَّار اليهود ، والنصارى أعلمُ منهم بالأمور الإلهية ، ولست أعني بذلك ما اختصَّ الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا يناله غيرهم ، فإن هذا ليس من علمهم ، ولا من علم غيرهم ، وإنما أعني العلومَ العقلية التي بيَّنها الرسلُ للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرب وتوحيده ، ومعرفةِ أسمائه وصفاته ، وفي النُّبوات والمعاد ، وما جاؤوا به من مصالح الأعمال التي تُورِث السعادة في الآخرة ، فإن كثيراً من ذلك لم يشموا رائحتها ، ولا في علومهم ما يدل عليها ، وأما ما اختصتِ الرسل بمعرفته ، وأخبرتْ به من الغيب؛ فذلك أمر أعظم من أن يُذكر في ترجيحه على الفلسفة ، وإنما المقصود الكلام في العلوم العقلية ، دعْ ما جاءت به الأنبياء فإنَّه مرتبة عالية»[١] .

جَهْلُ فَلاسفةِ اليُونان وإنكارُهم:

وَيشرحُ ابنُ تيمية الأسباب التي دعتْ فلاسفة اليونان إلى الجهل بالعلوم الإلهية ، وقِصر باعهم فيها ، وفي كثيرٍ من الحقائق الغيبية ، وإنكارِ الموجودات ، يقول:

«أمَّا الغيب الذي تُخبر به الأنبياء ، والكُلِّيات العقلية التي تَعم الموجودات كلها ، وتقسِم الموجودات قِسمةً صحيحة؛ فلا يَعرفونها ألبتة ، فإن هذا لا يكون ممن أحاطَ بأنواع الموجودات وهم لا يَعرفون إلا الحساب ، وبعض لوازمها ، وهذا معرفةٌ بقليل الموجودات جداً ، فإنَّ ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظمُ قدراً وصفة مما يشهدونه بكثير .

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفَتْهُ الفلاسفة إذا سمعوا إخبار الأنبياء بالملائكة ، والعرش ، والكرسي ، والجنة ، والنار ، وهم يظنون أنْ لا موجود إلا ما علموه ، وهم والفلاسفة يصيرون حائرين متأوِّلين لكلام الأنبياء على ما عرفوه ، وإن كان هذا لا دليل عليه ، وليس لهم بهذا النفي عِلم ، فإنَّ عدم

---

(١) الرد على المنطقيين: ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

العلم ليس علماً بالعدم ، لكن نفيهم هذا كنفي الطبيب للجن؛ لأنه ليس في صناعة الطِّب ما يَدُلُّ على ثبوت الجن ، وإلا فليس في علم الطب ما ينفي وجُودَ الجن.

وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم ، وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه ، فيبقى بجهله نافياً لما لا يعلمه ، وبنو آدم ضَلالُهم فيما جحدوه ، ونفُوه بغير علم أكثرُ من ضلالهم فيما أثبتوه ، وصدَّقوا به ، قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٩]»[١].

اليونان عُبَّاد الكَواكب والأوثان:

يَتبيَّنُ من تاريخ يونان القديم: أنَّ يونان التي مَنحتِ العالم تُراثاً واسعاً من العلوم الطبيعية والرياضية ، وتولَّت قيادَة الدنيا العقلية والفكرية لآلاف من السنين ، ظلَّت تعبد الكواكب والأصنام في مُعظم أجزاء تاريخها ، وكانت فريسَة الأوهام والخرافات الكثيرة.

إنَّ التاريخ الجديد قد أزاح الستار عن وَجه عِلم الأصنام في اليونان ، ووثنيَّتها القومية ، فلم يعدِ الآن من شك: أنَّ يونان القديمة كانت ترزح تحت نير الآلهة والإلهات ، ومعابد الكواكب ، وهياكلها ، إنَّ فلسفة اليونان التي وصلت إلى العالم الإسلامي عن طريق الترجمة ، ثم انتقلت إلى أوربة إنما هي مُصطبغة بصبغة الوثنية ، وعبادة الكواكب هذه ، لقد نقل فلاسفة اليونان عقائدَهم الدينية ، وأفكارهم المشركة إلى مُصطلحات الفلسفة الهائلة ، وتلقَّاها علماءُ الفلسفة المسلمون ـ الذين لم يكونوا مطَّلعين على تاريخ اليونان الديني ـ كحقائقَ علمية ، وجعلُوها موضع دراستهم ، وتفكيرِهم ، وبذلوا جهودهم لإثباتها.

وممَّا يدل على ذكاء ابن تيمية ، وألمعيَّته: أنَّه كشف الستار عن هذه النقطة قبل قرون ، يقول:

---

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ٦٠ ـ ٣٥٦.

«أمَّا قُدماء اليونان؛ فكانوا مشركين من أعظم الناس شِركاً، وسحراً، يَعبدون الكواكب، والأصنام، ولهذا عَظُمتْ عناياتهم بعلم الهيئة، والكواكب لأجلِ عبادتها، وكانوا يَبنون لها الهياكل»[١].

ويقول في موضع آخر:

«ولهذا كان رُؤوسهم المتقدمون، والمتأخِّرون يأمرون بالشرك، فالأَولون يُسمُّون الكواكب الآلهة الصغرى، ويَعبدونها بأصناف العبادات، كذلك كانوا في مِلَّة الإسلام لا ينهون عن الشرك، ويُوجبون التوحيد، بل يُسوِّغون الشرك، ويأمرون به، أو لا يُوجبون التوحيد»[٢].

الفَرقُ بين المتقدّمين والمتأخرين من فَلاسفة اليونان:

وممَّا يُؤكِّد دِقَّة الفهم، وحُسن التوصل إلى الحقيقة لدى ابن تيمية: أنَّه قام بالتَّفريق بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان، إنه يعتقد: أنَّ المتقدمين على «أرسطو» كانوا أقربَ إلى فهم الحقائق الغيبية، ومعرفةِ المفاهيم الدينية وأفكارها؛ إذ لا يتجلى فيهم ذلك الاتجاه نحو رَفْضِ الحقائق الغيبية وإنكارها الذي يتجلى في أرسطو بكلِّ وضوح، إنه يقول في موضع:

«هؤلاء المتفلسفة أتباعُ أرسطو لم يَسلُكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين، فإن أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم، وكانوا يقولون: إن فوق هذا العالم عالماً آخر يصفونه ببعض ما وصف النبي ﷺ الجنة، وكانوا يُثبتون معاد الأبدان كما يوجد هذا في كلام سقراط، وتاليس، وغيرهما من أساطين الفلاسفة»[٣].

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ٦٠ ـ ٣٥٦.
(٢) نقض المنطق: ص١٧٧.
(٣) تفسير سورة الإخلاص: ص ٦٧.

أَرسطو أبعدُ عن الحقائق الدِّينية:

وسَببُ هذا الفرق الذي يراه ابن تيمية بين المتقدمين منهم، والمتأخرين هو: أنَّ المتقدمين من هؤلاء الفلاسفة اتفقتْ لهم السياحةُ في البلدان التي بُعث فيها الأنبياء عليهم السلام، فتسنَّى لهم الاطلاع على الحقائق الدينية، أما أرسطو فلم يَـتَّفق له ذلك، إنه يتحدث عن ذلك روايةً عن بعض المؤرخين:

«وسببُ ذلك ما ذكره طائفة ممَّن جمع أخبارهم: أنَّ أساطين الأوائل ـ كفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون ـ كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام، ويَتلقَّون عن لقمان الحكيم ومن بعدَه من أصحاب داود، وسليمان، وأنَّ أرسطو لم يُسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكنْ عنده من العلم بأثارةِ الأنبياء ما عند سلفه، وكان عِنده قدر يسيرٌ من الصابِئيَّة الصحيحة، فابتدَع لهم هذه التعاليم القياسية، وصارتْ قانوناً مشى عليه أتباعُه»[١].

ومِن سوء الحظِّ: أنَّ فلسفة أرسطو هي التي نالتْ رواجاً في العالم الإسلامي، وهي التي اشتهرت في العهد الأخير بفلسفة اليونان، يقول ابن تيمية:

«ولكنَّ هذه الفلسفة التي يَسلكها الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، والسَّهرورديُّ المقتول، ونحوه فلسفة المشَّائين، وهي المنقولة عن أرسطو الذي يُسمُّونه المعلِّمَ الأول»[٢].

مَكانة الإله في الفَلسفة اليُونانية:

وفي فلسفة أرسطو هذه لم تعد فكرة الإله، وذاتِه إلا وجوداً ذهنياً فقط، يقول:

«فإذا تصوَّر العاقل أقوالهم حق التَّصوُّر؛ تَبيَّن له: أنَّ هذا الواحد الذي

---

(١) نقض المنطق: ص ١١٣.

(٢) الرد على البكري: ص ٢٠٦.

أثبتوه لا يُتصور وجوده إلا في الأذهان ، لا في الأعيان» [١] .

إنَّ أسلوب المبالغة الذي اتَّخذه الفلاسفة في بيان النفي لأفعال الإله ، وصفاته ، وفي تجريده عن جميع صفات الكمال ، وعن المحاسن ، والامتيازات التي يتمتع بها أدنى الخلق ، يعتقدُ ابن تيمية على أساس هذه الاعتقادات الفاسِدة: أنَّه لا يُمكن إهانةُ الله أكثر من هذا ، إنَّه يتحدث عن هذه الحقيقة ضمن ما ينقل من الأقوال:

«لقد أحسَن بعضُ الفضلاء؛ إذ قال: الصَّفعُ أحسن من توحيد الفلاسفة ، بل قصَّرَ فيما قال» [٢] .

فلاسفةُ الإسلام مُقلِّدون بَحتٌ لليونان:

إنَّه يرى: أنَّ المتأخِّرين من الفلاسفة الذين نشؤوا في العَهد الإسلامي إنما هم مُقلّدون عميان لأرسطو وفلسفته ، وبتَقيُّدهم بالتقليد تقع منهم أخطاء فاحشة كبيرة ، ويُوجد في كلامهم تناقض شديد ، يشكو ابن تيمية تألمه الشديد ، ويُبدي عتابه على هؤلاء الفلاسفة المسلمين الذين جَحدوا تلك النعمة التي وصلت إليهم عن طريق رسول الله ﷺ ، ولم يَستفيدوا من نور الهداية الذي كان بمتناول أيديهم ، بل إنهم أرادوا أن يَحجُبوا ذلك النور ، ويحولوا دون ضيائه ، يقول:

«إنَّ هؤلاء المتفلسفة المتأخرين في الإسلام من أَجهل الخلق عند أهل العلم والإيمان ، وفيهم من الضَّلال ، والتناقض ما لا يخفى على الأذكياء الصبيان؛ لأنهم لما التزَموا ألاَّ يسلكوا إلا سبيل سَلَفهم الضالين ، وألاَّ يُقروا إلا بما يَبْنُونه على تلك القوانين ، وقد جاءهم من النور والهدى والبيان ما ملأ القلوب ،

---

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ٣٧.
(٢) الرد على المنطقيين: ص٢٢١.

والألسنة، والآذان، صاروا بمنزلة من يُريد أن يطفئ نور الشمس بالنَّفخ في الهَباء، أو يُغطي ضوءها بالعَباء»[١].

ابنُ سينا جاهلٌ بحقيقة النُّبوة وَمنصِبها:

إنَّ الفلاسفة الذين حاولوا شرح الحقائق الغيبية، والعقائد الدينية تقليداً للفلسفة، واتباعاً لأرسطو، وأرادوا تفهم هذه الحقائق والعقائد، وإفهامها في ضوء الفلسفة، ومعتمدين عليها؛ يتناولهم ابنُ تيمية بنقدٍ لاذع، ولا يترك في ذلك حتى أولئك الفلاسفة الذي يُسمَّون بحكماء الإسلام؛ إذ أن هذه الحقائق والعلوم الغَيبية لا تُدرك بمساعدةِ فلسفة اليونان، ومُجرَّد أصولِها ومبادئها، إنَّه ينتقد قبل كل شيء ابنَ سينا الذي يُعتبر خليفةَ أرسطو الكبير في الشرق الإسلامي، وشارحَ فلسفته العظيم، يقول:

«بيَّن ابنُ سينا أمرَ النبوة: أنها من قِوى النفس، وقوى النفوس متفاوتةٌ، وكل هذا كلامُ من لا يَعرف النبوة، بل هو أجنبيٌّ عنها، وهو أنقصُ ممن أراد أَن يقرر: أنَّ في الدنيا فقهَاء، وأطباء، وهو لم يعرف غير الشعراء، فاستدلَّ بوجود الشُّعراء على وجود الفقهاء، والأطباء، بل هذا المثال أقربُ، فإن بُعْدَ النبوة عن غير الأنبياء أعظمُ من بُعد الفقيه، والطبيب عن الشاعر، ولكنَّ هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريجَ ذلك على أُصول قومٍ لم يَعرفوا الأنبياء»[٢].

ويقولُ في موضعٍ آخر:

«وأبعَدُ هؤلاء عن النُّبوةِ المتفلسفةُ، والغلاة، والملاحدةُ، فإنَّ هؤلاء لم يَعرفوا النبوة إلا من جهة القَدْر المشترك بين بني آدم وهو المنام، وليس في كلام أرسطو، وأتباعه كلامٌ في النُّبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يُفَضِّل هو وأمثالُه الفيلسوفَ على النبي، وابنُ سينا

---

(١) الرد على البكري: ص ١٦٨.

(٢) النبوات: ص٢٢.

عظَّمها أكثر من ذلك ، فجعل للنبيِّ ثلاث خصائص :

إحداها: أن ينالَ العلم بلا تَعلم ، ويُسميها القوة القدسية ، وهي القوة الحَدسيَّة عنده .

والثاني: أن يتَخيَّل في نفسه ما يعلمُه ، فيرى في نفسه صُوراً نورانيةً ، ويَسمع في نفسه أصواتاً ، كما يرى النائم في نومه صوراً تُكلِّمه ، ويَسمعُ كلامهم ، وذلك موجود في نفسِه لا في الخارج. فهكذا عند هؤلاء جميعُ ما يختصُّ به النبيُّ ممَّا يراه ، ويسمَعُه دون الحاضرين ، إنما يراه في نفسه ويسمعُه في نفسه ، وكذلك المَمرورُ عِندهم .

والثالث: أن يكون له قوة يَتصرَّف بها في هيولى العالم بإحداثِ أمور غريبة ، وهي عندهم آياتُ الأنبياء ، وعندهم ليس في العالم حادث إلا عن قُوةٍ نفسانية ، أو ملكية ، أو طبعية . . . وهؤلاء عندهم جميع ما يَحصُل في نفوس الأنبياء إنما هو من فَيض العَقل الفعَّال .

ثم إنَّهم لمَّا سمعوا كلاَم الأنبياء؛ أرادوا الجمعَ بينه وبين أقوالهم ، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء ، فيضَعونها على معانيهم ، ويُسمُّون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ، ثم يتكلمون ويصِفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء ، فيظن من لم يعرفْ مُراد الأنبياء ومرادَهم : أنَّهم عَنوا بها ما عَنَتْهُ الأنبياء ، وضلَّ بذلك طوائفُ ، وهذا موجود في كلام ابن سينا ، ومَن أخذَ عنه» [١] .

نقصُ عِلم الكَلام وتَردُّد المُتكلِّمين:

لا يَكتفي شيخُ الإسلام ابنُ تيمية بتوجيه انتقاده إلى فلاسفة اليونان ومقلِّديهم من متفلسفي الإسلام فحسب ، بل يتعدَّاهم إلى أولئك المتكلمين الذين وإن حاولوا الدفاع عن الإسلام إلا أنهم اتخذوا أساليب الفلسفة ،

(١) النبوات: ص ١٦٨ .

ومقدماتها، ومُصطلحاتها الناقصة المحدودة لإحقاق الحقائق الغيبية الدينية التي كانت تختص بمفاهيمها الخاصة، وكانت ترتبط بها تقاليدُ، وانطباعاتٌ خاصة، إنه يقول في «كتاب النبوات»:

«كلامُهم في الخَلْق، والبَعْثِ، والمَبدأ، والمعاد، وفي إثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا عقلاً، ولا نقلاً، وهم مُعترفون بذلك كما قال الرازي: «لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تَشفي عليلاً، ولا تَروي غليلاً، ورأيتُ أقرب الطرق طريقةَ القرآن، أقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

وأقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦]، ثم قال: ومَن جرَّب مثل تجربتي؛ عرف مِثْل معرفتي، وكذلك الغزاليُّ، وابنُ عقيل، وغيرهما يقولون ما يُشبه هذا، وهو كما قالوا» [١].

ويقول في موضع آخر:

«وسَببُ ذلك إعراضُهم عن الفطرة العقلية، والشرعة النبوية بما ابتدعه المُبتدعون، ممَّا أفسدوا به الفطرة، والشِّرعة، فصاروا يُسفسِطون في العقليات، ويُقرمِطون في السمعيات» [٢].

ويَتحدَّث عن مواضع الضَّعف في المُتكلمين، فيذكر أسئلتهم، وشُبهاتِهم في غاية من القوة غالباً، وأجوبتُها ضعيفةٌ بالنسبة إليها في بعض الأحيان، إنه يرى: أنَّ ذلك أحياناً يصيب أولئك الذين يعتقدونهم مُدافعين عن الإسلام ومُمثِّليه بأضرار بالغة، والذين لا يدورون في دراستهم إلا في فَلَكهم، إنَّه يقول:

«لمَّا تكلَّموا في إثبات النبوة؛ صاروا يُورِدُون عليها أسئلة في غاية القوة

---

(١) النبوات: ص ١٤٨.
(٢) المرجع السابق: ص ١٤٨.

والظهور، ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة، كما ذكرنا كلامهم، فصار طالب العلوم، والإيمان، والهدى من عندهم ـ لا سيما إذا اعتقد: أنَّهم أنصار الله، ونُظَّاره والقائمون ببراهينه، وأدلته ـ إذا عرف حقيقة ما عندهم؛ لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الأنبياء، بل وَجده يَقدح في الأنبياء، ويُورث الشكّ فيها، أو الطعن، وأنها حُجَّةٌ لمكذِّب الأنبياء أعظمُ مما هي حُجَّةٌ لمصدِّق الأنبياء، فانسد طريق الإيمان والعلم، وانفتَح طريق النفاق والجهل، لا سيما على من لم يعرف إلا ما قالوه»[1].

الخَطَأ المُشاع بين المُتكلِّمين والفلاسفة ومواضعُ ضعفِهم:

يَعتقد ابن تيمية: أنَّ المتكلِّمين، والفلاسفة كُلَّهم إنما ارتكبوا نوعاً واحداً من الخطأ، وأنَّ خطة عملهم واحدةٌ بالرغم من جميع الخلافات التي توجد بينهم، إن خطأ كلٍّ من هؤلاء، وضعفَهم: أنَّهم حاولوا أن يعتمدوا على الحَدْس في الحصول على الشيء الذي لا يَحصل بالحَدْس والتَّخمين، وصارعوا الفطرة والنبوة كِلتيهما، ولذلك فإنَّ تحقيقاتهم إثمُها أكبرُ من نفعها.

التَّكَلُّف والتَّطْويل:

إنَّه يرى: أنَّ دلائلَ المتكلمين، والفلاسفة، وأسلوبَ استدلالهم يتضمَّن تطويلاً، وتكلُّفاً لا طائل تحتهما، فإنّ الحقائق، والمقاصد التي تناولها المتكلِّمون، وحاولوا إثباتها بِدلائلَ، ومقدمات طويلة مطولة إنَّما يمكن إثباتها بغاية من الاختصار، وأسلوب يَتفق مع الفطرة.

لقد سلك المتكلِّمون والفلاسفة لإثبات مقاصدهم طريقاً طويلاً وَعِراً، إنَّه يضرب لذلك مثلاً بِقَول بعض السلف: سُئل رجل أين أذنك؟ فتكلف في الجواب بحيثُ طاف بيمينه رأسَه، وأوصلها إلى أذنه اليسرى، ومَسكها بها في غاية من العُسر، على أنه كان يستطيع بكل سهولة أن يُشير بيده اليمنى، أو اليسرى، وتمثَّل بالمناسبة ببيتِ الشاعر:

---

(١) النبوات: ص ٢٤٠.

أَقَــام يَعَمــلُ أيَــامــاً رَوِيَّتَــه وشَبَّـه المـاءَ بعـدَ الجُهـدِ بـالمـاء

لا اعتمادَ على دلائلِ المتكلّمين:

إنَّه يُعارِض المتكلِّمين فيما يزعمون من أنَّ تحقيق هذه المقاصد إنَّما يحتاج إلى نفس الاستدلالات ، والمقدمات التي اصطنعها هؤلاء المتكلمون بدون أن يكون هناك طريق آخر إلى ذلك ، وهو يعتقد في هذا الخصوص: أنَّ هذه المقدمات ، وطريق الاستدلال وإن كانت صحيحة ، ولكن من الخطأ أن يزعم أنه ليس هناك أي طريق آخر للاستدلال ، ولا مقدّماتٌ غيرها ، وذلك لأن الدراسة ، والتجارب تؤكدان «أن المطلوب كلَّما كان الناس إلى معرفته أحوج ، يَسَّر الله على عقول الناس معرفةَ أدلته ، فأدلةُ إثبات الصانع ، وتوحيده ، وأعلامه ، وأدلَّته كثيرة جداً ، وطُرق الناس في معرفتها كثيرة ، وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس ، وإنما يحتاج إليه من لم يعرف غيره ، أو من أعرض عن غيره» [١] .

لا يَنتفعُ بهذا الأسلوب إلا طبقةٌ من الناس:

وبالرَّغم من ذلك فإنه يعترف: أنَّ بعض الناس ينتفعون بِهذا الأسلوب من الاستدلال ، والمقدمات الكلامية ، والمنطقية ، وذلك بحكم عقْليَّتهم ، وعادتهم الخاصة التي يتَميزون بها عن غيرهم ، وهم لا يقتنعون بغيره من الأسلوب ، ولكنَّ ذلك لا يعني: أنَّ العلم ، واليقين يتوقفان على هذه الطرق ، بل إنها حالةٌ عقلية تحدث بتأثيرِ بيئةٍ وتربية خاصة ، وظروف نفسية خاصة ، إنه يقول:

«وبعضُ الناس يكون الطريق كلَّما كان أدقَّ ، وأخفى ، وأكثر مقدمات ، وأطولَ؛ كان أنفع له ، لأنّ نفسه اعتادتِ النظر الطويل في الأمور الدقيقة ، فإذا كان الدليل قليلَ المقدمات ، أو كانتْ جليَّةً؛ لم تفرح نفسُه به ، ومثل هذا قد يُستعمل معه الطريق الكلامية المنطقية ، وغيرُها؛ لمناسبتها لعادته ، لا لكونِ

---

(١) الرد على المنطقيين: ص ٢٥٥.

العلم بالمطلوب متوقفاً عليها مطلقاً ، فإنَّ من الناس من إذا عرف ما يعرفُه جمهور الناس ، وعمومُهم ، أو ما يمكن غيرَ الأذكياء معرفتُه؛ لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم ، فيُحِبُّ معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات ، وهذا يُسلك معه هذه السبيل» [١] .

استدلالُ القُرآن أبلغُ وأكثرُ تأثيراً في النَّفس:

إنَّه يُثبت في كتاباته بكل تأكيد: أَنَّ أسلوب القرآن ومنهَجه في الاستدلال لإثبات الحقائق الغيبية ، وإبداء مقاصد الشريعة ، وتحقيقِ الحقائق الدينية أبلغُ من كلِّ أسلوب ، وأشد تأثيراً في النفس من أيّ استدلال آخر ، يقول:

«وبينٌ: أَنَّ ما عند أئمة النظَّار ـ أهل الكلام والفلسفة ـ من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق، وما هو أبلغ ، وأكمل منها على أحسن وجه، مع تنزُّهه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء» [٢] .

ويقول في موضع آخر:

ولهذا كانتِ الأَقيسَةُ العقليةُ البرهانيةُ المذكورةُ في القرآن من هذا الباب كما يذكره في دلائل ربوبيته ، وإلهيته ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وإمكان المعاد ، وغير ذلك من المطالب العالية السَّنية ، والمعالم الإلهية التي هي أشرف العلوم ، وأعظمُ ما تكملُ به النفوس من المعارف» [٣] .

الفَرق الأساسي بين القرآن والفَلسفة في ذاتِ الله تعالى وصفاتِه:

وقد أشار إلى نقطةٍ عِلمية مُهمة وهو يتحدث عن الفَرْق المَبدئِيِّ بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته ، يقول:

«والقُرآن أثبتَ الصفاتِ على وجه التفصيل ، ونفَى عنها التمثيل ، وهي

---

(١) الرد على المنطقيين: ص٢٥٥ .
(٢) المرجع السابق: ص ٣٢١.
(٣) المرجع السابق: ص ١٥٠ .

طريقة الرسل ، جاؤوا بإثباتٍ مفصَّل ، ونفي مُجمَل ، وأعداؤهُم جاؤوا بنفيٍ مفصَّل ، وإثباتٍ مُجمل»[١].

نَفيُ الصِّفات ، وتأثيرُه على الحياةِ كُلِّها:

إنَّ مكتبة الفلسفة اليونانية بأسرها تُصَدِّق النقطةَ التي توصَّل إليها ابن تيمية ، فإنَّ المبالغة والاهتمام اللذين بذلهما فلاسفة اليونان في نفيِ الصفات إنما جعلَ ذلك وجود الإله فكرةً ذهنية ، وشخصيةً عقيمةً مجهولةً عاجزةً.

أمّا عن كيفية الإله وحقيقته ؛ فلا يعدو مفهوم ذلك عندهم عدداً من الكلمات ، ومصطلحات فلسفية ، مما أدى إلى أنَّ الأوساط الخاضعة لفلسفة اليونان ـ سواء في داخل يونان ، أو خارجها ـ ظلَّت محرومة من أيِّ صلة حية ، وعلاقة عملية بالله تعالى ، وذلك لأن هذه العلاقة الحقيقية ، والعملية ؛ التي تنبُع من القلب والعاطفة إنما تحتاج إلى أسماء الله تعالى ، وصفاتِه ، وأفعاله ، بينما الفلسفة مُلحَّةٌ على نفيها.

إنَّ تاريخ العالم العقلي كلَّه شاهدٌ على أن الإنسان لم يتصل عاطفياً ، ولا قلبياً بأيَّة شخصية مجهولة لا يعرفُ شيئاً عن صفاتها ، وأفعالها ، ومما لا يخفى: أنَّ الحب والخوف ، والأمل والرجاء ، والطَّلَب والسؤال ، كلُّ ذلك يحتاج إلى الصفات ، تلك التي تتجرد عنها فلسفة اليونان ، ومن ثمَّ اتفق مؤرخو الأخلاق ، والأديان على أنَّ صلة اليونان ليست سطحيةً ضعيفة بالله تعالى فحسب ، بل هي صِلَة ضعيفة بالدين أيضاً من غير أن تَتَّسِمَ بروح ، أو عُمق.

وقد صدَقَ الإمام ابن تيمية إذ قال: «إنَّ مئات الآلاف من النَّفي لا يقوم مقام إثباتٍ واحد» والحقيقة: أنَّ النفي المجرد لا يقوم عليه بِناء دين وحياة.

ولعلَّ فلسفة اليونان في الغَرب ، والديانة البوذية في الشرق أخفَقتا في بناء

(١) النبوات: ص ١٥٣.

مجتمع إنساني يقوم على أساس فكرة الإله من أجل ذلك ، وقد أنتج هذا : أنَّ الوثنية إذا تسرَّبت في أوساط إحدى هاتين الفلسفتين؛ عمَّ الإلحاد في أوساط الأخرى ، وذلك لأن الجماهير ـ الذين هم مَفطُورون على العبادة ، والإيمان بالله ـ لا يرضَون بفلسفةٍ تضغط كل الضغط على الرياضة العقلية والأفكار الفلسفية من غير أن تُهيِّىء للقلب والعقل غذاءً من الحبِّ والمعرفة .

مِيزَةُ الصحابة رضي اللهُ عنهم:

إنَّه يرى : أَنَّ ما حصل للصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ الذين درجوا في ظل النبوة من معرفةٍ ، وعلوم متكاملة عميقة بدون أن تشوبَهم شائبةٌ من التَّكلُّف ، كل ذلك كان نتيجة التربية الصحيحة التي نالوها في رعاية النبي ﷺ .

إنه يُوازن بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبين المتأخرين من العلماء الذين تأثَّروا بالفلسفة وعلم الكلام ، ويقول:

«وأصحابُ محمَّد ﷺ كانوا ـ مع أنهم أكبر الناس علماً نافعاً ، وعملاً صالحاً ـ أقلَّ الناس تكلفاً ، يَصدر عن أحدهم الكلمة ، والكلمتان من الحكمة ، أو من المعارف ما يهدي اللهُ به أمة ، وهذا من مِنن الله تعالى على هذه الأمة ، وتجدُ غيرَهم يحشُون الأوراق من التكلُّفات ، والشَّطَحات ما هو من أعظم الفُضول المبتَدعة ، والآراء المختَرعة» [١] .

سِحر المَنطق اليوناني ، وهَيبَته في العَالم الإسلامي:

تناولَ الإمامُ ابن تيمية علمَ المنطق الذي كانتْ تفتخرُ به اليونان بالنقد اللاذع بعد ما انتقدَ الفلسفة اليونانية بتفصيل وإجمال ، وردَّ كثيراً من بحوثها ، وقضاياها بأسلوب عقلي واستدلالي بحت ، وأثبت أنَّها لا تقوم إلا على أساس مُتضعضع ضعيف .

ولقد كان علماءُ الإسلام مأخوذين بسحر المنطق أكثر بالنسبة إلى الفلسفة ،

---

(١) نقض المنطق: ص١١٤ .

ومتَّفقين بوجهٍ عام على كونه معقولاً مدلَّلاً ، ومُحكَماً مبرهَناً .

وكانتْ كُتب المنطق نالتْ رواجاً عامًّاً في القرن الثالث كما ذكره صاعد القرطبي ، ولمَّا جاء الإمام الغزالي في القرن الخامس؛ اهتم بالمنطق ، واعتبره مُقدِّمة للعلوم كلِّها، إنه يقول في مقدمة كتابه الكبير «المستصفى»: «هي مُقدِّمة العلوم كلها ، ومن لا يُحيط بها فلا ثِقَة بعلومه أصلاً» [١] .

ويقول في كتابه الآخر «مقاصد الفلاسفة»:

«أمَّا المنطقيات؛ فأكثرُها على منهج الصواب ، والخطأُ نادر فيها بالاصطلاحات والإيرادات دون المعاني والمقاصد؛ إذْ غَرضُها تهذيب طرق الاستدلالات ، وذلك مما يَشترك فيه النُّظار» [٢] .

وفي القَرن السابع ظهر الفيلسوف ، والحكيم الشهير ابن رشد ، فكان مُغالياً في المنطق ، واثقاً به إلى حد: أنَّه كان يعتبرُه منبعَ السعادة البشرية ، ومقياسها الأصيل ، وكان يرى من المستحيل أن يتوصل الناسُ إلى الحقيقة بدونه ، يتحدَّث عنه أحد مترجمي حياته:

«كان متهوِّساً بمنطق أرسطو ، وقال عنه: إنَّه مصدرُ السعادة للناس ، وإنَّ سعادة الإنسان تُقاس بعملهِ بالمنطق ، والمنطق أداة تُسهِّل الطريق الشاقة في الوصول إلى الحقيقة التي لا يصل إليها العامة ، بل بعض الخاصة بفضل المنطق» [٣] .

لقد تناولَ علماء الإسلام سِجلَّ هذا المنطق اليوناني بيدٍ من الإجلال والاحترام ، وكانوا متهيِّبين لدعاويه ، ومقدماته ، وأصوله ، وكلِّياته ، أما الفلسفة فقد أُخذت بالنقد والإيرادات بعد فترات طويلة إلى حد ما ، ولكنَّ

---

(١) المستصفى: ص ١٠ ج١.

(٢) مقاصد الفلاسفة: ص٣.

(٣) تاريخ فلاسفة الإسلام: محمد لطفي جمعة ص ١٢٠ ـ ١٢١.

المنطق لم يتناوله أحد ـ فيما نعلم ـ بالمحاسبةِ العلمية والتشريح ، وليس هناك كتاب كبير يتحدث عن هذا الموضوع في تفصيل وتحقيق.

المَنْطِقُ ليسَ ميزاناً للعُلوم العَقليةِ:

ولكنَّ الإمام ابن تيمية هو أول من ركَّز اهتمامه على المنطق ، وجعلَه موضوعاً مستقلاً بذاته ، وأخذه بالنقد والبحث بكل حرية واجتهاد ، فله كتابٌ مُجملٌ ومختَصر باسم «نقض المنطق» وآخر مفصل باسم «الرد على المنطقيين» (١) في هذا الموضوع ، إنه يبحث في الكتاب الثاني عن قضايا المنطق ودعاويه ، وحدودِه ، وكلياته ، وجُزئيَّاته بتفصيل ، وأثبتَ أنَّ الأهمية التي حصلت للمنطق من قِبَل علماء الإسلام ، واعتبارِهم إياه علماً ثابتاً ، ومسلّماً لا يستند إلى صحة ، إنَّه يرفُض أن يكون المنطق ميزاناً للعلوم العقلية ، ويتوقَّف عليه الاستدلال ، والاستنتاج ، والتوصل إلى علم اليقين.

يقول: «وهؤلاء يقولون: إنَّ المنطق ميزان العلوم العقلية ، ومُراعاته تعصِم الذهن عن أن يغلط في فكر. كما أنَّ العروض ميزان الشعر ، والنحوَ والتصريف ميزانُ الألفاظ العربية المركبة والمفردة ، وآلاتِ المواقيت موازينُ لها.

ولكنْ ليس الأمر كذلك ، فإن العلوم العقلية تُعلم بما فطر الله عليه بني آدم من أسباب الإدراك ، لا تقف على ميزان وَضْعيٍّ لشخص معين ، ولا يُقلِّد في العقليات أحدٌ بخلاف العربية ، فإنها عادة لقوم لا تُعرف إلا بالسماع ، وقوانينُها لا تعرف إلا بالاستقراء بخلاف ما تُعرف مقادير المكيلات ، والموزونات ، والمذروعات ، والمعدودات ، فإنها تفتقر إلى ذلك غالباً ، لكن تعيينُ ما به يكال ، ويوَزن بقدرٍ مخصوص أمرٌ عاديٌّ.

---

(١) صدر هذا للكتاب أخيراً عن المطبعة القيمة في بومباي (الهند) ، ويتحلَّى بمقدمة قيمة للعلامة السيد سليمان الندوي ، والكتاب يقع في (٥٤٥) صفحة ، ينبغي ألا تفوت أهل الفنِّ مطالعة هذا الكتاب.

وقد كانتِ الأممُ قبلهم تعرف حقائقَ الأشياء بدون هذا الوضع ، وعامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وضعهم ، وجماهير العقلاء من جميع الأمم يعرفون الحقائق من غير تعلُّمٍ منهم بوضع أرسطو ، وهم إذا تدبروا أنفسهم؛ وجدوا أنفسهم تعلمُ حقائق بدون هذه الصناعة الوضعية»[١] .

مُعظَمُ الحُدود المنطقية ضَعيفةٌ لاثباتَ لها:

إنَّه لا يعترف بأن الحدود والتعاريف المنطقية كلها كاملة شاملة لا تحتمل أيما اعتراض ، أو نقض ، يقول:

«وصاروا يُعظِّمون أمر الحدود ، ويدَّعون أنَّهم هم المحقِّقون لذلك ، وأن ما يذكره غيرهم من الحدود إنما هي لفظيةٌ لا تفيد تعريف الماهية والحقيقة بخلاف حدودهم ، ويسلكون الطرق الصَّعبة الطويلة ، والعبارات المتكلِّفةِ الهائلة ، وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان ، وإتعاب الأذهان ، وكثرة الهذيان ، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان ، وشَغلُ النفوس بما لا ينفعُها ، بل قد يضلها عما لا بد لها منه ، وإثبات الجهل الذي هو أصلُ النفاق في القلوب ، وإن ادَّعوا: أنَّه أصل المعرفة والتحقيق»[٢] .

لا سَهلٌ فيرتقى ولا سَمينٌ فيُنتقى:

إنَّـه يُثبت في مكانٍ: أنَّ المنطق في الواقع عملٌ يَصدُق عليه المثل: «لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، ولا سَمينٌ فَيُنْتَقَى»[٣] فإنَّ البحث ، والاجتهاد كثيران لا نهاية لهما ، ولكنَّ محصولَهما قليل لا عبرة به ، يقول في كتابه «نقض المنطق»:

---

(١) الرد على المنطقيين: ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٣١.

(٣) [هذا ليس مثلاً بل هو جزءٌ من حديث أمِّ زَرْعٍ ، أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب حسن المعاشرة مع الأهل ، برقم (٥١٨٩) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب ذكر حديث أم زرع ، برقم (٢٤٤٨) ، والترمذي في «الشمائل المحمدية» برقم (٢٥٤) ، والنَّسائي في الكبرى (٥/ ٣٥٥) برقم (٩١٣٨) وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها].

«ومِن المعلوم: أنَّ القولَ بوجوبه قولُ غُلاتِه، وجُهَّالِ أصحابه، ونفسُ الحُذَّاق منهم لا يلتزمون قوانينَه في كل علومهم، بل يُعرضون عنها، إما لطولها، وإما لعدم فائدتها، وإما لفسادها، وإما لعدم تميُّزها، وما فيها من الإجمال والاشتباه، فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جَمل غَثٍّ على رأس جبلٍ وَعِر، لا سَهلٌ فيُرتقى ولا سَمين فيُنتقى»[1].

تَأثيرُ المَنطقِ على العَقلِ وقُوة البَيان:

ويرى: أنَّ المنطق طالما جنى على المرء، فأَفقده نشاط الطبيعة، وسَلاسة اللسان والأفكار، ولا شكَّ فإنَّ الذين يحافظون على القواعد المنطقية والأسلوب المنطقي يُصابون بعجز اللسان، وتعقيد البيان، وتطويل الكلام، وزَيغ في التفكير، وأوضح مثال لذلك مُتون المتأخرين، وكتب المناهج الدراسية المتقدمة، يقول الإمام ابن تيمية:

«وما زال نُظَّار المسلمينَ يعيبون طُرق أهل المنطق، ويُبينون ما فيها من العيِّ، واللكْنَة، وقُصور العقل، وعجز المنطق، ويُبينون: أنَّها إلى إفساد المنطق العقلي واللساني أقربُ منها إلى تقويم ذلك»[2].

ويقول في موضع آخر: «إذا اتَّسعتِ العُقولُ، وتصوراتُها؛ اتسعت عباراتُها، وإذا ضاقتِ العقول، والتصورات؛ بقي صاحبُها كأنه محبوسُ العقل واللسان، كما يصيب أهلَ المنطق اليوناني، تجدُه من أضيق الناس عِلماً وبياناً، وأعجزِهم تَصوُّراً وتعبيراً، ولهذا من كان منهم ذكياً إذا تصرَّف في العلوم، وسلك مسلك أهل المنطق طَوَّلَ وضَيَّق، وتكلَّف وتعسَّف، وغايتُه بيان البَيِّن، وإيضاحُ الواضح من العَيّ، وقد يُوقعه ذلك في أنواعٍ من السفسطة التي عافى الله منها مَن لم يَسلك طريقهم»[3].

---

(١) نقض المنطق: ص١٥٥.
(٢) الرد على المنطقيين: ص ١٩٤.
(٣) المرجع السابق: ص ١٦٧.

بَعْضُ المُستَثنيَات:

لا يُطْبِقُ الإمام ابن تيمية عَينيه عن بعض أولئك الرجال الذين بَلغوا في العلوم اليونانية إلى درجة الإمامة، ورغماً من انهماكِهم الشديد، وشغَفِهم الزائد بهذه العلوم لم يَنقُصهم رُواء القلم، وطلاوة الكتابة، وذَوق الأدب الرفيع، مثلاً ابن سينا الذي تعتبر قصيدته في الروح [١] نموذجاً عالياً للروح العربية، وتتَّسم كتاباتُه بالحلاوة، والبلاغة خلافاً لأهل الحكمة، يَرى ابن تيمية: أنَّ ذلك فضلُ الاشتغال بالأدب الإسلامي العربي، وفيضٌ للعلوم الإسلامية ولا شك فإنَّ حياة ابن سينا تُصدِّق ذلك، يقول:

«ومَن وُجد في بعض كلامه فصاحةً، وبلاغة كما يوجد في بعض كلام ابن سينا وغيره؛ فَلِمَا استفاده من المسلمين من عُقولهم، وألسنتهم، وإلا فلو مشى على طريقةِ سلفهِ، وأعرض عما تعلمه من المسلمين؛ لكان عقله ولسانه يُشبه عقولهم وألسنتهم» [٢].

رَأي إجمالي عَن المَنطق:

وبعد هذه الانتقاداتِ نطَّلع على رأيه الإجمالي عَن المنطق بلسانه، يقول: «فَحقُّه النافع فطِري لا يُحتاج إليه، وما يُحتاج إليه ليس فيه مَنفعةٌ إلا معرفة اصطلاحِهم، وطريقِهم، أو خطئِهم» [٣].

ويقول في محلٍّ آخر:

«إنِّي كنت دائماً أعلمُ: أن المنطق اليوناني لا يَحتاج إليه الذكي، ولا يَنتفعُ به البليد» [٤].

---

(١) التي مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

(٢) الرد على المنطقيين: ص ١٩٩.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٠١.

(٤) المرجع السابق: ص ٣.

مَكانَةُ المَنطِق الصحيحة وفَائدِتُه:

ومهما لَمَسَ القارئ نوعاً من التطرف في آراء ابن تيمية ، وأفكاره عن المنطق اليوناني ، ولوناً من المغالاة ، إلا أنَّ قُدسية المنطقِ وعظمته التي كانت تُسيطر على عقل العالم الإسلامي من بعد القرن الخامس أُصيبت بصدمة ، وكان لا بد من ذلك ، فإنَّ أوساطنا الدراسية ، والعلمية قد أُولعت بالمنطق ، وأُعجبت به إلى حد المغالاة ، والمبالغة ، ويمكن أن يُقدِّر هذا الإعجاب بالمنطق من لم يكن له معرفة بالمنطق ، فإنه يُعتبر أجهلَ شخصٍ ، وأحمقِ رجلٍ لدى أهلها بالرغم من جميع ما يحمله من علم ، وفضل ، وذكاء.

وقد ظلَّ المنطق ، والفلسفة يُعرفان في الهند إلى مدة طويلة باسم «العقلانية» ، كما أَنْ كتبهما كانت تعرف باسم «كتب العقل» وكان من الطبيعي أن يُوجد هناك ردُّ فعلٍ عنيف ضد هذا الغُلوِّ والولوع ، فقد يكون سبباً للفكر المتزن في هذا الموضوع ، وينالُ هذا العلم مكانَته الصحيحة مِن أجله.

إنَّ المنطق نوعٌ من الرياضة العقلية والفكرية ، ونستطيع أن نستخدمه كأداةٍ لتشحيذ الذهن ، فإن لم يتجاوز حدَّه هذا لا يعترض عليه أحد ، وإنَّ الإمامَ ابنَ تيميّة نفسَه يعترف بذلك ، ويقولُ في كتابه «الرد على المنطقيين» :

«وأيضاً فإنَّ النَّظر في العلوم الدقيقة يُفتِّقُ الذهن ، ويُدَرِّبُه ، ويُقَوِّيه على العلم ، فيصيرُ مثل كثرةِ الرَّمي بالنّشاب وركوب الخيل تُعين على قوة الرمي والركوب وإن لم يكن ذلك وقتَ قتال ، وهذا مَقْصدٌ حسن»[١].

ولكنْ كُلُّ منصفٍ بالغ النظر يخالف ما قد جَعله الناس غايةً عوضاً عن الوسيلة ، وأصلَ العلم بدلاً من المقدمة.

عَجزُ المَنطق عن مواجهة الحَقائق الدِّينية والإلهية:

مِن قَديمٍ وُجِدتْ مغالطةٌ فيما يتَّصل بالمنطق والفلسفة ، وهي أنَّ أصولهما

(١) الرد على المنطقيين: ص ٢٥٥.

وقواعدهما كما تعتبر عقلاً حاكماً حاسماً في العلوم العقلية؛ كذلك يُستعان بها في إثبات الحقائق الدينية والإلهية من غير أي تكلُّف، ويعترف بحكمها في هذه الحقائق.

ولكنَّ ابن تيمية يؤكِّد: أنَّ المنطق إذا نُزِّل منزلةَ ميزان فلا بد من أن يدور عمله في نطاق محدود، أما وَزنُ الحقائق الدينية على هذا الميزان؛ فيماثل وزن الذهبِ، والفضة، والجواهر في ميزان الحَطَبِ، والحديد، والرصاص، والحجارة.

يقول في «نقض المنطق»: «ومِن المعلوم: أنَّ موازين الأموال لا يُقصد أن يوزنَ بها الحَطب، والرصاص دون الذهب، والفضة، وأمرُ النُّبوات، وما جاءت بِه الرسل أعظمَ في العلوم من الذهب في الأموال، فإذا لم يكن في منطقكم ميزانٌ له كان الميزان ـ مع أنه ميزان ـ عائِلاً جائراً، وهو أيضاً عاجز، فهو ميزان جاهل ظالم؛ إذ هو إمَّا أن يَردَّ الحق، ويدفَعه، فيكون ظالماً، أو لا يَزِنُه، ولا يُبيِّن أمره، فيكون جاهلاً، أو يجتمعُ فيه الأمران، فيردُّ الحق، ويدفعه، وهو الحقُّ الذي ليس للنُّفوس عنه عِوض، ولا لها عنه مندوحة، وليست سعادتُها إلا فيه»[1].

وبالمناسبة يَحسُنُ بي أن أقتَطف كلاماً لابن خلدون الذي يُعتبر من كبار علماء النقد والتاريخ، وهو يشير إلى نفس المفهوم الذي يَدل على أن عديداً من رجال العالَم المتصفين بسلامة الطبع إنما تُعينهم سلامة طبيعتهم على التوصل إلى الحقيقة، وتتماثل أفكارهم، وآراؤُهم في موضوع واحد، إنه يتحدَّث عن مَحدودية العقل، وقِصَر باعِه عن إحاطة الحقائق الغيبية، والدينية، فيقول:

«بل العقلُ ميزانٌ صحيحٌ، فأحكامُه يقينيةٌ لا كَذِب فيها، غير أنك لا تطمعُ أن تزن به أمور التوحيد، والآخرة، وحقيقةَ النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكلَّ ما وراء طوره، فإن ذلك طمَعٌ في مُحال، ومثال ذلك مثال رجل رأى

(١) نقض المنطق: ص ١٦٣.

الميزان الذي يُوزن به الذهب ، فطمِع أن يَزِن به الجبال ، وهذا لا يُدرَك ، على أنَّ الميزانَ في أحكامه غيرُ صادق ، لكن العقل قد يَقف عنده ، ولا يَتعدى طوره ، حتى يكونَ له أن يحيط بالله وصفاته ، فإنه ذرة من ذرَّات الوجود»[(١)].

نَقْدُ المَنطق الفني بتفصيلِ واجتهاداتِ ابن تيميّة وزياداته:

لم يكتفِ ابنُ تيمية بتوجيه النقد الإجمالي ، والإيرادات الأساسية إلى فنِّ المنطق ، بل إنه تناول الفن بأسره بالنقد ، والاجتهاد ، والاحتساب العلمي ، ورفض كثيراً من أصوله ، ومُسلّماته ، وانتقدها من الناحية العقلية ، والفنية الخالصة ، وأثبت ضَعْفَ كثير من حُدوده ، ونَقْصَها ، وأوردَ له حُدوداً أحسن منها ، وخالف عديداً من قضاياه ، وترتيبها ، وأثبتَ ترجيح الاستقراء بإزاء القياس الذي هو أساس منطق أرسطو ، وادّعى: أنَّ الاستقراء طريقٌ طبعي أضمن وأسهل إلى طلب العلم واليقين ، كما أنه قدَّم عدة نظرات جديدة في المنطق والفلسفة وزاد إلى هذا الفن ، يقول المغفور له العلامة السَّيد سليمان الندوي في مقدمته على كتاب «الرد على المنطقيين» مُعترفاً بخدمته ، وعظمته في هذا المجال ، يقول:

«ما قاله المصنِّفُ في حَقيقة الحَدِّ ، والجنس ، والفصل ، واللُّزوم ، وحقيقة العلة ، والقياس ، والاستقراء ، والاستدلالِ بالمشهودات ، والاكتفاءِ بمقدمة واحدة في القياس ، وغيره من المباحث العويصة التي حل المُصنف مُشكلها ببيـان واضح، ودليل راهن، وما قال في العلة ، واللزوم هو عين ما قال هيوم (Hume) الفلسفي في كتبه ، ومسألةُ اللزوم والعِلِّية من المسائل العويصة التي ضلت في واديها الأفهام ، ونبعت من عيونها ضلَالاتُ الطباعيين من أهل الإلحاد ، وكم لهذا النابغة في هذا الكتاب من نوادر لم يَسبقه إليها أحد»[(٢)].

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ٣٨٥.

(٢) مقدمة الرد على المنطقيين: ص ق.

لا يَصحُّ التَّقليد في العُلوم العَقلية:

ويخشى ابنُ تيمية أن يقول الناس بعد ما يطَّلعون على إيراداته ، وخلافاته هذه التي يوجهها إلى العلوم اليونانية: إن العلوم اليونانية ذخيرة علمية قديمة أسهمتْ في ترقيتها ، وتهذيبها عقولُ نخبة من عدة أجيال ، وهي التي تولَّت إبلاغها إلى أوج الكمال ، والتقدم ، ولذلك فإنها بنَجْوة من أي احتمال للخطأ ، فإن تصدى أحدٌ من المتقدمين للانتقاد ، والاعتراض عليها؛ فإنما يرادف ذلك وقاحة ، وإضاعة للوقت.

ولكنَّ ابنَ تيمية لا يعترف بهذه القضية ، ويقول: إن هذه العلوم ما دامتْ عقلية مجرَّدة ، وهي لا تقوم إلا على أساس الفكرة والدراسة ، فأيُّ مبرِّر للتقليد البحث فيها ، حتى إن ناقليها لا يعتبرونها مبنيةً على أي وحيٍ أو إلهام إنما يبنونُها على العقل ، ولذلك فأهل العقل في كل عصر يحقٌّ لهم أن يتناولوها بالنقد والوزن في ميزان العقل ، ويرفض كل ما يعارض العقل ، إنه ينقل قول بعض شيوخ المنطق في كتابه «الرد على المنطقيين» «هذه علومٌ قد صقلَتْها الأذهان أكثر من ألف سنة وقَبِلها الفضلاء» ثم يردُّ عليه ويقول:

«هَبْ: أنَّ الأمرَ كذلك ، فهذه العُلوم عَقليةٌ محضةٌ ليس فيها تقليد لقائل ، وإنما تُعلم بمجرد العقل ، فلا يجوز أن تصحَّح بالنقل ، بل ولا يتكلم فيها إلا بالمعقول المجرَّد ، فإذا دل المعقول الصريح على بطلان الباطل منها؛ لم يَجُز رَدُّه ، فإن أهلها لم يدَّعوا: أنَّها مأخوذة عمَّن يجب تصديقه ، بل عن عقلٍ محضٍ ، فيجب التحاكم فيها إلى موجب العقل الصريح»[1].

انحِطاطُ العلوم العقلية وجمودها في العصر المتأخر في العالم الإسلامي ، وأهمية عمل ابن تيمية:

والواقعُ: أنَّ «المعقول» لا بدَّ أن يكون معقولاً على الدوام ، ولا يتحوَّل

---

(١) الرد على المنطقيين: ص ٢٠٨.

إلى «منقول»، ولكنْ لما أظلَّ الانحطاطُ العلمي ، والفكري العالمَ الإسلامي، ورفضتِ العقول والقِوى الفكرية أنْ تقوم بواجبها في جوٍّ من الحرية ، عاد علماء الحكمة ، والفلسفة اتِّباعاً لمن سبقهم مُقتفين آثارهم ، واقتنَعوا بالنقل والشرح لتحقيقاتهم ومؤلفاتهم ، ولم يعد أيُّ فرق بين المنقول والمعقول ، وكان أسمى مكانةٍ في العلم أن يتصدى المتأخِّرون لشرح كلام المتقدمين ، ويُعبِّروا عن مفاهيمهم بكلمات قليلة.

ذلك هو عصر الانحطاط في الشرق يوم انغلق باب الاجتهاد ، والتجديد ، والزيادة ، والعَمل المُنتج في العلم ، والحكمة.

أمّا أوربة ـ التي كانتْ قد اكتسبت المنطق ، والفلسفَة عن طريق المسلمين ، وتعلَّمت أفكارَ حكماء اليونان ، وفلسفتَهم بواسطة ابن سينا ، وابن رشد ـ فإنها لم تقتنعْ بهذا التراث العلمي إلا مدة يسيرة فقط ، ثم نهضت تُعيد النظر ، والتفكير في هذه العلوم ، وقامتْ بالتحقيق ، والتجربة بكل حرية ، الأمر الذي طوى بساط المنطق والفلسفة اليونانيين ، واحتلَّ الاستقراءُ محل القياس في المنطق ، ونالَتِ العلوم الطبيعية اهتمام الناس بعد ما فقدتِ العلومُ الإلهية ، وعلومُ ما بعد الطَبعية قيمتَها ، تلك التي لم يكن لها أيُّ دور في الحياة العلمية ، والعملية.

إنَّ هذه الثورةَ الفكريةَ لم تُخلِّف تأثيرها في أوربة فحسب ، بل تَعدَّتها إلى العالَم كله ، بالعكس من ذلك فقد تَمسَّكتْ أوساطُنا العلمية والمدرسية بالعلوم اليونانية ، وعضَّت على كُتب علماء الشرق ، وشروحِهم ، وتعليقاتهم في هذا الفن بالنواجذ ، كأنها هي العروة الوثقى ، وسِدرة المنتهى للفكر والنظر.

ولا شكَّ فإنَّ العمل الاجتهادي الذي قام به الإمام ابن تيمية من انتقاد الفلسفة ، والمنطق ، ومحاسبتَهما العلمية في صحراء التقليد ، والجمود العقلي كمنارةِ ضوء على الساحل ، ومعالم واضحةٌ في الطريق ، وهو يفتح بابَ الاجتهاد ، والتفكير من جديد.

* * *



الفصل الثالث

الرَّد على الفِرَق وَالمِلَل وَمقاومة عقائِدها وتقاليدِهَا وتأثيرها

تمهيد
نَقْدُ الدِّيانات والنِّحَل

لا يخفى أنَّ الإمامَ ابنَ تيمية قام بدورٍ ممتازٍ في مَجال انتقاد بعض الديانات ، والفرق ، وقضى مُعظم حَياته في هذا الجهاد العلمي ، وقد لا يخلو مؤلَّف من مؤلفاته من البحوث ، والمناظرة الكلامية ، إلا أنَّنا نختار مِن بين هذه الديانات والفِرق التي ناقشها ابن تيمية ديانة «المسيحية» ونِحلة «الشيعية» ، وذلك لأنه اختصَّهما بالنقد ، والتحقيق وأفرَد لكل واحدة منهما كتابين مستقلين لهما قيمتُهما ، وأهميتهما ، وهما : «الجوابُ الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» و«منهاج السنة النَّبوية في نَقض كلام الشِّيعة والقدرية» كما أنَّ بين هذه الديانة وتلك الفرقة مناسبةً لطيفة يُشير إليها الحديثُ النبوي الذي خُوطب فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو قوله ﷺ : «فِيكَ مَثلٌ مِن عيسى ، أبغضَتْهُ اليهودُ حتى بَهتوا أُمَّه ، وأحبَّته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة

التي ليس به»[١] ولسبب آخر، وهو أنَّ المسيحيةِ، والشيعية بمختلف فروعها، وأنواعها هما اللَّتان كانتا الفِرق، والديانات الحيَّة النشيطة في العصر الذي عاش فيه ابن تيميـة، ولعلَّ ذلك ما بعثَ ابن تيميـة على تركيـز اهتمامـه عـليهما، ووضع كـتُب مستقلـة تـتـفـرَّد بهما.

* * *

(١) [وفي الرواية: ثم قال (علي): يهلك فيّ رجلان محب مفرط يقرظني بما ليس فيّ، ومبغض يحمله شنآني أن يبهتني. أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ١٣٧) برقم (٨٤٨٨)، وأحمد في المسند (١/ ١٦٠) برقم (١٣٧٦)، وأبو يعلى في المسند (١/ ٤٠٦) برقم (٥٣٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه].

أ ـ الردُّ على المسيحية

حركةُ المسيحيّة الجديدة في العالم الإسلامي:

انتبهتِ المذاهبُ ، والدياناتُ الأخرى في الدول الإسلامية مع انحطاط المسلمين السياسي ، وجدَّدت نشاطها ، وكانت المسيحيةُ هي أنشط الديانات من بين هذه الديانات والمذاهب كلها في إبداء الجرأة والتغلُّب على غيرها .

فقد وُجد لأتباعها عددٌ وجيهٌ آنذاك في العالم الإسلامي ، سيَّما في مصر ، وسورية ، وبالأخص كانت سلسلةٌ من الدول المسيحية تتصل بأرض الشام ، وتمسُّها ثغور المملكة المسيحية الكبرى (مملكة قسطنطينية) المملكة البيزنطية .

ومعلومٌ: أَنَّ أوربة بدأت هجماتٍ متتابعة على الشام ، وفلسطين في أواخر القرن الخامس الهجري ، وهي التي تُعرف بالحروب الصليبية في التاريخ ، وفي خلال ذلك حُرم المسلمون جزءاً كبيراً من الشام ، وظلَّتِ القدس تحت سيطرة المسيحيين وولايتهم طوالَ تسعين سنة ، وبالرغم من أنَّ السلطان صلاح الدين الأيوبي كان قد هزم المسيحيين في ساحة حِطِّين هزيمةً مُنكرة ، واستردَّ القدس من أيديهم إلا أن دولَة مسيحية لم تزل موجودة على ساحل الشام ، وكانت همة المبشِّرين المسيحيين ، وعلمائهم ارتفعتْ بالفتح الصليبي حتى إنهم كانوا يحلمون بالاستيلاء على الشام ، وإقامة دولة مسيحية تحت ظلال الصليبية فيها .

إنَّ هجمات التَّتَرِ المتتاليةَ كانت قد أضعفتِ المسلمين ، وبَعثَتْ قوةً ، وهمة في المسيحيين ، وقد تحدَّثنا في الجزء الأول من هذا الكتاب: أنَّ التتار عندما دخلوا الشام منتصرين في عام ٦٥٨ هـ استقبلَهم المسيحيون خارج المدينة ،

وقدَّموا لهم الهدايا ، وقد كانوا رافعين صُلباناً على رؤوسهم ويقولون: قد غلب الدين الحق ، دينُ يسوعَ المسيح [١].

تأليفُ «الجَواب الصحيح»:

كانتِ المناظرةُ بين علماء المسيحية والقسِّيسين ، وبين المسلمين تدور حيناً لآخر ، وَيَردُّ علماء المسلمين على إيراداتهم ، ويفضحون مواضعَ الضعف في أقوالهم ، ولكنَّ الذي استرعى انتباه ابن تيمية إلى هذا الموضوع ، وجعله موضع اهتمامه الخاص هو أن مؤلَّفاً جديداً للمسيحيين في المناظرة وصل من قُبرص إلى الشام ، حاول فيه مُؤلِّفه إثبات المسيحية ، وإثبات عقائدها من طريق العقل والنقل.

كما أنَّه بذل قُصارى جُهدهِ في إثبات: أن بعثة الرسول ﷺ لم تكن عامة ، وإنما كانت تخص العرب وحدهم ، ولذلك فإن المسيحيين لم يكلَّفوا الإيمانَ به ، يبدو: أنَّ هذا الكتاب نال أهميةً كبرى في أوساط الشام العلمية ، والدينية.

إنَّ أصلَحَ رَجلٍ للرَّد على هذا الكتاب هو الذي يَتمتَّع بنظرٍ عميق واسعٍ في الفلسفة ، وعلم الكلام ، والعقائد ، والفِرق في جانب ، وفي جانب آخر يكُون مُطَّلعاً على صُحُف العهد القديم ، والعهد الجديد (بايبل) وعلى تاريخ المسيحية اطلاعاً كاملاً ، فبالنسبة إلى هذه الناحية لم يكن هناك أيُّ عالم أصلحُ من ابن تيمية لهذا العمل في ذلك العصر ، فتصدّى للكتابة في هذا الموضوع وألَّف كتاباً باسم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» [٢] في أربعة مجلَّدات ، لا يتميَّز في هذا الموضوع فحسب ، بل إنه يحتل مكانة ممتازة بين سائر مؤلفات ابن تيمية.

يدلُّ هذا الكتاب على سَعة نظره ، وتنوُّع دراسته ، واطلاعه الواسع العميق

---

(١) وللاطلاع على التفصيل راجع الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) هذا الكتاب يقع في ١٣٩٥ صفحة ، طبع في مصر في عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٠ م) باهتمام الشيخ فرج الله زكي الكردي ، والشيخ مصطفى قباني الدمشقي.

على تاريخ الديانات ، والصحف السابقة ، إنه لم يكتفِ فيه بأسلوب الدفاع والتزكية ، بل إنه نقد أُسس المسيحية ، ولم يعتمدْ في إثبات النبوة المحمدية على الدلائل القديمة المصطلحة التي تتَّسم بها كتب علم الكلام ومناظرة الفِرق ، بل إنه جاء ببراهينَ جديدة تُؤثر في النفس ، وتبعَث الإيمان في القلوب ، وتضطر كلّ رجل مُنصِف عاقل إلى الاعتراف بالحقيقة .

كما أنَّه شحَن هذا الكتابَ بمواد غزيرة لتاريخ المسيحيةِ ، وعلم الكلام المسيحي ، وإيرادات علماء المسيحية ، وتعبيراتهم ، وتأويلاتهم ، وبذخيرةٍ كبرى من بِشارات البعثة المحمدية ، ودلائل نبوءة النبي ﷺ ، ونبوءاته لا توجد مجتمعة في أي كتاب آخر ، بل يحتاج المرء للاطلاع على مِثلها إلى عملية تنقيب واسعةٍ في مكتبة كبيرة ، ولقد صدق الشيخُ محمد أبو زهرة عالمُ مصرَ الكبير عندما قال عن هذا الكتاب :

«وإنَّ هذا الكتابَ أهدأُ ما كتبه ابن تيمية في الجدال ، وهو وحدَه جديرٌ بأن يُكتب ابنَ تيمية في سِجل العلماء العاملين ، والأئمة المجاهدين ، والمفكِّرين الخالدين» (١) .

وفي الصفحات التالية نَقوم باستعراض إجمالي لهذا الكتاب؛ لكي نُقدِّم ملخَّصاً منه تتضح به وجهة نظره ، وتتجلى فيه روح الكتاب .

المَسيحيّةُ مزيجٌ مِن تعاليم سيدنا المسيح والوثنية الرومانية:

إنَّ معظمَ العلماء المسلمين ، والمؤلِّفين الذين تصدوا للردِّ على المسيحية ونقدِها ، وحاولوا الكتابة حولها كانوا قليلي المعرفة بتاريخ المسيحية ، إنهم زعموها مجموعةً لأقوال ، وأحوال سيدنا المسيح وبحثوا فيها كدينٍ سماويٍّ ، فأكرموها بما لم تكن جديرة به ، أمَّا ابن تيمية فله اطِّلاعٌ واسعٌ على تاريخ المسيحية ، ونموها التدريجي ، وتغيراتها ، ولا يجهل حقيقة أنَّ المسيحية الموجودة في عصره إن هي إلا مجموعة لتعاليم سيدنا المسيح ، وعقائد

(١) ابن تيمية : لمحمد أبي زهرة ص ٥١٩ .

الروم ، واليونان المشركة ، وتقاليدهم ، وعلم الأصنام ، ولذلك فإنه لا يقع فريسة الخطأ التاريخي الذي يقع فيه العامة من النُقَّاد ، ويتناول المسيحية الحاضرة بالنقد ، والرد عليها بكل جرأة وشجاعة ، إنه يقول :

«وكانَ الرُّومُ ، واليونان ، وغيرُهم مشركين ، يَعبدون الهياكلَ العُلويةَ ، والأصنام الأرضية ، فبعثَ المسيحُ عليه السلام رسلَه يدعونهم إلى دين الله تعالى ، فذهب بعضُهم في حياته في الأرض ، وبعضُهم بعدَ رفعه إلى السماء ، فدعَوْهم إلى دين الله تعالى ، فدخل مَن دخل في دين الله وأقاموا على ذلك مدَة ، ثم زيَّن الشيطان لمن زيَّن له أن يُغيرَ دين المسيح ، فابتدعوا ديناً مركَّباً من دين الله ورسله دينَ المسيح عليه السلام ، ومِنْ دين المشركين» (١) .

ويقول في مكان آخر :

«ولكنَّ النصارى رَكَّبوا ديناً من دينَين من دين الأنبياء الموحدين ودين المشركين ، فصار في دينهم قِسط مما جاءت به الأنبياء ، وقِسطٌ مما ابتدعوا من دين المشركين في أقوالهم وأفعالهم ، كما أحدثوا الأقانيم وهي ألفاظ لا توجد في شيء من كلام الأنبياء ، وكما أحدثوا الأصنام المرقومَة بدل الأصنام المُجسَّدة ، والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب بدل الصلاة إليها ، والصيام في وقت الربيع ليجمعوا بين الدّين الشرعي ، والأمر الطبيعي» (٢) .

المَسيحيَّة الحاضرةُ من وَضع عَهْدِ قسطنطين:

ويَتقدَّم خُطوةً ويوضِّح : أنَّ المسيحية أُصيبتْ بتحريفٍ ، وتغيير أكبر في عهد الملك قسطنطين ، الذي كان مَلِكَ الروم الشهير في القرن الرابع الميلادي ، والذي هو مُؤسِّس المملكة المسيحية الأولى ، وذلك عدا ذلك التحريف الذي دخل المسيحية في بَدء عهدها أيام بولس يقول :

---

(١) الجواب الصحيح : ج ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق : ص١٩٩ .

«النَّصارى تضعُ لهم عقائدَهم ، وشرائعَهم أكابرُهم بعد المسيح ، كما وضع لهم الثلاثمئة وثمانية عشر الذين كانوا في زمن قسطنطين الملك الأمانَة التي اتفقوا عليها ، ولعنوا من خالفها من الأريُوسيَّة ، وغيرهم ، وفيه أمور لم يُنزِّل الله بها كتاباً بل تُخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقلِ الصريح»(١).

وفي موضعٍ آخر :

«ولم يقولوا ما قاله المسيحُ ، والأنبياء ، بل ابتدعوا اعتقاداً لا يُوجَد في كلام الأنبياء ، فليس في كلام الأنبياء لا المسيح ، ولا غيره ذكر أقانيم لله لا ثلاثةً ولا أكثر ، ولا إثباتُ ثلاث صفات ، ولا تسمية شيءٍ من صفات الله ابناً لله ، ولا رباً ، ولا تسميةُ حياته روحاً ، ولا أن للهِ ابناً هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، وأنه خالق كما أن الله خالق إلى غير ذلك من الأقوال المتضمِّنة لأنواع من الكفر ، لم تُنقل عن نبيٍّ من الأنبياء»(٢).

المَكانةُ الصَّحيحة للأناجيل:

أخطأَ بعضُ علماء الإسلام ، فوضعوا الإنجيل في بحوثهم بإزاء القرآن ، والصُّحف السماوية الأخرى ، واعترفوا بأنَّه كتابٌ سماوي كسائر الكتب السماوية بتأثيرٍ من دعاوي العُلماء والمبشرين المسيحيين ، ولقد كان ذلك خطأً أساسياً ناتجاً عن مُجرَّد الجهل بتاريخ العهد الجديد ، أما الإمام ابنُ تيمية ؛ فإنه يُحلُّ الإنجيل محله الذي يستحقه ، إنَّ قيمة الصحُف الأربع للإنجيل عنده لا تعدو قيمة كُتب السيرة والحديث العامة في أيِّ حال ، يقول :

«إنَّ هذه المقالاتِ الأربعة التي يُسمُّونها الإنجيل ، وقد يُسمُّون كلَّ واحد إنجيلاً ، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رُفع المسيح ، فلم يذكروا فيها أَنها كلام الله ، ولا أن المسيح بلَّغها عن الله ، بل نَقلوا فيها أشياء من كلام المسيح ، وأشياء من

---

(١) الجواب الصحيح : ج ١ ، ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ، ص ١٣٤ .

أفعاله ، ومعجزاته ، وذكروا أنهم لم يَنقُلوا كل ما سمعوه منه ورأوه ، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبي ﷺ من أقواله ، وأفعاله التي ليست قُرآناً ، فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتاب السيرة ، وكُتب الحديث» (١) .

ويقول في موضع آخر :

«وأمَّا الإنجيل الذي بأيديهم ؛ فإنَّهم معترفون بأنه لم يَكتُبه المسيح عليه السلام ، ولا أملاَه على مَنْ كتبه ، وإنما أَملوه ـ بعد رفع المسيح ـ مَتَّى ، ويوحنا ـ وكانا قد صحبا المسيح ، ولم يحفظه خَلْقٌ كثير يبلغون عدد التواتر ـ ومُرقس ولوقا، وهما لم يَريا المسيح عليه السلام ، وقد ذكر هؤلاء : أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح ، وبعضَ أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله ، وأفعاله. ونَقْلُ اثنين ، وثلاثة ، وأربعة يجوز عليهم الغلَط لا سيما وقد غلِطوا في المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب» (٢) .

وهو لا يَتحدَّث عن الإنجيل وَحده بل يقول عن التوراة أيضاً :

«أمَّا التوراة فإنَّ نَقْلَها انقطع لما خَرِبَ بيتُ المقدس أولاً ، وأُجلي منه بنو إسرائيل ثم ذكروا : أنَّ الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخصٌ واحد يقال له عازر ، وزعموا : أنه نبي ومن الناس من يقول إنه لم يكن نبياً وأنها قُوبلت بنسخة وجدوها عتيقة ، وقيل : إنه أُحضرت نسخة كانت في المغرب ، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ، ولا يمنع وقوع الغَلط في بعضها ، كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يَلي نسخَها ومُقابلتها وحفظها القليلُ الاثنانِ والثلاثة »(٣) .

ويَستنتِجُ في الأخير بقوله :

---

(١) الجواب الصحيح : ج ٣ ، ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
(٣) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٦٨ .

«ليس مِن النصارى نَقلٌ متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل ، ولا نقلٌ متواتر ، ولا آحاد بأكثرَ ما هم عليه من الشرائع .

ولا عند اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ، ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقلٌ متواتر بالقرآن وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة» (١) .

ويتحدَّثُ عن الفَرق بين القرآن، والتوراة، والإنجيل فيقول: «إنَّ المسلمين تواتر عنهم عن نبيِّهم ألفاظُ القرآن ومعانيه المجمعُ عليها والسنة المتواترة ، وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومةُ الصدقِ بطُرق متنوعة ، كتصديق الأمة المعصومة ، ودلالة العادات وغير ذلك ، وهم يَحفظون القرآن في صدورهم لا يحتاجون في حفظه إلى كتاب مسطور ، فلو عُدمت المصاحفُ من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه ، بخلاف أهل الكتاب فإنه لو عدمت نُسخ الكتب لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها إذ لا يحفظها إلا قليل لا يوثق بحفظهم.

فلهذا كان أهل الكتاب بعد انقطاع النبوة عنهم يقع فيه من تبديل الكتب إما تبديلُ بعض أحكامها ، ومعانيها ، وإما تبديلُ بعض ألفاظها . ما لم يقوموا بتقويمه ولهذا لا يوجدُ فيهم الإسناد الذي للمسلمين ولا لهم كلامٌ في نقلةِ العلم ، وتعديلِهم ، وَجرْحهم ، ومعرفة أحوال نَقلة العلم ما للمُسلمين» (٢) .

التَّحريفُ في الأناجيل:

اشتُهِرَ عن ابن تيمية بوجه عام: أنه لا يقول بالتحريف اللفظي في التوراة والإنجيل إلا أن دراسة هذا الكتاب تنفي هذا الظن.

أمَّا حقيقة ما يقولُه ابنُ تيمية فهي أنه يؤكّد مراراً ، وتكراراً: أن الناس كلهم مُتَّفقون على وقوع التحريف المعنوي ، وبما أنَّ علماء اليهود والنصارى يقولون بالتحريف المعنوي ، فإنه يعتمد على ذلك في استدلالاته ، ويُقدِّمها بإزاء

---

(١) الجواب الصحيح: ص ٣٧٢.

(٢) المرجع السابق: ج ٢ ، ص ١٢ ، ١٣.

علماء اليهود والنصارى ، إنه يقول في إحدى المناسبات :

«وإذا عُرف أنَّ جميع الطوائف من المسلمين والنصارى يشهدون : أنه قد وقع في هذه الكتب تحريف ، وتبديلٌ في معانيها ، وتفاسيرها ، وشرائعها ، فهذا القدر كاف» (١) .

ويقول في مناسبةٍ أخرى :

«ولكنَّ علماء المسلمين ، وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف في المعاني ، والتفسير» (٢) .

ولكنْ هل وقع تحريفٌ في ألفاظ التوراة والإنجيل؟ .

فإنَّه لا يوافق على أن هذه الكتب مُحرَّفة من أولها إلى آخرها ، وليست فيها ألفاظها الأصيلة ، يقول : «ثم زعموا أن المسلمين يدَّعون أن ألفاظ هذه الكتب حُرِّفت كلها بجميع لغاتها بعد مبعث محمد ﷺ ، وهذا لم يَقُلْه أحد من المسلمين فيما أعلم» (٣) .

ولكنَّه يقول بالتَّحريف الجُزئي في هذه الكتب ، بحيث إنَّ ألفاظها قد بُدِّلت في مواضع عديدة ، وذلك هو مذهب الجمهور كما يقول :

«فجُمهور المسلمين يَمنعون هذا ، ويقولون : إنَّ بعض ألفاظها بُدِّل كما قد بدل كثيرٌ من معانيها» (٤) .

ويقول في محلٍّ آخر :

«والصَّواب الذي عليه الجمهور أنَّه بُدِّل بعضُ ألفاظها» (٥) .

---

(١) الجواب الصحيح : ج ١ ، ص ٣٧٦ .
(٢) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٨٠ .
(٣) المرجع السابق : ج١ ، ص ٣٧٤ .
(٤) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٧٣ .
(٥) المرجع السابق : ج٢ ص٤ .

إنَّ النَّصارى لم يَفهموا ألفاظ الأَنبياء:

إنَّه يعتقدُ: أن السببَ الكبيرَ في ضلال النصارى ومنه الفساد الذي تسرَّب إليهم من التثليث والعقائد المشركة إنما يرجع إلى أنهم لم يَفهموا كثيراً من ألفاظ الأنبياء عليهم السلام، ولا أدركوا مفاهيمها، كما قد حرَّفوا مفاهيم ألفاظ كثيرة، إنه يقول: «وإن القوم عندَهم من ألفاظ الأنبياء ما لم يفهموا كثيراً منه، وما حرَّفوا كثيراً منه، وعندهم من المعقول في ذلك ما يفضُلُهم اليهود فيه، لكنَّ اليهود وإن كانوا أعظم منهم فَهماً أعظمُ عناداً، وكِبراً، وجَحداً للحقِّ» (١).

إنَّه يؤكِّد على: أنَّ فَهْمَ هذه الكتب السماوية، والاستفادة منها بطريقٍ صحيح يتطلَّب فهمَ لغات الأنبياء، ومصطلحاتهم، يقول:

«إنَّ معرفة اللغة التي خاطَبنا بها الأنبياء، وحملَ كلامهم عليه أمرٌ واجب مُتعيّن، ومَنْ سلك غير هذا المسلك فقد حرَّف كلامهم عن مواضعه، وكذب عليهم، وافترى» (٢).

ونتيجةً لذلك وقع خطأٌ عظيم في فهم معاني «ابن» و«روح القدس» وظهرتْ عقيدةُ التثليث.

المَفهومُ الصَّحيحُ للألفاظ:

إنَّه يقول: «فأهلُ الكتاب نَقلوا عن الأنبياء: أنَّهم تكلَّموا بلفظ الأب، والابن، ومرادهم عندهم بالأب الرَّب، وبالابنِ المصطفى المختارُ المحبوب، ولم ينقلْ أحدٌ منهم عن الأنبياء أنَّهم سمَّوا شيئاً من صفَات الله ابناً، ولا قالوا عن شيء من صفاته: أنَّه تولَّد عنه، ولا أنه مولود له، فإذا وجد في كلام المسيح عليه السلام أنه قال: عَمِّدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس، ثم فسروا الابن بصفةِ الله القديمة الأزلية، كان هذا كذباً بيّناً على

---

(١) الجواب الصحيح: ج٢، ص ١٠٩.

(٢) المرجع السابق: ج١، ص١٨١.

المسيح حيث لم يكن في لغته: أنَّ لفظ الابن يراد به صفةُ الله القديمة الأزلية، كذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء: أنَّ حياة الله تُسمَّى روح القدس، وإنما يريدون بروح القدس ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء، والصالحين، ويؤيِّدهم»[١].

ويقول في موضعٍ آخر حيث يخاطِب النصارى:

«إنَّكم إنما ضَللتم بعُدُوْلِكم عن صريح كلام الأنبياء، وظاهره إلى ما تأوَّلتُموه عليه من التأويلات التي لا يدل عليها لفظه، لا نصاً ولا ظَاهراً، فعدلتُم عن المُحكَم، واتبعتمُ المتشابه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، فلو تمسَّكتم بظاهر هذا الكلام لم تضلوا، فإن «الابن» ظاهرُه في كلام الأنبياء لا يراد به شيء من صفات الله، بل يراد به وَليُّه، وحبيبه ونحو ذلك، وروح القدس لا يراد به صفته، بل يراد به وَحيه، ومُلكه، ونحو ذلك، فعدلتم عن ظاهر اللفظ، ومفهومه إلى معنى لا يدلُّ عليه اللفظ البتَّة»[٢].

كلمتا «الابن» و«روح القدس» مشتركتان عامتان:

ثم إنَّه يُثبت من عبارات التوراة، والإنجيل، والنصوص: أنَّ كلمتي «الابن» و«روح القدس» لا يختصَّان بسيدنا المسيح بل طالما استُعملتا في حق غيره يقول:

«لفظُ «الابن» و«روح القُدس» قد جاء في حقّ غير المسيح عندكم حتى الحواريين عندكم يقولون: إنَّ المسيح قال لهم: إنَّ الله أبي، وأبوكم، وإلهي وإلهكم، ويقولون: إنَّ روح القدس تَحلُّ فيهم.

وفيما عندكم من التوراة: أن الرَّب قال لموسى: اذهب إلى فرعون، فقُل له يقول لك الرب: ابني بكري أرسله يعبدُني، فإن أبيت أن ترسل ابني بكري؛ قتلتُ ابنك بكرك، فلمَّا لم يرسل فرعون بني إسرائيل كما قال الله؛ قتلَ الله

---

(١) الجواب الصحيح: ج٣، ص ١٨١، ١٨٢.
(٢) المرجع السابق: ص ١٥٥.

أبكار فرعون ، وقَومَه من بكر فرعون الجالس على السرير إلى الأول من أولاد الآدميين ، إلى ولد الحيوان إليهم .

فهذه التوراة تُسمِّي بني إسرائيل كلَّهم أبناء الله ، وأبكاره ، وتسمِّي أبناء أهل مصر أبناءَ فرعون ، وتتوسع ، فتسمى سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان .

وفي مزامير داود يقول : «أنت ابني سَلْني أُعطك» .

وفي الإنجيل يقول عن المسيح : «أنا ذاهب إلى أبي ، وأبيكم ، وإلهي وإلهكم» .

وقال : «إذا صليتم؛ فقولوا : يا أبانا الذي في السماء قُدُّوس اسمكَ افعل بنا كذا وكذا» .

ويقولون عن القِدِّيسين : «أن روح القدس يَحُلُّ فيهم» (١) .

وهكذا فإنه أثبت بالدلائل : أنَّ الألفاظ التي يَستدل به النصارى على ابنيَّة سيدنا المسيح ، وعلى الحلول ، والاتحاد ، والألوهية إنما جاءت في التوراة والإنجيل مِراراً وتكراراً لغير سيدنا المسيح ، وأنَّ كل هذه الكلمات كنايات ، ومجازات ، وتعبيراتٌ ، وفي الأخير يستنتج بقوله :

«وجماع هذا : أنَّ النبوات المتقدمة ، والكتب الإلهية ، كالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وسائر نبوات الأنبياء لم تَخُصَّ المسيح بشيء يقتضي اختصاصه باتحاد اللاهوت به ، وحُلوله فيه كما يقوله النصارى ، بل لم تخصَّه إلا بما خَصَّه به محمد ﷺ في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] .

فكُتُبُ الأنبياء المتقدمة ، وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد ﷺ يُصدِّق بعضهم بعضاً .

وسائر ما تَستدلُّ به النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك

(١) الجواب الصحيح : ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

الكلمات في حق غير المسيح ، فتخصيص المسيحِ بالإلهية دون غيره باطل ، وذلك مثل اسم الابن والمسيح ، ومثل حلول روح القدس فيه ، ومثل تَسميته إلهاً ، ومثل ظهور الرب ، أو حلوله فيه ، أو سكونه فيه ، أو في مكانه ، فهذه الكلماتُ وما أشبهها موجودة في حق غير المسيح عندهم ، ولم يكونوا بذلك آلهة» [١].

وقد يُعرِض المسيحيُّ عن هذه المنقولات ، ويَبحثُ في الأقانيم ، والحلول ، والاتحاد عن طريق العقل ، بحيث يُحوِّله إلى بحث فلسفي ، أو صوفي ، ولكن ابن تيمية تناولَ هذا الموضوع ، وأشبَعه بحثاً من وجهة النظر الفلسفية ، وبما أنَّ هذا الموضوع مما يَخصُّه ، وقد بحثه غير مرة بصدد الكلام حول العقائد ، ووحدة الوجود ، وعلم الكلام ينصرف إلى البحث فيه بكامل الانشراح والاهتمام ، ويُـثبت : أنَّه ليس كلاماً معقولاً ، بل إنَّه فلسفة مزعومة ، لا تَمتُّ إلى الحقائق والمعلومات بصلة ما» [٢].

أمور تُنافي العقل:

وعندما يُورِد على المسيحيين من الناحية العقلية حولَ عقيدة التثليث ، ويُـثبت أنَّ هذه العقيدة ليست مما يقبله العقل ، بل إنها تُعارض العقل الإنساني العام سُرعان ما يلتجئون إلى المنقولات ، ويقولون : هكذا تتحدثُ لنا الكتبُ السماوية ، وأنَّ هذه الأمور ، والعقائد حقائق هي وَراء طَوْر العقل ، والقياس ، فلا مَناص من تصديقها والإيمان بها ، من غير أن نُحاول الاعتماد على العقل فيها .

أمَّا الإمام ابن تيمية ؛ فإنه يرفض قبل كل شيء أنَّ هذه العقائد ، والتعاليم توجد في الكتب السماوية ، بل الحقُّ : أنَّ الكتب السماوية تحتوي على عكس هذه التعاليم ، والعقائد .

---

(١) الجواب الصحيح : ج٢ ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) ومن أراد التفصيل فليرجع إلى «الجواب الصحيح» ج٣ ، ص ١١٩ ـ ٩٠ ـ ١٩١ ـ ٢١٥ .

ثمَّ إنَّه يقول: إنَّ هناك شيئين مختلفين:

الأول: ما هو باطل، ومستحيل عقلياً، والكل يعلم: أنَّ ذلك محال.

والثاني: ما يتقاصر عنه العقل، ولا يستطيع أن يتوصل إلى حقيقته، ولا أن يحكم فيه بنَفي أو إيجاب، إنَّه يعتقدُ أنَّ تعاليم الأنبياء إنما هو من النوع الثاني، ومعنى ذلك أن كلامهم ليس فيه ما يعارض العقل، بل فيه ما وراء العقل، والفرق بين ما يعارض العقل، وبين ما هو وراء العقل كبير، إنه يقول:

«لايُميِّزون بين ما يُحيله العقل، ويبطله، ويعلم أنه ممتنع، وبين ما يَعجز عنه العقل، فلا يعرفه، ولا يعمل فيه بنفي، ولا إثبات، وأنَّ الرسل أخبرت بالنوع الثاني، ولا يجوز أن تُخبرَ بالنوع الأول، فلم يُفرّقوا بين مُحالات العقل ومحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولداً وشريكاً»(١).

إنَّه يُثبت بكلِّ قوَّةٍ وتأكيدٍ، وكتُبه كلها مليئةٌ ببيان: أنَّ الدين الصحيح لا يضادُّ العقل الصريح، يقول:

«وهذا الموضوع غَلِطَتْ فيه طائفتان من الناس:

غالية غَلَتْ في المقولات، حتَّى جعلتْ ما ليس معقولاً من المعقول، وقدَّمته على الحسِّ، ونُصوصِ الرسول.

وطائفةٌ جَفَتْ عنه، فردَّتِ المعقولات الصريحة، قدَّمت عليها ما ظنَّته من السمعيات، والحسيات.

وهكذا الناس في السَّمعيات نوعان، وكذلك هم في الحسِّيات الباطنة والظاهرة نوعان، فيجب أن يُعلم: أنَّ الحق لا ينقُض بعضه بعضاً، بل يُصدِّق بعضه بعضاً، بخلاف الباطل فإنه مختلف متناقض كما قال الله تعالى في

(١) الجواب الصحيح: ج٢ ص ٨٩.

المخالفين للرسل: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٧ ـ ٩].

وإنَّ ما عُلم بمعقولٍ صريحٍ لا يخالفه قط، لا خبرٌ صريح، ولا حسٌّ صحيح، وكذلك ما عُلِم بالسمع الصحيح لا يعارضه عقلٌ، ولا حسٌّ، وكذلك ما عُلم بالحسِّ الصحيح لا يُناقضه خبرٌ، ولا معقول»[1].

وذلك هو الفَرق بين المسيحية والإسلام، ففي الإسلام اتحاد تام بين العقل والنقل، اللهم إلا الحقائق الغيبية التي هي وراء العقل، ولكنها لا تُعارض العقل، خلافاً للمسيحية التي تَحتوي على كثير من المسائل، والعقائد المخالفة للعقل، ويعتبرُها كثيرٌ من علمائها معارضاً للعقل أيضاً، إلا أنهم يقولون: إنَّ هذه الأمور إنما هي وراء مرتبة العقل، ولا مناص من اعتقادها، والإيمان بها.

علماء النصارى القائلون بالتوحيد وعبديّة المسيح عليه السلام:

وقد أحسنَ (ابنُ تيميّة) في كتابه (الجواب الصحيح) وأوسعَه علماً مفيداً، وهو أنّه نقلَ فيه آراءَ علماءِ المسيحيّة، وأئمتها، وأقوالهم، الذين كانوا يعتقدون بعبدية المسيح عليه السلام، ويقولون بالتوحيد، إلا أنَّهم لم ينالوا أيَّ قبولٍ في العالم المسيحيِّ لأسبابٍ عدّة، وقد تناولَ بالمناسبةِ فِرَقَ النصارى، والمذهب الغالب عندَهم بنوعٍ من التفصيلِ، والشَّرْحِ، الأمر الذي يدل على اطلاعِه العميقِ، ومعلوماتِه الواسعةِ، ودِقَّةِ النظرِ؛ كما نقل بصدد الموضوع رسالةً طويلةً لعالمٍ حديثِ العهدِ بالإسلام اسمه (حسن بن أيوب) بسطَ فيها الأسبابَ التي دفعته إلى قبولِ الإسلامِ، والدلائل التي رجَّحَ بها الإسلامَ على الديانات الأخرى، وهذه الرسالةُ تحتوي على معلوماتٍ قيّمةٍ[2].

---

(١) الجواب الصحيح: ج ٣ ص ١٢٦.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٦٢ ـ و٣/ ٢.

بَشائرُ عن النبي ﷺ في التوراةِ والصُّحفِ السماوية:

وبعد انتهائهِ مِن ذلك نَقل ابنُ تيمية تلكَ البشائر، والنبوءات التي تُخبر بنبوة النبي ﷺ، وبعثته، وقد سار في ذكر هذه البشارات والنبوءات منهجَ الاستقصاء والاستيعاب، ولم يألُ جُهداً في نقل كلام وعبارة أشعياء النبي، وحبقوق، ودانيال، وسيدنا المسيح عليه السلام، ممَّا يتعلَّق بالنبي ﷺ.

وقد اجتمعَ في هذا الموضوع من المعلومات في هذا الكتاب ما يتعذَّر وجوده في أيِّ كتاب آخر، إنَّه تناول هذه النبوءات بالشرح، وأثبت: أنَّها لا تنطبق إلا على النبي ﷺ[١].

ومِن بَين هذه النبوءات نُبوءةٌ من إنجيل يوحنَّا بأن سيدنا المسيح عليه السلام قال: «إن أركونَ العالم سيأتي وليس لي شيءٌ» ومعنى أركون في العبرانية جليلُ القَدْر، والشأن، ويقال للعظماء والكبار أراكنة، يقول ابن تيمية: وهو يثبت: أنَّ مصداق هذه النبوة إنما هو النبيُّ ﷺ:

«فمعلومٌ باتفاق أهل الأرض، والاضطرار: أنَّه لم يأتِ بعد المسيح من ساد العالم باطناً وظاهراً وانقادتْ له القلوب، والأجساد، وأُطيع في السر والعلانية في محياه وبعد مماته في جميع الأعصار، وأفضلِ الأقاليم شرقاً وغرباً أحدٌ غير محمد، فإنَّ الملوك يطاعون ظاهراً لا باطناً، ولا يُطاعون بعد موتهم، ولا يُطيعُهم أهل الدين طاعةً يرجُون بها ثواب الله في الدار الآخرة، وَيخافون عقاب الله في الدار الآخرة بخلاف الأنبياء.

ومحمَّدٌ أظهرَ دينَ الرُّسل مثلَ موسى، والمسيح، وغيرهما في أمم عظيمة ولولا محمد لم يؤمنوا بهم، ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيه كاختلاف أهل الكتاب في المسيح، وكانوا يقولون في داود، وسليمان، وغيرهما بما هو معروف عندهم، وأيضاً فإنه ذكر لهم من الرسل

(١) الجواب الصحيح: ج ٣، ص ٣٦٢.

ما لم يكونوا يعرفونه ، مثل هود ، وصالح ، وشعيب ، وغيرهم» [١] .

المُعجزاتُ ودَلائل النبوءة:

وبعدَ الانتهاءِ من هذا الموضوع انتقلَ ابنُ تيمية إلى بيان معجزات النبي ﷺ ويَرى: أنَّها إذا سُمِّيت بها آيات الأنبياء؛ كانتْ أدلَّ على المقصود من لفظ المعجزات. وقد جَمع من ذخائر المعلومات شأنه في هذا الصدد ما لا يوجد مجتمعاً في كتاب واحد [٢] ، وقد احتوى هذا البحثُ على تعريف المعجزات ، وطريق إثباتها ، وعلى كثيرٍ من البحوث الكلامية ، والموضوعية ، والنُّكتِ اللطيفة.

ولم يكتفِ ابنُ تيمية في هذا البحث ببيانِ تلك المعجزات الشهيرة التي تتحدّثُ عنهَا كتب السيرة والكلام ، بل إنه وسَّع نطاق الآيات ، ودلائل النبوة إلى أن تضمن جميعَ سيرِه وشمائله التي هي أكبرُ حجة على النبوءة ، وأسطعُ برهان على النبوة المحمدية لدى المُنْصِفين ، وأصحاب النظر ، والبصيرة ، كأنه يلتقي مع الشيخ الرومي على هذه النقطة ، الذي يقول ما معناه:

«كُلُّ قَلْبٍ يتمتَّعُ بلـذَّةِ العلم ، ويتحـلَّى بالبصيرة يُـدرِكُ مـا في وجـه النبي ﷺ ، وصوته من معجزةٍ».

وقد عرضَ في هذه المناسبة عُصارة جيدة لسيرته ﷺ وشمائله ، إنَّه يوسع هذا النطاق ، ويقول:

«وسيرةُ الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقُه ، وأقوالُه ، وأفعالُه ، وشريعتُه من آياته ، وأمَّتُه من آياته ، وعِلم أمته ، ودينُهم من آياته ، وكراماتُ صالح أُمَّتِه من آياته» [٣] .

---

(١) الجواب الصحيح: ج٤ ، ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق: ج٤ ص٦٦ ـ ٢٢٤.

(٣) المرجع السابق: ج٤ ص ٧٨.

ثورةُ الإسلام والأمّة المحمدية معجزةٌ بذاتها:

وبعد بيانِ خلاصة السيرة الطيبة التي تَبعث قراءَتها إيماناً بأنه ﷺ نبيٌّ صادقٌ، مُؤيَّدٌ من الله، ورسولٌ حق، يقول:

«حتَّى ظهرتِ الدعوةُ في جميع أرض العرب التي كانت مملوءةً من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان، وطاعةِ المخلوق في الكفر بالخالق، وسَفْك الدماء المحرمة، وقَطيعة الأرحام، لا يَعرفون آخرةً، ولا معاداً، فصاروا أعلمَ أهل الأرض، وأدينَهم، وأعدَلهم، وأفضلَهم؛ حتى إنَّ النصارى لمَّا رأوهم حين قدموا الشام قالوا: ما كان الذين صَحِبُوا المسيحَ بأفضلَ من هؤلاء، وهذه آثار عِلمِهم، وعَمَلهم في الأرض، وآثار غيرهم، يَعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو ﷺ ـ مع ظهور أمرِه، وطاعة الخلق له، وتقديمهم له على الأنفس والأموال ـ مات ﷺ ولم يُخلِّف درهماً، ولا ديناراً، ولا شاةً، ولا بعيراً إلا بغلَته، وسلاحه، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير ابتاعها لأهله، وكان بيده عَقار ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يُورَث، ولا يأخذُ ورَثتُه شيئاً من ذلِك.

وهو في كلِّ وقتٍ يَظهر على يديه من عجائب الآيات، وفُنون الكرامات ما يَطولُ وصفه، ويخبرهم بخبر ما كان، وما يكون، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويُحرم عليهم الخبائث، ويُشرِّع الشريعة شيئاً بعد شيء، حتى أكمل الله دينه الذي بُعث به»[1].

«وأُمَّـتُه أكمَلُ الأمم في كلِّ فضيلةٍ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأممِ؛ ظهر فضل علمهم.

---

(١) الجواب الصحيح: ج٤، ص ٨١.

وإنْ قيس دينُهم ، وعبادتهم ، وطاعتُهم لله بغيرهم؛ ظهر أنهم أدينُ من غيرهم.

وإذا قيسَتْ شجاعتهم ، وجهادهم في سبيل الله ، وصبرُهم على المكاره في ذات الله ؛ ظهر أنهم أعظم جهاداً ، وأشجع قلوباً.

وإذا قِيسَ سخاؤهم ، وبذلُهم ، وسماحة أنفسهم بغيرهم؛ يتبين أنهم أسخى ، وأكرم من غيرهم.

وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله مُتَّبعين لكتابٍ جاء هو بتكميلهِ كما جاء المسيح بتكميلِ شريعة التوراة ، فكانتْ فضائلُ أتباع المسيح ، وعلومِهم بعضُها من التوراة ، وبعضُها من الزبور ، وبعضُها من النبوات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممَّن بعده كالحواريين ، ومَنْ بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة ، وغيرهم حتى أدخلوا لما غيروا دين المسيح في دينِ المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضةِ لدين المسيح.

وأمَّا أُمةُ محمدٍ ﷺ فلم يكونوا يقرؤون قبلَه كتاباً ، بل عامَّتُهم ما آمنوا بموسى ، وعيسى ، وداود ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ، ويُقروا بجميع الكتب المنزلةِ من عند الله ، ونَهاهم أن يُفرِّقوا بين أحدٍ من الرسل [(١)].

إعجازُ الشَّريعةِ المُحمديةِ:

ويتحدَّثُ عن كمال الشريعة المحمدية ، فيقول:

«وجاءتْ شريعتُه أكمَلَ شريعةٍ ، لم يَبق معروف تَعرف العقول: أنَّه معروف إلا أمر به ، ولا مُنكَر تعرف العقول: أنَّه منكر إلا نهى عنه ، لم يأمر بشيء ، فقيل: ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء ، فقيل: ليته لم يَنْهَ عنه.

---

(١) الجواب الصحيح: ج٤ ، ص ٨٢.

وأحلَّ الطيبات ، لم يَحرِّم شيئاً منها كما حُرِّم في شرع غيره ، وحَرَّمَ الخبائث ، لم يُحلَّ منها شيئاً كما استحلّه غيره.

وجمعَ محاسن ما عليه الأمم ، فلا يُذكر في التوراة ، والإنجيل ، والزبور نَوعٌ من الخبر عنِ الله ، وعن ملائكته ، وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه.

وأخبرَ بأشياء ليست في هذه الكتب ، فليسَ في تلك إيجابٌ لعدل ، وقضاء بفضْل ، وندب إلى الفضائل ، وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به ، وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيبُ في العبادات التي شرعها وعباداتِ غيره من الأمم؛ ظهر فضلها ، ورجحانها ، وكذلك في الحدود ، والأحكام ، وسائر الشرائع»[(١)].

وبعد ما ذكر بصَددِ الموضوع غايةَ العبادات ، وتحدَّث عن مختلف المذاهب ، ووجهات النظر عنها ، تَناول العباداتِ الإسلامية ، وبحث عن مقاصدها ، وأسرارها ، وفوائدها في غايةٍ من الحكمة ، كما أَثبتَ: أنَّ النبي ﷺ كان نموذجاً كاملاً للصدق ، والعدل ، وقد تجلّى هذا الصدق ، والعدل في خُلفائه الراشدين وأصحابه الكرام في حياتهم ، وحكومتهم ، وخِلافتهم ، ومعاملتهم ، وسياستهم ، وعاشوا حياة كُلَّها ورعٌ وزَهادة ، لا يوجد لها نظير في تاريخ العالم[(٢)].

الاعتقادُ بالنبوّة المحمّديّة واجبٌ على كُلّ مُقرٍّ بالنبوة:

ويُثبِت الإمامُ ابنُ تيمية بكلام واضح مُؤيّد بالدلائل: أنَّ كُلَّ عارف بمفهوم النبوة ، وقائلٍ بها ، ومؤمن بأيِّ نبيٍّ من الأنبياء لا يَسعُه إنكار النبوة

(١) الجواب الصحيح: ج٤ ، ص ٨١.
(٢) المرجع السابق: ص ١٠٤ ـ ١١٩.

المحمدية ، فإنَّ الدلائل التي يُعلم بها نبوة الأنبياء الآخرين يُعلم بها نبوة محمد ﷺ بطريق الأوْلى.

فإنْ قال قائلٌ: إن نُبوة الأنبياء تَثبت بالمعجزات؛ فإن معجزات النبي ﷺ أعظمُ ، وتواترها أبلغُ ، والكتاب الذي جاء به أكملُ ، وأُمّته أفضلُ ، وشرائعُ دينه أحسنُ ، فيَبطُل بتكذيب نبوّته جميع ما مع الناس من النُّبوّات [(١)].

ويَرى: أنَّ الإصرار على إثبات نبوات الأنبياء الآخرين ، وإنكارَ نبوة محمد ﷺ مَثلُه كمثلِ الذي يُقرُّ بعظمة علماء الفن ، وإمامتهم ، ويُنكر زعيمَ ذلك الفَنِّ ، وأستاذه الأول ، إنَّه يضرب لذلك أمثلةً عديدة طريفة ، يقول:

«وصار هذا كما لو قال قائل: إن زُفر ، وابنَ القاسم ، والمُزنيَّ ، والأثرَم كانوا فقهاءَ ، وأبا حنيفة ، ومالكاً ، والشافعيّ ، وأحمدَ ، لم يكونوا فقهاء.

أو قال: إنَّ الأخفشَ ، وابنَ الأنباري ، والمبرِّد كانوا نُحاةً ، والخليل ، وسيبويه ، والفرّاءُ لم يكونوا نُحاة.

أو قال: إنَّ صاحب المَلكي ، والمَسيحي ، ونحوهما من كُتب الطب كانوا أطباء ، وبقراط ، وجالينوس ، ونحوهما لم يكونوا أطباء.

أو قال: إن كوشيار ، والخِرقي ، ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة ، وبطليموس ، ونحوَه لم يكن له علمٌ بالهيئة.

ومَنْ قال: إنَّ داود ، وسليمان ، ومليخا ، وعاموص ، ودانيال كانوا أنبياء ، ومحمدُ بن عبد الله لم يكن نبياً ، فتناقُضه أظهرُ ، وفسادُ قوله أبيَنُ من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال: إنَّ موسى ، وعيسى رسولان ، والتوراةَ ، والإنجيل كتابان مُنزَّلان من عند الله ، ومحمد ليس برسول ، والقرآنُ لم ينزل من الله ، فبُطلان قوله في غاية الظهور ، والبيان لمن تدبر ما جاء بهِ

---

(١) الجواب الصحيح: ص ١٨٠.

محمد ﷺ ، وما جاء به مَنْ قبله ، وتدبّر كتابَه ، والكتب التي قبله ، وآيات نبوته ، وآياتِ نبوة هؤلاء ، وشرائع دينه ، وشرائع دين هؤلاء»[(١)] .

البِعثَةُ العامَّة لرسول الله ﷺ:

ومنِ الأَفضَل أَن أَختم هذا البحثَ بذِكر دَعوى النصارى التي ذكرها ابن تيميَّة في أول كتابه ، وهي أنَّ النبي ﷺ إنما كان قد بُعث خصيصاً إلى العرب الجاهلين ، وهم الذين كانوا مُطالبين بالإيمان به ، وأنَّ النصارى غير مضطرِّين إلى الإيمان به ، فإنْ لم يؤمنوا به؛ لا يؤاخذون على ذلك.

وهذه العقيدةُ شائعةٌ بين النصارى العرب وعُلمائهم اليوم أيضاً ، كما أن في بلادنا الهند وُجدت في بعض الأوساط فكرة : أنَّ الاتّباع الكامل للأديان السابقة يتكفَّل النجاة من النار ، ولا حاجةَ لمسيحيٍّ ، أو يهوديٍّ صادقٍ ، أو رجلٍ من غير المسلمين أن يُـؤمن بالنبوّة المحمدية ، وبما أن هذا الاعتقادَ الفاسد يقضي على جُذور الدعوة الإسلامية ، وبعثةِ الرسولِ العامة ، ويَنسَدُّ به بابِ الدعوة ، والتبليغ للإسلام ، وتذهب الجهود التي بُذلت في نشر الإسلام سُدىً؛ تصدَّى الإمام ابن تيميّة لردِّ هذا الاعتقاد الفاسد ، وركَّز كتابته في دحض هذا الباطل ، وتحدّثَ في هذا الموضوع في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» في الجزء الأول من الصفحة ٢٨ إلى الصفحة ٢٣٠ ، وتناوَلَه من الناحيتين العِلمية ، والاستدلالية بأكمل وجهٍ ، وأوسع طريق ، وهو مما يَدُلُّ على قُوَّة عارضته ، وتَعمُّق علمه ، وقد جمع في هذا البحث جميعَ نصوص الكتاب ، والسنة التي تقضي على كل شبهة تتطرَّق إلى بعثة النبي ﷺ بأنها كانتْ تختص العرب وحدهم ، أو أنَّ النجاة مأمولةٌ من غير الإيمان بنبوته ، يقول في موضع :

«وقال ﷺ : «وكان النبيُّ ﷺ يُبعثُ إلى قومه خاصةً ، وبُعثتُ إلى الناس عامة»[(٢)] .

---

(١) المرجع السابق : ج٤ ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب التيمم ، برقم (٣٣٥) ، والدارمي في السنن في كتاب =

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ومن دعوة المشركين، وعباد الأوثان، وجميع الإنس، والجن ما لا يُحصى إلا بكُلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فكيف يقال: إنَّه لم يَذكر: أنَّه بُعث إلا إلى العرب خاصة، وهذه دَعوتُه، ورسُله، وجهاده لليهود، والنصارى، والمجوس بعد المشركين، وهذه سيرتهُ ﷺ فيهم، وأيضاً فالكتاب المتواتر عنه وهو القرآن يُذكر فيه دعاؤه لأهلِ الكتاب إلى الإيمانِ به»[1].

ويقول في مكانٍ آخر:

«فهذه الدلائل، وأضعافُها مما تبيّن: أنَّه نفسه ﷺ أخبر: أنَّه رسول الله إلى النصارى، وغيرِهم من أهل الكتاب، وأنَّه دعاهم، وجاهدهم، وأمر بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا مما فَعَلَتْهُ أُمته بعده بدعةً ابتدعوها، كما فعلتِ النصارى بعد المسيح عليه السلام، فإنَّ المسلمين لا يُجوِّزون لأحدٍ بعد محمد ﷺ أن يُغير شيئاً من شريعته، فلا يُحلِّل ما حرم، ولا يُحرِّم ما حلل، ولا يُوجب ما أسقط، ولا يُسقط ما أوجب، بل الحلال عندهم ما حلَّله الله ورسولُه، والحرام ما حرَّمه الله ورسولُه، والدِّين ما شرَعه الله ورسوله»[2].

* * *

= الصلاة، باب الأرض كلها طهور...، برقم (١٣٨٩)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٠٤) برقم (١٤٣٠٣)، وابن حبان في الصحيح (١٤/ ٣٠٨) برقم (٦٣٩٨)، والبيهقي في السنن (١/ ٢١٢) برقم (٩٥٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه].

(١) الجواب الصحيح: ج٤ ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) المرجع السابق: ص ١١٧ ـ ١١٨.

ب ـ نَقْدُ الشّيعـة وآراؤهـا

كِتاب «منهاج السنة»:

لقد قام الإمامُ ابن تيمية بالردِّ على الشيعة في غير موضع من مؤلَّفاته ، وأدَّى حقَّ الدفاع القوي عن السُّنة ، وعقائد أهل السنة ، وعن الخلفاء الراشدين ، والصحابة الكرام رضي الله عنهم ، إلا أنه أفرد في موضع الردِّ على الشيعة كتاباً مستقلاً سمَّاه «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» .

أمَّا الباعثُ على هذا التأليف فهو: أنَّ العالم الشيعيَّ المعاصر الكبيرَ ابنَ المطهّر الحِلِّي ألَّف كتاباً ضخماً لولي نعمته ، ومخدومه الملك التاتاري «أوليجا خدا بنده خان» ، الذي كان قد تَشيَّع بفضل جُهوده التي بذلها في دعوته إلى الشيعية ، وقد سَمَّى هذا الكتاب باسم «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة» لإثبات الشيعة والإمامة ، والرد على السُّنية والخلافة .

وقد وَصل هذا الكتاب إلى الشام ، حيث اطَّلَع عليه شيخُ الإسلام ، وكان الشيعة يعتزُّون بهذا الكتاب ، ويظنون: أنَّ الرّد عليه مستحيلٌ ، ومعظم ما كان يحتوي عليه هذا الكتاب هو إثباتُ الإمامة لسيدنا علي كرَّم الله وجهه ، وعصمةُ أهل البيت رضي الله عنهم ، وعلى ردِّ خلافة الخلفاء الثلاثة ، والطعن عليهم وعلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، كما بُذلت فيه محاولةٌ لتفضيل سيدنا علي رضي الله عنه على غيره من الخلفاء ، وذكرُ فضائل الأئمة الاثنيَ عشر ، وإمامتهم ، وعصمتهم ، مؤيِّداً كلَّ ذلك بنصوص الكتاب والسنة ، مع توجيه المطاعن إلى الخلفاء الثلاثة والصحابة رضي الله عنهم مُبرهِناً عليها بالآيات ، والأحاديث ، والتاريخ ، والسير ، وقد تجلَّى في كلّ ذلك ذكاءُ المؤلف ، وقوّة

استدلاله ، وتبحُّره العلمي بغايةٍ من الوضوح والقوة ، واقتنع بأنه أقام بذلك الحجة على أهل السنة .

وبما أنَّ المؤلِّف معتزليُّ العقيدة في الأصول والعقائد كعامة المتأخرين من الشيعة؛ تصدى للبحث في الذات ، والصفات ، وفي عقائد أهل السنة ، وأصولهم بحثاً كلامياً فلسفياً .

وقد ألحَّ أهلُ السنة على ابن تيمية بأن يؤلِّف ردّاً على هذا الكتاب ، ومعلوم أنَّ هذا الكتاب يشمل أبحاثاً كثيرةً لعلم الكلام ، والعقائد ، والفلسفة ، والتفسير ، والحديث ، والتاريخ ، والآثار ، فكان من المناسب جداً أن يقوم للرد عليه رجلٌ يجمع بين النظرة العميقة الواسعة في جميع هذه العلوم والمواضيع ، وبين النَّقد والمعرفة لها .

وممَّا لا يخفى : أنَّ للمؤلِّفين من الشيعة جرأةٌ، ومهارة في وضع الأحاديث، واختراع الرواية ، وكان عِلمُ الحديث قد توسَّع آنذاك ووضعت له مجموعات ، ودواوينُ كثيرة كان من الصعب أن يميِّز الموضوعُ فيها من الصحيح ، وأن تنقد الروايات في ضوء مبادىء الجرح والتعديل ، وتوزن في ميزان فنّ الرجال بغايةٍ من الدقة والإتقان ، لذلك كانتِ الحاجة ماسّةً إلى رجل نابغةٍ في علم الحديث ، متبحِّرٍ في أسماء الرجال ، مُطَّلعٍ على جميع ذخائر الحديث ، عارفٍ بأحوال الروايات والرواة بحيث لا يمكنُ لَبْسُها عليه .

كما يكون ذا اطلاعٍ واسع على التاريخ الإسلامي حتى يستطيعَ أن يضع أُصبعه على موطن كل خطأ تاريخي ، ولا يفوتُه أيُّ افتراض ، أو اختلاق في الرواية .

ومن المسلَّم المعلوم: أنَّ توجيه الاعتراض والنقد إلى شخصية تاريخية عمل سهل جداً من بين ذخائر التاريخ الواسعة ، أما تزكيتها والدفاعُ عنها فأمرٌ صَعْب . وكان من المواضع المعجَب بها لدى الشيعة هو الطعن في الصحابة

رضي الله عنهم الذي كانوا يتَّخذونه مجالاً واسعاً لصَبِّ غيظهم ، وحِقدهم الدفين ضد أصحاب الرسول ﷺ .

ومِن حُسن حظِّ المسلمين: أنَّ الله تعالى قيَّض في نفس ذلك الزمن الذي أُلِّف فيه هذا الكتاب عالماً من علماء أهل السنة كان يُعتبر أمير المؤمنين في الحديث في عصره ، وقد عُني بالرد عليه. وكانت مكتبة الحديث ، والرجال ككتاب مفتوح أمام عينيه ، ذلك الرجل الذي قيل عنه في معرفته بالحديث: إنَّ الحديث الذي لا يعرفه هو ليس بحديث ، والحقيقة أنه (ابن تيمية) أدَّى فرض الكفاية عن الأمة في الرد على مطاعن الصحابة ، وقام بعمل تَعذَّر على غيره من العلماء بعدَه ، ولا شك: أنَّ علماء الإسلام بعده إنما يستفيدون منه في هذا الموضوع.

إنَّ كتابه «منهاج السنة» [١] الذي ألَّفه رداً على كتاب «منهاج الكرامة» لابن المطَهِّر الحِلِّي ، إنما يمتاز عن سائر مؤلفاته بميزة خاصة ، فمن أراد أن يطَّلع على تبحُّره العلمي ، وسَعةِ نظره ، وحُضور بديهته ، وقُوَّةِ حفظه واستحضارِه للمسائل ، ونُضجهِ ، وإتقانه ، وذكائِه ، وألمعيته؛ فليقرأ هذا الكتاب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨].

العَامِلُ في هذا الكتاب والباعِثُ عليه:

إنَّ العاملَ الرئيسيَّ في تأليف هذا الكتاب عندَ ابن تيمية ، والباعث عليه في الحقيقة هو أَنَّ صاحبَ «منهاج الكرامة» أطلقَ لسان الطَّعْن بأسلوب شائن في الخلفاء الراشدين ، والسابقين الأولين الذين يَعتقدهم الإمام ابن تيمية ـ كسائر

---

(١) يحتوي هذا الكتاب على أربعة مجلَّدات بالقطع الكبير ، ويقع في ١٢١٤ صفحة ، طبع في المطبعة الأميرية في مصر باهتمام الشيخ مصطفى البابي الحلبي ، وقد لخَّصه العلامة الذهبي باسم «المنتقى» الذي صدر حديثاً من مصر بعناية الشيخ محمد نصيف ، واهتمام الأستاذ محب الدين الخطيب.

أهل السنة ـ أفضلَ الخلق بعد الأنبياء ، وأصلحَ أفراد النوع البشري ، ولكنَّ صاحب المنهاج أثبتهم شرار الخلق ، وأرذل الكائنات ، الأمر الذي أزعج ابنَ تيميَّة ، وجعله يعلن بصراحة : أنَّ مثل هذا الاعتقاد يُرادف تقويض أركان الإسلام ويفتح باب الطعن والاعتراض على النبوة المحمدية ، ويُؤدي إلى الإلحاد والزَّندقة ، يقول في موضع ما معناه :

«لولا أنَّ هذا الرجلَ الجائر المتعدِّي حدودَ الأخلاق والحِشمة لم يتناول الصحابة الكرام رضي الله عنهم بالنَّقد اللاذع ، أولئك هم الرعيلُ الأول لأولياء الله ، وأئمةُ أهل الأرض ، وأفضلُ الخلق بعد الأنبياء ، ولولا أنَّ انتقاده سبَّب الفِتنة في الدين ، ووفَّر الحُجةَ للكفار ، والمنافقين ، وأحدَث الشكوك في قلوب كثير من المؤمنين ؛ لم نرَ حاجة إلى كشف القناع عن نـَقْد هذا الرجل . أَنْصَفَ الله من هذا الرجل ، وأتباعِه في العقيدة» .

الشِّيعة يرَون أن اليَهود والنصارى أفضلُ من خَير الأمم:

وفي مناسبةٍ أخرى يتحدَّث عن مطاعن الشيعة ، ونَيلهم من مكانة الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ فيقول : «وهذه الأمةُ خيرُ الأمم ، وخيرُها القرن الأول ، كان القرن الأول أكملَ الناس في العلم النافع والعمل الصالح .

وهؤلاء المفترون وَصفوهم بنقيض ذلك بأنهم لم يكونوا يعلمون الحقَّ ، ويتَّبعونه ، بل كان أكثرهم عندهم يعلمون الحق ، ويُخالفونه ، كما يزعمونه في الخلفاء الثلاثة ، وجمهور الصحابة والأمة ، وكثيرٌ منهم عندهم لا يعلم الحق ، بل اتَّبع الظالمين تقليداً لعدم نظرهم المفضي إلى العلم ، والذي لم يَنظره قد يكون لقُصوره ، ونَقص إدراكه .

وأدَى : أنَّ منهم مَن طلب الأمر لنفسه بحقٍّ يعني علياً ، وهذا مما علمنا بالاضطرار : أنه لم يكنْ .

فلزم من ذلك على قول هؤلاء أن تكونَ الأمة كلَّها كانتْ ضالَّةً بعد نبيها ، ليس فيها مُهْتَدٍ .

فتكون اليهودُ، والنصارى بعد النَّسخ، والتبديل خيراً منهم؛ لأنهم كانوا كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ اليهود والنصارى افترقتْ على أكثر من سبعين فرقة فيها واحدةٌ ناجية، وهذا الأمة على موجب ما ذكروا لم يكن فيهم بعدَ موت النبي ﷺ أمةٌ بالحقِّ ولا تَعدِل به، وإذا لم يكن ذلك في خيار قرونهم؛ ففيما بعد ذلك أولى، فيلزمُ من ذلك أن يكون اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خيراً من خير أمة أُخرِجت للناس»[1].

خِيار الأمة شِرارُها عندَ الشيعة:

ويقول في موضع آخر:

«فإنَّهم عمدوا إلى خيار أهل الأرض من الأوَّلين بعد النبيِّين والمرسلين، وإلى خير أمةٍ أخرجت للناس، فجعلوهم شرارَ الناس، وافتروا عليهم العظائم، وجعلوا حسناتهم سيئاتهم.

وجاؤوا إلى شرِّ من انتسب إلى الإسلام من أهل الأهواء وهم الرافضة بأصنافها غاليها، وإماميِّها، وزيديِّها، والله يعلم، وكفى بالله عليماً، ليس في جميع الطوائف المنتسبة إلى الإسلام مع بدعة وضلالة شرٌّ منهم، لا أجهل، ولا أكذب، ولا أظلم، ولا أقرب إلى الكفر، والفسوق، والعصيان، وأبعد عن حقائق الإيمان منهم، فزعموا أن هؤلاء هم صفوةُ الله من عباده.

فإنَّ ما سوى أمة محمدٍ كفارٌ، وهؤلاء كفَّروا الأمة كلَّها، أو ضلَّلوها سوى طائفتهم التي يزعمون: أنَّها الطائفة المُحقّة، وأنها لا تجتمع على ضلالة، فجعلوهم صفوةَ بني آدم، فكان مَثلهم كمن جاء إلى غَنم كثيرة، فقيل له: أعطنا خيرَ هذا الغنم؛ لنضحي بها، فعمد إلى شرِّ تلك الغنم إلى شاة عوراءَ، عجفاء، عرجاء، مهزولة، لا نِقْيَ لها، فقال: هذه خيار هذا الغنم لا تَجوز

---

(١) منهاج السنة: ج١، ص١٥٢.

الأضحية إلا بها ، وسائر هذه الغنم ليست غنماً ، وإنما هي خنازير ، يجب قَتلها ، ولا تجوز الأُضحية بها» (١) .

الإمام الشعبي يقول:

يُروى عن الشعبيِّ : أنَّ اليهود ، والنصارى أعرَفُ بمنزلة الأنبياء بالنسبة إلى الرافضة «سُئلت اليهودُ: مَنْ خَير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحابُ موسى ، وسُئلتِ النصارى: من خير أهل ملَّتكم ؟ قالوا: حواريُّو عيسى ، وسُئلت الرافضةُ: من شرُّ أهل ملَّتكم؟ قالوا: أصحاب محمد، أُمروا بالاستغفار لهم، فسَبُّوهم»(٢) .

المُعاداة للسابقينَ الأوّلين والمُوالاة للكفار:

«وهذا دَأْبُ الشيعة دائماً ، يتجاوزون عن جماعة المسلمين إلى اليهود ، والنصارى ، والمشركين في الأقوال ، والموالاة ، والمعاونة ، والقتال ، وغير ذلك ، ومَنْ أضلُّ من قوم يُعادون السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ويُوالون المنافقين ، والكفار» (٣) .

ثم يقول بعد ما ذكر مُناصرةَ الشيعة للكفار ، ومساعدتَهم إيَّاهم :

«وكثيرٌ منهم يُوادُّ الكفار من وسَطِ قلبه أكثرَ من موادته للمسلمين ، ولهذا لمَّا أخرج التركُ الكفارَ من جهة الشرق ، وقتلوا المسلمين ، وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان، والعراق ، والشام ، والجزيرة ، وغيرها؛ كانت الرافضة معاونةً لهم على المسلمين.

وكذلك الذين كانوا بالشام ، وحلب ، وغيرهم من الرافضة كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين.

---

(١) منهاج السنة : ج٣ ، ص ٤٠.

(٢) المرجع السابق: ج ١ ، ص٦.

(٣) المرجع السابق: ج٢ ، ص ٨٣.

وكذلك النصارى الذين قاتلوا المسلمين بالشام كانت الرافضة من أعظم المعاونين لهم.

وكذلك إذا صار لليهود دولةٌ بالعراق وغيره تكون الرافضة من أعظم أعوانهم، فهم دائماً يُوالون الكفار من المشركين، واليهود، والنصارى، ويُعاونوهم على قتال المسلمين، ومعاداتهم»[١].

العَصبيّة والانحِراف:

يذكر ابنُ المُطهر الحِلِّي في إحدى المناسبات في كتابه خواجه نصير الدين الطُّوسي، فيبالغُ في تقديسه، وتعظيمه، ويُضفي عليه الألقاب العظيمة فيقول: «شيخنا الإمام الأعظم خواجه نصير الملّة والحقِّ والدين محمد بن الحسن الطوسي قدَّس الله روحَه» وهنالك جاشت في ابن تيمية حميته الدينية فلم يَلْبَث أن تناول خواجه نصير الدين الطوسي، وفضائِحَه، ومؤامراته على قتل الخليفة العباسي[٢]، وصنيعته في مجزرة بغداد، وأفكارَه، وعقائده المُلحِدة، ويقول في غاية من الاستغراب:

«ومِنَ العجب: أنَّ هذا المصنِّف الرافضي، الكذَّاب، المفتري يذكر أبا بكر، وعمرَ، وعثمانَ، وسائر السابقين، والتابعين، وسائر أئمة المسلمين من أهل العلم والدين بالعظائم التي يفتريها عليهم هو وإخوانه، ويَجيء إلى من قد اشتُهر عند المسلمين محاربتُه لله ورسوله، يقول عنه: «قال شيخنا الأعظم» ويقول: «قدَّس الله روحَه» مع شهادته عليه بالكفر، وعلى أمثاله، ومع لعنه طائفة خيار المؤمنين من الأولين، والآخرين، وهؤلاء داخلون في معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) منهاج السنة: ص ٨٤.

(٢) حيث كان وزيراً لهولاكو.

سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾[1] [النساء: ٥١ ـ ٥٢].

تَناقُضات الشيعة:

يقولُ الإمامُ ابن تيمية: «ثم مِن جهل الرافضة: أنَّهم يُعظِّمون أنساب الأنبياء، آباءهم، وأبناءهم، ويَقدحون في أزواجهم، كل ذلك عصبيةٌ، واتباعٌ للهوى، حتى يُعظِّمون فاطمة، والحسن، والحسين، ويقدحون في عائشة أمِّ المؤمنين»[2].

ومِن تَناقض الشيعة: أنَّهم يُبالغون في تعظيم محمد بن أبي بكر (رضي الله عنه) ويَقدحون من شأن والِده أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يقول ابن تيمية:

والرافضةُ تغلو في تعظيمه على عادتهم الفاسدة في أنهم يَمدحون رجالَ الفِتنة الذين قاموا على عثمان، ويُبالغون في مدح من قاتل مع علي حتى يفضِّلون محمد بن أبي بكر على أبيه أبي بكر، فيلعنون أفضلَ الأمة بعد نبيها، ويمدَحون ابنه الذي ليس له صُحبة، ولا سابقةٌ، ولا فضيلة، ويتناقضون في ذلك في تعظيم الأنساب»[3].

البُغضُ للصَّحابة الكرام دليلٌ على ما في القلب من غلٍّ وخُبثٍ:

إنَّه يقول ما معناه: «أَكْبَرُ خُبثٍ للقلوب ومرَضها أنَ تنطوي على بُغض أولئك الرجال العظام؛ الذين كانوا خيار المؤمنين، ورَعيل أولياء الله الأُول، وتاج مَفْرِقِهم.

ولذلك فإنَّ في الفَيْء سَهماً لأولئك الذين ليس في قلوبهم غل للمهاجرين، والأنصار، والسابقين الأولين، بل يَدْعون، ويستغفرون لهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا

(١) منهاج السنة: ص ١٠٠.
(٢) المرجع السابق: ص ١٩٣.
(٣) المرجع السابق: ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

الطَّاعن في الشَّيخين لا يَخلُو من الحالين:

لا يجترئ على الطعن على أبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ إلا نَوعان من الرجال:

إمَّا منافق زنديق، عدوٌّ للإسلام الذي يتَّخذ الطعن عليهما ذريعةً للطعن على شخصية رسول الله ﷺ وعلى الإسلام، وفي هذه الحال عاش المُعلّم الأول[1] للرافضة، وتلك هي معاملةُ أئمة الغلاة.

وإمَّا جاهلٌ غالٍ في اتباع هواه وجهله، وهذه هي حالة العامة من الشيعة، إذا كانوا مسلمين في باطنهم يقول في «منهاج السنة»:

«قد عُرف بالتواتر الذي لا يَخفى على العامة والخاصةِ: أنَّ أبا بكر، وعمر، وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ كانَ لهم بالنبي ﷺ اختصاصٌ عظيم، وكانوا مِن أعظم الناس اختصاصاً به وصُحبة له وقُرباً إليه واتصالاً به، وقد صاهرهم كلَّهم، وما عُرف عنه: أنَّه كان يَذُمُّهم ولا يلعنهم بل المعروف عنه: أنه كان يُحبُّهم، ويُثني عليهم، وحينئذٍ فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً في حياته وبعدَ موته.

وإمَّا أن يكونوا بخلاف ذلك في حَياته، أو بعد موته، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا التقرب؛ فأحد الأمرين: إما عَدمُ عِلمه بأحوالهم، أو مُداهنته لهم، وأيُّهما كان؛ فَهو من أعظم القَدْح في الرسول ﷺ كما قيل:

فـإن كُنتَ لا تـدري فتلكَ مُـصيبةٌ وإن كنتَ تدري فالمُصيبةُ أعظَـمُ

وإنْ كانوا انحرفوا بعد الاستقامة؛ فهذا خُذلانٌ من الله للرسول في خواصِّ أُمته، وأكابر أصحابه، ومن قد أَخبر بما سيكون بعد ذلك أين كان عن عِلم

---

(١) [لعلَّه أراد به عبد الله بن سبأ، والذي كان رأس الطائفة السبئية، وكانت تقول بألوهية علي رضي الله عنه، كان أصلُه من اليمن، كان يهودياً وأظهر الإسلامَ].

ذلك؟! وأين الاحتياطُ للأمة حتى لا يولَّىٰ مثل هذا أمرها ، ومن وُعد أن يظهر دينه على الدين كله ، فكيف يكون أكابر خواصه مرتدِّين ، فهذا ونحوه من أعظم ما يقدَح به الرافضة في الرسول ﷺ .

كما قال مالكٌ وغيره .

«إنَّما أراد هؤلاء الرافضة الطَّعن في الرسول؛ ليقول القائل: رجلُ سوء كان له أصحابُ سوء ، ولو كان رجلاً صالحاً؛ لكان أصحابه صالحين» .

ولهذا قال أهل العلم: «إنَّ الرافضة دَسِيسَةُ الزَّندقة »[١] .

فَضائِلُ الصحابة ومَناقِبُهم مُتواترةٌ قَطْعية:

يعتقد الإمامُ ابن تيمية: أنَّ عدالة الصحابة الكرام أساسٌ مُهِمٌّ للإسلام ، إنه يؤمن بصدقهم ، وثِقتهم ، ويراهم أصدقَ مثال ، وأروع نموذج لتعاليم الإسلام ، وتربية الرسول عليه الصلاة والسلام، وأطيبَ ثمرة لصحبته ﷺ ، وإنَّ فضل الصحابة الثابت عنده بالقطعية ، والتواتر ، وبنصوص الكتاب ، وآياتِه ، وصحيح الأحاديث ، والروايات ، بحيث لا يتطرق إليه شكٌّ بأيِّ رواية تاريخية ، أو حديثٍ غريب شاذ ، إنه يقول:

«وإذا كان كذلك ما عُلم بالكتاب ، والسنة ، والنقل المتواتر من محاسن الصحابة ، وفضائلهم لا يجوز أن يُدفعَ بنقولٍ بعضُها متقطّع ، وبعضُها مُحرَّف ، وبعضها لا يقدح فيما عُلم ، فإنَّ اليقين لا يزول بالشك ، ونحن قد تيقنَّا ما دلَّ عليه الكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف قبلَنا ، وما يصدِّق ذلك من المنقولات المتواترة عن أدلة العقل من أنَّ الصحابة رضي الله عنهم أفضلُ الخلق بعد الأنبياء فلا يَقدح في هذا أمورٌ مشكوكٌ فيها ، فكيف إذا عُلم بُطلانها»[٢] .

---

(١) منهاج السنة: ج٤ ، ص ١٢٣ .
(٢) المرجع السابق: ج٣ ، ص ٢٠٩ .

الصَّحابة الكِرام ليسُوا معصومين عَنِ الخطأ:

إنَّـه يعتقـد: أنَّ الصحـابـة الكـرام لـم يكـونـوا معصـوميـن عـن الخطـأ كالرسول ﷺ ، كأَنْ يستحيلَ صُدور الذنوب منهم ، ولكنَّه يعتقدُ أنَّهم كانوا أعدلَ الأمة ، وأتقاها ، وأصدقَ الناس ، وأشدَّهم أمانة ، فإن صدرتْ منهم أخطاء؛ أو ذنوب فقد تَبعها حسناتٌ ، وأعمالٌ ترضي الله ورسوله ، كفَّرت عنهم سيئاتهم ، وعلى كلٍّ فإن كَفَّة حسناتهم ، وأعمالهم الصالحة راجحةٌ على تقصيراتهم ، وأخطائهم ، يقول: «وقد قدَّمنا أنّا لا نَدَّعي عصمةً في أحدٍ بعد رسول الله ﷺ من الذنب فضلاً عن الخطأ في الاجتهاد، وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣ ـ ٣٥] وقال تعالى:

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [1] [الأحقاف: ١٦].

لا نظير لهم في التاريخ:

إنَّه يُصرِّح بأنَّه ليس هناك جيلٌ في التاريخ البشريِّ من حيث المجموع أجملَ سيرة ، وأروعَ سلوكاً من الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ عدا الأنبياءِ عليهم السلام على رغم جميع الزَّلات ، والتقصيرات التي هي من خَواصِّ البشر ، فإن وُجد في حياتهم آثار من الأخطاء، والزَّلات؛ فمَثَلُها كمثل الثوب الأبيض يخالطُه شيء من السَّواد في بعض أجزائه ، والذَّنْبُ في الحقيقة يرجع إلى أولئك المنتقِدين؛ الذين يُدركون النُّقط السوداء في الثوب الأبيضِ ولا يدركون بياضه.

أمَّا حياة الطوائف الأخرى؛ فكلُّها سوداء ، ويخالطها نُقَطٌ بيضاء في بعض جوانبها ، إنَّه يقول:

---

(١) منهاج السنة: ج٣ ، ص ٢٤٢.

«وخِيار هذه الأمَّةِ همُ الصحابة، فلم يكن في الأمة أعظمُ اجتماعاً على الهدى ودين الحق، ولا أبعدَ عن التفرق والاختلاف منهم، وكل ما يُذكر عنهم مما فيه نقصٌ فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير، وإذا قِيس ما يوجد في الأمة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلاً من كثير.

وإنَّما يَغلَطُ من يَغلطُ: أنَّه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض، ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذي فيه بياض، وهذا من الجهل، والظُّلم بل يُوزن هؤلاء بنظرائهم، فيَظهر الفَضلُ، والرَّجحان.

وأمَّا ما يقترحُه كلُّ أحد في نفسه مما لم يُخلق، فهذا لا اعتبار به، فهذا يقترح معصوماً من الأئمة، وهذا يقترح ما هو كالمعصوم، وإن لم يُسَمِّه معصوماً، فيقترح في العالم، والشيخ، والأمير، والملك، ونحو ذلك مع كثرة علمه، ودينه، ومحاسنه، وكثرة ما فعل الله على يديه من الخير، يقترحُ مع ذلك ألاَّ يكون قد خَفيَ عليه شيء، ولا يُخطىءُ في مسألة، وأن يخرجَ عن حدّ البشرية، فلا يغضب، بل كثيرٌ من هؤلاء يُقترح فيهم ما لا يُقترح في الأولياء»[(١)].

ويشدِّدُ ابنُ تيمية على نقطة مهمة، وهي أن مَن يكون مُطَّلعاً على التَّاريخ، وتكونُ قد مرت عليه أحوال أممٍ، وشعوبٍ، وملل مختلفة، وتجارب جماعات بشرية متعددة يتيَقَّن: أنَّـه لا جماعة أكثرُ اتحاداً، واتباعاً للحق، وأبعدُ عن الفُرقة، والفتن، وأشدُّ نفوراً من النفسانية وحُب الدنيا من جماعة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، يقول:

«فمَن استقرأَ أخبارَ العالَم في جميع الفِرق؛ تبيَّن له أنه لم يكن قَطُّ أعظمَ اتفاقاً على الهدى والرشد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب رسول الله ﷺ الذين هُم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك؛ إذ يقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

---

(١) منهاج السنة: ج ٣، ص ٢٤٢.

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾ (١)

[آل عمران: ١١٠].

كُلُّ خَير يوجد لدى المسلمين إنما هو بِفَضل الصحابة الكرام:

وقد أصَاب الإمامُ ابنُ تيمية حينما قال: كُلُّ خيرٍ فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإسلام، والإيمان، والقرآن، والعلم، والمعرفة، والعباداتِ، وعوامل الخير والتوفيق إنما هو ببركةِ ما قام به الصحابة رضوان الله عليهم من الجهاد، والعمل، والإخلاص، وعلو الهمة، ونتيجة لتضحياتهم، وإيثارهم، وقُدسيتهم، يقول في غاية من الحماس:

«وأمَّا الخُلفاءُ والصحابةُ فكلُّ خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان، والإسلام، والقرآن، والعلوم، والمعارف، والعبادات، ودخول الجنة، والنجاةِ من النار، وانتصارِهم على الكفار، وعُلوِّ كلمة الله، فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلَّغوا الدين، وجاهدوا في سبيل الله، وكلُّ مؤمنٍ آمن بالله فللصَّحابة رضي الله عنهم عليه فضلٌ إلى يوم القيامة، وكلُّ خير فيه الشيعةُ وغيرهم فهو ببركة الصحابة، وخير الصحابة تَبَعٌ لخير الخلفاء الراشدين، فهم كانوا أقوَم بكلِّ خير في الدين والدنيا من سائر الصحابة (٢).

خِلافة سَيدنا أبي بكر الصديق دليل على النُّبوة والصِّدق:

وقد صَدَقَ الإمامُ ابن تيمية عندما قال: إن خلافة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ دليلٌ على كمال النبوة، وشهادةٌ على صدق النبوة أيضاً، فقد كانت طبيعتُه ﷺ طبيعةَ النبوة، لا طبيعةَ السياسة، ولا شَبه بينه وبين مُلوك العالم وسلاطينه الذين يختارون أولادهم أو أفراد أُسرهم خلفاءَهم، وأولياءَ

(١) منهاج السنة: ح ٣، ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق: ج ٣، ص ٢٤٥.

عهدهم ، فلو كانتْ عنده شائبةٌ من الملوكية ، أو إيثار لقرابة ، لوُجد هناك أفرادٌ كثيرون من بني هاشم ـ عدا علي بن أبي طالب وعباسٍ بن عبد المطلب رضي الله عنهما ـ يستخلِفهُم رسول الله ﷺ وأَسَّس مُلوكية خاصةً بأسرته ، وحَصر تلك الغَلَبة والعِزَّة التي أكرمه الله بها في قبيلته ، وأسرته إنَّه يقول :

«ثُمَّ خلافة أبي بكر، وعمر هي من كمال نُبوَّة محمد ﷺ ورسالتِه، وما يُظهر أنَّه رسولٌ حقّ ليس مَلِكاً من الملوك ، فإن عادة الملوك إيثارُ أقاربهم ، والموالاةُ بالولايات أكثر من غيرهم ، وكان ذلك مما يُقيمون به مُلْكَهم .

وكذلك مُلوك الطوائف ، كبني بُويه ، وبني سَلْجق ، وسائر الملوك بالشرق والغرب ، والشام ، واليمن ، وغير ذلك .

وهكذا مُلوك الكفار من أهل الكتاب ، والمشركين ، كما يوجد في ملوك الفرنج وغيرهم ، وكما يوجد في آل جنكشخان بأن الملوك تبقى في أقارب الملك . ويقولون هذا من العَظْم وهذا ليس من العَظْم أي من أقارب الملك .

وإذا كان كذلك فتولية أبي بكر ، وعمرَ بعد النبيِّ ﷺ دون عمه العباس ، وبني عمه عليٍّ ، وعقيلٍ ، وربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلب ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وغيرهم ، ودون سائر بني عبد مناف ، كعثمان بن عفان ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وأبَان بن سعيد بن العاص وغيرهم من بني عبد مناف؛ الذين كانوا أجلَّ قريش قدْراً ، وأقربَ نسباً إلى النبي ﷺ مِنْ أعظم الأدلة على أنَّ محمداً عبد الله ، ورسولُه ، وأنه ليس مَلِكاً حيث لم يُقدِّم في خلافتهِ أحداً لا بقُرب نَسَبٍ منه ، ولا بشرَفِ بَيته ، بل إنما قدَّم بالإيمان ، والتقوى .

ودلَّ ذلك على أنَّ محمداً ﷺ وأمَّته من بعده إنما يَعبدون الله ، ويُطيعون أمره ، لا يُريدون ما يريده غيرهم من العُلوِّ في الأرض ، ولا يريدون أيضاً ما أُبيح لبعض الأنبياء من الملك ، فإن الله خيَّر محمداً بين أن يكون عبداً رسولاً ، وبين أن يكون نبياً ، فاختار أن يكون عَبداً رسولاً .

وتوليةُ أبي بكر ، وعمر بعده من تمام ذلك ، فإنه لو أقام أحداً من أهل بيته ؛ لكانت شبهةً لمن يَظن : أنَّه جمع المال لورثته»[(١)] .

عَصبيّة النَّسَبِ الجاهليةُ:

الواقعُ أنَّ الفِرَق التي تدَّعي وصاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والتي لا تستسيغُ أن يَنال الخلافة أحدٌ آخر بالرغم من وجود ابن عمه الحقيقي وصهرِه إنما يتغلب عليها لونُ الجاهلية بأوسع معناه ، وهي تعيش في عصبيةٍ جاهلية للنسب والقرابة ، وتتقاصر عن إدراك : أنَّ المناصب ، والمنازل لا تُعطى على أساس النسب ، والقرابة بل على أساس الكفاءة ، والفضائل ، والجدارة التي تُوجد في الإنسان .

وكانتِ الأممُ كلُّها سواء في الهندِ ، أو العرَب ، أو الفرس تصطبغ بهذه الصِّبغة الخاصة ، ولذلك فإن الذين حكموا بِقطْعيَّة : أنَّ الخليفة لا بُدَّ هو عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، إنما فعلوا بحُكم عادتهم القومية ، وطبائعهم الجاهلية ، من غير أن يُدركوا مكانة الأنبياء عليهم السلام ، وطبيعتَهم ، وسماحَتهم ، وهِمَّـتهم العالية التي يعيشون فيها ، يقول الإمام ابن تيمية :

كلامُ الرَّافضة من جِنْس كلام المشركين الجاهلين يتعصبون للنَّسب ، والآباء لا للدين ، ويَعيبون الإنسان بما لا ينقص إيمانَه ، وتقواه ، وكلُّ هذا مِن فعل الجاهلية»[(٢)] .

انتِسابُ الرَّافضة إلى ولَد الحسين ومَدحُهم لهم مُصيبة عليهم:

يرى ابنُ تيمية : أنَّ الرافضة أصدقاء حمقى لأهل البيت ، فإن مبالغتهم في أمر أهل البيت ، وغُلُوَّهم ، ونِسبة الأحداث ، والروايات المزورة إليهم تنالُ من سمعتهم ، وتَحُطُّ من شأنهم ، يقول :

---

(١) منهاج السنة : ج٤ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

«مِن المصائب التي ابتليَ بها ولَدُ الحسين انتساب الرافضةِ إليهم، وتعظيمُهم، ومدحهم لهم، فإنهم يمدحونهم بما ليس بمدح، ويدَّعون لهم دعاوى لا حجة لها، ويَذكرون من الكلام ما لو لم يُعرف فضلهم من كلام غير الرافضة؛ لكان ما تذكره الرافضة بالقَدح أشبه منه بالمدح»[١].

ويقولُ في موضعٍ آخر:

«ولكنَّ القوم جُهَّال بحقيقة المناقب، والمثالث، والطُّرق التي يُعلم بها ذلك»[٢].

نَتائِجُ العَصبيَّة:

استطاع مؤلِّفُ «منهاج الكرامة» أن يَجمع قدراً كبيراً من الآيات، والأحاديث، والروايات كدليلٍ على إمامة سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ، وفي مناقب أئمة أهل البيت رضي الله عنهم. إنَّ نظرة عابرة في هذه الآيات، والأحاديث، والروايات تُبيِّن مدى أضرار العصبية التي تَنْحَرف بالمرء من الجادة الصحيحة إلى ضلال وجهل، إنَّ معظم هذه الروايات إما لا علاقة لها بأهل البيت بتاتاً، أو إنها تتناقض مع المعاني التي تُريد أن يُثْبِتهَا منها، كما أنَّ أكثرها ضعيفة، وموضوعة وقد وَصفها ابنُ تيمية بأنها «الروايات المُسَيَّبَةُ التي لا زِمام لها، ولا خِطام».

وقد بلغ مُؤلِّف «منهاج الكرامة» في ذلك من الوقاحة والجرأة مبلغاً لا يتصوره العقل، فقد نَسب كثيراً من هذا الروايات إلى «الصحيحين»، وكثيراً منها إلى «مسند أحمد بن حنبل»، وجاء ابن تيمية فكشف عنها القناع، وأثبت: أنها لا تُوجد في أية مجموعة من الأحاديث، ولا في دواوين السنة.

وبما أنَّ هذه الفرقة أجهلُ الناس بالكتاب والسنة، فإنها لا تستطيع أن تفهم مصطلحات عادية، فلا تتَردد شيئاً في الكذب، والتزوير بعض الأحيان.

---

(١) منهاج السنة: ص ١٢٥.
(٢) المرجع السابق: ج ٢، ص ١٢٥.

أمّا بخصوص الآيات فقد جاء المؤلف في تفسيرها بما لا يقل عن المِلَح الخُرافية ، وما أن يقرأ أحدٌ تفسيره للآيات إلا ويتذكر المِلحة المعروفة التي تدور حول سَاغبٍ سُئل عن اثنين كم يكون بعد الضرب في اثنين؟ فقال: أربعةُ أرغفة ، وقد أَدرجَ المؤلف في كتابه أربعين آية ، ويعتَقد: أنها نزَلت في سيدنا علي رضي الله عنه ، نذكر منها البعض:

١ ـ الآية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] يذكر المؤلِّف في تفسير هذه الآية حديثاً لأبي نُعيم يُفيد أنها نزلت بعد خُطبة غَدير خُمٍّ وقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضا الرب برسالتي ، وبالولاية لعليٍّ من بعدي»[1].

يُثبت ابنُ تيمية على طريقة المحدِّثين: أنَّ هذا الحديث موضوع بإجماع أهل الفنِّ ، ولا يُوجد في أي كتاب من كُتب الحديث الموثوق بها.

ثم يُثبت عن طريق التاريخ ، والتفسير ، ويقول: «إنَّ كُتُب الصحاحِ ، والمسانيد ، والتفسير تؤكد: أنَّ هذه الآية إنمانزلت في عرَفة ، وهو واقف بها ، وقال رجل من اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشرَ اليهود نزلتْ لاتَّخذنا ذلك عيداً ، فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أيَّةُ آيةٍ هيَ؟ قال قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ . . . ﴾ [المائدة: ٣] فقال عمر: إنِّي لأَعلَم أيَّ يومٍ نزلت ، وفي أيِّ مكانٍ ، نزلت يومَ عرفة بعرَفة ورسولُ الله ﷺ واقفٌ بعرفة، يقول ابن تيمية: «وهذا مُستفيض من وجوه أخرى، وهو منقول في كتب المسلمين الصحاح ، والمسانيد ، والجوامع ، والسِّير ، والتفسير ، وغير ذلك، وهذا اليوم كان قبلَ يوم غَديرِ خُمٍّ بتسعة أيام ، فإنه كان يوم الجمعة تاسعِ ذي الحجة، فكيف يُقال: إنها نزلت يوم الغدير!؟».

---

(١) لم أعثر على مصدره.

وأمَّا ما جاء في هذه الرواية من هذا اللفظ ، وهو قوله : «اللّٰهم وَالِ مَنْ وَالاه ، وعادِ مَن عاداه ، وانصر مَن نصره ، واخذل مَن خذله»[1] كَذِبٌ باتفاق المعرفة بالحديث ، ويقول : إنَّ دعاء النبي ﷺ مُجاب ، وهذا الدعاء ليس بمُجابٍ ، فعُلم أنه ليس من دعاء النبي ﷺ .

٢ ـ وقال مُؤلِّف «منهاج الكرامة» : إن قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ ـ ٢٠] عليٌ وفاطمةُ بينهما برزخ لا يبغيان النبيُ ﷺ ، وأوَّلَ ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ٢٢] الحسن والحسين .

يقولُ ابن تيميَّة رَداً على هذا الكلام:

«إنَّ هـذا ، وأمثاله قَول من لا يَعقل ما يقـول ، وهذا بالهذيان أشبـهَ منه بتفسير القـرآن ، وهـو مِن جِنس تفسيـر الملاحـدة ، والقِرامطـة الغـلاة للقرآن ، بل هو شرٌّ من كثير منه» .

وقد ذكرَ بعد ذلك ستةَ وجُوه تكذِّب هذا الرأي :

أَحدُها : إنَّ هذه في سورة الرحمن ، وهي مَكِّيةٌ بإجماع المسلمين ، والحسنُ والحُسين إنما وُلدا في المدينة .

والثاني : إن الله ذكرَ أنه مرجَ البحرين هذه في آية آخرى فقال في [الفرقان : ٥٣] ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان : ٥٣] فلو أراد بذلك علياً ، وفاطمةَ ؛ لكان ذلك ذمّاً لأحدهما بإجماع أهل السُّنة ، والشيعة .

والثالثُ : أنه لو أُريد بذلك عليٌ ، وفاطمة ؛ لكان البرزخ هو النبيَ ﷺ

---

(١) [أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٤٥) برقم (٨١٤٨) ، و(٥/ ١٣٠) برقم (٨٤٦٤) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ١١٨) برقم (٤٥٧٦) ، وأحمد في المسند (٤/ ٣٦٨) برقم (١٩٢٩٨) من حديث زيد بن أرقم ، ورواه أيضاً أبو هريرة ، والبراء بن عازب ، وغيرهما ، رضي الله عنهم أجمعين].

بزعمهم أهل أو غيرُه هو المانعُ لأحدهما أن يبغيَ على الآخر ، وهذا بالذمِّ أشبهُ منه بالمدح»[١] .

وهكذا فإنَّ هذا الجزء من كتاب «منهاج الكرامة» مَليءٌ بالغرائب ، والعجائب ، وقد تصدَّى ابن تيمية للرد عليه في ضوء الحديث ، والفقه ، والتاريخ ، والنَّقد بما يتبيَّن به مدى ذكائه ، ووفرة علمه ، وغزارة مادته ، وقُوة مناظرته ، إنَّه يقول وهو ينتقد دلائل المؤلف : «فَضْلُ عليٍّ ، وولايته للهِ ، وعُلُوُّ منزلته عندَ الله معلومٌ عند الناس ـ ولله الحمد ـ من طُرق ثابتة ، أفادتنا العلمَ اليقين ، لا يُحتاج معها إلى كَذبٍ ، ولا إلى ما لايُعلمُ صِدْقُه»[٢] .

والجُزء المهمُّ الآخرُ من كتاب ابن تيميَّة هو ما يبحث فيه عن «منهاج الكرامة» ويَـرُدُّ على المطاعن التي يتناولُ بها الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ بوجهٍ عام ويطعن بها في الشيخين بوجه خاص ، وفي أبي بكر الصديق رضي الله عنه بوجه أخص ، وهذه المطاعن والإيرادات على شخصية الصحابة والشيخين مأخوذةٌ من القرآن أيضاً كما يزعم المؤلّف الشيعي ، ومن الأحاديثِ ، وكُتُبِ السير ، والتاريخ أيضاً ، وهي دليلٌ على أن العداوة لا تَترُك أيَّ إنسان مهما كان عاقلاً ، ومتعلِّماً إلا وتُعميه ، ونُورد فيما يلي نموذجين لهذه المطاعن :

إنَّ الآية الشهيرة في القرآن التي تُعتبر أكبر دليل على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ومنزلتِه السامية التي يتفرَّد بها ، لا يعادلُه فيها أيُّ فرد من أفراد الأمة وهي قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

يقول صاحبُ «منهاج الكرامة» : إنَّه لا فضلَ له في الغار لجواز أن يَستصحِبه حذراً منه لئلا يُفشي سِرَّه ، وأيضاً فإن الآية تدل على نقيضه لقوله «لا تحزن» فإنه

(١) منهاج السنة : ج٤ ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) المرجع السابق : ج٤ ، ص١٧٦ .

يدل على خوفِه ، وقلَّة صبره ، وعدم يقينه بالله تعالى ، وعدم رضاه بمساواته النبي ﷺ وبقضاء الله وقدره ، . . . وأيضاً فإن القرآن حيث ذكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشركَ معه المؤمنين إلا في هذا الموضع ، ولا نقيضَ أعظمُ منه»[١] .

وقد أجاب عنه ابنُ تيمية أولاً بإثبات المناقب والفضائل الكثيرة التي جمعها الله تعالى في هذه الآية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبأنَّ هذه المعيَّة التي أكرم الله بها أبا بكر الصديق رضي الله عنه إنما كانت خاصةً به .

وأمَّا قول ابن المُطهِّر الحِلّي : «لجواز أَنْ يستصحبه حذراً منه لئلا يظهر أمره» يدل على أن النبي ﷺ لم يكن يثق به ، ولا كان مطمئناً من قبله «فمعلومٌ أن أضعف الناس عقلاً لا يخفى عليه حال من يَصحبُه في مثل هذا السَّفر الذي يُعاديه فيه الملأ الذين هو بين أَظْهُرهم ويَطلبون قتلَه ، وأولياؤه هناك ، لا يستطيعون نصره ، فكيف يَصحبُ واحداً ممن يظهر له موالاته دون غيره ، وقد أظهر له هذا حُزنه ، وهو مع ذلك عَدُوٌّ له في الباطن ، والمصحوبُ يعتقد أنه وليُّه ، وهذا لا يفعله إلا أحمق الناس ، وأجهلهم ، فقبَّح الله من نسبَ رسوله الذي هو أكملُ الخلق عقلاً ، وعلماً ، وخِبرة إلى مثل هذه الجهالة ، والغباوة»[٢] .

ويقول ابنُ تيمية :

«ولقد بلَغَني عن ملكِ المغول خربنداه الذي صنَّف له هذا الرافضي كتابه هذا في الإمامة : أن الرافضة لما صارت تقول له مثل هذا الكلام : أنَّ أبا بكر كان يُبغض النبي ﷺ وكان عدوَّه ، ويقولون مع هذا إنَّه صحبه في سَفَر الهجرة الذي هو أعظم الأسفار خوفاً؛ قال كلمة تلزمُ عن قولهم الخبيث ـ وقد برأ الله رسوله منها ـ : كانَ قليل العقل .

---

(١) منهاج السنة : ج ٤ ، ص ٢٣٩ .
(٢) المرجع السابق : ج٤ ، ص ٢٥٥ .

ولا ريَب: أنَّ منْ فعل ما قالته الرافضة فهو قليلُ العقل (وقد برّأ الله رسوله وصِدّيقه من كَذِبهم)»[١].

ثم تناولَ ابنُ تيمية كلام صاحب كتاب «منهاج الكرامة» جزءاً جزءاً ، رَدَّ عليه بتفصيل ، وذكر المواضع التي جاء فيها ذِكر الحزن ، والخوف في القرآن الكريم ، وأنَّ الحزن ، والخوف إنما ثَبتا لأولي العزم من الرسلِ ، والأنبياء ، وكبار الأولياء ، والصلحاء ، وأفراد أهل البيت ، أما قول الحِلّي: إنَّ القرآن حيثُ ذَكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشرَك معه المؤمنين ، يُوهمُ أنه ذكر ذلك في مواضع متعدِّدة ، وليس كذلك ، بل لم يَذكر ذلك إلا في قصة حُنين كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦] فذكر إنزال السكينة على الرسول والمؤمنين بعد أن ذكر تَوليتهم مدبرين»[٢].

وقد ذَكر إنزالَ السكينة على المؤمنين وحدَهم في مواضع عديدة من القرآن ، وتناول ذلك بالبحث ، والتفصيل.

والنموذجُ الثاني لهذا التعصب والجهل الأعمى لما جاء في كتب السِّير: أنَّ النبي ﷺ عندما كان في العريش يوم بدر كان أبو بكر رضي الله عنه أنيسَه ، يقول الحِلّي:

«وأمّا كونَه أنيسه في العريش يوم بدر فلا فضل فيه ؛ لأن النبي ﷺ كان أُنسُه بالله مُغنياً له عن كل أنيس ، لكن لما عرف النبي ﷺ أنَّ أمره لأبي بكر بالقتال يُؤدي إلى فساد الحال ، حيث هَرب عِدة مرار في غزواته»[٣].

---

(١) منهاج السنة: ج٤ ، ص ٢٥٦.
(٢) المرجع السابق: ج ٤ ، ص ٢٧٢.
(٣) المرجع السابق: ج ٤ ، ص ٢٨٤.

وقد حرّكتِ ابنَ تيميَّة هذه التهمةُ ، فثارت فيه حماسةُ الإيمان والصِّدق ، وردَّ عليه بقوله: «الجواب أنْ يقال لهذا المفتري الكذَّاب ما ذكرته من أظهرِ الباطل بوجوه:

أحدها: أنَّ قوله «هَرب عدةَ مرار في غزواته» يقال له هذا الكلام يدل على أن قائله من أجهل الناس بمغازي رسول الله ﷺ وأحواله ، والجهلُ بذلك غير منكَرٍ من الرافضة ، فإنهم من أجهل الناس بأحوال الرسول ، وأعظمهم تصديقاً بالكذب فيها ، وتكذيباً بالصدق منها ، وذلك أن غزوة بدر هي أولى مغازي القتال لم يكن قَبْلها لرسول الله ﷺ ولا لأبي بكر غزاةٌ مع الكفار أصلاً ، وغزواتُ القتال التي قاتل فيها النبي ﷺ تسع غزوات ، وأما الغزوات التي لم يقاتل منها؛ فهي نحو بضعَ عشرة.

وأمّا السرايا فمنها ما كان فيه قتال ، ومنها ما لم يكنْ فيه قتال ، وبكل حال فبَدرٌ أوَّلُ مغازي القتال باتفاق الناس. . . وليس قبلَها غزوة ، ولا سريّة كان فيها قتال إلا قصة بني الحضرَميِّ ولم يكن فيها أبو بكر ، فكيف يُقال: إنه هربَ قبل ذلك عدَّة مراتٍ في مغازيه.

الثاني: أنَّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ لم يَهْرب قط حتى يوم أُحد لم ينهزم لا هو ، ولا عمر. . . فمن أثبتَ ذلك عليهما هو المدَّعي لذلك؛ فلا بدَّ من إثبات ذلك بنَقْلٍ يَصْدُق.

الثالث: أنَّه لو كان في الجُبْن بهذه الحالة لم يخُصَّه النبي ﷺ دون أصحابه بأن يكون معه في العريش ، بل لا يجوز استصحابُ مثل هذا في الغزو ، فإنه لا ينبغي للإمام أن يُقدمه على سائر أصحابه ، ويجعله معه في عريشه [١].

التناقض في سيِّدنا علي رضي الله عنه:

يتَحدَّثُ ابنُ تيمية عن سيدنا علي رضي الله عنه ، ويُشبِّه الرافضة بالنصارى ،

---

(١) منهاج السنة: ج٤ ، ص ٨٤ ـ ٢٨٥.

فكما أنَّ النصارى اتخذوا أربابهم ، ورهبانهم أرباباً من دون الله ، واتخذوا المسيح ابن الله، ثم صوَّروا حادثَ صلبه بحيث إنه إنما يبدو إنساناً عاجزاً لا يَملك من أمرِه شيئاً ، ويُستهدف لكل إهانة ، وذُلٍّ ، واستهزاء ، وسخرية .

كذلك الرافضة الذين خلعوا على سيدنا علي رضي الله عنه صفات تثبت : أنَّ مكانته أرفع من مكانة النبيﷺ ولولاه لم يزدهر الإسلام ، ولم ينتشر في الآفاق ، ولم ينهزم الكفر ، ثم أثبتوا عَجْزه وضعفه بإزاء الخلفاء الثلاثة إلى أنه لم يستطع أن يستنكرَ ما قد كان يراه خلافاً لضميره ، وعقيدته ، ويحتملُ كل إهانة ، وذلة لنفسه ، ولأهل البيت من غير أن يحارب ذلك ، أو يدافع عنه، فهذا تناقضٌ صريح، يَعرفه كلُّ ذي عَقلٍ ، يقول ابنُ تيمية :

«وهؤلاء الرافضة يَجمعون بين النقيضين لفَرْط جهلهم ، وظُلمهم يجعلون علياً أكملَ الناس قدوة ، وشجاعة حتى يجعلوه هو الذي أقام دينَ الرسول، وأنَّ الرسول كان مُحتاجاً إليه، ويقولون مثل هذا الكفر؛ إذ يجعلونه شريكاً لله في إقامة دين محمدﷺ ، ثم يصفونه بغاية العَجز ، والضَّعْف ، والجَزَع ، والتَّقيَّة بعد ظهور الإسلام ، وقوّته ، ودخول الناس فيه .

ومِن المعلوم قطعاً: أنَّ الناس بعد دخولهم في دين الإسلام أَتبعُ للحق منهم قبل دخولهم فيه، فمن كان مشاركاً لله في إقامة دين محمد حتى قهر الكفار ، وأسلم الناس ، كيف لا يفعل هذا في قهر طائفة بَغَوْا عليه هم أقلُّ من الكفار الموجودين عند بعثة الرسولﷺ ، وأقلُّ منهم شوكة، وأقربُ إلى الحقِّ منهم»[١] .

مَبحَثُ الإمامة:

تناولَ ابنُ تيمية مبحثَ الإمامة بغايةٍ من التفصيل ، وأنكر بقوة ما يقولُه الإمامية في تعريف معنى الإمامة ، واعتبارها ركناً من أركان الدين ، وردَّ على جميع الدلائل التي يستدلُّون بها على إثبات الإمامة عقلاً ، ونقلاً ، ولا سيَّما

---

(١) منهاج السنة: ج ٤ ، ص ٥٦ .

عقيدةَ الإمام الغائب ، فقد استهزأ بها ، وأثبت : أنَّ هذه العقيدة لا تُـثمِرُ سوى الفساد ، والخِلاف ، والبِطالة ، والتعطُّـل » [١] .

الشِّيعة لا تَعتني بالكِتاب والسُّنة:

يقول ابنُ تيمية : «والرافضة لا تعتني بحفظ القرآن ، ومعرفة معانيه ، وتفسيره ، وطلب الأدلة الدالة على معانيه ، ولا تعتني بآثار الصحابة ، والتابعين حتى تَعرفَ مآخِذَهم ، ومسالكهم ، بل عُمدتُها آثارٌ تنقل عن بعض أهل البيت ، فيها صِدْقٌ ، وكَذِبٌ»[٢] .

تَعطيلُ الشيعةِ المساجدَ وَرَفضُهم الجُمعةَ والجَماعة:

ويقول : «وكذلك الرافضةُ غلوا في الرُّسل ، بل في الأئمة حتى اتخذوهم أرباباً من دون الله ، فتركوا عبادة الله وحده لا شريك له التي أمرَهم بها الرسل ، فتجدُهم يعطِّلون المساجد التي أمر الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه ، فلا يُصلُّون فيها جمُعة ، ولا جماعة ، وليس لها عندهم كبيرُ حرمة ، وإن صلَّوا فيها صلَّوا فيها وُحداناً ، ويُعظِّمون المشاهد المبنيَّة على القبور ، فيعكُفون عليها مشابهة للمشركين ، ويحجون إليها كما يُحَجُّ إلى البيت العتيق»[٣] .

متأخِّرو الشّيعة أتباعٌ للمعتزلة:

ويقول شيخُ الإسلام: «وهم في دينهم لهم عَقليات ، وشرعيات ، فالعقلياتُ متأخِّرُوهم فيها أتباع المعتزلة ، إلا من تفلسف منهم ، فيكون إمّا فيلسوفاً وإما مُمتزجاً من فَلسفةٍ واعتزال . ويَضمُّ إلى ذلك الرفض مثل مُصنِّف هذا الكتاب» [٤] .

---

(١) منهاج السنة : ج٣ ، ص ٥٠ ـ ٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٠ .

(٣) المرجع السابق : ج١ ، ص ١٣١ .

(٤) المرجع السابق : ج٣ ، ص ٤٠ .

فإنَّ مؤلِّف كتاب «منهاج الكرامة» قد أثار في هذا الموضوع بُحوثاً للعقائد والكلام يتجلَّى فيها لون الاعتزال والفلسفة بوضوح.

وقد ردَّ عليها جميعاً ابنُ تيمية بغايةٍ من التفصيل، ويتضمَّنُ كلامه هذا بحوثاً فلسفية، وكلامية عميقة، وبما أنَّ شيخ الإسلام غوَّاصٌ في بحور المعقول، والمنقول كليهما تناول الموضوع كعادته بشرحٍ وافٍ، وإيضاح كافٍ [1]، ولم يُغادر صغيرة، ولا كبيرة إلا أحصاها، وتَوصَّل إلى نتيجة: أنَّ اطلاع هذه الفرقة على العلوم العقلية عابرٌ سَطحي، حتى إنَّ علماءهم لا يُعدُّون تلاميذ الابتدائية في هذا العِلم.

التاريخ الماضي:

لقد أشار ابنُ تيمية في مواضعَ متعددة من مؤلَّفاتِه إلى أنَّ الشيعة في كل دور من أدوار التار يخ «يوالون أعداء الدين الذين يعرف كل أحد معاداتهم من اليهود، والنصارى، والمشركين، وليس لهم سعيٌ إلا في هدم الإسلام، ونقض عراه، وإفساد قواعده»، حتى اضطر أخيراً إلى أن يصرح فيقول: «فأيامهم في الإسلام كلُّها سود» [2].

أَهلُ السُّنة على طريق عادل:

يعتقد ابنُ تيمية: أنَّ أهل السنة هم وحَدهم الذين يأخذون بالقَصْد، والعدل في طريقهم من بين جميع فِرق المسلمين، وهم الذين يُعتبرون بمَعزِلٍ عن كلِّ إفراطٍ وتفريط، لا تعَارُضَ عندهم بين حُبِّ أهل البيت، وتعظيم الصحابة الكرام رضي الله عنهم، إنَّهم يجمعون بين هاتين النعمتين، وكِلتا الحسنيين، وذلك هو الإسلام الصحيح، إنه يقول:

«وأمَّا أهلُ السنة؛ فيتولَّون جميع المؤمنين، ويتكلَّمون بعلمٍ، وعدْلٍ،

---

(١) منهاج السنة: ص ٣٠ ـ ١٢٩.

(٢) المصدر السابق: ج٤، ص ١١١.

ليسوا من أهل الجهل ، ولا من أهل الأهواء ، ويتبرؤون من طريقة الروافض ، والنواصب جميعاً ، ويتولَّون السابقين الأولين كلَّهم ، ويَعرفون قَدْرَ الصحابة ، وفضلَهم ، ومناقِبَهم ، ويَرعَوْن حُقوق أهل البيت التي شرَعها اللهُ لهم» [١] .

* * *

(١) منهاج السنة : ج١ ، ص ١٦٥ .

الفصل الرابع

تجْديدُ عُلوم الشريعَةِ وتَنشيطُ الفِكر الإسْلامي

أ ـ تجديد علوم الشريعة

العَصْرُ الذي عاش فيه ابن تيمية

كانت العلوم الشرعية والدينية قد توسَّع نِطاقُها في العصر الذي وُلد فيه ابن تيمية سيَّما علوم التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصول الفقه ، فقد تكونتْ لها مكتبةٌ واسعةٌ ، إذا اطَّلع أحد على علم من هذه العلوم ، وعثرَ على الذخائر العلمية الموجودة آنذاك ـ ولو بإجمال ـ كان يُعتبر ذلك مأثرةً علمية كبرى لرجل متوسِّط .

وأمَّا عصْرُ ابن تيمية فقد امتاز بوجود عددٍ وجيه من علماءَ ، ومدرسين كان كلٌّ مطلعاً على هذه المكتبة الواسعة ، كما وُجد من بينهم عددٌ أتقن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة ، وحفظها في الصدور ، نظراً إلى ما كان يتمتع به من قوة الذاكرة والاشتغال بالعِلم ، وكثرة المطالعة ، والدراسة ، والتدريس ، وكان يتمكنُ من إعادة ما كان يحفظه من العلم ، والاستفادة منه بدون تكلُّف كلما ألجأتهمُ الضرورة إلى المُناظرة ، والتدريس ، فمثلاً العلامة كمالُ الدين ابنُ

الزَّمَلْكاني ، وتقي الدين عليُّ ابنُ السُّبْكي ، وشمسُ الدّين الذَّهبي ، وأبو الحجاج المِزيُّ كُلُّهم نموذجٌ لذلك .

إنَّ دراسة كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» تُفيد تقدير المدى الذي بلغ إليه هؤلاء العلماء منِ استحضار العلم والتبحر فيه ، وكثرةِ المحفوظات والتفنن في العلم ، وقد كان عديدٌ من رجال ذلك العصر ممن استحقوا أن يُسمَّوا دائرة معارف العلوم الشرعية بكل جَدارة .

إنَّ هؤلاء الرجال وإن كانوا مُتوسِّعين في العلم والمعلومات إلا أن النقل كان فيها غالباً على العقل والتفكير ، فكانت الحاجةُ ماسَّةً إلى رجال لهم نظرةٌ ناقدةٌ وخِبرةٌ تامةٌ بهذه الذخائر العلمية كلها ، يحملون قوة الموازنة بين آراء المتقدمين ، وأفكارهم ، كما يتفرَّدون بآرائهم ، ونظرياتهم الخاصة في المسائل والمشكلات .

لقد كان المتأخِّرون منِ العلماء في ذلك العصر يكتفون بالتبحر في التراث العلمي الذي كان قد خلَّفه المتقدّمون ، والاشتغال بشرحهِ ، وتوضيحه ، واختصاره ، وتلخيصه ، فكان العَمل العلمي راكداً لم يكنِ يَنال من زيادةِ قيمة ، ولا كانت تتوسعُ آفاقه ، وكانتِ المكتبة العلمية تشكو فُقدان الكتب التي تتسم بالأصالة ، والاجتهاد .

أمَّا الكُتب التي كانت تُعتبر منعدمة النظير في ذلك العصر ؛ فلم تكن لها ميزة سوى أنَّ مؤلّفيها كانوا قد جمعوا فيها المواد المُبعثرةَ ، ورتّبوا المعلومات المتفرِّقة السابقة بتَنسيق جيد ، أو أنها كانت شرحاً جيداً لمتنٍ فِقهيٍّ سابقٍ .

خَصائِص ابنِ تيميـَّة العلميـةُ والتَّأليفيـة:

تبحَّر ابنُ تيمية ـ بفضل ذكائه ، وقوةِ ذاكرته الموهوبة ـ في هذه الذخائر العلمية بأكملها ، واستساغها فكرياً ، واستفادَ منها في مؤلفاته استفادة كاملة ، إلا أن نفسَه الطموحة المضطربة ، وعقلَه النادر الكبير ، وقلَمه السَّيالَ البليغ ، لم يكن كلُّ ذلك يُقنعه بأن يكتفي بالنقل ، والرواية ، والشرح ، والتلخيص ، أو

الاختبار ، فما كاد يُفارقه علمه العميق بكتاب الله تعالى ، واطِّلاعه الواسع الصحيح على مقاصد الشريعة ، وملكته الراسخة في أصول الفقه وأصول التشريع في أي مرحلة من مراحل تأليفه ، وكُلُّ موضوع يريد أن يؤلِّف فيه يَنفخُ فيه روحاً جديدة بعِلمه الناضج الطري ، ولذلك لا نَجد أي كتاب من كتبه يخلو من حقائِقَ علمية جديدةٍ ، وبحوث ناقدة ، ومباحثَ أصولية جديدة ، بل إنَّ مؤلفاته تَشُقُّ طريقاً جديداً لفهم الكتاب ، وتَفتح باباً جديداً إلى إدراك مقاصد الشريعة.

وقد سبقَ أن تناولنا كتابين ضخمين من كُتبه بالنقد والتلخيص في تفصيل ، وهما: «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» و«منهاج السنَّة» وله عدا هذين الكتابين عدَّةُ مؤلَّفات تشهد بأفكاره ، وآرائه الاجتهادية ، وذكائهِ الخارق ، وقوة نقده ، وتُهيىء للعقول في كل عصر غذاءً دَسماً صالحاً من العلم والفكر ، ويَجدُ فيها أهلُ العلم في كل زمان بُغيتهم من المعلومات الجديدة ، والدلائل الطريفة ، والتحقيقاتِ الحديثة ، فمثلاً «كتاب النبوءات» و«الردُّ على المنطقيين» و«اقتضاء الصراط المستقيم»[1] ، ليستْ منَ المؤلفات العلمية القيمة ذات المستوى العالي والمتفرِّدة في مواضيعها فحسب ، بل إنها كُتبٌ تفتح آفاق الفكر ، وتُعِدُّ العقول للتفكير ، وتَعرِض عليها مجالاتٍ جديدة ، للمسائل العلمية ، والقضايا الفكرية.

التَّفسيرُ:

خَصَّ ابنُ تيمية التفسيرَ بتأليفه ، وتفكيره ، كموضوع مُفصَّل ، وقد غلب عليه ذوق التفسير إلى حدٍّ لا يخلو أي كتاب مـن كتبـهِ عن مواد التفسير ،

---

(١) إنَّ هذا الكتاب وإنَّ كان يدور حول عدم التمسك بتقاليد غير المسلمين ، وشعائرهم ، والامتناع عن الاشتراك في مناسباتهم ، وأعيادهم الدينية ، إلا أنَّ الكتاب يحتوي ـ كما هو المألوف من المؤلِّف ـ على مباحث ، وعلوم نفيسة ، ويصلح أن يحتلَّ محلاً عالياً بين مؤلَّفات شيخ الإسلام ، أصدرت إحدى طبعاتها جمعية أنصار السنة في القاهرة.

والاستدلال بالآيات ، وشرْحِها وتفسيرها ، إنه لا يمر بآية إلا ويَتناولها بالشرح والتفسير ، ولذلك فإن الذخائر التفسيرية التي تركها تربو على ثلاثين مجلداً ، كما يقول تلاميذه ، ولا شكَّ فإنها إذا جُمعت؛ لتكوَّنت ذخيرة تفسيرية لها قيمتها واعتبارها ، ولكانَ تفسير ابن تيمية من أجود التفاسير ، وأجمعها لما قد رزقه الله تعالى من نِعمة التعمُّق في الفِكر والنظر ، وسلامَة الذوق ، والتبحُّر الكامل في الروايات ، والاستشهادِ بها ، وتطبيق الآيات على الحياة ، والاطلاع على المجتمع الذي عاش فيه ، وروح الدعوة ، ودوافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحَمية الدين.

ولو أنَّ تفسيره الكامل المتَّصل مفقودٌ ، ولكنَّ تفسيرَه لسور عديدة مطبوع موجود ، وهو يكفي لتقدير خصائصه التفسيرية ، وقد صدر «تفسير سورة الإخلاص» ، و«تفسير المعوذتين» ، و«تفسير سورة النور» منذ زمن طويل في مصر ، كما صدرت مجموعة من التفسير ، مأخوذة من كتبه المختلفة ، منذ زمن قريب [١] ، لقد عُرِفتْ صلتُه بالتفسير واشتغالهُ به في حياته أيضاً ، وكانت تُعتبر ميزتَه العلمية ، ولما نودي للصلاة عليه بعدَ وفاته سُمِّي بهذا الاسم: «الصَّلاة على تُرجمان القرآن» ، وله رسالة وجيزةٌ في أصول التفسير ، وهي رسالته الأولى الخاصة بأصول التفسير فيما نعلم.

الحَدِيثُ:

وإنْ لم يكنْ له كتابٌ مستقلٌ في فَنِّ الحديث وشرحه ، وكان هذا الفنُّ قد بلغ ذروة الاتساع ، والكمال في القرنين السابع ، والثامن حيث لم تَعُدْ هناك حاجةٌ إلى تأليف ، أو شرح للحديث ، إلا أنَّ مؤلفاته تحوي مواد غزيرة لأصول الحديث ، وأسماء الرجال ، والجرح والتعديل ، ونقدِ الحديث ، وفِقه الحديث ، حتى إذا جُمعت في كتاب مستقل؛ تكوَّنت ذخيرةٌ قيمة [٢] ، وكانت

---

(١) صدر هذا التفسير باسم «تفسير ابن تيمية» من المطبعة القيمة في بمبائي.

(٢) [ولشيخ الإسلام كتابٌ في علوم الحديث ، طُبع في دار الحرم للتراث بالقاهرة ، بتحقيق=

تأليفاً ضخماً ، وبالأخصِّ فإن آراءه فيما يتصل بالأحاديث الموضوعة تبلُغ من الصراحة والتحقيق إلى حدٍّ يصعب العثور عليه في مكان آخر ، والمواد التي نطَّلع عليها حول هذا الموضوع في كتاب «منهاج السنة» وما بحثه هو عن عشرات من الأحاديث المشهورة ، والمتداولة ، كلٌّ ذلك ذخيرةٌ نادرةٌ قيمةٌ.

أُصولُ الفقه:

كان هذا الموضوعُ ممَّا يرَغبُ فيه ، ويتذَّوقُه ، وقد حصلتْ له فيه مَلَكةٌ راسخة ومكانةٌ اجتهادية ، ولذلك نرى أنَّ مؤلَّفاته كلها تحتوي على هذه المباحث الأصولية ، ولا سيما كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» ومجموعُ فتاواه ينطويان على أكبر مقدارٍ من المباحث الأصولية ، كما أنَّ له رسائل مستقلة في هذه الموضوع ، كـ «رسالة القياس» و«منهاج الوصول إلى علم الأصول» وما إلى ذلك.

عِلمُ الكَلام:

لو ذهبنا نُحلِّل مؤلَّفات ابن تيمية ؛ لوجدنا علمَ الكلام والعقائد يَشغل نِصف كتاباته ، أو ثُلثين منها ، ورسائلُه التي ألفها في هذا الموضوع ، وعزاها [1] إلى مُدُن ، أو أمكنة مختلفة «كشرح الأصبهانية» و«الرسالة الحموية» ، و«التدمرية» ، و«الواسطية» ، و«الكيلانية» ، و«البغدادية» ، و«الأزهرية» ، وما إلى ذلك ، خيرُ دليل على معرفة أفكارِه الأصيلة ، وقوة استدلاله ، وحَمِيَّته الدينية ، ومِرآة لِعلمه وذكائه.

الفِقهُ:

أمَّا فِقه كلِّ مذهب فكان قد تناوله المدوِّنون في عصره بما لم يترك أيَّ مجال

= وتعليق الأستاذ موسى محمد علي ، تأليفه ليس على طراز كتب علوم ومصطلحات الحديث ترتيباً ، لكنه يحتوي على الفوائد والنُّكت القيمة في الحديث وعلومه].

(١) سمَّى رسائله باسم المدينة التي ورد منها استفتاء بوجهٍ عامٍ.

للزيادة فيه ، إلا أن ابنَ تيمية درس كثيراً من المسائل ، والأحكام في ضوء الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وأصول الفقه ، وقام بالاستنباط ، والاجتهاد فيها ، وحاول التوفيق بين الفِقه والسنة ، وجعلَ الفروع والآراء الفقهية تابعة للأحاديث الصحيحة ، واجتهدَ في المسائل المستحدثة ، والأحوالِ ، والمقتضيات الجديدة ، واستنبطَ أحكامَها من الكتاب والسنة شأنَ الفقهاء والقضاة في كلِّ عصرٍ ، الذين يجتهدون في المشكلات والمسائل المعاصرة ، وقد كانتْ شروط الاجتهاد تتوفَّر فيه كما يقول بعض أهل البصيرة من العلماء ، وخلَّف ذخيرة واسعة من فتاواه ، واختياراته ، وهذه الفتاوى تحفظها أربعةُ مجلدات كبار ، وهي ليست مجموعة من المسائل ، والأحكام الفقهية فحسب ، بل إنها ذخيرةٌ قيّمةٌ من المباحث الأصولية ، والمسائل العلمية [١].

تأثيرُ ابن تيميّة في القُرون المتأخرة:

قامَ ابنُ تيمية بتجديد علوم الشريعة بجنب ما أَنجز من جلائل الأعمال العلمية التي كانت تتَّسم بالسَّعة والعُمق ، وبالامتزاج بين العقل ، والنقل ، إنه قضى على ذلك الجمود ، والاضْمحلال اللَّذين كانا قد تسربا إلى الفكر الإسلامي ، وفتح أبواباً جديدة للفكر ، وخلَّف وراءه ذخائرَ من العلوم والمؤلَّفات التي تُوسِّع آفاقَ الذهن ، وتُنشِّط العقلَ ، وتُحرِّك القلبَ ، والتي مَثَّلتْ دوراً رائعاً في إيجاد طَبقةٍ عالية من المؤلفين ، والمفكرين ، والدعاة ، والمصلحين في كل دور من أدوار التاريخ ، ففي الحركة الفكرية ، والإصلاحية

---

(١) صدرت مجموعةُ فتاوى شيخ الإسلام في أربعة مجلَّدت عام ١٣٢٦هـ في مصر ، واهتم بطبعها الشيخ فرج الله الكردي ، وهي تقع في ١٥٨٦ صفحة ، وفي آخر المجلد الرابع منها ملحق باسم «الاختيارات العلمية» وهو يحتوي على اختياراته ، وترجيحاته ، والجزء الخامس من الفتاوى يتعلق بمسائل علم الكلام ، والعقائد ، ووسائلها ، أمَّا مجموعة فتاوى شيخ الإسلام التي أصدرتها المملكةُ السعودية ، والتي تحتوي على ٣٧ مجلداً فهي بمثابة مكتبة بأسرها ودائرة معارف مستقلة.

التي نَشطت منذ القرن الثاني الهجري يرَجع الفضل الأكبر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية ، وله الحظُّ الأوفر فيها.

إنَّه يستحِقُّ بكل جدارة أن يُعتبر في أعلام المجدِّدين للعلوم والأفكار الإسلامية ، وبالأخصِّ فإن مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية عامل قوي من بين العوامل الأخرى للحركاتِ الإصلاحية العلمية ، والفكرية التي نشأت في أرجاء العالم الإسلامي المختلِفة منذ القرن الثاني عشر الهجري.

* * *

ب ـ بَعثُ الفِكر الإسْلامي

١ ـ مصدَر العقائدِ كُلِّها الكتابُ والسنة

مَصدَرُ العقائد والحقائق الدينية الصحيح:

ومِن مآثر ابن تيميّة التجديدية المستقلة: أنَّه قام ببعثِ الفكر الإسلامي، ولعلَّ هذه المأثرة من أجلِّ أعماله الفكرية التي تميَّز بها في حياته.

وممَّا لا يخفى: أنَّ الإسلام يمتازُ بالنسبة إلى النظم الفكرية الأخرى بأنه يقُوم على أساس الوحي، والنبوة المحمدية، وأنَّ عقائده، وحقائقه لا تُبتنى على القياس، والتجارب، والظن، والتخمين، والذكاء الإنساني، والبحث، والجدال، بل تُبتنى على تعليم الله تعالى، وتبليغِ رسوله ﷺ، والذي قاله ﷺ، وشَرحه حول ذات الله تعالى وصفاته، وأفعالهَ، وعن بدء العالم ومنتهاه، ومَبدئه ومصيره وعن المعاد والآخرة، وخواصّ الأعمال ونتائجها، وعن الأمور مما وراء الطبيعة[1] التي لها علاقة بالدين، إنَّما هي العقائد، والحقائق، ولا سبيلَ إلى معرفتها، والإيمانِ بها في الحقيقة سوى الوحي والنبوة، وذلك لأنَّ الطريق إلى التوصل إلى المعلومات والحقائق كلها هي المبادىء الأولية، وهذه المبادىء الأولية لهذه الحقائق الدينية والغيبية لا يطلع عليها أحدٌ.

إنَّ الوسيلة الوحيدة للاطلاع على أمر جديد هي أن تُرتّب المعلومات بحيث يتيسَّر الوصول إلى المجهول، إلا أننا لسنا مُطَّلعين على المبادئ الأولية لهذه

(١) [أي: عالم الغيب].

الحقائق الغيبية ، والدينية ؛ كما أننا نحن مُطَّلعون على المعلومات الأولية عن الطبيعات ، والماديات .

إنَّ ذاتَ الله تعالى ، وصفاتِه وراءَ الحواس ، والعقلُ الإنساني يُعْجز الإنسان عن أية تجربة ، أو مشاهدة عنها ، ولا أساس هناك للقياس فيها ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ولذلك فلا مناص من ذلك من الاعتماد على تلك الطائفة من البشر التي أكرمها الله تعالى بِعِلْم ذاته ، وصفاته ، ونوَّر قلوبهم بنور الهداية والإيمان ، كما لا يَسعنا الإنكارُ ، والبحث بإزائها في أيِّ شيء منها ، وتلك هي الحقيقة التي تحدَّث عنها القرآن بلِسان أحدِ الرُّسل ، فقال: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

عَجزُ الفلسفةِ واندحارُها:

عبثاً حاولتِ الفلسفةُ البحثَ في ذات الله تعالى ، وصفاته ، وعلى الرَّغم من وجود هذه الحقيقة الواضحة ، ولكنَّه حادث غريب في تاريخ العلم الإنساني ، فقد واصلتِ الفلسفةُ جهودها في هذه المضمار إلى عدة آلاف من السنين ، وركَّزت طاقتها وذكاءها على موضوع لم تكن تَعرف مبادئه ، ومقدماته ، ولم تكن عندها ذريعة للإيمان به ، وأخذِ فكرة حتمية عنه .

ولكنها على الرَّغم من ذلك قامت بالتحقيق ، والتدقيق في هذا الموضوع ، من غير تلكُّؤٍ ، ولا تردُّدٍ ، كما يفعل علماءُ اللغة ، والاشتقاق حول كلمة يبحثون عنها ، وعلماء النحو والتصريف في الإعراب والتصريف ، بل كما يفعل علماء الكيمياء في الأدوية والعقاقير ، وجَمعت ركاماً من المباحث ، والتفاصيل ، والتحقيق ، والتقعير حتى ظنَّ القارىء أن البحث كله يدور حول شخصيةٍ عاديةٍ هي في تصرُّف الإنسان ومُتناوَلِ يده .

تفَلسُفُ المُتكلِّمين:

وأغربُ مِن هذا كلِّه أنَّ متكلِّمي الإسلام الذين كانوا يهدفون ردَّ الفلسفة والدِّفاع عن الإسلام أخذوا مُصطلحات الفلسفة ، وافتراضاتها ذاتها ، وبدؤوا

يبحثون عن ذات الله تعالى، وصفاتِه في اعتمادٍ، وتفصيل؛ كأنهم يتحدَّثون عن شَخصية مشاهَدةٍ ملموسةٍ، وعن مسألة طَبْعية.

لقد كان هؤلاء المتكلِّمون تصدَّوا للرد على الفلسفة، ونَفْي نَظراتِها، وآرائها، ولكنَّهم تاهوا في غاية الفلسفة، وافتراضاتها، ومصطلحاتها الخاطئة.

إنَّهم نَسُوا في سَوْرَةِ الجدال، والنقاش أن يَلُوموا الفلسفة على أخطائها الأساسية، وأنْ يحولوا دون بَحثها حَول مسألةٍ ليست من شأنها، لا تجدُر بأن تكون مركَز نظرها، وبحثِها في حال ما، إنهم نَسوا أن يُوصوا الفلسفَة بتحديد مضمارها في الجدال والنقاش حول الرياضيات، والطبعيات، أمَّا التدخل في موضوع الإلهيات؛ فخروجٌ عن مركزها، وتعدٍّ عن حدِّها، و«تدخُّل غير معقول» وأن يُخاطبوا الفلاسفة بخطاب القرآن البليغ الحكيم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

انحطاطُ الفكر الإسلامي في القُرون المتأخرة:

بلَغَ انحطاطُ الفكرُ الإسلاميُّ في القرون المتأخِّرة إلى حدٍّ اعتبروا فيه نفس الدلائل وترتيبَ المقدمات التي كان المتكلمون قد رتبوها، والتي قامتْ على أساس الفلسفة أصلاً لإثبات ذات الله، وحُدوث العالم، والتوحيد، والمعادِ، وجميع العقائد الأساسية.

فقد كان المتكلِّمون، والنُّظار كلُّهم يعتبرون العقل مقياساً أصيلاً سوى طائفة قليلة من المحدثين، والفقهاء، ويَجعلون كتب المتكلمين مصدراً للعقائد، والأحكام عِوضاً عن الكتاب والسنة، وكانوا يُؤولون الآيات والأحاديث تفادياً من إيرادات الفلسفة، أو إبقاء على بعض أصول الفلسفة الثابتة ومُطبِّقين الفلسفة على الدين، وقد بلغ إعجابُهم بالفلسفة مبلغاً كانوا يتناولون فيه الآيات، والأحاديث بالتأويل والتوجيه بدلاً من إنكار الفلسفة، والتغيير في علم الكلام.

يتحدَّث الإمامُ ابن تيميَّة مشيراً إلى هذه العقلية:

«ومثلُ هذا القانونِ الذي وَضعه هؤلاء يَضع كلّ فريق لأنفسِهم قانوناً فيما جاءت بـه الأنبياء عن الله ، فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ، ويعتمدونه هو ما ظنـوا: أنَّ عقولهم عرفَتْـهُ ، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تَـبَعاً ، فما وافَق قانونهم؛ قبلوه ، وما خالفه؛ لم يَتبعوه»(١).

وبعدَ اعتبار هذه العقائد والمباحث الكلامية مِقياساً وأصلاً ، والاعتقاد بأن هذه المباحث تحمل في جَنبها علوماً عاليةً جمّة ، وحِكَماً ، ومعارف عميقة كان يَحدثُ هناك صراع ، وهو: أنَّ هذه العلوم والمعارف إذا كانت أصيلَة؛ لا ينبغي أن يَخلُو عنها كلامُ النبيِّ ﷺ ، وأصحابه الكرام ـ رضي الله عنهم ـ بل وَيجبُ أن يحتويَ عليها ، وعلى جميع هذه التحقيقات ، والتدقيقات.

والذين كانوا مُعجَبينَ بالفلسفة ، وعلم الكلام ، وكانت عُقولهم مسحورةً بها يقولون بصراحة حيناً ، وبكناية حيناً آخر:

إنَّ ذلك العصر كان عصراً بدائياً ، وكان الناس في ذلك العصر بُسطاء لم يكن لديهم اطلاعٌ على هذه الحقائق ، والعلوم العميقة ، والدقيقة.

أمَّا المعترفون بقيمة الفلسفة وعَظمة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فكانوا يعيشون في اضطراب ، وحَيرة من غير أن يَقطعوا في ذلك رأياً.

يشيرُ ابنُ تيميَّة إلى الحالة النفسية لهذه الطوائف ، ويقول:

«مَنِ اعتقدَ: أَنَّ ذلك من أصول الدين ، وأنَّه يشتمل على العلوم الكلية ، والمعارف الإلهية ، والحكمة الحقيقية ، أو الفلسفة الأولية ؛ صارَ كثيرٌ منهم يقول: إنَّ الرسول لم يكن يَعرفُ أصول الدين ، أو لم يُبيِّن أصول الدين ، ومنهم من هاب النبي ، ولكن يقول: الصحابة والتابعون لم يكونوا يعرفون ذلك ، ومَنْ عظَّم الصحابة والتابعين مع تعظيم أقوال هؤلاء يبقى حائراً كيف لم يتكلم أولئك الأفاضل في هذه الأمور التي هي أفضلُ العلوم؟!

(١) صريح المعقول: ج١ ، ص ٣.

ومَن هو مؤمنٌ بالرسول ، مُعظِّم له يستشكل كيف لم يُبيِّن أصولَ الدين مع أنَّ الناس إليها أحوجُ منهم إلى غيرهم» [(١)].

ويتقدَّم ، فيقول عنهم: «وهو أنَّهم جعلوا قَول الله ورسوله من المُجمَل الذي لا يُستفاد منه عِلْمٌ ، ولا هُدى ، فجعلوا المتشابه من كلامِهم هو المُحكَم ، والمُحكَم من كلامِ الله ورسوله هو المتَشابِهَ» [(٢)].

الغلوُّ في تعظيم العقل وتقديسه:

لقد قام الفلاسفةُ ، والمتكلِّمون كُلُّهم بتقديس العقل ، ورفع قيمته ، واعتباره ميزاناً ، وحكَماً في مسائل الذات ، والصفات حتى كان يبدو: أنَّ العقل له الخبرة الكاملة للحكم في هذه المسائل شأنَ الحواس الخمس في حُكمها في المحسوسات ، وشأن التجربة والاستقراء في الأمور العلمية ، وقد أنتج هذا الوضع: أنَّ العقل صار أساساً لإثبات الشريعة ، سواء في الأمور الشرعية ، أو الفقهية ، ولكن لم يَقُم هناك خلال القرون الستة الإسلامية أيُّ عالم أو مفكر يُحارب هذا الوضع ، ويَرفعُ لواء الثورة على هذا العقل صاحب الحكم والنفوذ اللامحدود.

تَصدَّى حُجَّةُ الإسلامِ الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ للجهاد ضدَّ تَدخُّل الفلسفة في الإلهيات ، وَجَعلَها هدفاً بكتاباته التي نالتْ من شأن الفلسفة ، واستهانت بها ، إلا أنَّه لم يرفع صوتاً عالياً ضد العقل وحُكومته المطلقة ، وضدَّ تدخُّله في أمورٍ ليست من شأنه.

إنَّ الإمام ابنَ تيميَّة هو أوَّل رجلٍ ـ فيما نعلم ـ ثار على هذا الوضع الشائن ، واحتجَّ عليه في غاية من الاستنكار ، وحارَبه بكل جرأة ، وشجاعة ، وأثبت: أنَّ مصدر العقائد ، والحقائق إنَّما هو الوحي ، والنبوة ، والكتاب ، والسنة ،

---

(١) صريح المعقول: ج١ ، ص ١٢.
(٢) المرجع السابق: ص ١٦٤.

أما العقل؛ فليسُ مؤيِّداً لها ، وليس أساساً في أيِّ حال .

يقول في بعض كتاباته :

«إنَّ العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه ، ولا مُعطياً له صفةً لم تكن له ، ولا مفيداً له صفةَ كمال» [١] .

منصبُ العقل ومَكانتُه:

إنَّه يعتقد: أنَّ «العقل متول وَلْيَ الرسول ، ثم عَزل نفسَه لأنَّ العقل دل على أن الرسول ﷺ يَجب تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والعقلُ يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة ، وهذا كما أنَّ العاميَّ إذا علم عِينَ المفتي ، ودلَّ غيره علَيه ، وبيَّن له أنه عالم مفت ، ثم اختلف العامي الدالُّ والمفتي؛ وجب على المستفتي أن يُقدِّم قولَ المفتي .

فإذا قال له العاميُّ: أنا الأصل الذي أعلمك بأنَّه مُفْتٍ ، فإذا قدمتَ قولَه على قولي عند التعارُضِ قدحتَ في الأصل الذي علمتَ به أنه مفتٍ .

قال له المستفتي: أنتَ لما شهدت أنه مفْتٍ ودلَّلْتَ على ذلك ، شَهدتَ بوجوب تقليدك له [٢] .

إنَّه يعتقد أيضاً: أنَّ العقل لا يَسعه إلا الاعتماد على الرسول ﷺ وطاعتُه بعد ما اعترف بالرسالة .

كما أنَّه يجب تقليد صاحب الصناعة في كل صناعة ، وقَبولُ كلامه من غير تردد ، مع الاعتقاد بأن ما يقوله هو القول الفصل في ذلك ، كذلك الرسول هو سَنَدٌ في الأمور الغيبية ، والأحكام ، والشرائع ، وفيما بعد الطبيعيات ، وكلامُه فصل في كل ذلك ، يقول:

«فإذا عَلِمَ الرجلُ بالعقل: أنَّ هذا رسول الله ، وعلم: أنَّه أَخبر بشيء ،

---

(١) صريح المعقول: ج ١ ، ص٤٦ .

(٢) المرجع السابق: ج١ ، ص ٧٧ .

ووُجد في عقله ما ينازعه في خبره ؛ كان عقلُه يوجب عليه أن يُسلِّم موارد النزاع إلى من هو أعلمَ منه ، وألا يُقدِّم رأيه على قوله ، ويَعلَم : أنَّ عقله قاصر بالنسبة إليه ، وأنه أعلمُ بالله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، واليوم الآخر منه ، وأنَّ التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وأهل العلم بالطبِّ.

فإذا كان عقلُه يوجِب أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من مُقدَّرات من الأغذية ، والأشربة ، والأضمدة ، والمُسْهلات ، واستعمالها على وجه مخصوص مع ما في ذلك من الكُلفة ، والألم لِظَنّه : أن هذا أعلمَ بهذا مني ، وأنِّي إذا صدَّقتُه ؛ كانَ ذلك أقربَ إلى حصول الشفاء لي مع علمه بأن الطبيب يُخطئ كثيراً ، وأنَّ كثيراً من الناس لا يُشفى بما يَصفه الطبيب ، بل يكون استعمالُه لما يصفه سَبباً في هلاكه ، ومع هذا يَقْبل قوله ، ويُقلِّده وإنْ كان ظنُّه واجتهادُه يخالِف وَصْفه ، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والتسليم ، والرُّسل صادقون مُصدَّقون ، لا يجوز أن يكون خَبَرُهم على خلاف ما أخبروا به قط ، وأن الذين يُعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلاَّ ذو الجلال» [١].

الإِيمانُ بالرسول واجبٌ من غير شَرط:

إنَّ المُعجَبين بالفلسفة ، والعقلانية تكوَّنت لهم عَقليّة خاصة في قبول أمور الشريعة ، ورفضها ، فالأمور الشرعية التي كانت تُوافِق عقولهم ، وفلسفَتهم قبلوها ، وتردَّدوا في قبول ما كان يُصادم عقولهم ، ومُسلّماتِ الفلسفة ، ورأوا فيه تعقُّدات كثيرة ، والذين كانوا مُتجرِّئين ، ولا يبالون بالحيطة يَرفضون كل ما لا تستسيغه عَقْليَّتُهم الخاصة ، ويقولون: إنه لا بدَّ من الانسجام بين العقل والشريعة ، وبما أنّ هذا الأمر يضَادُّ العقل لا يجدر بالقبول.

أمَّا من كانوا يأخذون بشيء من الحيطة في ذلك ، فيلجؤون إلى التأويل ،

---

(١) صريح المعقول: ص ٧٩.

والتوجيه مهما كان ذلك مستحيلاً ، وبعيداً عن القياس .

لقد أثبَتَ ابنُ تيميَّة في مواضع كثيرة : أن الإيمان بالرسول واجبٌ لا محالة من غير شَرط ، ولا قيد ، وأن مكانة الرسول الصحيحة ومَنصبه الذي يتبَوَّؤُه لَيُوجبان ذلك ، وذلك هو الإيمان في الحقيقة .

أمَّا الاشتراط في تصديق الرسول ، والإيمانِ به ؛ فليس من الإيمان في شيء ، يقول :

«ففي الجملةِ لا يكون الرجل مؤمناً حتى يُؤمن بالرسول إيماناً جازماً ، ليس مُشروطاً بعدم مُعارضٍ ، فمتى قال أؤمن بخبره إلا أن يظهر له معارض يدفع خَبره ؛ لم يكن مؤمناً به ، فهذا أصلٌ عظيمٌ تجب معرفتُه» [١] .

ويَقولُ في مكانٍ آخرَ :

«كان مِن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام : أنَّه يجب على الخلْق الإيمانُ بالرسول إيماناً مُطْلَقاً جازِماً عاماً بتصديقه في كلّ ما أخبر به ، وطاعته في كلِّ أمر ، وإنَّ كل ما عارضَ ذلك ؛ فهو باطل ، وإنَّ من قال : يجب تصديق ما أدركتُه بعقلي ، ورَدُّ ما جاء به الرسول لرأيي ، وعقلي ، وتقديمُ عقلي على ما أخبر به الرسول مع تصديقي بأنَّ الرسول صادق فيما أخبر به ؛ فهو متناقضٌ ، فاسد العقل ، مُلحدٌ في الشرع .

وأمَّا من قال : لا أُصدِّق ما أخبرَ به حتى أعلمه بعقلي ؛ فكُفرهُ ظاهر» [٢] .

أوهَامُ العَقْلِ :

ثم يستعرضُ ابنُ تيميَّة دعوى هؤلاء «العقلاء» التي تقول بالتعارض بين العَقل والنقل في أكثر الأحيان ، وأنَّ الأمور التي جاء بها الأنبياء والرسل كعقائد وحقائق دينية قد تتعارض مع العقل الصريح والهداية ، وتتصادم مع تلك

---

(١) صريح المعقول : ج ١ ، ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ، ص ١٠٨ .

الحقائق والمُسلَّمات؛ التي أنتجَتها الفلسفة بعد دراسات طويلة الأمد، والتي تُعتبر أساس الفلسفة، يُثبت الإمام ابن تيميَّة: أن هذه العقليات التي تتعارض مع أخبارِ الرسل، ونصوص الكتاب، والسنة لا تعدو إلا أوهاماً، وأباطيل اخترعها العقل بحيث إذا تولت بالنَّقد العلميّ والمحاسبة الدقيقة؛ ظهر أنها ليست إلا مجموعةً من الألفاظ والتوهُّمات التي لا تستند إلى أساس مِن العلم، يقول:

«على أنَّ ما يدَّعونه من العقليات المخالفة للنصوص لا حقيقةَ لها عند الاعتبار الصحيح، وإنما هي من باب القعقعة بالشّنان لمن يُفزعه ذلك من الصبيان، وإذا أُعطي النظر في المعقولات حقَّه من التمام وجدها براهين ناطقة بصدق ما أخبر به الرسول وأنَّ لازم ما أخبر به لازمٌ صحيح وأن من نَفاه؛ نفاه لِجَهله بحقيقة الأمر، وفزعاً باطناً وظاهراً، كالذي يَفزع من الآلِهة المعبودة دون الله أن تضرَّه، ويفزع من عدو الإسلام لما عِنده مِن ضعف الإيمان»[1].

ويقول في موضعٍ آخر: «هؤلاء من رُعبهم من الألفاظ الهائلة التي لم يَعلموا حقيقتها أشبه بمن رأى العدوَّ المخذول، فلمَّا رأى لِباسَهم رعِبَ منهم قبل تحقُّق حالهم الذي هو في غاية الضعف والعجز، ولكن قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾[2] [آل عمران: ١٥١].

جَـهْـلُ العقـلاء:

إذا نظر المُنصِف في هذه الأقوال، والتدقيقات التي يَفتخر بها الفلاسفة، ويُسمونها «الإلهيات» والتي يُقدّمها أتباعهم بإزاءِ كلام الأنبياء، وأقوالهم، سوف لا يجد فرقاً بينها وبين كلام المجانين، يقول:

«ليتأمَّلِ اللَّبيبُ كلامَ الذين يَدَّعون من الحِذْق والتحقيق ما يدفعونَ به ما جاءت به الرسل كيف يتكلمون في غاية حكمتهم، ونهاية فلسفتهم بما يُشبه

---

(١) صريح المعقول: ج ٤، ص ١٥٣.

(٢) المرجع السابق: ص ١٥٤.

كلام المجانين ، ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطلَ الذي يعلم العلماء بطلانَه بالضرورة مقبُولاً بكلام فيه تَلبيس ، وتدليس»[(١)].

لا تَعارض بينَ صريح العقلِ وصَحيح النقل:

ولكنَّه يُلاحِظ حرمةَ العقل ، وقيمتَه ، فإن القرآن قد أشار في آيات كثيرة إلى استخدام العقل ، والتفكير به ، إنه لا يرى أيَّ تعارض في أي حالٍ بين صريح العقل ، وصحيح النقل ، لأنه لم يَعثر على أي تعارض بين العقل والنقل خلال دراسته الطويلة الواسعة ، بشرط أن يكون العقل سليماً ، والنقلُ صحيحاً محفوظاً ، فقد ألَّف في هذا الموضوع كتاباً ضخماً باسم «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»[(٢)] ، أثبتَ فيه بالدلائل ، وبكل تفصيل ألاَّ تعارض بين المعقول والمنقول ، فإنَّ الأمور التي ثَبَتَتْ صِحَّتها بالكتاب ، والسنة ، والوحي ، والنبوة يُصدِّقها العقلُ الكامل الصحيح ، وظلّ العقل يؤيد النصوص ، والمنقولات على الدوام ، وكُلّما يُستخدمُ العقلُ بالدّقة ، والإمعان يوجَدُ أنه يُصدِّق هذه المنقولات ، ويؤيِّدُها ، يقول:

«إنَّ الأدلةَ العقلية الصحيحة البيِّنة التي لا ريب فيها ، بل العلوم الفِطرية الضرورية تُوافق ما أخبرتْ به الرسل ولا تخالفه ، وإنَّ الأدلة العقلية الصحيحة جميعُها موافقةٌ للسمع ، لا تُخالف شيئاً من السمع ، وهذا ولله الحمد قد اعتبرَته فيما ذكرتُه عامةُ الطوائف»[(٣)].

ويقولُ في مناسبة أخرى:

«المَنقولُ الصحيحُ لا يُعارضه معقولٌ صريح قط ، وقد تأملتُ ذلك في عامة

---

(١) صريح المعقول: ج٣ ، ص ٢٧٢.

(٢) [ظهر هذا الكتاب على هامش «منهاج السنة» في أربعة مجلدات ثم أعيد طبعه في (١٢) مجلّداً في جامعة محمد بن سعود الإسلامية بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم بعنوان «درء العقل عن مناقضة النقل»].

(٣) صريح المعقول: ج١ ، ص ٨٣.

ما تنازع الناس فيه ، فوجدتُ ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شُبهاتٍ فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها ، بل يُعلم بالعقل ثُبوت نقيضها الموافق للشرع ، وهذا تأمَّلْته في مسائل الأصول الكبار ، كمسائل التوحيد ، والصفات ، ومسائل القَدر ، والنُّبوءات ، والمعاد وغير ذلك.

ووجدتُ ما يُعلَم بصريح العقل لم يُخالفه السمع قط ، بل السَّمع الذي يقال إنه يُخالفه إما حديثٌ موضوع ، أو دَلالة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول.

ونحن نَعلم: أنَّ الرُّسل لا يُخبرون بمُحالات العقول ، بل بمحارات العقول ، فلا يُخبرون بما يعلمُ العقلُ انتفاءَه ، بل يُخبرون بما يعجز العقل عن معرفته»[١].

إنه يدَّعي (ولما يدَّعيه أهميةٌ ووَزنٌ كبير) إنه لا يوجد حديثٌ واحدٌ ، أو نَقلٌ واحدٌ معارضٌ للعقل ، فإن كان هناك حديث يعارض العقلَ السليمَ فهو مَوضوعٌ ، أو ضعيفٌ لدى أصحاب الفنِّ.

القُرآن يحتوي على دلائل عَقليّة جيِّدة:

إنَّه يرفض دعوى هؤلاء المتكلّمين والفلاسفة: أنَّ القرآن الكريم صحيفةٌ تقوم على أساس النقليات ، والسمعيات ، فقد أثبتَ في مواضع كثيرة: أن القرآن يحتوي على دلائلَ عقلية جيِّدة ، تَبلُغ من الإحكام ، والقوة ، والوضوح مبلغاً لا تستقرُّ أمامه دلائلُ المتكلمين والفلاسفة التي لا تعدو بيت العنكبوت بعد البحث والنقد ، إنه يقول:

«إنَّ الله سبحانه وتعالى بيَّن الأدلةَ العقليةَ التي يُحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحدٌ من هؤلاء قَدْرهُ ، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بُخلاصته على أحسنِ وجه»[٢].

---

(١) صريح المعقول: ج ١ ، ص ٨٣.

(٢) المرجع السابق: ج ٣ ، ص ٦٨.

وفي مَوضع آخر:

«إنَّ ما جاء به الرسول ﷺ هو الحقُّ الموافق لصريح المعقول ، وإنَّ ما بيَّنه من الآيات ، والدلائل ، والبراهين العقلية في إثبات الصانع سبحانه ، ومعرفة صفاته ، وأفعاله هو فوق نهاية العقول ، وإنَّ خيار ما عند حُذَّاق الأولين والآخرين من الفلاسفة والمتكلمين هو بعضُ ما فيه ، لكنهم يُلبِّسون الحقَّ بالباطلِ ، فلا يأتون به على وجهه»[١] .

لا لَبْسَ في تعاليم الرسول ﷺ:

إنَّ كثيراً مِن الفلاسفة والمتكلِّمين وأنصارهم كانوا يعتقدون: أنَّ الرسول ﷺ لم يتناول ذات الله تعالى ، وصفاته بالشرح والتفصيل ، بل إنَّه أجمل هذا الموضوع ، مما ترك فيه إبهاماً وغموضاً ، كما أن جزءاً كبيراً من القرآن يحتاج إلى شرح ، وقد وفَّق الله المتكلمين فيما تقدَّم من الزمان أن يَشرحوه ، ويُفصِّلوه ، ويعرضوا العقائد ، والحقائق الدينية أمام الأمة بتفصيل مُؤيد بالدلائل .

يقول ابنُ تيميَّة: إنَّ الرسول كان مأموراً بالبلاغ المبين ، فقام بتفصيل وشرح كل شيء كان الدين بحاجة إليه ، فهل كان من الممكن أن يترك العقائد ، وأصول الدين وأساسه ، وذات الله تعالى ، وصفاته التي يتوقف على علمها معرفةُ الدين ، وسعادة الإنسان ، ونجاتُه؟!

وكيف يترك كل ذلك مجملاً من غير شرح وتفصيل؟!

وكذلك هل كان ممكناً أن يترك الكتاب الذي دعا الناس إلى تَفهُّمه ، والتدبر فيه مُبهَماً مجملاً؟ يقول:

«إنَّ الرسول بلَّغ البلاغَ المبينَ ، وبيَّن مراده ، وإن كل ما في القرآن والحديث من لَفظٍ يقال فيه: إنَّه يحتاج إلى التأويل الاصطلاحي الخاص الذي هو صَرْفُ اللفظ عن ظاهره ، فلا بُد أن يكون الرسول قد بيَّن مراده بذلك اللفظ

---

(١) صريح المعقول: ج٣ ، ص ٦٨ .

بخطاب آخر لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ، ومدلُوله باطل ويسكت عن بَيان المراد الحق ، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يَفهموا من كلامه تعالى ما لم يُبيِّنه لهم ، ويَدلُّهم عليه لإمكان معرفة ذلك بعقولهم ، وأن هذا قَدْحٌ في الرَّسول الذي بلَّغ البلاغ المبين» [١].

ويقول في موضع آخر :

«إنَّ الله تعالى أمَـرَ الرسولَ بالبلاغ المُبين ، وهو أطـوع الناس لربِّه ، فلا بُد أن يكون قد بلَّغ البلاغ المبين ، مع أن البلاغ المبين لا يكون بيانُـه مُلْتبساً مدلَّسـاً ، والآيات التي ذكر الله فيهـا : أنها متشابهات لا يَعلم تأويلها إلا الله إنما نفى عن غيره علمَ تأويلها [٢] لا عـلم تفسيرهـا ومعناها» [٣].

دَعـوةُ ابـنِ تيميَّة ومأثَرتـه:

ركَّزَ ابنُ تيمية كُلَّ جهوده على إثبات : أنَّ مصدر العقائد إنما هو الكتاب ، والسنة ، والوحيُ ، والنبوة ، وأنَّ نصوص الكتاب والسنة هو المقياس الأصيل في هذا الكتاب ، إنَّه دعا إلى الإيمان بهذه الفكرة طول عمره ، وقد لا يخلو أيُّ كتابٍ من مؤلفاته من هذه الدعوة.

وهكذا استطاعَ ابنُ تيمية أن يُنشِّط الفكرَ الإسلاميَّ ، ويبعثَه من جديد ، الذي كان قد جُرح ، واضمحل بتأثير الفلسفة ، وعلم الكلام ، والروح العَجميَّة في ذلك الحين.

* * *

---

(١) صريح المعقول: ج١ ، ص ١٠.

(٢) لقد أثبت ابن تيمية في مؤلَّفاته المختلفة بغاية من التفصيل: أنَّ التأويل له ثلاثة معان:
أوَّلاً: المصطلح القرآني الذي يراد به الحقيقة والمآل.
ثانياً: مصطلح المتقدِّمين الذي يعني التفسير.
وثالثـاً: مصطلـح المتأخِّريـن والمتكلِّمين الذي يُراد به مدلول اللفظ الخفي ، ولا يراد بـه مدلوله الظاهر لسبب خاص.

(٣) صريح المعقول: ص ١٦٧.

٢ ـ مصدرُ الفِقه الكتابُ والسُّنة

قَبلَ عهدِ التَّقليد:

يؤكِّد لنا التاريخُ أن تقليد إمامٍ من أئمة الفقه ، أو اتباعَ مذهب من المذاهب الفقهية لم يُعرف قبل القرن الرابع الهجري ، فكانَ الناسُ يعملون في قضايا الحياة من غير تقليد ، والتزام ، واثقين بأنَّ عملهم هذا لا يعدو روحَ الشريعة ، بل إنَّهم يتبعون سنة الرسول ﷺ مباشرة ، وكلما اعترتْهمْ حاجة إلى السؤال عن مسألةٍ فقهية؛ راجعوا من شاؤوا من العلماء ، وعملوا بها .

وفي القرن الرابع أيضاً لم يَعُمَّ التقليد الخالص لمذهب ، ولا جرت العادةُ بدراسة الفقه ، والإفتاء وفق مذهب خاص ، يقول شيخ الإسلام ولي الله ابن عبد الرحيم الدَّهلوي في كتابه «حُجة الله البالغة» :

«إنَّ أهل المئة الرابعة لم يكونوا مُجتمِعين على التقليد الخالص على مذهب واحد ، والتفقُّه له والحكاية لقوله . كما يظهر من التَّتبع ، بل كان فيهم العلماء ، والعامّة .

وكان من خبر العامَّة : أنهم كانوا في المسائل الاجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أو جمهور المجتهدين لا يُقلِّدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلَّمون صفة الوضوء ، والغسل ، والصلاة ، والزكاة ، ونحو ذلك من آبائهم ، أو مُعلِّمي بلدانهم ، فيمشون حَسْب ذلك ، وإذا وقَعتْ لهم واقعةٌ؛ استفتوا فيها أيَّ مُفْتٍ وجدوا من غير تعيين مذهب .

وكان مِن خبر الخاصة : أنَّه كانَ أهلُ الحديث منهم يشتغلون بالحديث يَخْلُص إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثارِ الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء

آخر، فالمسألة من حديثٍ مستفيضٍ أو صحيح قد عملَ به بعضُ الفقهاء ولا عذر لتارك العمل به أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها، فإن لم يجد في المسألة ما يَطمئنُّ به قلبه لتعارُض النقل، وعدم وضوح الترجيح، ونحو ذلك؛ رجَع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء، فإنْ وجد قولين؛ اختار أَوْثقَهما سواء كان من أهل المدينة، أو من أهل الكوفة.

وكان أهلُ التخريج منهم يُخرِّجون فيما لا يجدونه مُصرَّحاً، ويجتهدون في المذهب، وكان هؤلاء يُنسبون إلى مذهب أصحابهم، فيقال: فلانٌ شافعيٌّ، وفلانٌ حنفيٌّ، وكان صاحب الحديث أيضاً قد يُنسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له، كالنَّسائي، والبَيهقي ينسبان إلى الشافعي، فكان لا يتولَّى القضاء، ولا الإفتاء إلا مجتهد، ولا يُسمَّى الفقيهُ إلا مجتهداً»[1].

بَدءُ التَّقليد وأَسبابُه:

وظهرتْ حاجةُ التقليد بعد القرن الرابع لأسبابٍ عدَّةٍ ترجع إلى خلافات بين العلماء، وفُشوِّ الجدال، والمناظرة، وانخفاضِ مستواهم الديني، والخلقي، والانحطاط العلمي، وقِصر الهمة، وقلة الاجتهاد.

فمراعاةً للمصالح الدينية رأى الناسُ تقليد الأئمة المجتهدين الذين سبقوا، واتِّباع المذاهب الفقهية المدونة، والعملَ بفتاوى المتقدمين بدلاً من المعاصرين.

إلا أنَّ هذا التقليد لم يكن يَتقيَّد إلى مدَّة طويلة بالالتزام، والتعيين، والتقليد الشخصي الذي شاع في القرون المتأخِّرة، ولكنَّ الناس تعودوا هذا النوع من التقليد تدريجياً، وكان شيئاً يقوم على رعاية المصلحة، وتَوخِّي السهولة، والتفادي من الفوضى، والتقاط الرخص، واتباع الهوى، لا أنه كان شيئاً تشريعياً لا يجوز العدول عنه، وكان ذلك طبيعياً، وأمراً وفق الأحداث تماماً، وسيَّما ما أصاب العالم الإسلامي، من انحطاط فكري،

---

(١) حجة الله البالغة: ج١، ص ١٢٢.

وتسفُّل علمي عامٌّ بعد هجوم التتار ، وما واجه العالم الإسلامي من فُقدان الشخصيات الكبيرة في ذلك الحين التي تتمتع بكفاءة الاجتهاد ، وما شاهده العالم الإسلامي في تلك الفترة من كثرة الفِرق ، وتطلع الفتن.

رأى الناسُ العافيةَ في أن يعملوا بالمذاهب الفقهية التي ثَبتتْ صحتها بالكتاب والسنة ، والتي مرَّتْ بمراحل البحث ، والنقد ، وتم تدوينها ، وتلك ميزة استوفَتْها المذاهبُ الفقهية الأربعة ، فكان إقبال الناس عليهم بوجه عام.

مَكانَةُ التَّقليد ووَضعِيَّتُها:

لم تكنْ وضعيةُ هذا التقليد إلا أنَّ المرء عندما كان يُقلِّد مذهباً من هذه المذاهب كان يرتاح إلى أنه يعمل بالكتاب والسنة ، ويتَّبع سُنَّةَ صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ، أمَّا إمامُ ذلك المذهب الذي يُقلِّده فليس إلا واسطة بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومكانتُه في ذلك كمكانة شيخ معاصر ، فهو ليس إلا تُرجماناً وشارحاً ، لا مُطاعاً وشارِعاً ، يقول شيخ الإسلام ولي الله الدَّهْلَوي:

«لا يَدين إلا بقولِ النبيِّ ﷺ ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولكنْ لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ ، ولا بطريقِ الجمع بين المختلفات من كلامه ، واتبع عالماً راشداً على أنه مُصِيب فيما يقول ويفتي ظاهراً متبع سنة رسول الله ﷺ ، فإن خالفَ ما يظُنه أقلعَ من ساعته من غير جدال ولا إصرار» (١).

وقد وُجِد هذا النوعُ من التقليد، وعادةُ الرجوع إلى فقيه معين أو غير مُعيَّن ، والاستفتاء منه في المسائل الفقهية في كل زمان ، وسواءٌ كان هذا الرجوع في فتراتٍ مختلفة ، أو بصفة دائمة ، لا يسوغ الاعتراض عليه ، يقول شيخ الإسلام الدَّهلوي:

---

(١) حجة الله البالغة: ج ١ ، ص ١٢٤.

«إنَّ الاستفتاءَ ، والإفتاء لم يزلْ بين المسلمين في عهد النبي ﷺ ولا فَرْق بين أن يسَتفتي هذا دائماً ، أو يَستفتي هذا حيناً ، وذلكَ بعد أن يكون مُجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا ولم نُؤمن بفقيه أيّاً كان أنه أوحى الله إليه الفقهَ وفرضَ علينا طاعتَه ، وأنَّه معصوم ، فإن اقتدينا بواحدٍ منهم؛ فذلك لِعلمنا بأنه عالِمٌ بكتاب الله وسنة رسوله ، فلا يخلو قوله إما أن يكونَ من صريح الكتاب والسنة ، أو مستنبَطاً عنهما بنحوٍ من الاستنباط ، أو عُرف بالقرائن أنَّ الحكم في صورةٍ ما مَنوطة بعلةٍ كذا، واطمأنَّ قلبُه بتلك المعرفة، فقاسَ غير المنصوص على المنصوص. فكأنه يقول ظَننتُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال كلما وجدت هذه العلة فالحُكم ثمةَ هكذا ، والمَقيس مُندرِجٌ في هذا العموم ، فهذا أيضاً مَعْزُوٌّ إلى النبي ﷺ ، ولكن في طريقة ظُنون ، ولولا ذلك لما قلَّد مؤمنٌ مجتهداً.

فإنْ بلغَنا حديثٌ من الرسول المعصوم ـ الذي فرض الله علينا طاعته ـ بسندٍ صالح يَدلُّ على خلاف مَذهبه وتركنا حديثه واتَّبعْنا ذلك التخمين ، فمن أظلمُ منا ، وما عُذرنا يومَ يقوم الناس لربِّ العالمين؟!»[1].

انحـرافُ القُـرون المتأخّـرة وغُلُوُّها:

وظَلَّ الجهلُ يُـؤثِّـر في الجماهير من الناس ، حتى أَحَلُّوا هؤلاء الأئمة في بعض المناطق محلَّ المقصود ، وجعلوهم كالشارع والمُطاع عوضاً عن الوسائط والوسائل ، وقد تعصَّب الناس لهذه المذاهب ، ونالت منهم إعجاباً لم يسمحْ لهم بالتنازل عن أي جزء منها في أيِّ حال.

ولكنَّ الذنبَ في هذا لا يرجع إلى العامة كثيراً؛ لأنهم قلَّدوا هذه المذاهب اتِّباعاً للسنة ، ولم يكن لهم من السهل الميسور أن يتتبعوا أسباب الترجيح فيتركوا التقليد ، أو ينتقلوا من مذهب إلى آخر.

---

(١) حجة الله البالغة: ج ١ ، ص ١٢٥.

بل قد كان هناك عددٌ كبيرٌ من العلماء ممن إذا ثبتَ لديهم في مسألة فقهية: أنَّ مذهب إمامهم لا يوافق فيها الكتاب والسنة، وعلموا بالقطعيَّة: أن ذلك المذهب مرجوحٌ في تلك المسألة ومذهبُ غيره راجح يتفق مع الكتاب والسنة، وبالرغم من توافر الأحاديث الصريحة والصحيحة خلافُ تلك المسألة لا يجدون في نفوسهم مَندوحةً لترك تلك المسألة، والعمل بالأحاديث الصحيحة الواردة خلافها.

ولعلَّ شيخ الإسلام عزَّ الدين ابن عبد السلام العالم الشافعي الشهير في القرن السابع يتحدّث عن أمثال هؤلاء، فيقول:

«ومِن العجب العجيب: أنَّ الفُقهاء المقلِّدين يقفُ أحدهم على ضعف مأخذِ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلِّده فيه، ويترك من شهد الكتاب، والسنة، والأقْيِسَةُ الصحيحة لمذاهبهم جمُوداً على تقليد إمامه، بل يتحيل لدفْع ظاهر الكتاب والسنة، ويتأوَّلها بالتأويلات البعيدة الباطلة نِضالاً عن مُقلَّدِهِ»[١].

كما كانتْ هناك جماعةٌ من العامة تَظُنُّ في إمامها العصمةَ، وقد رسخ في نفسها: أنه لا يجوز ترك التقليد لإمامه في أيِّ حالٍ، يتحدَّث شيخ الإسلام ولي الله الدَّهلوي عن مثل هؤلاء العامة فيقول:

«وفي من يكون عامياً ويُقلّد رجلاً من الفقهاء بعينه يرى أنه يمتنع مِنْ مِثله الخطأ، وأنَّ ما قاله هو الصواب البتةَ، وأضمر في قلبه ألاَّ يترك تقليدَه وإن ظهر الدليل على خلافه، وذلك ما رواه الترمذيُّ عن عديٍّ بن حاتم: أنَّه قال سمعته (يعني رسول الله ﷺ) يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال: «إنَّهم لم يكونوا يعبُدُونَهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حَرَّموه»[٢].

---

(١) حجة الله البالغة: ص ١٢٤.

(٢) حجة الله البالغة: ج ١، ص ١٢٤ [والحديث أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن =

التَّقليد والاجتِهاد كما يراهُما ابن تيميَّة:

قد أنكرَ المحقِّقون من العلماء الراسخين في كل عصر مثلَ هذا التقليد المطلق الذي يوازي اتباع الرَّسول ﷺ وطاعته ، إنهم لا يُحرِّمون التقليد كابنِ حزم وغيره من غلاة العلماء ، ولا يجيزون التقليدَ المطلق الذي لا يُفرِّق بين الرسولِ ، والإمام في الاتباع ، والطاعة .

فمِن العلماء الذين يحملون رأياً مُتَّزناً جداً في هذا الموضوع ، شيخُ الإسلام ابن تيمية في المتقدِّمين ، وشيخُ الإسلام ولي الله الدهلوي في المتأخرين ، ويعترف ابن تيمية بواقع أن العامة وغيرَ المجتهدين من العلماء لا بُدَّ لهم من الرجوع إلى الفقهاء والمجتهدين وتقليدِهم ، وأن الأئمة كالوسائل والوسائط ، وأنَّ تقليد المذاهب حاجةٌ عملية وأمر طبعي ، يقول في موضعٍ:

«فطاعةُ الله ورسولِه ، وتحليلُ ما أحله الله ورسوله ، وتحريمُ ما حرَّمه الله ورسوله ، وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله واجبٌ على جميع الثَّقلين الإنس ، والجن ، واجبٌ على كل أحد في كل حال سِراً ، وعلانية .

لكنْ لمَّا كان من الأحكام ما لا يَعرفه كثير من الناس؛ رجَع الناس في ذلك إلى من يُعلِّمهم ذلك؛ لأنه أعلمُ بما قاله الرسول ، وأعلَم بمراده ، فأئمة المسلمين الذين اتَّبعوهم وسائلُ ، وطُرق ، وأدلةٌ بين الناس وبين الرسول ، يُبلِّغونهم ما قاله ، ويفهِّمونهم مُرادَه بحسب اجتهادهم واستطاعتهم ، وقد يَخُصُّ الله هذا العالِمَ من العِلْم والفَهم ما ليس عند الآخر ، وقد يكون عند ذلك في مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا ، وقد قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩] فهذان نبيَّان كريمان حكما في

= في تفسير سورة التوبة ، برقم (٣٠٩٥) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغُطَيْف بن أَعْيَنَ ليس بمعروف في الحديث].

قضية واحدة ، فخَصَّ الله أحدهما بالفهم ، وأثنى على كل منهما ، والعلماء ورثة الأنبياء ، واجتهاد العلماء في الأحكام كاجتهاد المستدلّين على جهة الكعبة ، فإذا كان أربع أَنْفُس يصلي كل واحد بطائفة أربَع جهات لاعتقادهم: أنَّ الكعبة هناك ، فإن صلاة الأربعة صحيحة. والذي صلَّى إلى جهة الكعبة واحدٌ وهو المصيب الذي له أجران كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اجتهدَ الحاكمُ ، فأصابَ؛ فله أجران ، وإنْ اجتهد ، فأخطأ؛ فله أجرٌ» (١).

ويتقدَّمُ فيعترفُ ابنُ تيميَّة بأنَّ نشأة المرء على مذهب فقهي خاصٍّ ، وقيامَه بأداء العبادات والأحكام وفق مذهب خاصٍّ أمرٌ طبيعي ، تَعوَّده الناسُ من قديم ، و لكن شأنُ المؤمن أن يَعتقد نفسَه مُتَّبعاً لله والرسول في الحقيقة ، ويتهيأ دائماً لاتّباع ما يَـثـبُت من الكتاب ، والسنة من غير تَلَكُّؤٍ ، ولا تَردُّدٍ ، يقول:

«إنَّ الإنسان يَنشأ على دين أبيه ، أو سيِّده ، أو أهل بلده كما يَتبع الطفلُ في الدين أبويه وسادته ، وأهل بلده ، ثم إذا بلغ الرجلُ فعلَيه أن يلتزم طاعة الله ورسوله حيثُ كانت لا يكونُ ممن إذا قيل لهم اتَّبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنـا ، فكُلُّ من عدل عن اتباع الكتاب والسنة ، وطاعة الله ورسوله إلى عادته ، وعادة أبيه وقومه؛ فهو من أهل الجاهلية المستحقّين للوَعيد. وكذلك من تبيَّنَ له في مسألة من المسائل الحقُّ الذي بَعث الله به رسوله ، ثم عَدل عنه إلى عادته؛ فهو من أهل الذَّم والعقاب» (٢).

والعالِمُ الذي يَصْلُح للتَّحقيق والاستدلال ، ويَستطيع أن يتبيَّن أسباب الترجيح في المسائل ، فيتحدَّث عنه ، ويقول:

«أمَّا القادرُ على الاستدلال ، فقيل: يحرمُ عليه التقليد مطلقاً ، وقيل:

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام: ج٢ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ [والحديث أخرجه ابن الجارود في «المنتقى» (١/ ٢٤٩) برقم (٩٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وذكره العيني في «عمدة القاري» (٢/ ١٧١) ، والنووي في «شرح مسلم» (١١/ ٩١)].

(٢) فتاوى شيخ الإسلام: ج٢ ، ص٢٠٢.

يجوز مطلقاً ، وقيل: يجوز عند الحاجة ، كما إذا ضاق الوقت عن الاستدلال ، وهذا القولُ أعدل» (١).

وأمَّا من يَقدر على الاجتهاد قُدرةً تامة ، فيُحكَمُ فيه: أنه إذا اطَّلع على النصوص في جانب، ولم يجدْ في جانب آخر ما يُقاوم به النصوص ، ويَدفَعُها؛ يلزمُه اتِّباع تلك النصوص ، يقول:

«أمَّا إذا قدرَ على الاجتهادِ التام الذي يَعتقد معه: أنَّ القول الآخر ليس معه ما يدفع به النص؛ فهذا يَجب عليه اتِّباع النصوص ، وإن لم يفعل؛ كان مُتَّبعاً للظنِّ وما تَهوى الأنفُس ، وكان أكبرَ العُصاة للهِ ولرسوله» (٢).

عَملُ ابنِ تيميَّة ومكانتُه الفقهيـة:

أمَّا تعامُلُه في المسائل الفقهية؛ فإنه أفتى في معظم المسائل على مذهب الإمام أحمدَ بن حنبل وأصوله ، وإنَّ فتاواه وآراءه الفِقهية في أكثر المسائل تتفق مع فتاوى ومذاهب الأئمة الأربعة ، أو مذهب إمام من أئمة المسلمين ، واجتهاده ، كما قام بالاجتهاد في بعض المسائل ، وأفتى فيها في ضوء الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وبالنَّظر إلى جميع هذه الوجوه والموازنة بينها يصح أن يُقال: إنه كان مجتهداً منتسباً (٣) للمذهب الحنبلي» (٤).

دَعـوةُ ابنْ تيميَّة وتأثيرُها:

ومِن مآثر ابن تيميَّة التجديدية: أنه عندما دعا الناس بقُوة إلى اعتبار الكتاب والسنة مَصدراً للعقائد ، وعملَ بها نفسُه في غاية من الاهتمام ، دعاهم كذلك

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام: ص ٣٨٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٨٥.

(٣) المجتهد المنتسب هو الذي يكون مجتهداً في الفروع والأصول ، ولكنه يتفق مع أي إمام في طريق استدلاله، واستنباطه، ولا يتجاوز نطاقه بوجهٍ عام.

(٤) وللاطلاع على فقه ابن تيمية ومكانتـه ، والتفـاصيل عن مكانته الاجتهادية راجع كتاب «ابن تيمية» للشيخ أبو زهرة ، ص ٣٥٠ ـ ٤٥٢.

بقوة بالغة إلى اتخاذ الكتاب والسنة مصدراً للفقهيات ، والأحكام ، ومِقياساً للحق ، وقدَّم نموذجاً عالياً للعمل بهذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

إنَّ دعوةَ ابن تيمية هذه أثارتْ رُوحاً ونشاطاً من جديد في أوساط الأمة الفِقهية ، والعلمية التي كانت قد توقفتْ منذُ مدة بعيدة عن دراسة الأحكام والمسائل ، والتفكير فيها ، ومقابلتها مع الكتاب والسنة ، وكان بابُ الاجتهاد والاستنباط مُغلَقاً من زمن طويل ، وهكذا فإنه قام بِبعثِ الفكر الإسلامي الصحيح الذي وُجد في القرون الأولى ، وقامتْ عليه حياةُ المسلمين ، وهو على أساس هذه المآثر العلمية والعملية كُلِّها يُعتبر من شخصيات التاريخ الإسلامي المصطفاة التي اختارَها الله لتجديد هذا الدين ، وبعثه من جديد .

﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١]

* * *



البَابُ الثالِثُ

تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية النجباء

الفصل الأول: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.

الفصل الثاني: عماد الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي.

الفصل الثالث: عماد الدين إسماعيل بن كثير.

الفصل الرابع: زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي.



الفصل الأول

الحافظ ابنُ قَيِّم الجَوزيَّة تلميذهُ وخليفَتُه

عُرف شيخُ الإسلام ابن تيمية بكثرةِ تلاميذه والمستفيدينَ منه ، وكان من الطبيعي أن يكون له نفوذٌ قوي في عصره الذي عاش فيه بما قد رَزقه الله من حياة مشغولة بالعمل الإسلامي العظيم ومن شخصيَّة عِملاقة جبَّارة ، ولا غَرْوَ أن يتجمَّع حوله حشدٌ كبير من تلاميذه والمعجَبين به .

وقد تميَّز مِن بين هؤلاء التلاميذ تلميذُه النجيب الحافظ ابنُ قيّمِ الجوزية الذي يُعتبرخليفَته الراشد ، ومُدوِّن علومه من بعده ، إنَّه تفرَّد بخصائص ومزايا لم تتوافر في غيره من تلاميذه ، فقد ظلَّ يُشارك أستاذه في أحواله ، وأعماله طول حياته ، ولم يُفارقه حتى آخر لمحة من حياته ، وثَبت على جادَّته بعد وفاته من غير أن يَفتُر حبُّه له ، وإعجابه به .

إنَّ خَدماته العلمية ، وجلالة قدره وفضائِله لَجديرةٌ بتأليف كتابٍ مستقلٍّ[١]

(١) وقد صدرت عشرات الرسائل: الماجيستر ، والدكتوراه حول سيرة ومؤلَّفات ومنهج الحافظ ابن قيم الجوزية ، ومن أشهر ممَّا كُتب عنه: «ابن قيم الجوزية» للأستاذ عبد العظيم شرف الدين ، و: «ابن قيم الجوزية» للشيخ مسلم الغنيمي ، و: «ابن قيم الجوزية وآراؤه التربوية» للأستاذ عبد الرحمٰن النحلاوي ، و: «ابن قيم سيرته ومؤلَّفاته» للأستاذ أبو بكر زيد] «وابن قيم الجوزية وآراؤه النحوية» للدكتور أيمن الشَّوَّا.

عنه ، يبحث عن مؤلفاته ، ودراساته العلمية بغايةٍ من التفصيل ، ومما يَبعثُ على الدهشة والاستغراب: أنَّ التاريخ لا يتحدَّث عن سيرته إلا بإيجاز ، والمعتمدُ في ذلك هو ماذكره تلميذُه النابغة الشهير الحافظ ابنُ رجَب الحنبلي عن سيرته في «طبقات الحنابلة».

والحقيقةُ: أنه أذاب شخصيته في حياة شيخه وأستاذه بحيث لم يَعُد له وجود مستقل ولا شخصيةٌ وحدها ، وإلى القارىء نُبذة من سيرته التي اطَّلعنا عليها وظفِرنا بها.

اسمهُ ونَسَبُه:

هو مُحمَّدٌ الملقَّب بشمس الدين ، ويُكنى أبا عبد الله ، وهو في النسبة زرْعِيٌّ[١] ، واسم والده أبو بكر بن أيوب.

ولد في دمشق حيث قضى حياته ، توفِّي هناك ، ودُفن فيها ، وكان والده[٢] قيِّمَ المدرسة الجوزية[٣] فقيل له ابنُ قيِّم الجوزية نسبة إلى مَنْصب والده ، ويُؤْثِرُ بعضُ الناس الإيجازَ فيقولون ابنُ القيم.

سمعَ الحديث من الشّهاب النابلسي العابر ، والقاضي تقي الدين سليمان ، وفاطمة بنت جوهر ، وعيسى بن مطعم ، وأبي بكر بن عبد الدائم ، وغيرهم من شيوخ عصره.

برَع في الفقه على المذهب الحنبلي ، وأفتى ، ولازمَ ابنَ تيميَّة حتى آخر لحظة من حياته ، يقول العلامةُ ابن كثير: «لازمَه إلى أن مات الشيخ ، فأخذ عنه عِلماً جمَّاً» [٤].

---

(١) [نسبة إلى قرية «زُرَع» من قُرى حَوْرَان قُرْب دمشق].

(٢) [كان عالماً مشهوراً في علم الفرائض].

(٣) [الكائنةُ اليوم في سوق البُزوريّة بدمشق ، وصفها الحافظُ ابن كثير بأنها أحسن المدارس ، جُعل فوقها مسجدٌ صغيرٌ تقام فيه بعضُ الصلوات إلى يومنا هذا].

(٤) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص ٢٣٤.

مكانَتُه العِلميَّة:

شارَكَ في جميع العلوم الإسلامية ، ولكنه تفرَّد بالتفسير ، كما يقول الحافظُ ابن رجب ، ونبغَ في أصول الدين ، وبلَغ فيها إلى القمة ، لم يُوجد له نظيرٌ في الحديث ، وفقه الحديث ، ودقائقِ الاستنباط.

كما برع في الفقه ، وأصول الفقه ، والعربية ، وعلم الكلام ، وحَصل له اطلاعٌ واسعٌ على إشارات أهل القلوب ، ودقائق أصحاب المعرفة والتصوف.

يقول ابن رجب: «لم أجدْ عالماً أكبرَ منه في معاني الكتاب والسنة ، والحقائِق الإيمانية ، إنه لم يكن معصوماً عن الخطأ إلا أنني لم أرَ أحداً يحمل هذه الصفات مثله».

ويقول العلاَّمةُ الذهبي: «كانَت له عِنايَة فائقةٌ بمتُون الحديث ورجالِه ، إنه كان يشتغل بدراسة الفقه ، ويكتب مسائله في غايةٍ من التفصيل ، كما كانتْ له بَراعة في تدريس النحو ، وأصول الفقه ، وأصول الحديث».

زُهدُه وعِبادَتُه:

كان كثيرَ العبادة ، كثيرَ إحياء الليالي ، يُطيل الصلاة ، ويخشع فيها ، يُداوم على ذكرِ الله ، ويَغلب عليه ، ويأخذ بمجامع قلبه حُبُّ الله ، وحالةٌ خاصة من الإنابة إليه ، يعلو وجهَه نورٌ من التواضع ، والافتقار إلى الله ، حَجَّ مرَّاتٍ عديدة ، وأقام بمكة المكرمة مُدَّةً طويلة.

يحكي أهلُ مكة حكايات من كثرة عبادته ، وطوافه مما يبعث على الاستغراب والدهشة.

تَحدَّث عنه العلامة ابن كثير في تاريخه فقال: «كانَ كثيرَ التودُّد ، لا يَحسُدُ أحداً، ولا يؤذيه، ولا يَستغيبه، ولا يحقِد على أحد، وكنتُ من أصحَبِ الناس له ، وأحبِّ الناس إليه ، ولا أعرف في هذا العالَم في زماننا أكثرَ عبادةً منه ، وكانت له طريقةٌ في الصلاة يُطيلها جدّاً، ويَمُدُّ ركوعها، وسجودها، ويَلُومه

كثيرٌ من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يَرجع، ولا ينزِع عن ذلك ـ رحمه الله ـ. وبالجُملة كان قليلَ النظير في أموره وأحواله»[1].

مِحنَتُه:

مَرَّ بمراحل المحنة والمُجاهدات الشَّاقة كأستاذه وشيخه، عندما حُبس شيخه ابنُ تيميَّة في القَلعة في المرة الأخيرة حُبس هو معه أيضاً، ولكن فُرِّق بينهما في السجن، وأُفرج عنه بعد وفاة شيخه، وقد ظلَّ طوالَ هذه المدة مشغولاً بتلاوة القرآن، ودراسة معانيه، والتدبُّر فيها.

يقول عنه ابنُ رجب:

«ففتح عليه من ذلك خيرٌ كثيرٌ، وحَصل له جانبٌ عظيمٌ من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في عُلوم أهل المعارف، والدُّخول في غوامضهم، وتصانيفُه ممتلئةٌ بذلك».

تَلاميذهُ ومُعاصروه يَعترفون بفَضله:

تلقَّى منه العلمَ جماعةٌ كبيرةٌ من العلماء في حياة شيخه ابن تيمية، وبعدَ وفاته، واستفادوا من مَناهل علمه، وكان علماؤه المعاصرون يُبجِّلونه كثيراً، ويَرَوْنَ التَّلمذةَ عليه شرفاً كبيراً، فمِن تلاميذه ابنُ عبد الهادي، وابنُ رجب، ولقد قال عنه القاضي بُرهان الدين الزُّرعي «لا يوجدُ الآن رجلٌ أوسعَ علماً مِنه تحتَ هذه السَّماء».

التَّدريسُ والتَّأليفُ:

قامَ ابنُ القيِّم بتدريس العُلوم الشرعية في المدرسة الصَّدْرية[2]، وتولَّى

---

(١) البداية والنهاية: ج١٤، ص ٧٣٥.

(٢) [هي من مدارس الحنابلة، أنشأها أسعدُ بن عثمان بن المنجا التنوخي ثم الدمشقي، كانت بدربٍ، يقال له: درب الريحان، وقد درس فيها ابن عبد الهادي، وابن القيِّم، وابن إبراهيم وغيرهم، وقد محيت آثارها، وصارت دُوَلاً، ولا ذكرَ لها اليوم].

إمامةَ المدرسة الجوزية إلى مدة طويلة ، وقد ألَّف بقَلمه كُتباً كثيرة ، يشهد ابنُ رجب بشغَفه الزائد بالكتابة ، والمطالعة ، والتأليف ، واقتناءِ الكتب ، ونتيجةً لهذا الشوق تألفتْ لديه مكتبةٌ واسعةٌ ، كانت تحتوي على كثير من الكتب الخطية التي انتَسخها بيده .

بماذا تمتاز مؤلَّفاته؟

تمتازُ مؤلَّفاته بحُسن الترتيب ، وجودة التأليف ، وهي تفوق في هذا المجال مؤلفاتِ شيخه ابن تيمية أيضاً ،وهي بجانب ذلك تتميَّز بِرقَّة الأسلوب ، وسَلاسة العبارة ، وتأثيرِها ، ولعلَّ ذلك جاء من قِبل نَفسه التي تحلَّت بالجمال أكثر منها بالجلال .

أهمُّ مُؤلَّفاته:

لمؤلَّفاته قائمةٌ طويلة ، نُدرِجَ فيما يلي ما له أهميةٌ كبيرة :

١ ـ تهذيب سنن أبي داود .

٢ ـ مَدارج السالكين بين منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

هذا الكتابُ شرح لكتاب «منازل السائرين» لشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهَروي ، ويُعتبر من أجود كتب التصوف والمعرفة .

٣ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد .

٤ ـ جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام .

٥ ـ إعلام الموقِّعين عن رب العالمين :

وهذا الكتاب مرجع كبير للمشتغلين بالفتاوى والحديث ، ومن أجود تصانيفه .

٦ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية .

٧ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة .

٨ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح :

في وصف الجنة وأحوالها ، وهذا الكتاب على هامش «إعلام الموقعين» .

٩ ـ كتاب الداء والدواء.

١٠ ـ مفتاح دار السعادة.

١١ ـ اجتماعُ الجيوش الإسلامية على غَزو المعطلة والجهمية.

١٢ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

١٣ ـ بدائع الفوائد.

١٤ ـ الكلم الطيب والعمل الصالح.

١٥ ـ تُحفة المودود بأحكام المولود.

١٦ ـ كتاب الروح.

١٧ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

١٨ ـ نفحة الأرواح وتحفة الأفراح.

١٩ ـ الفوائد.

٢٠ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٢١ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي [(١)].

٢٢ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

٢٣ ـ إغاثة اللهفان في مكايد الشيطان.

٢٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين[(٢)].

وأمّا كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد»، فإنه أكثر جمعاً لخصائص مؤلفاته، ويحتوي في نفس الوقت على مواضيع مختلفة من السِّيرة، والسنة، والفقه، وعلم الكلام، والتزكية، والإحسان، وأعتقد أنه ليس هناك كتابٌ جامع أُلِّف للعمل والإصلاح بعد كتاب «إحياء العلوم» للإمام الغزالي، بل وقد يفوقه من نَاحية التحقيق، والاستناد، والتطبيق بين الكتاب والسنة.

ويبدو أنه أراد أن يُؤلِّف كتاباً يَنُوب عن المكتبة الدينية إلى حدٍّ كبير، ويقوُم

---

(١) [هو ـ والله أعلم ـ كتاب «الداء والدواء» السابق ذكره].

(٢) [قد طُبع معظم كُتبه في بلاد الشام بتحقيق الأستاذين الفاضلين: يوسف علي بديوي، ومحمد بشير عيون، في دار ابن كثير، ودار البيان].

مقام مُربٍّ ومرشدٍ ، وفقيهٍ ومحدِّثٍ ، ولقد شُغف بهذا الكتاب ، وأولع به من كانوا يتذوَّقون الحديثَ ، ويحرصون على اتّباع السنة والآداب النبوية ، وكانوا يهتمون بها (١) .

وقد تحلَّى الكتاب بالطبع لأول مرةٍ في الهند سنة ١٢٩٨هـ ، وفي مصر ١٣٢٤هـ ، وتقع الطبعة الهندية في ٩٣٧ صفحة بالقطع الكبير ، ولكن الطبعة المصرية بالحروف الحديدية تقع في ٩٢٦ صفحة(٢) .

وقد تحدَّث المؤلِّف عن الكتاب في أوله ، فقال :

«وهذه كلماتٌ يسيرةٌ لا يَستغني عن معرفتها من له أدنى هِمةٍ إلى معرفة نبيه ﷺ ، وسيرتهِ وهديه ، اقتضاها الخاطرُ المكدود على عُجَره وبجَرِه ، مع البضاعة المزجاة ، . . مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة ، والقلبُ بكل وادٍ منه شُعبة ، والهمة قد تفرقت شذَر مذَر ، والكتاب مَفقودٌ ، ومن يَفتح بابَ العلم لمذاكرته معدوم غير موجود» (٣) .

إذا كان بيانُ المؤلِّف هذا يتعلَّق بأول الكتاب وببعض الفصول والأبواب ، فلا يَبعث على الاستغراب الكثير ، ولكنه إذا كان عن الكتاب كُلِّه فلا شك : أنه مَبعثُ دهشة وغرابة ، وذلك لأن البُحوث المفصَّلة الدقيقة لِمتُون السنة والأسانيد والرِّجال والدقائق من السيرة ، والتاريخ ، والأحكام التي يشتمل عليها هذا الكتاب يُؤكد للقارىء : أن هذا الكتاب لم يؤلَّف إلا في مكتبة واسعة كبيرة ، فإنْ صَحَّ أن هذا الكتاب كُله إنما أُلِّف في حال السفر ، فلا بدَّ من

(١) وقد جاء في ترجمة العالم المتورع ، الزاهد الإمام عبد الله الغزنوي : أنَّه كان شديد الشغف بهذا الكتاب ، ويدعو الله تعالى ويقول : يا أرحم الراحمين يسر لي وجود هذا الكتاب ، واجعله خير زاد لمعادي ، وكان عزيز الوجود في زمانه وبلاده (أفغانستان) ، اقرأ ترجمته الحافلة في كتاب «نزهة الخواطر» ج٨.

(٢) [قد طُبع هذا الكتاب بتحقيق وتعليقات الأستاذين الجليلين : الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط في ستّ مجلَّدات في مؤسسة الرسالة ببيروت].

(٣) زاد المعاد : ج ١٥ ، ص ١ .

الاعتراف بأنَ مُؤلِّفه كان متبحراً في العلوم الإسلامية كُلّها وخاصة في الفقه والسنة ، وأنَّ مكتبة العلوم الدينية كانتْ تموج في صدره ، وكان خيرَ خَلَفٍ لخير سَلف من المحدِّثين المتقدِّمين في قوة الذاكرة ، واستحضارِ العلوم ، وخليفةَ صِدْقٍ لأستاذه العظيم.

لقد شَرح الحافظُ ابنُ القيِّم في أول هذا الكتاب موضوعَ البعثة المحمدية ومَراتبَ الوحي ، إنُّه استوعب في بيانِ مراتب الوحي وأنواع الوحي ما لا يُوجد له نظير في كتب السيرة العامة [١] .

ثم ذكَرَ تلك المدارج التي مرَّت بها الدعوةُ الإسلاميةُ ، كما تناول الأسماءَ المباركة ، ومعانيها ، ودقائقها ببحثٍ لطيف ، ولم يَتْرُكْ في هذا البحث مسائل ونكتاً من النحو والفقه ، وما يتعلَّق بالذوق والوجدان؛ إلا وقد ذكرها كلَّها كعادته وعادة شيخه في ذلك.

وبهذه المناسبة جمع كُلَّ ما يتصل بالسيرة ، وشخصية النبيﷺ من التفاصيل ، حتى تكوَّنتْ ذخيرةٌ قَيِّمة للأخلاقِ ، والشمائل ، والعادات النبوية [٢] .

ثم إنَّه تَناول عباداتِ النبيﷺ وهيئةَ صلواته ، وسُنَنها ، وعاداته بتفصيلٍ دقيق يُعتبر عصارة دِراسته للحديث والعلوم الدينية ، وهو يتجلَّى في ذلك بلون المحدِّث ، وأسلوب المُحقِّق ، وقد تضمن هذا البحث كلاماً دقيقاً لأصول الحديث ، والفقه [٣] ، ومعلوماتٍ مهمَّةً بفَنِّ الرجال [٤] .

إنَّ أبوابَ الكتاب التي تَشمل بيان العبادات ، والأركان الأربعة ليست مجرد كتاب للأحكام والخلافيات الفقهية ، بل إنها تتضمَّن نُكتاً عِلميةً لطيفةً ،

---

(١) زاد المعاد: ص ١/١٨ للمطبعة النظامية.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٥ ـ ١/٤٩ .
(٣) المرجع السابق: ١/٦٩ ـ ١/١٠٥ .
(٤) المرجع السابق: ١/٧٣ ـ ١/٩٩ .

ومعاني غزيرةً للذوق والوُجدان ، تَبعثُ الإيمان من جديد .

وقد ذكر في بيان الزكاة والصدقة: «كان ﷺ أشرحَ الخلق صَدْراً ، وأطيَبهم نفساً ، وأنعمَهم قلباً ، فإنَّ للصدقة وفعلِ المعروف تأثيراً عجيباً في شَرح الصدور انْضاف ذلك إلى ما خصَّه الله به من شَرْحِ صدره للنبوة ، والرسالة ، وخصائِصها ، وتوابعها ، وشَرحِ صدره حسّاً ، وإخراج حظِّ الشيطان منه» [١] .

واهتمَّ المؤلِّف ببيان حِكمة العبادات ، والأركان ، والأحكام ، وأسرارها ، وفوائِدها قبل أن يتحدَّث عنها ، وقد تصدَّى بعرض تاريخي للتشريع وحِكمته في هذه العبادات والأركان وفوائدها ، بأسلوبٍ شيِّق جذاب .

أمَّا الجُزء المهمُّ لهذا الكتاب الذي يَشهدُ على عُلو كعب المؤلف ، وسعة اطلاعه ، واستحضاره للعلم هو باب الحج ، فإنَّني لم أطلع في أيِّ كتاب على مثل هذه الذخيرة العلمية ، والتحقيق الجامع ، والبحث الدقيق على الحجِّ ، ومناسكه ، وحِجَّةِ النبيِّ ﷺ وأحكامِها ، ويمتدُّ هذا البحث في الطبعة المصرية من ص ١٨٠ إلى ص ٣٤٩ ، يعني في ١٦٩ صفحة ، تناول المؤلف بيان حجة النبي ﷺ بغاية من التفصيل من خروجه من المدينة إلى عودته إليها، وهو مُلخَّص لذخائر مختلفةٍ للحديث، ومجموعةٌ للروايات الصحيحة، والجزئيات الكثيرة [٢] .

إنَّه في ضمن هذا البحث يُلقي ضوءاً على كثير من مباحث الحج الخلافية والمسائل المختلف فيها ، ذكَر حكمها في ضوء الحديث باجتهاده ، وبرأيه ، ويبدو: أنه لا يتقيد في ذلك بمذهب معين ، على الرَّغم مِنْ أنه حنبلي يثبت بالدلائل أن النبيَّ ﷺ لم يكن مفرداً بل قارناً .

ثم إنَّه يضع الأصبع في مواضع الخطأ والخلافات التي تَرجع إلى المتقدمين

---

(١) زاد المعاد: ١/١٥٨ .

(٢) وللاطلاع على التفاصيل والجزئيات راجع كتبَ الفقه .

والمتأخرين في بيان كيفية حَجِّ القِران للنبي ﷺ ، ويُشير إلى مصدرها وعُذرِهم فيها [١].

كما أوضَحَ الأوهام التي عرضت لكبار العلماء ، والمحققين في حِجَّةِ النَّبي ﷺ قديماً وجديداً ، وذكر القول الفصل في ذلك ، فمن التابعين طاووس ، ومن المتقدِّمين الطَّبري ، ومن المتأخِّرين القاضي عياض ، والعلامة ابن حزم ، وأمثالهم من أساطين العلم والرجال وقعوا في بعض الأخطاء والأوهام في تفاصيل حِجَّة النبي ﷺ ، التي [٢] صحَّحها المؤلف ، وبذلك نستطيع أن نُقدِّر مدى رُسوخه وتبحُّره في العلم.

والحقيقةُ: أنَّ مجرد باب الحج في هذا الكتاب يكفي لمعرفةِ قيمة الكتاب ، وإمامة مؤلفه ، وجلالة قدره.

وقد جاء المؤلِّف في ثنايا الكتاب بمباحث كلامية وعقائدية تشهدُ بعُلوِّ مكانته ، وسَعة نظره وتحقيقه ، وحاول التعبير الصحيح عن روح الشريعة ، مُتَّبعاً في ذلك ذوقَه وذوق شيخه.

وممَّا يَجدُر بالدراسة والاستفادة في هذا الموضوع هو ما بحث فيه عن حقيقة التوكل ، والتوسل بالأسباب في تحقيق دقيق [٣].

وقبل أن يَبدأ الكلام عن الغزوات بحثَ عن حقيقة الجهاد ، ومراتبه في غاية من التحقيق والمعرفة كعادته ، وذكر بدء دعوة الإسلام ، وأحوالَ مكة آنذاك ، والهجرةَ إلى المدينة ، وفَرضيَّة الجهاد والغنيمة ، والصُّلح والأمان ، والجزية والمعاملة مع أهل الكتاب ، وَأحكام المنافقين بتفصيل كبير.

وهو بمناسبةِ ذكر فرضية الجهاد ومشروعيته تحدث عن قيمة النفس ، وضآلتها بإزاء حقيقة الجنة ونعيمها بحماس ، وقوة ، وأسلوب يستهوي

---

(١) زاد المعاد: ص ١/١٨٥ ـ ١/١٩٠.

(٢) انظر «فصل في الأوهام» ١/٢٤٩ ـ ١/٢٥١.

(٣) زاد المعاد: ١/٢٦٤ ـ ١/٢٦٦.

القلوبَ ، وهو نموذج رائع لقوة كتابته ، وإيمانه .

ثم تعرَّضَ بذكر مغازي النبي ﷺ ، وبعوثه ، ومهماته بترتيب ، وبما أنَّ له اطِّلاعاً واسعاً على الحديث والسيرة معاً ، وهو نَقَّاد ومُحدِّث أكثر من مؤرخ . يتميَّز هذا الجزء من كتابه بالنسبة إلى كتب السيرة الأخرى ، وأَنَّ قوله فَصل في الأمور الخلافية ، وهو عندما يتحدَّث عن الوقائع والأحداث يأتي بتَفسير الآيات ، ولطائِفها ، وأسرارها في أسلوبه الخاص به .

ومِن دَأْبِه في بيان الغزوات : أنَّه يتناول كل ما يتعلَّق بها من الأحكام ، فَمثلاً بعد ذكر غزوة خيبر عَقد فصلاً مستقلاً «فيما كان في غزوة خيبر من الأحكام الفقهية» (١) وبعد غزوة الفتح «فصل في إشارة إلى ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف (٢)» وكذلك بعد غزوة حنين ، وأوطاس «فَصْل إلى إشارة ما تضمَّنت هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنُّكت الحكيمة» (٣) ، وما إلى ذلك مما يَشحنُه بمواد قيمة ، ومعلوماتٍ مهمَّة .

وهو في هذه الغزواتِ والوقائع ليس مُقلِّداً أو ناقلاً للمتقدِّمين من أهل السِّير والمغازي ، فإنه عارضهم في بعض المناسبات في أمور اشتهرت بين الناس ، وقـدَّم فيها تحقيقاً خاصاً بدراسته الشخصيـة ، وفهمِه العميق ، فمثلاً يُعرف بوجه عام ، وتذكر كُتب السير والتاريخ أنَّ نِسوة الأنصار وبناتِهم أنشدن هذه الأبيات :

طلَـــعَ البَـــدْرُ علينَـــا مِـــن ثَنِيَّـــات الـــوَدَاعْ
وَجَـــبَ الشُّكْـــرُ علَينـــا مَـــا دَعـــا للهِ داعْ
أيُّهـــا المَبْعـــوثُ فِينـــا جِئْـــتَ بـــالأمْـــرِ المُطَـــاعْ

عندما كان النبيُّ ﷺ يدخلُ المدينة مهاجراً من مكة ، ولكنه يُعارضُ هذا

---

(١) زاد المعاد : ١/٣٩١ .
(٢) المرجع السابق : ١/٤٠٠ .
(٣) المرجع السابق : ١/٤٣٩ .

الرأي ، ويَرى أنَّ هذه الأبيات إنما أُنشدت لدى عودته ﷺ من غزوة تبوك التي هي في جهة الشام كما يقولُ:

«وبعضُ الرُّواة يَهِمُ في هذه ويقول: إنما كان ذلك عندَ مقدَمِه المدينة من مكة ، وهو وَهم ظاهر ، فإنَّ ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام» (١).

وبعد ذِكر غَزوة تبوك أيضاً تصدى لذِكر أحكامها (٢) وفوائدها بتفصيل يتضمَّن فوائد مهمة ، ومعلومات فقهية ، واستنباطات لطيفة ، وأحكام اجتماعية ومدنية.

ولمَّا فرَغ من بيان الغزوات والبُعوث بدأ بذكر قُدوم وفود العرب في تفصيل (٣) ، وذَكر وفد النبي ﷺ ومكاتِيبه التي وجَّهها إلى ملوك العالم وأمراءِ القبائل (٤).

وأمَّا الجُزء الثاني من الكِتاب فمُعظمُه يختصُّ بالطب النَّبوي ، ذكر فيه أسرار الطِّب النبوي ، وحِكمَه ، وتوجيهاته الطبية ، واجتمع في هذا البحث الأحكامُ الطبِّية مع الأحكام الفقهية ، والمباحث الحديثية (٥) ، وقد بَذل جُهداً في جمع تلك الأدوية ، والأغذية ، والمفردات في مكان واحد بترتيب حروف الهجاء؛ التي يتَّصل بها حديثٌ صحيحٌ ، أو ضعيفٌ ، أو موضوعٌ ، وأخذ عليها من الناحية الطِّبية ، وبيَّن خواصّها (٦) ، ويُمكن تقديرُ مدى دراسته الواسعة للحياة ، وأمراض القَلب ، واطلاعه الواسع على نفسيَّة الإنسان بما قد ذكره في

(١) زاد المعاد: ١/٤٦٦.

(٢) اقرأ «فصل في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد» ١/٤٦٥ - ١/٤٨٢.

(٣) زاد المعاد: ١/٤٨٣ - ١/٥١٨.

(٤) المرجع السابق: ١/٥١٨ - ٢/١٤١.

(٥) المرجع السابق: ٢/١٤١.

(٦) المرجع السابق: ٢/٩٨.

باب الأمراض والمعالجات من مَرض العشق ، والحُبِّ وعلاجِه ، وحقيقة المحبة وأسبابها الطبعية ، وأقسامها ودرجاتها ، ثم علاجها والتدبير لها (١) .

ولا شَكَّ أن الحقيقة ما ذكره شيخُ الإسلام ولي الله الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» عن هذا الطب النبوي من أنَّ مكانة هذا الطب ليستْ تبليغيةً ، ولا تَشريعيةً ، وإنما يُبتنى على تجاربه ﷺ وعاداتِه ، وتجارب العرب ، وعاداتهم (٢) .

وعلى كل فإنَّ لمُعَظِّمي أقوال النبي ﷺ والمعجَبين بتوجيهاته في كل فَنٍّ عن إيمان ويقين معلوماتٌ قيمة في هذا الجزء من الكتاب .

ولمَّا فرغ من بيان ذلك التفتَ إلى أحكام النبي ﷺ في القضايا ، واستطاع أن يجمع ذخيرة غاليةً واسعة لأبواب الفقه المختلفة ، وكأنه ألَّف كتاباً للفقه يُبنى على الأحاديث ، والأحكام ، والأقضية (٣) .

وإنَّ هذا الكتاب يتضمن عدا هذه الفصول والأبواب تحقيقات ولطائفَ تفسيرية ، ونحوية ، وتاريخية ، وكلامية قيِّمة تتفرَّق في ثنايا ألف صفحة من الكتاب .

وممَّا يُنتقد في هذا الكتاب هو أنه خليطٌ للعلوم الإسلامية كلِّها من السيرة ، والحديث ، والفقه ، والتاريخ ، والكلام ، والنحو ، والصرف ، ولعلَّ نفسية أستاذه وشيخِه كانت تعمل فيه لدى تأليف هذه الكتاب ، فإنه لا يلبث إلا وينتهز أضعفَ مناسبة للتعرض في مسألة كلامية أو نحوية ثم يتفرّغ للكلام عنها بغاية من الشرح والتفصيل .

فإنْ أُفرز من هذا الكتاب كلُّ موضع على حدة تسنَّت الاستفادةُ منه ، ولكنه على الرَّغم من ذلك يُعتبر من أهم كتب الإسلام الذي يَقوم مقام مكتبة بأسرها ،

---

(١) زاد المعاد: ٩٢ ـ ٢/٩٧ .

(٢) حجة الله البالغة: باب «بيان أقسام علوم النبي ﷺ » ص ١/١٠٢ الطبعة المصرية .

(٣) المرجع السابق: ٢/١٤٢ إلى آخر الكتاب .

وإنَّ وجوده كوجُود عالمٍ كثير الفنون ، متبحِّرٍ ومحقِّقٍ في العلوم ، نال به آلافٌ مؤلَّفة من طُلاَّب الحق ومتبعي السنة هداية دينية ، وغذاء روحياً ، وحلاوة إيمانية .

وفاتُه:

توفِّي في ٢٣ رجب عام ٧٥١ هـ يوم الأربعاء ليلاً ، وصُلِّي عليه في اليوم التالي بعد صلاة الظهر في المسجد الجامع[١] ، ودُفن في مقبرة الباب الصغير[٢] ، رحمه الله ، ورفع درجاته!

* * *

(١) [أي الجامع الأموي].

(٢) [يقع قبره على يسار الشارع خارج إحاطة المقبرة].

الفصل الثاني

الحافظ ابنُ عَبْدِ الهادي المَقْدَسِي

ومِن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الذين حصل لهم تبحُّرٌ في علم الحديث والسنة ، وقضوا جُلَّ حياتهم في خِدمة السنة ونشرِها وفي الإصلاح والدعوة ، والذين حازوا قَصَبَ السبق والميزة والشهرة عدا الحافِظ ابنِ القيِّم ؛ هم :

ابنُ عبد الهادي ، وابنُ كثير ، وابن رجبٍ بوجهٍ خاصٍ .

عاشَ ابنُ عبد الهادي أقلَّ من ٤٠ سنة ، ويُقدّر مؤلِّفو السير والتاريخ : أنَّه لو امتدتَّ به الحياة لكان من كبارِ علماء عصره ، وفاقَ كثيراً من العظماء ، وقد شَهد بذلك الصفدي بقوله : «لو عاشَ ؛ لكان آية» .

وذكره العلامة الذهبي في «معجمه» فقال :

«هو الفَقيه ، البارع ، المقرىء ، المجوِّد ، المحدِّث ، الحافظ ، النحوي الحاذق ، ذو الفنون ، كَتَب عنِّي ، واستفدتُ منه»[١] .

ويقول عنه العلاَّمة أبو الحجاج المِزِّي اعترافاً بفضله : «ما التقيتُ به إلا واستفدتُ منه» [٢] .

---

(١) الدرر الكامنة : ج٣ ، ص ٣٢٢ .

(٢) المرجع السابق : ٣ ص ٣٣٢ .

ونَفسُ هذا الاعتراف مَروِيٌّ عن العلامة الذهبي أيضاً [١] .

ويقول الصَّفديُّ :

«كنتُ إذا لقيتُه ؛ سألتُه عن مسائلَ أدبية ، وفوائد عربية ، فينحَدِر كالسيل» .

ويتحدَّث عنه الحافظُ ابن كثير (صاحب التاريخ والتفسير) فيقول :

«حَصَّل من العُلوم ما لا يَبلُغه الشيوخ الكبار، وتفنَّن في الحديث، والنَّحو ، والتصريف ، والفِقه ، والتفسير ، والأصْلَين [٢] ، والتاريخ ، والقراءاتِ .

وله مجاميعُ ، وتآليف مفيدة كثيرة .

وكان حافظاً جَيِّداً لأسماء الرجال ، وطُرق الحديث ، عارفاً بالجَرح والتعديل ، بصيراً بِعِلَل الحديث ، حسَنَ الفهم له ، جَيِّد المذاكرة ، صحيحَ الذهن ، مستقيماً على طريقة السَّلَف ، واتباعِ الكتاب والسنة ، مُثابراً على فعل الخيرات» [٣] .

حَياتُه بإيجاز:

هو شَمسُ الدين محمَّد الملقَّب بالعماد ، يُكنى أبا عبد الله ، وأبا العباس ، عُرف بوجه عام بابنِ عبد الهادي، ونسبه هكذا:

محمَّد بنُ عبد الهادي بنُ عبد الحميد بنِ عبد الهادي بن يوسف بنِ محمد بن قُدامة، والموطن الأصيل لأسرته هو بيت المقدس، ولكنها انتقلت إلى دمشق، وسكنتْ في الصالحية بدمشق حين وُلد ابن عبد الهادي عام ٧٠٤هـ [٤] .

قرأ القرآن بقراءات مختلفة ، وقرأ الحديثَ ، ومُعظمَ كُتب الدرس على القاضي أبي الفضل ، سليمانَ بن حمزة ، وأبي بكر بن عبد الدائم ،

(١) المرجع السابق: ج ٣ ، ص ٣٢٢.
(٢) أي أصول العلوم الشريعة كالحديث والفقه.
(٣) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٢١٠.
(٤) ابن رجب ، ولكن عند ابن كثير ٧٠٥هـ.

وعيسى بن مطعم الحجَّار، وزينبَ بنت الكمال، وغيرهم من الشيوخ الكبار، وأساتذة الفنِّ.

واشتغل بالحديث وفنونه، وبَرع في الرجال وعِلَل الحديث بصفة خاصة، وتَفقَّه في المذاهب.

كما كانتْ له براعةٌ كاملةٌ في الأصلين، وعلوم العربية، يقول ابنُ رجب:

«ولازَم الشيخ تقيَّ الدين ابن تيميَّة مدَّة، وقرأ عليه قِطعة من الأربعين في أصول الدين للرَّازي»[١].

أمَّا شيخُه في الفقه فهو الشيخ نَجم الدين الحرَّاني، ولازم المحدِّث الشهير والعالم الكبير الحافظ أبا الحجاج المِزِّي عشر سنين، وتلقى العلمَ من العلامة الذهبي أيضاً، وقد اعترف الذهبي بتفوقه في الرِّجال، والعلل، والعلوم الأخرى، وتولَّى رئاسة التدريس في المدرسة الصدرية[٢]، والضِّيائية[٣] لمدة طويلة، كما ذكره الحسيني.

تحدَّث ابنُ كثير عن وفاته، فذكر: أنَّـه بَقي مصاباً بجرح، وحُمَّى السّل نحو ثلاثة أشهر، ثم اشتدَّ هذا المرض، وكَثُر الإسهال حتى توفي يوم الأربعاء العاشر من جمادى الأولى عام ٧٤٤ هـ قبل أذان العصر.

وقال ابنُ كثير: أخبرني والدهُ بالكلمات الأخيرة التي انطلق بها لسانه، فكانت: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، اللهم اجعلني من التَّوابين واجعلني من المتطهرين».

---

(١) [للإمام فخر الدين الرازي، وقد طبع بتحقيق الأستاذ طه عبد الرؤوف سعد في المكتبة الأزهرية بالقاهرة].

(٢) انظر حاشية صفحة (٣٠٤).

(٣) [بناها الحافظُ الفقيهُ ضياء الدين محمد أبو عبد الله المقدسي الحنبلي سنة ٦٢٠ هـ، لكنها لم تَدُمْ طويلاً بسبب الكوارث التي حَلَّتْ بها من أهل البلد والغزاة على حدٍّ سواء، وُجِد شرقي جامع الحنابلة أَثَرٌ واضحٌ لمدرسة وبداخله دارٌ للسكن، ربَّما كانت هي الضيائية (خطط دمشق: ص ٢٣٠ ـ ٢٤٠ م)].

وصُلي عليه اليوم التالي في الجامع المظفَّري[١] حضر صلاته جميعُ أعيان البلد من القضاة ، والعلماء ، والحكام ، والتجار ، والعامة من الناس ، يقول ابن كثير :

«وكانت جنازَتهُ حافلة مليحَة عليها ضَوء ونور ، ودُفن في الروضة بجوار السيف ابن المجد»[٢] .

مُؤلفاته:

خلَّف ابن عبد الهادي عَدداً وجيهاً من مؤلفاته بالرغم من قِصر عمره ، وهي تحتلُّ أهمية كُبرى لغزارة ، مَوادِّها ، وجودة تأليفها ، وعدد صفحاتها[٣] ، ويحتوي عددٌ منها على عِدة مجلدات ، ونذكر أهم مؤلفاته من بين ما ذكره الحافظ ابن رجب في ذيل «طبقات الحنابلة» :

١ ـ الأحكام الكبرى (٧ مجلدات) .

٢ ـ المحرر في الأحكام[٤] (مجلد واحد) .

٣ ـ كتاب العمدة في الحفاظ (مجلَّدان) .

٤ ـ تعليقة للثقات (مجلدان) .

٥ ـ أحاديث الصلاة على النبي ﷺ (مجلد واحد) .

٦ ـ الإعلام في ذكر مشايخ الأئمة الأعلام ، أصحاب الكتب الستة (أجزاء متعددة) .

٧ ـ كتاب ضخم في مولد النبي ﷺ .

---

(١) [يقع في حيِّ الصالحية ، ويعرف اليوم بجامع الحنابلة].

(٢) البداية والنهاية : ج ١٤ ص ٢١٠ .

(٣) ويشبه في ذلك بعالم الهند الكبير الشيخ العلامة عبد الحي عبد الحليم الأنصاري اللكهنوي ١٣٠٤ هـ الذي عاش ٣٩ سنة فقط، ولكن خلف ذخيرةً كبيرةً ومفيدةً جداً من مؤلفاته [والتي نشرها فيما بعد العلاَّمةُ المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة بتحقيقه النفيس وتعليقاته القيمة].

(٤) وهو مطبوع .

٨ ـ تعليقة على سنن البيهقي (مجلدان).

٩ ـ ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية (مجلد واحد).

١٠ ـ منتقى من تهذيب الكمال للمزي (٥ مجلدات).

١١ ـ منتخب من مسند الإمام أحمد (مجلدان).

١٢ ـ منتخب من البيهقي.

١٣ ـ منتخب من سنن أبي داود.

١٤ ـ شرح الألفية لابن مالك (مجلد واحد).

١٥ ـ نقده لمؤلفات الذهبي والتعقب عليه (في أجزاء متعددة).

١٦ ـ الردُّ على أبي حيان النحوي.

عدا ما له من رسائل مستقلة تطول قائمتها.

ولمَّا ألَّف العلامةُ تقيُّ الدين ابنُ السّبكي في الردِّ على مسألة الزيارة لشيخ الإسلام ابن تيميَّة كتاب «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» تناوله العلامة ابن عبد الهادي بالنقد والتحقيق في ضوء الحديث، وألف كتاباً باسم «الصارم المنكي في الرد على السبكي» وهو خيرُ دليلٍ على براعته العلمية، وسَعة اطِّلاعه على السنة، ورجال الحديث [١].

* * *

(١) طُبع هذا الكتاب لأول مرة في عام ١٣١٩ في المطبعة الخيرية بمصر.



الفصل الثالث

الحافظ ابن كثير

اسمه ونسبه ومكانته العلمية:

هو عمادُ الدين إسماعيلُ بنُ عمر ، يُكنى أبا الفداء ، ويُعرف بابن كثير ، كان قَيْسِيَّ الأصل.

وُلد في عام ٧٠١هـ بقرية «مجيد» في نواحي بُصرى الشام ، حيث كان والده خطيباً ، وانتقل إلى دمشق في عام ٧٠٦هـ مع والده ، وقرأ الفقهَ على الشيخ بُرهان الدين الفِزَاري وغيره من الفقهاء ، وسمع الحديثَ ورواه عن ابن السّويدي ، والقاسم ابن عساكر ، وغيرهما من شيوخ الحديث ، وهو من أَخصِّ تلاميذ العلامة المِزِّي ، وكان صهرَه أيضاً ، وأكثرَ رواية عنه ، اشتغل بالفتاوى ، والتدريس ، والمناظرة ، وبرع في الفقه ، والتفسير ، والنحو ، توسَّع في فن الرجال ، وعلل الحديث ، واشتهر فيها بدقة نظره ، وسَعة اطلاعه ، درَّس في مدرسة «أم الصالح» كما درس في «المدرسة التَّنْكِيْزِيَة»[1] بعد وفاة العلاَّمة الذهبي ، وكان الذهبي يعترف بفضله وعلمه ، يقول:

---

(١) [هي دار القرآن والحديث التنكيزيّة ، بناها تنكز عام ١٣٣٨ ـ ١٣٣٩ م ، يقع في شرقي حمام البُزورية ، وهي اليوم مدرسة خاصة للأطفال].

«هـو فَـقيه مُـتقنٌ ، ومُحـدِّث مُحقِّـق ، ومُـفَسِّر نَـقَّـاد ، وله تصانيفُ مفيدة».

وأمَّا الحافظ ابن حجر العسقلاني؛ فكان معجَباً به ، يقول:

«كان كثيرَ الاستحضار ، وسارت تصانيفُه في البلاد في حياته ، وانتفع به الناسُ بعد وفاته».

وبالرَّغم من أنَّـه شافعيُّ المذهب ، فإنه كان شديدَ الإعجاب بشيخ الإسلام ابن تيميَّـة ، ومُعترفاً بإمامته وعظَمته ، وقد تَتلمذ عليه ، يقول عنهُ ابن حجر: «أخذَ عن ابن تيميَّة ، ففُتن بحبِّه ، وامتُحن بسببه» ، وقد اهتَّم بذكر سيرته بغاية من التفصيل ، والشغف ، ودافعَ عنه دفاعاً كاملاً في كتابه «البداية والنهاية» الذي استفدنا منه في أكثر المواضع من كتابنا هذا الذي يحتوي على حياة شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومِن مُؤلَّفات ابن كثير[1]:

١ ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: في خمسة مجلدات.

٢ ـ الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن.

٣ ـ تخريج أدلة التنبيه.

٤ ـ مسند الشيخين.

٥ ـ علوم الحديث.

٦ ـ طبقات الشافعية.

وكان قد بدأ بتأليف كتاب مبسوط مُفصَّل في الأحكام ، ولكنه ما تمَّ ، وقد

---

(١) [وقد طبعت جميع هذه المؤلفات محقَّقةً].

دوَّن مُسند الإمام أحمد بترتيب الحروف، وضمَّنه زوائد الطبراني، وابن أبي يعلى.

إلاَّ أن مأثرته التأليفية تتلخَّص في كتابين اثنين نالا حظوةً، وقبولاً، ولاتزال الأوساط العلمية تستفيد منهما إلى الآن.

١ـ تفسير القرآن العظيم:

فله كتاب في تفسير القرآن أسَّسه على المنقولات والروايات، يُعتبر أكثر قبولاً وثِقة بالنسبة إلى مؤلفاته الأخرى، يقول عنه العلامة السيوطي: «له التفسير الذي لم يؤلَّف مثله؛ إذ أنَّ الكتب التي ألَّفها الناسُ في التفسير قبل ذلك كانت تَنْقصها الأمانة العلمية، والاختيار الصحيح للأحاديث، وكانت تزخر بالأحاديث الضعيفة، والإسرائيليات، ولكن الحافظ ابن كثير كان مُحدِّثاً ناضجاً، فألَّف تفسيره على طريق المحدِّثين، وإنْ لم يستطع أن يُراعي فيه المستوى الرفيع في إدراج الروايات كما كان يُرجى منه، وتوسَّع في ذلك بعض الشيء، وأورد فيه جزءاً من الإسرائيليات، ولكنَّ الحق يقال: إنَّ تفسيره هذا ـ على رغم كلِّ ذلك ـ أكثرُ التفاسير ثِقةً، وإفادةً من وُجهة نظر التحديث، وقد أصدر منذ مدة أحدُ علماء مصر الأفاضل المعاصرين الأستاذ أحمد محمد شاكر مُلخَّصاً لتفسير ابن كثير باسم «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير»[1] الذي حذف فيه الأحاديث الضعيفة، والإسرائيليات غير الموثوق بها، والأقوال المتكررة، والأسانيد، والمباحث الكلامية الطويلة والفروع الفقهية، والمناقشات اللغوية واللفظية، وكل ذلك مع الإبقاء على محاسن الكتاب، ومواضع الجمال فيه.

---

(١) [وكان العلاَّمة محمد شاكر ينوي إخراجَ هذا الكتاب في صورته الأصلية محقَّقاً، مهذَّباً، منقَّحاً ومصَّححاً في طبعة علمية متقنة بعد فراغه من الاختصار، ولكن وافاه الأجلُ، فلم يُنشر من مختصره إلاَّ أقلُّ من نصف هذا التفسير الذي يساوي خمس مجلَّدات، بلغ فيها العلامةُ إلى الآية الثامنة عن سورة الأنفال، وهي توافق في طبعة الحلبي من التفسير ٢/ ٢٨٩].

٢ ـ البداية والنهاية:

وثاني كُتبه المهمَّة الذي نال قبولاً ، وإعجاباً لدى الأوساط العلمية كلِّها: «البداية والنهاية» الذي صدر من مصر عام ١٣٥١هـ في أربعة عشر مجلَّداً[١] وهو يحتوي ـ على عادة المؤرِّخين العرب ـ على التاريخ ، من أحداث بدء الخليقة إلى أحداث عام ٧٦٧ هـ.

والمعلومُ: أنَّ تاريخ العلامة ابن الأثير المعروف «بالكامل» ينتهي بأحداث عام ٦٢٨هـ فكان كتاب «البداية والنهاية» زيادةً عليه بأحداث وتاريخ قرن واحد وتسع وثلاثين سنة ، وإنَّ هذا العصر ذو أهمية بالغة من ناحية الأحداث التاريخية من جراء الهجوم التتاري ، وخطورة القرن الثامن الهجري ، فكان هذا الكتابُ لأجل ذلك ، ولِثقته ، وتفاصيله التاريخية مرجع أكثر المؤرِّخين.

تُوفِّي الحافظ ابن كثير في شعبان عام ٧٧٤هـ ودُفن بمقبرة الصوفية بدمشق[٢].

* * *

(١) [سيصدر من دار ابن كثير بدمشق طبعةٌ محقَّقةٌ لهذا الكتاب بغاية الدقة لأوَّل مرَّةٍ بإشراف العلاَّمة المحدِّث الشيخ عبد القادر الأرناؤوط].

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ: للحافظ شمس الدين أبي المحاسن الحسيني و«ذيل طبقات الحفاظ» للسيوطي.

الفصل الرابع

الحافِظُ ابنُ رَجب الحنبلي[١]

وترجَمتُه باختصار

هو عَبدُ الرحمن بن أحمدَ بن رجب ، ونَسَبُه هكذا: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود ، وكان موطنه الأصيل في بغداد ، حيث وُلد في ربيع الأول سنة ٧٣٦ هـ وفي عام ٧٤٤ هـ سافر إلى دمشق مع والده وهو صغيرٌ ، وسمع الحديث عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز عن إبراهيم بن العطار وغيرهما من شيوخ الحديث ، وروى الحديث في مصر عن أبي الفتح المَيْدُومي ، وأبي الحرم القَلانسي ، وغيرهما ، يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: إنه اشتغل بالحديث ، وأكثرَ روايته ، حتى بَرع في فَنِّ الحديث.

وقد تحدَّث عنه الحافظ أبو الفضل تقي الدين بن فهد المكِّي المتوفى سنة ٨٧١ هـ وقال في «لحظ الألحاظ» هامش «تذكرة الحفاظ»: «الإمام الحافظ الحجة ، والفقيه العُمدة ، أحد العلماء الزُّهاد ، والأئمة العباد ، مفيد

(١) على أنَّ الحافظ ابن رجب ليس تلميذ شيخ الإسلام عن طريق مباشر ، وقد وُلد بعد وفاته بثماني سنوات ، ولكنه تلميذ تلميذه النابغة الحافظ ابن القيِّم ومعجب بهما جميعاً ، وهو يعتبر من رجال شيخ الإسلام ، ومقلِّداً له في كل شيء سوى عدة مسائل.

المحدثين، وَاعظُ المسلمين» (١) ، وهو يُشيدُ بِه عندما يذكر ترجمته ، ويقول: «كان إمامَاً ورعاً زاهداً ، وضعَ الله حُبَّـه في القلوب ، أجمع الناسُ كلهم على صلاحه وفَضْلِه ، مجالسُ وعظِه عامةٌ ، وذات فائدة وتأثير كبيرين» (٢) .

ويقول الشِّهاب ابن الحجِّي عن فَضْلِه العلمي ، «كان مُحقِّقاً ذا بَصيرة فائقة في فن الحديث ، وكان أكثرَ معاصريه اطِّلاعاً على عِلل الحديث وطرقه ، وإنَّ أكثر علماء الحنابلة في عصرنا من تلاميذه».

تُوفِّي في رجب سنة ٧٩٥هـ ودفن في الباب الصغير بدمشق ، ويقال إنه جاء إلى حفَّارٍ فقال له: احفر لي هنا لَحْداً وأشار إلى بقعة ، قال الحفارُ: فحفرتُ له ، فنَزل فيه فأعجبه ، واضطجع ، وقال: هذا جيد ، فمات بعد أيام ، فدُفن فيه» (٣) .

مُولَّفاتُه:

ومِن مُؤلَّفاته:

شرح «لجامع الترمذي» في نحو عشرين مجلَّداً.

وشرح جزء من «صحيح البخاري» ، وكان قد سَمَّى شَرحه للبخاري «فتح الباري» ولكنه لم يكتمل وصل إلى كتاب الجنائز.

وذيل على «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (٤) .

وكتاب باسم «اللطائف في وظائف الأيام» بأسلوب الوعظ ، ويشتمل على الفوائد ، والقواعد الفقهية.

وشرح «الأربعين» للإمام النووي وكان يضم ٤٢ حديثاً فزاد إليها ثمانية

---

(١) لحظ الألحاظ: ص١٨٠.

(٢) المرجع السابق: ص ١٨١.

(٣) الدرر الكامنة: ج ٢ ، ص ٣٢٢.

(٤) توجد نسخة مخطوطة لهذا الكتاب في مكتبة ندوة العلماء بالهند، وقد صدر مطبوعاً في دمشق منذ سنوات.

أحاديث ، وقد صَدر هذا الشرح باسم «جامع العلوم والحِكم شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم» في عام ١٣٤٦ هـ من مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

وشرْحٌ مستقل آخر لحديث «ما ذئبان جائعان أُرْسِلا في غنم. . . إلخ»[(١)].

ورسالة «فضل علم السلف على الخلف» وقد طُبعت هذه الكتب الثلاثة الأخيرة ، ونالت رواجاً.

وتتجلى في مؤلفاته رُوح الحافظ ابن القيم الإصلاحية ، والدَّعوية ، وحَلاوةُ أسلوبه ، وطَلاوته.

وهناك عددٌ وجيهٌ من العلماء في القرن الثامن والتاسع عدا تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلاميذِ تلاميذه المذكورين ممن لا يُصرِّح التاريخ بأنهم تلاميذ مدرسة شيخ الإسلام؛ إلا أن مؤلفاتهم تنطق بأفكار شيخ الإسلام ، وروحه ، وعلمه ، ودعوته ، وسواء استفاد هؤلاء العلماء من تلاميذ شيخ الإسلام ومؤلفاته ، أم لم يستفيدوا ، ولكنهم لاتحاد ذوقهم ، وفِكرهم جديرون بالاعتبار في وَصْف تلاميذه ، والمتخرجين من مدرسته.

وأَخصُّ بالذكر من بين هذه الشخصيات مؤلِّف كتاب «الموافقات» البارع العلامة أبا إسحاق الشَّاطِبي (المتوفى ٧٩٠ هـ) الذي يبدو كتابه «الاعتصام» حَلْقة من هذه السلسلة الإصلاحية التي كان قد بدأها شيخُ الإسلام في عصره ، وهو كتاب جَيِّد في موضوع السنة والبدعة ، ويمتاز بموادِّه الغزيرة ، وبحوثه الأصولية.

* * *

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الزهد ، باب حديث «ما ذئبان جائعان. . .» برقم (٢٣٧٦) ، وابن حبان في الصحيح (١/ ٢٤) برقم (٣٢٢٨) ، والدارمي في السنن ، في كتاب الرقاق ، باب ما ذئبان جائعان ، برقم (٢٧٣٠) ، وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٦) برقم (١٥٨٢٢) وغيرهم من حديث ابن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه].



الفهارس العلمية



فهرس الآيات القرآنيّة

(٨) سورة الأنفال

(٩) سورة التوبة

(١٠) سورة يونس

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٣) سورة الرعد

(١٤) سورة إبراهيم

(٥٧) سورة الحديد

(٥٨) سورة المجادلة

(٥٩) سورة الحشر

(٦٧) سورة الملك

(٦٨) سورة القلم

(٧٢) سورة الجن

(٧٩) سورة النازعات

(٨٣) سورة المطففين

(٩٤) سورة الشرح

(٩٥) سورة التين

(١٠٨) سورة الكوثر

(١١٢) سورة الإخلاص

* * *

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث رقم الصفحة

ـ أ ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- ف -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- و -

- ي -

* * *

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

- خ -

- ر -

- ش -

- ص -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- م -

- هـ -

- ي -

فهرس القوافي

* * *

فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب

- ر -

- ز -

- س -

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

- م -

* * *

فهرس الأعلام

- غ -

- ف -

- ن -

* * *

فهرس الأمكنة والبقاع والبلدان

- ت -

- ث -

- ج -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ن -

- هـ -

- ي -

فهرس الموضوعات

* * *

SAVIOURS OF ISLAMIC SPIRIT

By: Sayyid Abul Hasan Ali Nadwi

Translated by: Dr.Sayid Azmi Nadwi and Salman Husaini Nadwi

«...الأستاذ أبو الحسن النّدوي.. هو عالمٌ مصلحٌ وداعيةٌ مخلصٌ، دأبَ منذ آتاه الله العلمَ، على الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه وبرحلاته الدعوية إلى أقطار العروبة والإسلام، وبجولاته الموفَّقة في ميادين الدعوة، حتى إنه اليوم ليُعدُّ من أبرز أعلام الإسلام والمصلحين، وله كتبه ومؤلفاته التي تتميَّز بالدقة العلمية وبالغوص العميق في تفهُّم أسرار الشريعة والتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي، ووسائل معالجتها، عدا ما يمتاز به من روح مشرقة وخلق نبويٍّ كريم ومعيشة تذكِّرك بعلماء السلف الصالح في زهده وتقشُّفه، وعبادته وكرامة نفسه».

وهذا الكتابُ صورةٌ واضحةٌ لأفكار الأستاذ النَّدوي وميوله الإصلاحية، وتفهُّمه العميق للتاريخ الإسلاميِّ، ولرُوح الإسلام الصافية المشرقة، وما عَلِقَ بها - في العصور الأخيرة - من غُبار وما أصابها من انحراف، وبذلك يَسُدُّ هذا الكتابُ ثغرةً في دراسة التاريخ الإسلاميِّ، - كنّا وما نزالُ نشعُرُ بالحاجة إليها - إذْ يتحدَّثُ عن تاريخ الإصلاح في حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية في فترات من تاريخ الإسلام في الماضي، كما يعرض لنا صُوَرًا واضحةً لأبْرز زعماء الإصلاح الإسلامي منذ العصر الأمويِّ...».

الداعية الفقيه، والصابر المجاهد



دمشق : ص.ب. 311

بيروت : ص.ب. 113/6318

www.ibn-katheer.com

info@ibn-katheer.com